

مكتبة
الشيخ
الشيخ

مكتبة
الشيخ
الشيخ





الهيئة العامة للكتاب والوثائق

الحياة على الدين

تصنيف

الإمام أبو حامد محمد بن محمد الغزالي
المتوفى في ٥٠٥ هـ

٠٩٠٦

وبذلك كتاب

المغنى عن حمل الأسفار في الأسفار

في تجميع ما في الاختيار من الأخبار

للمعلم زين الدين أبو الفضل عبد الرحيم بن الحسن الغزالي

المتوفى في ٥٠٥ هـ

وتماماً للنفع أقمنا بالكتاب في حقّه ثلاثة كتب:

الأول: تعريف الأحياء ببعض أئمة الإسلام، للمعلم عبد القادر بن شيخ بغداد

أبو شيخ بن عباد بن العبدوس بن علوي

الثاني: الإمداد عن إشكالات الإساءة للإمام الغزالي، ردّه على اعتراضات

أوردتها بعض المعاصرين له على بعض مواضع من الإحياء.

الثالث: عوارف المعارف، للعارف بالله تعالى الإمام الشهودي

الجزء الأول

ترجمة الإمام الغزالي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الهادي إلى الصواب . وأشهد أن لا إله إلا الله الكريم الوهاب ، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله من آتاه الله الحكمة وفصل الخطاب . اللهم صلى وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه ومن أحبا سنه إلى يوم الدين .

أما بعد : فهذه نبذة من تاريخ حياة الإمام الغزالي رحمه الله تعالى نوردناها ليعلم القارىء شيئاً عنه وبالله التوفيق هو الإمام الجليل ، محمد بن محمد بن أحمد أبو حامد الطوسي الغزالي ، حجة الإسلام . ومجته الدين التي ينوصل بها إلى دار السلام ، جامع أشنات العلوم ، والمبرز في المنقول منها والمفهوم . جرت الأئمة قبله لسأوا ما قنع منه بالفاية ، ولا وقف عند مطلب بل لم يبرح في دأب لا يقضى له نهاية ، حتى انحمل من الأقران كل خصم بلغ مبلغ السها ، وأخذ من نيران البدع كل ما لا تستطیع أيدي المجالدين مسها . كان رضى الله عنه ضرغاما إلا أن الأسود تتضامل لديه وتتوارى ، وبدراً تماماً إلا أن هده يشرق نهاراً ، وبشراً من الخلق إلا أنه الطود العظيم ، وبعض الناس ولكن مثل ما بعض الجداد الدر النظيم . . . جاء الناس إلى رد فرية الفلاسفة أخرج من الظلماء لمصابيح المناء . وأقفر من الجدباء إلى قطرات المناء ، فلم يزل يناضل عن الدين الحنيفي بجملاذ مقاله ، ويحمي حوزة الدين ولا ياطح بدم المعتدين حد نصاله ، حتى أصبح الدين وثيق العرى . وانكشفت غياهب الشبهات وما كانت إلا حديثاً مغترى .

هذا مع ورع طوى عليه ضميره ، وخولة لم يتخذ فيها غير الطاعة سميره ، ترك الدنيا وراء ظهره ، وأقبل على الآخرة مخلصاً لله في سره وجهره .

مولده

ولد بطوس سنة خمسين وأربع مائة ، وكان والده يغزل الصوف ويبيعه في دكان بطوس ، ولما حضرته الوفاة وصى به وبأخيه أحمد إلى صديق له متصوف من أهل الخير وقال له : إن لي لتأسفا عظيما على تسلم الخط وأشتهى استدراك ما فاتني في ولدي هذين فعلتهما ولا عليك أن ينفد في ذلك جميع ما أخلفه لهما . فلما مات أقبل الصوفي على تعليمهما إلى أن فنى ذلك النزر البسير الذي خلفه لهما أبوهما وتعثر على الصوفي

القيام بقرئتهما فقال لهما : اعلم أني قد أفقت عليكم ما كان لكما وأنا رجل من أهل الفقر والتجريد . ليس لي مال فأواسيكم به . وأصابع ما أرى لكما أن تاجاً إلى مدرسة كأنكم من طلبة العلم فيحصل لكما قوت يعينكم على وتكمكم ففعلوا ذلك وكان هو السبب في سعادتهما وعلو درجتهم . وكان الغزالي يحكي هذا ويقول : طلبنا العلم لغير الله فإني أن يكون إلا لله .

صفة والده

ويحكى أن أباه كان فقيراً صالحاً لا يأكل إلا من كسب يده في عمل غزل الصوف ويطوف على المتفقهة ويحاسبهم ويتوفر على خدمتهم ويجود في الإحسان إليهم . والنفقة بما يمكنه عليهم وأنه كان إذا سمع كلامهم بكى وتضرع وسأل الله أن يرزقه ولدًا ويعمله فقياً ويحضر مجالس الوعظ فإذا طاب وقته بكى وسأل الله أن يرزقه ولدًا واعظاً . فاستجاب الله دعوتيه .

أما أبو حامد فكان أفقر أقرانه ، وإمام أهل زمانه . وفارس ميدانه . كلمة شهد بها الموافق والمخالف ، وأقر بحقيقتها المعادي والمخالف .

وأما أحد فكان واعظاً تنفلق الصم عند استماع تحذيره . وترعد فرائص الحاضرين في مجالس تذكيره

تلقية العلوم

قرأ الغزالي رضي الله عنه في صباه طرفاً من الفقه ببلده على أحمد بن محمد الراذكاني ثم سافر إلى هرجان أبي نصر الإسماعيلي وعلق عنه التعليقة ثم رجع إلى طوس . قال الإمام أسعد الميمني فسمعته يقول : قطعت علينا الطريق وأخذ العيارون جميع مامعي ومضوا . فبعتهم . فالتفت إلى مقدمهم وقال : أرجع ويحك وإلا هلكت . فقلت له : أسألك بالذي ترجو فسلامة منه أن ترد علي تعليقتي فقط فما هي شيء تلتفعون به . فقال لي : وما هي تعليقتك ؟ فقلت : كتب في تلك المخلاة هاجرت لسباعها وكتابتها ومعركة عليها . فضحك وقال : كيف تدعي أنك عرفت عليها . وقد أخذناها منك فتجردت من معرفتها وبقيت بلا علم ثم أمر بعض أصحابه فسلم إلى المخلاة .

قال الغزالي رحمه الله : فقلت هذا مستنطق أنطقه الله ليرشدني به أمري . فلما وافيت طوس أقبلت على الاشتغال ثلاث سنين حتى حفظت جميع إماما علقته . وصرت بحيث لو قطع الطريق لم أتجرد من علمي . وقد روى هذه الحكاية عن الغزالي أيضاً الوزير نظام الملك كما هو مذكور في ترجمة نظام الملك من ذيل ابن السمعاني .

قدومه نيسابور وملازمته لإمام الحرمين

ثم إن الغزالي قدم نيسابور ولازم إمام الحرمين وجد واجتهد حتى برع المذهب والخلاف والأصليين والجدل والمنطق ؛ وقرأ الحكمة والفلسفة وأحكم كل ذلك ، وفهم كلام أرباب هذه العلوم ، وتصدى الرد عليهم وإبطال دعواهم . وصنف في كل فن من هذه العلوم كتباً أحسن تأليفها وأجاد وضعها وترصيفها

وكان رضى الله عنه شديد الذكاء بحسب الفطرة مفرط الإدراك ، بعيد الغور ، غواصاً على المعاني الدقيقة جبل علم مناظراً محججاً وكان إمام الحرمين يصف تلامذته فيقول : الغزالي بحر مفرق ، والكيا : أسد محرق ، والخوافي : نار تحرق .

زيارته للوزير نظام الملك

ثم لما مات إمام الحرمين خرج الغزالي إلى العسكر قاصداً للوزير نظام الملك ، وناظر الأئمة والعلماء في مجلسه وقهر الخصوم ، وظهر كلامه على الجميع ، واعترفوا بفضله ، وتلقاه صاحب التعميم والتبجيل ، وولاه تدريس مدرسته ببغداد . وأمره بالتوجه إليها ، فقدم بغداد في سنة أربع وثمانين وأربعمائة ودرس بالنظامية ، وأعجب الخلق حسن كلامه وكمال فضله وفضاحة لسانه ونسكته الدقيقة وإشاراته اللطيفة ، وأحبوه وأحلوه محل العين بل أعلى وقالوا أهلاً بمن أصبح لأجل المناصب أهلاً .

إقامته على التدريس

وأقام على التدريس وتعليم العلم مدة عظيم الجاه زائد الخمسة على الرتبة مشهور الإسم ، تضرب به الامثال وتشهد إليه الحال إلى أن شرفت نفسه عن رذائل الدنيا فرفض ما فيها من التقدم والجاه ، وترك كل ذلك وراء ظهره وقصد بيت الله الحرام ، فخرج وتوجه إلى الشام في ذي القعدة سنة ثمان وثمانين ، واستأنب أياه في التدريس وجاور بيت المقدس ، ثم عاد إلى دمشق واعتكف في زيارته بالجامع الأموي المعروفة اليوم بالغزالية نسبة إليه .

زهده وورعه

ولبس الثياب الخشنة ، وقلل طعامه وشرابه ، وأخذ في التصنيف للإحياء ، وصار يطوف المشاهد ، ويزور التراب والمساجد ، ويأوى إلى الفقار ، ويروض نفسه ويجاهدها جهاد الأبرار ، ويكلفها مشاق العبادات ، ويبلوها بأنواع القرب والطاعات ، إلى أن صار قطب الوجود ، والبركة العامة لكل موجود ، والطريق الموصل إلى رضا الرحمن .

تكلمه على لسان أهل الحقيقة

ثم رجع إلى بغداد وعقد بها مجلس الوعظ ، وتكلم على لسان أهل الحقيقة ، وحدث بكتاب الإحياء . قال ابن النجار : ولم يكن له أستاذ ولا طلب شيئاً من الحديث ، لم أر له إلا حديثاً واحداً سيأتى ذكره في هذا الكتاب — يعني تاريخه — قلت : ولم أره ذكر هذا الحديث بعد . وقد أخبرنا أبو الحافظ بحديث من حديثه أوردناه في الطبقات الكبرى .

ما شهد له به العلماء العاملون

قال الإمام محمد بن يحيى : الغزالي هو الشافعي الثاني : وقال أسعد الميني لا يصل إلى معرفة علم الغزالي

وفضله إلا من بلغ أو كاد يبلغ السكال في عقله وقال أبو عبد الله محمد بن يحيى بن عبد المنعم العبدري : رأيت بالاسكندرية فيما يرى النائم كأن الشمس طلعت من مغربها ، فعبر ذلك بعض المعبرين ببدة تحدث فيهم فوصلت بعد أيام والمركب بإحراق كتب الغزالي بالمرية .

توزيع أعماله على الأوقات

ثم إن الغزالي عاد إلى خراسان ودرس بالمدرسة النظامية بنيسابور مدة يسيرة . ثم رجع إلى طوس واتخذ إلى جانب داره مدرسة للفقهاء وعانقاه للصوفية ؛ ووزع أوقافه على وظائف من ختم القرآن ، ومجالسة أرباب القلوب والتدريس لطلبة العلم ، وإدامة الصلاة والصيام وسائر العبادات إلى أن انتقل إلى رحمة الله ورضوانه طيب الثناء ، أعلى منزلة من نجوم السماء ؛ وأهدى للأمة من البدر في الظلماء لا يغيضه إلا حاسد أو زنديق .

ما حصل لمبغضيه من البلاء

ولقد كان في نعر الاسكندرية من مدة قريبة أدركها أسياننا شخص يبغض الغزالي ويقتابه ، فرأى النبي ﷺ في المنام ؛ وأبو بكر وعمر رضي الله عنهما إلى جانبه ، وكان الغزالي واقف بين يديه وهو يقول : يا رسول الله هذا - يعنى الراى - يشككم في يؤذيني قال : فقال النبي صلى الله عليه وسلم : هاتوا السباط . وأمر به فضرب بين يديه لأجل الغزالي وقام هذا الرجل من النوم وأثر السباط على ظهره .

مصنفاته رضى الله عنه

ومن تصانيف الغزالي : البسيط ، والوسيط ، والوجيز ، والخلاصة ، والمستصنى ، والمنخول ، وتحصين الأدلة ، وشفاء العليل ، والأسماء الحسنى ، والرد على الباطنية ، ومنهاج العابدين وإحياء علوم الدين . وغير ذلك من التصانيف .

وفاته رحمه الله تعالى

توفي بطوس يوم الاثنين رابع عشر جمادى الآخرة سنة خمس وخمسمائة ، ولو أردنا استيعاب ترجمته لطال الشرح وفيما أوردناه مقتع وبلاغ .

ترجمة الإمام العراقي

وإليك ترجمة الإمام العراقي مخرج أحاديث الإحياء :

قال الإمام الحافظ السيوطي في كتابه حسن المحاضرة في باب ذكر من كان بمصر من حفاظ الحديث ونقاده:

العراقي هو الإمام الكبير الحافظ زين الدين أبو الفضل عبد الرحيم ابن الحسين بن عبد الرحمن حافظ العصر ، ولد بملشاة المهراني بين مصر والقاهرة في جمادى الأولى سنة خمس وعشرين وسبعمائة ، اوعى بالفن وتقدم فيه بحيث كان شيوخ عصره يبالغون في الثناء عليه بالمعرفة . كالسبكي والعلائي وابن كثير وغيرهم . ونقل عنه الإسنوي في المهمات ووصفه بحافظ العصر . وكذلك وصفه في الترجمة ابن سيد الناس .

وله مؤلفات في الفن بديعة كالآلفية التي اشتهرت في الأفاق وشرحها ، ونظم الاقتراح ، وتخرج أحاديث الإحياء . وهو الذي بين يدي القاري " . وتكملة شرح الترمذي لابن سيد الناس .

وشرع في إملاء الحديث من سنة ست وتسعين فأحيا الله تعالى به سنة الإملاء بعد أن كانت دائرة فأملى أكثر من أربعمائة مجلس ، وكان صالحاً متواضعاً ضيق المعيشة . مات في ثامن شعبان سنة ست وثمانمائة ورواه تلميذه الحافظ ابن حجر العسقلاني بقصيدة غراء فالظرها هناك .

بسم الله الرحمن الرحيم

أحمد الله أولاً ، حمداً كثيراً متواظلاً ؛ وإن كان يتضاد دون حق جلالة حمد الحامدين .
وأصل وأسلم على رسله ثانياً صلاة تستغرق مع سيد البشر سائر المرسلين .
وأستخيرهم تعالى ثالثاً فيما أنبهت عزمي من تحرير كتاب في إحياء علوم الدين .
وأنتدب لقطع تمجيدك رابعاً أبها العادل المتفاني في العدل من بين زمرة الجاحدين ، المرف في التفرغ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذي أحيا علوم الدين فأينعت بعد اضمحلالها ، وأعيا فبرم المالحدين عن دركها فرجعت بكلاهما ،
أحمد وأستكين له من مظالم أنقضت الظهور بأثقالها ؛ وأعبده وأستعين به لعصام الأمور وعصاها ، وأشهد
أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة وافية بمحصول الدرجات وظلالها ؛ وأقينة من حلول الدركات وأهوالها ،
وأشهد أن محمداً عبده ورسوله الذي أطلع به لجر الإيمان من ظلة القلوب وضلالها ، وأسمع به وفر الآذان وجلا به
زين القلوب بصفاها ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم صلاة لا تقاطع لاتصالها .
وبعد : فلما وفق الله تعالى لإكمال الكلام على أحاديث ، إحياء علوم الدين ، في ستة إحدى وخمسين تعذر الوقوف
على بعض أحاديثه فأخرت بربيعته إلى ستة ستين فظفرت بكثير مما عرب عن عليه ثم شرعت في بربيعته في مصنف
متوسط حجمه وأنا مع ذلك متبالي في إكمالها غير متعزز لتركها وإكمالها إلى أن ظفرت بأكثر مما كنت لم أظف
عليه وتكرر السؤال من جماعة في إكمالها فأجبت وبأدوت إليه ولكنني اختصرته في غاية الاختصار ليسهل تحصيله
وحله في الأسفار فانتصرت فيه على ذكر طرف الحديث ومحاياه ومخرجه وبيان صحته أو حسنه أو ضعف مخرجه
فإن ذلك هو المقصود الأعظم عند أبناء الآخرة بل وعند كثير من المحدثين عند المذاكرة والمناظرة وأبين ما ليس له
أصل في كتب الأصول ، والله أسأل أن ينفع به إنه خير مشور .

فإن كان الحديث في الصحيحين أو أحدهما اكتفيت بعزوه إليه ولا عزوته إلى من أخرجه من بقية السنة
وحيث كان في أحد الستة لم أعزه إلى غيرها إلا لغرض صحيح بأن يكون في كتاب التزم مخرجه الصحة أو يكون
أقرب إلى لفظه في الإحياء وحيثكرر المصنف ذكر الحديث ، فإن كان في باب واحد منه اكتفيت بذلك أول
مرة وربما ذكرته فيه ثانياً وثالثاً لغرض أو لذهول عن كونه تقدم ، وإن كرهه في باب آخر ذكرته ونهيت على أنه
قد تقدم وربما لم أنه على تقدمه لذهول عنه ، وحيث عزوت الحديث لمن أخرجه من الأئمة فلا أرب ذلك اللفظ
بعبته بل قد يكون باللفظ وقد يكون ببناءه أو باختلاف على قاعدة المستخرجات ، وحيث لم أجد ذلك الحديث ذكرت
ما ينفي عنه غالباً وربما لم أذكره . وصحيت :

المعنى عن حل الأسفار في الأسفار : في تخرج ما في الإحياء من الأخبار

جملة الله عالماً لوجهه الكريم ووسيلة إلى التعميم المقيم .

والإنكار من بين طبقات المشركين العاقبين ؛ فلقد حل عن لسان عقدة الصمت وطوقى عقدة الكلام وفلادة التلق : ما أنت مثابر عليه من المعنى عن جليلة الحق ، مع اللجاج في نصرة الباطل وتحسين الجهل ، والتشبيب على من آثر النزوع قليلا عن مراسم الحق ومال ميلا يسيراً عن ملازمة الرسم إلى العمل بمقتضى العلم طمعاً في نيل ما يقبده الله تعالى به من تزكية النفس وإصلاح القلب ، وتدارك أبيض ما فرط من إضاعة العمر بالأسى عن تمام حاجتك في الحيرة وانحيازاً عن غمار من قال فيهم صاحب الشرع صلوات الله عليه وسلامه ، أشد الناس عذاباً يوم القيامة عالم لم ينفعه الله سبحانه بعلمه ^(١) ، ولم يمرى أنه لا سبب لإصرارك على التكبر إلا الداء الذي عم الجسم الفغير بل شمل الجماهير من القصور عن ملاحظة ذروة هذا الأمر والجهل بأن الأمر إذً والحطوب جد والآخره مقبلة والدنيا مدبرة والأجل قريب والسفر بعيد والزاد طفيف والخطر عظيم والطريق سد ، وما سوى الخالص لوجه الله من العلم والعمل عند التألف البصير رذً وسلك طريق الآخرة مع كثرة الفوائل من غير دليل ولا رفيق متمتع ومكث : فآدلة الطريق هم العلماء الذين هم ورة الأنبياء ، وقد شفر منهم الزمان ولم يبق إلا المترسمون وقد استحوذ على أكثرهم الشيطان واستغواهم الطغيان ، وأصبح كل واحد يعاجل خطه مشغولاً ، فصار يرى المدورف منكراً والمتكر ممرولاً حتى ظل علم الدين مندرساً ، ومثار الهدى في أنظار الأرض منطلساً ، ولقد خيلوا إلى الخلق أن لا علم إلا فتوى حكومة تستعين به الفتنة على فصل الخصام عند تهاوش الطعام ، أو جدل يتدرب به طالب المباحة إلى الغلبة والإلحاح أو جمع مزخرف يتوسل به الواعظ إلى استدراج العوام ، إذ لم يروا ما سسوى هذه الثلاثة مصيدة للحرام وشبكة للحطام .

فأما علم طريق الآخرة وما درج عليه السلف الصالح سماه الله سبحانه في كتابه : فقها وحكمة وعلماء وضياء ونوراً وهداية ورشداً ، فقد أصبح من بين الخلق مطلوباً وصار نسبياً منسياً .

ولما كان هذا لنا في الدين ملأً وخطباً مدلهماً ، رأيت الاشتغال بتحرير هذا الكتاب مهياً ، لإحياء لعلوم الدين ، وكشفنا عن مناهج الأئمة المتقدمين ، وإيضاحاً لمباهى العلوم الثاقفة عند التبيين والسلف الصالحين .

وقد أسست على أربعة أرباع وهي : ربيع العبادات ، وربع العادات ، وربع المهلكات ، وربع المنجيات .
وصدرت المجلة بكتاب العلم لأنه غاية المهم لا كشف أولاً عن العلم الذي تعبد الله على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم الأعيان بعلمه ، إذ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «طلب العلم فريضة على كل مسلم» ^(٢) ، وأميز فيه العلم النافع من الضار ، إذ قال صلى الله عليه وسلم «نعمذ بالله من علم لا ينفع» ^(٣) ، وأحقق ميل أهل العصر عن شاكلة الصواب ، وانخداعهم بلامع السراب ، واقتناعهم من العلوم بالقشر عن اللباب .

ويشمل ربيع العبادات على عشرة كتب :

كتاب العلم ، وكتاب قواعد العقائد ، وكتاب أسرار الطهارة ، وكتاب أسرار الصلاة ، وكتاب أسرار الزكاة ، وكتاب أسرار الصيام ، وكتاب أسرار الحج ، وكتاب آداب تلاوة القرآن ، وكتاب الأذكار والدعوات ، وكتاب ترتيب الأوراد في الأوقات .

أحاديث الخطبة

(١) حديث «أشد الناس عذاباً يوم القيامة عالم لم ينفعه الله بعلمه» رواه المايراني في الصغير والبيهقي في شعب الإيمان من حديث أبي هريرة بإسناد ضعيف (٢) حديث «طلب العلم فريضة على كل مسلم» رواه ابن ماجه من حديث أنس وضعفه أحد والبيهقي وغيرهما (٣) حديث «نعمذ بالله من علم لا ينفع» رواه ابن ماجه من حديث جابر بإسناد حسن .

وأما ربيع العبادات فيشتمل على عشرة كتب :

كتاب آداب الأكل ، وكتاب آداب التكاح ، وكتاب أحكام الكسب ، وكتاب الحلال والحرام ، وكتاب آداب الصحة والمعاينة مع أصناف الخلق ، وكتاب العزلة ، وكتاب آداب السفر ، وكتاب الهيام والوجد ، وكتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وكتاب آداب الميضة وأخلاق التوبة .

وأما ربيع المهلكات فيشتمل على عشرة كتب :

كتاب شرح عجائب القلب ، وكتاب رياضة النفس ، وكتاب آفات الشهوتين : شهوة البطن وشهوة الفرج ، وكتاب آفات اللسان ، وكتاب آفات الغضب والحقد والحسد ، وكتاب ذم الدنيا ، وكتاب ذم المال والبخل ، وكتاب ذم الجاه والرياء ، وكتاب ذم الكبر والعجب ، وكتاب ذم الغرور .

وأما ربيع المنجيات فيشتمل على عشرة كتب :

كتاب التوبة ، وكتاب الصبر والشكر ، وكتاب الخوف والرجاء ، وكتاب الفقر والرمد ، وكتاب التوحيد والتوكل ، وكتاب محبة والشوق والأنس والرضا ، وكتاب النية والصدق والإخلاص ، وكتاب المرافقة والمحاسبة ، وكتاب التفكير ، وكتاب ذكر الموت .

فأما ربيع العبادات فأذكر فيه من خفايا آدابها ودقائق سننها وأسرار معانيها ما يضطر العالم العامل إليه ، بل لا يكون من علماء الآخرة من لا يطلع عليه ، وأكثر ذلك مما أهمل في فن الفقهاء .

وأما ربيع العبادات فأذكر فيه أسرار المعاملات الجارية بين الخلق وأغوارها ودقائق سننها وخفايا الورع في مجاريها وهي ما لا يستغنى عنها متدين .

وأما ربيع المهلكات فأذكر فيه كل خلق مذموم ورد القرآن بإماتته وتركبة النفس عنه وتطهير القلب منه ، وأذكر من كل واحد من تلك الأخلاق حده وحقيقته ، ثم أذكر سببه الذي منه يتولد ، ثم الآفات التي عليها ترمب ثم العلامات التي بها تتعرف ، ثم طرق المعالجة التي بها ينخلص ، كل ذلك مرفوعاً بشواهد الآيات والأخبار والآثار .

وأما ربيع المنجيات فأذكر فيه كل خلق محمود وخصلة مرغوب فيها من خصال المقربين والصادقين التي بها يتقرب العبد من رب العالمين وأذكر في كل خصلة حدها وحقيقتها وسببها الذي به تجتلب وتثمرتها التي منها تستفاد وعلامتها التي بها تتعرف ونفسياتها التي لأجلها فيها يرغب مع ما ورد فيها من شواهد الشرع والعقل ؛ ولقد صف الناس في بعض هذه المعاني كثيراً ، ولكن يتعين هذا الكتاب عنها بخمسة أمور (الأول) حل ما عذوه وكشف ما أجهله (الثاني) ترتيب ما بدوده ونظم ما فرقوه (الثالث) إيجاز ما طوله وضبط ما فرقوه (الرابع) حذف ما كرروه وإثبات ما حرروه (الخامس) تحقيق أمور فاضلة اعتاصت على الأقدام لم يتعرض لها في الكتب أصلاً إذ الكل وإن تواردوا على منبج واحد فلا مستفكر أن يتفرد كل واحد من السالكين بالتنبيه لأمر يخصه ويغفل عنه ويقاؤه ، أو لا يغفل عن التنبيه ولكن يسبو عن إرداده في الكتب ، أو لا يسبو ولكن يصرفه عن كشف الغطاء عنه صارف ؛ فهذه خواص هذا الكتاب مع كونه حاوياً لمجامع هذه العلوم .

ولما حلني على تأسيس هذا الكتاب على أربعة أرباع أسرار : أحدها - وهو الباعث الأصلي - أن هذا الترتيب في التحقيق والتفهم كالضرورة لأن العلم الذي يتوجه به إلى الآخرة ينقسم إلى علم المعاملة وعلم المكاشفة ، وأغنى

بعلم المكاشفة ما يطلب منه كشف المعلوم فقط ، وأخى بعلم المعاملة ما يطلب منه مع الكشف العمل به والمقصود من هذا الكتاب علم المعاملة فقط دون علم المكاشفة التي لارخصة في إيداعها الكتب وإن كانت هي غاية مزمع الطالبين ومطعم نظر الصديقين ، وعلم المعاملة طريق إليه وإن لم يتكلم الأنبياء صلوات الله عليهم مع الخلق إلا في علم الطريق والإرشاد إليه . وأما علم المكاشفة فلم يتكلموا فيه إلا بالرمز والإيماء على سبيل التثليل والإيجال ، علماً منهم بقصور أفهام الخلق عن الاحتمال - والملاءمة ورمزاً لأنبياء - قال لهم سجيل إلى المدون عن نهج التأسي والافتداء ثم إن علم المعاملة ينقسم إلى علم ظاهر ، أعنى العلم بأعمال الجوارح - وإلى علم باطن - أعنى العلم بأعمال القلوب والجاري على الجوارح إما عادة وإما عبادة ، والوارد على القلوب التي هي بحكم الاحتجاب عن الحواس من عالم المكنوت إما محمود وإما مذموم فبالواجب انقسم هذا العلم إلى شطرين ظاهر وباطن والشرط الظاهر المتعلق بالجوارح انقسم إلى عادة وعبادة ، والشرط الباطن المتعلق بأحوال القلب وأخلاق النفس انقسم إلى مذموم ومحمود ، فكان المجموع أربعة أقسام ولا يشذ نظر في علم المعاملة عن هذه الأقسام . الباعث الثاني . أتى رايث الرغبة من طلبة العلم صادقة في الفقه الذي صلح عند من لا يخاف الله سبحانه وتعالى المتدرع به إلى المياعة والاستظهار بمجاهة ومزلة في المناقشات وهو مربع على أربعة أرباع والمتزني يرى المحبوب محبوب فلم أبعد أن يكون قصور الكتاب بصورة الفقه تلطفاً في استدراج القلوب ولهذا تلتفت بعض من رام استيالة قلوب الرؤساء إلى الطب فوضعه على هيئة تقويم النجوم موضوعاً في الجدول والرقوم وسماه تقويم الصحة ليكون أنسبهم بذلك المجلس جاذباً لهم إلى المطالعة والتأطاف في اجتذاب القلوب إلى العلم الذي يفيد حياة الأبد أهم من التلطف في اجتذابها إلى الطب الذي لا يفيد إلا صحة الجسد ، فذمرة هذا العلم طب القلوب والأرواح المتوصل به إلى حياة ممدوم أبد الآباد ، فأين منه الطب الذي يعالج به الأجساد وهي معرضة بالضرورة للفساد في أقرب الآماد ؟ ففسأل الله سبحانه التوفيق للرشد والساد ، إنه كريم جواد .

كتاب العلم

وفيه سبعة أبواب

(الباب الأول) في فضل العلم والتعليم والتعلم (الباب الثاني) في فرض العيين وفرض الكفاية من العلوم وبيان حد الفقه والكلام من علم الدين وبيان علم الآخرة وعلم الدنيا (الباب الثالث) فيما تعداه العامة من علوم الدين وليس منه ، وفيه بيان جنس العلم المذموم وقدره (الباب الرابع) في آفات المناظرة وسبب اشتغال الناس بالخلاف والمجدل (الباب الخامس) في آداب المعلم والمتعلم (الباب السادس) في آفات العلم والعلماء والعلامات الفارقة بين علماء الدنيا والآخرة (الباب السابع) في النقل وفضله وأقسامه وما جاء فيه من الاختيار .

الباب الأول

في فضل العلم والتعليم والتعلم وشواهد من النقل والعقل

فضيلة العلم

شواهد من القرآن قوله عز وجل (شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط) فانظر

كيف بدأ سبحانه وتعالى نفسه وثني بالملك والملك بأهل العلم ! وتعالى هنا شرفاً وفضلاً وجلالاً ونبلاً . وقال الله تعالى ﴿ يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما : للعلماء درجات فرق المؤمنين بسبعة درجة ما بين الدرجتين مسيرة خمسمائة عام . وقال عز وجل ﴿ قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون ﴾ وقال تعالى ﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماء ﴾ وقال تعالى ﴿ قل كفى بالله شيداً بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب ﴾ وقال تعالى ﴿ قال الذي عنده علم من الكتاب أنا آتيتك به ﴾ تنبيهاً على أنه اقتدر بقوة العلم . وقال عز وجل ﴿ وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحاً ﴾ بين أن عظم قدر الآخرة يعلم بالعلم . وقال تعالى ﴿ وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون ﴾ وقال تعالى ﴿ ولو رده إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم ﴾ رد حكمه في الواقع إلى استنباطهم والحق رتبهم رتبة الأنبياء في كشف حكم الله . وقيل في قوله تعالى ﴿ يا أيها آدم قد أنزلنا عليك لباساً يوارى سوءاتكم ﴾ يعني العلم - وريشاً - يعني اليقين - ولباس التقوى - يعني الحياء . وقال عز وجل ﴿ ولقد جئناكم بكتاب ففصلناه على علم ﴾ وقال تعالى ﴿ فلنقص عليهم بعلم ﴾ وقال عز وجل ﴿ بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم ﴾ وقال تعالى ﴿ خلق الإنسان على البيان ﴾ وإنما ذكر ذلك في مرضي الامتحان . وأما الأخبار فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين ويلبسه وشده ^(١) . وقال صلى الله عليه وسلم : العلماء ورثة الأنبياء ^(٢) . ومعلوم أنه لارتبة فوق النبوة ولا شرف فوق شرف الوراثة لتلك الرتبة . وقال صلى الله عليه وسلم : يستغفر العالم ما في السموات والأرض ^(٣) وأي منصب يريد على منصب من تشغل ملائكة السموات والأرض بالاستغفار له . وقال صلى الله عليه وسلم : إن الحكمة تزيد الشرف شرفاً وترفع الملوكة حتى يدرك مدارك الملوك ^(٤) . وقد نبه بهذا على ثمراته في الدنيا ، ومعلوم أن الآخرة خير وأبقى . وقال صلى الله عليه وسلم : دخلتان لا يكونان في منافق : حسن سمع وفقه في الدين ^(٥) ولا تشكن في الحديث لتفان بعض فقهاء الزمان ، فإنه ما أراد به الفقه الذي ظننته ، وسيأتي معنى الفقه . وأدنى درجات الفقيه أن يعلم أن الآخرة خير من الدنيا ، وهذه المعرفة إذا صدقت وغلبيت عليه برئ بها من التفان والرياء . وقال صلى الله عليه وسلم : أفضل الناس المؤمن العالم الذي إن احتجج إليه نفع وإن استغنى عنه أغنى نفسه ^(٦) . وقال صلى الله عليه وسلم : أفرح الناس من درجة النبوة أهل العلم والجهاد : أما أهل العلم فقلوا الناس على ما جاءت به الرسل ، وأما أهل الجهاد فلهذا بدأ بأسيافهم

كتاب العلم : الباب الأول

- (١) حديث (من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين ويلبسه وشده) معلق عليه من حديث مطوية دون قوله (ويلبسه وشده) وهذه الزيادة عند الطبراني في الكبير .
 (٢) حديث (العلماء ورثة الأنبياء) أخرجه أبو داود والترمذي وابن ماجه وابن حبان في صحيحه من حديث أبي هريرة .
 (٣) حديث (يستغفر العالم ما في السموات والأرض) هو بعض حديث أبي هريرة المتقدم .
 (٤) الحديث (الحكمة تزيد الشرف شرفاً ... الحديث) أخرجه أبو داود في المانية ، وابن عبد البر في بيان العلم ، وعبد الله الأزد في آداب المحدث من حديث أنس بإسناد ضعيف .
 (٥) حديث (دخلتان لا يكونان في منافق ... الحديث) أخرجه الترمذي من حديث أبي هريرة وقال حديث غريب .
 (٦) حديث (أفضل الناس المؤمن العالم ... الحديث) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان موقوفاً على أبي هريرة بإسناد ضعيف ولم أره مرفوعاً .
 (٧) حديث (الإيمان عريان ... الحديث) أخرجه الحاكم في المستدرج في صحيحه بإسناد ضعيف .

على ما جاءت به الرسل^(١) . وقال صلى الله عليه وسلم : « لوت قبيلة أيسر من موت عالم^(٢) » ، وقال عليه الصلاة والسلام : « الناس معادن كمدان الذهب والفضة ، غيارهم في الجاهلية خيائهم في الإسلام إذا فتبوا »^(٣) ، وقال صلى الله عليه وسلم : « يوزن يوم القيامة مداد الدماء بدم الشهداء^(٤) » ، وقال صلى الله عليه وسلم : « من حفظ على أمي أربعين حديثاً من السنة حتى يؤديها إليهم كنت له شفيعاً وشييداً يوم القيامة^(٥) » ، وقال صلى الله عليه وسلم : « من حل من أمي أربعين حديثاً لقي الله عز وجل يوم القيامة فتبها عالماً^(٦) » ، وقال صلى الله عليه وسلم : « من تفقه في دين الله عز وجل كفاه الله تعالى ما أهله ووزقه من حيث لا يحتسب^(٧) » ، وقال صلى الله عليه وسلم : « أوحى الله عز وجل إلى إبراهيم عليه السلام : يا إبراهيم إني علمي أحب كل علم^(٨) » ، وقال صلى الله عليه وسلم : « العالم أمين الله سبحانه في الأرض^(٩) » ، وقال صلى الله عليه وسلم : « صفان من أمي إذا صلحوا صلح الناس وإذا فسدوا فسدت الناس : الأمراء والفقهاء^(١٠) » ، وقال عليه السلام : « إذا أتى علي يوم لا لأزداد فيه علماً يقتربني إلى الله عز وجل فلا يورك لي في طلوع شمس ذلك اليوم^(١١) » ، وقال صلى الله عليه وسلم في تفضيل العلم على العبادة والشهادة : « فضل العالم على العابد كفضل شمس ذلك اليوم^(١٢) » ، فانهظر كيف جعل العلم مقارناً لدرجة الثقة وكيف حظ رتبة العمل المجتهد عن العلم وإن كان العابد لا ينال عن علم بالعبادة التي يواظب عليها ولولاه لم تكن عبادة ؟ وقال صلى الله عليه وسلم : « فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب^(١٣) » ، وقال صلى الله عليه وسلم : « يشفع يوم القيامة ثلاثة : الأنبياء ثم العلماء ثم الشهداء^(١٤) » ، فأعظم مجرمية هي تلو الثبوت وفوق الشهادة مع ما ورد في فضل الشهادة . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما عبد الله تعالى بشيء أفضل من فقه في الدين ، ولقبي واحد أشد على الشيطان من ألف عابد ، ولكل شيء عماد وعماد هذا الدين الفقه^(١٥) » ، وقال صلى الله عليه وسلم : « خير دينكم أيسره وخير العبادة الفقه^(١٦) » ، وقال صلى الله عليه وسلم : « فضل المؤمن العالم على

- (١) حديث « أقرب الناس من درجة الثبوت أهل العلم والجهاد ... الحديث » أخرجه أبو نعيم في فضل العالم العفيف من حديث ابن عباس بإسناد ضعيف (٢) حديث « لوت قبيلة أيسر من موت عالم » أخرجه الطبراني وابن عبد البر من حديث أبي الفداء ، وأصل الحديث عند أبي الفداء (٣) حديث « الناس معادن ... الحديث » متفق عليه من حديث أبي هريرة .
- (٤) حديث « يوزن يوم القيامة مداد الدماء ودماء الشهداء » أخرجه ابن عبد البر من حديث أبي الفداء بإسناد ضعيف .
- (٥) حديث « من حفظ على أمي أربعين حديثاً من السنة حتى يؤديها إليهم كنت له شفيعاً وشييداً يوم القيامة » أخرجه ابن عبد البر في العلم من حديث ابن عمر ووضعه (٦) حديث « من حل من أمي أربعين حديثاً لقي الله يوم القيامة فتبها عالماً » أخرجه ابن عبد البر من حديث ابن عمر ووضعه (٧) حديث « من تفقه في دين الله كفاه الله همه .. الحديث » رواه الخطيب في التاريخ من حديث عبد الله بن جابر الزبدي بإسناد ضعيف (٨) حديث « أوحى الله إلى إبراهيم بإبراهيم إني علمي أحب كل علم » ذكر . ابن عبد البر كلياً ولم انظر له بإسناد (٩) حديث « العالم أمين الله في الأرض » أخرجه ابن عبد البر من حديث معاذ بن عبد الله بن عمرو بن لؤي (١٠) حديث « صفان من أمي إذا صلحوا صلح الناس .. الحديث » أخرجه ابن عبد البر وأبو نعيم من حديث ابن عباس بإسناد ضعيف (١١) حديث « إذا أتى علي يوم لا لأزداد فيه علماً يقتربني ... الحديث » أخرجه الطبراني في الأوسط وأبو نعيم في الحية وابن عبد البر في العلم من حديث عائشة بإسناد ضعيف (١٢) حديث « فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب » أخرجه أبو داود والترمذي والنسائي وابن حبان ، وهو لفظة من حديث أبي الفداء المتقدم (١٣) حديث « يشفع يوم القيامة الأنبياء ثم العلماء ثم الشهداء » رواه ابن ماجه من حديث عثمان بن عفان بإسناد ضعيف (١٤) حديث « ما عبد الله بشيء أفضل من فقه في الدين ... الحديث » رواه الطبراني في الأوسط ، وأبو بكر الأيجري في كتاب فضل العلم ، وأبو نعيم في روضة المتقين من حديث أبي هريرة بإسناد ضعيف . وعند الترمذي وابن ماجه من حديث ابن عباس بإسناد ضعيف « فقيه أشد على الشيطان من ألف عابد » (١٥) حديث « خير دينكم أيسره وأفضل العبادة الفقه » أخرجه ابن عبد البر من حديث أبي إسحاق بإسناد جيد ، والخطيب الثاني عند الطبراني من حديث ابن عمر بإسناد جيد

المؤمن العابد بسبعين درجة^(١) ، وقال صلى الله عليه وسلم : إنكم أصبحتم في زمن كثير فقهاؤه قليل قرائه وخطباؤه قليل سائلوه كثير معطوه ، العمل فيه خير من العلم . وسيأتي على الناس زمان قليل فقهاؤه كثير خطباؤه قليل معطوه كثير سائلوه ، العلم فيه خير من العمل^(٢) ، وقال صلى الله عليه وسلم : بين العلم والعابد مائة درجة بين كل درجتين حضرا الجواد المذمور سبعين سنة^(٣) ، وقيل : يا رسول الله ، أى الأعمال أفضل ؟ فقال : العلم بالله عز وجل ، فقيل : أى العلم تريد ؟ قال صلى الله عليه وسلم : العلم بالله سبحانه ، فقيل له : نسأل عن العمل ونعجب عن العلم ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : إن قليل العمل ينفع مع العلم بالله ، وإن كثير العمل لا ينفع مع الجهل بالله^(٤) ، وقال صلى الله عليه وسلم : يبعث الله سبحانه العباد يوم القيامة ثم يبعث العلماء ثم يقول : يا معشر العلماء ، إنى لم أضع على فيكم إلا لدن بكم ولم أضع على فيكم إلا عذبك ، اذهبوا فقد غفرت لكم^(٥) ، فسأل الله حسن الخاتمة . وأما الآثار فقد قال على بن أبى طالب رضى الله عنه لـ أكمل : يا أكمل ، العلم خير من المال ، العلم يحرسك وأنت تحرس المال ، والمعلم حاكم والمال محكوم عليه ، والمال تنقصه الشقة ، والعلم يزكو بالإنفاق . وقال على أيضا رضى الله عنه : العالم أفضل من الصائم القائم المجاهد ، وإذا مات العالم فلم في الإسلام ملأه لا يسدها إلا خلف منه وقال رضى الله عنه نظما :

ما الفخر إلا لأهل العلم لأنهم على الهدى لمن استهدى أدلاء

وقدر كل امرئ ما كان يحسنه والجاهلون لأهل العلم أعداء

ففر بعلم تمش حيا به أبدا الناس مرق وأهل العلم أسياء

وقال أبو الأسود : ليس شيء أعز من العلم ، الملوك حكام على الناس والعلماء حكام على الملوك وقال ابن عباس رضى الله عنهما : خير سليمان بن داود عليهما السلام بين العلم والمال والمالك فاختار العلم فأعطى المال والمالك منه ، وسئل ابن المبارك : من الناس ؟ فقال : العلماء . قيل : فمن الملوك ؟ قال : الزهاد . قيل : فمن السلف ؟ قال : الذين يأكلون الدنيا بالدين ولم يجعل غير العلم من الناس لأن الخاصية التي يتميز بها الناس عن سائر البهائم هو العلم ؟ فالإنسان إنسان بما هو شريف لأجله ، وليس ذلك بقوة محضه ، فإن الجمل أقوى منه ، ولا بدله فإن القيل أعظم منه ، ولا يشجاعته فإن السبع أشجع منه ، ولا يأكله فإن الثور أوسع بطناً منه ، ولا يجامع فإن أخص الصافير أقوى على السفاد منه ، بل لم يخلق إلا للعلم . وقال بعض العلماء : ليت شعري أى شيء أدرك من فاته العلم ، وأى شيء فاته من أدرك العلم . وقال عليه الصلاة والسلام : من أوقى القرآن فرأى أن أحدا أوقى خيرا منه فقد حقر ما عظم الله تعالى ، وقال فتح الموصلى رحمه الله : أليس المريض إذا منع الطعام والشراب والدواء يموت ؟ قالوا : بلى قال : كذلك القلب إذا منع عنه الحكمة والعلم ثلاثة أيام يموت . ولقد صدق فإن غذاء القلب العلم والحكمة وبهما حياته ، كما أن غذاء الجسد الطعام ، ومن فقد العلم فقلبه مريض وموته لازم ولكنه لا يشعر به ؛ إذ حب الدنيا

(١) حديث (فضل المؤمن العالم على المؤمن العابد بسبعين درجة) . أخرجه ابن عدى من حديث أبى هريرة بإسناد ضعيف ولا يلى إلى نحوه من حديث عبد البر بن عوف . (٢) حديث (إنكم أصبحتم في زمان كثير فقهاؤه ... الحديث) أخرجه الطبراني من حديث حزام بن حكيم عن عمه ، وقيل عن أبيه وإسناده ضعيف . (٣) حديث (بين العالم والعابد مائة درجة) الأسطغانى في الترهيب والترهيب من حديث ابن عمر عن أبيه وقال (سبعون درجة) بسند ضعيف ، وكذا رواه صاحب مسند الفردوس من حديث أبى هريرة . (٤) حديث (ليل يا رسول الله أى الأعمال أفضل فقال العلم بالله ... الحديث) أخرجه ابن عبد البر من حديث أسى بسند ضعيف . (٥) حديث (يبعث الله العباد يوم القيامة ثم يبعث العلماء ... الحديث) رواه الطبراني من حديث أبى موسى بسند ضعيف .

وشبهه بها أبطل إحساسه ؛ كما أن غلبة الخوف قد تبطل ألم الجراح في الحال وإن كان وانما ؛ فإذا حط الموت عنه أعباء الدنيا أحس بهلاكه وتحسراً عظيماً لا ينفقه ذلك كإحساس الأمن وخوفه والمفق من سكره بما أصابه من الجراحات في حالة السكر أو الخوف ، فتعود بالله من يوم كشف الغطاء فإن الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا . وقال الحسن رحمه الله : يوزن مداد العلماء بدم الشهداء فيرجع مداد العلماء بدم الشهداء . وقال ابن مسعود رضي الله عنه : عليكم بالعلم قبل أن يرفع ، ورفعته موت روايته ، فوالذي نفسي بيده ليودن رجال قتلوا في سبيل الله شهداء أن يبعثهم الله علماء لما يرون من كرامتهم ، فإن أحداً لم يولد عالماً وإنما العلم بالتعلم . وقال ابن عباس رضي الله عنهما : تذاكر العلم بعض ليلة أحب إلى من إحيائها ، وكذلك عن أبي هريرة رضي الله عنه وأحمد بن حنبل رحمه الله . وقال الحسن في قوله تعالى ﴿ ربنا آتانا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة ﴾ إن الحسنة في الدنيا هي العلم والعبادة ، وفي الآخرة هي الجنة . وقيل لبعض الحكماء : أي الأشياء تفتني ؟ قال : الأشياء التي إذا غرقت سفنك سبحت معك ، يعني العلم وقيل : أراد بفرق السفينة هلاك بدنه بالموت . وقال بعضهم : من اتخذ الحكمة علماً اتقده الناس إماماً ، ومن عرف بالحكمة لاحظته العيون بالوقار . وقال الشافعي رحمه الله عليه : من شرف العلم أن كل من نسب إليه ولو في شيء حقير فرح ، ومن رفع عنه حوث . وقال عمر رضي الله عنه : يا أيها الناس عليكم بالعلم فإن الله سبحانه رداء يحبه ، فمن طلب باباً من العلم رده الله عز وجل بردائه ، فإن أذنب ذنباً استغيبه ثلاث مرات ثلاثاً يسلبه رداءه ذلك وإن تطاول به ذلك الذنب حتى يموت . وقال الأحنف رحمه الله : كاد العلماء أن يكونوا أرباباً وكل عز لم يوطد بعلم فإلى ذل صيره . وقال سالم بن أبي الجعد : اشتراي مولاي بثلاثة درهم واعتقني ، فقلت بأي شيء أحترق ؟ فأحترقت بالعلم لما تمت لي سنة حتى أتاني أمير المدينة زائراً فلم أذن له . وقال الزبير بن أبي بكر : كتب إلى أبي بكر : عليك بالعلم فإنك إن افتقرت كان لك مالا ، وإن استغنيت كان لك جمالا ، وحكي ذلك في وصايا لقمان لابنه قال : يا بني جالس العلماء وزاحمهم بركبتك فإن الله سبحانه يحب القلوب بنور الحكمة كما يحب الأرض بوابل السماء . وقال بعض الحكماء : إذا مات العالم بكاه الحوت في الماء والطير في الهواء ويفقد وجهه ولا ينسى ذكره . وقال الزهري رحمه الله : العلم ذكر ولا تحبه إلا ذكرا الرجال .

فضيلة التعلم

أما الآيات فنقول تعالى ﴿ فلو لا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ﴾ وقوله عز وجل ﴿ فأسألو أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون ﴾ وأما الأخبار فنقول صلى الله عليه وسلم : من سلك طريقاً يطلب فيه علماً سلك الله به طريقاً إلى الجنة ^(١) ، وقال صلى الله عليه وسلم : إن الملائكة تنضع أجنتها لطلاب العلم وضاد بما يصنع ^(٢) ، وقال صلى الله عليه وسلم : لأن تمدق فتنعلم باباً من الخير خير من أن تصلي مائة ركعة ^(٣) ، وقال صلى الله عليه وسلم : باب من العلم يتعلمه الرجل خير له من الدنيا وما فيها ^(٤) ، وقال صلى الله عليه وسلم : اطلبوا العلم

(١) حديث (من سلك طريقاً يطلب فيه علماً ... الحديث) أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة (٢) حديث (إن الملائكة تنضع أجنتها لطلاب العلم وضاد بما يصنع) أخرجه أحمد وابن حبان والحاكم وصححه من حديث صفوان بن يسار (٣) حديث (لأن تمدق فتنعلم باباً من الخير خير من أن تصلي مائة ركعة) أخرجه ابن عبد البر من حديث أبي ذر وهب أسأله بذلك ، والحديث عنه ابن ماجه بلفظ آخر (٤) حديث (باب من العلم يتعلمه الرجل خير له من الدنيا) أخرجه ابن حبان في روضة الطلاب ، وابن عبد البر مؤلفاً على الحسن البصري ، ولم أزه مرفوعاً إلا بلفظ (خير له من مائة ركعة) (رواه الطبراني في الأوسط بسند ضعيف من حديث أبي ذر

ولو بالصين^(١) ، وقال صلى الله عليه وسلم : « طلب العلم فريضة على كل مسلم » وقال عليه الصلاة والسلام : « العلم خزان مفاتيحها السؤال ، ألا فاسألوا فإنه يؤجر فيه أربعة . السائل والمعلم والمستمع والمحِب لهم »^(٢) وقال صلى الله عليه وسلم : « لا ينبغي للجاهل أن يسكت على جهله ولا للعالم أن يسكت على علمه »^(٣) ، وفي حديث أبي ذر رضى الله عنه : « حضور مجلس عالم أفضل من صلاة ألف ركعة وعبادة ألف مريض وشهود ألف جنازة ، فقيل يا رسول الله ، ومن قراءة القرآن ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : « وهل ينفع القرآن إلا بالعلم ؟ »^(٤) ، وقال عليه الصلاة والسلام : « من جاءه الموت وهو يطلب العلم ليحيى به الإسلام فينبه به الأنبياء في الجنة درجة واحدة »^(٥) ، وأما الآثار فقال ابن عباس رضى الله عنهما ذلك طالبا فغزت مطولوا . وكذلك قال ابن أبي مليكة رحمه الله : « ما رأيت مثل ابن عباس ، إذا رأيته رأيت أحسن الناس وجها . وإذا تكلم فأعرب الناس لسانا وإذا أنقأ فأكثر الناس علما . وقال ابن المبارك رحمه الله : عجبت لمن لم يطلب العلم كيف يدعو نفسه إلى سكرمة ؟ وقال بعض الحكماء : « إلى لا أرحم رجلا كرحتي لأحد رجلين : رجل يطلب العلم ولا يفهم ، ورجل يفهم العلم ولا يطلبه . وقال أبو الدرداء رضى الله عنه : « لأن أتعلم مسألة أحب إلى من قيام ليلة . وقال أيضا : « كن عالما أو متعلما أو مستمعاً ولا تكن الرابع فهلك . وقال عطاء : « مجلس علم ينكر سبعين مجلساً من مجالس الله . وقال عمر رضى الله عنه : « موت ألف عابد قائم الليل صائم النهار أهون من موت عالم بصير بجلال الله وحجابه . وقال الشافعى رضى الله عنه : « طلب العلم أفضل من النافلة . وقال ابن عبد الحكم رحمه الله : « كنت عندما كنت أقرأ عليه العلم فدخل الظير لجمعت الكتب لأصلى فقال : يا هذا ما الذى قمت إليه بأفضل مما كنت فيه إذا صحت الليلة . وقال أبو الدرداء رضى الله عنه : « من رأى أن الغدو إلى طلب العلم ليس بمجدد فقد نقص في رأيه وعقله .

فضيلة التعليم

أما الآيات فقولهُ عز وجل : ﴿ ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون ﴾ والمراد هو التعليم والإرشاد . وقوله تعالى ﴿ وإذا أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب ليبيننه للناس ولا يكتمونه ﴾ وهو إيجاب للتعليم . وقوله تعالى ﴿ وإن فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون ﴾ وهو تحريم الكتمان كما قال تعالى في الشهادة ﴿ ومن يكتمها فإنه آثم قلبه ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم : « ما آتى الله عالما علما إلا وأخذ عليه من الميثاق ما أخذ على النبيين أن يبينوه للناس ولا يكتموه »^(١) ، وقال تعالى ﴿ ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً ﴾ وقال تعالى ﴿ ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ﴾ وقال تعالى ﴿ وعلِّمهم الكتاب والحكمة ﴾ وأما الأخبار فنقول صلى الله عليه وسلم ما لبث معاذاً رضى الله عنه إلى اليمين : « لأن يهدى الله بك رجلا واحدا خير لك من الدنيا وما فيها »^(٢)

(١) حديث « اطلبوا العلم ولو بالصين » أخرجه ابن هدى والبيهقى في المدخل والصب من حديث انس ، وقال البيهقى : متن مدهور وأسانيده ضعيفة . (٢) حديث « العلم خزان مفاتيحها السؤال ... الحديث » رواه أبو نعيم من حديث علي بن مسعود بإسناد ضعيف . (٣) حديث « لا ينبغي للجاهل أن يسكت على جهله » أخرجه الطبرانى في الأوسط وابن مردويه في التقييد وابن السني وأبو نعيم في روضة المتعلمين من حديث جابر بن عبد الله بن مسعود . (٤) حديث أبي ذر (حضور مجلس عالم أفضل من صلاة ألف ركعة ... الحديث » ذكره ابن الجوزى في الموضوعات من حديث عمر بن الخطاب . (٥) حديث « من جاءه الموت وهو يطلب العلم ... الحديث » أخرجه الحاكم في المستدرج وابن السني في روضة المتعلمين من حديث الحسن ، قال : « هو ابن مل » ، وإليه : « هو ابن يسار البصري مرسلا » (٦) حديث « ما آتى الله عالما علما إلا أخذ عليه من الميثاق ما أخذ على النبيين ... الحديث » أخرجه أبو نعيم في فضل العالمين من حديث ابن مسعود بنحوه ، وفي الحديثيات نحوه من حديث أبي هريرة . (٧) حديث قال لمعاذ بن جبل لى الجن : « لأن يهدى الله بك رجلا واحدا خير لك ... الحديث » أخرجه أحمد من حديث معاذ ، وفي الصحيحين من حديث سهل ابن سعد أنه قال ذلك لى

وقال صلى الله عليه وعلى آله وسلم : من تعلم باباً من العلم ليعلم الناس أعطى ثواب سبعين صديقاً ^(١) ، وقال جيسى صلى الله عليه وسلم : من علم وحمل وعلم فذلك يدعى عظيمياً في ملكوت السموات . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إذا كان يوم القيامة يقول الله سبحانه للعابدين والمجاهدين : ادخلوا الجنة ، فيقول العلماء بفضل علمنا تعبدوا وجاهدوا ، فيقول الله عز وجل : أنتم عندي كبيض ملائكتي أشفعوا تشفعوا فيشفعون ثم يدخلون الجنة ^(٢) ، وهذا إنما يكون بالعلم المتعدي بالتعليم لا العلم اللازم الذي لا يتعدى . وقال صلى الله عليه وسلم : وإن الله عز وجل لا ينتزع العلم انتزاعاً من الناس بعد أن يؤتيمهم إياه ولكن يذهب بذهاب العلماء ، فكلما ذهب عالم ذهب بما معه من العلم ، حتى إذا لم يبق إلا رؤساء جهالا إن سئلوا أفتوا بغير علم فيضلون ويضلون ^(٣) . وقال صلى الله عليه وسلم : من علم علماً فكنته أجهل الله يوم القيامة بلجام من نار ^(٤) ، وقال صلى الله عليه وسلم : نعم العطية ولنعم الهدية كلمة تسعها فطوى عليها ثم تحملها إلى أخ ك مسلم تعلمه إياها تعدل عبادة سنة ^(٥) ، وقال صلى الله عليه وسلم : الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ذكر الله سبحانه وما والاه أو ملها أو تمثلا ^(٦) ، وقال صلى الله عليه وسلم : إن الله سبحانه وملائكته وأهل سمواته وأرضه حتى النملة في جحرها حتى الحوت في البحر ليصلون على معلم الناس الخير ^(٧) ، وقال صلى الله عليه وسلم : ما أفاد المسلم أخاه فائدة أفضل من حديث حسن بلغه فبلغه ^(٨) ، وقال صلى الله عليه وسلم : كلمة من الخير يسميها المؤمن فيعملها ويعمل بها خير له من عبادة سنة ^(٩) ، وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم فرأى مجلسين أحدهما يدعون الله عز وجل ويرغبون إليه والثاني يملكون الناس ، فقال : أما هؤلاء فيسألون الله تعالى فإن شاء أعطاهم وإن شاء منعمهم ، وأما هؤلاء فيعلمون الناس وإنما بعثت معلماً ثم عدل إليهم وجلس معهم ^(١٠) ، وقال صلى الله عليه وسلم : مثل ما بعثني الله عز وجل به من الهدى والهدى والمعلم كمثل النبت الكثير أصاب أرضاً فكانت منها بقعة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير ، وكانت منها بقعة أمسكت الماء فنفع الله عز وجل بها الناس فشربوا منها وسقوا وزرعوا ، وكانت منها طائفة فيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ ^(١١) ، اهـ ، فالأول ذكره مثلاً للنتفع بعلمه ، والثاني ذكره مثلاً للنافع ، والثالث للدهور منهما

(١) حديث « من تعلم باباً من العلم ليعلم الناس أعطى ثواب سبعين صديقاً » رواه أبو منصور الديلمي في مسنده الفردوس من حديث ابن مسعود بسند ضعيف (٢) حديث « لذا كان يوم القيامة يقول الله تعالى للمجاهدين والمجاهدين ادخلوا الجنة ... الحديث » أخرجه أبو الدان الله في العلم من حديث ابن عباس بسند ضعيف (٣) حديث « إن الله لا ينتزع العلم القرا من الناس ... الحديث » متفق عليه من حديث عبد الله بن عمرو (٤) حديث « من علم علماً فكنته أجهل يوم القيامة بلجام من نار » رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه وابن حبان والماكم وصححه من حديث أبي هريرة ، قال الترمذي : حديث حسن (٥) حديث « نعم العطية ولنعم الهدية كلمة تسعها ... الحديث » أخرجه الطبراني من حديث ابن عباس نحوه بإسناد ضعيف (٦) حديث « الدنيا ملعونة ملعون ما فيها ... الحديث » أخرجه الترمذي وابن ماجه من حديث أبي هريرة ، قال الترمذي حسن غريب . (٧) حديث « لأن الله وملائكته وأهل السموات وأهل الأرض حتى النملة في جحرها وحتى الحوت في البحر يصلون على معلم الناس الخير » أخرجه الترمذي من حديث أبي أمامة وقال فريب ، وفي نسخة : حسن صحيح (٨) حديث « ما أفاد المسلم أخاه فبلغه أفضل من حديث حسن ... الحديث » أخرجه ابن عبد البر من رواية محمد بن المنكدر مرسل نحوه ، ولأن لم يسم من حديث عبد الله بن عمرو ، ما هدية مسلم لأخيه هدية أفضل من كلمة تزيد هدى أو تترد عن ردى » (٩) حديث « كلمة من الحكمة يسعها المؤمن ليعمل بها ويصلها ... الحديث » أخرجه ابن المبارك في الزهد والرفائق من رواية زيد بن أسلم مرسل نحوه ، وفي مسند الفردوس من حديث أبي هريرة بسند ضعيف « كلمة حكمة يسعها الرجل خير له من عبادة سنة » (١٠) حديث : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم على أصحابه فرأى مجلسين أحدهما يدعون الله ... الحديث : أخرجه ابن ماجه من حديث عبد الله بن عمرو بسند ضعيف . (١١) حديث « مثل ما بعثني الله به من الهدى والهدى ... الحديث » متفق عليه من حديث أبي موسى

وقال صلى الله عليه وسلم : إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : علم ينتفع به ^(١) الحديث ، وقال صلى الله عليه وسلم : الدال على الخير كفاعله ^(٢) ، وقال صلى الله عليه وسلم : لاحد إلا اثنين : رجل آتاه عز وجل حكمة فربى بقضى بها وبهدى الناس ، ورجل آتاه الله مالا فسلطه علىهلكته في الخير ^(٣) ، وقال صلى الله عليه وسلم : على خلفائي رحمة الله ، قيل : ومن خلفائك ؟ قال : الذين يحرمون سقوي ويدرؤنها عباد الله ^(٤) ، وأما الآثار فند قال عمر رضي الله عنه : من حدث حديثاً فعمل به فله مثل أجر من عمل ذلك العمل . وقال ابن عباس رضي الله عنهما : مسلم الناس الخير يستغفر له كل شيء حتى الحوت في البحر . وقال بعض العلماء : العلم يدخل فيما بين الله وبين خلقه فليظهر كيف يدخل . وروى أن سفيان الثوري رحمه الله قدم عسقلان فكسك لايسأله إنسان ، فقال : اكروا لي لأخرج من هذا البلد ، هذا بلد يموت فيه العلم . وإنما قال ذلك حرصاً على فضيلة التعليم واستبقاء العلم به وقال عطاه رضي الله عنه : دخلت على سعيد بن المسيب وهو يبكي ، فقلت : مايكيك ؟ قال : ليس أحد يسألني عن شيء . وقال بعضهم : العلماء سرج الأئمة ، كل واحد مصباح زمانه يستضيء به أهل عصره . وقال الحسن رحمه الله : لولا العلماء لصار الناس مثل البهائم : أي أنهم بالتعليم يفرجون الناس من حد البهيمية إلى حد الإنسانية . وقال عكرمة : إن لهذا العلم ثمناً . قيل وما هو ؟ قال : أن تضعه فيمن يحسن حله ولا يضيعه . وقال يحيى بن معاذ : العلماء أرحم بأمة محمد صلى الله عليه وسلم من آبائهم وأمهاتهم . قيل : وكيف ذلك ؟ قال لأن آباءهم وأمهاتهم يحفظونهم من نار الدنيا وهم يحفظونهم من نار الآخرة . وقيل : أول العلم الصمت ثم الاستماع ثم الحفظ ثم العمل ثم نشره . وقيل : علم عليك من جهل وتعلم من يعلم ماتجهل ؛ فإنه إذا فعلت ذلك علمت ما جعلت وحفظت ما علمت . وقال معاذ بن جبل في التعليم والتعلم ورايته أيضاً فرموا : تعلموا العلم فإن تعلمه لله خشية ، وطلبه عبادة ، ومدارسته تسبيح ، والبحث عنه جهاد ، وتعليمه من لأعلمه صدقة ، وبذله لأهل قرية ، وهو الأيسر في الوحدة ، والصاحب في الخلوة ، والدليل على الدين ، والمصبر على السراء والضراء ، والوزير عند الأخلاء ، والقريب عند الغرباء ، ومنار سبيل الجنة ، يرفع الله به أقواماً فيجعلهم في الخير قادة سادة ، يقتدى بهم ، أدلة في الخير تقتض آثارهم وترمق أفعالهم وترغب الملائكة في خطبتهم وبأجنتها تمسحهم ، وكل رطب ورايس لهم يستغفر حتى حيطان البحر ورواه وسباع البر وأنعامه والمياه ونحوها ^(٥) ، لأن العلم حياة القلوب من العمى . ونور الأبصار من الظلم ، وقوة الأبدان من الضعف ، يبلغ به العبد منازل الأبرار والدرجات العلى ، والتفكير فيه يمدد بالصيام ، ومدارسته بالقيام ، به يطاع الله عز وجل وبه يعبد ، وبه يوحد وبه يجمع ، وبه يتورع ، وبه توصل الأرحام وبه يعرف الحلال والحرام ، وهو إمام والعمل تابعه ، يلهمه السعداء ويحرمه الأشقياء . فسأل الله تعالى حسن التوفيق .

(١) حديث (إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث ... الحديث) أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة
 (٢) حديث (الدال على الخير كفاعله) أخرجه الترمذي من حديث أنس وقال غريب . ورواه سلم وأبو داود والترمذي وصححه عن أبي مسعود البدرى بإلفظ (من دل على خير لله مثل أجر فاعله) (٣) حديث (لاحد إلا في اثنين ... الحديث) متفق عليه من حديث ابن مسعود (٤) حديث (على خلفائي رحمة الله ... الحديث) رواه ابن عبد البر في العلم ، والفرقى في ذم السلام من حديث الحسن ، لقيل هو ابن علي وقيل ابن مسعود الصري ليكون مرسلًا ، ولابن السني وإبي لهب في رواية المتكلمين من حديث بن مخنف . (٥) حديث معاذ (تعلموا العلم فإن تعلمه لله خشية وطلبه عبادة .. الحديث بطوله) رواه أبو الفتح ابن حبان في كتاب التواب ، وابن عبد البر وقال : ليس له إسناده قوي

في الشواهد العقلية

اعلم أن المطلوب من هذا الباب معرفة فضيلة العلم ونفاسته ، ومالم تفهم الفضيلة في نفسها ولم يتحقق المراد منها لم يمكن أن تعلم وجودها صفة للعلم أولئذ من الحاصل ، فلقد ضل عن الطريق من طبع أن يعرف أن زيدا حكيم أم لا ، وهو بعد لم يفهم معنى الحكمة وحقيقتها . والفضيلة مأخوذة من الفضل وهي الزيادة ؛ فإذا تشارك شيان في أمر واختص أحدهما بمزيد يقال فضله وله الفضل عليه مهما كانت زيادته فيها هو كمال ذلك الشيء كما يقال : الفرس أفضل من الخمار بمعنى أنه يشاركه في قوة الحل ويزيد عليه بقوة الكثر والفرق وشدة العدو وحسن الصورة ، فلو فرض حار اختص بسلمة زائدة لم يقل إنه أفضل ؛ لأن تلك زيادة في الجسم وتقصان في المعنى وليست من الكمال في شيء ، والحيوان مطلوب لمناحه وصفاته لاجسده ؛ فإذا فهمت هذا لم يخف عليك أن العلم فضيلة إن أخذته بالإضافة إلى سائر الأوصاف ، كما أن للفرس فضيلة إن أخذته بالإضافة إلى سائر الحيوانات ؛ بل شدة العدو فضيلة في الفرس وليست فضيلة على الإطلاق ، والعلم فضيلة في ذاته وعلى الإطلاق من غير إضافة ؛ فإنه وصف كمال الله سبحانه وبه شرف الملائكة والأنبياء ، بل الكيس من الخيل خير من البليد فهي فضيلة على الإطلاق من غير إضافة . واعلم أن الشيء النفيس المرغوب فيه ينقسم إلى ما يطلب لغيره ، وإلى ما يطلب لذاته ، وإلى ما يطلب لغيره ولذاته جميعا فإلى ما يطلب لذاته أشرف وأفضل مما يطلب لغيره ، والمطلوب لغيره : الدرهم والدنانير فلنهما حيران لمنفعة لهما ، ولولا أن الله سبحانه وتعالى يرض قضاء الحاجات بهما لكانا والخصياء بمثابة واحدة . والذي يطلب لذاته : فالسعادة في الآخرة ولادة النظر لوجه الله تعالى . والذي يطلب لذاته ولغيره فسلامة البدن ، فإن سلامة الرجل مثلا مطلوبة من حيث إنها سلامة للبدن عن الألم ومطلوبة للشيء والتوصل إلى المآرب والحاجات ، وبهذا الاعتبار إذا نظرت إلى العلم رأيته لذينا في نفسه فيكون مطلوبا لذاته ، ووجوده وسيلة إلى دار الآخرة وسعادتها وذريعة إلى القرب من الله تعالى ولا يتوصل إليه إلا به ، وأعظم الأشياء رتبة في حق الآدمي السعادة الأبدية وأفضل الأشياء ماهو وسيلة إليها ولن يتوصل إليها إلا بالعلم والعمل ولا يتوصل إلى العمل إلا بالعلم بكيفية العمل ، فأصل السعادة في الدنيا والآخرة هو العلم فهو إذن أفضل الأعمال ، وكيف لا وقد تعرف فضيلة الشيء أيضا بشرف ثمرته ؛ وقد عرفت أن ثمرة العلم القرب من رب العالمين والاتحاق بأفق الملائكة ومقارنة ملا الأعلى ، هذا في الآخرة وأما في الدنيا فالعز والوقار ونفوذ الحكم على الملوك ولزوم الاحترام في الطباع حتى إن أغنياء الترك وأجلاف العرب يصادفون طباعهم بجمولة على التوقير لشيوخهم لاختصاصهم بمزيد علم مستفاد من التجربة بل الهيمنة بطبعها توقر الإنسان لشموها بتميز الإنسان بكمال مجاز لدرجتها : هذه فضيلة العلم مطلقا ثم تختلف العلوم كإساق بيانه وتفاوت لأعماله فضائلها بتفاوتها . وأما فضيلة التعليم والتعلم فظاهرة بما ذكرناه ، فإن العلم إذا كان أفضل الأمور كان تعلمه طلبا للأفضل فكان تعليمه إضافة للأفضل ، وببانه أن مقاصد الخلق مجموعة في الدين والدنيا ولا نظام للدين إلا بنظام الدنيا ، فإن الدنيا منزوعة الآخرة وهي الآلة الموصلة إلى الله عز وجل لمن اتخذها آلة ومنزلا لمن يتخذها مستقرا ووطنا ؛ وليس يلتزم أمر الدنيا إلا بأعمال الآدميين . وأعمالهم وحرفهم وصناعاتهم تنحصر في ثلاثة أقسام :

(أحدها) أصول لأقوام العالم دونها ، وهي أربعة : الزراعة ، وهي للطعام . والحياكة ، وهي لللبس . والبناء ،

وهو للسكن . والسياسة ، وهي لتأليف والاجتماع والتعاون على أسباب المعيشة ومصلحتها .
(الثاني) ماهي مهينة لكل واحدة من هذه الصناعات وعادمة لها : كالحداثة فإنها تخدم الزراعة وجملة من الصناعات بإعداد آلاتها كالحلجلة والفزل فإنها تخدم الحياكة بإعداد عملها .

(الثالث) ماهي متممة للأصول ومزينة ، كالطحن والخبز للزراعة ؛ وكالقصور والحياطة للحياكة ؛ وذلك بالإضافة إلى قوام أمر العالم الأرضي مثل أجزاء الشخص بالإضافة إلى جملة فإنها ثلاثة أطرب أيضا : إما أصول كالقلب والكبد والدماغ ؛ وإما عادمة لها كالمدة والعروق والشرايين والأعصاب والأوردة ، وإما مكملة لها ومزينة كالأظفار والأصابع والحاجبين ، وأشرف هذه الصناعات أصولها ، وأشرف أصولها السياسة بالتأليف والاستصلاح ولذلك تستدعي هذه الصناعة من الكمال فيمن يتكفل بها مالا يستدعيه سائر الصناعات ، ولذلك يستخدم لأحالة صاحب هذه الصناعة سائر الصناع والسياسة في استصلاح الخلق وإرشادهم إلى الطرق المستقيمة المنجى في الدنيا والآخرة على أربع مراتب : الأولى - وهي العليا : سياسة الأنبياء عليهم السلام وحكمهم على الخاصة والعامة جميعاً في ظواهرهم وباطنهم . والثانية : الخلفاء والملوك والسلاطين وحكمهم على الخاصة والعامة جميعاً ولكن على ظواهرهم لا على باطنهم . والثالثة : العلماء بالله عز وجل وبدينه الذين هم ورثة الأنبياء ، وحكمهم على باطن الخاصة فقط ، ولا يرتفع فهم العامة على الاستفادة منهم ولا تلتصق قوتهم إلى التصرف في ظواهرهم بالإلزام والمنع والشرع .

والرابعة : الوعاظ وحكمهم على بواطن العوام فقط ؛ فأشرف هذه الصناعات الأربع بعد النبوة لإفادة العلم وتهذيب نفوس الناس عن الأخلاق المدمرة المهلكة وإرشادهم إلى الأخلاق الحمودة المسعدة وهو المراد بالتعليم ؛ وإنما قلنا إن هذا أفضل من سائر الحرف والصناعات لأن شرف الصناعات يعرف بثلاثة أمور : إما بالالتفات إلى الغيرة التي بها يتوصل إلى مرفعتها كفضل العقول العقلية على اللغوية : إذ تدرك الحكمة بالعقل ، والقيمة بالسمع ، والعقل أشرف من السمع ؛ وإما بالظفر إلى عموم النفع كفضل الزراعة على الصياغة ، وإما بملاحظة المحل الذي فيه التصرف كفضل الصياغة على الدباغة : إذ محل أحدهما الذهب ومحل الآخر جلد الميتة ؛ وإس يحنى أن العلوم الدينية وهي فقه طريق الآخرة إنما تدرك بكامل العقل وصفاء الذكاء ، والعقل أشرف صفات الإنسان كما سيأتي بيانه ؛ إذ به تقبل أمانة الله ، وبه يتوصل إلى جوار الله سبحانه . وأما عموم النفع فلا يستتراف فيه فإن نفعه وثمرته سعادة الآخرة . وأما شرف المحل فكيف يحنى والمعلم متصرف في قلوب البشر ونفوسهم ، وأشرف موجود على الأرض جنبس الإنس وأشرف جزء من جواهر الإنسان قلبه ، والمعلم مشغول بتسكيله وتجهيزه وتطهيره وسياقته إلى القرب من الله عز وجل ، فتعليم العلم من وجه : عبادة لله تعالى ، ومن وجه خلافة الله تعالى ، وهو من أجل خلافة الله ؛ فإن الله تعالى قد منح على قلب العالم العلم الذي هو أخص صفاته . فهو كالحازن لأنفس خزائنه ؛ ثم هو مأذون له في الإنفاق منه على كل محتاج إليه ؛ فأى رتبة أجل من كون المبد واسطة بين ربه سبحانه وبين خلقه في تقريرهم إلى اقتضائى وسياتهم إلى الجنة المأوى ، جعلنا الله منهم بكرمه ؛ وصلى الله على كل عبد مصطفى .

الباب الثاني

في العلم المحمود والمنعوم وأقسامهما وأحكامهما

وفيه بيان ما هو فرض عين وما هو فرض كفاية ، وبيان أن موقع الكلام والفقه من علم الدين إلى أى حد هو والمغفيل علم الآخرة .

بيان العلم الذي هو فرض عين : قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم : طلب العلم فريضة على كل مسلم ، وقال أيضاً صلى الله عليه وسلم : اطلبوا العلم ولو بالصين ، واختلف الناس في العلم الذي هو فرض على كل مسلم ، فتفرقوا فيه أكثر من عشرين فرقة ، ولا نطيل بنقل التفاصيل ، ولكن حاصله أن كل فريق نزل الوجوب على العلم الذي هو ببصده ، فقال المتكلمون : هو علم الكلام ، إذ به يدرك التوحيد ويعلم به ذات الله سبحانه وصفاته ، وقال الفقهاء : هو علم الفقه إذ به تعرف المباديات والحلال والحرام وما يحرم من الماملات وما يحل ، وعرضا به ما يحتاج إليه الأحاديث دون الوقائع النادرة ، وقال المفسرون والمحدثون : هو علم الكتاب والسنة ، إذ بهما يتوصل إلى العلوم كلها . وقال المتصوفة : المراد به هذا العلم ، فقال بعضهم : هو علم العبد بحاله ومقامه من الله عز وجل . وقال بعضهم : هو العلم بالإخلاص وآفات النفوس وتمييز لمة الملك من لمة الشيطان . وقال بعضهم : هو علم الباطن ، وذلك يجب على أقوام مخصوصين هم أهل ذلك وصرفوا اللفظ عن حومه . وقال أبو طالب المكي : هو العلم بما يتضمنه الحديث الذي فيه مباني الإسلام ، وهو قوله صلى الله عليه وسلم : بني الإسلام على خمس : شهادة أن لا إله إلا الله ^(١) ، إلى آخر الحديث ، لأن الواجب هذه الخمس فيجب العلم بكيفية العمل فيها وبكيفية الوجوب . والذي ينبغي أن يقطع به المحصل ولا يترتب فيه ما سذكروه : وهو أن العلم كما تقدمناه في خطبة الكتاب ينقسم إلى علم مأملة وحلم مكاشفة ، وليس المراد بهذا العلم إلا علم المعاملة . والمعاملة التي كلف العبد العاقل البالغ العمل بها ثلاثة : اعتقاد ، وفعل ، وترك ؛ فإذا بلغ الرجل العاقل بالاحتلام أو السن ضحوة نهار مثلاً فأول واجب عليه تعلم كلتي الشهادة وفهم معانيهما وهو قول : لا إله إلا الله ، محمد رسول الله ، وليس يجب عليه أن يحصل لكشف ذلك لنفسه بالنظر والبحث وتحرير الأدلة ، بل يكفي أن يصدق به ويعتقده جزمًا من غير اختلاج ريب واضطراب نفس ، وذلك قد يحصل بمجرد التقليد والسماع من غير بحث ولا برهان ؛ إذ اكتفى رسول الله صلى الله عليه وسلم من أجلات العرب بالتصديق والإقرار من غير تعلم دليل ^(٢) . فإذا فعل ذلك فقد أدى واجب الوقت وكان العلم الذي هو فرض عين عليه في الوقت تعلم الكلمتين وفهمهما ، وليس يلزمه أمر ورأه هذا في الوقت ، بدليل أنه لو مات حبيب ذلك مات معلماً لله عز وجل غير عاص له ، وإنما يجب غير ذلك بموارض تمرض وليس ذلك ضرورياً في حق كل شخص بل يتصور الانسكاف وتلك الموارض إما أن تكون في الفعل وإما في الترك وإما في الاعتقاد . أما الفعل : فإن يعيش من ضحوة نهاره إلى وقت الظهر فيتجدد عليه بدخول وقت الظهر تعلم الطهارة والصلاة ، فإن كان صحيحاً وكان بحيث لو صبر إلى وقت زوال الشمس لم يتمكن من تمام التعلم والعمل في الوقت بل يخرج الوقت لو اشتغل بالتعلم ، فلا يبد أن يقال : الظاهر بقاؤه فيجب عليه تقديم التعلم على الوقت . ويشتمل أن يقال : وجوب العلم الذي هو شرط العمل بعد وجوب العمل فلا يجب قبل الزوال ، وهكذا في بقية الصلوات فإن حاش إلى رمضان تجدد بسببه وجوب تعلم الصوم : وهو أن وقته من الصبح إلى غروب الشمس ؛ فإن الواجب فيه التوبة والإمساك عن الأكل والشرب والوقوع ، وأن ذلك يتبادى إلى رؤية الهلال أو شاهدين ؛ فإن تجدد له مال أو كان له مال عند بلوغه لزمه تعلم ما يجب عليه من الزكاة ، ولكن لا يلزمه في الحال إنما يلزمه عند

الباب الثاني

(١) حديث (في الإسلام على خمس ... الحديث) متفق عليه من حديث ابن عمر (٢) حديث : اكتفى رسول الله صلى الله عليه وسلم من أجلات العرب بالتصديق والإقرار من غير تعلم دليل : مشهور في كتب السير والحديث ؛ فبعد مسلم قصة حنانيا بن تميم .

تمام الحول من وقت الإسلام؛ فإن لم يملك إلا الإيل لم يلزمه إلا تعلم زكاة الإيل، وكذلك في سائر الأصناف، فإذا دخل في أشهر الحج فلا يلزمه المبادرة إلى علم الحج مع أن فعله على التراخي فلا يكون ثقله على الفور، ولكن ينبغي للمسلم أن يهتبه على أن الحج فرض على التراخي على كل من ملك الراد والراحلة إذا كان ماله كافياً حتى ربما يرى الحزم لنفسه في المبادرة فعند ذلك إذا عزم عليه لزمه تعلم كيفية الحج ولم يلزمه إلا تعلم أركانه وواجباته دون نوافله، فإن فعل ذلك نفل فعله أيضاً نفل فلا يكون ثقله فرض عين وفي تحريم السكوت عن التنبيه على وجوب أصل الحج في الحال نظر يليق بالفقه، وهكذا التدرج في علم سائر الأفعال التي هي فرض عين. وأما التروك فيجب تعلم علم ذلك بحسب ما يتجدد من الحال، وذلك يختلف بحال الشخص إذ لا يجب على الأبكم تعلم ما يحرم من الكلام، ولا على الأعمى تعلم ما يحرم من النظر، ولا على البدي تعلم ما يحرم الجلوس فيه من المساكن، فذلك أيضاً واجب بحسب ما يقتضيه الحال، فإعلم أنه ينبغي عليه تعلمه وما هو ملائمه له يجب تنبيهه عليه كالوكان عند الإسلام لأبسا للحرير، أو جالساً في النصب، أو ناظراً إلى غير ذى عرم، فيجب تعريفه بذلك وما ليس ملائماً له ولكنه يصدد التعرض له على القرب كالأكل والشرب فيجب تنبيهه، حتى إذا كان في بلد يتعاطى فيه شرب الخمر وأكل لحم الخنزير فيجب تعليمه ذلك وتنبيهه عليه، وما وجب تعليمه وجب عليه تعلمه. وأما الاعتقادات وأعمال القلوب فيجب عليها بحسب الخواطر، فإن خطر له شك في المعاني التي تدل عليها كلمتنا الشهادة فيجب عليه تعلم ما يتوصل به إلى إزالة الشك. فإن لم يحظر له ذلك ومات قبل أن يعتد أن كلام الله سبحانه قديم وأنه مرئي وأنه ليس محلاً للحوادث إلى غير ذلك مما يذكر في المعتقدات، فقد مات على الإسلام إجماعاً، ولكن هذه الخواطر المرجوة للاعتقادات بعضها يحظر بالطبع وبعضها يحظر بالسباع من أهل البلد، فإن كان في بلد شاع فيه السلام وتطابق الناس بالبدع فينبغي أن يسان في أول بلوغه ضناً بثلثين الحق، فإنه لو ألقى إليه الباطل لوجب إزالته عن قلبه وربما عسر ذلك، كما أنه لو كان هذا المسلم تاجراً وقد شاع في البلد معاملة الربا وجب عليه تعلم الحذر من الربا، وهذا هو الحق في العلم الذي هو فرض عين ومنه العلم بكيفية العمل الواجب، فمن علم العلم الواجب ووقت وجوبه فقد علم العلم الذي هو فرض عين، وما ذكره الصوفية من فهم خواطر البدو ولة الملك حق أيضاً ولكن في حق من يتصدى له، فإذا كان الغالب أن الإنسان لا ينفك عن دعوى الشر والرياء والحسد فيلزمه أن يتعلم من علم ربيع المهلكات ما يرى نفسه محتاجاً إليه، وكيف لا يجب عليه وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ثلاث مهلكات: شح مطاع، وهوى متبع، وإعجاب المرء بنفسه،^(١) ولا ينفك عنها بشر، وبقية ما سذكروه من مذمومات أحوال القلب كالكبّر والسبب وأخواتها تتبع هذه الثلاث المهلكات، ولزاتها فرض عين، ولا يمكن إزالتها إلا بجمرة حدودها ومعرفة أسبابها ومعرفة علاماتها ومعرفة علاجها؛ فإن من لا يعرف الشر يقع فيه، والعلاج هو مقابلة السبب بعضده، وكيف يمكن دون معرفة السبب والسبب، وأكثر ما ذكرناه في ربيع المهلكات من فروض الأعيان، وقد تركها الناس كافة اشتغالا بما لا يعني. وما ينبئ أن يسادر في إلقائه إليه إذا لم يكن قد انتقل عن ملة إلى ملة أخرى: الإيمان بالجنة والنار والحشر والفرس حتى يؤمن به ويصدق، وهو من تمتة كلمتي الشهادة، فإنه بعد التصديق بكونه عليه السلام رسولا

(١) حديث (ثلاث مهلكات: شح مطاع... الحديث) أخرجه ابن ماجه والبيهقي في الشعب من حديث أنس بإسناد ضعيف

يلغى أن يفهم الرسالة التي هو مبلغها : وهو أن من أطاع الله ورسوله فله الجنة ، ومن عصاهما فله النار ، فإذا انتبهت لهذا التدرج علمت أن المذهب الحق هو هذا ، وتحققت أن كل عبد هو في مجاري أحواله في يومه وليته لا يخلو من وقائع في عبادته ومعاملاته عن تجديد لزام عليه فيلزمه السؤال عن كل ما يقع له من التوارد ويكرمه المبادرة إلى تعلم ما يتوقع وقوعه على القرب غالباً ؛ فإذا تبين أنه عليه الصلاة والسلام إنما أراد بالعلم المحرف بالآلاف واللام في قوله صلى الله عليه وسلم ؛ طلب العلم فريضة على كل مسلم ؛ علم العمل الذي هو مشهور الوجوب على المسلمين لا غير ؛ فقد انضغ وجه التدرج ووقف وجوبه ، والله أعلم .

بيان العلم الذي هو فرض كفاية

اعلم أن الفرض لا يمتنع عن غيره إلا بذكر أقسام العلوم والعلوم بالإضافة إل الفرض الذي نحن بصدده تنقسم إلى شرعية وغير شرعية ؛ وأخى بالشرعية ما استفيد من الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه ، ولا يرشد العقل إليه مثل الحساب ، ولا التجربة مثل الطب ، ولا السماع مثل اللغة ؛ فالعلوم التي ليست بشرعية تنقسم إلى ما هو محمود وإلى ما هو مذموم وإلى ما هو مباح ، فالمحمود ما يرتبط به مصالح أمور الدنيا كالطلب والحساب وذلك ينقسم إلى ما هو فرض كفاية وإلى ما هو فضيلة وليس بفريضة ؛ أما فرض الكفاية فهو علم لا يستغنى عنه في قوام أمور الدنيا كالطلب ، إذ هو ضروري في حاجة بقاء الأبدان . وكالحساب ؛ فإنه ضروري في المعاملات وقسمة الوصايا والموارث وغيرها . وهذه هي العلوم التي لو خلا البلد عن يقوم بها حرج أهل البلد . وإذا قام بها واحد كفي وسقط الفرض عن الآخرين . فلا يتعجب من قولنا إن الطب والحساب من فروض الكفايات فإن أصول الصناعات أيضاً من فروض الكفايات كالزراعة والحياكة والسياسة بل الحجامة والحياطة . فإنه لو خلا البلد من المأجور سارع البلاك إليهم وخرجوا بتعريضهم أنفسهم للبلاك . فإن الذي أنزل الداء أنزل الدواء وأرشد إلى استعماله وأعد الأسباب لتعاطيه . فلا يجوز التمرض للبلاك بإهماله . وأما ما يند فضيلة لا فريضة فالتعمق في دقائق الحساب وحقائق الطب وغير ذلك مما يستغنى عنه . ولكنه يفيد زيادة قوة في القدر المحتاج إليه . وأما المذموم فعمل السحر والطلايات وعلم الشعيرة والتليسات . وأما المباح منه فالعلم بالأشعار التي لا نفع فيها . وتواريخ الأخبار وما يجري مجراه .

أما العلوم الشرعية وهي المقصودة بالبيان : فهي محدودة كلها ولكن قد يلتبس بها ما ينزل أنها شرعية وتكون مذمومة فتتنقسم إلى المحمودة والمذمومة . أما المحمودة فلها أصول وفروع ومقدمات ومتممات وهي أربعة أضرب (الضرب الأول) الأصول : وهي أربعة كتاب الله عز وجل وسنة رسول الله عليه السلام وإجماع الأمة وآثار الصحابة والإجماع أصل من حيث إنه يدل على السنة فهو أصل في الدرجة الثالثة . وكذا الآخر فإنه أيضاً يدل على السنة . لأن الصحابة رضي الله عنهم قد شاهدوا الوحي والتزيل وأدركوا بقرائن الأحوال ما غاب عن غيرهم حياته وربما لا تحيط العبارات بما أدرك بالقرائن . فمن هذا الوجه رأى العلماء الاقتداء بهم واتسكك بأقارمهم وذلك بشرط انحصار على وجه مخصوص عنه من وراء ولا يليق بيانه بهذا الفن (الضرب الثاني) الفروع : وهو ما فهم من هذه الأصول لا بموجب أنفاظ بل بعمان تنبيه لها العقول فأتبع بسبيلها الفهم حتى فهم من اللفظ الملفوظ به غيره كما فهم من قوله عليه السلام : لا يقضي القاضي وهو غضبان ^(١) ، أنه لا يقضي إذا كان غائماً أو جائعاً أو متأسلاً بمرض .

(١) حديث (لا يقضي القاضي وهو غضبان) متفق عليه من حديث أبي بكر .

وهذا على صريحين : أحدهما : يتعلق بمصالح الدنيا ويحويه كتب الفقه والمتكفل به الفقهاء وهم علماء الدنيا . والثاني : ما يتعلق بمصالح الآخرة وهو علم أحوال القلب وأخلاقه المحمودة والمذمومة وما هو مرضى عند الله تعالى ، وما هو مكروه وهو الذي يحويه النطر الأخير من هذا الكتاب ، أعني جملة كتاب إحياء علوم الدين ، ومنه العلم بما يترشح من القلب على الجوارح في عباداتها وطاعاتها ، وهو الذي يحويه النطر الأول من هذا الكتاب . (والضرب الثالث) المقدمات ، وهي التي تجرى منه مجرى الآلات كعلم اللغة والنحو ؛ فإنيهما آله لعل كتاب الله تعالى وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، وليست اللغة والنحو من العلوم الشرعية في أنفسهما ، ولكن يلزم الخوض فيما بسبب الشرع إذ جاءت هذه الشريعة بلغة العرب وكل شريعة لا تظهر إلا بلغة فيصير تعلم تلك اللغة آله ومن الآلات علم كتابة الخط إلا أن ذلك ليس ضرورياً إذ كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(١) أمياً . ولو تصور استقلال الحفظ بجميع ما يسمع لاستغنى عن الكتابة ، ولكنه صار يحكم المعجز في الغالب ضرورياً (الضرب الرابع) الذمات : وذلك في علم القرآن ؛ فإنه ينقسم إلى ما يتعلق باللفظ كتعلم القراءات ومخارج الحروف وإلى ما يتعلق بالمعنى كالتفسير ؛ فإن اعتياده أيضاً على النقل ، إذ اللغة بمجرد استعماله لا تستقل به وإلى ما يتعلق بأحكامه كمعرفة التماسخ والمنسوخ والعلم والحاصل والذم والناهر . وكيفية استعمال البدن منه مع البدن ، وهو العلم الذي يسمى أصول الفقه ويتناول السنة أيضاً . وأما الذمات في الآثار والأخبار فالعلم بالرجال وأسمائهم وأنسابهم وأسماء الصحابة وصفاتهم ، والعلم بالعلاقة في الرواة والعلم بأحوالهم ليعز الضعيف عن القوى ، والعلم بأحوالهم ليعز المرسل عن المسند وكذلك ما يتعلق به ؛ فذهب في العلوم الشرعية وكلها محمودة بل كلها من فروض الكفايات . فإن قلت : لم الخلف الفقه بعلم الدنيا ؟ فاعلم أن الله عز وجل أخرج آدم عليه السلام من التراب وأخرج ذريته من سلالته من طين ومن ماء جافق ، فأخرجهم من الأصلاب إلى الأرحام ومنها إلى الدنيا ثم إلى القبر ثم إلى العرض ثم إلى الجنة أو إلى النار ؛ فهذا يبدؤهم وهذا غايتهم وهذه منازلهم . وخلق الدنيا زاداً للمعاد ليتناول منها ما يصلح للتزود ؛ فتناولوها بالبدن لا تفتعلت المحسوسات وتمطل الفقهاء ولكنهم تناولوها بالشهوات فتولدت منها المحسوسات فست الحاجة إلى سلطان يوسمهم واحتاج السلطان إلى قانون يوسمهم به ؛ فالفقيه هو العالم بقانون السياسة وطريق التوسط بين الخلق إذا تنازعوا بحكم الشهور ؛ فكان الفقيه معلم السلطان ومرشده إلى طرق سياسة الخلق وضبطهم لينتظم باستقامتهم أمورهم في الدنيا ، ولم يدرى منه متعلق أيضاً بالدين . لكن لا ينفسه بل بواسطة الدنيا ؛ فإن الدنيا مزرعة الآخرة ، ولا يتم الدين إلا بالدنيا . والملك والدين توأمان ؛ فالدين أصل والسلطان حارس ، وما لأصل له فهدوم ، وما لحارس له فضايع ، ولا يتم الملك والضبط إلا بالسلطان وطريق الضبط في فصل الحكومات بالفقه . وكان أن سياسة الخلق باسطة ليس من علم الدين في الدرجة الأولى ؛ بل هو معين على ما لا يتم الدين إلا به ، فكذلك موقفة طريق السياسة فعلم أن الحجج لا يتم إلا ببدرة تحرس من العرب في الطريق ولكن الحجج شيء وسلوك الطريق إلى الحجج شيء ثان ، والقيام بالحراسة التي لا يتم الحجج إلا بها شيء ثالث ، ومعرفة طرق الحراسة وحيلها وفوائدها شيء رابع ، وحاصل فن الفقه معرفة طرق السياسة والحراسة ويدل على ذلك ما روى مستنداً لا يفتي الناس إلا بثلاثة : أمير أو مأمر

(١) حديث : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أمياً : أي لا يحسن الكتابة : أخرجه ابن مردويه في التفسير من حديث عبد الله بن عمر مرفوعاً : أنا محمد بن أبي الأبي ، ولله ابن خزيمة ، ولان جبان والدارقطني والحاكم والبيهقي وصححه من حديث ابن مسعود . قولوا اللهم صل على محمد النبي الأبي ، ولا يفتنارى من حديث البراء : وأخذ الكتاب وليس يحسن يكتب .

أو متكلف ^(١) ، فالأمير هو الإمام وقد كانوا هم المفتون ، والمأمور نائبه ، والمتكلف غيره : وهذا الذي يتقلد تلك المهدة من غير حاجة . وقد كان الصحابة رضي الله عنهم يحتزون عن الفتوى ، حتى كان يجبل كل منهم على صاحبه ، وكانوا لا يجتزون إذا شئوا من علم القرآن وطريق الآخرة . وفي بعض الروايات بدل المتكلف : المراق ؛ فإن من تقلد خطر الفتوى وهو غير متمين للحاجة فلا يقصد به إلا طلب الجاه والمال . فإن قلت : هذا إن استقام لك في أحكام الجراسات والحدود والغرامات وفصل الخصومات ، فلا يستقيم فبما يشتمل عليه ويوع العبادات من الصيام والصلاة ولا فيما يشتمل عليه ريع العادات من المعاملات من بيان الحلال والحرام ، فاعلم أن أقرب ما يتكلم الفقيه فيه من الأعمال التي هي أعمال الآخرة ثلاثة : الإسلام والصلاة والزكاة والحلال والحرام ؛ فإذا تأملت منتهى نظر الفقيه فيها علمت أنه لا يجاوز حدود الدنيا إلى الآخرة ، وإذا عرفت هذا في هذه الثلاثة فهو في غيرها أظهر . أما الإسلام فيتكلم الفقيه فيها ليصيح منه وفيها يفسد وفي شروطه وليس يلتصق فيه إلا إلى اللسان . وأما القلب فخارج عن ولاية الفقيه لمرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم وأرباب السيوف والباطنة عنه حيث قال : « هلا شقت من قلبه ؟ » ^(٢) ، لئلا يقتل من تكلم بكلمة الإسلام معتذرا بأنه قال ذلك من خوف السيف ، بل يحكم الفقيه بصحة الإسلام تحت ظلال السيوف ، مع أنه يعلم أن السيف لم يكتمف له عن نيته ولم يدفع عن قلبه غشاوة الجهول والخيرة ، ولكنه يمتنع من على صاحب السيف فإن السيف يمتد إلى رقبته واليد تمتد إلى ماله وهذه الكلمة باللسان ترضى رقبته وماله مادام له رقة ومال ، وذلك في الدنيا ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : « امرأت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ، فإذا قاتلها فقد عصموا مني عداهم وأموالهم » ^(٣) . وجعل أثر ذلك في الدم والمال . وأما الآخرة فلا تنزع فيها الأموال بل أنوار القلوب وأسرارها وإخلاصها . وليس ذلك من الفقه ، وإن غاض الفقيه فيه كان كما لو غاض في الكلام والطب وكان خارجا عن فقه . وأما الصلاة فالفقيه يفتي بالصحة إذا أتى بصورة الأحكام مع ظاهر الشروط وإن كان غافلا في جميع صلاته من أحوال آخرها مشغولا بالتفكير في حساب ماملاته في السوق لإلصق التكبير ، وهذه الصلاة لا تنفع في الآخرة ، كان القول باللسان في الإسلام لا ينفع ، ولكن الفقيه يفتي بالصحة أي أن ما فعله حصل به امتثال صيغة الأمر وانقطع به عنه القتل والتعزير ، فأما الخشوع وإحسان القلب الذي هو عمل الآخرة وبه ينفع العمل الظاهر لا يعرض له الفقيه ولو تعرض له لكان خارجا عن فقه ، وأما الزكاة فالفقيه ينظر إلى ما يقطع به مطالبة السلطان حتى إنه إذا امتنع عن أدائها فأخذها السلطان قهرا حكم بأنه برئت ذمته . وحكي أن أبا يوسف القاضي كان يهيب ماله لزوجته آخر الخمول ويستوجب مالها إسقاطا للزكاة ، لحكي ذلك لأبي حنيفة رحمه الله فقال ذلك من فقهه . وصدق فإن ذلك من فقه الدنيا ولكن مضرت في الآخرة أعظم من كل جناية ، ومثل هذا هو العلم الضار . وأما الحلال والحرام فانزوع عن الحرام من الدين ، ولكن النوع له أربع مراتب (الأولى) النوع الذي يشترط في عدالة الشهادة ، وهو الذي يخرج بتركه الإنسان عن أهلية الشهادة والقضاء والولاية وهو الاحتراز عن الحرام الظاهر (الثانية) ورع الصالحين ، وهو التوقى من الشبهات التي يتقابل فيها الاحتمالات . قال صلى الله عليه وسلم : « دع ما يريبك إلى ما لا يريبك » ^(٤) ، وقال صلى الله عليه وسلم : « الإيمان حراز القلوب » ^(٥) ، (الثالثة) ورع

(١) حديث « لا يفتي الناس إلا ثلاثة . . . الحديث » أخرجه ابن ماجه من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده بإسناد لا يفتي على الناس ، وإسناده حسن . (٢) حديث « هلا شقت من قلبه » أخرجه مسلم من حديث أسامة بن زيد

(٣) حديث « امرأت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله . . . الحديث » متفق عليه من حديث أبي هريرة وعمر وابن عمر

(٤) حديث « دع ما يريبك إلى ما لا يريبك » أخرجه الترمذي وصححه والنسائي وابن حبان من حديث الحسن بن علي

(٥) حديث « الإيمان حراز القلوب » أخرجه البيهقي في شعب الإيمان من حديث ابن مسعود ، ورواه المدني في مسنده موافقا عليه

المتقين وهو ترك الحلال المحض الذي يخاف منه أذاه إلى الحرام . قال صلى الله عليه وسلم ، لا يكون الرجل من المتقين حتى يدع ما لا بأس به مخافة ما به بأس ^(١) . وذلك مثل التورع عن الذنوب بأحوال الناس خيفة من الانجرار إلى الفسقة ، والتورع عن أكل الشهوات خيفة من هيجان النشاط والبطر المؤدى إلى مفاخرة المجنولات (الرابعة) ورع الصديقين وهو الإعراض عما سوى الله تعالى خوفا من صرف ساعة من العمر إلى مالا يفيد بآذة قرب عند الله عز وجل وإن كان يعلم ويتحقق أنه لا يفضي إلى حرام ، فهذه الدرجات كلها عارضة عن نظر الفقيه إلا الدرجة الأولى : وهو ورع الشهود والقضاء وما يقدم في العدالة والقيام بذلك لا يفي إلا في الآخرة ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لو أبصرت قلبك ، استبنت قلبك وإن أفتركت وإن أفتركت ^(٢) ، والفقيه لا يتكلم في حرازات القلوب وكيفية العمل بها بل يفي بتقديم في العدالة فقط ، فإن جميع نظر الفقيه مرتبط بالدنيا التي بها صلاح طريق الآخرة ، فإن تكلم في شيء من صفات القلب وأحكام الآخرة فذلك يدخل في كلامه على سبيل التعامل كما قد يدخل في كلامه شيء من الطب والحساب والنجوم وعلم الكلام ، وكما تدخل الحكمة في الذوق والصبر . وكان سفيان الثوري وهو إمام في علم الظاهر يقول : إن طلب هذا ليس من زاد الآخرة ، كيف وقد انفقوا على أن الشرف في العلم العمل به فكيف يثبت أنه علم الظاهر والعمان والسلم والإجارة والصبر ، ومن تعلم هذه الأمور لينترب بها إلى الله تعالى فهو مجنون ، وإنما العمل بالقلب والجوارح في الطاعات ، والشرف هو تلك الأعمال . فإن قلت : لم سويت بين الفقه والطب إذ الطب أيضا يتعلق بالدنيا وهو صحة الجسد وذلك يتعلق به أيضا صلاح الدين ، وهذه التسوية تخالف إجماع المسلمين ؟ فأعلم أن التسوية غير لازمة بل بينهما فرق ، وأن الفقه أشرف منه من ثلاثة أوجه (أحدها) أنه علم شرعي إذ هو مستفاد من النبوة ، بخلاف الطب فإنه ليس من علم الشرع (والثاني) أنه لا يستغنى عنه أحد من سالكى طريق الآخرة أثبتة لا الصحيح ولا المريض . وأما الطب فلا يحتاج إليه إلا المرضى وهم الأقلون (والثالث) أن علم الفقه مجاور لعلم طريق الآخرة لأنه نظر في أعمال الجوارح ، ومصدر أعمال الجوارح ومنشؤها صفات القلوب ، فالحمود من الأعمال يصدر عن الأخلاق الحمودة المنجية في الآخرة ، والمذموم يصدر من المذموم ، وليس يخفى اتصال الجوارح بالقلب . وأما الصحة والمرض فلهنوهما صفات في المزاج والاختلاط وذلك من أوصاف البدن لآمن أوصاف القلب ، فهما أضيف الفقه إلى الطب ظهر شرفه ، وإذا أضيف علم طريق الآخرة إلى الفقه ظهر أيضا شرف علم طريق الآخرة . فإن قلت : فصل لي في علم طريق الآخرة تفصيلا يشير إلى تراجمه وإن لم يمكن استقصاء تفاصيله . فأعلم أنه قسمان : علم مكاشفة وعلم مأملة ، فالقسم الأول علم المكاشفة وهو علم الباطن وذلك غاية العلوم ، فقد قال بعض العارفين : من لم يكن له نصيب من هذا العلم أخاف عليه سوء الخاتمة ، وأدنى نصيب منه التصديق به وتسليمه لأهله . وقال آخر : من كان فيه خطئان لم يقبض له بشيء من هذا العلم : بدعة ، أو كبر . وقيل : من كان عبداً لدنيا أو مصراً على هوى لم يتحقق به وقد يتحقق بسائر العلوم ، وأقل عقوبة من ينكره أنه لا يصدق منه شيئاً وينشد على قوله :

وأرض لمن غاب عنك شيءته فذلك ذنب عقابه فيه

وهو علم الصديقين والمقربين ، أعنى علم المكاشفة فهو عبارة عن نور يظهر في القلب عند تطهيره وتركيبته من صفاته

(١) حديث « لا يكون الرجل من المتقين حتى يدع ما لا بأس به .. الحديث » أخرجه الترمذي وحسنه وابن ماجه والطائفة وصححه من حديث عطية السعدي . (٢) حديث « استبنت قلبك وإن أفتركت » أخرجه أحمد من حديث واجبة .

المذمومة ، ويتكشف من ذلك الدور أمور كثيرة كان يسمع من قبل أسماها فيتوهم لها معاني مجملة غير متضحة ، فتضج إذ ذاك حتى تحصل المعرفة الحقيقية بذات الله سبحانه ، وبصفاته الباقيات التامات ، وبأفعاله ، وبمحبه في خلق الدنيا والآخرة ، ووجه تربيته للأخرة على الدنيا ، والمعرفة بمعنى التوبة والتوبى ، ومعنى الوحى ، ومعنى الشيطان ، ومعنى لفظ الملائكة والشياطين ، وكيفية معاداة الشياطين للإنسان ، وكيفية ظهور الملك للإنبياء ، وكيفية وصول الوحى إليهم ، والمعرفة بملكوته السموات والأرض ، ومعرفة القلب وكيفية تصادم جنود الملائكة والشياطين فيه ، ومعرفة الفرق بين لمة الملك و لمة الشيطان ، ومعرفة الآخرة واللجنة والنار وعذاب القبر والصراط والميزان والحساب ، ومعنى قوله تعالى ﴿ اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا ﴾ ومعنى قوله تعالى ﴿ وإن الدار الآخرة لى الحيوان لو كانوا يعلمون ﴾ ومعنى لقاء الله عز وجل والنظر إلى وجهه الكريم ومعنى القرب منه والتزول في جواره ، ومعنى حصول السعادة بمرافقة الملائكة الأعلى ومقارنة الملائكة والدينين ، ومعنى تفاوت درجات أهل الجنان حتى يرى بعضهم البعض كما يرى الكوكب الدزى في جوف السماء إلى غير ذلك مما يطول تفصيله ، إذ الناس في معاني هذه الأمور بعد التصديق بأسرها مقامات شتى ، فبعضهم يرى أن جميع ذلك أمثلة وأن الذى أعدّه الله لعباده الصالحين مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، وأنه ليس مع الخلق من الجنة إلا الصفات والأسماء . وبعضهم يرى أن بعضها أمثلة وبعضها يوافق حقائقها المفهومة من النماطها ، وكذا يرى بعضهم أن منهن معرفة الله عز وجل الاعتراف بالمعز عن معرفته ، وبعضهم يذهب أموراً عظيمة في المعرفة بالله عز وجل ، وبعضهم يقول حد معرفة الله عز وجل ما انتهى إليه اعتقاد جميع العوام : وهو أنه موجود عالم قادر سميع بصير متكلم ، فتمنى يعلم المسكافة أن يرتفع الظاه حتى تتضح له جليلة الحق في هذه الأمور انصافاً يجرى بجرى البيان الذى لا يشك فيه ، وهذا ممكن في جوهر الإنسان لولا أن مرآة القلب قد تراكم صدورها وخبثها بفاذورات الدنيا ، وإنما نعى يعلم طريق الآخرة : العلم بكيفية تفصيل هذه المرأة عن هذه الخبايا التى هى المحجوب عن الله سبحانه وتعالى وعن معرفة صفاته وأفعاله ، وإنما تصفيتها وتطهيرها بالكف عن الشهوات والابتداء بالأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم في جميع أحوالهم ، فيقدر ما يتجلى من القلب ويحاذى في شطر الحق يتلأأ فيه حقائقه ، ولا سبيل إليه إلا بالرياضة التى يأتى تفصيلها في موضعها ، وبالعلم والتعليم ، وهذه هى العلوم التى لا تسطر في الكتب ولا يتحدث بها من أنعم الله عليه بشئ منها إلا مع أهله ، وهو المشارك فيه على سبيل المناكرة ، وبطريق الأسرار ، وهذا هو العلم الحقيقى الذى أرادته صلى الله عليه وسلم بقوله « إن من العلم كهيئة السكن لا يملكه إلا أهل المعرفة بالله تعالى ، فإذا نطقوا به لم يجهله إلا أهل الاختيار بالله تعالى فلا تخفروا عالماً آتاه الله تعالى علماً منه ، فإن الله عز وجل لم يحقره إذ آتاه إياه ^(١) ، وأما القسم الثانى :

وهو علم العامة ، فهو علم أحوال القلب : أما ما يحمده منها فكالتصبر ، والشكر ، والخرق ، والرجاء ، والرضا ، والزهد ، والتفوى ، والناعية ، والسخاء ، ومعرفة الله تعالى في جميع الأحوال ، والإحسان ، وحسن الظن ، وحسن الخلق ، وحسن المعاشرة ، والصدق ، والإخلاص ، لمعرفة حقائق هذه الأحوال وحدودها وأسبابها التى بها تتكسب ثمرتها وعلامتها ومعالجتها ما ضعف منها حتى يقوى وما زال حتى يعود من علم الآخرة ،

(١) حديث « إن من العلم كهيئة السكن ... الحديث » رواه أبو عبد الرحمن السلسى فى الأربعين له فى التصوف من حديث ابن هريرة بإسناد ضيف .

وأما ما يلزم ، غفوف الفقر ، وحفظ المقدور ، والنل ، والحقد ، والحسد ، والغش ، وطلب العلو ، وحب النساء ، وحسب طول البقاء في الدنيا للتمتع ، والكبر ، والرياء ، والغضب ، والأفنة ، والعداوة ، والبغضاء والطمع ، والبخل ، والرغبة ، والبذخ ، والأشر ، والبطر ، وتعميم الأغنياء ، والاستهانة بالفقراء ، والفخر ، والجلاء ، والتنافس ، والمباهاة والاستبكار عن الحق ، والحوض قفيا لا يحنى ، وحسب كثرة الكلام ، والصلف ، والترفن للخلق ، والمداينة ، والمجب ، والاشتغال عن عيوب النفس بعيوب الناس ، وزوال الحزن من القلب ، وخروج الخمية منه ، وشدة الانتصار للنفس إذا نالها الذل ، وضد الانتصار للحق ، واتخاذ إخوان الملاينة على عداوة السر ، والأمن من مكر الله سبحانه وتعالى في سلب ما أعطى ، والانتكال على الطاعة ، والمكر ، والخيانة ، والمخادعة وطول الأمل ، والقسوة ، والفنطاة ، والفرح بالدنيا والأسف على فواتها ، والأنس بالخلوين والوحشة لفرافهم والجفاء ، والطيش ، والدجلة ، وقلة الحياء ، وقلة الرحمة ، فهذه وأمثالها من صفات القاب مضارس القواش ومنايات الأعمال المحظورة . وأحدادها - وهي الأخلاق المحمودة - منيع الطاعات والقرابات ، فالعلم بحدود هذه الأمور وحققاتها وأسبابها وثمراتها وعلاجها هو علم الآخرة ، وهو فرض عين في فترى علماء الآخرة ، فالمرض عنها هالك بسطوة ملك الملوك في الآخرة ، كما أن المرض عن الأعمال الناصرة هالك بسيف سلاطين الدنيا بحكم فترى فقهاء الدنيا ، فظفر الفقهاء في فروض العين بالإضافة إلى صلاح الدنيا ، وهذا بالإضافة إلى صلاح الآخرة . ولو سئل فقيه عن معنى من هذه المعاني حتى عن الإخلاص مثلا عن التوكل أو عن وجه الاحتراز عن الرياء لتوقف فيه مع أنه فرض عينه الذي في إمامه هلاك في الآخرة ، ولو سأله عن اللبان والظهار والسيق والرى لسرد عليك مجلدات من التفريعات الدقيقة التي تقضى الدمور ولا يحتاج إلى شيء منها ، وإن احتيج لم تحل البلد ممن يقوم بها ويكفيه مؤنة التعب فيها ، فلا يزال يترتب فيها ليلا ونهاراً وفي حفظه ودرسه ينفعل عما هو مهم في نفسه في الدين ، وإذا روجع فيه قال : اشتغلت به لأنه علم الدين وفرض الكفاية ويلبس على نفسه وعلى غيره في عمله ، والفتن يعلم أنه لو كان غرضه أداء حق الأمر في فرض الكفاية لقدّم عليه فرض العين ، بل قدم عليه كثيراً من فروض الكفايات : فمكّم من بلدة ليس فيها طيب إلا من أهل الذمة ولا يجوز قبول شهادتهم فيها يتعان بالأطباء من أحكام الفقه ، ثم لا يرى أحداً يشتغل به ، ويتهاونون على علم الذمة لاسيما الخلافات والجدليات والبلد ممنوع من الفقهاء بمن يشتغل بالفتوى والجواب عن الوقائع ؛ فليت شعري كيف يرضخ فقهاء الدين في الاشتغال بفرض كفاية قد قام به جماعة وإماماً مالا تأتم به ؟ هل لهذا سبب إلا أن الطب ليس يتيسر الوصول به إلى تولى الأوقاف وأوصايا وحيازة مال الأيتام ونقله القضاء والحكومة والتقدم به على الأفران والتسلط به على الأعداء ؟ هيئات هيئات ، قد اندرس علم الدين بتلايس العلماء السوء ؛ فآله تعالى المستعان وإليه الملاذ في أن يميزنا من هذا الغرور الذي يسخط الرحمن ويضحك الشيطان ، وقد كان أهل الورع من علماء الظاهر مقروين بفضل علماء الباطن وأرباب القلوب : كان الإمام الشافعي رضى الله عنه يجلس بين يدي شبان الراعي كما يقعد الصبي في المكتب ويسأله : كيف يفعل في كذا وكذا ؟ فيقال له : مثلك يسأل هذا البدوي ؟ فيقول : إن هذا وفق لما أغفناه . وكان أحمد بن حنبل رضى الله عنه ويحيى بن معين يختلفان إلى معروف الكرخي ولم يكن في علم الظاهر بمنزلةهما وكانا يسألانه ، وكيف وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لساقيل له كيف تفعل إذا جاءنا أمر لم نجد في كتاب ولا سنة ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : سلوا الصالحين واجملوه شورى

بينهم ^(١) ، ولذلك قيل : علماء الظاهر زينة الأرض والملك ، وعلماء الباطن زينة السماء والمذكّرات . وقال الجليدر حه انه قال للمري شيخ يوماً : إذا قت من عدى فن تجالس ؟ قلت : المحاسن ، فقال : نعمخذ من عله وأدته ، ودع عنك تشقية الكلام ورده على المتكلمين ، ثم لما وليت سمعته يقول : «ذلك الله صاحب -ديث صوفياً ولا جملك صوفياً صاحب -ديث: أشار إلى أن من حصل الحديث والعلم ثم تصوف أفلح ، ومن تصوف قبل العلم غاظر بنفسه » فإن قلت : فلم لم يورد في أقسام العلوم : الكلام والفلسفة ، وتبين أنهما مذبومان أو محردان ؟ فأعلم أن حاصل ما يشتمل عليه علم الكلام من الأدلة التي ينتفع بها ، فالقرآن والأخبار مشتملة عليه ، وما خرج عنهما فهو إما مجادلة مذبومة وهي من البدع كما سيأتي بيانه ، وإما مشاغبة بالتحلق بمناقضات الفرق لها ، وتطويل بقول لمقالات التي أكثرها ترهات وهذيانات تزدها الطباع وتجهها الاسماع ، وبعضها خوض فيما لا يتعاق بالدين ولم يكن شيء منه مألوفاً في العصر الأول وكان الخوض فيه بالكلية من البدع ، ولكن تغير الآن حكمه إذ حدثت البدعة الصارفة عن مقتضى القرآن والسنة ، وتبنت جماعة لقعها لها شيئاً رتبوا فيها كلاماً مؤلفاً ، فصار ذلك المحذور بحكم الضرورة مأذوناً فيه ، بل صار من فروض الكفايات وهو القدر الذي يقابل به المبتدع إذا قصد الدعوة إلى البدعة ، وذلك إلى حد محدود - سذكروه في الباب الذي يلي هذا إن شاء الله تعالى - وأما الفلسفة فليست علماً برأسها بل هي أربعة أجزاء (أحدها) الهندسة والحساب ، وهما مباحان كما سبق ولا يمنع عنهما إلا ما يخاف عليه أن يتجاوز بهما إلى علوم مذبومة : فإن أكثر المارسين لها قد خرجوا عنهما إلى البدع ، فبصان الضعيف عنهما - لا لعينهما - كما بصان عصبي عن شاطيء التهر خيفة عليه من الوقوع في التهر وكما بصان حديث العهد بالإسلام عن مخالطة الكفار خوفاً عليه ، مع أن أقوى لا يندب إلى مخالطتهم (الثاني) المنطق وهو بحث عن وجه الدليل وشروطه ، ووجه الحد وشروطه ، وهما داخلان في علم الكلام (الثالث) الطبيعيات ، وهو بحث عن ذات الله سبحانه وتعالى وصفاته ؛ وهو داخل في الكلام أيضاً ، والفلاسفة لم ينفردوا فيها بنمط آخر من العلم ، بل انفردوا بمذاهب : بعضها كفر وبعضها بدعة ، وكما أن الاعتزال ليس علماً برأسه بل أصحابه طائفة من المتكلمين وأهل البحث والنظر انفردوا بمذاهب باطلة ، فكذلك الفلاسفة (الرابع) الطبيعيات ، وبعضها مخالف للشرع والدين والحق ، فهو جهل وليس بعلم حتى يورده في أقسام العلوم ، وبعضها بحث عن صفات الاجسام وخواصها وكيفية استحالتها وتغيرها ، وهو شبه بنظر الاطباء ؛ إلا أن الطبيب ينظر في بدن الإنسان على الخصوص من حيث يمرض ويصح ، وهم ينظرون في جميع الاجسام من حيث تتغير وتتحرك ؛ ولكن للطب فضل عليه وهو أنه محتاج إليه . وأما علومهم في الطبيعيات فلا حاجة إليها فإذا علم الكلام صار من جملة الصناعات الواجبة على الكفاية حراسة لقلوب العوام عن تخيلات المبتدعة ، وإنما حدث ذلك بحدوث البدع كما حدثت حاجة الإنسان إلى استئجار البئرقة في طريق الحج بحدوث ظلم العرب وقطعهم الطريق ؛ ولو ترك العرب عدوانهم لم يكن استئجار الحراس من شروط طريق الحج ؛ فلهذا لم يترك المبتدع هذيانها لما افتقر إلى الزيادة على ما عهد في عصر الصحابة رضي الله عنهم ؛ فليعلم المتكلم حكمه من الدين وأن موقعه منه موقع الحارس في طريق الحج ؛ فإذا تجرد الحارس للحراسة لم يكن من جملة الحاج ، والمتكلم إذا تجرد للنظر والمداغة ولم يسلك طريق الآخرة ولم يشتغل بتمهيد

(١) حديث : قيل له كيف تعلم إذا جاء أمر لم تفهم في كتاب الله ولا سنة رسوله ؟ ... الحديث ، رواه الطبراني من حديث ابن عباس وفيه عبد الله بن كيسان ضمنه الجمهور .

الذباب وصلاحه لم يكن من جملة علماء الدين أصلاً ، وليس عند المتكلم من الدين إلا العقيدة التي شاركه فيها سائر العوام وهي من جملة أعمال ظاهر القلب واللسان ، وإنما يتميز عن العوام بصنعة المجادلة والحراسة ، فأما معرفة الله تعالى وصفاته وأفعاله وجميع ما أشرنا إليه في علم المكاشفة فلا يحصل من علم الكلام ، بل يكاد أن يكون الكلام حجاباً عليه ، وإنما الوصول إليه بالمجاهدة التي جعلها الله سبحانه مقدمة الهداية حيث قال تعالى ﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبيلاً وإن الله مع المحسنين﴾ . فإن قلت : فقد رددت حد المتكلم إلى حراسة عقيدة العوام عن تمويش المبتدعة ، كما أن حد البفورة حراسة أفعمة الحجاج عن نهب العرب ، ورددت حد الفقيه إلى حفظ القانون الذي به يكف السلطان شر بعض أهل المدوان عن بعض ، وهاتان ردتان نازلتان بالإضافة إلى علم الدين ، وعلماء الأمة المشهورون بالفضل هم الفقهاء والمتكلمون وهم أفضل الخلق عند الله تعالى ، فكيف تنزل درجاتهم إلى هذه المنزلة السافلة بالإضافة إلى علم الدين ؟ فأعلم أن من عرف الحق بالرجال حار في متاحف الضلال ، فأعرف الحق أدرك أهله إن كنت سالكاً طريق الحق ، وإن قمت بالتقليد والنظر إلى ما اشتهر من درجات الفضل بين الناس فلا تغفل عن الصحابة وعلو مناصبهم ، فقد أجمع الذين عرضت بذكرهم على تقدمهم وأنهم لا يدرك في الدين شأوم ولا يمتق غبارهم ولم يكن تقدمهم بالكلام والفقه بل بعلم الآخرة وسلوك طريقها ، وما فضل أبو بكر رضي الله عنه الناس بكثرة صيام ولا صلاة ولا بكثرة رواية ولا فتوى ولا كلام ، ولكن بشيء وقر في صدره ^(١) كما شهد له سيد المرسلين صلى الله تعالى عليه وسلم ؛ فليكن حرصك في طلب ذلك السر فهو الجوهر النفيس والدر المسكون ، ودع عنك ما تطابق أكثر الناس عليه وعلى تفخيمه وتعلظيه لأسباب ودواعي بطول تفصيلها ، فلقد قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم عن آلاف من الصحابة رضي الله عنهم كلهم علماء بالله ، أتى عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم يكن فيهم أحد يحسن صنعة الكلام ، ولا نصب نفسه للفتيا منهم أحد إلا بضعة عشر رجلاً ، ولقد كان ابن عمر رضي الله عنهما منهم ، وكان إذا سئل عن الفتيا يقول السائل : اذهب إل فلان الأمير الذي تفقه أمور الناس ، وضعا في عنقه إشارة إلى أن الفتيا في القضايا والاحكام من توابع الولاية والسلطنة ، ولما مات عمر رضي الله عنه قال ابن مسعود : مات تسعة أعشار العلم ، فقيل له : أقول ذلك وفيما جملة الصحابة ؟ فقال : لم أرد علم الفتيا والاحكام إنما أريد العلم بالله تعالى ، أفترى أنه أراد صنعة الكلام والجدل ، فما بالك لا تحرص على معرفة ذلك العلم الذي مات بموت عمر تسعة أعشاره ، وهو الذي سد باب السلام والجدل وضرب ضيقاً بالقدرة لما أورد عليه سؤالا في تمارض آيتين في كتاب الله ، وهجره وأمر الناس بهجره وأما قولك إن المشهورين من العلماء هم الفقهاء والمتكلمون ، فأعلم أن ما ينال به الفضل عند الله شيء وما ينال به الشهرة عند الناس شيء آخر ؛ فلقد كان شهرة أبي بكر الصديق رضي الله عنه بالخلافة وكان فضله بالسر الذي يقر في قلبه وكان شهرة عمر رضي الله عنه بالسياسة وكان فضله بالعلم بالله الذي مات تسعة أعشاره بموته ، وبقصده التقرب إلى الله عز وجل في ولايته وعدله وشفقته على خلقه ، وهو أمر باطن في سره ، فأما سائر أفعاله الظاهرة فيتصور صدورهما من طالب الجلاء والاسم والسمة والراغب في الشهرة ، فتكون الشهرة فيها هو المهلك ، والفضل فيها هو السالم لا يطلع عليه أحد ، فالفقهاء والمتكلمون مثل الخلفاء والفضلاء والعلماء ، وقد انقسموا ، فبعضهم أراد الله سبحانه ببله وقتل أو ذبحه عن

(١) حديث « ما فضل أبو بكر الناس بكثرة صلاة ولا كثرة صيام ... الحديث » أخرجه الترمذي المحكم في التواتر من قول أبي بكر بن عبد الله المزني ولم يثبت من غيره

سنة نفيه ولم يطلب به رياء ولا سمعة ، فأولئك أهل رضوان الله تعالى وفضلهم عند الله أعلمهم بعلمهم وإرادتهم وجه الله سبحانه بفتروهم ونظرهم ، فإن كل علم عمله فإله فعل مكتسب ، وليس كل عمل علما ، والطبيب يقدر على التقرب إلى الله تعالى بعمله فيكون مثابا على عمله من حيث إنه عامل لله سبحانه وتعالى به ، والسلطان ينوسط بين الخلق فهو فيكون مرضيا عند الله سبحانه ومثابا ، لامن حيث إنه متكفل بعلم الدين ، بل من حيث هو متفقد بعمل يقصد به التقرب إلى الله عز وجل بعمله . وأقسام ما يتقرب به إلى الله تعالى ثلاثة : علم مجرد وهو علم المكاشفة ، وعمل مجرد وهو كمد السلطان مثلا وضبطه للناس ، ومركب من عمل وعلم وهو علم طريق الآخرة فإن صاحبه من العلماء والعامل جميعا ، فانظر إلى نفسك أنك يوم القيامة في حزب علماء الله ، وأعمال الله تعالى ، أوف حزيهما فتعزب بهمك مع كل فريق منهما ، فهذا أهم عليك من التقليد مجرد الاشهار كما قيل :

خذ ما تراه ودع شيئا سمعت به في طاعة الشمس ما يضيئك عن زحل

على أنا سنقل من سيرة فقهاء السلف ما قل به أن الذين انتحلوا مذاهبهم ظلوم وأنهم من أشد خصمايتهم يوم القيامة فإنهم ما قصدوا بالعلم إلا لوجه الله تعالى ، وقد شوهه من أحوالهم ما هو من علامات علماء الآخرة كسبائقي بيانه في باب علامات علماء الآخرة ، فإنهم ما كانوا متجردين لعلم الفقه ، بل كانوا مشغولين بعلم القلوب ومراقبين لها ، ولكن صرفهم عن التدريس والتصنيف فيه ما صرف الصحابة عن التصنيف والتدريس في الفقه ، مع أنهم كانوا فقهاء مستقيين بعلم الفتوى والعصاف والدواعي متيقنة ، ولا حاجة إلى ذكرها .

و نحن الآن نذكر من أحوال فقهاء الإسلام ما تعلم به أن ما ذكرناه ليس طعنا فيهم بل هو طعن فيمن أظهر الانتباه بهم منتحلا مذاهبهم وهو مخالف لهم في أعمالهم وسيرهم ، فالفقهاء الذين هم زعماء الفقه وقادة الخلق - أعني الذين كثر اتباعهم في المذاهب خمسة : الشافعي ، ومالك ، وأحمد بن حنبل ، وأبو حنيفة ، وسفيان الثوري رحمهم الله تعالى . وكل واحد منهم كان عابدا وزاهدا وعالما بعلوم الآخرة وفقها في مصالح الخلق في الدنيا ومربيا بفقهم وجهاته تعالى ، فهذه خمس خصال اتبهم فقهاء العصر من جملتها على خصلة واحدة وهي التدمير والمبالغة في تفاريع الفقه ، لأن الحاصل الأربع لا تصلح إلا للآخرة ، وهذه الخصلة الواحدة تصلح الدنيا والآخرة ، إن أريد بها الآخرة قل صلاحها للدنيا شروها وادعوا بها مشابة أولئك الأئمة ، وهيات أن تقاس الملامكة بالحدادين ، فتوردا الآن من أحوالهم ما يدل على هذه الحاصل الأربع ، فإن معرفتهم بالفقه ظاهرة .

أما الإمام الشافعي رحمه الله تعالى فيدل على أنه كان عابدا ما روي أنه كان يقسم الليل ثلاثة أجزاء : ثلثا للعلم ، وثلثا للعبادة . وثالثا للنوم . قال الربيع : كان الشافعي رحمه الله يحتم القرآن في رمضان ستين مرة كل ذلك في الصلاة . وكان البويطي أحد أصحابه يحتم القرآن في رمضان في كل يوم مرة . وقال الحسن الكرايبي : بت مع الشافعي غير ليلة فكان يصلي نحو من ثلث الليل فما رأيته يريد على خمسين آية ، فلذا أكثر فائته آية ، وكان لا يمر بأية رحمة إلا سأل الله لنفسه ولجميع المسلمين والمؤمنين ، ولا يمر بأية عذاب إلا تمود فيها وسأل النجاة لنفسه وللمؤمنين ، وكأنما جمع له الرجاء والخوف معا ، فانظر كيف يدل اقتصاره على خمسين آية على تبحره في أسرار القرآن وتدبره فيها وقال الشافعي رحمه الله : ما شيعت منذ ست عشرة سنة لأن الشيع يثقل البدن ويقس القلب ويزيل الفطنة ويجلب النوم ويضعف صاحبه عن العبادة ، فانظر إلى حكمته في ذكر آفات الشيع ، ثم في جده في العبادة ، إذ طرح الشيع لأجلها ، ورأس التبعيد تقليل الطعام . وقال الشافعي رحمه الله : ما حلفت بالله تعالى لاصداقا ولا كاذبا قط ، فانظر

إلى حرمة وتوقيره لله تعالى ، ودلالة ذلك على عليه بجلال الله سبحانه . وسئل الشافعي رضي الله عنه عن مسألة فسكت ، فقيل له : لا تجيب رحمة الله ؟ فقال : حتى أدرى الفضل في سكوتي أوفى جوابي ؟ فأنظر في مرايته السانة مع أنه أشد الأعضاء تسلطا على الفقهاء وأعصاما عن الضبط والقهر ، وبه يستبين أنه كان لا يتكلم ولا يهتك لا لثيل الفضل وطلب الثواب . وقال أحمد بن يحيى بن الوزير : خرج الشافعي رحمة الله تعالى يوما من سوق القناديل فقبضناه فلذا رجل يسفه على رجل من أهل العلم ، فالتفت الشافعي إلينا وقال : زهوا أسماهكم عن استماع الحناكا تزهون ألسنتكم عن العلق به ، فإن المستمع شريك القائل ، وإن السفيه لينظر إلى أخيب شيء في إنبائه فيحرص أن يفرغه في أوعيتكم ولو ردت كلمة السفيه لسعد رادها كما شق بها قائلها . وقال الشافعي رضي الله عنه : كذب حكيم إلى حكيم : قد أوتيت علما فلا تدنس عليك بثلثة الذنوب فتبق في الظلمة يوم يسمى أهل العلم بنور علمهم . وأما زهده رضي الله عنه فقد قال الشافعي رحمه الله : من ادعى أنه جمع بين حب الدنيا وحب مخالفتها في قلبه فقد كذب . وقال الحميدي : خرج الشافعي رحمه الله إلى اليمن مع بعض الولاة فأنصرف إلى مكة بعشرة آلاف درهم فغضب له نساء في موضع خارجا من مكة فكان الناس يأثونه ، لما برح من موضعه ذلك حتى فرغها كلها . وخرج من الجاهلية فأعطى الخبيء ما لا يحصى . وسقط سوطه من يده مرة فرفعه لسان إليه فأعطاه جوار عليه خمسين ديناراً . وسخارة الشافعي رحمه الله أشهر من أن تحصى ورأس الزهد السخاء ، لأن من أحب شيئا أسكه ولم يفارق المال إلا من صغرت الدنيا في عينه وهو معنى الزهد . ويدل على قوة زهده وشدة خوفه من الله تعالى واشتغال همه بالآخرة : ما روى أنه روى سفيان بن عيينة حديثاً في الرقاق فنشئ على الشافعي فقيل له : قد مات ، فقال : ان مات فقد مات أفضل زمانه . وما روى عبد الله بن محمد البولي قال : كنت أنا وعمر بن نباتة جلوساً نتذكر العباد والزهاد فقال لي عمر : ما رأيت أروع ولا أفصح من محمد بن إدريس الشافعي رضي الله عنه : خرجت أنا وهو والحارث بن ليبي إلى الصفا وكان الحارث تلميذ الصالح المري فافتتح قفراً وكان حسن الصوت ، فقرأ هذه الآية عليه ﴿ هذا يوم لا ينطقون ولا يؤذن لهم فيعتذرون ﴾ فرأيت الشافعي رحمه الله وقد تغير لونه واقتصر جلده واضطرب اضطراباً شديداً وخر منشياً عليه فلما أفاد جمل يقول : أعوذ بك من مقام الكاذبين وإعراض الغافلين ، اللهم لك خضعت قلوب البارفين وذلت لك المشتاقين ، إلهي هب لي جودك وجلتي بترك واعف عن تقصيري بكرم وجهك . قال : ثم مضى وانصرفنا فلما دخلت بغداد وكان هو بالعراق فقمعت على الشط أتوا للصلاة إذ سرق رجل فقال لي : يا غلام أحسن وضوءك أحسن الله إليك في الدنيا والآخرة ، فالتفت فإذا أنا برجل بقمع جماعه ، فأسرعت في وضوئي وجعلت أقفوا أثره ، فالتفت إلى فقال : هل لك من حاجة ؟ فقلت : نعم ، تعلمني ما عليك الله شيئاً ، فقال لي أعلم أن من صدق الله نجا ، ومن أشفق على دينه سلم من الردى ، ومن زهد في الدنيا قربت عتاه بما يراه من ثواب الله تعالى غدا ، أفلا أزيدك ؟ قلت : نعم . قال من كان فيه ثلاث خصال فقد استكمل الإيمان : من أمر بالمعروف واتمر ونهى عن المنكر وانتهى ، وحافظ على حدود الله تعالى ، ألا أزيدك ؟ قلت بلى ، فقال : كن في الدنيا زاهدا وفي الآخرة راغبا واحصد الله تعالى في جميع أمورك تتج مع التاجين ، ثم مضى ، فسألت : من هذا ؟ فقالوا : هو الشافعي فأنظر إلى سقوطه منشياً عليه ثم إلى وعظه كيف يدل ذلك على زهده وغاية خوفه ولا يحصل هذا الخوف والزهد إلا من معرفة الله عز وجل فإنه ﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماء ﴾ ولم يستفد الشافعي رحمه الله هذا الخوف والزهد من علم كتاب السلم والإجارة وسائر كتب الفقه ، بل هو من علوم الآخرة المستخرجة من القرآن والأخبار .

لأحكام الأولين والآخرين مودعة فيها . وأما كونه عالما بأسرار القلب وعلوم الآخرة فمعرفة من الحكم المأثورة عنه ، روى أنه سئل عن الرباء فقال على البديهة : الرباء فتنة عقدها الهوى حيال أبصار قلوب العلماء فظنوا إنها بسوء اختيار النفوس فأحبطت أعمالهم . وقال الشافعي رحمه الله تعالى : إذا أنت خفت حل عملك المذهب فانظر رضا من تطلب ؟ وفي أي ثواب ترغب ؟ ومن أي عقاب ترهب ؟ وأي عافية تشكر ؟ وأي بلاء تذكر ؟ فإنك إذا تفكرت في واحد من هذه الخصال صفر في عينك عملك ، فانظر كيف ذكر حقيقة الرباء وعلاج المذهب وهما من كبار آفات القلب ! وقال الشافعي رضي الله عنه : من لم يصن نفسه لم ينفعه علمه . وقال رحمه الله : من أطاع الله تعالى بالمعلم نفعه سره . وقال : ما من أحد إلا له محب ومبغض ، فإذا كان كذلك فكأن مع أهل طاعة الله عز وجل ، وروى أن عبد القاهر بن عبد العزيز كان رجلا صالحا ورعا وكان يسأل الشافعي رضي الله عنه عن مسائل في الورع والشافعي رحمه الله يقبل عليه لورعه ، وقال للشافعي يوما : أيما أفضل الصبر أو المحنة أو التمكن ، فقال الشافعي رحمه الله : التمكن درجة الأنبياء ، ولا يكون التمكن إلا بعد المحنة ، فإذا امتحن صبرا وإذا صبرمكن ! ألا ترى أن الله عز وجل امتحن إبراهيم عليه السلام ثم مكته ، وامتحن موسى عليه السلام ثم مكته ، وامتحن أيوب عليه السلام ثم مكته ، وامتحن سليمان عليه السلام ثم مكته وآتاه ملكا ، والتمكن أفضل الدرجات ، قال الله عز وجل ﴿ وكذلك مكنا يوسف في الأرض ﴾ وأيوب عليه السلام بعد المحنة العظيمة مكنا ، قال الله تعالى ﴿ وآتيناه أمهه ومالههم مدهم ﴾ الآية فهذا الكلام من الشافعي رحمه الله يدل على تبخره في أسرار القرآن وإطلاعه على مقامات السائرين إلى الله تعالى من الأنبياء والأولياء ، وكل ذلك من علوم الآخرة . وقيل للشافعي رحمه الله : متى يكون الرجل عالما ؟ قال : إذا تحقق في علم الدين فعله وتعرض لآثار العلوم فغار فيها غارة فغند ذلك يكون عالما ، فإنه قيل لجانيس إنك تأمر العلماء الواحد بالادوية الكثيرة المجدمة فقال : إنما المقصود منها واحد وإنما يحمل معه غيره لتسكن حدة لأن الأفراد قاتل ، فهذا وأمثاله مما لا يحصى يدل على علو رتبته في معرفة الله تعالى وعلوم الآخرة . وأما إرادته بالفقه والمناظرة فيه وجه الله تعالى : فيدل عليه ما روى عنه قال : رددت أن الناس اتفقوا بهذا العلم وما نسب إلي شيء منه ، فانظر كيف اطلع على آفة العلم وطلب الاسم له وكيف كان منزله القلب عن الالتفات إليه مجرد التنية فيه لوجه الله تعالى . وقال الشافعي رضي الله عنه . ما ناظرت أحدا قط فأجبت أن ينطلي . وقال : ما كنت أحدا قط إلا أسجبت أن يوفق ويسد ويؤمن ويكون عليه رعاية من الله تعالى وحفظ ، وما كنت أحدا قط وأنا بال أن يبين الله الحق على لسان أو على لسانه : وقال : ما أوردت الحق والحجة على أحد فقبلها حتى إلا بهته واعتقدت محبته ، ولا كابرني أحد على الحق ودافع الحجة إلا سقط من عيني ورفضته ، فهذه العلامات هي التي يدل على إرادة الله تعالى بالفقه والمناظرة ، فانظر كيف تابعه الناس من جملة هذه الخصال الحسن على خصلة واحدة فقط ، ثم كيف خالفوه فيها أيضا ، ولهذا قال أبو ثور رحمه الله : ما رأيت ولا رأى الرامد من مثل الشافعي رحمه الله تعالى . وقال أحمد بن حنبل رضي الله عنه : ما صليت صلاة منذ أربعين سنة إلا وأنا أدهو للشافعي رحمه الله تعالى ، فانظر إلى إنصاف الناس وإل درجة المدهوله وقس به الأقران والأمثال من العلماء في هذه الأعصار وما ينبت من المشاحنة والبغضاء لتعلم قصيرهم في دعوى الاقتداء بهؤلاء ، ولكنة دعامته له قال له ابنه : أي رجل كان الشافعي حتى تمدحه كل هذا النباه ؟ فقال أحمد : يأتي كان الشافعي رحمه الله تعالى كالشمس للناس ، فانظر هل لمذين من خلف وكان أحمد رحمه الله يقول : ما من أحد يبدو محبة إلا وللشافعي رحمه الله في حقته منه . وقال يحيى بن سعيد القطان :

ما صلبت صلاة منذ أربعين سنة إلا وأنا أدعو فيها للشافعي لما فتح الله عز وجل عليه من العلم ووفقه للسناد فيه . وانتقصر على هذه التبذة من أحواله فإن ذلك خارج عن المحصر ، وأكرهه المناقب نقلناه من الكتاب الذي صنه الشيخ نصر بن إبراهيم المقدسي رحمه الله تعالى في مناقب الشافعي رضي الله عنه وعن جميع المسلمين .

وأما الإمام مالك رضي الله عنه فإنه كان أيضاً متحلياً بهذه الحاصل الحسن ، فإنه قيل له : ما تقول بإمالك في طلاب العلم ؟ فقال : حسن جميل ولكن انظر إلى الذي يلزمك من حين تصبح إلى حين تمسي فأزعم ، وكان رحمه الله تعالى في تعظيم علم الدين مبالغاً ، حتى كان إذا أراد أن يتحدث تواضعاً وجلس على صدر فراشه وشرح لميته واستعمل الطيب وتمسك من الجلوس على وقار وغيبة ثم حدث ، فقيل له في ذلك فقال : أحب أن أعظم حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقال مالك : العلم نور يجعله الله حيث يشاء وليس بكثير قالوا به ، وهذا الاحترام والتوقير يدل على قوة معرفته بجلال الله تعالى . وأما إرادته وجه الله تعالى بالعلم فيدل عليه قوله : الجدل في الدين ليس بشيء . ويدل عليه قول الشافعي رحمه الله : إني شهدت مالكا وقد سئل عن ثمان وأربعين مسألة فقال في اثنين وثلاثين منها : لا أدري . ومن يرد غير وجه الله تعالى بعله فلا تسمع نفسه بأن يقر على نفسه بأنه لا يدري ، ولذلك قال الشافعي رضي الله عنه : إذا ذكر العلماء فإليك النجم الثاقب ، وما أحد أمن على من مالك . وروى أن أبا جعفر المنصور منعه من رواية الحديث في طلاق المكره ثم دس عليه من يسأله ، فروى على ملا من الناس : ليس على مستكره طلاق ، فعضبه بالسياسة ، ولم يترك رواية الحديث . وقال مالك رحمه الله : ما كان رجل صادقاً في حديثه ولا يكذب إلا متع بعقله ولم يصبه مع الهرم آفة ولا خرف . وأما زعمه في الدنيا فيدل عليه ما روى أن المهدي أمير المؤمنين سأله فقال له : هل لك من دار ؟ فقال : لا ولكن أحذلك ، سمعت ربيعة بن أبي عبد الرحمن يقول : نسب المرء داره ، وسأله الرشيد : هل لك دار ؟ فقال : لا ، فأعطاه ثلاثة آلاف دينار وقال : اشتر بها داراً فأخذها ولم ينفقها ، فلما أراد الرشيد الشخص قال لمالك رحمه الله : ينبغي أن تخرج متناً فاني عومت على أن أحل الناس على الموطأ كما حل عثمان رضي الله عنه الناس على القرآن ، فقال له : أما حل الناس على الموطأ فليس إليه سبيل ، لأن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم اختلفوا بعده في الأمصار فحفظوا ، فمئذ كل أهل مصر علم وقد قال صلى الله عليه وسلم : اختلاف أممي رحمة ^(١) ، وأما الخروج مملوك فلا سبيل إليه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : والدينه خير لهم لو كانوا يعلمون ^(٢) ، وقال عليه الصلاة والسلام : المدينة تنفي غيبتها كما ينفي الكبر خبث الحديث ^(٣) ، وهذه دنائيركم كما هي إن شئتم فخذوها وإن شئتم فادعوها ، يعني أنك إنما تكلفني مغادرة المدينة لما اصطحبتني إلى فلا أؤثر الدنيا على مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فهكذا كان زهد مالك في الدنيا . ولما حلت إليه الأموال الكثيرة من أطراف الدنيا لا انتشار عليه وأصحابه كان يفزوها في وجوه الخبز ودل سخاؤه على زهده وقلة حبه للدنيا وليس الزهد فقد المال : وإنما الزهد فراغ القلب عنه ولقد كان سليمان عليه السلام في ملكه من الزهاد . ويدل على احتقاره الدنيا ما روى عن الشافعي رحمه الله أنه قال : رأيت على باب مالك كراطا من أفراس خراسان وقال مصرعاً رأيت أحسن منه فقلت لمالك رحمه الله : ما أحسنه فقال : هو هدية مني إليك يا أبا عبد الله ، فقلت : دع لنفسك نهابة تركها

(١) حديث « اختلاف أممي رحمة » ذكره البيهقي في رسالته الأشعرية تدليلاً وأسنده في المبدل من حديث ابن عباس يلفظ « اختلاف أصحابي لسبب رحمة » ولإسناده ضعيف (٢) حديث « المدينة خير لهم لو كانوا يعلمون » متفق عليه من حديث سليمان بن أبي زهير (٣) حديث « المدينة تنفي غيبتها » الحديث « حلق عليه من حديث أبي هريرة » .

فقال : إني أستحي من الله تعالى أن أعلنا تربة فيها نبي الله صلى الله عليه وسلم بحافر دابة فانظر إلى سخافة إذ وهب جميع ذلك دفعة واحدة وإلى توقيره لتربة المدينة . ويدل على إرادته بالعلم وجه الله تعالى واستحقاق الدنيا : ما روى أنه قال دخلت على هرون الرشيد فقال لي : يا أبا عبد الله يلين أن تختلف إلينا حتى يسمع صبيانا منك الموطأ . قال : فقلت أعر الله مولانا الأمير ، إن هذا العلم منك خرج فإن أنتم أهزتموه عروان أنتم أذلتموه ذل والعلم يؤتى ولا يأتي ، فقال : صدقت ، اخرجوا إلى المسجد حتى تسمعوا مع الناس .

وأما أبو حنيفة رحمه الله تعالى فلقد كان أيضا عابدا زاهدا ، بالله تعالى ، عاكفا منه ، مريبا وجهه الله تعالى بعلمه ، فأما كونه عابدا فيعرف بما روى عن ابن المبارك أنه قال : كان أبو حنيفة رحمه الله له مروءة وكثرة صلاة . وروى حماد بن أبي سليمان أنه كان يحيي الليل كله . وروى أنه كان يحيي نصف الليل فتر يوما في طريق فأشار إليه إنسان وهو يحيي فقال لآخر : هذا هو الذي يحيي الليل كله ، فلم يزل بعد ذلك يحيي الليل كله وقال : أنا أستحي من الله سبحانه أن أوصف بما ليس في من عبادته . وأما زهده فقد روى عن الربيع بن عاصم قال : أرسلني يزيد بن عمر بن هبيرة فقدمت بأبي حنيفة عليه ، فأراده أن يكون حاكما على بيت المال فأبى ، فغضبه عشرين سوطا . فانظر كيف حرب من الولاية واحتمل العذاب ! قال الحكم بن هشام الثقفي : حدثت بالشام حديثا في أبي حنيفة أنه كان من أظم الناس أمانة وأزاده السلطان على أن يتولى مغانج خزائنه أو يضرب ظهره فاختر عذابه على أنه ضارب الله تعالى . وروى أنه ذكر أبو حنيفة عند ابن المبارك ، فقال : أتذكرون رجلا عرضت عليه الدنيا بمذاخيرها ففزع منها . وروى عن محمد بن شعاع عن بعض أصحابه أنه قيل لأبي حنيفة : قد أسرك أمير المؤمنين أبو جعفر المنصور بشرة آلاف درهم . قال : فارضى أبو حنيفة ، قال : فلما كان اليوم الذي توقع أن يؤتى بالمال فيه صلى الصبح ثم تقضى بثوبه فلم يتكلم ، جاء رسول الحسن بن قطيبة بالمال ، فدخل عليه ، فلم يكلمه ، فقال بعض من حضر : ما يكلمنا إلا بالكلمة بعد الكلمة ، أي هذه عادة . فقال : ضمو المال في هذا الجراب في زاوية البيت ، ثم أوصى أبو حنيفة بعد ذلك بمتاع بيته وقال لابنه : إذا مت ودفتموني فخذ هذه البكرة واذهب بها إلى الحسن ابن قطيبة فقل له خذ وديمتك التي أودعتها أبا حنيفة . قال ابنه : فعلت ذلك ، فقال الحسن : رحمه الله على أبنائك فلقد كان شجاعا على دينه . وروى أنه دعى إلى ولاية القضاء فقال : أنا لا أصالح لهذا ، فقبل له : لم ؟ فقال : إن كنت صادقا فأصالح لها ، وإن كنت كاذبا فالكاذب لا يصلح للقضاء . وأما علمه بطريق الآخرة وطريق أمور الدين ومعرفته بالله عز وجل فيدل عليه شدة خوفه من الله تعالى وزهده في الدنيا ، وقد قال ابن جرير : قد يلني عن كوفيكم هذا الثمان بن ثابت أنه شديد الخوف لله تعالى . وقال شريك النخعي : كان أبو حنيفة طويل الصمت دائم الفكر قليل المحادثة للناس ، فهذا من أوضح الإشارات على العلم الباطني والاشتغال بمهمات الدين ، فمن أوتي الصمت والزهدي فقد أوتي العلم كله ، فهذه نبذة من أحوال الأئمة الثلاثة .

وأما الإمام أحمد بن حنبل وسفيان الثوري زعمهم الله تعالى فأبائهما أقل من أبيهما هؤلاء ، وسفيان أقل أنبأما من أحد ، ولكن اشتهارهما بالورع والزهد أظهر ، وجميع هذا الكتاب مشحون بحكايات أفعالهما وأقوالهما فلا حاجة إلى التفصيل الآن ، فانظر الآن في غير هؤلاء الأئمة الثلاثة وتأمل أن هذه الأحوال والأقوال والأفعال في الإعراض عن الدنيا والتجود لله عز وجل هل يشرها مجرد العلم بفروع الفقه من معرفة السلم والإجارة والطهار والإبلاء واللعان ، أو يشرها علم آخر أم لا وأشرف منه ، وانظر إلى الذين ادعوا الاقتداء بهؤلاء أسدقوا في دعواهم أم لا

الباب الثالث

فيما بعده العامة من العلوم المحمودة وليس منها

وفيه بيان الوجه الذي قد يكون به بعض العلوم مذموماً وبيان تبديل أسامي العلوم وهو الفقه والعلم والتوحيد والتذكير والحكمة وبيان القدر المحمود من العلوم الشرعية والقدر المذموم منها .

بيان حلة ذم العلم المذموم لذلك نقول : العلم هو معرفة الشيء على ما هو به وهو من صفات الله تعالى فكيف يكون الشيء علماً ويكون مع كونه علماً مذموماً ؟ فاعلم أن العلم لا يذم لعينه وإنما يذم في حق العباد لأحد أسباب ثلاثة (الأول) أن يكون مؤدياً إلى ضرر ما إما لصاحبه أو لغيره ، كما يذم علم السحر والطلسمات وهو حق ، إذ شهد القرآن له وأنه سبب يتوصل به إلى التفرقة بين الزوجين ، وقد سحر^(١) رسول الله صلى الله عليه وسلم ومرضى بسببه حتى أخبره جبريل عليه السلام بذلك وأخرج السحر من تحت حجر في قبره ، وهو نوع يستفاد من العلم بخواص الجواهر وبأمر حناية في مطالع النجوم ، فيستخذ من تلك الجواهر هيكل على صورة الشخص المسحور ويرصد به وقت مخصوص من المطالع وتقرن به كلمات يتلفظ بها من الكفر والفحش المخالف للشرع ، ويتوصل بسببها إلى الاستمالة والضياعين ، ويحصل من مجموع ذلك بحكم إجراء الله تعالى المعادة أحوال غريبة في الشخص المسحور ، ومعرفة هذه الأسباب من حيث إنها معرفة ليست بمذمومة ولكنها ليست تصلح إلا للإضرار بالخلق والوسيلة إلى الشر ، فكان ذلك هو السبب في كونه علماً مذموماً ، بل من أبيع ولياً من أولياء الله ليقتله وقد اختفى منه في موضع حريز إذا سأل النظام عن علمه لم يجر تنبيه عليه ؛ بل وجب الكذب فيه ؛ وذكر موضعه إرشاد وإفادة علم بالشيء على ما هو عليه ، ولكنه مذموم لإدائه إلى الضرر (الثاني) أن يكون مغرضاً بصاحبه في غالب الأمر ، كعلم النجوم ، فإنه في نفسه غير مذموم لذاته ، إذ هو قديمان : قسم حسابي ، وقد نطق القرآن بأن مسير الشمس والقمر محسوب ، إذ قال عز وجل (الشمس والقمر بحسبان) وقال عز وجل (والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم) . والثاني : الأحكام ، وحاصله يرجع إلى الاستدلال على الحوادث بالأسباب وهو يضاهي استدلال الطبيب بالنضج على ما سيحدث من المرض ، وهو مرة يجارى سنن الله تعالى وعادته في خلقه ولكن قد ذمه الشرع . قال صلى الله عليه وسلم ؛ إذا ذكر القدر فأمسكوا ، وإذا ذكرت النجوم فأمسكوا ، وإذا ذكر أمميي فأمسكوا^(٢) . وقال صلى الله عليه وسلم ؛ أخاف على أمي بعدى لئلا : حيف الأئمة ، والإيمان بالنجوم ، والتكذيب بالقدر^(٣) . وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : تعلموا من النجوم ما تهتدون به في البر والبحر ثم أمسكوا ، وإنما زجر عنه من ثلاثة أوجه : أحدها : أنه مضر بأكثر الخلق ، فإنه إذا أتى إلهيم أن هذه الآثار تحدث حقيقتين سير الكواكب ، وقع في نفوسهم أن الكواكب هي المؤثرة ، وأنها الألفه المدبرة لأنها جواهر شريفة سماوية ، ويعظم وقعها في القلوب فينبئ القلب ملتفتاً إليها ، ويرى الخير والشر محذوراً أو مرجواً من جهتها ،

الباب الثالث

(١) حديث « سحر رسول الله صلى الله عليه وسلم » متفق عليه من حديث عائشة

(٢) حديث « إذا ذكر القدر فأمسكوا ... الحديث » رواه الطبراني من حديث ابن مسعود بإسناد حسن

(٣) حديث « أخاف على أمي بعدى ثلاثاً : حيف الأئمة ... الحديث » أخرجه ابن عبد البر من حديث أبي مجنون إسناده ضعيف

ويمنعن ذكر الله سبحانه عن القلب ، فإن الضيف يقتصر نظره على الوسائط ، والعالم الراسخ هو الذى يطلع على أن الشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره سبحانه وتعالى ، ومثال نظر الضيف إلى حصول ضوء الشمس عقيب طلوع الشمس ، مثال العلة لو خلق لها عقل وكانت على سطح قرطاس وهي تنظر إلى سواد الخط يتجدد ، فتمتد أنه فعل القلم ولا تترق في نظرها إلى مشاهدة الأصابع ، ثم منها إلى اليد ، ثم منها إلى الإرادة المحركة اليد ، ثم منها إلى الكاتب القادر المريد ، ثم منه إلى خالق اليد والقدرة والإرادة ؛ فأكثر نظر الخلق مقصور على الأسباب القريبة السافلة . مقطوع من الترقى إلى مسبب الأسباب ؛ فهذا أحد أسباب النسي عن النجوم . وثانيها : أن أحكام النجوم تخمين محض ليس يدرك في حق أحاد الأشخاص لا يقيناً ولا ظناً ، فالحكم به حكم بهول ، فيكون ذمه على هذا من حيث إنه جهل لا من حيث إنه علم ، فلقد كان ذلك مدرجة لإدريس عليه السلام فيما يحكى وقد اندرس وانحى ذلك العلم واتمق ، وما يتفق من إصابة المنجم على تدور فهو اتفاق لأنه قد يطلع على بعض الأسباب ولا يحصل المسبب عقيبها إلا بعد شروط كثيرة ليس في قدرة البشر الاطلاع على حقائقها ، فإن اتفق أن قدر الله تعالى بقية الأسباب وقت الإصابة ، وإن لم يقدر خطأ ، ويكون ذلك كتحمين الإنسان في أن السماء تمطر اليوم مهما رأى النجم مجتمع ويلعب من الجبال فيتحرك ظنه بذلك ، وربما يحسى النهار بالشمس ويذهب الغيم ، وربما يكون بخلافه ، ويجرد الغيم ليس كافياً في مجيء المطر وبقية الأسباب لا تدرى ، وكذلك تخمين الملاح أن السفينة تسلم اعتياداً على ما أنه من العادة في الرياح وتلك الرياح أسباب خفية هو لا يطلع عليها ، فطرة يصيب في تخمينه وتارة يخطئ ، ولهذا العلة يمنع القول عن النجوم أيضاً . وثالثها : أنه لا فائدة فيه ، فأقل أحواله أنه خوض في فضول لا ينفع وتضييع العمر الذى هو أنفس بضاعة الإنسان في غير فائدة وذلك غاية الخسران ؛ فقد مر رسول الله صلى الله عليه وسلم برجل والناس مجتمعون عليه فقال : « ما هذا ؟ » فقالوا : رجل علامة . فقال : « ماذا ؟ » قالوا بالشعر وأنساب العرب . فقال : علم لا ينفع وجهل لا يضر^(١) ، وقال صلى الله عليه وسلم : « إنما العلم آية محكمة أو سنة قائمة أو فريضة عادلة ، فإذا خوض في النجوم وما يشبهه اقتحام خطر وخوض في جهالة من غير فائدة ، فإن ما قدر كائن ، والاحتراز منه غير ممكن ، بخلاف الطب فإن الحاجة ماسة إليه وأكثر أدلته بما يطلع عليه ، وبخلاف التعبير وإن كان تخميناً لأنه جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة ولا خطر فيه (السبب الثالث) الخوض في علم لا يستفيد الخائض فيه فائدة علم ، فهو مذموم في حقه كعلم دقيق العلوم قبل جليلها ، وخفيها قبل جليلها ، وكالبحث عن الأسرار الإلهية ، إذ يطلع الفلاسفة والمتكلمون إليها ولم يستقلوها ، ولم يستقلوها وبالوقوف على طرق بعضها إلا الأتنياء والأولياء ، فيجب كف الناس عن البحث عنها وزدّم إلى ما نطق به الشرع ، ففي ذلك مقنع للموفق ، فكم من شخص غاض في العلوم واستضرها ولولم يخض فيها لكان حاله أحسن في الدين بما صار إليه ولا ينكر كون العلم ضاراً لبعض الناس كما يضر لحم الطير وأنواع الخلوى الطليقة بالصبي الرضيع ، بل رب شخص ينغمه الجهل ببعض الأمور ، فلقد حكى أن بعض الناس شكاً إلى طيب عقم أمراته وأنها لا تلد ، جلس الطيب نبضها وقال : لا حاجة لك إلى ذواء الولادة فانك ستموتين إلى

(١) حديث : مر رسول الله صلى الله عليه وسلم برجل والناس مجتمعون فقال : « ما هذا ؟ » فقالوا : رجل علامة ... الحديث . أخرجه ابن عبد البر من حديث أبي هريرة وضعه . ولآخر الحديث « إنما العلم آية محكمة ... إلى آخره » وهذه القصة عند أبي داود وابن ماجه من حديث عبد الله بن عمرو

أربعين يوماً ، وقد دل النبض عليه ، فاستشعرت المرأة الحرف العليم وتدنص عليها حيثما ، وأخرجت أموالي ورفقتها ، وأوصت ، وبيت لا تأكل ولا تشرب حتى انقضت اللذة فلم تمت ، بجاء زوجها إلى الطبيب وقال له : لم تمت ، فقال الطبيب : قد طلت ذلك لجامها الآن فإنها تله ؛ فقال : كيف ذلك ؟ قال : رأيتها ميتة وقد انعقد اللحم على فم رحمها ، ففعلت أنها لا تنزل إلا بخوف الموت ، نظفتها بذلك حتى عزلت وزال المانع من الولادة ؛ فهذا ينهك على استشعار خطر بعض العلوم ويفهمك معنى قوله صلى الله عليه وسلم « فمؤذ بالله من علم لا ينفع »^(١) ، فاهرب بهذه الحسكية ولا تمكن بجائنا عن علوم ذمها الشرع وزجر عنها ، ولازم الاقتداء بالصحابة رضي الله عنهم ، وانصر على اتباع السنة ، فالسلامة في الاتباع ، والخطر في البحث عن الأشياء والاستقلال ، ولا تنكر النجج برأىك ومعقولك ودليلك وبرهانك وزعمك أني أبحث عن الأشياء لأعرفها على ما هي عليه ، فأى ضرر في التفكير في العلم فإن ما يعود عليك من ضرره أكثر ، وكمن شيء تطلع عليه فيضرك اخلاصك عليه ضرراً يكاد يهلكك في الآخرة إن لم يتداركك الله برحمته . واعلم أنه كما يطلع الطبيب الحاذق على أسرار في المماجات يستبعد ما من لا يعرفها فكذلك الأنبياء أطباء القلوب والعلماء بأسباب الحياة الآخورية ، فلا تحكم على سلتهم بمعقولك فتلك ، فكم من شخص يصيبه عارض في أصممه فيقتضى عقله أن يطلبه ، حتى ينهه الطبيب الحاذق أن علاجه أن يطل الكف من الجانب الآخر من البدن فيستبعد ذلك غاية الاستبعاد من حيث لا يعلم كيفية انشصاب الأعصاب ومنابتها ووجه التفتاها على البدن ؟ فهكذا الأمر في طريق الآخرة ، وفي دقائق سنن الشرع وآدابه ، وفي عقائده التي تعبد الناس بها أسرار لطافتها ليست في سعة العقل وقوته الإحاطة بها ، كما أن في خواص الأحجار أموراً عجائب غاب عن أهل الصنعة عليها حتى لم يقدر أحد على أن يعرف السبب الذي به يجذب المغناطيس الحديد ؛ فالعجائب والغرائب في العقائد والأعمال ، وإفاداتها لصفاء القلوب ونقاها وطهارتها وزكيتها وإصلاحها للخلق إلى جوار الله تعالى وأمرضاها لصفاء فضاء أكثر وأظم مما في الأدوية والعقائير ، وكأن العقول تقصر عن إدراك منافع الأدوية مع أن التجربة تسيل إليها ؛ فالمعقول تقصر عن إدراك ما ينفع في حياة الآخرة مع أن التجربة غير متطرفة إليها ، وإنما كانت التجربة تتطرق إليها لورجع إليها بعض الأموات فأخبرنا عن الأعمال المقبولة النافعة المقررة إلى الله تعالى زلي وعن الأعمال المبددة عنه ، وكذا عن العقائد ، وذلك مما لا يطمع فيه فيكفيك من منفعة العقل أن يهديك إلى صدق النبي صلى الله عليه وسلم ويفهمك موارد إشاراته ، فاحذر العقل بعد ذلك عن التصرف ولازم الاتباع فلا تسلم إلا به والسلام ؛ ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « إن من العلم جهلا وإن من القول عيا »^(٢) ، ومعلوم أن العلم لا يكون جهلا ولكنه يؤثر تأثير الجهل في الإضرار . وقال أيضا صلى الله عليه وسلم « قليل من التوفيق خير من كثير من العلم »^(٣) ، وقال عيسى عليه السلام : ما أكثر الشجر وليس كلها يثمر وليس كلها بطيب ، وما أكثر العلوم وليس كلها بنافع ؟

بيان ما بطل من ألفاظ العلوم

اعلم أن منشأ التباس العلوم المذمومة بالعلوم الشرعية تحريف الاسامي المحمودة وبديلها ونقلها بالأغراض

(١) حديث « فمؤذ بالله من علم لا ينفع » أخرجه ابن عبد البر من حديث جابر بن عبد الله ، وهو عند ابن ماجه بنقل « فمؤذوا » وقد فهم . (٢) حديث « لن من العلم جهلا ... الحديث » رواه أبو داود من حديث بريدة وفي إسناده من يجعل . (٣) حديث « قليل من التوفيق خير من كثير من العلم » لم أجده أصلا ، وقد ذكره صاحب البرودس من حديث أبي هريرة ، وقال « العقل بدل العلم » ، ولم يخرجوه فيه مستند

الفاسدة إلى معان غير ما أرادها السلف الصالح والقرن الأول، وهي خمسة ألفاظ: الفقه، والسلم، والتوحيد، والتذكير، والحكمة؛ فهذه أمام محدودة، والمتصفون بها أرباب المناصب في الدين، ولكنها نقلت الآن إلى معان مدمومة، فصارت القلوب تنفر عن مدامة من يتصف بمعانيها لشيوع إطلاق هذه الأساس عليها (اللفظ الأول) الفقه؛ فقد تصرفوا فيه بالتخصيص بالافتقار والتحويل؛ إذا خصصوه بمعرفة الفروع الغريبة في الفتاوى والوقوف على دقائق دلالها واستتكار الكلام فيها وحفظ المقالات المتعلقة بها؛ فمن كان أشد تعمقا فيها وأكثر اشتغالا بها يقال هو **الفقيه**، واند كان اسم الفقه في العصر الأول مطلقا على علم طريق الآخرة ومعرفة دقائق آفات النفوس ومفسدات الأعمال وقوة الإحاطة بمقاراة الدنيا وشدة التطلع إلى نعيم الآخرة واستيلاء الحروف على القلب؛ وبذلك عليه قوله من وجوب (ليتفقهوا) في الدين وليتدبروا قوامهم إذا رجعوا إليهم (وما يحصل به الإنذار والتعريف هو هذا الفقه دون تفريعاته والطلاق والتناق والممان والسلم والإجارة؛ فذلك لا يحصل به إنذار ولا تخوف، بل التجرد له على الدوام يقضى القلب وينزع الخشية منه كما نشاهد الآن من المتجردين له. وقال تعالى ﴿لهم قلوب لا يفقهون﴾ بها (وأراد به معاني الإيمان دون الفتاوى؛ ولم يجرى إن الفقه والفهم في اللغة اسمان بمعنى واحد، وإنما يتكلم في عادة الاستعمال به قديما وحديثا. قال تعالى ﴿لأنتم أشد رهبة في صدورهم من الله﴾ الآية؛ فأحال قلة خرفهم من الله واستعظامهم سطوة الحق على قلة الفقه؛ فأنظر إن كان ذلك نتيجة عدم الحفظ لتفريعات الفتاوى، أو هو نتيجة عدم ما ذكرناه من العلوم. وقال صلى الله عليه وسلم «علماء فقهاء»^(١)، للذين وفدوا عليه. وسئل سعد بن إبراهيم الزهري رحمه الله أي أهل المدينة أفقه؟ فقال: أقامهم الله تعالى؛ فكانه أشار إلى ثمة الفقه، والفتوى ثمة العلم الباطني دون الفتاوى والأفضية. وقال صلى الله عليه وسلم «ألا أنبشكم بالفقهاء كل الفقيه؟ قالوا بلى، قال: من لم يقط الناس من رحمة الله، ولم يؤمنهم من مكر الله، ولم يؤمنهم من روح الله، ولم يدع القرآن رغبة عنه إلى مساواه»^(٢)، ولما روى أنس بن مالك قوله صلى الله عليه وسلم «لأن أقدم مع قوم يذكرون الله تعالى من خدوة إلى طلوع الشمس أحب إلى من أن أصق أربع رقاب»^(٣)، قال: فالتفت إلى زيد الرقائشي وزيد الغنيري وقال: لم تكن مجالس الذكر مثل مجالسكم هذه يقص أحدكم وعظه على أصحابه ويسرد الحديث سردا، وإنما كما تفقد فذكر الإيمان وتدبر القرآن وتتفقه في الدين ولعمد نعم الله علينا تفقهنا، فمسي تدبر القرآن وعد التعم تفقهنا. قال صلى الله عليه وسلم «لا يفقه العبد كل الفقه حتى يمقت الناس في ذات الله، وحتى يرى القرآن وجوها كثيرة»^(٤)، وروى أيضا مرفوعا على أبي الدرداء رضى الله عنه مع قوله «ثم يقبل على نفسه فيكون لها أشد متنا، وقد سألت فرقة السبئي الحسن عن الشيء فأجاب، فقال: إن الفقهاء يطالغونك؛ فقال الحسن رحمه الله: ثكلتك أمك فريقت، وهل رأيت فقيها يملكه؟ إنما الفقيه الزاهد في الدنيا الراغب في الآخرة البصير بدينه المداوم على عبادة ربه الورع الكاف نفسه عن أعراض المسلمين العفيف عن أموالهم الناصح لمجامعتهم؛ ولم يقل في جميع ذلك؛ الحافظ لغرور الفتاوى، ولست أقول إن اسم الفقه لم يكن متداولًا للفتاوى في الأحكام الظاهرة، ولكن كان بطريق

(١) حديث «علماء حكماء فقهاء» رواه أبو نعيم في الحلية والبيهقي في الزهد، والمطيلي في التاريخ من حديث سويد بن الحارث بإسناد ضعيف (٢) حديث «ألا أنبشكم بالفقهاء كل الفقيه... الحديث» رواه أبو بكر بن لال في مكارم الأخلاق، وأبو بكر بن السنن وابن عبد البر من حديث علي. وقال ابن عبد البر: أكثرهم يوثقون من علي (٣) حديث أنس «لأن أقدم مع قوم يذكرون الله تعالى من خدوة إلى طلوع الشمس أحب إلى من أن أصق أربع رقاب» رواه أبو داود بإسناد حسن. (٤) حديث «لا يفقه العبد كل الفقه حتى يمقت الناس في ذات الله... الحديث» أخرجه ابن عبد البر من حديث حذاد بن أوس وقال: لا يصح منه مرفوعا.

العموم والشمول أو بطريق الاستباحت ؛ فكان إطلاقهم له على علم الآخرة أكثر . فإن من هنا التخصص تليس
بمث الناس على التجرد له والإعراض عن علم الآخرة وأحكام القلوب ، ووجدوا على ذلك مبنياً من الطبع ، فإن
علم الباطن غامض والعمل به عسير ، والتوصل به إلى طلب الولاية والقضاء والجاه والمال متعذر ، فوجد الشيطان
بجلاً لتحسين ذلك في القلوب بواسطة تخصيص اسم الفقه الذي هو اسم محمود في الشرع (اللفظ الثاني) العلم ؛ وقد كان
يطلق ذلك على العلم بالله تعالى وبآياته وبأفعاله في عباده وخلقه ، حتى أنه لما مات عمر رضي الله عنه قال ابن مسعود
رحمه الله ، لقد مات تسمية أعيان العلم فمؤلفه بالآلف واللام ثم فسر العلم بالله سبحانه وتعالى ، وقد تصرفوا فيه
أيضاً بالتخصيص حتى شهروه في الأكثر بين يشتغل بالناظرة مع المحصور في المسائل الفقهية وغيرها ؛ فيقال : هو
العالم على الحقيقة ، وهو الفصل والعلم ، ومن لا يجارس ذلك ولا يشتغل به يبد من جهلة الضعفاء ولا يعدونه في زمرة
أهل العلم . وهذا أيضاً تصرف بالتخصيص ، ولكن ما ورد من فضائل العلم والعلماء أكثره في العلماء بالله تعالى
وبأحكامه وبأفعاله وصفاته . وقد صار الآن مطلقاً على من لا يحيط من علوم الشرع بشئ سوى رسوم جدلية في
مسائل خلافية ، فيعز ذلك من حلول العلماء مع جهله بالتفسير والأخبار وعلم المذهب وغيره ، وصار ذلك سبباً
مهلكاً لخلق كثير من أهل الطلب للعلم (اللفظ الثالث) التوحيد . وقد جعل الآن عبارة عن صناعة الكلام ومعرفة
طريق المجادلة والإحاطة بطرق مناقضات المحصور والقدرة على التثديق فيها بتكرير الأسئلة وإثارة الشبهات وتأليف
الإزاعات ، حتى لقب طوائف منهم أنفسهم بأهل العدل والتوحيد وسمى المتكلمون العلماء بالتوحيد ، مع أن جميع
ما هو خاصة هذه الصناعة لم يكن يعرف منها شيء في العصر الأول بل كان يشتد منهم التكبر على من كان يفتتح باباً
من الجدل والمارة ؛ فأما ما يشتمل عليه القرآن من الأدلة الظاهرة التي تسبق الأذهان إلى قبولها في أول السماع فلقد
كان ذلك معلوماً للكل ، وكان العلم بالقرآن هو العلم كله ، وكان التوحيد عندهم عبارة عن أمر آخر لا يفهمه أكثر
المتكلمين ، وإن فهموه لم يتصفوا به ؛ وهو أن يرى الأمور كلها من الله عز وجل رؤية تقطع التفاته عن الأسباب
والوسائل ، فلا يرى الخير والشر كله إلا منه جل جلاله ؛ فهذا مقام شريف إحدى ثمرات التوكل كما سيأتى بيانه في
كتاب التوكل . ومن ثمراته أيضاً ترك شكاية الخلق ، وترك النصب عليهم ، والرضا والتسليم لحكم الله تعالى .
وكانت إحدى ثمراته قول أبي بكر الصديق رضي الله عنه لما قيل له في مرضه أطلب لك طبيباً فقال : الطبيب
أمرضني ، وقول آخر لما مرض فقيل له ماذا قال لك الطبيب في مرضك ؟ فقال : قال لي إنى فعال لما أريد .

وسياتى في كتاب التوكل وكتاب التوحيد شواهد ذلك . والتوحيد جوهر نفيس وقشران : أحدهما أبعد عن القلب
من الآخر ، يخص الناس الاسم بالشر وبصنعة الحراسة القشر وأهلوا القلب بالكية ؛ فالقشر الأول : هو أن
تقول بلسانك لا إله إلا الله ، وهذا يسمى توحيداً مناقضاً للتثليث الذي صرح به النصارى ، ولكنه قد يصدر من
المنافق الذي يخالف سره جهره . والقشر الثاني : أن لا يكون في القلب مخالفة وإنكار لفهم هذا القول بل يشتمل
ظاهر القلب على اعتقاده وكذلك التصديق به وهو توحيد عوام الخلق والمتكلمون كما سبق حراس هذا القشر عن
تشويش المبتدع . والثالث : وهو الباب - أن يرى الأمور كلها من الله تعالى رؤية تقطع التفاته عن الوسائل ، وأن
يعبد عبادة يفرد بها فلا يعبد غيره ، ويخرج عن هذا التوحيد أتباع الهوى ، فكل متبع هواه فقد انخدع هواه
معبوده . قال الله تعالى (أفأريت من اتخذ لاله هواء) وقال صلى الله عليه وسلم : أبيض لئله عبيد في الأرض
(- لحياه علوم الدين - ١)

عند الله تعالى هو الهوى ^(١) ، وعلى التحقيق من تأمل عرف أن عابد الصنم ليس يعبد الصنم وإنما يعبد هواء ، إذ نفسه مائلة إلى دين آياته فيقع ذلك الميل ، وميل النفس إلى المألوفات أحد المعاني التي يعبر عنها الهوى ، ويخرج من هذا التوحيد التسخط على الخلق والاتفات إليهم ، فإن من يرى الشكل من الله عز وجل كيف يتسخط على غيره ، فقد كان التوحيد عبارة عن هذا المقام وهو مقام الصديقين ، فأنظر إلى ماذا حول وبأي قشر تقع منه ، وكيف اتخذوا هذا معصفاً في الفتح والتفاخر بما اسمه محمود مع الإفلاس عن المعنى الذي يستحق الحمد الحقيقي ، وذلك كإفلاس من يصيح بكرة ويتوجه إلى القبلة ويقول ﴿ وجه وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيئاً ﴾ وهو أول كذب يفاقم بالله به كل يوم إن لم يكن وجه قلبه متوجهاً إلى الله تعالى على الخصوص : فإنه إن أراد بالوجه وجه الظاهر فما وجهه إلا إلى الكعبة وما صرفه إلا عن سائر الجهات ، والكعبة ليست جهة للذي فطر السموات والأرض ، حتى يكون المتوجه إليها متوجهاً إليه ، تعالى عن أن تحده الجهات والأقطار . وإن أراد به وجه القلب وهو المطلوب للتبذير فكيف يصدق في قوله وقلبه متردد في أوطاره وساجاته الدنيوية ومتصرف في طلب الحيل في جمع الأموال والجاه واستتار الأسباب ، ومتوجه بالكلية إليها ، فتي وجه وجهه للذي فطر السموات والأرض وهذه الكلمة خبر عن حقيقة التوحيد ، فالوحيد هو الذي لا يرى إلا الواحد ولا يوجه وجهه إلا إليه ، وهو امتثال قوله تعالى ﴿ قل الله ثم ذرم في غرضهم يلعبون ﴾ وليس المراد به القول باللسان ، وإنما اللسان ترجمان يصدق مرة ويكذب أخرى . وإنما موقع نظر الله تعالى المترجم عنه هو القلب ، وهو معدن التوحيد ومنه (اللفظ الرابع) الذكر والتذكير ، فقد قال الله تعالى ﴿ وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين ﴾ وقد ورد في التناء على مجالس الذكر أخبار كثيرة كقوله صلى الله عليه وسلم : إذا مررت برياض الجنة فارتعوا . قيل : وما رياض الجنة ؟ قال : مجالس الذكر ^(٢) ، وفي الحديث : إن الله تعالى ملائكة سياحين في الدنيا سوى ملائكة الخلق إذا رأوا مجالس الذكر ينادي بعضهم بعضاً ألا هلموا إلى بنيتكم فيأتونهم ويخفسون بهم ويستمعون . ألا فاذكروا الله وذكروا أنفسكم ^(٣) ، ففعل ذلك إلى ما ترى أكثر الوعاظ في هذا الزمان يواظبون عليه وهو القصص والأشعار والشطح والطامات ، أما القصص فهي بدعة ، وقد وردت في السلف عن الجلسوس إلى القصص وقالوا لم يكن ذلك في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(٤) ولا في زمن أبي بكر ولا عمر رضي الله عنهما ، حتى ظهرت الفتنة وظهر القصص وروى أن ابن عمر رضي الله عنهما خرج من المسجد فقال : ما أخرجني إلا القصص ولولاه لما خرجت . وقال ضرة : قلت لسفيان الثوري نستقبل القاص بوجوهنا ؟ فقال ولوا البدع ظهوركم ، وقال ابن عون : دخلت على ابن سيرين فقال : ما كان اليوم من خير ؟ فقلت : نهى الأمير القصاص أن يقصوا . فقال : وفق للصواب . ودخل الأعمش جامع البصرة فرأى قاصاً يقص ويقول : حدثنا الأعمش ، فترسوا الحلقة وجعل يذنف شعر إبطه ، فقال القاص ، يا شيخ ، ألا تستحي ؟ فقال : لم ؟ أنا في سنة وأنت في كذب ، أنا الأعمش وما حدثتكم وقال أحمد ، أكثر الناس كذباً القصاص والسؤال . وأخرج علي رضي الله عنه القصص من مسجد جامع البصرة ،

(١) حديث « أبشئ إليه عبد في الأرض عند الله هو الهوى » أخرجه الطبراني من حديث أبي أمامة بإسناد ضعيف .

(٢) حديث « إذا مررت برياض الجنة فارتعوا ... الحديث » أخرجه الترمذي من حديث أنس وحسنه .

(٣) حديث « إن الله ملائكة سياحين في الهواء سوى ملائكة الخلق ... الحديث » متفق عليه من حديث أبي هريرة ، دون قوله في الهواء والتزمى « سياحين في الأرض » وقال مسلم سياره .

(٤) حديث : لم تكن القصص في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم . ورواه ابن ماجه من حديث عمر بإسناد حسن .

فلما سمع كلام الحسن البصري لم يخرج منه إذا كان يتكلم في علم الآخرة والتفكير بالموت والتنبه على عيوب النفس وآفات الأعمال وخواطر الشيطان ووجه الحذر منها ويذكر بآلاء الله ونعماته وتقدير العبد بشكره ويعرف حجارة الدنيا وعيوبها وتصرفها ونكت عهدها وخطر الآخرة وأهوالها ، فهذا هو التفكير المحمود شرعا الذي روى الحث عليه في حديث أبي ذر رضي الله عنه حيث قال « حضور مجلس ذكر أفضل من صلاة ألف ركعة . وحضور مجلس علم أفضل من عيادة ألف مريض ، وحضور مجلس علم أفضل من شهود ألف جنازة » ، قيل : يا رسول الله ، ومن قراءة القرآن ؟ قال : « وهل تنفع قراءة القرآن إلا بالعلم ^(١) » ، وقال عطاء رحمه الله : مجلس ذكر يكفر سبعين مجلسا من مجالس اللهو ، فقد اتخذ المخرفون هذه الأحاديث حجة على تركية أنفسهم ، ونفخوا اسم التذكير إلى خرافاتهم : وذهلوا عن طريق الذكر المحمود ، واشتغلوا بالقصص التي تنطوق إليها الاختلافات والزيادة والنقص وتخرج عن القصص الواردة في القرآن وتزيد عليها ، فإن من القصص ما ينفع سماعه ، ومنها ما يضر وإن كان صدقا . ومن فتح ذلك الباب على نفسه اختلط عليه الصدق بالكذب ، والتافع بالباطل ، فمن هذا نهى عنه ، ولذلك قال أحمد بن حنبل رحمه الله : ما أخرج الناس إلى قاص صادق ، فإن كانت القصة من قصص الأنبياء عليهم السلام فيما يتعلق بأموال دينهم وكان القاص صادقا صحيح الرواية فليست أرى بها بأسا ، فليحذر الكذب وحكايات أحوال نوى إلى هفوات أو مساهلات يقصر فهم العوام عن درك مانيها أو عن كونها هفوة نادرة مريدة بتفكيرات متدركة بحسنات تغطي عليها ، فإن الماني يتعمص بذلك في مساهلاته وهفواته ، ويمهد لنفسه عنذرا فيه ، ويعتج بأنه حكى كيت وكيت عن بعض المشايخ وبعض الأكابر ، فكنا يصدد للمعاصي ، فلا غرو إن عصيت الله تعالى فقد عصاه من هو أكبر مني ، ويفيده ذلك جرأة على الله تعالى من حيث لا يدري ، فيبد الاحتراز عن هذين المحذوران فلا بأس به ، وعند ذلك يرجع إلى القصص المحمودة وإلى ما يشتغل عليه القرآن ، ويصحح في الكتب الصحيحة من الأخبار ، ومن الناس من يستجيز وضع الحكايات الرغبة في الطاعات ويرغم أن قصده فيها دعوة الخلق إلى الحق ، فهذه من نزعات الشيطان ، فإن في الصدق مندوحة عن الكذب ، وفيما ذكر الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم غيبة عن الاختراع في الوعد ، كيف وقد كره تكلف السجع وعذ ذلك من التصنع . قال سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه لآبائه عروة وقد سمعه يسجع : « هذا الذي يفضلك إلى لافضيت حاجتك أبدا حتى تتوب . وقد كان جماعه في حاجة . وقد قال صلى الله عليه وسلم لعبد الله بن رواحة في سجع من ثلاث كلمات « إياك والسجع يا ابن رواحة ^(٢) » ، فكان السجع المحذور المتكلف ما زاد على كلمتين : ولذلك لما قال الرجل في دية الجنين : كيف تدي من لا شرب ولا أكل ، ولا صاح ولا استبل ؛ ومثل ذلك يطل . فقال النبي صلى الله عليه وسلم « أصبح كسجع الأعراب ^(٣) » ، وأما الأشعار فتكثرها في المواعظ مذموم . قال الله تعالى ﴿ والشعراء يتبعهم الغاؤون ه ألم تر أنهم في كل واد يهيمون ﴾ وقال تعالى ﴿ وما علنناه الشعر وما ينبغي له ﴾ وأكرر ما اعتاده الوعاظ من الأشعار : ما يتعلق بالتواضع في العشق وزجل المشوق وروح الوصال والم الفراق ، والمجلس لا يحوى إلا أجلاف العوام ، وبواطنهم مشحونة بالشهوات ، وقلوبهم غير منفكة عن الالتفات إلى الصور المليحة ؛ فلا تحرك الأشعار من قلوبهم إلا ما هو مستكن

(١) حديث أبي ذر « حضور مجلس علم أفضل من صلاة ألف ركعة » تقدم في الباب الأول

(٢) حديث « إياك والسجع يا ابن رواحة » لم أجده هكذا ، ولأحمد وابن أبي شيبة وابن السني وأبو داود في كتاب الرياضة من حديث عائشة إسناده صحيح أنها قالت لعائشة إياك والسجع فإن النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه كانوا لا يسجون ولا ينسجون ، ولابن جرير والسجى ، ولابن البخاري نحوه من قول ابن عباس (٣) حديث « أصبح كسجع الأعراب » أخرجه مسلم من حديث الشيرة

فيها ففتشتم فيها نيران الصبوات ، فيزغون ويتواجدون ؛ وأكث ذلك أو كله يرجع إلى نوع فساد ، فلا ينبغي أن يستعمل من الشعر إلا ما فيه موعظة أو حكمة على سبيل استشهاد واستئناس . وقد قال صلى الله عليه وسلم : إن من الشعر لحكمة ^(١) ، ولو حوى المجلس الحواصم الذين وقع الاطلاع على استغراق قلوبهم بحب الله تعالى ولم يكن معهم غيرهم ، فإن أولئك لا يضر معهم الشعر الذي يشير ظاهره إلى الخلق ، فإن المستمع ينزل كل ما يسمعه على ما يستولى على قلبه ، كما سيأتي تحقيق ذلك في كتاب السماع ، ولذلك كان الجنيد رحمه الله يتكلم على بضعة عشر رجلا ، فإن كثروا لم يتكلم ، وماتم أهل مجلسه قط عشرين . وحضر جماعة باب دار ابن سالم ، فقيل له : تكلم فقد حضر أصحابك ، فقال : لا ، ما هؤلاء أصحابي ، إنما هم أصحاب المجلس ، إن أصحابي هم الخواص : وأما الشطح : فنحن به صنفين من الكلام أحدهم بعض الصوفية (أحدهما) الدعاوى الطويلة المريضة في العشق مع الله تعالى والوصال المنفى عن الأعمال الظاهرة حتى ينتهي قوم إلى دعوى الاتحاد وارتفاع الحجاب والمجاهدة بالرؤية والمشاهدة بالخطاب ، فيقولون : قيل لنا كذا ، وقلنا كذا ، ويتقهبون فيه بالחסين بن منصور الخلاج الذي صلب لأجل إطلافة كلمات من هذا المجلس ، ويستشهدون بقوله أنا الحق ، وبما حكى عن أبي يزيد البسطامي أنه قال سبحاني سبحاني ، وهذا فن من الكلام عظيم ضرره في العوام ، حتى ترك جماعة من أهل الفلاحة فلاحتهم وأظهروا مثل هذه الدعاوى ، فإن هذا الكلام يستلذه الطبع إذ فيه البطالة من الأعمال مع تزكية النفس بذكر المقامات والأحوال ، فلا تخرج الأغبياء عن دعوى ذلك لأنفسهم ولا عن تلقف كلمات عظيمة من خرفة ، ومهما أنكر عليهم ذلك لم يسجروا عن أن يقولوا : هذا إنكار مصدره العلم والجidal ، والعلم حجاب ، والجدل عمل النفس ، وهذا الحديث لا يلوح إلا من الباطن بمكاشفة نور الحق ، فهذا ومثله بما قد استطار في البلاد ضرره وعظم في العوام ضرره ، حتى من نطق بشيء منه فقتله أفضل في دين الله من إحياء عشرة ، وأما أبو يزيد البسطامي رحمه الله فلا يصح عنه ما يحكى وإن سمع ذلك منه فقله كان يحكيه عن الله عز وجل في كلام يردده في نفسه ، كما لو سمع وهو يقول : إني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني ، فإنه ما كان ينبغي أن يفهم منه ذلك إلا على سبيل الحسكاية (الصنف الثاني) من الشطح كلمات غير مفهومة لها ظواهر راقية وفيها عبارات هائلة وليس وراءها طائل ، إما أن تكون غسيرة مفهومة عند قائلها بل يصدرها عن خبط في عقله وتشويش في خياله لثقة إحاطته بمعنى كلام قرع سمعه وهذا هو الأكثر . وإما أن تكون مفهومة له ولكنه لا يقدر على فهمها وإيرادها بعبارة تدل على ضميره ، لثقة ممارسته للعلم وحسن تعلمه طريق التعبير عن المعاني بالألفاظ الرشيدة ، ولا فائدة لهذا المجلس من الكلام إلا أنه يشوش القلوب ويدعش العقول ويحير الأذهان ، أو يحمل على أن يفهم منها معاني ما أريدت بها ويكون فهم كل واحد على مقتضى هواه وطبعه . وقد قال صلى الله عليه وسلم : ما حدث أحدكم قوماً يحيدون لا يفقهونه إلا كان فتنة عليهم ^(٢) ، وقال صلى الله عليه وآله وسلم : كثروا الناس بما يعرفون ودعوا ما ينكرون أن يكذب الله ورسوله ^(٣) ، وهذا فيما يفهمه صاحبه ولا يبلنه عقل المستمع ، فكيف فيما لا يفهمه قائله . فإن كان يفهمه القائل دون المستمع فلا يحل ذكره . وقال عيسى

(١) حديث « إن من الشعر لحكمة » أخرجه البخاري من حديث أبي بن كعب

(٢) حديث « ما حدث أحدكم قوماً يحيدون لا يفقهونه إلا كان فتنة عليهم » رواه الترمذي في المعجم وأبو نعيم في الرضا . من حديث ابن عباس بإسناد ضعيف ، وسلم في مقدمة صحيحه موقوفاً على ابن مسعود (٣) حديث « كثروا الناس بما يعرفون ودعوا ما ينكرون ... الحديث » رواه البخاري موقوفاً على علي ، ورفعه أبو منصور الديلمي في مسنده الفردوس من طريق أبي نعيم

عليه السلام : لا تمنعوا الحكمة عند غير أهلها فتظلموها ، ولا تمنعوها أهلها فتظلمهم ، كونوا كالطبيب الرقيق يضع الدواء في موضع البلاء . وفي لفظ آخر من وضع الحكمة في غير أهلها فقد جهل ، ومن منها أهلها فقد ظلم ؛ إن الحكمة حقا وإن لما أهلا ، فأعط كل ذي حق حقه . وأما الطامات فيدخلها ماذكرناه في الشطح ؛ وأمر آخر يخصها وهو صرف ألفاظ الشرع عن ظواهرها المفهومة إلى أمور باطنة لا يسبق منها إلى الأفهام فائدة ، كدأب الباطنية في التأويلات ؛ فهذا أيضا حرام وضرره عظيم ؛ فإننا لألفاظ إذا صرفت عن مقتضى ظواهرها بغير اعتصام فيه بنقل عن صاحب الشرع ومن غير ضرورة تدعو إليه من دليل العقل اقتضى ذلك بطلان الثقة بالألفاظ وسقط به منفعة كلام الله تعالى وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم ؛ فإن ما يسبق منه إلى الفهم لا يرقى به والباطن لا يضبط له ، بل تتعارض فيه الخواطر ويمكن تنزيله على وجه شتى ؛ وهذا أيضا من البدع الشائكة العظيمة الضرر . وإنما قصد أصحابها الإغراب ؛ لأن النفوس مائلة إلى الغريب ومستلذة له ؛ وهذا الطريق توصل الباطنية إلى هدم جميع الشريعة بتأويل ظواهرها وتنزيها على رأيهم كما حكيناه من مذاهبهم في كتاب المستظهر المصنف في الرد على الباطنية . ومثال تأويل أهل الطامات قول بعضهم في تأويل قوله تعالى ﴿ اذهب إلى فرعون إنه طغى ﴾ إشارة إلى قلبه وقال هو المراد بفرعون وهو الطاغى على كل إنسان . وفي قوله تعالى ﴿ وأن ألق عصاك ﴾ أى ما تبركا عليه وبهتداه بما سوى الله عز وجل فينبغي أن يليق . وفي قوله صلى الله عليه وسلم : تسحروا فإن في السحور بركة ^(١) ، أراد به الاستغفار في الأصحار وأمثال ذلك حتى يعرفون القرآن من أوله إلى آخره عن ظاهره ، وعن تفسيره المنقول عن ابن عباس وسائر العلماء وبعض هذه التأويلات يعلم بطلانها قطعاً ، كتزويل فرعون على القلب ؛ فإن فرعون شخص محسوس تواتر إلينا النقل بوجوده ودعوة موسى له وكأني جهل وأني لمب وغيرهما من الكفار وليس من جنس الشياطين والملائكة عالم يدرك بالحس حتى ينطبق التأويل إلى ألفاظه ، وكذا حل السحور على الاستغفار ، فإنه كان صلى الله عليه وسلم يتناول الطعام ويقول : تسحروا ^(٢) ، وهلموا إلى الذئذ المبارك ^(٣) ، فهذه أمور يدرك بالتواتر والحس بطلانها قطعاً ، وبعضها يعلم بنال الظن ، وذلك في أمور لا يتماثلها الإحساس ؛ فكل ذلك حرام وصلالة وإفساد للدين على الخلق ، ولم ينقل شيء من ذلك عن الصحابة ولا عن التابعين ولا عن الحسن البصري مع إكبابه على دعوة الخلق ووعظهم ، فلا يظهر لقوله صلى الله عليه وسلم ، من فسر القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار ^(٤) ، معنى إلا هذا الخط ؛ وهو أن يكون غرضه ورأيه تقرير أمر وتحقيقه ، فيستجر شهادة القرآن إليه ، ويحمله عليه ، من غير أن يشهد لتنزيله عليه دلالة لفظية لغوية أو عقلية ، ولا ينبغي أن يفهم منه أنه يجب أن لا يفسر القرآن بالاستبطاء والفكر ، فإن من الآيات ما نقل فيها عن الصحابة والمفسرين خمسة معان وستة وسبعة . ونعلم أن جميعها غير مسموع من النبي صلى الله عليه وسلم ، فإنها قد تكون متافقة لا تقبل الجمع ، فيكون ذلك مستتباً بحسن الفهم وطول الفكر ، ولهذا قال صلى الله عليه وسلم لا ين عباس رضى الله عنه د اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل ^(٥) .

(١) حديث « تسحروا فإن في السحور بركة » متفق عليه من حديث أنس (٢) حديث « تناول العلماء في السحور » رواه البخاري من حديث أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم وزيد بن ثابت تسحراً (٣) حديث « هلموا إلى الذئذ المبارك » رواه أبو داود والترمذي وابن حبان من حديث الرباض بن سارية وضحه ابن الصبان .

(٤) حديث « من فسر القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار » أخرجه الترمذي من حديث ابن عباس وحسنه ، وهو عند أبي داود عن رواية ابن أبي العبد ، وعند النسائي في الكبرى (٥) حديث « اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل » قاله ابن عباس رواه البخاري من حديث ابن عباس « ومن قوله » وعلمه التأويل » وهو بهذه الزيادة عند أحمد وابن حبان والحاكم وقال صحيح الإسناد

ومن يستجيز من أهل الطامات مثل هذه التأويلات مع حله بأنها غير مرادة بالالفاظ ويرى أنه يقصد بهادوة الخلق إلى الخلق يضاهي من يستجيز الاختراع والوضع على رسول الله صلى الله عليه وسلم لما هو في نفسه حق ولكن لم يتفق به الشرع ، كن يضع في كل مسألة يراها حقا حديثا عن النبي صلى الله عليه وسلم فذلك ظلم وحلال ودخول في الوعيد المفهوم من قوله صلى الله عليه وسلم « من كذب على متعمدا فليتبوأ عقده من النار »^(١) ، بل الشر في تأويل هذه الالفاظ أعم وأعلم ، لأنها مبدلة لكثرة بالالفاظ ، وقاطعة طريق الاستفادة والفهم من القرآن بالكيفية فقد عرفت كيف صرف الشيطان دواعي الخلق عن العلوم المحمودة إلى المذمومة ، فكل ذلك من تليس علماء السوء بتبديل الاساس فان اتبعت هؤلاء اعتادا على الاسم المشهور من غير التفات إلى ما عرف في العصر الأول كنت كمن طلب الشرف بالحكمة اتباعا من يسمى حكما ، فإن اسم الحكم ، صار يطلق على العايب والشاعر والمنجم في هذا العصر ، وذلك بالغفلة عن تبديل الالفاظ (اللفظ الخامس) وهو الحكمة ، فإن اسم الحكم صار يطلق على الطيب والشاعر والمنجم حتى على الذي يدرج القرعة على أكف السوادية في شوارع الطرق . والحكمة هي التي أنى الله عز وجل عليها فقال تعالى ﴿ يوقى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم « كلمة من الحكمة يتعلمها الرجل خير له من الدنيا وما فيها »^(٢) ، فانظر ما الذي كانت الحكمة عبارة عنه ، وإلى ماذا نقل ، وقس به بقية الالفاظ واحترز عن الاقرار بتليسات علماء السوء ، فإن شرهم على الدين أعظم من شر الشياطين ، إذ الشيطان بواسطتهم يتدرج إلى ارتاع الدين من قلوب الخلق ، ولهذا لما سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن شر الخلق أبي وقال « اللهم اغفر » حتى كزروا عليه فقال « هم علماء السوء »^(٣) ، فقد عرفت العلم المحمود والمذموم ومثار الالتباس وإليك الخيرة في أن تنظر لنفسك فتقتدى بالسلف . أو تتدلى بجمل الفرور وتتشبه بالخلف ، فكل ما ارتضاه السلف من العلوم قد اندرس ، وما أكب الناس عليه فأكثره مبتدع ومحدث ، وقد صح قول رسول الله صلى الله عليه وسلم « بدأ الإسلام غريبا وسيعود غريبا كذا ، فطوبى للغرباء » ، فقل : ومن الغرباء ؟ قال « الذين يصلحون ما أفسده الناس من سقى والذين يميون ما أماتوه من سقى »^(٤) ، وفي آخر « هم المتمسكون بما أنتم عليه اليوم »^(٥) ، وفي حديث آخر « الغرباء ناس قليل صالحون بين ناس كثير ، من يفضهم في الخلق أكثر من يجهم »^(٦) ، وقد صارت تلك العلوم غريبة بحيث يمتد ذاكرها ، ولذلك قال الثوري رحمه الله : إذا رأيت العالم كثير الأصدقاء فاعلم أنه غلط ، لأنه إن لطق بالحق أبغضوه .

بيان القدر المحمود من العلوم المحمودة

اعلم أن العلم بهذا الاعتبار ثلاثة أقسام : قسم هو مدموم قليله وكثيره وقسم هو محمود قليله وكثيره ، وكلما كان أكثر كان أحسن وأفضل وقسم يعتمد منه مقدار الكفاية ولا يعتمد الفاضل عليه والاستقصاء فيه ، وهو مثل

- (١) حديث « من كذب على متعمدا فليتبوأ عقده من النار » متفق عليه ، من حديث أبي هريرة وعمر بن الخطاب .
- (٢) حديث « كلمة من الحكمة يتعلمها الرجل خير له من الدنيا » تقدم نحوه (٣) حديث لما سئل عن شر الخلق أبي وقال « اللهم اغفر » الحديث ، رواه البخاري نحوه من رواية الأحوص بن حكيم عن أبيه هريرة وهو ضعيف ، ورواه البزار في مسنده من حديث معاذ بن عبد الله ضعيف .
- (٤) حديث « بدأ الإسلام غريبا ... الحديث » أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة مختصرا ، وهو يهامة عند الثوري من حديث عمر بن عوف وحسنه (٥) حديث « هم المتمسكون بما أنتم عليه اليوم » يقوله في وصف الغرباء ، لم أره أصلا .
- (٦) حديث « الغرباء ناس قليلون صالحون » أخرجه أحمد من حديث عبد الله بن عمرو .

أحوال البدن ، فإن منها ما يحمده قليله وكثيره كالصحة والجمال ، ومنها ما يذم قليله وكثيره كالقبح وسوء الخلق ، ومنها ما يحمده الاقتصاد فيه كبذل المال فإن التبذير لا يحمده فيه وهو بذل ، وكالشجاعة فإن التهور لا يحمده فيها ، وإن كان من جنس الشجاعة فكذلك العلم . فالتسم المذموم منه قليله وكثيره هو مالا فائدة فيه في دين ولا دنيا ، إذ فيه ضرر يذلب نفعه كعلم السحر والطلسبات والتنجيم ، فبعضه لا فائدة فيه أصلاً ، وصرف العمر الذي هو أنفس ما يملكه الإنسان إليه إضاعة ، وإضاعة النفيس مذمومة . ومنه ما فيه ضرر يزيد على ما ينفع أنه يحصل به من قضاء وطرف في الدنيا ، فإن ذلك لا يعتد به بالإضافة إلى الضرر الحاصل عنه . وأما القسم المحمود إلى أقصى غايات الاستقصاء فهو العلم بالله تعالى وبصفاته وأفعاله ، وسننه في خلقه ، وحكته في ترتيب الآخرة على الدنيا ، فإن هذا علم مطلوب لذاته وللوصول به إلى سعادة الآخرة ، وبذل المقدور فيه إلى أقصى الجهد قصور عن حد الواجب ، فإنه البحر الذي لا يدرج غوره وإنما يحوم الحائمون على سواحه وأطرافه بقدر ما يسه لهم ، وما غاض أطرافه إلا الأنبياء والأولياء والراحمون في العلم على اختلاف درجاتهم بحسب اختلاف قوتهم ونفائهم تقدر الله تعالى في حقهم ، وهذا هو العلم الممكنون الذي لا يسقط في الكتب ، ويعين على التنبه له التعلم ومشاهدة أحوال علماء الآخرة ، كما سيأتي علامتهم ، هذا أول الأمر ويعين عليه في الآخرة المجاهدة والرياضة وتصفية القلب وتفرغه عن علاقات الدنيا والتشبه فيها بالأنبياء والأولياء ، ليتضح منه لكل ساع إلى طلبه بقدر الرزق لا بقدر الجهد ولكن لاغنى فيه عن الاجتهاد ، فالجاهدة مفتاح البداية لامتداد لها سواها . وأما العلوم التي لا يحمده منها إلا مقدار مخصوص فهي العلوم التي أوردناها في فروع الكفايات ، فإن في كل علم منها اقتصاداً وهو الأقل ، واقتصاداً وهو الوسط ، واستقصاء وراء ذلك الاقتصاد لامرده إلى آخر العمر ، فكن أحد رجلين : إما مشغولاً بنفسك ، وإما متفرغاً لغيرك بعد الفراغ من نفسك ، وإياك أن تشتغل بما يصلح غيرك قول إصلاح نفسك ، فإن كنت المشغول بنفسك فلا تشتغل إلا بالعلم الذي هو فرض عليك بحسب ما يقتضيه حالك ، وما يتعلق منه بالأعمال الظاهرة من تعلم الصلاة والطهارة والصوم ، وإنما العلم الذي أهمله الكل علم صفات القلب وما يحمده منها وما ينم ، إذ لا ينفعك عن الصفات المذمومة مثل الحرص والحسد والرياء والكبر والعجب وأخواتها وجميع ذلك مهلكات ، وإما ما من الواجبات ، مع أن الاشتغال بالأعمال الظاهرة يضاهي الاشتغال بطلاء ظاهر البدن عند التأذي بالجرب والدمامل والتهاون بإخراج المادة بالنفس والإسهال ، وحشية العلماء يشيرون بالأعمال الظاهرة كما يشير الطريقة من الأطباء بطلاء ظاهر البدن ، وعلماء الآخرة لا يمشرون إلا بتطهير الباطن وقطع مواد الشر بإفساد منابها وقلع ممارسها من القلب ، وإنما فروع الأكثرين إلى الأعمال الظاهرة عن تطهير القلوب لسهولة أعمال الجوارح واستصعاب أعمال القلوب ، كما يفرض إلى طلاء الظاهر من يستصعب شرب الأدوية المرة ، فلا يزال يتشب في الطلاء ويريد في المواد وتضاعف به الأمراض ، فإن كنت مريداً للآخرة وطالباً للنجاة وهارياً من البلاك الأبدي فاشتغل بعلم العلل الباطنة وعلاجها على ما فصلناه في ربيع الملكات ، ثم ينجز بذلك إلى المقامات المحمودة المذكورة في ربيع النجيات لاحتلاله ، فإن القلب إذا فرغ من المذموم امتلأ بالمحمود والأرض إذا تقيت من الخبيث نبت فيها أصناف الزرع والراحمين ، وإن لم تفرغ من ذلك لم تنبت ذلك ، فلا تشتغل بفروض الكفاية لاسيما وفي زمرة الخلق من قد قام بها فإن ملك نفسه فيها به صلاح غيره سفيه ، فما أشد حماقة من دخلت الأفاعي والمقارب تحت ثيابه وسمت بقتله وهو يطلب مذبة يدفع بها الذباب عن غيره ممن لا ينبيه ولا ينجي مما يلاقيه من تلك الحيات والمقارب إذا سميت به . وإن تفرغت من نفسك وتطهرها وقدرت على ترك ظاهر الإيم وباطنه وصار ذلك عديداً

لك وعادة متيسرة فيك - وما أبعد ذلك منك - فاشتغل بفروض الكفايات وراعى التدريج فيها ؛ فابتدئ ، بكتاب الله تعالى ثم بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم بعلم التفسير وسائر علوم القرآن من علم النسخ والمنسوخ والمفصول والموصول والمحكم والمقشاة وكذلك في السنة ، ثم اشتغل بالفروع وهو علم المذهب من علم الفقه دون الخلاف ، ثم بأسول الفقه ؛ وهكذا إلى بقية العلوم على ما يتسع له العمر ويساعد فيه الوقت ؛ ولا تستغرق عمرك في فن واحد منها طلباً للاستقصاء ؛ فإن العلم كبير والعمر قصير ، وهذه العلوم آلات ومقدمات وليست مطلوبة لغيرها بل لغيرها ، وكل ما يطلب لغيره فلا ينبغي أن يلى فيه المطلوب ويستكثر منه ؛ فاقصر من شائع علم اللغة على ما تفهم منه كلام العرب وتعلق به ، ومن غريبه على غريب القرآن وغريب الحديث ودع التعمق فيه ، واقصر من النحو على ما يتعلق بالكتاب والسنة لما من علم إلا وله اقتصار واقتصاد واستقصاء . ونحن نفسير إليها في الحديث والتفسير والفقه والكلام لتفسيها غيرها ، فالإقتصاد في التفسير ما يبلغ حذف القرآن في المقدار كما صنفه على الواحدى النيسابورى وهو الوجيز ؛ والاقتصاد ما يبلغ ثلاثة أضعاف القرآن كما صنفه من الوسيط فيه وما وراء ذلك استقصاء مستغنى عنه فلا مرد له إلى انتهاء العمر . وأما الحديث فالإقتصاد فيه تحصيل ما في الصحيحين بتصحیح نسخة على رجل خير يعلم متن الحديث . وأما حفظ أسامى الرجال فقد كفيته فيه بما تحمله عنك من قبلك ؛ وإنك أن تقول على كتبهم ، وليس يلزمك حفظ متون الصحيحين ولكن تحصله تحصيلاً تقدر منه على طلب ما تحتاج إليه عند الحاجة ؛ وأما الإقتصاد فيه فإن تضيف إليهما ما خرج عنهما بما ورد في المستندات الصحيحة . وأما الاستقصاء فما وراء ذلك إلى استيعاب كل ما نقل من الضيف والقرى والصحيح والسقيم مع معرفة الطرق الكثيرة في النقل ومعرفة أحوال الرجال وأسمائهم وأوصافهم . وأما الفقه فالإقتصاد فيه على ما يجزى به معتصر المرنى رحمه الله وهو الذى رتبناه في خلاصة المختصر ، والاقتصاد فيه ما يبلغ ثلاثة أمثاله وهو القدر الذى أوردناه في الوسيط من المذهب ، والاستقصاء ما أوردناه في البسيط إلى ما وراء ذلك من المطولات . وأما الكلام فقصوده حماية المتقدمات التى نقلها أهل السنة من السلف الصالح لا غير ؛ وما وراء ذلك طلب لكشف حقائق الأمور من ذير طريقها ، ومقصود حفظ السنة تحصيل رتبة الإقتصاد منه بمعتقد معتصر ؛ وهو القدر الذى أوردناه في كتاب قواعد العقائد من جملة هذا الكتاب ، والاقتصاد فيه ما يبلغ قدر مائة ورقة وهو الذى أوردناه في كتاب الإقتصاد في الاعتقاد ، ويحتاج إليه لمناظرة مبتدع ومعارضة بدعته بما يفسدها وينزعها عن قلب البائى ، وذلك لا ينبغي إلا مع النوام قبل اشتداد تمصّبهم ، وأما المبتدع بعد أن يعلم من الجدل ولو شيئاً يسيراً قلباً ينفذ منه الكلام ؛ فإنك إن أغلظته لم يترك مذهبه وأحال بالقصور على نفسه وقدر أن عند غيره جواباً ما هو عاجز عنه ، وإنما أنت ما لبس عليه بقوة المجادلة . وأما البائى إذا صرف عن الحق بنوع جدل يمكن أن يرد إليه بمثله قبل أن يشتد التمصب للأهواء ؛ فإذا اشتد تمصّبهم وقع اليأس منهم ؛ إذ التمسّب سبب يرسخ العقائد في النفوس وهو من آفات جلساء السوء ؛ فليهم يبالغون في التمصب الحق وينظرون إلى المخالفين بعين الإزدراء والاستحقار ، فلتبصّر منهم الدعوى بالمكافأة والمقابلة والمعاملة ، وتتوفر براعتهم على طلب نصرة الباطل ، ويقوى غرضهم في التمسك بما نسبوا إليه ، ولو جاءوا من جانب اللطف والرحمة والصح في الخلوة - لافى مرضن التمصب والتحقير - لاصبحوا فيه ، ولكن لما كان الجاه لا يقوم إلا بالاستتباع ولا يستميل إلا بتابع مثل التمصب واللعن والشتن الخصوم ، اتخذوا التمصب عادتهم وآتهم ، ومموه ذبا من الدين ونفضالاً عن المسلمين ، وفيه على التحقيق هلاك الحق ورسوخ البدعة

في النفوس. وأما الخلافات التي أحدثت في هذه الأعصار المتأخرة وأبدع فيها من التحريرات والتصنيفات والمجادلات ما لم يهد مثلبا في السلف فإياك وأن تحرم حولها، واجتنبها اجتناب الدم القاتل فإنها الباء الضال وهو الذي رد الفقهاء كلهم إلى طلب المناهضة والمباهاة على ما سيأتيك تفصيل غوايتها وآفاقها. وهذا الكلام ربما يسمع من قائله فيقال: الناس أعداء ما جهلوا فلا تظن ذلك، فعمل الخير سقطت. فأقبل هذه النصيحة من ضيق العرفية زمانا، وزاد على على الأولين تصنيفا وتحقيقا وجدلا وبياناً، ثم ألهمه الله رشده وأعلمه على عيه فجهزه واشتغل بنفسه: فلا يثوبك قول من يقول الفتوى عماد الشرع ولا يعرف علله إلا بهم الخلاف، فإن علل المذهب مد كورة في المذهب، والزيادة عليها مجادلات لم يعرفها الأولون ولا الصحابة وكانوا أعلم بعلم الفتوى من غيرهم، بل هي مع أنها غير مفيدة في علم المذهب منازعة مفسدة لذوق الفقه، فإن الذي يشبه له حدس المفتي إذا صبح ذوقه في الفقه لا يمكن تشميتة على شروط الجدل في أكثر الأمر، فمن ألف طبعه رسوم الجدل أذعن ذهنه لمقتضيات الجدول وجبن عن الإذعان لذوق الفقه، وإنما يشتغل به من يشتغل لطلب الصيت والجاه ويتمال بأنه يطلب علل المذهب، وقد ينقض عليه العمر ولا تصرف همه إلى علم المذهب، فكن من شياطين الجن في أمان، واحتزن من شياطين الإنس فإنهم أراحوا شياطين الجن من التعب في الإغواء والإضلال، وبالجملة فالمرضى عند العقلاء أن تقدر نفسك في العالم وسدك مع الله وبين يديك الموت والمرض والحساب والجنة والنار، وتأمل فيها بينك مما بين يديك، ودع عنك ما سواه والسلام. وقد رأى بعض الشيوخ بعض العلماء في المنام فقال له: ما خبر تلك العلوم التي كنت تجادل فيها وتناظر عليها فيسقط يده وتنفخ فيها وقال: طاحت كلها هباء منثورا وما انتفعت إلا بركتين خلصتني في جوف الليل. وفي الحديث: ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل^(١)، ثم قرأ (ما ضلوه لك إلا جدلا بل هم قوم خصمون) وفي الحديث في معنى قوله تعالى (فأما الذين في قلوبهم زيغ) الآية: هم أهل الجدول الذين هنام الله بقوله تعالى: فأحذرهم^(٢)، وقال بعض السلف: يكون في آخر الزمان قوم يفتقروا عليهم باب العمل وينفتح لهم باب الجدل. وفي بعض الأخبار إنكم في زمان ألهمتم فيه العمل وسيأتى قوم يلهمون الجدل^(٣) وفي الخبر المذكور: انبض الخلق إلى الله تعالى إلا آل الخصم^(٤)، وفي الخبر: ما أتى قوم المنطق إلا منعوا العمل^(٥) والله أعلم.

الباب الرابع

في سبب إقبال الخلق على علم الخلاف وتفصيل آفات المناظرة والجدل وشروط إباحتها

اعلم أن الخلاف بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم تولاها الخلفاء الراشدون المهديون وكانوا أئمة علماء بالله تعالى ففهم في أحكامه وكانوا مستقلين بالفتاوى في الإفضية، فكانوا لا يستعينون بالفقهاء إلا نادرا في وقائع لا يستغنى فيها عن المشاورة، فتفرغ العلماء لعلم الآخرة وتهجدوا لها، وكانوا يتدافعون الفتاوى وما يتعلق بأحكام الخلق من الدنيا، وأقبلوا على الله تعالى بكنه اجتهادهم كأنقل من سيرهم: فلما أفضت الخلافة بعدهم إلى أقوام تولوها

(١) حديث: ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل. رواه الترمذي وابن ماجه من حديث أبي أمامة. قال

الترمذي: حسن صحيح

(٢) حديث: هم أهل الجدول الذين على الله بقوله فأحذرهم. متفق عليه من حديث عائشة (٣) حديث: إنكم في زمان

ألهمتم فيه العمل وسيأتى قوم يلهمون الجدل. لم أجد (٤) حديث: انبض الخلق إلى الله إلا آل الخصم. متفق عليه من حديث

عائشة (٥) حديث: ما أتى قوم المنطق إلا منعوا العمل. لم أجد له أصلا.

بغير استحقاق ولا استقلال بعلم الفتاوى والأحكام ، احتفظوا إلى الاستعانة بالفقهاء وإلى استصحابهم في جميع أحوالهم لاستفتائهم في مجارى أحكامهم ، وكان قد بقى من علماء التابعين من هو مستمقر على الطراز الأول وملزم صفو الدين ومواظب على سمع علماء السلف ، فكانوا إذا طلبوا هربوا وأعرضوا ؛ فاعترض الخلاف إلى الإصلاح في طلبهم لتولية القضاء والحكومات ، فرأى أهل تلك الأعصار عز العلماء وإقبال الأئمة والولاية عليهم مع إعراضهم عنهم ، فاشترأوا لطلب العلم توصلاً إلى نيل المرز ودرك الجاه من قبل الولاية ؛ فأكبوا على صلم الفتاوى وعرضوا أنفسهم على الولاية ، وتموفوا إليهم ، وطلبوا الولايات والصلوات منهم ، فنهى من حرم ومنهم من أجمع ، والمنهج لم يحصل من ذل الطلب ومهانة الإبتدال ، فأصبح الفقهاء - بعد أن كانوا عطلوين - طالين ، وبعد أن كانوا أعره بالإعراض عن السلاطين أذلة بالإقبال عليهم ، إلا من وفقه الله تعالى في كل عصر من علماء دين الله ، وقد كان أكثر الإقبال في تلك الأعصار على علم الفتاوى والأفضية لشدة الحاجة إليها في الولايات والحكومات ، ثم ظهر بعدهم من الصدور والأمرء من يسع مقالات الناس في قواعد العقائد ومالت نفسه إلى سماع الحجج فيها ؛ فعملت رغبته إلى المناظرة والمجادلة في الكلام فأكب الناس على علم الكلام وأكثروا فيه التصانيف ، وروبو فيه طرق المبادلات واستخرجوا فنون المناقضات في المقالات ، وزعموا أن غرضهم المذهب من دين الله والنضال عن السنة وقمع البدعة ، كما زعم من قبلهم أن غرضهم بالاشتغال بالفتاوى الدين وتقلد أحكام المسلمين ، لإشفاقا على خلق الله وتبصيرة لهم . ثم ظهر بعد ذلك من الصدور من لم يستصحب الخوض في الكلام وفتح باب المناظرة فيه . لما كان قد تولد من فتح بابه من التمهينات الفاحشة والخصومات الناشئة المنفضية إلى إلهراق الدماء وتقريب البلاد ، ومالت نفسه إلى المناظرة في الفقه وبيان الأول من مذهب الشافعى وأبى حنيفة رضى الله عنهما على الخصوص ، فترك الناس الكلام وفنون العلم واثألوا على المسائل الخلافية بين الشافعى وأبى حنيفة على الخصوص ، وتساملوا في الخلاف مع مالك وسفيان وأحمد رحمهم الله تعالى وغيرهم ، وزعموا أن غرضهم استنباط دقائق الشرع وتقرير علل المذهب وتمهيد أصول الفتاوى ، وأكثروا فيها التصانيف والاستنباطات وروبو فيها أنواع المبادلات والتصنيفات وهم مستمرون عليه إلى الآن ، ولنا ندرى ما الذى يحدث الله فيها بعدنا من الأعصار ؟ فهذا هو الباصع إلى إكباب على الخلافات والمناظرات لا غير ولو مالت نفوس أرباب الدنيا إلى الخلاف مع إمام آخر من الأئمة أو إلى علم آخر من العلوم لمالوا أيضاً معهم ، ولم يسكنوا عن التمال بأن ما اشتغلوا به هو علم الدين وأن لا مطلب لهم سوى التقرب إلى رب العالمين

بيان التلبس في تشبيه هذه المناظرات بمشاورات الصحابة ومفاوضات السلف

أعلم أن هؤلاء قد يستدرجون الناس إلى ذلك بأن غرضنا من المناظرات المباحة عن الحق ليتضح ، فإن الحق مطلوب والتعاون على النظر في العلم وتوارد الخواطر مفيد ومؤثر ، وهكذا كان عادة الصحابة رضى الله عنهم في مشاوراتهم كتشاورهم في مسألة الجدة والأخوة وحد شرب الخمر وجوب النرم على الإمام إذا أخطأ ، كما نقل من إجماع المرأة جنيته خوفاً من عمر رضى الله عنه ؛ وكما نقل من مسائل الفرائض وغيرها وما نقل عن الشافعى وأحمد ومحمد بن الحسن والكويتي يوسف وغيرهم من العلماء رحمهم الله تعالى . وبطلانهم على هذا التلبس ما ذكره وهو أن التعاون على طلب الحق من الدين ولكن له شروط وعلامات ثمان ، الأول : أن لا يشتغل به وهو من

فروض الكفايات من لم يتفرغ من فروض الأعيان، ومن عليه فرض عين فاشتغل بفرض كفاية وزعم أن مذهب الحق فهو كذاب، ومثاله من يترك الصلاة في نفسه ويتجرد في تحصيل الثياب ونسجها ويقول عرضي أستر عورة من يصلي عرياناً ولا يجد ثوباً ؟ فإن ذلك ربما يتفق ووقوعه ممكن كما يزعم الفقيه أن وقوع التوارد التي عنها البحث في الخلاف ممكن. والمشتغلون بالمناظرة مهملون لأمور هي فرض عين بالانفاق ومن توجه عليه رد ودبنة في الحال فقام وأحرم بالصلاة التي هي أقرب التراتب إلى الله تعالى عصى به، فلا يمكن في كون الشخص معليماً كون فعله من جنس الطاعات ما لم يراع فيه الوقت والشروط والترتيب. الثاني: أن لا يرى فرض كفاية أهم من المناظرة فإن رأى ما هو أهم وفعل غيره عصى بفعله وكان مثاله مثال من يرى جماعة من العطاش أشرفوا على الهلاك وقد أهملهم الناس وهو قادر على إحيائهم بأن يسقيهم الماء فاشتغل بتعلم الجماعة، وزعم أنه من فروض الكفايات ولو خلا البلد عنها هلك الناس وإذا قيل له في البلد جماعة من الحجامين وفيهم غنية فيقول هذا لا يخرج هذا الفعل عن كونه فرض كفاية. مثال من يفعل هذا ويهمل الاشتغال بالواقعة الملمة بجماعة العطاش من المسلمين كحال المشتغل بالمناظرة وفي البلد فروض كفايات مهمة لا قائم بها فأما الفتوى فقد قام بها جماعة ولا يتخلو بلد من جملة الفروض المهمة ولا يلتفت الفقهاء إليها وأقربها الطلب؛ إذ لا يوجد في أكثر البلاد طبيب مسلم يجوز اعتداد شهادته فيما يقول فيه هل قول الطبيب شرعاً ولا يرغب أحد من الفقهاء في الاشتغال به، وكذلك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فهو من فروض الكفايات وربما يكون المناظر في مجلس مناظرته مشاهدًا للحرير ملبوساً ومغروساً وهو ساكت وبناظر في مسألة لا يتفق وقوعها قط وإن وقعت قام بها جماعة من الفقهاء، ثم يزعم أنه يريد أن يتقرب إلى الله تعالى بفروض الكفايات. وقد روى أنس رضي الله عنه أنه: قيل يا رسول الله متى يترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؟ فقال عليه السلام: إذا ظهرت المداينة في خياركم والفاحشة في شراركم وتحول الملك في صغاركم والفتنة في أراذلكم^(١)، الثالث: أن يكون المناظر مجتهداً يفتي برأيه لا يذهب الشافعي وأبي حنيفة وغيرهما حتى إذا ظهر له الحق من مذهب أبي حنيفة ترك ما يوافق رأى الشافعي وأفتى بما ظهر له كما كان يفعله الصحابة رضي الله عنهم والأئمة. فأما من ليس له رتبة الاجتهاد وهو حكم كل أهل العصر وإنما يفتي فيما يسأل عنه ناقلًا عن مذهب صاحبه فلو ظهر له ضعف مذهبه لم يجوز له أن يتركه، فأى فائدة له في المناظرة ومذهبه معلوم وليس له الفتوى بغيره؟ وما يشكل عليه يلزمه أن يقول: لعل عند صاحب مذهبي جواباً عن هذا فإني لست مستقلاً بالاجتهاد في أصل الشرع: ولو كانت مباحثته عن المسائل التي فيها وجهان أو قولان لصاحبه لكان أشبه، فإنه ربما يفتي بأحدهما فيستفيد من البحث بدلاً من أحد الجانبين ولا يرى المناظرات جارية فيها قط، بل ربما ترك المسألة التي فيها وجهان أو قولان وطلب مسألة يكون الخلاف فيها مبيناً. الرابع: أن لا يناظر إلا في مسألة واقعة أو فرية الوقوع غالباً فإن الصحابة رضي الله عنهم ما تنازعوا إلا فيا تجد من الوقائع أو ما ينقلب وقوعه كالفرأض، ولا نرى المناظرين يهتمون بانتقاد المسائل التي تتم البلى بالفتوى فيها بل يطلبون الطبوليات التي تسمع فتسمع مجال الجدول فيها كيفما كان الأمر،

الباب الرابع

(١) حديث أنس «إلى يا رسول الله متى يترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر». الحديث أخرجه ابن ماجه بإسناد حسن.

وربما يتروكون ما يكثر وقوعه ويقولون هذه مسألة خبرية أو هي من الزوايا وليست من الطلويات ، لمن الدعاب أن يكون المطلب هو الحق ثم يتروكون المسألة لأنها خبرية ومدرك الحق فيها هو الإخبار ؛ أو لأنها لا تسبب ليست من الطلويات فلا تطول فيها الكلام . والمقصود في الحق أن يقصر الكلام ويبلغ الغاية على القرب لا أن يطول . الخامس : أن تكون المناظرة في الخلوة أحب إليه وأهم من المحافل وبين أظهر الأكارب والسلاطين فإن الخلوة أجمع لفهم وأحرى بصفاة الذهن والفكر ودرك الحق ، وفي حضور الجمع ما يحرك دواعي الرياء ويوجب الحرص على نصرة كل واحد نفسه محققاً أو مبطلا ، وأنت تعلم أن حرصهم على المحافل والجمع ليس لله وأن الواحد منهم يغلو بصاحبه مدة طويلة فلا يكلمه وربما يقترح عليه فلا يجيب وإذا ظهر متقدم أو انتظم جمع لم ينادر في قوس الاحتمال منزعا حتى يكون هو المتخصص بالكلام . السادس : أن يكون في طلب الحق كاشد ضالة لا يفتوق بين أن تظهر الضالة على يده أو على يد من يعاونه ويرى رفيقه ميتا لا خصما ويشكره إذا عرفه الخطأ وأظهر له الحق ، كما لو أخذ طريقاً في طلب ضالته فنهض صاحبه على ضالته في طريق آخر فإنه كان يشكره ولا يذمه وبكرمه ويفرح به ؛ فهكذا كانت مشاورات الصحابة رضي الله عنهم حتى أن امرأة ردت على عمر رضي الله عنه ونهته على الحق وهو في خطبته على ملائ من الناس فقال : أصابت امرأة وأخطأ رجل . وسأل رجل علياً رضي الله عنه فأجابته فقال : ليس كذلك يا أمير المؤمنين ولكن كذا كذا فقال : أصبت وأخطأت وفوق كل ذي علم عليم . واستدرك ابن مسعود على أبي موسى الأشعري رضي الله عنهما فقال أبو موسى : لانسألوني عن شيء وهذا الخبر بين أظهركم . وذلك لما سأل أبو موسى عن رجل قاتل في سبيل الله فقتل فقال : هو في الجنة . وكان أمير الكوفة فقام ابن مسعود فقال : أعد على الأمير فإنه لم يفهم ؟ فأعاد عليه فأعاد الجواب فقال ابن مسعود . وأنا أقول إن قتل فأصاب الحق فهو في الجنة . فقال أبو موسى : الحق ما قال . وهكذا يكون إنصاف طالب الحق ؟ ولو ذكر مثل هذا الآن لأقل فتيه لأنكره واستبدده وقال : لا يحتاج إلى أن يقال أصاب الحق فإن ذلك معلوم لكل أحد . فانظر إلى مناظري زمانك اليوم كيف يسود وجه أحدهم إذا انتضح الحق على لسان خصمه وكيف يتجمل به وكيف يجهد في مجادته بأقصى قدرته وكيف يذم من ألحقه طول عمره ثم لا يستحي من تشبيه نفسه بالصحابة رضي الله عنهم في تعاونهم على النظر في الحق ؟ السابع : أن لا يمنع ميعته في التفار من الانتقال من دليل إلى دليل ومن إشكال إلى إشكال ، فهكذا كانت مناظرات السلف . ويخرج من كلامه جميع دقائق الجدل المبتدعة فيها وعليه كقولها : هذا لا يلزمي ذكره ، وهذا يناقض كلامك الأول فلا يقبل منك ؛ فإن الرجوع إلى الحق مناقض للباطل ويجب قبوله . وأنت ترى أن جميع المجالس تنقضي في اللذائفات والمجادلات حتى يقبس للمستدل على أصل بلة يظنها فيقال له : ما الدليل على أن الحكم في الأصل ملل بهذه العلة ؟ فيقول : هذا ما ظهر لي ؛ فإن ظهر لك ما هو أوضح منه وأولى فأذكره حتى أنظر فيه . فيصير المعترض ويقول فيه معان سوى ما ذكرته وقد عرفتها ولا أذكرها إذ لا يلزمي ذكرها ، ويقول المستدل عليك ليأمراد ما تدعي وراء هذا ويصير المعترض على أنه لا يلزمه ويتوخى مجالس المناظرة بهذا الجنس من السؤال وأمثلة ولا يعرف هذا المسكين أن قوله : إني أعرفه ولا أذكره إذ لا يلزمي ، كذب على الشرع ؛ فإنه إن كان لا يعرف منه وأجبا يدعيه ليحجز خصمه فهو فاسق كذاب عصى الله تعالى وترضى لسمعه بدعواه مرفقة هو حال عنها بل إن كان صادقا فقد فسق بإخفائه ما عرفه من أمر الشرع . وقد سأله أخوه المسلم ليفهمه وينظر فيه فإن كان قويا رجع إليه وإن كان ضعيفا أظهر له ضعفه وأخرجه عن ظلة الجهل إلى نور العلم ، ولا خلاف أن إظهار

ما علم من علمهم الدين بعد السؤال عنه واجب لازم فمنى قوله : لا يلزمنى ؛ أى فى شرع المجدل الذى أبدعناه بحكم التشبهى والرغبة فى طريق الاحتيال والمصارعة بالكلام لا يلزمنى وإلا فهو لازم بالشرع ، فإنه بامتناعه عن الذكر إما كاذب وإما فاسق فتخصص عن مساووات الصحابة ومفاوضات السلف رضى الله عنهم هل سمعت فيها ما يضاهاى هذا الجنس وهل منع أحد من الانتقال من دليل إلى دليل ومن قياس إلى أثر ومن خبر إلى آية ؟ بل جميع مناظراتهم من هذا الجنس إذا كانوا يذكرون كل ما يخطر لهم كما ينظر وكانوا ينظرون فيه . الثامن : أن يناظر من يتوقع الاستفادة منه من هو مشتغل بالعلم . والغالب أنهم يحتجرون من مناظرة الفحول والأكابر خوفا من ظهور الحق على السننهم فيرغبون فيمن دونهم طمعاً فى ترويج الباطل عليهم ووراء هذه شروط دقيقة كثيرة ولكن فى هذه الشروط الثمانية ما يجديك إلى من يناظر الله ومن يناظر لعله : واعلم بالجملة أن من لا يناظر الشيطان وهو مستول على قلبه وهو أعدى عدوه ولا يزال يدعو إلى هلاكه ثم يشتغل بمناظرة غيره فى المسائل التى يتجهد فيها مصيب أو مسام للصيب فى الآخر فهو مضحكة الشيطان وعبرة للخلصين ولذلك شتم الشيطان به لما غشه فيه من ظلمات الآفات التى تمددما ونذكر تفاصيلها ؛ ففسل الله حسن العون والتوفيق .

بيان آفات المناظرة وما يتولد منها من مهلكات الأخلاق

اعلم وتحقق أن المناظرة الموضوعة لقصد الغلبة والإلحاح وإظهار الفضل والشرف والتشقق عند الناس وقصد المباهاة والمباراة واستمالة وجوه الناس هى منبع جميع الأخلاق المذمومة عند الله المحموده عند عدو الله إبليس . ونسبها إلى الفواحش الباطنة من الكبر والمجب والحسد والمنافسة وتركية النفس وحب الجاه وغيرها كنسبة شرب الخمر إلى الفواحش الظاهرة من الرنا والذف والقتل والسرقة . وكأ أن الذى يخبر بين الشرب والقواحش وسائر الفواحش استصغر الشرب فأقدم عليه فدعاه ذلك إلى ارتكاب بقية الفواحش فى سكره فكذلك من غلب عليه حب الإلحاح والغلبة فى المناظرة وطلب الجاه والمباهاة دعاه ذلك إلى إضمار الحباثت كلها فى النفس وهيج فيه جميع الأخلاق المذمومة . وهذه الأخلاق ستأتى أدلة مدتها من الأخبار والآيات فى ربيع المهلكات . ولكنا نشير الآن إلى مجامع ما تبيحه المناظرة فيها الحسد ؛ وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب^(١) ، ولا ينفك المناظر عن الحسد فإنه تارة يغلب وتارة يغلب وتارة يحسد كلامه وأخرى يحسد كلام غيره . فإدام يق فى الدنيا واحد يذكرك بقوة العلم والنظر أو يظن أنه أحسن منه كلاماً وأقوى نظراً فلا بد أن يحسده ويجب زوال النعم عنه وانصراف القلوب والوجوه عنه إليه . والحسد نار محرقة فى قلبه فهو فى العذاب فى الدنيا وللعذاب الآخرة أشد وأعظم ؛ ولذلك قال ابن عباس رضى الله عنهما : خذوا العلم حيث وجدتموه ولا تقبلوا قول الفقهاء بعضهم على بعض فإنهم يتناخرون كما تتغابر التيتوس فى الزريبة . ومنها التكبر والترفع على الناس فقد قال صلى الله عليه وسلم : من تكبر وضعه الله ومن تواضع رفعه الله^(٢) ، وقال صلى الله عليه وسلم حكاية عن الله تعالى : العظمة لأزاري والكبرياء ردائي فمن نازعني فيهما قصصته^(٣) ، ولا ينفك المناظر عن التكبر على

(١) حديث : الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب . أخرجه أبو داود من حديث أبي هريرة ، وقال البصارى : لا يصح . وهو عند ابن ماجه من حديث أنس بإسناد ضعيف ، وفى تاريخ بغداد بإسناد حسن

(٢) حديث : من تكبر وضعه الله ... الحديث . أخرجه الحطيف من حديث عمر بإسناد صحيح وقال : غريب من حديث الثوري ؛ وابن ماجه نحوه من حديث أبي سعيد بسند حسن . (٣) حديث : الكبرياء ردائي والعظمة لأزاري . الحديث ؛ أخرجه أبو داود وابن ماجه وابن حبان من حديث أبي هريرة وهو عند مسلم بلفظ : الكبرياء ردائي . من حديث أبي هريرة وأبي سعيد .

الأفان والإمثال والرفع إلى فوق قدره حتى إنهم ليتقاتلون على مجلس من المجالس يتافسون فيه في الارتضاع والاختصاص والقرب من وسادة الصدر والبعد منها والتقدم في الدخول عند مضائق الطرق ، وربما يتعطل النبي والمكار الخداع منهم بأنه يفي حسيانة عز العلم ، « وأن المؤمن من عن الإذلال لنفسه ^(١) » فتعبر عن التواضع الذي أنى الله عليه وسائر أنبيائه بالذل وعن التكبر المقصود عند الله بعز الدين تحريماً للامم وإشلالاً للخلق به كما فعل في آدم الحكمة والعلم وغيرهما . ومنها الحقد فلا يكاد المناظر ينالو عنه . وقد قال صلى الله عليه وسلم : المؤمن ليس بحقد ^(٢) ، وورد في ذم الحقد مالا يخفى . ولا ترى مناظراً يقدر على أن لا يضر حقداً على من يترك رأسه من كلام خصمه ويتوقف في كلامه فلا يقابله بحسن الإصغاء بل يضمار إذا شاهد ذلك إلى إخماد الحقد وتزيينه في نفسه وغاية تماسكه الإخفاء بالتناقض ويترشح منه إلى الظاهر لا بحالة في غالب الأمر . وكيف ينفك عن هذا ولا يتصور اتفاق جميع المستمعين على ترجيح كلامه واستحسان جميع أحواله في إيراد وإصداره ؟ بل لو صدر من خصمه أدنى سبب فيه قلة مبالاة بكلامه أفرس في صدره حقد لا يقبله مدى الدهر إلى آخر العمر . ومنها الغيبة وقد شبهها الله بأكل الميتة ولا يزال المناظر مثاراً على أكل الميتة فإنه لا ينفك عن حكاية كلام خصمه ومذمته ، وغاية تحفظه أن يصدق فيما يحكيه عليه ولا يكذب في الحكاية عنه فيحكي عنه لا بحالة ما يدل على قصور كلامه وعجزه ونقصان فضله وهو الغيبة ، فأما الكذب فبهتان وكذلك لا يقدر على أن يحفظ لسانه عن التعرض لمرض من يمرض عن كلامه ويصنى إلى خصمه ويقبل عليه حتى ينسب إلى الجبل والحاقة وقلة الفهم والبلاهة . ومنها تزكية النفس ، قال الله سبحانه وتعالى ﴿ فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى ﴾ وقيل الحكيم : ما الصدق التيسير ؟ فقال : ثناء المرء على نفسه . ولا ينال المناظر من الثناء على نفسه بالقوة والغلبة والتقدم على الأفان ولا ينفك في أشغال المناظرة عن قوله : لست ممن يبنى عليه أمثال هذه الأمور وأنا التفتن في العلوم والمستقل بالاصول وحفظ الأحاديث وغير ذلك مما يتمتع به تارة على سبيل الصلف وتارة العاجلة إلى ترويح كلامه . ومعلوم أن الصلف والتدح مذمومان شراراً وقللاً ومنها التجسس وتبعية عورات الناس ، وقد قال تعالى ﴿ ولا تجسسوا ﴾ والمناظر لا ينفك عن طلب عثرات أفرانه وتبعية عورات خصومه حتى إنه ليخبر بورد مناظر إلى بلده فيطلب من يجبر بواطن أحواله ويستخرج بالسؤال مقابجه حتى يبعدها ذخيرة لنفسه في إفضاحه وتحجيلة إذا مست إليه حاجة حتى إنه ليستكشف عن أحوال صباه وعن عيوب بدنه فعساه يثر على هفوة أو على عيب به من فرع أو غيره . ثم إذا أحس بأدنى غلبة من جهته عرض به إن كان متمسكاً ويستحسن ذلك منه ويعد من لطائف التسبب ولا يتمتع عن الإصباح به إن كان متجنباً بالسفاهة والاستهزاء ، كما حكى عن قوم من أكابر المناظرين المحدثين من طروهم . ومنها الترحح لمسادة الناس والتمسك لمساوهم ومن لا يحب لأخيه المسلم ما يجب لنفسه فهو بعيد من أخلاق المؤمنين ، فكل من طلب البهاة بإظهار الفضل يسره لا بحالة ما يسوه أفرانه وأشكاله الذين يسامونه في الفضل ويكون التباهة بينهم كما بين الضرائر فكما أن إحدى الضرائر إذا رأت صاحبها من بعيد ارتعدت فراعصها واصغر لونها فكذا ترى المناظر إذا رأى مناظر أثير لونه واضطرب عليه فكره فكأنه يشاهد شيطاناً مارداً أو سبياً ضارباً ، فإن الاستئناس والاسترواح الذي كان يجري بين علماء الدين عند اللقاء وما نقل عنهم من المرواحة والتناصر والتسامح في السراء

(١) حديث « هو المؤمن عن إذلال نفسه » أخرجه الترمذي وصححه وابن ماجه من حديث حذيفة « لا يبنى المؤمن أن يدل

نفسه » (٢) حديث « المؤمن ليس بحقد » لم ألق له على أصل .

والعزاء حتى قال الشافعي رضي الله عنه : العلم بين أهل الفضل والعقل ورحم متمثل ؟ فلا أدري كيف يدعى الاقتداء بمذهبه جماعة صار العلم بينهم عدوة قاطعة ! فهل يتصور أن ينسب إلى الأنس بينهم مع طلب الغلبة والمباهاة مهابات مهابات وناهيك بالشر شر أن يلزمك أخلاق المنافقين ويرثك عن أخلاق المؤمنين والمؤمنين . ومنها التفاني فلا يحتاج إلى ذكر الشواهد في ذمه وهم مضطرون إليه فإنهم يلقون الخصوم ومحبيهم وأشياهم ولا يجدون بدا من التردد إليهم باللسان وإظهار الشوق والاعتداد بمكانهم وأحوالهم ، ويعلم ذلك الخاطب والمخاطب وكل من يسمع منهم أن ذلك كذب وزور ونفاق وجور فإنهم متوددون باللسنة متباغضون بالقلوب نموذ بالله العظيم منه ! فقد قال صلى الله عليه وسلم : إذا تعلم الناس العلم وتركوا العمل وتحابوا بالأسن وباغضوا بالقلوب وتقاطعوا في الأرحام لعنهم الله عند ذلك فأصمهم وأعمى أبصارهم ^(١) ، ورواه الحسن وقد صحح ذلك بمشاهدة هذه الحالة . ومنها الاستكبار عن الحق وكراهته والحرص على الماراة فيه حتى إن أبغض شيء إلى المناظر أن يظهر على لسان خصمه الحق ومنها ما ظهر تشمر لجده وإنكاره بأقصى جهده وبذل غاية إمكانه في المخادعة والمكر والحيلة لدفعه حتى تصير الماراة فيه عادة طبيعية فلا يسمع كلاما إلا ويبغض من طبعه داعية الاعتراض عليه حتى يقلب ذلك على قلبه في أدلة القرآن والألفاظ الشرعية فيضرب البعض منها بالبرص ، والمراء في مقابلة الباطل محذور إذ تدب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ترك المراء بالحق على الباطل . قال صلى الله عليه وسلم : من ترك المراء وهو مبطل بنى الله له بيتا في ربض الجنة ومن ترك المراء وهو عقيم بنى الله له بيتا في أعلى الجنة ^(٢) ، وقد سوى الله تعالى بين من اقترى على الله كذبا وبين من كذب بالحق فقال تعالى (ومن أظلم ممن اقترى على الله كذبا أو كذب بالحق لما جاءه) وقال تعالى (لمن أظلم ممن كذب على الله وكذب بالصدق إذ جاءه) ومنها الرياء وملاحظة الخلق والجهد في استئثار قلوبهم وصرف وجوههم . والرياء هو البناء المضلل الذي يدعو إلى أكبر الكبائر - كما سيأتي في كتاب الرياء - والمناظر لا يقصد إلا الظهور عند الخلق وانطلاق السمتهم بالثناء عليه ! فهذه عشر خصال من أمهات الفواحش الباطنة سوى ما يتفق لغير المتباسكين منهم من الخصام المردى إلى الضرب والسك والطمع وتمزيق الثياب والأخذ بالحي وسب الوالدين وشتم الأستاذين والتذلف الصريح فإن أوائلك ليسوا بمدودين في زمرة الناس المعترين وإنما الأكابر والعقلاء منهم هم الذين لا يفسكون عن هذه الخصال العشر ، نعم قد يسلم بعضهم من بعضها مع من هو ظاهر الاحتياط عنه أو ظاهر الارتفاع عليه أو هو بعيد عن يده وأسباب معيشته ، ولا ينفك أحد منهم عنه مع أشكاله المقارنين له في الدرجة . ثم ينقسم في كل واحدة من هذه الخصال العشر عشر أخرى من الرذائل لم نطول بذكرها وتفصيل آحادها مثل : الأنفة ، والغضب ، والبغضاء ، والطمع ، وحب طلب المال ، والجاهة ، والجاهة ، والآثر ، والبطر ، وتعميم الأغنياء والسلطان والتردد إليهم والأخذ من حرامهم ، والتجمل بالخيول والمراكب والثياب المخطورة ، والاستخفاف للناس بالخبر والحيلة ، والخوض فيما لا يعني ، وكثرة الكلام ، وخروج الحشبة والخوف والرحمة من القلب ، واستيلاء الغفلة عليه حتى لا يدري المصل منهم في صلاته ما صلى وما الذي يقرأ ومن الذي يتابعه ؟ ولا يحصى بالحشوع من قلبه مع استغراق العمر في العلوم التي تعين في المشاهدة مع أنها لا تنفع في الآخرة : من تحمين العبارة ونسجيم اللفظ

(١) حديث : إذا تعلم الناس العلم وتركوا العمل وتحابوا بالأسن وباغضوا بالقلوب ... الحديث أخرجه الطبراني من حديث سلمان بن سنان مذهب (٢) حديث : من ترك المراء وهو مبطل ... الحديث أخرجه الترمذي وابن ماجه من حديث أنس مع اختلاف . قال الترمذي : حسن .

وحفظ بالتأدب إلى غير ذلك من أمور لا تحصى . والمناظرون يتفاوتون فيها على حسب درجاتهم ولهم درجات شتى ولا ينفك أعظمهم ديناً وأكثرهم عقلاً عن جمل من مواد هذه الأخلاق وإنما غاية إخفاؤها وبجاءة النفس بها . واعلم أن هذه الرذائل لازمة للمشتغل بالتدكير والوعظ أيضاً إذا كان قصده طلب القبول وإقامة الجاه ونيل الرتبة والعزة وهي لازمة أيضاً للمشتغل بعلم المذهب والفتاوى إذا كان قصده طلب التقاء وولاية الأوقاف والتقدم على الأقران . وبالجملة هي لازمة لكل من يطلب بالعلم غير ثواب الله تعالى في الآخرة فالعلم لا يحمل العالم بل يهلكه هلاك الأبدي أو يحية حياة الأبدي ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : أشد الناس عذاباً يوم القيامة عالم لا ينفعه الله بعلمه ، فلقد ضره مع أنه لم ينفعه ؛ وليته نجا منه رأساً برأس ؛ وهيئات مهيأت فخطر العلم عظيم ؛ وطالبه طلب الملك المؤبد ، والتعميم السرمدة ، فلا ينفك عن الملك أو الهلاك ؛ وهو كطالب الملك في الدنيا ، فإن لم يتفق له الإجابة في الأموال لم يطمع في السلامة من الإذلال بل لابد من لزوم أفصح الأحوال . فإن قلت : في الرخصة في المناظرة فائدة وهي ترغيب الناس في طلب العلم لإذلول حب الرياسة لا تدرس العلوم ؛ فقد صدقت فيما ذكرته من وجه ولكنه غير مفيد إذلول الوعد بالكرمة والصولجان والغلب بالمصافير . ما رغب الصبيان في المكتب وذلك لا يدل على أن الرغبة فيه محدودة ، ولولا حب الرياسة لا تدرس العلم . ولا يدل ذلك على أن طالب الرياسة ناجح بل هو من الذين قال صلى الله عليه وآله وسلم فيهم : « إن الله ليؤيد هذا الدين بأقوام لا خلاق لهم »^(١) ، وقال صلى الله عليه وسلم : « إن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر »^(٢) ، فطالب الرياسة في نفسه هالك وقد يصلح بسببه غيره إن كان يدعو إلى ترك الدنيا وذلك فيمن كان ظاهر حاله في ظاهر الأمر ظاهر حال علماء السلف ولكنه يضر قصد الجاه ، فثاله مثال الشيع الذي يمتدح في نفسه ويستغنى به غيره فصلاح غيره في هلاكه فأما إذا كان يدعو إلى طلب الدنيا فثاله مثال النار المحرقة التي تأكل نفسها وغيرها . فالعلماء ثلاثة : إما مهلك نفسه وغيره وهم المصحرون بطلب الدنيا والمتقبلون عليها ، وإما مسدد نفسه وغيره وهم الماعون الخلق إلى الله سبحانه ظاهر أو باطن ، وإما مهلك نفسه مسدد غيره وهو الذي يدعو إلى الآخرة وقد رفض الدنيا في ظاهره وقصده في الباطن قبول الخلق وإقامة الجاه ، فأنظر من أي الأقسام أنت ومن الذي اشتغلت بالاعتداد له ؟ فلا تظن أن الله تعالى يقبل غير الخالص لوجهه تعالى من العلم والعمل . وسياطيك في كتاب الرياء بل في جميع ربح المهلكات ما يفتي عنك الرياء فيه إن شاء الله تعالى .

الباب الخامس

في آداب المتعلم والمعلم

أما المتعلم فأدابه ووظائفه الظاهرة كثيرة ولكن نظم تفاريقها عشر جمل :

الوظيفة الأولى : تقديم طهارة النفس عن وذائل الأخلاق ومذموم الأوصاف إذ العلم عبادة القلب وصلابة السروقة الباطن إلى الله تعالى ؛ وكما لا تصح الصلاة التي هي وظيفة الجوارح الظاهرة إلا بتطهير الظاهر عن الأحداث والأخبار فكذلك لا تصح عبادة الباطن وحمارة القلب بالعلم إلا بعد طهارته عن خبائث الأخلاق وأنجاس

(١) حديث « إن الله ليؤيد هذا الدين بأقوام لا خلاق لهم » أخرجه النسائي من حديث أسد بإسناد صحيح .

(٢) حديث « إن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر » متفق عليه من حديث أبي هريرة .

الأوصاف. قال صلى الله عليه وسلم « بني الدين على التخالفة »^(١) ، وهو كذلك باطنا وظاهرا قالوا قد تعالى ﴿ إنما المشركون نجس ﴾ فليها العقول على الطهارة والنجاسة غير مقصورة على الظواهر بالحق فالشرك قد يكون تطهير القلب منسول البدن ولكنه نجس الجوهر أى باطنه ملطخ بالنجاسات . والنجاسة عبارة عما يجنب ويطلب البهيمه ونجاست صفات الباطن أهم بالاجتناب فلها مع غيباتها الحال مهلكات في الحال . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « لا تدخل الملائكة بيتا فيه كلب »^(٢) ، والقلب بيت هو منزل الملائكة ومهبط آثرهم وعمل استقرارهم ؛ والصفات الرديئة مثل والغضب والشهوة والحقد والحسد والكبر والعجب وأخواتها كلاب ناجية فأتى تدخله الملائكة وهو مشحون بالكلاب ونور العلم لا يتدفد الله تعالى في القلب إلا بواسطة الملائكة ﴿ وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحى إياذنه ما يشاء ﴾ وهكذا ما يرسل من رحمة العلوم إلى القلوب إنما تترواها الملائكة المكونون بها وهم المندوسون المظهرون المبرهون عن الصفات المذمومات فلا يحظون إلا لأطيا ولا يبرون بما عتدم من خزان رحمة الله إلا طيا ظاهرا . ولست أقول المراد بلفظ « البيت » هو القلب و « الكلب » هو الغضب والصفات المذمومة ولكني أقول هو تنبيه عليه ، وفرق بين تعبير الظواهر إلى البواطن وبين التنبيه البواطن من ذكر الظواهر مع تقرير الظواهر ، ففارق الباطنية بهذا الحقيقة ، فإن هذه طريق الاعتبار وهو مصلك العلماء والأبرار إذ معنى الاعتبار أن يدبر ما ذكر إلى غيره فلا يقتصر عليه كما يرى العاقل مصيبة لغيره فيكون فيها له عبرة بأن يعبر منها إلى التنبيه لكونه أيضا عرضة للمصائب وكون الدنيا بصدد الانقلاب ، فيبصره من غيره إلى نفسه ومن نفسه إلى أصل الدنيا عبرة محدودة فاعبر أنت أيضا من البيت الذي هو بناء الخلق إلى القلب الذي هو بيت من بناء الله تعالى ومن الكلب الذي ذم لفسفته - لا لصورته - وهو مافيه من سبية ونجاسة إلى الروح الكلية وهي السبية . واعلم أن القلب المشحون بالغضب والشهوة إلى الدنيا والتسكب عليها والحرص على التزيق لأعراض الناس كلب في المعنى وقلب في الصورة ، فنور البصيرة يلاحظ الممانى للأصو . والصورة في هذا العالم غالبة على الممانى والممانى باطنة فيها . وفي الآخرة تتبع الصور الممانى وتغلب الممانى . فذلك يحث كل شخص على صورته المنزوعة فيفسر المعنى لأعراض الناس كلها ضاريا . والشهوة إلى أمواهم ذميا عاديا ، والتسكبر عليهم في صورة نمر ؛ وطالب الرياسة في صورة أسد^(٣) . وقد وردت بذلك الأخبار وشهد به الاعتبار عند ذوى البصائر والأبصار « فإن قلت : كم من طالب لغيره الأخلاق حصل العلوم فهيات ما بعده عن العلم الحقيقي النافع في الآخرة الجالب للسعادة فلن من أوائل ذلك العلم أن يظهر له أن المعاصي سحر قاتلة مهلكة وهل رأيت من يتناول سحاما مع عليه بكونه سحاما قاتلا ؟ إنما الذي تسمعه من المترسمين حديث يلقونه بالسفهم مرة ويرددونه بقولهم أخرى وليس ذلك من العلم في شيء . قال ابن مسعود رضي الله عنه ليس العلم بكثرة الرواية إنما العلم نور يقذف في القلب . وقال بعضهم : إنما العلم الحقيقية لقوله تعالى ﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماء ﴾ وكأنه أشار إلى أخص ثمرات العلم . ولذلك قال بعض المحققين : معنى قولهم « تعلمنا العلم لغير الله فإني العلم أن يكون لإله » أن العلم أبى وامتنع علينا فلم نتكسب لنا حقيقته وإنما حصل لنا

الباب الخامس

(١) حديث « بني الدين على التخالفة » لم أجده هكذا . وفي الشفاء لابن حبان من حديث طائفة « تنظروا فإن الإسلام تطهير والعلماني في الأوسط بسند ضعيف جداً من حديث ابن مسعود « التخالفة تدعو إلى الإيمان » (٢) حديث « لا تدخل الملائكة بيتا فيه كلب » متفق عليه من حديث أبي طلحة الأنصاري (٣) حديث « حشر الميزق لأعراض الناس في سورة كلب طار ... الحديث » أخرجه الترمذي في التلخيص من حديث البراء بسند ضعيف .

حديثه والفاضة ، فإن قلت : أرى جماعة من العلماء والفقهاء المحققين برزوا في الفروع والأصول وعدوا من جملة الفضول وأخلافهم ذميمة لم يتطهروا منها ؟ فيقال : إذا عرفت مراتب العلوم وعرفت علم الآخرة استبان لك أن ما اشتغلوا به قليل الغناء من حيث كونه علما وإنما غناؤه من حيث كونه عملا لله تعالى إذا قصد به التقرب إلى الله تعالى وقد سبق إلى هذا إشارة . وسيأتيك فيه مزيد بيان وإيضاح إن شاء الله تعالى . الوظيفة الثانية : أن يقال علاقه من الاشتغال بالدنيا ويهد عن الأهل والوطن فإن العلائق شاغلة وصارقة (ماجدل الله لرجل من قلوبن في جوفه) ومهما توزعت الفكرة قصرت عن درك الحقائق ولذلك قيل : العلم لا يعطيك بعضه حتى تعطيك كله فإذا أعطيتك كله فأنت من إعطائك إياك بعضه على خطر ، والفكرة المتوزعة على أمور متفرقة بكدول تفرق ماؤه فنشفت لا . من بعضه واختلط الهراء ببعضه فلا يبقى منه ما يجتمع ويبلغ المردع . الوظيفة الثالثة : أن لا يتكبر على العلم ولا يتأمر عن . علم بل يلقى إليه زمام أمره بالكلية في كل تفصيل ويدع لنصيحته إضغان المريض الجاهل للطبيب المشفق الحاذق . وينبغي أن يتواضع لمعلمه ويطلب الثواب والشرف بخدمته . قال الشعبي : صلى زيد بن ثابت على جنازة فقربت إليه بفلته ليركبها لجله ابن عباس فأخذ بركابه فقال زيد : خل عنه يا ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ابن عباس : هكذا أمرنا أن نفعل بالكبراء فتبلى زيد بن ثابت يده وقال : هكذا أمرنا أن نفعل بأهل بيت نبينا صلى الله عليه وسلم ^(١) ، وقال صلى الله عليه وسلم : ليس من أخلاق المؤمنين التناقل إلا في طلب العلم ^(٢) ، فلا ينبغي لطالب العلم أن يتكبر على العلم ومن تكبره على المعلم أن يستكشف عن الاستفادة إلا من المرموقين المشهورين وهو عين الحماقة فإن العلم سبب النجاة والسعادة ، ومن يطلب مهرا من سبع ضار يفترسه لم يفرق بين أن يرشده إلى الحرب مشهور أو غامل ، وضراوة سياح النار بالجهال بالله تعالى أشد من وضراوة كل سبع فالحكمة حنالة المؤمنين فيقتنمها حيث يظفر بها ويتقلد المنة لمن ساقها إليه كاتما من كان ؛ فذلك قيل :

المعلم حرب للفتى المتعالي كالسيل حرب للسكان العالي

فلا ينال العلم إلا بالتواضع وإلقاء السمع قال الله تعالى ﴿ إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ﴾ ومعنى كونه ذا قلب أن يكون قابلا للعلم فهما ، ثم لاعتية القدرة على الفهم حتى يلقى السمع وهو شهيد حاضر القلب ليستقبل كل ما ألقى إليه بحسن الإصغاء والضراعة والشكر والفرح وقبول المنة . فليكن المتعلم لمعلمه كأرض دمنة نالت مطرا غزيرا فقشربت جميع أجزائها وأذنت بالكلية لقبوله . ومهما أشار عليه المعلم بطريق في التعلم فليقلده وليدع رأيه فإن خطأ مرشده أنفع له من صوابه في نفسه إذ التجربة تطلع على دقائق يستغرب سماعها مع أنه يعلم نفعا ، فكأن من مريض عرور ينداله الطبيب في بعض أوقاته بالحرارة ليزيد في قوته إلى حد يحتمل صدمة العلاج فيجيب منه من لاخيرة له به ، وقد نبه الله تعالى بقصة الخضر وموسى عليهما السلام حيث قال الخضر ﴿ إنك لن تستطيع معي صبرا وكيف تصبر على ما لم تحط به خيرا ﴾ ثم شرط عليه السكوت والتسليم فقال ﴿ فإن اتبعتني فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكرا ﴾ ثم لم يصبر ولم يزل في مراودته إلى أن كان ذلك سبب الفراق بينهما . وبالجملة كل متعلم استيق لنفسه رأيا واختيارا

(١) حديث « أخذ ابن عباس بركاب زيد بن ثابت » وقوله « هكذا أمرنا أن نفعل بالكبراء » أخرجه الطبراني والمالك والبيهقي في المشي لا أهم فالأمر « هكذا فعل » قال المالك : صحيح الاستناد على شرط مسلم (٢) حديث « ليس من أخلاق المؤمنين التناقل إلا في طلب العلم » أخرجه ابن عدي من حديث صفاء وأبي أمامة باستاديين ضعيفين

دون اختيار المعلم فاحكم عليه بالإخفاق والحرمان .

« فإن قلت : فقد قال الله تعالى ﴿ فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون ﴾ فالسؤال مأثور به ؟ فاعلم أنه كذلك ولكن فيما يأذن المعلم في السؤال عنه فإن السؤال عما لم تبلغ مرتبتك إلى فهمه مذموم ، ولذلك منع الخضر مرس عليه السلام من السؤال : أى دع السؤال قبل أوانه فالعلم أعلم بما أنت أهل له وبأوان الكشف . وعالم يدخل أوان الكشف في كل درجة من مراتب الدرجات لا يدخل أوان السؤال عنه . وقد قال على رضي الله عنه : إن من حق العالم أن لا يتكثر عليه بالسؤال ولا تفتنه في الجواب ، ولا تلج عليه إذا كسل ولا تأخذ بربه إذا نهض ، ولا تفشى له سرا ولا تفتن أحدا جنده ولا تظلمن عمره ، وإن زل قلت مملوته ، وعليك أن توفره وتعلمه لله تعالى مادام يحفظ أمر الله تعالى ، ولا تجلس أمامه ، وإن كانت له حاجة سبقت القوم إلى خدمته .

الوظيفة الرابعة : أن يحتز الخائض في العلم في ميدان الأمر عن الإضغاف إلى اختلاف الناس ، سواء كان ماخاض فيه من علوم الدنيا أو من علوم الآخرة : فإن ذلك يدهش عقله ويغير ذهنه ويفتر رأيه ويؤبسه عن الإدراك والاطلاع ، بل يبدؤ أن يتقن أولا الطريق الحميدة الواحدة المرضية عند أستاذه ، ثم بعد ذلك يعضى إلى المذاهب والشي . وإن لم يكن أستاذه مستقلا باختيار رأى واحد وإنما عاده نقل المذاهب وما قيل فيها فليحذر منه فإن لإخلاقه أكثر من إرشاده فلا يصلح الأعمى لقرود العميان وإرشادهم ، ومن هذا حاله يند في عمى الحيرة وبه الجبل ، ومنع المبتدئ عن الشبه يضاهى منع الحديث المهدد بالإسلام عن مخالطة الكفار ، ويندب القوى إلى النظر في الاختلافات يضاهى حبس القوى على مخالطة الكفار ؛ ولهذا يمنع الجلبان عن التهجم على صف الكفار ويندب الشجاعة له . ومن الغفلة عن هذه الحقيقة ظن بعض الضعفاء أن الاقتداء بالأقوياء فيها ينقل عنهم من المساهلات جائر ، ولم يدر أن وظائف الأقوياء تخالف وظائف الضعفاء . وفي ذلك قال بعضهم : من رأى في البداية صار صديقا ، ومن رأى في النهاية صار زنديقا ، إذ النهاية ترد الأعمال إلى الباطن وتسكن الجوارح إلا عن روائب الفرائض ؛ فيترامى للناظرين أنها بطالة وكسل وإهمال ، وهيات فذلك مرابطة القلب في عين الشهود والحضور وعلازمة الذكر الذي هو أفضل الأعمال على الدوام ؛ وتنبه الضعيف بالقوى فيما يرى من ظاهره أنه هفوة يضاهى اعتذار من يلقي نجاسة بسيرة في كوز ماء ويشعل بأن أضعاف هذه النجاسة قد يلقي في البحر والبحر أعظم من الكوز لما جاز البحر فهو للكوز أجوز . ولا يدري المسكين أن البحر بقوة يحيل النجاسة ماء فتقلب عين النجاسة باستيلاته إلى صفته ، والقليل من النجاسة ينقلب على الكوز ويحمله إلى صفته ، ولئلا هذا جواز لتبي صل الله عليه وسلم عالم يجوز لغيره حتى أيسح له تسع نسوة ^(١) إذ كان له من القوة ما يمتدئ منه صفة العدل إلى نساءه وإن كثرن ، وأما غيره فلا يقدر على بعض العدل بل يتعدى ما يمتدئ من الضرر إليه حتى ينجر إلى مصيبة الله تعالى في طلبه رضاهن . فما أفلح من قاس الملائكة بالحفادين

الوظيفة الخامسة : أن لا يدع طالب العلم فنا من العلوم المحموددة ولا نوعا من أنواعه إلا وينظر فيه نظراً يطلع به على مقصده وغايته ، ثم إن ساعده العمر طلب التبحر فيه ولا اشتغل بالألام منه واستوفاه وتطرف من البقية ؛ فإن العلوم متعاونة وبعضها مرتبط ببعض ، ويستفيد منه في الحال الانفكاك عن هداوة ذلك العلم بسبب

(١) حديث « أيسح له صل الله عليه وسلم تسع نسوة » وهو معروف . وفي الصحيحين من حديث ابن عباس « كان عند النبي صل الله عليه وسلم تسع ... الحديث » .

جهله ؛ فإن الناس أعداء ما جهلوا قال تعالى (ولا ظلم يتدوا به فيقولون هذا افلكم قد سبق) . قال الشاعر :

ومن يله ذا فم مر مريض • يجد مرا به الماء الولا

فالعلوم على درجاتها إما سالكة بالبعد إلى الله تعالى ، أو معينة على السلوك نوعاً من الإغاثة ، ولها منازل مرتبة في القرب والبعد من المقصود ، والقوام بها حفظه كحفاظ الرابطات والثغور ، ولكل واحد رتبة وله بحسب درجته أجر في الآخرة إذا قصد به وجه الله تعالى .

الوظيفة السادسة : أن لا يخوض في فن من فنون العلم دفعة بل يراعى الترتيب ويبتدئ بالأم . فإن العمر إذا كان لا يتسع لجميع العلوم غالباً فالحزم أن يأخذ من كل شيء أحسنه ويكتفي منه بضمه ويصرف جهام قوته في المسور من علمه إلى استكمال العلم الذي هو أشرف العلوم وهو علم الآخرة أعمى قسمي المعاملة والمكاشفة ، فغاية المعاملة المكاشفة . وغاية المكاشفة معرفة الله تعالى ؛ ولست أعمى به الاعتقاد الذي يتلفه العاصي ورائته أو تلقفاً ؛ ولا طريق تحرير الكلام والمجادلة في تحصيل الكلام عن مرواغات الخصوم كما هو غاية المتكلم ، بل ذلك نوع يقين هو ثمرة نور يقذفه الله تعالى في قلب عبد طهر بالمجاهدة باطنه عن الخبائث حتى يفتى إلى رتبة إيمان أبي بكر رضي الله عنه الذي لو وزن بإيمان العالمين لرجح (١) كما شهد له به سيد البشر صلى الله عليه وسلم ، فما عدى أن ما يتعده العاصي فزيرته المتكلم الذي لا يزيد على العاصي إلا في صنعة الكلام ، ولأجله سميت صناعته كلاماً ، وكان يهجر عنه عمر وعثمان وعلى وسائر الصحابة رضي الله عنهم ، حتى كان يفضلهم أبو بكر بالسرا الذي وفر في صدره . والعجب من يسمع مثل هذه الأقوال من صاحب الشرع - صلوات الله وسلامه عليه - ثم يردى ما يسمعه على وقته ويرغم أنه من ترهات الصوفية وأن ذلك غير معقول ؛ فينبغي أن تتذكر في هذا فتنه ضيقت رأس المال ، فكأن حريصاً على معرفة ذلك السر الخارج عن بضاعة الفقهاء والمتكلمين ولا يرشدك إليه إلا حرصك في الطلب .

وعلى الجلة فأشرف العلوم وغايتها معرفة الله عز وجل وهو بحر لا يدرك متنه غوره ، وأقصى درجات البشر فيه رتبة الأنبياء ثم الأولياء ثم الذين يلونهم . وقد روى أنه رأى صورة حكيمين من الحكماء المتقدمين في مسجد وفي يد أحدهما رقعة فيها : إن أحسنت كل شيء فلا تظن أنك أحسنت شيئاً حتى تعرف الله تعالى وتعلم أنه مسبب الأسباب وموجد الأشياء . وفي يد الآخر كنت قبل أن أعرف الله تعالى أشرب وأظلم ، حتى إذا عرفته رويت بلا شرب

الوظيفة السابعة : أن لا يخوض في فن حتى يستوفى الفن الذي قبله ؛ فإن العلوم مرتبة ترتيباً ضرورياً وبعضها طريق إلى بعض ، والموقف من راعى ذلك الترتيب والتدرج . قال الله تعالى (الذين آتيتهم الكتاب يتلونه حق تلاوته) أي لا يجاوزون فناحق يحكمه علماً وعملاً ، وليكن قصده في كل علم يتجرأ الترق إلى ما هو فوقه ؛ فينبغي ألا يحكم على علم بالفساد لوقوع الخلاف بين أصحابه فيه ، ولا بخطأ واحد أو أحاديثه ، ولا بمخالفتهم موجب علمهم بالعمل ؛ فرى جماعة تركوا النظر في العقليات والفقهيات ، متملئين فيها بأنها لو كان لها أصل لأدركه أربابها ؛ وقد مضى كشف هذه الشبهة في كتاب (معيار العلم) وترى طائفة يستقدون بطلان الطب لحطاً شامده من طبيب ، وطائفة اعتقدوا صحة النجوم لصواب اتفاق واحد ، وطائفة اعتقدوا بطلانه لحطاً اتفق لآخر . والسلك خطأ ، بل

(١) حديث : لو وزن إيمان أبي بكر بإيمان العالمين لرجح • أخرجه ابن عثيمين من حديث ابن عمر بإسناد ضعيف ؟ ورواه البيهقي في الشعب موقوفاً على عمر بإسناد صحيح .

يلغى أن يعرف الشيء في نفسه ، فلا كل علم يستقل بالإحاطة به كل شخص ولذلك قال علي رضي الله عنه : لا تعرف الحق بالرجال . اعرف الحق تعرف أهله

الوظيفة الثامنة : أن يعرف السبب الذي به يدرك أشرف العلوم ، وأن ذلك يراد به شيان : أحدهما : شرف الثمرة والثاني : وثاقة الدليل وقوته ، وذلك كعلم الدين وعلم الطب فإن ثمرة أحدهما الحياة الأبدية وثمرته الآخر الحياة الفانية فيكون علم الدين أشرف . ومثل علم الحساب وعلم التجويم فإن علم الحساب أشرف لوثاقته أدلته وقوتها وإن نسب الحساب إلى الطب كان الطب أشرف باعتباره ثمرته والحساب أشرف باعتباره أدلته وملاحظة الثمرة أولى : ولذلك كان الطب أشرف ، وإن كان أكثره بالتخمين . وبهذا تبين أن أشرف العلوم العلم بالله عز وجل وملائكته وكتبه ورسله والتم بالطريق الموصلة إلى هذه العلوم فإلّا كان يرغب إلا فيه وأن يحرص إلا عليه .

الوظيفة التاسعة : أن يكون قصد التلم في الحال تحلية بأمله وتجميعه بالفضيلة والمآل القرب من الله سبحانه والقرى إلى جوار الملا الأعلى من الملائكة والمقربين ، ولا يقصد به الرئاسة والمال والجاه ومعاراة السفهاء ومباهاة الأفران وإن كان هذا مقصده طلب لا محالة الأقرب إلى مقصوده وهو علم الآخرة : ومع هذا فلا ينبغي له أن ينظر بعين الحفاوة إلى سائر العلوم أمضى علم الفتاوى وعلم النحو واللغة المتعلقة بالكتاب والسنة وغير ذلك مما أوردناه في المقدمات والمتمات من ضروب العلوم التي هي فرض كفاية ، ولا تفهم من غلونا في التساء على علم الآخرة تهجين هذه العلوم فالتكفلون بالعلوم كالتكفلين بالنور والمرايطين بها والفرقة المجاهدين في سبيل الله فهم القتال ومنهم الردء ومنهم الذي يسقيهم الماء ومنهم الذي يحفظ دراهمهم ويتهدمهم ولا يفلح أحد منهم عن أجر إذا كان قصده لإعلاء كلمة الله تعالى دون حياة الضائم فكذلك العلماء قال الله تعالى (يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات) وقال تعالى (هم درجات عند الله) والفضيلة نسبية . واستحقاقنا للقيادة عند قياسهم بالملك لا يدل على حقارتهم إذا قيسوا بالكاسين فلا تظن أنّ ما نزل عن الرتبة القصوى ساقط القدر بل الرتبة العليا للأنبياء ثم الأولياء ثم العلماء الراغبين في العلم ثم الصالحين على تفاوت درجاتهم وبالجملة (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره) ومن قصد الله تعالى بالعلم أى علم كان فمعه ووفقه لا محالة . الوظيفة العاشرة : أن يعلم نسبة العلوم إلى المقصد كما يؤثر الرفيع القريب على البعيد والمهم على غيره - ومعنى المهم ما بهلك - ولا بهلك إلا شأنك في الدنيا والآخرة . وإذا لم يمكنك الجمع بين ملاذ الدنيا ولذم الآخرة كما تنطق به القرآن وشهد له من نور البصائر ما يجري مجرى البيان فالأهم ما يبقى أبد الآباد وعند ذلك نصير الدنيا منزلاً والدين مركباً والأعمال سعيّاً إلى المقصد ولا مقصد إلا لقاء الله تعالى ففيه التميم كله وإن كان لا يعرف في هذا العالم قدره إلا الأتلون . والعلوم بالإضافة إلى سعادة لقاء الله سبحانه والنظر إلى وجهه الكريم - أمضى النظر الذي طلبه الأنبياء وفهموه دون ما سبق إلى فهم العوام والمتكلمين - على ثلاث مراتب تفهماً بالموازنة بمثال وهو أن العبد الذي خلق عتقه وتمكنه من الملك بالحج وقيل له إن حججت وأتممت وصلت إلى العتق والملك جميعاً وإن ابتدأت بطريق الحج والاستعداد له وعانقت في الطريق مانع ضروري فلك العتق والخلاص من شقاء الرق فقط دون سعادة الملك فله ثلاثة أصفاء من الشغل ، الأول : تهية الأسباب بشراء الناقة وخزخز الراوية وإصدار الراد والراحة والثاني السلوك ومفارقة الوطن بالتوجه إلى الكعبة منزلاً بعد منزل . والثالث : الاشتغال بأعمال الحج ركناً بعد ركناً ثم بعد الفراغ والنزوع عن هيئة الإحرام وطواف الوداع استحقاق التبرؤ للملك والسلطنة ، وله في كل مقام منازل من أول إعدادا لأسباب إلى آخره ،

من أول سلوك البوادي إلى آخره ، ومن أول أركان الحج إلى آخره . وليس قرب من ابتداء بأركان الحج من السعادة كقرب من هو بعد ز إعداد الزاد والراحلة ولا اقرب من ابتداء بالسلوك بل هو اقرب منه ، فالعلوم أيضاً ثلاثة أقسام : قسم يجري مجرى إعداد الزاد والراحلة وشراء الناقة وهو علم الطب والفقه وما يتعلق بمصالح البدن في الدنيا . وقسم يجري مجرى سلوك البوادي وقطع العقبات وهو تطوير الباطن عن كدورات الصفات وطلوع تلك العقبات الشاغرة التي عجز عنها الأولون والآخرون إلا الموفقين فهذا سلوك الطريق وتحصيل علمه كتحصيل علم جهات الطريق ومنازله وكما لا ينبغي علم المنازل وطرق البوادي دون سلوكها كذلك لا ينبغي علم تهذيب الاخلاق دون مباشرة التهذيب ولكن للبشارة دون العلم غير ممكن . وقسم ثالث يجري مجرى نفس الحج وأركانه وهو العلم بالله تعالى وصفاته وملائكته وأفعاله وجميع ما ذكرناه في تراجم المكاشفة ومنها نجاة وفوز بالسعادة والنجاة حاصلة لكل سالك للطريق إذا كان غرضه المقصد الحق وهو السلامة . وأما الفوز بالسعادة فلا يناله إلا العارفون بالله تعالى وهم المقربون النعمون في جوار الله تعالى بالروح والريحان وجنة النعيم . وأما المنوعون دون ذروة الكمال فلهم النجاة والسلامة كما قال الله عز وجل ﴿ فَمَا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴾ فروع وريحان وجنة نعيم . وأما إن كان من أصحاب اليقين فسلام لك من أصحاب اليقين ﴿ وكل من لم يتوجه إلى المقصد ولم ينهض له أو انتهض إلى جهته لا على قصد الامتثال والعبودية بل لغرض عاجل فهو من أصحاب الشياطين والصالحين فله نزل من حيم وتقضية جحيم . واعلم أن هذا هو حق اليقين عند العلماء الراشدين أعني أنهم أدركوه بمشاهدة من الباطن هي أقوى وأجلى من مشاهدة الأبصار وترقوا فيه عن حد التقليد لجرد السماع ، وحالمهم حال من أخبر فصدق ثم شاهد لحق وحال غيرهم حال من قبل بحسن التصديق والإيمان ولم يحط بالمشاهدة والعيان . فالسعادة وراء علم المكاشفة وعلم المكاشفة وراء علم المعاملة التي هي سلوك طريق الآخرة وقطع عقبات الصفات . وسلوك طريق عو الصفات المذمومة وراء علم الصفات وعلم طريق المعالجة كيميائية السلوك في ذلك وراء علم سلامة البدن ومساعدة أسباب الصحة . وسلامة البدن بالاجتماع والتظاهر والتعاون الذي يتوصل به إلى الملابس والمطعم والسكن وهو منوط بالسلطان وقانونه في ضبط الناس على منهج العدل والسياسة في ناصية الفتية . . . وأما أسباب الصحة في ناصية الطبيب ومن قال « العلم عدان : علم الأبدان وعلم الأعيان ، وأشار به إلى الفقه أراد به العلوم الظاهرة الشائعة للعلوم العزيرة الباطنة » فلن قلت : لم شئت علم الطب والفقه إعداد الزاد والراحلة ؟ فاعلم أن الساعي إلى الله تعالى لينال قربه هو القلب دون البدن ولست أعني بالقلب اللحم المحسوس بل هو من أسرار الله عز وجل لا يدركه الحس ولطيفة من لطائفه تارة يعبر عنه بالروح وتارة بالنفس المعشقة ، والشرح يعبر عنه بالقلب لأنه الحلية الأولى لذلك السر وبواسطته صار جميع البدن مطيعاً له لتلك اللطيفة ، وكشف الغطاء عن ذلك السر من علم المكاشفة وهو معنون به بل لارخصة في ذكره ، وغاية المأذون فيه أن يقال هو جوهر نفيس ودز عزير أشرف من هذه الأجرام المرمية ولما هو أمر إلهي كما قال تعالى ﴿ ويسئلونك عن الروح قل الروح من أمر ربي ﴾ وكل المحلوقات منسوبة إلى الله تعالى ولكن نسبتها أشرف من نسبة سائر أعضائه البدن فله الخلق والأمر جميعاً ، والأمر أصل من الخلق . وهذه الجوهرة النفيسة الحاملة لأمانة الله تعالى المتقدمة بهذه الرتبة على السموات والأرضين والجلال إذ أين أن يحملها وأشقق منها من عالم الأمر : ولا يفهم من هذا أنه تعريض بقدمها فإن القائل بقدم الأرواح مفروود جاهل لا يدري ما يقول فلتعريض صان البيان عن هذا الفن فهو وراء ما نحن بصدده . والمقصود أن هذه اللطيفة الساعية إلى قرب الرب لأنها من أمر الرب فنه مصدرها وإليه

مرجعها ، وأما البدن فطبيعتها التي تركبها وتوسع بواسطتها ، فألبدن لها في طريق الله تعالى كالثقة للبدن في طريق الحج وكالراوية الحازنة للماء الذي يفتقر إليه البدن فكل علم مقصده مصلحة البدن فهو من جملة مصالح الطبية . ولا يخفى أن الطب كذلك فإنه قد يحتاج إليه في حفظ الصحة على البدن ولو كان الإنسان وحده لاحتاج إليه ؛ ولقد يفارقه في أنه لو كان الإنسان وحده ربما كان يستغنى عنه ولكنه خلق على وجه لا يمكنه أن يعيش وحده إلا باستئجار بالسهو وحده في تحصيل طعامه بالحراثة والزرع والحطب والطبخ وفي تحصيل الملابس والسكن وفي إعداد آلات ذلك كله فاضطر إلى مخالطة والاستئمان . ومهما اختلط الناس وتمازرت شهوراتهم تجاذبوا أسباب الشهوات وتمازعوا وتقاتلوا وحصل من قتالهم هلاكهم بسبب التنافس من خارج كما يحصل هلاكهم بسبب تضاد الأخطا من داخل ، وبالطب يحفظ الاعتدال في الأخطا المتنازعة من داخل ، وبالسباسة والمعدل يحفظ الاعتدال في التنافس من خارج ، وعلم طريق اعتدال الأخطا طلب ، وعلم طريق اعتدال أحوال الناس في المعاملات والأعمال فقه . وكل ذلك لحفظ البدن الذي هو مطية فالتجرد لعلم الفقه أو الطب إذا لم يعاين نفسه ولا يصلح قلبه كالتجرد لشراء الثقة وعلمها وشراء الراوية وخزنها إذا لم يملك بادية الحج . والمستغرق عمره في دقائق السكات التي تجري في مجادلات الفقه كالمستغرق عمره في دقائق الأسباب التي بها تستحكم الخيوط التي تنخرز بها الراوية للحج . ونسبة هؤلاء من السالكين لطريق إصلاح القلب الموصلة إلى علم المكاشفة كنسبة أولئك إلى سالكى طريق الحج أو ملايكى أركانه فتأمل هذا أولا وأقبل النصيحة بجانا بمن قام عليه ذلك غالبا ولم يصل إليه إلا بد جد جهيد وجراءة تامة على مبادئ الخلق العامة والخاصة في النزوع من تقليد بمجرد النبوة ، فهذا القدر كاف في وظائف المتعلم .

بيان وظائف المرشد العلم

اعلم أن الإنسان في حله أربعة أحوال كحالة في اقتناء الأموال : إذ لصاحب المال حال استفادة فيكون مكتسبا ، وحال ادخار لما اكتسبه فيكون به غنيا عن السؤال ، وحال إنفاق على نفسه فيكون منتفعا ، وحال بذل لغيره فيكون به سعيًا منفصلا وهو أشرف أحواله . فكذلك العلم يقتضى كما يقتضى المال فله حال طلب واكتساب وحال تحصيل يقضى به السؤال وحال استبصار وهو التفكير في المحصل والتمتع به وحال تبصير وهو أشرف الأحوال : فمن علم وعمل وعلم فهو الذى يدعى عظيما في ملكوت السموات فإنه كالشمس تضيئ لغيرها وهى مضئفة فى نفسها وكالمسك الذى يطيب غيره وهو طيب . والذى يعمل ولا يعمل به كالنقر الذى يبعد غيره وهو خال عن العلم وكالنس الذى يشهد غيره ولا يقطع والإبرة التى تكسو غيرها وهى حارية وذبالة المصباح تضيئ لغيرها وهى تتهرق كاقيل :

ما هو إلا ذبالة وقدت تضيئ الناس وهى تتهرق

ومهما اشتغل بالتعليم فقد تقلد أمرا عظيما وخطرا جسيما فليحفظ آدابه ووظائفه (الوظيفة الأولى) الشفقة على المتعلمين وأن يحريهم بغيره قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إنما أنا لكم مثل الوالد الولد^(١) ، بأن يقصد إنفاذهم من نار الآخرة وهو أم من إنفاذ الوالدين ولدهما من نار الدنيا ؛ ولذلك صار حق المعلم أعظم من حق الوالدين فإن الوالد سبب الوجود الحاضر والحياة الثابتة والمعلم سبب الحياة الباقية . ولولا المعلم لانقاس حاصل من جهة الأب إلى الهلاك الدائم وإنما المعلم هو المفيد للحياة الآخرة القائمة أعنى معلم علوم الآخرة أو علوم

(١) حديث « إنما أنا لكم مثل الوالد الولد » أخرجه أبو داود والنسائي وابن ماجه وابن حبان من حديث أبي هريرة

الدنيا على قصد الآخرة لا على قصد الدنيا ، فأما التعليم على قصد الدنيا فهو هلاك وإهلاك نعوذ بالله منه . وكما أن حق أبناء الرجل الواحد أن يتحابوا ويتعاونوا على المقاصد كلها فكذلك حق تلامذة الرجل الواحد التحاب والتواد ولا يكون إلا كذلك إن كان مقصدهم الآخرة ولا يكون إلا التحاسد والتباغض إن كان مقصدهم الدنيا . فإن العلماء وأبناء الآخرة مسافرون إلى الله تعالى وسالكون إليه الطريق من الدنيا ، وسنوها وشهورها منازل الطريق . والرافق في الطريق بين المسافرين إلى الأمصار سبب التواد والتحاب فكيف السفر إلى الفردوس الأجل والرافق في طريقه ؟ ولا حيق في سعادة الآخرة فلذلك لا يكون بين أبناء الآخرة تنازع ولا سعة في سعاداتهم الدنيا فلذلك لا يتفكح عن حيق التراحم . والمالون إلى طلب الرياسة بالعلوم خارجون عن موجب قوله تعالى (إنما المؤمنون إخوة) وداخلون في مقتضى قوله تعالى (الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض صدو إلا المتقين) (الوظيفة الثانية) أن يقتدى بصاحب الشرع صلوات الله عليه وسلامه فلا يطلب على إفادة العلم أجرا ولا يقصد به جزاء ولا شكراً بل يعلم لوجه الله تعالى وطلباً للتقرب إليه ولا يرى لنفسه منه عليهم وإن كانت المنة لازمة عليهم بل يرى الفضل لهم إذ هذبوا قلوبهم لأن تقترب إلى الله تعالى ببراعة العلوم فيها ، كالذي يعبرك الأرض لترزع فيها لنفسك راحة لتفعلت بها تزيد على منفعة صاحب الأرض فكيف تقوله منه وثوابك في التعليم أكثر من ثواب المتعلم عند الله تعالى ؟ ولولا المتعلم ما نلت هذا الثواب فلا تطلب الأجر إلا من الله تعالى كما قال عز وجل (وما قوم لا أسألكم عليه مالا إن أجرى إلا على الله) فإن المال وما في الدنيا خادم البدن والبدن مركب النفس ومطعمها والنحو هو العلم إذ به شرف النفس . فمن طلب بالعلم المال كان كن مسح أسفل مداسه بوجهه لينظفه لجمل الخنود خادمها والخدم عتودها وذلك هو الانتكاس على أم الرأس ، ومثله هو الذي يقوم في الأرض الأكبر مع الجرمين لا كسي ودوسهم عند ربهم . وعلى الجلة فالفضل والمنة للعلم فأنظر كيف انتهى أمر الدين إلى قوم يزعمون أن مقصودهم التقرب إلى الله تعالى بما هم فيه من علم الفقه والكلام والتدريس فيها وفي غيرها ؟ فأنهم يدلون المال والجاء ويتحملون أصناف الدل في خدمة السلاطين لاستطلاق الجرايات ولوتركوا ذلك تركوا ولم يختلف إليهم ثم يتوقع المعلم من المتعلم أن يقوم له في كل نائمة وينصر وليه ويمد يدوده ويقتضض جهاراً له في حاجاته ومسخرها بين يديه في أوطاره : فإن قصر في حقه ثار عليه وصار من أعدى أعدائه . فأخس بعلم يرضى نفسه بهذه المنزلة ثم يفرح بها ثم لا يستحي من أن يقول غرضي من التدريس نشر العلم تقرباً إلى الله تعالى ونصرة لدينه فأنظر إلى الأمارات حتى ترى ضروب الاعتبارات (الوظيفة الثالثة) أن لا يدع من نصح المتعلم شيئاً وذلك بأن يمنحه من التصدي لربة قبل استحقاقها والتشاغل بعلم خفي قبل الفراغ من الجلي ثم ينبهه على أن الغرض بطلب العلوم التقرب إلى الله تعالى دون الرياسة والمباهاة والمنافسة ، ويقدم تنقيح ذلك في نفسه بأقصى ما يمكن فليس ما يصلحه العلم الفاجر بأكثر مما يفسده : فإن علم من باطنه أنه لا يطلب العلم إلا للدنيا نظر إلى العلم الذي يطلبه فإن كان هو علم الخلاف في الفقه والجدل في الكلام والفتاوى في الخصومات والأحكام فيمنعه من ذلك فإن هذه العلوم ليست من علوم الآخرة ولا من العلوم التي قيل فيها : تعلموا العلم لغير الله فأي العلم أن يكون لإله ، وإما ذلك علم التفسير وعلم الحديث وما كان الأولون يشتغلون به من علم الآخرة ومعرفة أخلاق النفس وكيفية تهذيبها فإذا تعلمه الطالب وقصد به الدنيا فلا بأس أن يتركه فإنه يشر له طمعا في الوعظ والاستباحت ولكن قد ينتبه في أثناء الأمر أو آخره إذ فيه العلوم المخوفة من الله تعالى المحقرة للدنيا المعظمة للآخرة ، وذلك

بوشك أن يؤدي إلى الصواب في الآخرة حتى يمتط بما يعط به غيره . ويجرى حب القبول والمجاهة بجرى الحب الذي يشتر حوالى الفتح ليقص به الطير وقد فعل الله ذلك بمبادئ إذ جعل الشهوة ليصل الحق بها إلى مقام النسل . وخلق أيضا حب الجماء ليكون سببا لإحياء العلوم وهذا متروك في هذه العلوم فأما الخلافات الحقة ومجاذلات الكلام ومعرفة التصاريح الغريبة فلا يزيد التجرد لها مع الإعراض عن غيرها إلا قسوة القلب وغفلة عن الله تعالى وتسامدا في الضلال وطلباً للجاء إلا من تداركه الله تعالى برحمته أو مزج به غيره من العلوم الدينية . ولا برهان على هذا كالتجربة والمشااهدة فافطر واعتبر واستبصر لتشاهد تحقيق ذلك في العباد والبلاد والله المستعان . وقد روى سفيان الثوري رحمه الله حزينا فقيل له : مالك ؟ فقال : صرنا متجرا لأبناء الدنيا يلزمنا أحدهم حتى إذا تعلم جمل قاضيا أو عاملا أو قهرمانا (الوظيفة الرابعة) وهي من دقائق صناعة التعليم أن يجر المتعلم عن سوء الأخلاق بطريق التعريض ما أمكن ولا يصرح . وبطريق الرحمة لا بطريق التوبيخ فإن التصريح يهتك حجاب الهيبة ويورث الجراءة على الهجوم بالخلاف ويهيج الحرص على الإصرار إذ قال صلى الله عليه وسلم وهو مرشد كل معلم : لو منع الناس عن فت البهر لفتوه وقاؤا ما بيننا عنه إلا وفيه شيء ^(١) ، وينهك على هذا قصة آدم وحواء عليهما السلام وما نبأ عنه ؛ فا ذكرت القصة مملكة لتبكون سمرًا بل لتنبه بها على سبيل العبرة ولأن التعريض أيضا يميل النفوس الفاضلة والأذهان الذكية إلى استنباط معانيه فيفيد فرح التفتن لمنهارة رغبة في العلم به ليلم أن ذلك مما لا يرب عن فعلته (الوظيفة الخامسة) أن المتكفل ببعض العلوم ينبغي أن لا يتبجح في نفس المتعلم العلوم التي وراثة ، كعلم اللغة إذ عادت تفتيح علم الفقه . ومعلم اللغة عادت تفتيح علم الحديث والتفسير وأن ذلك نقل محض وسامع وهو شأن التجار ولا نفل للعقل فيه ، ومعلم الكلام ينفر عن الفقه ويقول : ذلك فروع وهو كلام في حيز النسوان فأين ذلك من الكلام في صفة الرحمن ؟ فبذ أخلاق مدعوة للمدلين ينبغي أن يجهتسب بل المتكفل يعلم واحد ينبغي أن يوسع على التعلم طريق التعلم في غيره وإن كان متكتلا بعلوم فينبغي أن يراعى التدرج في ترقية التعلم من رتبة إلى رتبة (الوظيفة السادسة) أن يقتصر بالمتعلم على قدر فهمه فلا يلق إليه ما لا يبلغه عقله فينفره أو يضبط عليه عقله اقتداء في ذلك بسيد البشر صلى الله عليه وسلم حيث قال : نحن معاصر الانبياء أمرنا أن نزل الناس منازلهم ونكلمهم على قدر عقولهم ^(٢) ، فليت إليه الحقيقة إذا علم أنه يستقل بفهمها وقال صلى الله عليه وسلم : ما أحد يحدث قوما بمحدث لا تبلغه عقولهم إلا كان فتنة على بعضهم . وقال على رضى الله عنه - وأشار إلى صدره - : إن ههنا لعلومًا جمة لو وجدت لها حلة ، وصدق رضى الله عنه فقلوب الأبرار قبور الأسرار . فلا ينبغي أن يفتش العالم كل ما يعلم إلى كل أحد ؛ هذا إذا كان يفهمه المتعلم ولم يكن أملا للانتفاع به فكيف فيجب لأفهمه ؟ وقال عيسى عليه السلام : لاتملقوا الجوامع في أفتان الخنازير فإن الحكمة خير من الجوهر ومن كرهها فهو شر من الخنازير . ولذلك قيل : كل لكل عبد بمقيار عقله وزن له بميزان فهمه حتى تسم منه ويتنفع بكه ولا توقع الإنكار لتفاوت المقايير : وسئل بعض العلماء عن شيء فلم يجب فقال السائل : أما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : من كتم علما ناهيا جاء يوم القيامة ملجأ بلياع من نار ^(٣) ؟ فقال :

(١) حديث : لو منع الناس عن فت البهر لفتوه ... الحديث « لم أجده » (٢) حديث : نحن معاصر الأنبياء أمرنا أن نزل الناس منازلهم ... الحديث « رويته في جزء من حديث أبي بكر بن الصخر من حديث عمر أخضر منه . وعنه أبي داود من حديث طايفة « أنزلوا الناس منازلهم » (٣) حديث : من كتم علما ناهيا جاء يوم القيامة ملجأ بلياع من نار . أخرجه ابن ماجه من حديث أبي سعيد بإسناد ضعيف ؛ وقدم حديث أبي هريرة بنحوه .

اترك اللجام واذهب فإن جاء من يفقه وكلمته فليدبني فقد قال الله تعالى (ولا تتقوا السفهاء أمر السك) تدبها على أن حفظ العلم من يفسده ويضره أول ، وليس الظلم في إعطاء غير المستحق بأقل من الظالم في منع المستحق :

أنثر درا بين ساحة النعم فأصبح محرونا . براعية النعم
لأنهم . أمسوا بجهل لغمره فلا أنا أنسى أن أطوقه بهم
فإن لطف الله اللطيف بلطفه وصادفت أهلا للعلوم وللحكم
نشرت مفيداً واستغدت مودة وإلا فيخزون لدى ومكنتم
فن منج الجهال علما أضعاه ومن منع المستوجبين فقد ظلم

(الوظيفة السابعة) أن المتعلم المتاصر ينبغي أن يلقي إليه الجلي اللائق به ولا يذكر له وراء هذا تدقيقاً وهو يدخره عنه فإن ذلك يفتر رجبته في الجلي ويوشو عليه قلبه ويوم إليه البخل به عنه إذ يظن كل أحد أنه أهل لكل علم دقيق . فما من أحد إلا وهو راض عن الله سبحانه في كمال عقله وأشدهم حماة وأشدهم عقلاً هو أفرحهم بكامل عقله . وهذا يعلم أن من تعبد من العوام بقيد الشرع وورس في نفسه العقائد المأثورة عن السلف من غير تنبيه ومن غير تأويل وحسن مع ذلك سريره ولم يحتمل عقله أكثر من ذلك فلا ينبغي أن يوشو عليه اعتقاده بل ينبغي أن يخلى وحرفته ، فإنه لو ذكر له تأويلات الظاهر اتحل عنه قيد العوام ولم يتيسر قيده بقيد الخوض فيرفع عنه السد الذي بينه وبين المعاصي وينقلب شيطاناً مريداً بهلك نفسه وغيره ؛ بل لا ينبغي أن يفاض مع العوام في حقائق العلوم الدقيقة بل يقتصر منهم على تعليم العبادات وتعليم الأمانة في الصناعات التي هم بصدها ويملا قلوبهم من الرغبة والرهبة في الجنة والنار كما لطق به القرآن ولا يحرك عليهم شبهة فإنه ربما تعلقت الشهية بقلبه ويسر عليه جاهل فيشتكي وجهك ، وباجل لا ينبغي أن يفتح للعوام باب البحث فإنه يعطل عليهم صناعاتهم التي بها قوام الخلق ودوام عيش الخواص (الوظيفة الثامنة) أن يكون المعلم عاملاً بعلمه فلا يكذب قوله فإنه لأن العلم يدرك بالابصار والعمل يدرك بالأبصار وأرباب الأبصار أكثر . فإذا خالف العمل العلم منع الرشد وكل من تناول شيئاً وقال للناس لا تتناولوه فإنه مدمم مهلك سمر الناس به وأتهموه وزاد حرصهم على ما نهوا عنه فيقولون لولا أنه أطيب الأشياء والأدواء لما كان يستأثر به . ومثل المعلم المرشد من المسترشدين مثل النقش من الطين والظل من العود فكيف يلتفت الطين بما لا نقش فيه ومتى استوى الظل والعود أعوج ؟ ولذلك قيل في المعنى :

لأنه عن خلق وثائق مثله عار عليك إذا فعلت عظيم

وقال الله تعالى (أنما أمرون الناس بالبر وتفسون أنفسكم) ولذلك كان وزر العالم في معاصيه أكثر من وزر الجاهل إذ يرذل برزله عالم كثير ويقتنونه به . ومن سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها . ولذلك قال علي رضي الله عنه قسم ظهري رجلاً ؛ عالم مثلك وجاهل متفلسك ؛ فالجاهل يغر الناس بتسكك ، والعالم يفرم بتهتك . والله اعلم .

الباب السادس

في آفات العلم وبيان علامات علماء الآخرة والعلماء السوء

قد ذكرنا ماورد من فضائل العلم والعلماء ، وقد ورد في العلماء السوء تشديدات عظيمة دلت على أنهم أشد الخلق عداً يوم القيامة . فمن المهمات العظيمة معرفة العلامات الفارقة بين علماء الدنيا وعلماء الآخرة ولعن علماء الدنيا

علماء السوء الذين قصدهم من العلم التعمم بالدنيا والتوصل إلى الجاه والمثولة عند أمهاتها قال صلى الله عليه وسلم ، إن أشد الناس علناً بآ يوم القيامة عالم لم ينفعه الله بعلومه ، وعنه صلى الله عليه وسلم أنه قال ، لا يكون المرء علماً حتى يكون بدينه عاملاً ^(١) ، وقال صلى الله عليه وسلم ، العلم علان : علم على اللسان فذلك حجة الله تعالى على خلقه وعلم في القلب فذلك العلم النافع ^(٢) ، وقال صلى الله عليه وسلم ، يكون في آخر الزمان عباد جهال وعلما فاسقاً ^(٣) ، وقال صلى الله عليه وسلم ، لا تتعلموا العلم لتباهوا به العلماء وتكفروا به السفهاء ولتغرورا به وجوه الناس اليكم فن فعل ذلك فهو في النار ^(٤) ، وقال صلى الله عليه وسلم ، من كتم علماً عنده أجه الله إياه من نار ، وقال صلى الله عليه وسلم ، لأننا من غير الدجال أخوف عليكم من الدجال . فقيل : وما ذلك ؟ فقال : من الأئمة المضلين ^(٥) ، وقال صلى الله عليه وسلم ، من أزداد علماً ولم يزد هدى لم يزد من الله إلا بعداً ^(٦) ، وقال عيسى عليه السلام : إن من تصفون الطريق المذبلين وأنتم مقبضون مع المتعبرين ، فهذا وغيره من الأخبار يدل على عظم خطر العلم فإن العالم إما متمتع ضللك الأبدي أو لسعادة الأبدي وإنه بالخوض في العلم قد حرم السعادة إن لم يترك العلم . وأما الآثار فقد قال عمر رضي الله عنه : إن أخوف ما أخاف على هذه الأمة المنافق الدليم . قالوا : وكيف يكون منافقاً هلياً ؟ قال : عالم اللسان جاهل القلب والدليل . وقال الحسن رحمه الله : لا تكن ممن يجمع علم العلماء وطرائف الحكماء ويمر في العمل بحري السفهاء . وقال رجل لأبي هريرة رضي الله عنه : أريد أن أتعلم العلم وأطاف أن أضيقه فقال : كفى بترك العلم لإضاعة له . وقيل لإبراهيم بن عبيدة : أي الناس أطول ندماً ؟ قال : أما في عاجل الدنيا فصانع المعروف إلى من لا يشكره وأما عند الموت فعالم مفقود . وقال الحليل بن أحمد : الرجال أربعة ، رجل يدرى ويدري أنه يدرى فذلك عالم قاتبوه ، ورجل يدرى ولا يدرى أنه يدرى فذلك نائم فأيقظوه ، ورجل لا يدرى ويدري أنه لا يدرى فذلك مسترشد فأرشدوه ، ورجل لا يدرى ولا يدرى أنه لا يدرى فذلك جاهل فأرشدوه . وقال سفيان الثوري رحمه الله : يتف الملم بالعمل فإن أجهه وإلا ارتحل . وقال ابن المبارك : لا يزال المرء عالماً ما طلب العلم فإذا ظن أنه قد علم فقد جهل . وقال الفضيل بن عياض رحمه الله : إن لأرحم ثلاثة : عزير قوم ذل وغنى قوم افتقر وعالمنا تلعب به الدنيا . وقال الحسن : عقوبة العلماء موت القلب ، وموت القلب طلب الدنيا بهمل الآخرة وأنشدوا :

عجبت لبتاع الضلالة بالهدى ومن يشتري دنياه بالدين اعجب
وعجبت من هذين من باع دينه بدنيا سواء فهو من ذن اعجب

الباب السادس

(١) حديث « لا يكون المرء عالماً حتى يكون بدينه عاملاً » أخرجه ابن حبان في كتاب روضة القلاء ، والبيهقي في المدخل موقفاً على أبي الفرداء ولم أجده مرفوعاً (٢) حديث « العلم علان علم على اللسان ... الحديث » أخرجه الترمذي في المعجم في التواضع وابن عبد البر من حديث الحسن مرسلاً بإسناد صحيح ، وأسنده الخطيب في التاريخ من رواية الحسن عن جابر بإسناد جيد وأعله ابن الجوزي (٣) حديث « يكون في آخر الزمان عباد جهال وعلما فاسقاً » أخرجه الحاكم من حديث أنس وهو ضعيف (٤) حديث « لا تتعلموا العلم لتباهوا به العلماء » أخرجه ابن ماجه من حديث جابر بإسناد صحيح (٥) حديث « لأنما من غير الدجال أخوف عليكم من الدجال .. الحديث » أخرجه أحمد من حديث أبي ذر بإسناد جيد (٦) حديث « من أزداد علماً ولم يزد هدى لم يزد من الله إلا بعداً » أخرجه أبو منصور الديلمي في مسنده الفردوس وحديث علي بإسناد ضعيف إلا أنه قال « زهداً » وروى ابن حبان في روضة القلاء موقفاً على الحسن « من أزداد علماً ثم أزداد على الدنيا حرصاً لم يزد من الله إلا بعداً » وروى أبو الفتح الأزهري في الضعفاء من حديث علي « من أزداد باقة علماً ثم أزداد دنياه جاً أزداد الله عليه غضباً »

وقال صلى الله عليه وسلم : **إِنَّ الْعَالَمَ لَمَذْهَبٌ عَذَابِيٌّ يَطِيفُ بِهِ أَهْلُ النَّارِ اسْتِظْهَامًا لِعَذَابِهِ** ^(١) . أراد به العالم الفاجر . وقال أسامة بن زيد : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : **يُؤْتَى بِالْعَالَمِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُنْقَلُ فِي النَّارِ فَتُنْقَلُ أَقْبَابُهُ فَيُدَوَّرُ بِهَا كَيَدُورُ الْحِمَارُ بِالرَّحَى فَيَطِيفُ بِهِ أَهْلُ النَّارِ فَيَقُولُونَ مَا لَكَ فَيَقُولُ كَسْتُ أَمْرًا بِالْخَيْرِ وَلَا آيَةَ وَأَنْتُمْ عَلَى الشَّرِّ وَأَيُّهُ** ^(٢) . وإنما يضاهف مذنب العالم في مصعبته لأنه عصى عن علم ولذلك قال الله عز وجل : **(لِنَّافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ)** لأنهم جحدوا بعد العلم ، وجعل اليهود شرًا من النصارى مع أنهم ما جعلوا لله سبحانه ولداً ولا قالوا : إنه ثالث ثلاثة ، إلا أنهم أنكروا بعد المعرفة إذ قال الله : **(يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ آبَاءَهُمْ)** وقال تعالى : **(فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ)** وقال تعالى : **(فِي قِصَّةِ بِلْعَامِ بْنِ بَاعُورَاءَ)** . **(وَأَمَّا عَلِيمٌ نَبِيٌّ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتَيْنَاهُ الشَّيْطَانَ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ)** حتى قال : **(لَنْتَهُ كَيْدُ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثُ أَوْ تَتْرَكَ يَلْهَثُ)** فكذلك العالم الفاجر فإن بلعام أوتي كتاب الله تعالى فأخذته إلى الشبهوات فذهب بالكلب أي سواء أوتي الحكمة أو لم يوت فهو يلهث إلى الشهوات . وقال عيسى عليه السلام : **مِثْلُ عِلْمَاءِ السُّوءِ كَمِثْلِ صَخْرَةٍ وَقَعَتْ عَلَى فَمِ النَّهْرِ لَا هِيَ تَشْرَبُ الْمَاءَ وَلَا هِيَ تَتْرَكُ الْمَاءَ يَخْلُصُ إِلَى الزَّرْعِ وَمِثْلُ عِلْمَاءِ السُّوءِ مِثْلُ قَنَازَةِ الْحَشِ ظَاهِرُهَا جَسَدٌ وَبَاطِنُهَا نَفْسٌ وَمِثْلُ الْقُبُورِ ظَاهِرُهَا عَامِرٌ وَبَاطِنُهَا عِظَامُ الْمَوْتِ** : فهذه الأخبار والآثار تبين أن العالم الذي هو من أبناء الدنيا أخس حالا وأشدَّ عذاباً من الجاهل . وأن الفائزين للقرين من علماء الآخرة ولهم علامات : فمنها أن لا يطلب الدنيا بليله فإن أقل درجات العالم أن يدرك حقارة الدنيا وخساستها وكسودتها وانصرامها وعظم الآخرة ودوامها وصفاء نعيمها وجلالة ملكها ويعلم أنها متضادتان وأنها كالضربين منها أرضيت إحداها انحطت الأخرى وأنها ككفتي الميزان مهما رجحت إحداها خفت الأخرى وأنها كالشرق والمغرب مهما غربت من أحدهما بددت عن الآخر وأنها كقنطرة من أحدهما ملوّه والآخر فارغ فيقدر ما تصب منه في الآخر حتى يمتلئ يفرغ الآخر . فإن من لا يعرف حقارة الدنيا وكسودتها وامتزاج لذاتها بألها ثم انصرام ما يصفو منها فهو فاسد العقل . فإن المشاهدة والتجربة ترشد إلى ذلك فكيف يكون من العلماء من لا عقل له ؟ ومن لا يعلم عظم أمر الآخرة ودوامها فهو كافر مسلوب الإيمان فكيف يكون من العلماء من لا إيمان له ومن لا يعلم مضادة الدنيا للآخرة وأن الجمع بينهما طمع في غير مطمع ؟ فهو جاهل بشرائع الانبياء كلهم بل هو كافر بالقرآن كله من أوله إلى آخر فكيف يعد من زمرة العلماء ؟ ومن علم هذا كله ثم لم يؤثّر الآخرة على الدنيا فهو أسير الشيطان قد أسلخته شهوته وغلبت عليه شقوته فكيف يعد من حزب العلماء من هذه درجة ؟ وفي أخبار داود عليه السلام حكاية عن الله تعالى : **إِنْ أَدْنَى مَا أَصْنَعُ بِالْعَالَمِ إِذَا تَرَشَّبْتُهُ عَلَى حَبْحَبٍ أَنْ أَحْرَمَهُ لَدُنْهِ مَنَاجِيحَ ، يَادَاوُدُ لَا تَسْأَلْ عَنِّي طَالَمَا قَدْ أَسْكَرْتَهُ الدُّنْيَا فَيَصْدُكَ عَنْ طَرِيقِ حَبْحَبٍ أَوْ لَتَكَ قِطَاعَ الطَّرِيقِ عَلَى بَعْدِي ، يَادَاوُدُ إِذَا رَأَيْتَ لِي طَالِبًا فَكُنْ لَهُ غَادِمًا ؛ يَادَاوُدُ مَنْ رَدَّ إِلَى حَارِبٍ كَتَبْتَهُ جَهَنَّمًا وَمَنْ كَتَبْتَهُ جَهَنَّمًا لَمْ أَعْطِهِ أَبَدًا** . ولذلك قال الحسن رحمه الله : **عَقُوبَةُ الْعِلْمَاءِ مَوْتُ الْقَلْبِ وَمَوْتُ الْقَلْبِ طَلِبُ الدُّنْيَا لِعَمَلِ الْآخِرَةِ** . ولذلك قال يحيى بن مازة : **إِنَّمَا يَذْهَبُ بِهِمَا الْعِلْمُ وَالْحِكْمَةُ إِذَا طَلَبَ بِهِمَا الدُّنْيَا** . وقال سعيد بن المسيب رحمه الله : **إِذَا رَأَيْتَ الْعَالَمَ يَنْشَى الْأُمُورَ**

(١) حديث : **إِنَّ الْعَالَمَ يَمُذَّبُ عَذَابِيٍّ يَطِيفُ بِهِ أَهْلُ النَّارِ** .. الحديث . لم أجده بهذا اللفظ وهو معنى حديث أسامة المذكور بعده

(٢) حديث أسامة بن زيد : **يُؤْتَى بِالْعَالَمِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيُنْقَلُ فِي النَّارِ فَتُنْقَلُ أَقْبَابُهُ** . الحديث . مثق عليه بلفظ « الرجل » بدل « العالم »

فهر لص ، وقال عمر رضى الله عنه : إذا رأيتم للعالم محبا للدينيا فاتهموه على دينكم فإن كل حب يخوض فيها أحب وقال مالك بن دينار رحمه الله : قرأت في بعض الكتب السالفة إن الله تعالى يقول إن أهون ما صنع بالعالم إذا أحب الدنيا أن أخرج حلاوة مناجاتى من قلبه . وكتب رجل إلى أخ له : إنك قد أويت علما فلا تطعن نور عليك بظلمة الذنوب فتبقي في القالة يوم يسمى أهل العلم في نور عليهم ، وكان يحيى بن مازد الرازى رحمه الله يقول لعلماء الدنيا : يا أصحاب العلم قصوركم قصيره وبيوتكم كسروية وأتوابكم ظاهرة وأخفافكم جالوية ومراكبكم قارونية وأروايتكم فرعونية ومآتمكم جاهلية ومذاهبكم شيطانية فأين الشريعة المحمدية ؟ قال الشاعر :

وراعى الفساة يحبى الأدب منها فكيف إذا الرعاة لها ذئاب ؟

وقال الآخر :

يا معشر القسواء يا ملع البلد ما يصلح الملح إذا الملح فسد ؟

وقيل لبعض الدارفين : أترى أن من تكون المعاصى فرة عينه لا يصرف الله ؟ قال لا شاك أن من تكون الدنيا عنده أثر من الآخرة أنه لا يعرف الله تعالى . وهذا دون ذلك بكثير ولا تظن أن ترك المال يكن في العروق بعلماء الآخرة فإن الجاه أضر من المال . ولذلك قال بشره حدثنا ، باب من أبواب الدنيا فإذا سمعت الرجل يقول : حدثنا ، فأنما يقول : أوسموالى . ودفن بشر بن الحرث بضعة عشر ما بين فطرة وقوصرة من الكتب وكان يقول : أنا أشتى أن أحدث ، ولو ذهبت عن شهوة الحديث لحديث ، وقال هو وغيره : إذا اشتبهت أن تحدث فاسكت فإذا لم تقته لحديث . وهذا لأن التلاذذ بجاه الإفادة ومنصب الإرشاد أعظم لذة من كل تتم في الدنيا فمن أجاد شهرته فيه فهو من أبناء الدنيا . ولذلك قال الثوري : فتنه الحديث أشد من فتنه الأهل والمال والولد وكيف لا تخاف فتنته وقد قيل لا يد المرسلين صلى الله عليه وسلم (ولولا أن تمتثل لك لعدت تركن إليهم شيئا قليلا) وقال سهل رحمه الله : العلم كدنيا والآخرة منه العمل به والعمل كله مباء إلا الإخلاص . وقال : اتاس كلم موتى إلا العلماء والعلماء سكارى إلا العاملين والعاملون كلمهم مفزرون إلا التامنين والتخلص على وجعل حتى يدري ماذا يحتم له به . وقال أبو سليمان النصارى رحمه الله : إذا طلب الرجل الحديث أو تزوج أو سافر في طلب المعاش فقد ركن إلى الدنيا وإنما أراد به طلب الأسانيد المالية أو طلب الحديث الذى لا يحتاج اليه في طلب الآخرة ، وقال عيسى عليه السلام : كيف يكون من أهل العلم من مسيره إلى آخرته وهو مقبل على طريق دنياه وكيف يكون من أهل العلم من يطلب الكلام ليخبر به لا ليعمل به ؟ وقال صالح بن كيسان البصرى : أدركت الشيوخ وهم يتوذون بالله من الفاسح العالم بالسنة . وروى أبو هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من طلب علما بما يبتنى به وجه الله تعالى ليصيب به هرضا من الدنيا لم يجد عرف الجنة يوم القيامة (١) ، وقد وصف الله علماء السوء بأكل الدنيا بالعلم ووصف علماء الآخرة بالخشوع والرحمة . فقال عز وجل في علماء الدنيا (وإذا أخذ الله ميثاق الذين أتوا الكتاب لتبينه للناس ولا تكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمنا قليلا) وقال تعالى في علماء الآخرة (وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل اليكم وما أنزل إليهم خاشعين لله لا يشترون بآيات الله ثمنا قليلا أولئك لهم أجرهم عند ربهم) وقال بعض السلف : العلماء يحشرون في زمرة الأنبياء والقضاة يحشرون في زمرة السلاطين . وفي معنى القضاة كل فقيه فقد علم طلب الدنيا بطله . وروى

(١) حديث أبي هريرة « من طلب علما بما يبتنى به وجه الله ليصيب به عرضا ... الحديث » أخرجه أبو داود وابن ماجه بإسناد جيد

أبو الدرداء رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : أوحى الله عز وجل إل بعض الأنبياء : قل الذين يتفقهون لغير الدين ويتعلمون لغير العلم ويطلبون الدنيا بعمل الآخرة يلبسون للناس مسوك الكباش وقلوبهم كقلوب الذئاب أنفسهم أحمل من السبل وقلوبهم أمت من الصبر إياي يخادعون وبني يستترون لأفئتهم لهم فتنة تذر الحليم حيران ^(١) ، وروى الضعفاك عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : علماء هذه الأمة رجلان : رجل آتاه الله علماً فبذله للناس ولم يأخذ عليه طمعا ولم يشتبه به ثمناً فذلك يصلى عليه خير السماء وحيثان المساء ودواب الأرض والكرام الكاثبون يقدم على الله عز وجل يوم القيامة سيداً شريفاً حتى يوافق المرسلين ، ورجل آتاه الله علماً في الدنيا ففطن به على عباد الله وأخذ عليه طمعا واشترى به ثمناً فذلك يأتي يوم القيامة ملجأ بلجاء من نار ينادى مناد على رءوس الخلائق هذا فلان بن فلان آتاه الله علماً في الدنيا ففطن به على عباده وأخذ به طمعا واشترى به ثمناً فبذله حتى يفرغ من حساب الناس ^(٢) ، وأشد من هذا ما روى أن رجلاً كان يخدم موسى عليه السلام فجعل يقول حدثني موسى صلى الله عليه وسلم عن موسى بن نوح الله حدثني موسى بن نوح الله حتى أتى وكثر ماله فنفقه موسى عليه السلام فجعل يسأل عنه ولا يجيب له خبراً حتى جاءه رجل ذات يوم وفي يده خنزير وفي عنقه حبل أسود فقال له موسى عليه السلام : أنصرف فلانا ؟ قال : نعم قال هو هذا الخنزير ، فقال موسى : يارب أسألك أن تردني إلى حاله حتى أسأله بم أصابه هذا ؟ فأوحى الله عز وجل إليه : لو دعوتني بالذي دعاني به آدم فمن دونه ما أجبتك فيه ولكن أخبرك لم صنعت هذا به ؟ لأنه كان يطلب الدنيا بالدين ، وأغلظ من هذا ما روى معاذ بن جبل رضى الله عنه موقوفاً ومرفوعاً في رواية عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : من فتنه العالم أن يكون الكلام أحب إليه من الاستماع ^(٣) ، وفي الكلام تعميق وزيادة ولا يؤمن على صاحبه الخطأ وفي الصمت سلامة وعلم . ومن العلماء من يخون علمه فلا يحب أن يوجد عند غيره فذلك في الدرك الأول من النار . ومن العلماء من يكون في علمه بمنزلة السلطان إن رد عليه شيء من علمه أو تهوون بشيء من حقه غضب فذلك في الدرك الثاني من النار . ومن العلماء من يجعل علمه وغرائب حديثه لأهل الشرف واليسار ولا يرى أهل الحاجة له أهلاً فذلك في الدرك الثالث من النار . ومن العلماء من ينصب نفسه للفتيا فيفتي بالخطأ والله تعالى يبهض المتكفين فذلك في الدرك الرابع من النار . ومن العلماء من يتكلم بكلام اليهود والنصارى لينزرو به علمه فذلك في الدرك الخامس من النار . ومن العلماء من يتخذ علمه مروة ونبلًا وذكر آ في الناس فذلك في الدرك السادس من النار . ومن العلماء من يستغفر الزهر والمجرب فان وعظ عطف وإن وعظ أنف فذلك في الدرك السابع من النار . فمليك يا أخى بالصمت فيه تغلب الشيطان . وإياك أن تضحك من غير عجب أو تمشي في غير أوب . وفي خبر آخر ، إن العبد لينشر له من الثناء ما يلا ما بين المشرق والمغرب وما يزن عند الله جناح بعوضة ^(٤) ، وروى أن الحسن حمل إليه رجل من خراسان كيساً بعد انصرافه من مجلسه فيه خمسة آلاف درهم وعشرة أبواب من رقيق البر وقال : يا أبا سعيد هذه نفقة وهذه كسوة ؟ فقال الحسن : طافك الله تعالى ، ضم إليك نفقتك وكسوتك فلا حاجة لتأبذلك لأنه من

(٢) حديث أبي الدرداء : أوحى الله لم بعض الأنبياء : قل الذين يتفقهون لغير الدين . الحديث « أخرجه ابن عبيد البر بإسناد ضعيف (٢) حديث ابن عباس « علماء هذه الأمة رجلان . . الحديث » أخرجه الطبراني في الأوسط بإسناد ضعيف (٣) حديث معاذ « من فتنه العالم أن يكون الكلام أحب إليه من الاستماع . . الحديث » أخرجه أبو نعيم وابن الجوزي في الموضوعات (٤) حديث « أن العبد لينشر له من الثناء ما بين المشرق والمغرب وما يزن عند الله جناح بعوضة » لم أجده هكذا وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة « أنه يأتي الرجل العظيم السنين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة »

جاء من جلسي هذا وقبل من الناس مثل هذا أتى الله تعالى يوم القيامة ولا خلاق له . وعن جابر رضى الله عنه مرفوعا ومرفوعا قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لا تجلسوا عند كل عالم إلا إلى عالم يدعوكم من خمس إلى خمس : من الشك إلى اليقين ، ومن الرياء إلى الإخلاص ، ومن الرغبة إلى الزهد ، ومن الكبر إلى التواضع ، ومن العداوة إلى النصيحة ^(١) . وقال تعالى (فخرج على قومه في زينته قال الذين يريدون الحياة الدنيا يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون إنه لذو حظ عظيم وقال الذين أوتوا العلم وبلغكم نواب الله خير لمن آمن) الآية ، فمعرفة أهل العلم بآثار الآخرة على الدنيا . ومنها أن لا يخالف فعله قوله بل لا يأمر بالشئ ما لم يكن هو أول عامل به . قال الله تعالى (أنأمروا الناس بالبر وتسنوا أنفسكم) وقال تعالى (كبير مقتدا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون) وقال تعالى في قصة شعيب (وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه) وقال تعالى (واتقوا الله ويعلمكم الله) وقال تعالى (واتقوا الله واسمعوا) وقال تعالى ليعلم عليه السلام ، يا ابن مريم عظم نفسك فإن انعطت فخط الناس ولا فاستحي مني ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مرت ليلة أسرى بي بأقوام يترصش شفاهم بخمارين من نار فقلت : من أنتم ؟ فقالوا : كنا نأمر بالخير ولأننا نرى عن الشر ونأثم ^(٢) . وقال صلى الله عليه وسلم هلاك أمتي عالم فاجر وعابد جاهل ، وشر الشرار شرار العلماء ، وخير الخيار خيار العلماء ^(٣) . وقال الأوزاعي رحمه الله : شككت الثور ليس ما تجد من نتن جيف الكفار فأوحى الله إليها : بطون علماء السوء أنتن مما أنتن فيه . وقال الفضيل بن عياض رحمه الله : بلغني أن الفسقة من العلماء يبدأ بهم يوم القيامة قبل عبدة الأوثان . وقال أبو الدرداء رضى الله عنه : ويل لمن لا يعلم مرة ويويل لمن يعلم ولا يعمل سبع مرات . وقال الشعبي : يطلع يوم القيامة قوم من أهل الجنة على قوم من أهل النار فيقولون لهم : ما أدخلكم النار ولما أدخلنا الله الجنة بفضل أديبكم وتعليمكم ؟ فيقولون إنما كنا نأمر بالخير ولا نفعله وننهي عن الشر ونفعله . وقال حاتم الأصم رحمه الله ليس في القيامة أشد حسرة من رجل علم الناس علما فعملوا به ولم يعمل هو به ففازوا بسببه وهلك هو . وقال مالك ابن دينار : إن العالم إذا لم يعمل بعلمه زلت موعظته عن القلوب كما يزل القطر عن الصفا . وأنشدوا :

يا واحظ الناس قد أصبحت متما ، إذ بعث منهم أمورا أنت تأتيا
أصبحت تصحبهم بالوعظ مجتهدا ، فالمرجات لعمري أنت جانيها
تعيب دينا وناسا راغبين لها ، وأنت أكثر منهم رغبة فيها
ولا ته عن خلق وتأتى مثله عار عليك إذا قطعت عظيم

وقال إبراهيم بن آدم رحمه الله : مرت بصحر بحكم مكتوب عليه « ألقني متبر » فقلت فإذا عليه مكتوب « أنت بما تعلم لا تعمل فكيف تطلب علم ما لم تعلم » ؟ وقال ابن السكيت رحمه الله : كم من ذكر بالله ناس الله أو كم من عتوف بالله جرى على الله : وكم من عقوب إلى الله بعيد من الله : وكم من جاع إلى الله فأز من الله : وكم من تال كتاب الله منسلخ عن آيات الله : وقال إبراهيم بن آدم رحمه الله : لقد أعرينا في كلابنا فلم نلن ولنحن في أعمالنا فلم نرب . وقال الأوزاعي : إذا جاء الإصراب ذهب الخشوع . وروى مكحول عن عبد الرحمن بن غنم أنه قال : حدثني عشرة

(١) حديث جابر « لا تجلسوا عند كل عالم ، المحدث » أخرجه أبو نعيم في الحلية وابن الجوزي في الموضوعات

(٢) حديث « مرت ليلة أسرى بي بأقوام عرض شفاهم بخمارين من نار .. المحدث » أخرجه ابن بيان من حديث أنس .
(٣) حديث « هلاك أمتي عالم فاجر وشر الشرار شرار العلماء .. المحدث » أخرجه الدرر من رواية الأحرس بن حكيم من

أبيه سهلا بآخر الحديث نحوه وقد تقدم ولم أجد صدر الحديث

من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا ، كنا ندرس العلم في مسجد قباء إذ خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : تعلموا ما شئتم أن تعلموا فإن يأجركم الله حتى تعملوا ^(١) ، وقال عيسى عليه السلام : مثل الذي يتعلم العلم ولا يعمل به كمثل امرأة زنت في السر لحملت فظهر حملا فانتضحت فكذلك من لا يعمل بعلمه يفضحه الله تعالى يوم القيامة على رءوس الأشهاد . وقال ما ذكره الله : احذروا زلة العالم لأن قدره عند الخلق عظيم فيتعونه على زلته . وقال عمر رضي الله عنه : إذا زل العالم زل يزلته عالم من الخلق ، وقال عمر رضي الله عنه : ثلاث بين يهدم الزمان إحداهن زلة العالم . وقال ابن مسعود : سيأتي على الناس زمان تملح فيه عذوبة القلوب فلا يفتنع بالعلم يرمئ عاله ولا متعله فتكون قلوب علماءهم مثل السباخ من ذرات الملح ينزل عليها قطر السماء فلا يوجد لها عذوبة ، وذلك إذا ماتت قلوب العلماء إلى حب الدنيا وإثارتها على الآخرة فندد ذلك بسلبها الله تعالى ينابيع الحكمة ويطغى مصايح الهدى من قلوبهم فيخبرك عالمهم حين تلقاه أنه يخشى الله بلسانه والفجور ظاهر في عمله ، فما أعصب الأئمن يرمئ وما أعجب القربى فو الله الذي لا إله إلا هو ما ذلك إلا لأن الملطين علوا لغير الله تعالى والتسلين تعلموا لغير الله تعالى . وفي التوراة والإنجيل مكتوب : لا تطلبوا علم ما لم تعلموا حتى تعملوا بما علمتم . وقال حذيفة رضي الله عنه : إنكم في زمان من ترك فيه صبرا ما يعلم حلك ، وسيأتي زمان من عمل فيه بعسرا ما يعلم بها وذلك لكثرة البطالين . واعلم أن مثل العالم مثل القاضي وقد قال صلى الله عليه وسلم : القضاة ثلاثة : قاض قضى بالحق وهو يعلم فذلك في الجنة وقاض أهوى بالجور وهو يعلم أولا يعلم فهو في النار وقاض قضى بغير ما أمر الله به فهو في النار ^(٢) . وقال كعب رحمه الله : يكون في آخر الزمان علماء يرهضون الناس في الدنيا ولا يرهضون ، ويخفون الناس ولا يخافون ، ويهون عن غشيان الولاة ويأتونهم ، ويؤثرون الدنيا على الآخرة يأكلون بأسلحتهم ، يقرّبون الأغنياء دون الفقراء ، يتفاخرون على العلم كما تتفاخر النساء على الرجال ، يفضض أحدهم على جلسائه إذا جالس غيره ، أولئك الجبارون أعداء الرحمن . وقال صلى الله عليه وسلم : إن الشيطان ربما يسوفكم بالعلم ، فقيل : يا رسول الله وكيف ذلك ؟ قال صلى الله عليه وسلم : يقول اطلب العلم ولا تعمل حتى تعلم فلا يزال العلم قائلا وللعمل مسوقا حتى يموت وما عمل ^(٣) . وقال سري السقطي (اعتزل رجل للتعب كان حريصا على طلب علم الظاهر فسأله فقال : رأيت في الثوم قائلا يقول لي : إلى كم تضع العلم ضيعك الله ، فقلت : إلى لا أحفظه فقال : حفظ العلم العمل به ، فتركت الطلب وأقبلت على العمل . وقال ابن مسعود رضي الله عنه : (ليس العلم بكثرة الرواية إنما العلم الخشية) وقال الحسن : تعلموا ما شئتم أن تعلموا فو الله لا يأجركم الله حتى تعملوا فإن السفهاء مهتمم الرواية والعلماء مهتمم الرعاية وقال مالك رحمه الله : إن طلب العلم لحسن وإن نشره لحسن إذا صححت فيه التوبة ولكن انظر ما يلزمك من حين تصبغ إلى حين تمشي فلا تؤثّر عليه شيئا . وقال ابن مسعود رضي الله عنه : أنزل القرآن ليحمل به فانظروا دراسته عملا وسيأتي قوم يتفقهون مثل الثناء ليسوا بخياركم والعالم الذي لا يعمل كالمرضى الذي يصف الدواء كالجامع الذي يصف لداؤد الأظلمة ولا يبرئها . وفي مثله قوله تعالى (ولكم الويل مما تصفون) وفي الخبر : إنما أعفاف على أمق زلة عالم

(١) حديث عبد الرحمن بن عوف عن مصعب بن عمير عن أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : تعلموا ما شئتم أن تعلموا فإن يأجركم الله حتى تعملوا ، قال ابن عبد البر وأبو عبد الله بن عدى وأبو سعيد الخطيب : في كتاب القضاء العلم بالعمل - من حديث ما ذكره في حديثه من حديثه ورواه الدارقطني موقوفا على ما ذكره صحيح .

(٢) حديث : القضاة ثلاثة .. الحديث « أخرجه أصحاب السنن من حديث بريدة وهو صحيح

(٣) حديث : لا الشيطان ربما يسوفكم بالعلم .. الحديث « في الجامع من حديث أنس بن مالك صحيح

وجدل منافق في القرآن ^(١) ، ومنها أن تكون صانته بتحصيل العلم النافع في الآخرة المرغب في الطاعات مجتنباً للعلوم التي يقل نفعها ويكثر فيها الجدل والقتيل والقال . فقال من يعرض من علم الأعمال ويستغل بالجدال مثل رجل مريض به حال كثيرة وقد صادف طبيباً حاذقاً في وقت ضيق ينشئ قوته فاشتغل بالسؤال عن حامية العقافير والآدوية وغرائب الطب وترك مهمه الذي هو مؤاخذ به ، وذلك بحض السفه . وقد روى أن رجلاً جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : علني من غرائب العلم ، فقال له : ما صنعت في رأس العلم ؟ فقال : ومارس العلم ؟ فقال صلى الله عليه وسلم ، هل عرفت الرب تعالى ؟ قال : نعم ، فما صنعت في حقه ؟ قال : ما شاء الله ، فقال صلى الله عليه وسلم : هل عرفت الموت ؟ قال نعم ، قال : فما أعددت له ؟ قال : ما شاء الله ، قال صلى الله عليه وسلم : إذهب فأحكم ما هناك ثم تعال لنفلك من غرائب العلم ^(٢) ، بل ينبغي أن يكون المتعلم من جنس ما روى عن سالم الأصبهاني - تلميذ شريق البلخي رضي الله عنهما - أنه قال له : شقيق منذ كم صحبتي ؟ قال سالم : منذ ثلاث وثلاثين سنة ، قال : فما تملت عنى في هذه الليلة ؟ قال : ثمان مسائل ، قال شقيق له : إنا لله وإنا إليه راجعون ذهب عمرى ملك ولم تتعلم إلا ثمان مسائل ؟ قال : يا أستاذ لم أتعلم غيرها وإنى لا أحب أن أكذب ، فقال مات هذه الثمان مسائل حتى أسعدها ، قال سالم : نظرت إلى هذا الخلق فرأيت كل واحد يحب مجرباً يفوق مع مجرب إلى القبر فإذا وصل إلى القبر فارقه ليجعل الحسنات محبوبى فإذا دخلت القبر دخل محبوبى منى . فقال : أحسنت يا سالم لما التائبة ؟ فقال : نظرت في قول الله عز وجل ﴿ وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى ﴾ فعليت أن قوله سبحانه وتعالى هو الحق فأجهدت نفسى في دفع الهوى حتى استقرت على طاعة الله تعالى . الثالثة : أنى نظرت إلى هذا الخلق فرأيت كل من ممة شئ له قيمة ومقدار رفعة وحفظه ثم نظرت إلى قول الله عز وجل ﴿ ما عندكم ينفذ وما عند الله باق ﴾ فكلمنا وقع منى شئ له قيمة ومقدار وجبته إلى الله ليقب حنده بمحوطاً . الرابعة : أنى نظرت إلى هذا الخلق فرأيت كل واحد منهم يرجع إلى المال وإلى الحسب والشرف والذهب فظفرت فيها فلما هي لاشئ ثم نظرت إلى قول الله تعالى ﴿ إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ فعملت في التقوى حتى أكون عند الله كريمة ، الخامسة : أنى نظرت إلى هذا الخلق وهم يطلعون بعضهم في بعض ويلعن بعضهم بعضاً وأصل هذا كله الحمد ثم نظرت إلى قول الله عز وجل ﴿ نحن قسمنا بينهم مدينتهم في الحياة الدنيا ﴾ فترك الحمد واجتنبت الخلق وعدت أن القسمه من عند الله سبحانه وتعالى فتركته صداوة الخلق عنى . السادسة : نظرت إلى هذا الخلق يبنى بعضهم على بعض ويقاتل بعضهم بعضاً فرجعت إلى قول الله عز وجل ﴿ إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا ﴾ فناديته وحده واجتهدت في أخذ حذرى منه لأن الله تعالى شهد عليه أنه عدو لي فتركته صداوة الخلق وغيره . السابعة : نظرت إلى هذا الخلق فرأيت كل واحد منهم يطلب هذه الكسرة فيذل فيها نفسه ويدخل فيها لا يميل له ثم نظرت إلى قوله تعالى ﴿ وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ﴾ فعليت أنى واحد من هذه الدواب التي على الله رزقها فاشتغلت بما على الله تعالى على وتركته مالى عنده . الثامنة : نظرت إلى هذا الخلق فرأيتهم كلهم متركلين على مخلوق وهذا على صميمته وهذا على تجارته وهذا على صناعته وهذا على صحة بدنه - وكل مخلوق متوكل على مخلوق مثله فرجعت إلى

(١) حديث « لا أخاف على أمتي زلة عالم .. الحديث » أخرجه الطبراني من حديث 'أبي الدرداء' ، ولأن جابر بن عبد الله بن عمر بن الخطاب (٢) حديث « أن رجلاً جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال علني من غرائب العلم .. الحديث » ، رواه ابن أبي عمير في كتاب الرضاة لها ، وابن عبد البر من حديث عبد الله بن الزور مرسل وهو ضعيف جداً .
(٢) - ٩ - لحياء علوم الدين - (١)

قوله تعالى (ومن يتوكل على الله فهو حسبه) فتوكلت على الله عز وجل فهو حسبي ، قال شقيق : يا حاتم وفنك الله تعالى فإني نظرت في علوم التوراة والإنجيل والزيور والفرقان العظيم فوجدت جميع أنواع الخير والديانة وهي تدور على هذه الثمان مسائل فمن استعملها فقد استعمل الكتب الأربعة فهذا الفن من العلم لا يهتم بإدراكه والتفطن له إلا علماء الآخرة فأما علماء الدنيا فيشتغلون بما يتيسر به اكتساب المال والجاه ويهملون أمثال هذه العلوم التي يمتثل بها الأنبياء عليهم السلام وقال الضحاك بن مزاحم : أدركتم وما يتعلم بعضهم من بعض إلا بالورع وهم اليوم ما يتعلمون إلا الكلام ، ومنها أن يكون غير مائل إلى الترفه في الطعام والمغرب والتشمع في الملابس والتجمل في الأثاث والمسكر بل يؤثر الاقتصاد في جميع ذلك وينتسب فيه بالسلف رحمهم الله تعالى ويميل إلى الاكتفاء بالأقل في جميع ذلك وكلما زاد إلى طرف القلة عليه ازدياد من الله تبارك وتعالى وارتفع في علماء الآخرة حظه . ويشهد لذلك ما حكى عن أبي عبد الله الخراساني - وكان من أصحاب سائمة الأسماء - قال : دخلت مع حاتم إلى الري ومنا ثلاثمائة وعشرون رجلاً يريد الحج وعليهم الزرمانقات وليس معهم جراب ولا طعام فدخلنا على رجل من التجار متششف بمحب المساكين فأضافنا تلك الليلة فلما كان من الغد قال لحاتم : لك حاجة فإني أريد أن أعود فقهيانا هو عليل ؟ قال حاتم عيادة المريض فيها فضل والنزاهة إلى الفقيه عبادة وأنا أيضاً أجيء معك . وكان العليل مجنوناً مقاتلاً - قال حاتم - فإنا جئنا إلى الباب فإذا قصر مشرف حسن فبقى حاتم متفكراً يقول : باب عالم على هذه الحالة ؟ ثم أذن لهم فدخلوا فإذا دار حستانه فورا واسعة زهراء وإذابة وسور فوق حاتم متفكر أنهم دخلوا إلى المجلس الذي هو فيه وإذا بفارس وطيطه وهو راند عليها وعند رأسه غلام ويده مذبذبة ففقد الزائر عند رأسه وسأل عن حاله وحاتم قائم فأومأ إليه ابن مقاتل أن يجلس فقال لا تجلس فقال لعل لك حاجة فقال نعم ، قال : وما هي ؟ قال : مسألة أسألك عنها قال : سل ، قال : قم فاستو جالساً أسألك . فاستوى جالساً قال حاتم : عليك هذا من أين أخذه ؟ فقال : من الثقات حدثوني به ، قال : عمن ؟ قال : عن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم عمن ؟ قال : عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : ورسول الله صلى الله عليه وسلم عمن ؟ قال : عن جبرائيل عليه السلام عن الله عز وجل . قال حاتم ففنيأ أياه جبرائيل عليه السلام عن الله عز وجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأياه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أصحابه وأصحابه إلى الثقات وأياه الثقات إليك هل سمعت فيه من كان في داره إشراف وكانت سمته أكثر كان له عند الله عز وجل منزلة أكبر : قال : لا . قال : فكيف سمعت ؟ قال : سمعت أنه من زهد في الدنيا ورغب في الآخرة وأحب المساكين وقدم لاخرته كانت له عند الله منزلة ، قال له حاتم : فأنت بمن اقتديت يا أبا بني رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضوا الله عنهم والصالحين رحمهم الله أم بفرعون ونمرود أول من بنى بالجلس والتاجر ؟ يا علماء السوء مثلكم يرأوا الجاهل المتكالب على الدنيا الراغب فيها فيقول : العالم على هذه الحالة : أفلا أكون أنا شراً منه ؟ فخرج من عنده فزاد ابن مقاتل مرضاً وبلغ أهل الري ما جرى بينه وبين ابن مقاتل فقالوا له : إن الطائفي يقزوين أكثر توسعاً منه . فسار حاتم متعمداً فدخل عليه فقال : رحمتك الله أنا رجل أجهل أحب أن تعلمني مبتدأ ديني ومفتاح صلاتي كيف أتوضأ للصلاة ؟ قال : نعم وكرامة يا غلام هات إناء فيه ماء . فألقى به فقعد الطائفي فتوضأ ثلاثاً ثلاثاً ثم قال : هكذا فتوضأ . فقال حاتم : مكانك حتى أتوضأ بين يديك فيكون أوكد لما أريد ، فقام الطائفي وقعد حاتم فتوضأ ثم غسل ذراعيه أربعاً أربعاً فقال الطائفي : يا هذا أسرفت . قال له حاتم : فبماذا ؟ قال غسلت ذراعيك أربعاً . فقال حاتم : يا سبحان الله العظيم أنا في كف من ماء أسرفت وأنت في جميع هذا كله لم تسرف ؟ فغسل الطائفي

أنه تصد ذلك دون التعلّم فدخل منزله فلم يخرج إلى الناس أربعين يوماً فلما دخل حاتم بغداد اجتمع إليه أهل بغداد فقاروا : يا أبا عبد الرحمن أنت رجل ولكن أجمى وليس بكلمك أحد إلا قطعته ، قال : ممن ثلاث خصال أظهر بين علي خصمي أفرح إذا أصاب خصمي وأحزن إذا أخطأ واحفظ نفسي أن لا أجهل عليه . فبلغ ذلك الإمام أحمد بن حنبل فقال : سبحان الله ما أغضبه قوموا بنا إليه . فلما دخلوا عليه قال له : يا أبا عبد الرحمن ما السلامة من الدنيا ؟ قال : يا أبا عبد الله لا تسلم من الدنيا حتى يكون معك أربع خصال : تنفر للقوم جهلهم وتجمع جهلك منهم وتبدل لهم شيئك وتكون من شيئهم أيما ، فإذا كنت هكذا سلمت ، ثم سار إلى المدينة فاستقبله أهل المدينة فقال : يا قوم أية مدينة هذه ؟ قالوا : مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : فأين قصر رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أصلي فيه ؟ قالوا : ما كان له قصر إنما كان له بيت لاطن بالأرض ، قال : فأين قصور أصحابه رضى الله عنهم ؟ قالوا : ما كان لهم قصور إنما كان لهم بيوت لاطنة بالأرض ؛ قال حاتم : يا قوم فهذه مدينة فرعون ، فأخذوه وذمبوا به إلى السلطان وقالوا . هذا العجمي يقول هذه مدينة فرعون ، قال الوالي : ولم ذلك ؟ قال حاتم : لا تعجل علي أنا رجل أجمى غريب دخلت البلد فقلت مدينة من هذه فقالوا مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت فأين قصر . . . وقص القصة ، ثم قال : وقد قال الله تعالى (لقد كان لذكرى رسول الله أسوة حسنة) فأنتم بمن تأسيتم برسول الله صلى الله عليه وسلم أم بفرعون أول من بنى بالجلس والآجر ؟ نظروا عنه وتركوه . فهذه حكاية حاتم الأصم رحمه الله تعالى . وسياق من سيرة السلف في البذاذة وترك التجمل ما يشهد لذلك في مواضعه . والتحقيق فيه أن التزين بالمباح ليس بمحرم ولكن الخوض فيه يوجب الانس به حتى يفتقر تركه ، واستدامة الزينة لا تمكن إلا بمباشرة أسباب في الغالب يلزم من مراعاتها ارتكاب المعاصي من المداينة ومراعاة الخلق ومراعاتهم وأمور أخرى محظورة والمحرم اجتناب ذلك لأن من عاص في الدنيا لا يسلم منها الأبد ولو كانت السلامة مبدولة مع الخوض فيها لكان صلى الله عليه وسلم لا يبالغ في ترك الدنيا حتى نزع القميص المطرز بالم (١) ونزع خاتم الذهب في أثناء الخطبة (٢) إلى غير ذلك مما سياتي بيانه . وقد حكى أن يحيى بن يزيد النوفلي كتب إلى مالك ابن أنس رضى الله عنهما « بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على رسوله محمد في الأولين والآخرين ، من يحيى ابن يزيد بن عبد الملك إلى مالك بن أنس ، أما بعد فقد بلغني أنك تليس الدقاق وتأكل الرقاق وتجلس على الوطء وتجمل على بابه حاجبا وقد جلست مجلس العلم وقد ضربت إليك الملعق وأرتحل إليك الناس واتخذوك إماما وضوا بقوك ؛ فائق الله تعالى إمامك وعليك بالتواضع . كتبت إليك بالتصبيحة من كتابا ما طالع عليه غير الله سبحانه وتعالى والسلام ، فكتب إليه مالك « بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على الله سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم . من مالك ابن أنس إلى يحيى بن يزيد سلام الله عليك ، أما بعد : فقد وصل إلى كتابك موقع من موقع التصبيحة والشفقة والأدب أمتهك الله بالتقوى وجزاك بالتصبيحة خيرا وأسأل الله تعالى التوفيق والاحول والوفاء لإبائه المولى العظيم ، فأما ما ذكرت لى أنى أكل الرقاق وألبس الدقاق واحتجب وأجلس على الوطء فحقن نفيل ذلك ونستغفر الله تعالى فقد قال الله تعالى (قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق) وإلى لأعلم أن ترك ذلك خير من الدخول فيه . ولا تدعنا من كتابك فلنسا ندعك من كتابنا والسلام ، فأنظر إلى إنصاف مالك إذ اعترف أن

(١) حديث « نزع القميص المطرز » ، نقل عليه من حديث عائشة (٢) حديث « نزع الخاتم القميص في أثناء الخطبة » ، نقل عليه من حديث ابن عمر .

ترك ذلك خير من الدخول فيه وأفتى بأنه مباح وقد صدق فيهما جميعا ومثل مالك في منصبه إذا سمحت نفسه بالإقصاف والاعتراف في مثل هذه الصبيحة فتقوى أيضا نفسه على الوقوف على حدود المباح حتى لا يجعله ذلك على الإساءة والمداينة والتجاوز إلى المكروهات وأما غيره فلا يتدر عليه فاتعرج على التنعم بالمباح خطر عظيم وهو بعيد من الخوف والخشية وخاصة علماء الله تعالى الخشية وخاصة الخشية التباعد من مظان الخطر . ومنها أن يكون مستقصيا عن السلاطين فلا يدخل عليهم ألبته مادام يجد إلى الفرار عنهم سبيلا بل ينبغي أن يحتذر عن مخالطهم وإن جاءوا إليه فإن الدنيا حلوة خضرة وزمامها بأيدي السلاطين . والمخالط لا يتلو عن تكلف في طيب مرضاتهم واستئالة قلوبهم مع أنهم ظلة . ويجب على كل متدين الإنكار عليهم وتضييق صدرهم بإظهار ظلمهم وتوبيخ فعلهم فالداخل عليهم إما أن يلتفت إلى تجمعاتهم فيزدري نعمة الله عليه أو يسكت عن الإنكار عليهم فيكون مداهنا لهم أو يتكلف في كلامه كلاما لمرضاتهم وتحسين حالهم وذلك هو البهت الصريح أو أن يطلع على أن ينال من دنياهم وذلك هو السحت وسيأتي في كتاب الحلال والحرام ما يجوز أن يؤخذ من أموال السلاطين وما لا يجوز من الإضرار والجوارز وغيرها . وعلى الجملة فخالطهم مفتاح للشور وعلماء الآخرة طريقهم الاحتياط . وقال صلى الله عليه وسلم : « من بدا جفا - يعني من سكن البادية جفا - ومن أصبح الصيد غفل ومن أتى السلطان افتتن »^(١) ، وقال صلى الله عليه وسلم : « سيكون عليكم أمراء تعرفون منهم وتكرهون فمن أنكر فقد برئ ومن كره فقد سلم ولكن من رضي وتابع أبعده الله تعالى . قيل : أفلا نقالهم ؟ قال صلى الله عليه وسلم : لا ماصلو »^(٢) ، وقال سفيان : في جهنم واد لا يسكنه إلا القراء الزأرون للولوك . وقال حذيفة : إياكم ومواقف الفتن ، قيل وما هي ؟ قال : أبواب الأمراء يدخل أحدهم على الأمير فيصدق به بالكذب ويقول فيه ما ليس فيه . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « العلماء أمناة الرسل على عباد الله تعالى ما لم يخالفوا السلاطين فإذا فعلوا ذلك فقد خانوا الرسل فاحذروهم واعتزلوهم »^(٣) ، رواه أنس . وقيل للأعمش : ولقد أحريت العلم لكثرة من يأخذه عنك فقال : لا تمسجوا تلك أي موتون قبل الإدراك وذلك يلزمون أبواب السلاطين فهم شر الخلق والثالث الباقي لا يفادح منه إلا القليل . ولذلك قال سعيد بن المسيب رحمه الله : إذا رأيتم العالم يفتنى الأمراء فاحذروا منه فإنه لص . وقال الأوزاعي ما من شيء أبغض إلى الله تعالى من عالم يزور عالما . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « شرار العلماء الذين يأتون الأمراء وخيار الأمراء الذين يأتون العلماء »^(٤) ، وقال مكحول الله مثنى رحمه الله ، من تعلم القرآن وتفقه في الدين ثم صحب السلطان تملقا إليه ولمعما فيما لديه خاض في بحر من نار جهنم بعدد خطاه . وقال سنن : ما سمع بالعالم أن يوثق إلى مجلسه فلا يوجد فيسئل عنه فيقال هو عند الأمير ! قال : وكنت أسمع أنه يقال إذا رأيتم العالم يحب الدنيا فاتهموه على دينكم حتى جريت ذلك ؛ إذ ما دخلت قط على هذا السلطان إلا وحاسبت نفسي بعد الخروج فأرى عليها الدرك وأنهم يزورون ما لعالم به من الخاطئة والفظاظة وكثرة المخالفة لهواه ولوددت أن انجو من الدخول عليه كخفاف مع أني لأأخذ منه شيئا ولا أشرب له شربة ماء . ثم قال : وعلماء زماننا شر من علماء بني إسرائيل يغترون السلطان بالرخيص وبما يوافق

(١) حديث « من بدا جفا .. الحديث » أخرجه أبو داود والترمذي وحسنه والنسائي من حديث ابن عباس

(٢) حديث « سيكون عليكم أمراء تعرفون منهم وتكرهون .. الحديث » أخرجه مسلم من حديث أم سلمة (٣) حديث أنس « العلماء أمناة الرسل على عباد الله .. الحديث » أخرجه العمري في الفتن ، وذكره ابن الجوزي في الموضوعات .

(٤) حديث « شرار العلماء الذين يأتون الأمراء وخيار الأمراء الذين يأتون العلماء » أخرجه ابن ماجه في الموطأ الأول نحوه من حديث أبي هريرة بسند ضعيف .

هواه ولو أخبروه بالذى عليه وفيه نجاته لاستقلمهم وكره دخولهم عليه وكان ذلك نجاة لهم عند ربهم. وقال الحسن: كان فيمن كان قبلكم رجل له قدم في الإسلام وصحبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم - قال عبد الله بن المبارك عن به سعد بن أبي وقاص رضى الله عنه - قال وكان لا يفتى السلاطين وينفر عنهم . فقال له بنوه : يأتى هؤلاء من ليس هو مثلك في الصحة والقدم في الإسلام فلو أتيتهم ، فقال : يابى آتى جيفة قد أساحت بها قوم والله لئن استطعت لأشار بهم فيها : قالوا يا أبانا لذننك هوالا قال ، يابى لأن أموت مؤمناً مهزولاً أحب إلى من أن أموت منافقاً مميئاً قال الحسن : خصمهم والله إذ علم أن التراب يأكل اللحم والسمن دون الإيمان . وفي هذا إشارة إلى أن الداخل على الساطن لا يسلم من التناقى البتة وهو مضاد للإيمان . وقال أبو ذر السلمي : يا سلمة لا تنفس أبواب السلاطين فإنك لاتصيب شيئاً من دنياهم إلا أصابوا من دينك أفضل منه . وهذه فتنة عظيمة للعلماء وذريعة صعبة للشيطان عليهم لاسباب من له لجة مقبولة وكلام حلو ، إلا يزال الشيطان يلقى إليه : أن في وعظك لهم ودخولك عليهم ما يجرهم عن الظلم ويقيم شعائر الشرع إلى أن يغيب إليه أن الدخول عليهم من الدين ، ثم إذا دخل لم يلبث أن يتلفظ في السلام ويداهم ويعوض في التثاء والإطراء وفيه هلاك الدين . وكان يقال : العلماء إذا عدوا عملاً فإذا عملوا أشغوا فعدوا فإذا فعدوا طلبوا فإذا طلبوا هربوا : وكتب عمر بن عبد العزيز رحمه الله إلى الحسن : أما بعد فأمر على بأقوام أسثنين بهم على أمر الله تعالى . فكتب إليه : أما أهل الدين فلا يريدونك وأما أهل الدنيا فلي تديهم ولكن عليك بالاشتراف فإنهم يصنون شرفهم أن يذلوه بالخيانة . هذا في عمر بن عبد العزيز رحمه الله وكان أزهمل أهل زمانه ! فإذا كان شرط أهل الدين الحرب منه فكيف يستنسب طلب غيرهم ومخالطته ؟ ولم يزل السلف العلماء مثل الحسن والثوري وابن المبارك والفضيل وإبراهيم بن آدم ويوسف بن أسباط يتكلمون في علماء الدنيا من أهل مكة والشام وغيرهم إما ليدهم إلى الدنيا وإما لمخالطتهم السلاطين منها أن لا يكون مسارعاً إلى الفتيا بل يكون متوقفاً ومحترفاً ما وجد إلى الخلاص سبيلاً . فإن سئل عما يعله تحقيقاً بنص كتاب الله أو بنص حديث أو إجماع أو قياس جلى أفتى ، وإن سئل عما يشك فيه قال : لأدري ! وإن سئل عما يظنه باجتهاد وتخييم احتاط ودفع عن نفسه وأحال على غيره إن كان في غيره غنية هذا هو الحرم لأن تقلد خطر الاجتهاد عظيم وفي الخبر : العلم ثلاثة : كتاب ناطق وسنة قائمة ولا أدري ^(١) ، قال الشعبي : لا أدري ، نصف العلم . ومن سكت حيث لا يدري لله تعالى فليس بأقل أجراً ممن نطق لأن الاعتراف بالجهل أشد على النفس فهكذا كانت عادة الصحابة والسلف رضى الله عنهم . كان ابن عمر إذا سئل عن الفتيا قال : اذهب إلى هذا الأمير الذى تقلد أمور الناس فشيئاً في حقته ؛ وقال ابن مسعود رضى الله عنه : إن الذى يفتى الناس في كل ما يستفتونه لجنون ، وقال : جنة العالم لا أدري ، فإن أخطأ ما فعدا أصيبت مقاتله . وقال إبراهيم بن آدم رحمه الله : ليس شيء أشد على الشيطان من عالم يتكلم بعلم ويسكت بعلم . يقول : انظروا إلى هذا سكوتة أشد على من كلامه . ووصف بعضهم الأبدال فقال : اكلمهم فاقه ونومهم غلبة وكلامهم ضرورة ؛ أى لا يتكلمون حتى يسألوا وإذا سئلوا ووجدوا من يكفهم سكتوا فإن اضطروا أجابوا وكانوا يبدون الابتداء قبل السؤال من الشهوة الخفية للكلام . ومر على وعبد الله رضى الله عنهما برجل يتكلم على الناس فقال : هذا يقول اعرافنى . وقال بعضهم : إنما العالم الذى إذا سئل عن المسئلة فكأنما يقطع خرسه . وكان ابن عمر يقول : تريدون

(١) حديث في العلم ثلاثة : كتاب ناطق وسنة قائمة ولا أدري ، أخرجه الشافعي في إمام من روى من ذلك موقفاً على ابن عمر وابن داود وابن ماجه من حديث عبد الله بن عمر مرادوا نحوه مع اختلاف وقد تقدم

أن يجعلونا جسرا تمرّون علينا إلى جهنم . وقال أبو حفص التيسابورى : العالم هو الذى يخاف عند السؤال أن يقال له يوم القيامة من أين أجبت ؟ وكان إبراهيم التيمى إذا سئل عن مسألة يبكى ويقول : لم يجندوا غيرى حتى اجتمعتم إلى . وكان أبو العالية الرياحى وإبراهيم بن آدم والثورى يتكلمون على الاثنين والثلاثة والنفر اليسير فإذا كثروا انصرفوا . وقال صلى الله عليه وسلم : ما أدرى أعزيرني أم لا ؟ وما أدرى أتبع ملون أم لا ؟ وما أدرى ذو القرنين نبي أم لا ؟^(١) ، ولما سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن خير البقاع في الأرض وشربها قال : لا أدرى ، حتى نزل عليه جبريل عليه السلام فسأله فقال : لا أدرى ، إلى أن أعلمه الله عز وجل أن خير البقاع المساجد وشربها الأسواق^(٢) ، وكان ابن عمر رضى الله عنهما يسئل عن عشر مسائل فيجيب عن واحدة ويسكت عن تسع . وكان ابن عباس رضى الله عنهما يجيب عن تسع ويسكت عن واحدة . وكان في الفقهاء من يقول : لا أدرى ، أكثر ممن يقول : أدرى ، منهم سفيان الثوري ومالك بن أنس وأحمد بن حنبل والفضيل ابن عياض وبشر بن الحرث . وقال عبد الرحمن بن أبي ليلى : أدركت في هذا المسجد مائة وعشرين من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ما منهم أحد يسئل عن حديث أو فتيا إلا واد أن أحاه كفاء ذلك . وفى لفظ آخر : كانت المسئلة تعرض على أحدهم فيردها إلى الآخر ويردها الآخر إلى الآخر حتى تعود إلى الأول وروى أن أصحاب الصفة أهدى إلى واحد منهم رأس مشوى وهو في غاية الغر فأهداه إلى الآخر وأهداه الآخر إلى الآخر ؛ هكذا دار بينهم حتى رجع إلى الأول . فانظر الآن كيف انعكس أمر العلماء فصار المهروب منه مطلوباً والمطلوب مهروباً عنه ؟ وشهد الحسن الاحتراز من تقلد الفتاوى ما روى مستدا عن بعضهم . أنه قال : لا يفتي الناس إلا ثلاثة : أمير أو مأمور أو متكلف . وقال بعضهم : كان الصحابة يتدافعون أربعة أشياء : الإمامة والوصية والودعة والفتيا . وقال بعضهم : كان أسرعههم إلى الفتيا أفلمهم علماً وأشدهم دفعا لها وأورعهم . وكان شغل الصحابة والتابعين رضى الله عنهم في خمسة أشياء : قراءة القرآن وعمارة المساجد وذكر الله تعالى والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . وذلك لما سمعوه من قوله صلى الله عليه وسلم : كل كلام ابن آدم عليه لاله إلا ثلاثة : أمر بمعروف أو نهي عن منكر أو ذكر الله تعالى^(٣) ، وقال تعالى ﴿ لا خير في كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس ﴾ الآية . ورأى بعض العلماء بعض أصحاب الراى من أهل الكوفة في المنام فقال : ما رأيت فجاكث عليه من الفتيا والراى ؟ فكره وجهه وأعرض عنه وقال : ما وجدناه شيئاً وما حدنا عاقبته . وقال ابن حصين : إن أحدهم يفتي في مسألة لو وردت على عمر بن الخطاب رضى الله عنه لمع باهل أهل بدر . فلم يزل السكوت دأب أهل العلم إلا عند الضرورة . وفى الحديث : إذا رأيتم الرجل قد أوقى صمتاً وزهداً فاقربوا منه فإنه يلقن الحكمة^(٤) . وقيل العالم إما عالم عامة وهو المفتى وهم أصحاب السلاطين أو عالم خاصة وهو العالم بالتوحيد وأعمال القلوب ، وهم أصحاب الزوايا المتفرقون المنفردون . وكان يقال : مثل أحمد بن حنبل مثل دجلة كل أحد يفتقر منها ، ومثل بشر بن الحرث مثل بشر عذبة منقطعة لا يقصدها إلا الواحد بعد واحد . وكانوا يقولون : لأن عالم

(١) حديث « ما أدرى أعزيرني أم لا .. الحديث » أخرجه أبو داود والمالك وصححه من حديث أبي هريرة

(٢) حديث « لما سئل عن خير البقاع وشربها قال لا أدرى حتى نزل جبريل .. الحديث » أخرجه أحمد وأبو يعلى والبخاري والمالك وصححه ونحوه من حديث ابن عمر (٣) حديث « كل كلام ابن آدم عليه لاله إلا ثلاثة .. الحديث » أخرجه الترمذي وابن ماجه من حديث أم حبيبة قال الترمذي حديث غريب (٤) حديث « لن رأيتم الرجل قد أوقى صمتاً وزهداً .. الحديث » أخرجه

ابن ماجه من حديث ابن خلد بأسناد ضعيف .

وفلان متكلم وفلان أكثر كلاماً وفلان أكثر علماً ، وقال أبو سليمان : المعرفة إلى السكوت أقرب منها إلى الكلام وقيل : إذا كثرت العلم قل الكلام وإذا كثرت الكلام قل العلم وكتب سلمان إلى أبي الدرداء رضي الله عنهما - وكان قد آخى بينهما رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(١) . يا أخى بلغنى أنك قدمت طبيباً تبارى المرضى ، فأظن أن كنت طبيباً فتكلم فإن كلامك شفاء وإن كنت متطبباً فآفة الله لا تقتل مسلماً . فكان أبو الدرداء يتوقف بمد ذلك إذا سئل وكان أنس رضي الله عنه إذا سئل يقول : سلوا مولانا الحسن . وكان ابن عباس رضي الله عنهما إذا سئل يقول : سلوا حارثة ابن زيد وكان ابن عمر رضي الله عنهما يقول : سلوا سعيد بن المسيب . وحكى أنه روى صحابي في حضرة الحسن عشرين حديثاً فسأل عن تفسيرها فقال : ما عندى إلا ما رويت ، فأخذ الحسن في تفسيرها حديثاً حديثاً ، فذهبهوا من حسن تفسيره وحفظه ، فأخذ الصحابي كفاً من حصى ورمام به وقال : تسألونى عن العلم وهذا الخبر بين أظهركم ومنها أن يكون أكثر اهتمامه بعلم الباطن ومراقبة القلب ومعرفة طريق الآخرة وسلوكه وصدق الرجاء في الكشف ذلك من المجاهدة والمراقبة فإن المجاهدة تنفض إلى الشاهدة ، ودقائق علوم القلب تنفجر بها ينابيع الحكمة من القلب ، وأما الكتب والتعليم فلا تنفي بذلك بل الحكمة الخارجة عن الحصر والحد إنما تنفتح بالمجاهدة والمراقبة ومباشرة الأعمال الظاهرة والباطنة والجلوس مع الله عز وجل في الخلوة مع حضور القلب بمافي الفكرة والانقطاع إلى الله تعالى عما سواه فذلك مفتاح الإلهام ومنبع الكشف ، فكمن متملم طال تملعه ولم يقدر على مجاوزة مسمره بكلمة ، وكمن مقتصر على المهمل في التعلم ومتوفر على العمل ومراقبة القلب فتح الله له من لطائف الحكمة ما تبارى فيه عقول ذوي الآليات ، ولذلك نال صلى الله عليه وسلم من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم ^(٢) ، وفي بعض الكتب السالفة : يابن إسرائيل لا تقولوا العلم في الدماء من ينزل به إلى الأرض ولا في تخوم الأرض من يصعد به ولا من وراء البحار من يعبر به ، العلم جمول في قلوبكم تأدبوا بين يدي بأداب الروحانيين وتحفظوا لى بأخلاق الصديقين أطعموا العلم في قلوبكم حتى ينطقكم ويفرركم . وقال سهل بن عبد الله التستري رحمه الله : خرج العلماء والعباد والإهاد من الدنيا وقلوبهم مغلقة ولم تنفتح إلا قلوب الصديقين والشهداء . ثم تلا قوله تعالى (وهذه مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو) الآية ولولا أن إدراك قلب من له قلب بالنور الباطن حاكم على علم الظاهر لما قال صلى الله عليه وسلم « استفت قلبك وإن أقرتك وأفتوك وأفتوك » وقال صلى الله عليه وسلم فيها برويه عن ربه تعالى « لا يزال العبد يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه فإذا أحبته كتبت سمعته الذي يسمع به ^(٣) . . . الحديث » فكمن من معان دقيقة من أسرار القرآن تجل على قلب المتبحرين للذكر والفكر تخلف عنها كتب التفسير ولا يطلع عليها أفضل المفسرين وإذا انكشف ذلك للمريد المراقب وعرض على المفسرين استحسنوه وعاموا أن ذلك من نفيها القلوب الزكية والظاف الله تعالى بالهمم العالية المتوجهة إليه . وكذلك في علوم المكاشفة وأسرار علوم المعالجة ودقائق خواطر القلوب فإن كل علم من هذه العلوم بحر لا يدرك عمقه وإنما يخبر عنه كل طالب بقدر مازرق منه وبحسب ما وفق له من حسن العمل وفي وصف هؤلاء العلماء قال علي رضي الله عنه في حديث طويل . القلوب أوعى غيرهما أوعاها للخير ، والناس ثلاثة عالم رباني ومتعلم على سيدل التجارة ومهيج رطاح اتباع لكل ناضق يميلون مع كل ريح لم يستقيروا

(١) حديث « مؤلفاته صلى الله عليه وسلم بين سلمان وأبي الدرداء » أخرجه البخاري من حديث أبي جنة

(٢) حديث « من عمل فاعلم ورثه الله علم ما لم يعلم » أخرجه أبو نعيم في الحلية من حديث أنس وحقه (٣) حديث « لا يزال العبد يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه فإذا أحبته كتبت له سمياً وصيراً » متفق عليه من حديث أبي هريرة بإلف « سمعته وصبره » وهو في الحلية كما ذكره المؤلف بن حديث أنس بسند ضعيف

بنور العلم ولم يلبثوا إلى ركن وريق ، العلم خير من المال ، العلم يحرسك وأنت تحرس المال . واللم يزك على الإنفاق والمال ينقصه الإنفاق ، واللم دين يدان به تكسب به الطاعة في حياته وجبل الاحدثة بعد وفاته ؛ العلم حاكم والمال محكوم عليه ، ومنفعة المال نزول بزواله مات ، خزان الأموال وهم أحياء والعلماء أحياء باقون مابق الدهر ، ثم تنفس الصعداء وقال . هاهن ههنا علما جا لو وجدت له حملة ، بل اجد طالبا غير مأمون يستعمل آله الدين في طلب الدنيا ويستطيل بنعم الله على أوليائه ويستظهر بحجته على خلقه ، او متفادا لأهل الحق لكن ينزوع الشك في قلبه بأول عارض من شبهة لابصرة له لاذا ولا ذاك ؛ أو منهوما بالذات سلس القياد في طلب الشهوات ، أو مغرى بجمع الأموال والادخار منقادا لغواء أقرب شيها بهم الأذنام السائمة ؛ اللهم هكذا يموت العلم إذا مات حاملوه ثم لا تخجل الأرض من قائم لله بحجة إما ظاهر مكشوف وإما خائف مقبور لكيلا تطل حجج الله تعالى وبيئاته وتم وأين أولئك ؟ هم الأفلون عددا الأعظمون قدرا أعيانهم مفقودة وأمانهم في القلوب موجودة يحفظ الله تعالى بهم حجبهم حتى يودعوا من وراءهم ويردعوها في قلوب أشباعهم : هم جمهم العلم على حقيقة الأمر فباشروا روح اليقين فاستلنا ما استوعب من المتفرون وأنسا بما استوحش منه الغافلون ، حصرو الدنيا بأدان أرواحها معلقة بأهل الأعلى أولئك أولياء الله عز وجل من خلقه وأماؤهم وعماله في أرضه والنفاسة إلى دينه ثم بكى وقال : واشوقا إلى رؤيتهم فهذا الذي ذكره أخيرا هو وصف علماء الآخرة وهو العلم الذي يستفاد أكثره من العمل والمواظبة على المجاهدة . ومما أن يكون شديد العناية بتقوية اليقين فإن اليقين هو رأس مال الدين قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اليقين الإيمان كله ^(١) » ، فلا بد من تعلم علم اليقين أعنى أولئك ثم يفتح القلب طريقه ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « تعلموا اليقين ^(٢) » ، ومما جالسوا الموقنين واستمعوا منهم علم اليقين وواظبوا على الاقتداء بهم ليقروا يقينكم كما قوى يقينهم وقليل من اليقين خير من كثير من العمل . وقال صلى الله عليه وسلم « لما قيل له : رجل حسن اليقين كثير الذنوب ورجل مجتهد في العبادة قليل اليقين ، فقال صلى الله عليه وسلم : ما من آدمي إلا وله ذنوب ولكن من كان غريزه العقل وحجته اليقين لم تضرب له الذنوب لأنه كلما أذنب تاب واستغفر وندم فكفر ذنوبه وبقى له فضل يدخل به الجنة ^(٣) » ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « إن من أقل ما أوتيتم : اليقين وعزيمة الصبر ومن أعطى حظه منهما لم يبال ما فاتته من قيام الليل وصيام النهار ^(٤) » ، وفي وصية لقمان لابنه « يا بني لا يستطاع العمل إلا باليقين ولا يعمل المرء إلا بقدر يقينه ولا يقصر عامل حتى ينقص يقينه ، وقال يحيى بن معاذ إن للتوحيد نوراً وللشرك ناراً ، وإن نور التوحيد أحرق لنشيشات الموحدين من نار الشرك لحسنات المشركين ، وأراد به اليقين ، وقد أشار الله تعالى في القرآن إلى ذكر المرتقين في مواضع دل بها على أن اليقين هو الرابطة للغيرات والسماعات ، فان قلت : فما معنى اليقين وما معنى قوته وضدغه فلا بد من فهمه أولا ثم الاشتغال بطلبه وتلمذه فان مالا تفهم صورته لا يمكن طلبه ؟ فاعلم أن اليقين لفظ مشترك بطلقه فريقان لمثنين مختلفين أما الظنار والمتكلمون فيسعون به عن عدم الشك إذ صلب النفس إلى التصديق بالشيء له أربع مقامات ، الأول : أن يمتدل التصديق والتكذيب ويذهب عنه بالشك ، كما إذا سلك عن

(١) حديث « اليقين الإيمان كله » أخرجه البيهقي في الزهد والمحيط في التاريخ من حديث ابن مسعود بإسناد حسن

(٢) حديث « تعلموا اليقين » أخرجه أبو نعيم من رواية ثور بن يزيد مرسل وهو مرسل رواد ابن أبي الدنيا في الزين من قول

خالد بن معدان (٣) حديث (قيل له : رجل حسن اليقين كثير الذنوب) أخرجه الترمذي المحكم في التواريخ من حديث أنس

بإسناد مظلم (٤) حديث (من أول ما أوتيتم اليقين وعزيمة الصبر . الحديث) لم أفع له هل أصل . وروى ابن عبد البر

من حديث معاذ (ما أنزل الله عينا أهل من اليقين ولا قسم عينا بين الناس أهل من العلم) الحديث .

شخص معين ، أن الله تعالى يماقبه أم لا ؟ وهو مجهول الحال عندك فلن نفسك لا تميل إلى الحكم فيه بإبانت ولا نفي بل يستوى عندك إمكان الأمرين فيسمى هذا شكاً . الثاني . أن تميل نفسك إلى أحد الأمرين مع الشعور بإمكان نقيضه ولكنه إمكان لا يمنع ترجيح الأول ، كما إذا سئلت عن رجل تعرفه بالصلاح والتقوى أنه بعبته لومات على هذه الحالة هل يماق ؟ فلن نفسك تميل إلى أنه لا يماق أكثر من ميلها إلى العقاب وذلك لظهور علامات الصلاح . ومع هذا فأنت تجوز اختفاء أمر موجب للعقاب في باطنه وسريته فهذا التجوز مساوٍ لذلك الميل ولكنه غير دافع رجحانه فهذه الحالة تسمى ظناً . الثالث : أن تميل النفس إلى التصديق بشيء بحيث يظن عليها ولا ينظر بالبال غيره ولو خطر بالبال تأني النفس عن قبوله ولكن ليس ذلك مع معرفة حقيقة إذ لو أحسن صاحب هذا المقام التأمل والإصغاء إلى التشكيك والتجوير اتسمت نفسه بالتجوير ، وهذا يسمى اعتقاداً مقارناً لليقين وهو اعتقاد العوام في الشرعيات كلها إذ رسخ في نفوسهم بمجرد السماع حتى إن كل فرقة تثق بصحة مذهبها وإصابة إمامها ومتبوعها ، ولو ذكر لأحدهم إمكان خطأ إمامه نفر عن قبوله . الرابع . المعرفة الحقيقية الحاصلة بطريق البرهان الذي لا يشك فيه ولا يتصور الشك فيه فإذا امتنع وجود الشك وإمكانه يسمى يقيناً عند هؤلاء ، ومثاله أنه إذا قيل للمائل هل في الوجود شيء هو قديم ؟ فلا يمكنه التصديق به بالبديهة لأن القديم غير محسوس لا كالشمس والقمر فإنه يصدق بوجودهما بالحوس وليس العلم بوجوده شيء قديم أزلي ضروري مثل العلم بأن الاثنين أكثر من الواحد ومثل العلم بأن حدوث حادث بلا سبب محال ، فإن هذا أيضاً ضروري لحق غريزة العقل أن تتوقف عن التصديق بوجود القديم على الأرجح والبديهة ، ثم من الناس من يسمع ذلك ويصدق بالجماع تصديقاً جزمياً ويستمر عليه وذلك هو الاعتقاد وهو حال جميع العوام . ومن الناس من يصدق به بالبرهان وهو أن يقال له . إن لم يكن في الوجود قديم فالوجودات كلها حادثة فلن كانت كلها حادثة فمن حادثة بلا سبب أو فيها حادث بلا سبب وذلك محال ، فالجواب إلى المحال محال ، فيلزم من العقل التصديق بوجود شيء قديم بالضرورة لأن الأقسام ثلاثة . وهي أن تكون الموجودات كلها قديمة أو كلها حادثة أو بعضها قديمة وبعضها حادثة فإن كانت كلها قديمة فقد حصل المطلوب إذ ثبت على الجملة قديم ، وإن كان الكل حادثاً فهو محال إذ يؤدي إلى حدوث بغير سبب فيثبت القدم الثالث أو الأول . وكل علم حصل على هذا الوجه يسمى يقيناً عند هؤلاء سواء حصل بنظر مثل ما ذكرناه أو حصل بحس أو بغيره العقل كالمع باستحالة حادث بلا سبب أو بتواتر ، كالمع بوجود مكة أو بتجربة كالمع بأن السموم تهايطبخ مسيل أو بدليل كما ذكرنا فشرط إطلاق هذا الاسم عدم عدم الشك فكل علم لا شك فيه يسمى يقيناً عند هؤلاء وعلى هذا لا يوصف اليقين بالضيق إذ لا تغاوت في نفي الشك . الاصطلاح الثاني اصطلاح الفقهاء والمتصوفة وأكثر العلماء وهو أن لا يلتفت في إله اعتبار التجوير والشك بل إلى استلزامه وغلبته على العقل : حتى يقال . فلان ضعيف اليقين بالموت مع أنه لا شك فيه ؛ ويقال : فلان قوي اليقين في إيمان الرزق مع أنه قد يجوز أنه لا يأتيه ، فهما مالت النفس إلى التصديق بشيء وغلب ذلك على القلب واستولى حتى صار هو المتحكم والمتصرف في النفس بالتجوير والمنع مما يرى ذلك يقيناً ولا شك في أن الناس يشتركون في القطع بالموت والانفكاك عن الشك فيه ، ولكن فيهم من لا يلتفت إليه ولا إلى الاستعداد له وكأنه غير موقن به . ومنهم من استولى ذلك على قلبه حتى استغرق جميع همه بالاستعداد له ولم يغادر فيه شيئاً لغيره فيعبر عن مثل هذه الحالة بقوة اليقين ، ولذلك قال بعضهم . ما رأيت يقيناً لاشك فيه أشبه بشك لا يقين فيه من

الموت ، وعلى هذا الاصطلاح يوصف اليقين بالضعف والثقوة ونحن إنما أردنا بقولنا إن من شأن علماء الآخرة صرف العناية إلى تقوية اليقين ، بالمعنيين جميعا وهو نفي الشك ثم تسليط اليقين على النفس حتى يكون هو الغالب المتحكم عليها التصرف فيها . فإذا فهمت هذا علمت أن المراد من قولنا : إن اليقين ينقسم ثلاثة أقسام ، بالثقة والضعف والكثرة والقلّة والخفاء والجلالة ، فأما بالثقة والضعف فعلى الاصطلاح الثانى وذلك فى الغلبة والاستيلاء على القلب ودرجات معاني اليقين فى الثقة والضعف لا تنتهى وتفاوت الخلق فى الاستعداد للثبوت بحسب تفاوت اليقين بهذه المعاني وأما التفاوت بالخفاء والجلالة فى الاصطلاح الأول فلا ينكر أيضا ، أما فيما يتعلق إليه التجويز فلا ينكر . أهى الاصطلاح الثانى وفيها اتنى الشك أيضا عنه لاسيما إلى إنكاره فإنه تدرك تفرقة بين تصديقك بوجود مكة وجوده فذلك مثلا وبين تصديقك بوجود موسى ووجوده يوشع عليهما السلام مع أنك لا تشك فى الآخرين جميعا فستندهما جميعا التواتر ، ولكن ترى أحدهما أجمل وأوضح فى قلبك من الثانى لأن السبب فى أحدهما أقوى وهو كثرة المخبرين ، وكذلك يدرك الناظر هذا فى الظواهر المعروفة بالأدلة فانه ليس وضوح ماله له بدليل واحد كوضوح ماله له بالأدلة الكثيرة مع تساويهما فى نفي الشك ، وهذا قد ينكره المتكلم الذى يأخذ العلم من الكتب والمصاح ولا يرجع نفسه فيما يدركه من تفاوت الأحوال . وأما القلة والكثرة فذلك بكثرة متعلقات اليقين ، كما يقال : فلان أكثر علما من فلان ، أى معلوماته أكثر . ولذلك قد يكون العالم قوى اليقين فى جميع ماورد الشرع به وقد يكون قوى اليقين فى بعضه . فإن قلت : قد فهمت اليقين وقوته وضعفه وكثرته وقلته وجلاله وخفائه بمعنى نفي الشك أو بمعنى الاستيلاء على القلب فما معنى متعلقات اليقين وبجاريه وفيها يطلب اليقين فلاي ما لم أحرف ما يطلب فيه اليقين لم أقدر على طلبه ؟ فأعلم أن جميع ماورد به الانبياء صلوات الله وسلامه عليهم من أوله إلى آخره هو من مجارى اليقين فإن اليقين عبارة عن معرفة خصوصية ومتعلقة المعلومات التى وردت بها الشرائع فلا مطمع فى إحسانها ولكن أشير إلى بعضها وهى أمهاتها . فمن ذلك : التوحيد . وهو أن يرى الأشياء كلها من مسبب الأسباب ولا يلتفت إلى الوسائط بل يرى الوسائط مسخرة لأحكامها فالمصدق بهذا موقن ، فإن اتنى عن قلبه مع الإيمان إمكان الشك فهو مرقن بأحد المعنيين ، فإن غلب على قلبه مع الإيمان غلبة أزالته عنه الغضب على الوسائط والرضا عنهم والشكر لهم ونزل الوسائط فى قلبه منزلة القلم واليد فى حق النعم بالتوقيع فانه لا يفكر القلم ولا اليد ولا ينضب عليها بل يراها آلتين مسخريين وواسطتين فقد صار موقنا بالمعنى الثانى وهو الإشراف ، وهو ثمرته اليقين الأول وروحه وفائدته . ومهما تحقق أن الشمس والتجود والجمادات والنبات والحيوان وكل مخلوق فهى مسخرات بأمره حسب تسخير القلم فى يد الكاتب وأن القدرة الأزلية هى المصدر للكل استولى على قلبه غلبة التوكل والرضا والتسليم وصار موقنا برثا من الغضب والحقد والحسد وسوء الخلق ، فهذا أحد أبواب اليقين . ومن ذلك : الثقة بعباد الله سبحانه بالرزق فى قوله تعالى ﴿ وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقنا ﴾ واليقين بأن ذلك يأتيه وأن ما فتر له سيساق اليه ومهما غلب ذلك على قلبه كان مجلّا فى الطلب ولم يشتد حرصه وشره وتأسفه على ما فاته ، وأمر هذا اليقين أيضا جملة من الطاعات والأخلاق الحميدة . ومن ذلك : أن يغلب على قلبه أن من يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره ، وهو اليقين بالثواب والعقاب حتى يرى نسبة الطاعات إلى الثواب كنسبة الجز إلى الشيع ، ونسبة المعاصى إلى العقاب كنسبة السوم والأفاعى إلى الهلاك فكما يحرص على التحصيل للخير طلبا للشيء فيحفظ قليله وكثيره فكذلك يحرص على الطاعات كلها قليلا

وكثيرها ، وكما يجتنب قليل السموم وكثيرها فكذلك يجتنب المعاصي قليلا وكثيرها وصغيرها وكثيرها ؛ فاليعين بالمعنى الأول قد يوجد لعموم المؤمنين أما بالمعنى الثاني فيختص به المقربون ، وثمرة هذا اليقين صدق المراقبة في الحركات والسكنات الخطرات والمبالغة في التقوى والتحرز عن كل السيئات ، وكما كان اليقين أغلب كان الاحتراز أشد والتشهير أبغ . ومن ذلك ؛ اليقين بأن الله تعالى مطلع عليك في كل حال ومشاهد لحواjis خبيرك وخفايا خوارطك وفكرك فهذا متيقن عند كل مؤمن بالمعنى الأول وهو عدم الشك وأما بالمعنى الثاني وهو المقصود فهو عزيز يختص به الصديقون ، وثمرته أن يكون الإنسان في خلوته متأدبا في جميع أحواله كالجالس يشهد ملك معظم ينظر إليه فإنه لا يزال مطرقة متأدبا في جميع أعماله متسكنا محترزا عن كل حركة تخالف هيئة الأدب ويكون في فكرته الباطنة كهر في أعماله الظاهرة إذ يتحقق أن الله تعالى مطلع على سريره كما يطلع الخائن على ظاهره فتكون مبالفته في حمارة باطنه وتطهيره وتزيينه بعين الله تعالى الكاتبة أشد من مبالفته في زين ظاهره لسائر الناس ، وهذا المقام في اليقين يورث الحياء والخوف والانتكاس والذل والاستكانة والتخضوع وجملة من الأخلاق الحمودة ، وهذه الأخلاق تورث أنواعا من الطاعات رفيعة فاليقين في كل باب من هذه الأبواب مثل الشجرة فوهذه الأخلاق في القلب مثل الأغصان المتفرعة منها وهذه الأعمال والطاعات الصادرة من الأخلاق كالثمار والأغصان المتفرعة من الأغصان فاليقين هو الأصل والأساس وله مجار وأبواب أكثر مما عذناه ، وسيأتي ذلك في ربيع المنجيات إن شاء الله تعالى . وهذا القدر كاف في معنى اللفظ الآن . ومنها أن يكون حزينا منكسرا مطرقة صامتا يظهر أثر الحشية على هيئته وكسوته وسيرته وحركته وسكونه ونطقه وسكونه لا ينظر إليه ناظر إلا وكان نظره مذكرا لله تعالى وكانت صورته دليلا على عمله فالجواد عنه مرآته وعلياه الآخرة يعرفون بسهام في السكينة والذلة والتواضع ، وقد قيل ما لبس الله عبدا لبسة أحسن من خشوع في سكينة فهي لبسة الأنبياء وسيا الصالحين والصدقين والعلماء وأما التهايف في الكلام والتشدد والاستغراق في الفضائل والحدة في الحركة والنطق فكل ذلك من آثار البطر والأمن والغفلة عن عظيم عقاب الله تعالى وشديد عظمه وهو دأب أبناء الدنيا النافلين عن الله دون العلماء به ، وهذا لأن العلماء ثلاثة كما قال سهل القسري رحمه الله : عالم بأمر الله تعالى لأبيام الله وهم المفلتون والحلال والحرام وهذا العلم لا يورث الحشية ، وعالم بالله تعالى لأبامر الله ولا بأيام الله وهم عموم المؤمنين ، وعالم بالله تعالى وبأمر الله تعالى وبأيام الله تعالى وهم الصديقون ، والحشية والخشوع إنما تغلب عليهم ، وأراد بأيام الله أنواع عقوباته العائمة ونصبة الباطنة التي أقامها على الترون السالفة واللاحقة فن أحاط عليه بذلك عظم خوفه وظهر خشوعه . وقال عمر رضي الله عنه : تعلموا العلم وتعلموا العلم السكينة والوقار والحلم وتواضعوا لمن تعلمون منه ولتواضع لكم من يتعلم منكم ولا تمكروا من مجابرة العلماء فلا يقوم علمكم بهلكم . ويقال ما آتى الله حبلا علما إلا آتاه معه حلما وتواضعوا وحسن خلق ورفقا فذلك هو العلم النافع . وفي الآخر : من آتاه الله علما وزهدا وتواضعوا وحسن خلق فهو إمام المتقين . وفي الخبر : إن من خيار أمتي قوما يضحكون جهرا من سعة رحمة الله ويكون سرا من خوف عذابه ، أديانهم في الأرض وقلوبهم في السماء ، أرواحهم في الدنيا وعقولهم في الآخرة ، يتمشون بالسكينة ويتقربون بالوسمية (١) . وقال الحسن : الحلم وزير العلم والرفق أبوه والتواضع سرباله . وقال بشر بن الحارث من طلب

(١) حديث « إن من خيار أمتي قوما يضحكون جهرا من سعة رحمة الله ويكون سرا من خوف عذابه .. الحديث » أخرجه الحاكم والبيهقي في شعب الإيمان وضعفه من حديث حيان بن سليمان

الرياسة بالعلم فتقرب إلى الله تعالى يفضله فإنه يموت في السماء والأرض . ويرى في الإسرائيليات أن حكماً صنف ثلاثة وستين مصنفاً في الحكمة حتى وصف بالحكيم فأوحى الله تعالى إلى نبيهم . قل فلان قدمات الأرض نفاقاً ولم تردني من ذلك بشيء وإن لأقرب من نفاقك شيئاً . فقدم الرجل وترك ذلك وعاطل العامة في الأسواق وواكل بني إسرائيل وتواضع في نفسه فأوحى الله تعالى إلى نبيهم : قل له الآن وقت لرضاي . وحكى الأوزاعي رحمه الله عن بلال بن سعد : أنه كان يقول ينظر أحدهم إلى الشرطي فيستعبد بالله منه وينظر إلى علما الدنيا المتصنعين للخلق المتشوفين إلى الرياسة فلا يفتهم وهم أحق بالمقت من ذلك الشرطي . وروى أنه قيل : يا رسول الله أي الأعمال أفضل ؟ قال اجتناب المحارم ولا يزال فورك ربها من ذكرها تعالى ، قيل : فأى الأصحاب شر ؟ قال صلى الله عليه وسلم صاحب إن نسيت لم يذكرك وإن ذكرت لم ينعك ، قيل : فأى الناس أعلم ؟ قال : أشدهم خشية ، قيل : فأخير بائعاً ربنا لهم ، قال صلى الله عليه وسلم : الذين إذا رزوا ذكره ، قيل : فأى الناس شر ؟ قال : اللهم غفراً ، قالوا : أخبرنا يا رسول الله قال : العلماء إذا هودوا ^(١) ، وقال صلى الله عليه وسلم : إن أكثر الناس أماناً يوم القيامة أكثرهم فكرياً الدنيا وأكثر الناس ضحكاً في الآخرة أكثرهم بكاء في الدنيا وأشد الناس فرحاً في الآخرة أطولهم حزناً في الدنيا ^(٢) ، وقال هل رضى الله عنه في خطبة له : ذمى ربيعة وأباه زعيم إنه لا يبيع على التقوى زرع ثوم ولا يظلم على الهدى سنخ أصل ، وإن أجهل الناس من لا يعرف قدره ، وإن أفض الخلق إلى الله تعالى رجل قش علماً أغار به في أغباش الفتنة سماه أشباه لعن الناس وأرذاهم حالاً ولم يمش في العلم يوماً سالماً ، تكبر واستكبر فافل منه وكفى خيراً ما كثر وألمى حتى إذا أرتوى من ماء آجمن وأكثر من غير طائل جلس للناس معلماً لتخليص ما التبس على غيره ، فلن زلت به إحدى المهمات هيأها من رأيه حشو الرأي فهو ومن قطع الشبهات في مثل نسج التنكبوت لا يدري أخطأ أم أصاب ؟ ركاب جهالات خبطا عشوات لا يمتدح بها لا يعلم فيسلم ولا يهضم على العلم بضرر فاطع فيفهم ، تبيك منه العمامة وتستحل بقضائه القروج الحرام لا مله والله بإصدار ما ورد عليه ولا هو أهل لما فوض إليه أولئك الذين حلت عليهم المثالات وحقت عليهم النياحة والبكاء أيام حياة الدنيا . وقال هل رضى الله عنه : إذا سمعت العلم فاكظموا عليه ولا تخططوه بهزل فتجبه القلوب . وقال بعض السلف : العالم إذا ضحك ضحككم حج من العلم حجة . وقيل : إذا جمع المعلم ثلاثاً تمت النعمة بها على المتعلم : الصبر والتواضع وحسن الخلق . وإذا جمع المتعلم ثلاثاً تمت النعمة بها على المعلم : العقل والادب وحسن الفهم . وعلى الجملة فالأخلاق التي ورد بها القرآن لا ينفك عنها علماء الآخرة لأنهم يتشملون القرآن للعمل لا للرياسة . وقال ابن عمر رضى الله عنهما : لقد عشنا برهة من الدهر وإن أحدنا يؤق الإيـمان قبل القرآن وتنزل السورة فيتعلم حلالها وحرامها وأوامرها وزواجرها وما يفيى أن يقف عنده منها ، ولقد رأيت رجلاً يؤق أحدهم القرآن قبل الإيـمان فيقرأ ما بين فاتحة الكتاب إلى خاتمته لا يدري ما أمره وما زاجره وما يفيى أن يقف عنده ينثره العقل ^(٣) . وفي خبر آخر بمثل معناه : كنا أصحاب رسول الله صلى الله

(١) حديث « ليل يا رسول الله أى الأعمال أفضل » قال : اجتناب المحارم ولا يزال فورك ربها من ذكرها تعالى . الحديث « لم أجده هكذا بطوله ، وفي زيادات الزهد لأن الماركة من حديث الحسن مرسلاً . سئل النبي صلى الله عليه وسلم أى الأعمال أفضل . قال : أن تموت يوم تموت ولسانك رطب من ذكر الله تعالى » ولقد روى من رواية الأحموس بن حكيم عن أبيه مرسلاً « لا أن بشر الصبر شرار العلماء ولن خير الخيرة خيار العلماء » وقد تقدم . (٢) حديث « لن أكثر الناس أماناً يوم القيامة أكثرهم خوفاً في الدنيا .. الحديث » لم أجده أصلاً . (٣) حديث ابن عمر « لقد عشنا برهة من الدهر وإن أحدنا يؤق الإيـمان قبل القرآن الحديث » أخرجه الحاكم وصححه على شرط الشيخين والبيهقي

عليه وسلم أوتينا الإيمان قبل القرآن وستأتي بعدكم قوم يؤتون القرآن قبل الإيمان قيمون حروفه ويضعون حدوده وحقوقه يقولون قرأنا فنأقرأ منا وعلنا فنأعلم منا ؟ فذلك حظهم ^(١) . وفي لفظ أوتك شرار هذا الأمة . وقيل خمس من الأخلاق هي من علامات علماء الآخرة مفهومة من خمس آيات من كتاب الله عز وجل : الخفية والخشوع والتواضع وحسن الخلق وإثبات الآخرة على الدنيا وهو الزهد ، فأما الخفية فنقول تعالى ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ وأما الخشوع فنقول تعالى ﴿ حَاشِمِينَ لَهُ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا ذَلِيلًا ﴾ وأما التواضع فنقول تعالى ﴿ وَاخْفَضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ وأما حسن الخلق فنقول تعالى ﴿ فِيهَا رَحْمَةٌ مِنَ اللَّهِ لَنْتَ لِمَنْ ﴾ وأما الزهد فنقول تعالى ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ﴾ ولما تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله تعالى ﴿ فَمَنْ يَرِدَ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَمْشِمْ حُدُودَهُ لِلْإِسْلَامِ ﴾ قيل له ما هذا الشرح ؟ فقال : إن التور إذا قذف في القلب انشرح له الصدر وانفسح ، قيل : فهل لذلك من علامة ؟ قال صلى الله عليه وسلم : نعم ، التبعاني عن دار الفرور والإنيابة إلى دار الخلود ، والاستعداد للوثة قبل زواله ^(٢) . ومنها أن يكون أكثر جمعة عن علم الأعمال وعما يفسدها ويشوش القلوب ويهيج الوسواس ويثير الشر فإن أصل الدين التورق من الشر ولذلك قيل :

عرفت الشر لا للشر لكن لتورقه
ومن لا يعرف الشر من الناس يقع فيه

ولأن الأعمال الدملية قريبة وأقصاها بل أعلاها المواظبة على ذكر الله تعالى بالقلب واللسان وإنما الشأن في معرفة ما يفسدها ويشوشها وهذا مما تكثر شبهه وطول تفريره ، وكل ذلك مما يغلب ميسس الحاجة إليه وقسم به البلوى في سلوك طريق الآخرة ، وأما علماء الدنيا فإنهم يقيمون غرائب التفرجات في الحكومات والأفضية ويتمون في وضع صور تنقضي الدهور ولا تمتع أبدا ، وإن وقمت فإنما تنفع لتفريهم لالم ، وإذا وقمت كان في الفاتين بها كثة ، ويتركون ما يلزمهم ويتكرروا عليهم آباء الليل وأطراف النهار في خواطرهم ووسوسهم وأعمالهم ، وما أبعد عن السعادة من باع مهم نفسه للآزم بهم غير النادر لإثارة التقرب والفرار من الخلق على التقرب من الله سبحانه . وشرها في أن يسميه البطالون من أبناء الدنيا فاضلا محققا عالما بالدقائق وجواهره من الله أن لا ينتفع في الدنيا بقول الخلق بل يتكبر عليه صفوه بنوائب الزمان ثم يرد القيامة مفلسا متحصرا على ما يشاهده من ربح الماملين وفوز القريين وذلك هو الحشران المبين ، ولقد كان الحسن البصري رحمه الله أشبه الناس كلاما بكلام الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وأقربهم هديا من الصحابة رضى الله عنهم انفتحت الكلمة في حقه على ذلك وكان أكثر كلامه في خواطر القلوب وفساد الأعمال ووساس النفوس والصفات الخفية النامضة من شهوات النفس ؟ وقد قيل له : يا أبا سعيد إنك تتكلم بكلام لا يسمع من غيرك فنأين أخذته ؟ قال : من حذيفة بن اليمان . وقيل لحذيفة : ترك تتكلم بكلام لا يسمع من غيرك من الصحابة فنأين أخذته ؟ قال : خصني به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كان الناس يسألونه عن الخير وكنت أسأله عن الشر مخافة أن أقع فيه وعلمت أن الخير لا يسبقني علمه ^(٣) وقال مرة : فلعلمت أن من

(١) حديث « كسنا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أوتينا الإيمان قبل القرآن .. الحديث » أخرجه ابن منجه من حديث جندب مختصرا مع الاختلاف (٢) حديث « لما تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم (فَمَنْ يَرِدَ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَمْشِمْ حُدُودَهُ لِلْإِسْلَامِ) .. الحديث » أخرجه الحاكم والبيهقي في الزهد من حديث ابن مسعود

(٣) حديث حذيفة « كان الناس يسألون رسول الله صلى الله عليه وسلم عن آله وسلم عن الخير وكنت أسأله عن الشر .. الحديث » أخرجه مختصرا .

لا يعرف الشر لا يعرف الخير . وفي لفظ آخر : كانوا يقولون يا رسول الله ما لمن عمل كذا وكذا ؟ يسألونه عن فضائل الأعمال وكنيت أقول يا رسول الله ما يفسد كذا وكذا ؟ فلما رأى أسأله عن آفات الأعمال خصني بهذا العلم . وكان حذيفة رضى الله عنه أيضا قد خص بعلم المنافقين وأفرد بمعرفة علم النفاق وأسبابه ودقائق الفتن ، فكان عمر وعثمان وأكابر الصحابة رضى الله عنهم يسألونه عن الفتن العامة والخاصة ، وكان يسأل عن المنافقين فيخبر بعدد من بقي منهم ولا يغير بأسائهم ، وكان عمر رضى الله عنه يسأل عن نفسه هل يعلم فيه شيئا من النفاق ؟ فبرأه من ذلك ، وكان عمر رضى الله عنه إذا دعى إلى جنازة ليصل عليها نظر فإن حضر حذيفة صلى عليها وإلا ترك ، وكان يسمى صاحب السر . فالعناية بمقامات القلب وأحواله دأب علماء الآخرة لأن القلب هو الساس إلى قرب الله تعالى وقد صار هذا الفن غريبا مندوسا وإذا تعرض العالم لشيء منه استغرب واستبعد وقيل لهذا نزويق المذكرين فأين التحقيق ؟ ويرون أن التحقيق في دقائق المجادلات ولقد صدق من قال :

الطرق شتى وطرق الحق مفردة والسالكون طريق الحق أفراد

لا يعرفون ولا تدري مقاصدهم فهم على مهل يمشون قصاد

والناس في غفلة عما يراد بهم لجلهم عن سبيل الحق رقاد

وعلى الجملة فلا يميل أكابر الخلق إلا إلى الأسهل والأوفق لطباعهم فإن الحق مر والوقوف عليه صعب وإدراكه شديد وطريقه مستور ولا سيما معرفة صفات القلب وتطهيره عن الأخلاق المذمومة فإن ذلك نزاع للروح على النوام ، وصاحبه ينزل منزلة الشارب للدواء يصير على مرارته رجاء الشفاء وينزل منزلة من جعل مدة العمر صومه فهو يقاسى الشدائد ليكون ظفره عند الموت ، ومتى تكثر الرغبة في هذا الطريق ؟ ولذلك قيل : إنه كان في البصرة مائة وعشرين متكلما في الوضوء والتذكير ولم يكن من يتكلم في علم اليقين وأحوال القلوب وصفات الباطن إلا ثلاثة منهم - سهل التستري والصيحي وعبد الرحيم - وكان يجلس إلى أولئك الخلق الكثير الذى لا يحصى وإلى هؤلاء عدد يسير قلما يجاوز العشرة ، لأن التنيس العزير لا يصلح إلا لأهل الخصوص وما يبدل للعموم فأمره قريب . ومنها أن يكون اعتناؤه في علومه على بصيرته وإدراكه بصفاة قلبه لا على الصغف والكتب ولا على تقليد ما يسمعه من غيره وإنما المقلد صاحب الشرع صلوات الله عليه وسلامه فيما أمر به وقاله وإنما يقلد الصحابة رضى الله عنهم من حيث إن فعلهم يدل على سماعهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم . ثم إذا قلد صاحب الشرع صلى الله عليه وسلم في تلقى أقواله وأفعاله بالتبلى فينبى أن يكون حريصا على فهم أسراره فإن المقلد إنما يفعل الفعل لأن صاحب الشرع صلى الله عليه وسلم فعله ، وقوله لا بد وأن يكون لسر فيه فينبى أن يكون شديد البحث عن أسرار الأعمال والأقوال فإنه إن اكتفى بحفظ ما يقال كان وهما العلم ولا يكون عالما . ولذلك كان يقال : فلان من أوعية العلم ؛ فلا يسمى عالما إذا كان شأنه الحفظ من غير اطلاع على الحكيم والأسرار . ومن كشف عن قلبه النطام واستقر بنور الهداية صار في نفسه متبوعا مقلدا فلا ينبى أن يقلد غيره . ولذلك قال ابن عباس رضى الله عنهما : ما من أحد إلا يؤخذ من علمه ويترك إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(١) وقد كان تعلم من زيد بن ثابت الفقه وقرأ على أبي بن كعب ثم عاقلهما في الفقه

(١) حديث ابن عباس « ما من أحد إلا يؤخذ من علمه ويترك إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم » أخرجه البخاري من حديثه برهه بلفظة « من قوله وبع »

والقراءة جميعاً . وقال بعض السلف : ما جاءنا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قبناه على الرأس والعين وما جاءنا عن الصحابة رضى الله عنهم فأنخذ منه وترك ما جاءنا عن التابعين فهم رجال ونحن رجال : وإنما فضل الصحابة لمشاهدتهم قرائن أحوال رسول الله صلى الله عليه وسلم واعتلاق قلوبهم أموراً أدركت بالقرآن فسدد ذلك إلى الصواب من حيث لا يدخل في الرواية والعبارة إذ فاض عليهم من نور الثقة ما يحرسهم في الأكثر عن الخطأ . وإذا كان الاعتماد على المسموع من الغير تقليداً غير مرضى فالاعتماد على الكتب والتصانيف أبعد . بل الكتب والتصانيف محدثة لم يكن شيء منها في زمن الصحابة وصدر التابعين وإنما حدثت بعد سنة مائة وعشرين من الهجرة وبعد وفاة جميع الصحابة وجملة التابعين رضى الله عنهم وبعد وفاة سعيد بن المسيب والحسن وخيار التابعين ؛ بل كان الأولون يكرهون كتب الأحاديث وتصنيف الكتب ثلاثاً يشغل الناس بها عن الحفظ وعن القرآن وعن التدبر والتذكر وقالوا : احفظوا كما كنا نحفظ . ولذلك كره أبو بكر وجماعة من الصحابة رضى الله عنهم تصنيف القرآن في مصحف وقالوا : كيف نفعل شيئاً ما فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ وخافوا إن كان الناس على المصاحف وقالوا : نترك القرآن يتلفاه بعضهم من بعض بالتلقين والإفراء ليكون هذا شغلهم ومهمهم ، حتى أشار عمر رضى الله عنه وبقية الصحابة بكتب القرآن خوفاً من تغافل الناس وتكاسلهم وحذراً من أن يقع نزاع فلا يوجد أصل يرجع إليه في كلمة أو قراءة من التشابهات فالشرح صدر أبي بكر رضى الله عنه لذلك لجمع القرآن في مصحف واحد . وكان أحمد بن حنبل ينكر على مالك في تصنيفه للموطأ ويقول : ابتدع ما لم تفعله الصحابة رضى الله عنهم وقيل : أول كتاب صنف في الإسلام كتاب ابن جريج في الآثار وحروف التفسير عن مجاهد وعطاء وأصحاب ابن عباس رضى الله عنهم بمكة . ثم كتاب معمر بن راشد الصنعاني باليمن جمع فيه سناً مأثورة نبرية ، ثم كتاب الموطأ بالمدينة لمالك بن أنس ، ثم جامع سفيان الثوري . ثم في القرن الرابع حدثت مصنفات الكلام وكثر الحرف في الجندال والنوص في إبطال المقالات ، ثم مال الناس إليه وإلى القصص والوعظ بها فأخذ علم اليقين في الاندراس من ذلك الزمان فصار بعد ذلك يستغرب علم القلوب والتفتيش عن صفات النفس ومكاييد الشيطان وأعرض عن ذلك إلا الأفلون ، فصار يسمى الجندال المتكلم عالماً والقاص المزخرف كلامه بالمبارات المسجعة عالماً ، وهذا لأن العوام هم المستمعون إليهم فكان لا يتميز لهم حقيقة العلم من غيره ، ولم تكن سيرة الصحابة رضى الله عنهم وعلومهم ظاهرة عندهم حتى كانوا يعرفون بها مباينة هؤلاء لم فاستمر عليهم اسم العلماء وتوارث القب خلف عن سلف وأصبح علم الآخرة معطوياً ، وغاب عنهم الفرق بين العلم والكلام إلا أن الخواص منهم كانوا إذا قيل لهم ؟ فلان أعلم أم فلان ؟ يقولون : فلان أكثر علماً وفلان أكثر كلاماً . فكان الخواص يدركون الفرق بين العلم وبين القدرة على الكلام . وهكذا ضعف الدين في قرون سالفة فكيف الظن بزمانك هذا ؟ وقد انتهى الأمر إلى أن مظهر الإنكار يستهدف لنفسه إلى الجنون فالأول أن يشتغل الإنسان بنفسه ويسكت . ومنها أن يكون شديد التوق من معدادات الأمور وإن اتفق عليها الجمهور فلا يفرق إطلاق الخلق على ما أحدث بعد الصحابة رضى الله عنهم وليكن حرصاً على التفتيش عن أحوال الصحابة وسيرتهم وأعمالهم وما كان فيه أكثر مهمهم أكان في التدريس والتصنيف والمناظرة والقضاء والولاية وتولى الأوقاف والوصايا وأكل مال الأيتام ومخالطة السلاطين ومجاملتهم في العشرة ؟ أم كان في الحرف والخرن والتفكير المجاهدة ومراقبة الظاهر والباطن واجتناب دقيق الإثم وجلبه والحرص على إدراك خفايا شهوات النفوس ومكاييد الشيطان إلى غير ذلك

من علوم الباطن ؟ واعلم تحقيقاً أن أعلم أهل الزمان وأقربهم إلى الحق أشبههم بالصحاب وأعرفهم بطريق السلف
فهم أخذ الدين . ولذلك قال على رضى الله عنه خيرنا تبعنا لهذا الدين ، لما قيل له : عاقت فلانا . فلا يفتنى
أن يكثر بمخالفة أهل العصر في موافقة أهل عصر رسول الله صلى الله عليه وسلم فإن الناس رأوا رأياً فيما هم فيه
ليل طابعهم إليه ولم تسمح نفوسهم بالاعتراف بأن ذلك سبب الحرمان من الجنة فادعوا أنه لا سبيل إلى الجنة
سواه . ولذلك قال الحسن : عدنان أحداثاً في الإسلام : رجل ذو رأى سيئ زعم أن الجنة لمن رأى مثل رأيه ،
ومترف يمدد الدنيا لها يفتضب ولها يرضى ولها يطلب فارفضوها إلى النار . وإن رجلاً أصبح في هذه الدنيا
بين مترف يدعو إلى دنياه وصاحب هوى يدعو إلى هواه وقد عصمه الله تعالى منها يحسن إلى السلف
الصالح يسأل عن أفعالهم ويتقن آثارهم متموض لأجر عظيم فكذلك كونوا . وقد روى عن ابن مسعود
موقفاً ومسنداً أنه قال : إنما هما اثنان الكلام والهدى ، فأحسن الكلام كلام الله تعالى ، وأحسن
الهدى هدى رسول الله تعالى صلى الله عليه وآله وسلم ، ألا وإياكم وعدمات الأمور ، فإن شر الأمور محدثاتها ،
وإن كل محدثة بدعة ، وإن كل بدعة ضلالة ، ألا لا يطولن عليكم الأمد فتفسدوا قلوبكم ، ألا كل ما هو آت قريب ،
ألا إن البعيد ما ليس بآت^(١) ، وفي خطبة رسول الله صلى الله عليه وسلم « طوبى لمن شغلته عييه عن عيوب
الناس وأنفق من ماله اكتسبه من غير ممضية وعاطل أهل الفقه والحكم وجانب أهل الزلل والممضية ، طوبى
لمن ذل في نفسه وحسنت خليفته وصلحت سريره وعزل عن الناس شره ، طوبى لمن عمل بعله وأنفق الفضل من
ماله وأمسك الفضل من قوله ووسسته السنة ولم يمدحها إلى بدعة^(٢) ، وكان ابن مسعود رضى الله عنه يقول :
حسن الهدى في آخر الزمان خير من كثير من العمل ، وقال : أنتم في زمان خيركم فيه المسارع في الأمور
وسياق بعدكم زمان يكون خيرهم فيه المثبت المتوقف لكثرة الشبهات . وقد صدق لمن يترقب في هذا الزمان
ورواق الجاهل فيما هم عليه وعاض فيما عاضوا فيه هلك كما هلكوا . وقال حذيفة رضى الله عنه : أعجب من هذا
أن معروفكم اليوم منكر زمان قد مضى وأن منكركم اليوم معروف زمان قد أتى وإنكم لا تزالون بغير ما عرفتم
الحق وكان العالم فيكم غير مستنص به . ولقد صدق فإن أكثر معروفات هذه الأعصار منكرات في عصر الصحابة
ورضى الله عنهم إذ من غرر المعروفات في زماننا تزين المساجد وتبجدها وإنفاق الأموال العظيمة في دقائق عماراتها
وفرش البسط الرفيعة فيها ، ولقد كان يمد فرش البوارى في المسجد بدعة ، وقيل إنه من محدثات الحجاج . فقد كان
الأقوالون فلما يعملون بينهم وبين التراب حاجراً . وكذلك الاشتغال بتقاقب الجدل والمناظرة من أجل علوم أهل
الزمان وبرعون أنه من أعظم القربات ، وقد كان من المنكرات . ومن ذلك التلجج في القرآن والأذان . ومن
ذلك التعسف في النظافة والوسوسة في الطهارة وتقدير الأسباب البعيدة في نجاسة الثياب مع التساهل في حل
الألحمة وتجرئها إلى نظائر ذلك . ولقد صدق ابن مسعود رضى الله عنه حيث قال : أنتم اليوم في زمان الطوى فيه
تابع للعلم وسياق عليكم زمان يكون العلم فيه تابعا للهوى . وقد كان أحمد بن حنبل يقول : تركوا العلم وأقبلوا على
التراب ما أقل العلم فيهم والله المستعان . وقال مالك بن أنس رحمه الله : لم تكن الناس فيما مضى يسألون عن هذه
الأمر كما يسأل الناس اليوم ولم يكن العلماء يقولون حرام ولا حلال ولكن أدركتهم يقولون مستحب ومكروه

(١) حديث ابن مسعود « إنما هما اثنان الكلام والهدى » الحديث « أخرجه ابن ماجه

(٢) حديث « طوبى لمن شغلته عييه عن عيوب الناس وأنفق ماله اكتسبه » الحديث « أخرجه أبو يعقوب من حديث الحسين بن
على بن سند ضعيف والبراء من حديث أبي أول الحديث وأكثره والطبراني والبيهقي من حديث زك بن الحصري وسطا حديث وكلها ضعيفه

(وعدنا أنهم كانوا ينظرون في دقائق الكراهة والاستحباب فأما الحرام فكان يحسه طاهرا) وكان هشام بن عروة يقول : لا تسألوم اليوم عما أحدثوه بأنفسهم فإنهم قد أعدوا له جوابا ولكن سلوهم عن السنة فإنهم لا يعرفونها . وكان أبو سليمان الداراني رحمه الله يقول : لا ينبغي لمن أهتم شيئا من الخير أن يعمل به حتى يسمع به في الأثر فيحمد الله تعالى إذا وافق ما في نفسه ، وإنما قال هذا لأن ما قد أبدع من الآراء قد قرع الأسماع وعلق القلوب وربما يشوش صفاء القلب فيفتعل به الباطل حقا فيحتاط فيه بالاستظهار بيهادة الآثار . ولهذا لما أحدث مروان المنبر في صلاة العيد عند المصل قام إليه أبو سعيد الخدري رضي الله عنه فقال : يا مروان ما هذه البدعة ؟ فقال : إنها ليست ببدعة إنما خير ما تعلم إن الناس قد كثروا فأردت أن يلهتهم الصوت ، فقال أبو سعيد : والله لا تأتون بخير مما أعلم أبدا والله لأصليت وراءك اليوم وإنما أنكر ذلك عليه ، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يتوكل في خطبة العيد والاستسقاء على قوس أو عصا لا على المنبر ^(١) ، وفي الحديث المشهور ، من أحدث في ديننا ما ليس منه فهو رد ^(٢) ، وفي خبر آخر ، من غش أمي فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، قيل : يا رسول الله وما غش أمي ؟ قال : أن يتدع بدعة يعمل الناس عليها ^(٣) ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن الله عز وجل ملكا ينادي كل يوم من خلف سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم لم تله شفاعة ^(٤) ، ومثال الجاني على الدين يبدع ما يخالف السنة بالنسبة إلى من يذنب ذنبا مثال من عصى الملك في قلب دولته بالنسبة إلى من خالف أمره في خدمة معينة ، وذلك قد ينفرد له فأما في قلب الدولة فلا . وقال بعض العلماء : ما تكلم فيه السلف فاسكوت عنه جفاء وما سكنت عنه السلف فالكلام فيه تكلف . وقال غيره : الحق قليل من جازوه ظم ومن قصر عنه هجر ومن وقف معه اكتفى . وقال صلى الله عليه وسلم : عليكم باللفظ الأوسط الذي يرجع إليه العالم ويرفع إليه التال ^(٥) ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : الصلاة لها حلاوة في قلوب أهلها قال الله تعالى ﴿ وذر الذين اتخذوا دينهم لعبا ولهوا ﴾ وقال تعالى ﴿ أفن زين له سوء عمله فرآه حسنا ﴾ فكل ما أحدث بعد الصحابة رضي الله عنهم ما جاز قدر الضرورة والحاجة فهو من اللعب والهوى . وحكى عن إبليس لعنه الله أنه بث جنوده في وقت الصحابة رضي الله عنهم فرجعوا إليه محسورين فقال : ما شأكم ؟ قالوا : مارأينا مثل هؤلاء ما نصيب منهم شيئا وقد أقمونا ؟ فقال : إنكم لا تقدرون عليهم قد حصروا نبيهم وشهدوا تنزِيلَ ربهم ولكن سيأتي بدمهم قوم تالون منهم حاجتكم . فلما جاء التابعون بث جنوده فرجعوا إليه منكسرين فقالوا : مارأينا أجب من هؤلاء نصيب منهم الشيء بعد الشيء من الذنوب فلذا كان آخر النصار أخذوا في الاستغفار فيبدل الله سيئاتهم حسنا ؟ فقال : إنكم لن تالوا من هؤلاء شيئا لصحة ترحيدهم وإبائهم لسنة نبيهم ولكن سيأتي بعد هؤلاء قوم تتر أعينكم بهم تلعبون بهم لعبا وتقودونهم بأزمة أهوانهم كيف شئتم إن استغفروا لم ينفر لهم ولا يتوبون فيبدل الله سيئاتهم

(١) حديث « كان دوسكا في خلية العيد والاستسقاء على قوس أو عصا » أخرجه الطبراني من حديث البراء بن عوازم في يوم الأضى ليس فيه الاستسقاء وهو ضيف ، ورواه في الصغير من حديث سعد التمرلي « كان إذا خطب في العيد خطب على قوس وإذا خطب في الجمعة خطب على عصا » وهو عند ابن ماجه باللفظ « كان إذا خطب في الحرب خطب على قوس .. الحديث » .
(٢) حديث « من أحدث في ديننا ما ليس فيه فهو رد » متفق عليه من حديث عائشة باللفظ « في أمرنا يا أيها الله » وعند أبي داود « فيه » .
(٣) حديث « من غش أمي فعليه لعنة الله » أخرجه الدارطني في الأسماء من حديث أبي سعيد خفيف جدا .
(٤) حديث « أن قد ملكا ينادي كل يوم من خلف سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم لم تله شفاعة » لم أجد له أصلا .
(٥) حديث « عليكم باللفظ الأوسط .. الحديث » أخرجه أبو حنيفة في غريب الحديث موقوفا على علي بن أبي طالب ولم أجده مرفوعا .

حسنت ، قال : لجاء قوم بعد القرن الأول فبث فيهم الأهواء وزين لهم البهع فاستحلوها واتخذوها ديناً لا يستغفرون الله منها ولا يتوبون عنها فسلط عليهم الأعداء وقادوم أين شاءوا ، فإن قلت : من أين عرف قائل هذا ما قاله إبليس ولم يشاهد إبليس ولا حديثه بذلك ؟ فأقول : أن أرباب القلوب يكاشفون بأسرار الملكوت تارة على سبيل الإلهام بأن يحضر لهم على سبيل ورود عليهم من حيث لا يعلمون وتارة على سبيل الرؤيا الصادقة وتارة في اليقظة على سبيل كشف الحجاب بمشاهدة الأمثلة - كما يكون في المنام - وهذا أعلى الدرجات وهي من درجات النبوة العالية كما أن الرؤيا الصادقة جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة . فليأكل أن يكون حظك من هذا العلم إنكار ما جاوز حد قصورك فيه هلك المتدخلون من العلماء الزاهمون أنهم أساطروا بعلوم العقول ، فالجهل خير من عقل يدعو إلى إنكار مثل هذه الأمور لأولياء الله تعالى ، ومن أنكر ذلك للأولياء لزمه إنكار الأنبياء وكان خارجاً عن الدين بالكلية . قال بعض العارفين : إنما انقطع الأبدال في أطراف الأرض واستتروا عن أعين الجمهور لأنهم لا يطيقون النظر إلى علماء الوقت لأنهم حديم جهال بالله تعالى وهم ضد أنفسهم وحسد الجاهلين دسائس . قال سهل التستري رضى الله عنه : إن من أضلهم المعاصي الجهل بالجهل والنظر إلى العامة واستباح كلام أهل الغفلة . وكل عالم غاض في الدنيا فلا يلقي أن يصغى إلى قوله بل يلقي أن يتم في كل ما يقول لأن كل إنسان يحوس فيها أحب ويدفع مالا يوافق محبته ، ولذلك قال الله عز وجل ﴿ ولا تلعب من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطاً ﴾ والموام المعصاة أسعد حالاً من الجهال بطريق الدين المعتقدين أنهم من العلماء ؛ لأن العاصي المعاصي معترف بتقصيره فيستغفر ويتوب وهذا الجاهل الظان أنه عالم وإن ما هو مشتغل به من العلوم التي هي وسائله إلى الدنيا عن سلوك طريق الدين فلا يتوب ولا يستغفر ؛ بل لا يزال مستمراً عليه إلى الموت . وإذا غلب هذا على أكثر الناس إلا من عصمه الله تعالى وانقطع الطمع من إصلاحهم فالأسلم لدى الذين انحطت الميزة والانفراد عنهم - كما سيأتي في كتاب الميزة - يأنه إن شاء الله تعالى - ولذلك كتب يوسف بن أسباط إلى حذيفة المرعشي : ما ظنك بمن يقى لا يجد أحداً يذكر الله تعالى معه إلا كان آتماً أو كانت مذاكرته معصية وذلك أنه لا يجد أهله ؟ ولقد صدق فإن مخالطة الناس لا تفلك عن غيبة أو سماع غيبة أو سكوت على منكروه وأن أحسن أحواله أن يفيد علماً أو يستفيد ولو تأمل هذا المسكين وعلم أن إغاثته لا تخلو عن شوائب الرياء وطلب الجمع والرياسة علم أن المستفيد إنما يريد أن يجعل ذلك آلة إلى طلب الدنيا ووسيلة إلى الشر فيكون هو معينا له على ذلك وردها وظهوراً وميضاً لأسبابه كالذي يبيع السيف من قطاع الطريق . فالعلم بالسيف وصلاحه للخير كصلاح السيف للشر ، ولذلك لا يرضى له في البيع من يعلم بقرآن أحواله أنه يريد به الاستمالة على قطع الطريق . فهذه الفتاخرة علامة من علامات علماء الآخرة تجمع كل واحدة منها جملة من أخلاق علماء السلف ؛ فكل أحد رجلين إما متصفا بهذه الصفات أو متصرفاً بالتقصير مع الإقرار به وإياك أن تكون الثالث فتأهب على نفسك بأن تبدل آلة الدنيا بالدين وتنبه سيرة البطالين بسيرة العلماء الراغبين وتلتحق بجهلك وإنكارك بزمرة المالكن الآيسين . نمود بالله من خلع الشيطان ، فبها هلك الجمهور . فليأكل الله تعالى أن يجعلنا من لا نقره الحياة الدنيا ولا يفره باله النور .

الباب السابع

في العقل وشرفه وحقيقته وأقسامه — بيان شرف العقل

اعلم أن هذا مما لا يحتاج إلى تكلف في إظهاره لا سيما وقد ظهر شرف العلم من قبل العقل والعقل منبع العلم ومطلعه وأساسه والعلم يجري منه مجرى النخلة من الشجرة والنور من الشمس والرؤية من العين فكيف لا يشرف ما هو وسيلة السعادة في الدنيا والآخرة ؟ وكيف يستقراب فيه والبهيمة مع تصور تمييزها تحتمل العقل حتى إن أعظم البهائم بدنا وأشدّها خراوة وأقواها سطوة إذا رأى صورة الإنسان احتشمه وهابه لشعوره باستيلائه عليه لما خص به من إدراك الحيل . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : الشيخ في قومه كالنبي في أمته ^(١) ، وليس ذلك لكثرة ماله ولا لكبر شخصه ولا لزيادة قوته بل لزيادة تجربته التي هي ثمرة عقله . ولذلك ترى الأتراك والأكراد وأجلاف العرب وسائر الخلق مع قرب منزلتهم من رتبة البهائم يوقرون المشايخ بالطبع . ولذلك حين قصد كبير من المعاندين قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما وقعت أعينهم عليه واكتسبوا بفزته الكرامة هابوه وتزأى لهم ما كان يتلأأ على ديباجة وجهه من نور النبوة وإن كان ذلك باطنا في نفسه بطون العقل فحشر العقل ما يترك بالضرورة ؛ وإنما القصد أن نورد ما وردت به الأخبار والآيات في ذكر شرفه وقد سماه الله نورا في قوله تعالى (الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة) وسمى العلم المستفاد منه روحا ووحيا وحياة فقال تعالى (وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا) وقال سبحانه (أو من كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا فبشى به في الناس) وحيث ذكر التور والطفلة أراد به العلم والجهل كقوله (يخرجهم من الظلمات إلى النور) وقال صلى الله عليه وسلم : يأبى الناس عقلوا عن ربكم وتواصوا بالعقل تعرفوا ما أمرتم به وما نهيتم عنه واعلموا أنه ينجدكم عند ربكم وأعلموا أن الصالح من أطاع الله وإن كان دميم المنظر حقير الخطر ذوق المذلة رث الهيئة ، وأن الجاهل من عصى الله تعالى وإن كان جميل المنظر عظيم الخطر شريف المذلة حسن الهيئة فصيحا نطوقا فالفرقة والختازير أعقل عند الله تعالى من عصاه ، ولا تغتر بتعظيم أهل الدنيا إياهم فإنهم من الخاسرين ^(٢) . وقال صلى الله عليه وسلم : أول ما خلق الله العقل ، فقال له : أقبل فأقبل ، ثم قال له : أدبر فأدبر ، ثم قال الله عز وجل وعزى وجلالي ما خلقت خلقا أكرم على منك ، بك آخذ وبك أعطى وبك أليب وبك أعاقب ^(٣) . « فإن قلت : فهذا العقل إن كان عرضا فكيف خلق قبل الأجسام ؟ وإن كان جوهرًا فكيف يكون جوهر قائم بنفسه ولا يتجبر ؟ فأعلم أن هذا من علم المكاشفة فلا يليق ذكره بعلم المعاملة ، وعرضنا الآن ذكر علوم المعاملة . وعن أنس رضي الله عنه قال : أتى قوم على رجل عند النبي صلى الله عليه وسلم حتى بالقوا فقال صلى الله عليه وسلم كيف عقل الرجل ؟ فقالوا : نخبرك عن اجتجاده في العبادة وأصناف الخير وتسلأنا عن عقله ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : « إن الأحمق يصيب بمجهله أكثر من لمور

الباب السابع في العقل

- (١) حديث « الشيخ في قومه كالنبي في أمته » أخرجه ابن حبان في الضعفاء من حديث ابن عمر وأبو منصور الديلمي من حديث أبي رافع بسند ضعيف .
 (٢) حديث « يأبى الناس عقلوا عن ربكم وتواصوا بالعقل .. الحديث » أخرجه داود بن الجبير أحد الضعفاء في كتابه العقل من حديث أبي هريرة وهو في مسند الحارث بن أبي أسامة عن داود (٣) حديث « أول ما خلق الله العقل قال له أقبل .. الحديث » أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث أبي أمامة وأبو نعيم من حديث عاتقة بن سنان بن ضبيلين .

الفاجر وإنما يرتفع العباد غدا في الدرجات الزلني من وجههم على قدر عقولهم^(١) . وعن عمر رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما اكتسب رجل مثل فضل عقل يهدي صاحبه إلى هدى ويرده عن ردى وما تم إيمان عبد ولا استقام دينه حتى يركل عقله^(٢) » . وقال صلى الله عليه وسلم : « إن الرجل ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم ولا يتم لرجل حسن خلقه حتى يتم عقله فعند ذلك تم إيمانه وأطاع ربه وعصى عدوه إبليس^(٣) » . وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لكل شيء دعامة ودعامة المؤمن عقله فيقدر عقله تكون عبادته أما سمعتم قول الفجار في النار (لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير^(٤)) وعن عمر رضي الله عنه أنه قال تيم الباري « ما السود فيكم ؟ قال : العقل ، قال : صدقت سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم كما سألتك فقال كما قلت ، ثم قال سألت جبريل عليه السلام ما السود ؟ فقال : العقل^(٥) » . وعن البراء بن عازب رضي الله عنه قال : كثرت المسائل يوما على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا أيها الناس إن لكل شيء عطية وعطية المرء العقل وأحسبكم دلالة ومعرفة بالحجة أفضلكم عقلا^(٦) » . وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : « لما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم من غزوة أحد سمع الناس يقولون : فلان أشجع من فلان وفلان أبي عالم بيل فلان ونحو هذا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أما هذا فلا علم له به ، قالوا : وكيف ذلك يا رسول الله ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : إنهم قالوا على قدر ما قسم الله لهم من العقل وكانت نصرتهم ونيتهم على قدر عقولهم فأصيب منهم من أصيب على منازل شتى فإذا كان يوم القيامة انقسموا المنازل على قدر نياتهم وقدر عقولهم^(٧) » . وعن البراء بن عازب أنه صلى الله عليه وسلم قال : « جد الملائكة واجتهدوا في طاعة الله سبحانه وتعالى بالعقل وجد المؤمنون من بني آدم على قدر عقولهم فأعلمهم بطاعة الله عز وجل أوفرهم عقلا^(٨) » . وعن عائشة رضي الله عنها قالت : « قلت يا رسول الله هم يتفاضل الناس في الدنيا ؟ قال : بالعقل ، قلت : وفي الآخرة ؟ قال : بالعقل ، قلت : أليس إنما يجزؤون بأعمالهم ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : يا عائشة وهل عملوا إلا بقدر ما أعطاهم عز وجل من العقل ؟ فيقدر ما أعطوا من العقل كانت أعمالهم فيقدر ما عملوا يمحرون^(٩) » . وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لكل شيء آلة وعدة وإن آلة المؤمن العقل ولكل شيء عطية وعطية المرء العقل ولكل شيء دعامة ودعامة الدين العقل ولكل قوم غاية وغاية العباد العقل ولكل قوم داع وداعى العابدین العقل ولكل تاجر بضاعة وبضاعة المجتهدین العقل ولكل أهل بيت قيم وقيم بيوت الصديقين العقل ولكل خراب

- (١) حديث أمي . أني قوم على رجل عند النبي صلى الله عليه وسلم حتى بانوا في الشتاء فقال كيف عقل الرجل . الحديث . أخرجه ابن الجبير في العقل يتأمله والفرع الذي الحكم في النوادر مختصراً . (٢) حديث عمر و ما اكتسب رجل مثل فضل عقل . الحديث . أخرجه ابن الجبير في العقل وعدة المأثر بن أبي أسامة . (٣) حديث « إن الرجل ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم ولا يتم لرجل حسن خلقه حتى يتم عقله .. الحديث » أخرجه ابن الجبير من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده به والحديث عند الترمذي مختصم دون قوله « ولا يتم » من حديث عائشة وصححه (٤) حديث أبي سعيد لكل شيء دعامة ودعامة المؤمن عقله .. الحديث . أخرجه ابن الجبير وعنه المأثر . (٥) حديث عمر أنه قال تيم الباري « ما السود فيكم ؟ قال : العقل قال صدقت سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا أيها الناس إن لكل شيء عطية .. الحديث » أخرجه ابن الجبير وعنه المأثر . (٦) حديث أبي هريرة « لما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم من غزوة أحد سمع الناس يقولون كان فلان أشجع من فلان وفلان أبي عالم بيل فلان ونحو هذا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أما هذا فلا علم له به ، قالوا : وكيف ذلك يا رسول الله ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : إنهم قالوا على قدر ما قسم الله لهم من العقل وكانت نصرتهم ونيتهم على قدر عقولهم فأصيب منهم من أصيب على منازل شتى فإذا كان يوم القيامة انقسموا المنازل على قدر نياتهم وقدر عقولهم^(٧) » . (٨) حديث البراء بن عازب « جد الملائكة واجتهدوا في طاعة الله بالعقل .. الحديث » . (٩) أخرجه ابن الجبير كذلك وعنه المأثر في مسند الباقية في مسند الباقية في مسند البراء وهو بالسنن الذي رواه ابن الجبير (٩) حديث عائشة « قالت يا رسول الله بأي شيء يتفاضل الناس في الدنيا قال يا أيها الناس .. الحديث » أخرجه ابن الجبير والترمذي الحكم في النوادر نحوه

عمارة وعمارة الآخرة العقل ، ولكل امرئ عيب ينسب إليه ويذكر به وعقب الصديقين الذي ينسبون إليه وبذكرون به العقل ولكل سفر فسطاط وفسطاط المؤمنين العقل ^(١) . وقال صلى الله عليه وسلم : إن أحب المؤمنين إلى الله عز وجل من نصب في طاعة الله عز وجل ونصح لعباده وكمل عقله ونصح نفسه فأبصر وعمل به أبلم حياته فأفطن وأنتج ^(٢) . وقال صلى الله عليه وسلم : أنتم عظام أشدكم لله تعالى خوفاً وأحسنكم فيما أمركم به ونهى عنه نظراً وإن كان أفلكم طولاً ^(٣) .

بيان حقيقة العقل وأقسامه

اعلم أن الناس اختلفوا في حد العقل وحقيقته وذهلوا أكثر عن كون هذا الاسم مطلقاً على معان مختلفة فصار ذلك سبب اختلافهم . والحق الكاشف للغطاء فيه أن العقل اسم يطلق بالاشتراك على أربعة معان - كما يطلق اسم العين مثلاً على معان عدة وما يجري هذا المجرى فلا ينبغي أن يطلب لجميع أقسامه حد واحد بل يفرّد كل قسم بالكشف عنه - فالأول : الوصف الذي يفارق الإنسان به سائر البهائم وهو الذي استعده لقبول العلوم النظرية وتدبير الصناعات الخفية الفكرية وهو الذي أراده الحارث بن أسد المحاسبي حيث قال في حد العقل : إنه غريزة بتعمياً بما أدرك العلوم النظرية وكأنه نور يقذف في القلب به يستمد لإدراك الأشياء ولم ينصف من أنكر هذا ورد العقل إلى مجرد العلوم الضرورية فإن الغافل عن العلوم والتأني يسميان عاقلين باعتبار وجود هذه الغريزة فيهما مع فقد العلوم . وكأن الحياة غريزة بها يتوهم الجسم للحركات الاختيارية والإدراكات الحسية فكذلك العقل غريزة بها تتبها بعض الحيوانات للعلوم النظرية ولو جاز أن يسمى بين الإنسان والحمار في الغريزة والإدراكات الحسية . فيقال لا فرق بينهما إلا أن الله تعالى يحكم لإجراء المادة يخلق في الإنسان علوماً وليس يخلقها في الحمار والبهائم لجاز أن يسوى بين الحمار والجماد في الحياة ، ويقال لا فرق إلا أن الله عز وجل يخلق في الحمار حركات مخصوصة يحكم لإجراء المادة . فلهذا لو قدر الحمار جهاداً ميتاً لوجب القول بأن كل حركة تشاهد منه فأنه سبحانه وتعالى قادر على خلقها فيه على الترتيب المشاهد . وكما وجب أن يقال لم يكن مفارقة الجهاد في الحركات إلا بفرقة اختصت به عبر عنها بالحياة فكذلك مفارقة الإنسان البهيمة في إدراك العلوم النظرية بفرقة يبرع عنها بالعقل وهو كالمراة التي تفارق غيرها من الأجسام في حكاية الصور والألوان بصفة اختصت بها وهي العقالة . وكذلك العين تفارق الجبهة في صفات وهيئات بها استمدت للرؤية ففسب هذه الفرقة إلى العلوم كنسبة العين إلى الرؤية ونسبة القرآن والشرع إلى هذه الفرقة في سياقها إلى اكتشاف العلوم لها كنسبة نور الشمس إلى البصر فكذلك ينبغي أن نفهم هذه الفرقة . الثاني : هي العلوم التي تنزع إلى الوجود في ذات الطفل المبدع بمجواز الجائزات واستحالة المستحيلات كالمسلم بأن الاثنين أكثر من الواحد وأن الشخص الواحد لا يكون في مكانين في وقت واحد ، وهو الذي عنده بعض المتكلمين حيث قال في حد العقل : إنه بعض العلوم الضرورية كالمسلم بمجواز الجائزات واستحالة المستحيلات وهو أيضاً صحيح في نفسه لأن هذه العلوم موجودة وتسميتها عقلاً ظاهراً وإنما الفاسد أن تتكرر تلك الفرقة ويقال لا موجود إلا هذه العلوم . الثالث : علوم تستفاد من التجارب بمجاري الأحوال فإن من حسنته التجارب وهذه المذاهب يقال إنه عاقل في المادة ومن لا يتعصف بهذه الصفة يقال

(١) حديث ابن عباس : أشكر شيء آله وعدة وإن آله المؤمن العقل . الحديث . أخرجه ابن الجبير عنه الحارث

(٢) حديث : أن أحب المؤمنين إلى الله من نصب في طاعة الله عز وجل ونصح لعباده وكمل عقله ونصح نفسه فأبصر وعمل به أبلم حياته فأفطن وأنتج . الحديث . أخرجه ابن الجبير من حديث ابن عمر ، ورواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس بإسناد آخر ضيف (٣) حديث : أنتم عظام أشدكم لله خوفاً . الحديث . أخرجه ابن الجبير من حديث أبي قتادة .

إنه غي غير جاهل ، فهذا نوع آخر من العلوم يسمى عقلا . الرابع : أن تتم قوة تلك الغريزة إلى أن يعرف عواقب الأمور ويقع الشهوة الداعية إلى الفذة المأجلة ويقهرها فإذا حصلت هذه القوة سمى صاحبها عاقلا من حيث إن إلهامه وإحجامه بحسب ما يقتضيه النظر في العواقب لا بحكم الشهوة المأجلة وهذه أيضا من خواص الإنسان التي بها يتميز عن سائر الحيوان ، فالأول : هو الأس والسنخ والتميع . والثاني : هو الفرع الأقرب إليه . والثالث : فرع الأول والثاني ؛ إذ بقوة الغريزة والعلوم الضرورية تستفاد علوم التجارب والرابع : هو الفرع الأخيرة وهي الغاية القصوى ، فالأولان بالطبع والآخران بالاكتساب . ولذلك قال علي كرم الله وجهه :

رأيت العقل عقلين فطبع ومسموع ولا ينفع مسموع إذا لم بك مطبوع

كما لا تنفع الشمس وضوء العين ممنوع

والأول هو المراد بقوله صلى الله عليه وسلم ، ما خلق الله عز وجل خلقا أكرم عليه من العقل ^(١) ، والآخر هو المراد بقوله صلى الله عليه وسلم ، إذا تقرب الناس بأبواب البر والأعمال الصالحة فتقرب أنت بخلقك ^(٢) وهو المراد بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي البرداء رضى الله عنه ، ازدت عقلا تزدد من ربك قربا ، فقال : بأبي أنت وأمي ، وكيف لي بذلك ؟ فقال : اجتنب محارم الله تعالى وأد فرائض الله سبحانه تكن عاقلا واعل بالصالحات من الأعمال تزدد في عاجل الدنيا رفعة وكرامة وتتل في آجل المقيها من ربك عز وجل القرب والعز ^(٣) ، وعن سعيد بن المسيب ، أن عمر وأبي بن كعب وأبا هريرة رضى الله عنهم دخلوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : يا رسول الله من أعلم الناس ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : العاقل ؟ قالوا : فن أعبد الناس ؟ قال : العاقل . قالوا : فن أفضل الناس ؟ قال العاقل قالوا : أليس العاقل من تمت صروته وظهرت فصاحته وجادت كفه وعظم منزلته ؟ فقال صلى الله عليه وسلم (وإن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا والآخرة عند ربك للثنتين) إن العاقل هو المتق وإن كان في الدنيا خسيما ذليلا ^(٤) ، قال صلى الله عليه وسلم في حديث آخر ، إنما العاقل من آمن بالله وصدق رسله وعمل بطاعته ^(٥) ، ويتب أن يكون أصل الاسم في أصل اللغة لتلك الغريزة وكذلك في الاستعمال وإنما أطلق على العلوم من حيث إنها ثمرة ما يعرف الشيء بثمرته فيقال : العلم هو الخشية والعالم من يخشى الله تعالى . فإن الخشية ثمرة العلم فتكون كالجزء لتلك الغريزة ولكن ليس الغرض البحث عن اللغة . والمقصود أن هذه الأقسام الأربعة موجودة والاسم يطلق على جميعها ولا خلاف في وجود جميعها إلا في القسم الأول ، والصحيح وجودها بل هي الأصل . وهذه العلوم كأنها مضمنة في تلك الغريزة بالفطرة ولكن تظهر في الوجود إذا جرى سبب يخرجهما إلى الوجود حتى كأن هذه العلوم ليست بشيء وارد عليها من خارج وكأنها كانت مستكنة فيها فظهرت ، ومثاله الماء في الأرض فإنه يظهر بحفر البئر ويصمتع ويشمير بالحس لا بأن يساق إليها شيء جديد ، وكذلك الدهن في اللوز ، وماء الورد في الورد ولذلك قال تعالى (وإذا أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم

(١) حديث « ما خلق الله خلقا أكرم عليه من العقل » أخرجه الترمذي المحكم في السواد حسنه ضعيف من رواية الحسن من عدة من الصحابة (٢) حديث « إذا تقرب الناس بأبواب البر والأعمال الصالحة فتقرب أنت بخلقك » أخرجه أبو نعيم في الحلية من حديث علي . وإذا اكتسب الناس من أنواع البر يظهر بها إلى ربنا عز وجل فاكسب أنت من أنواع العقل كتسبهم بالذلة والقرب ، وأسناده ضعيف (٣) حديث « ازدت عقلا تزدد من ربك قربا .. الحديث » قاله لأبي البرداء أخرجه ابن الجبير ومن طريقه المحدثين إلى أبي أسامة والترمذي المحكم في التواتر (٤) حديث ابن المسيب « أن عمر وأبي بن كعب وأبا هريرة دخلوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا يا رسول الله من أعلم الناس فقال العاقل .. الحديث » أخرجه ابن الجبير (٥) حديث « إنما العاقل من آمن بالله وصدق رسله وعمل بطاعته » أخرجه ابن الجبير من حديث سعيد بن المسيب مرسل ولا يوجب قوة

أنت ربكم قالوا بلى) فالمراد به إقرار نفوسهم لا إقرار الألسنة فأنهم انقسموا في إقرار الألسنة حيث وجدت الألسنة والأشخاص إلى مقروء وإلى جاحد وذلك قال تعالى (ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله) منأداهم اعتبر أحوالهم شهدت بذلك نفوسهم وبرائهم (فطرة الله التي فطر الناس عليها) أى كل آدمى فطر على الإيمان بالله عز وجل بل على معرفة الأشياء على ما هي عليه أعني أنها كالمنظمة فيها لقرب استمدادها للإدراك . ثم لما كان الإيمان مركزاً في النفوس بالفطرة انقسم الناس إلى قسمين : إلى من أعرض فنى وهم الكفار ، وإلى من أجال خاطره فتذكر فكان كن حل شهادة ففسيا بنفلة ثم تذكرها . ولذلك قال عز وجل (لعلهم يتذكرون) . وليتذكر أولوا الالباب — واذكروا نعمة الله عليكم وميثاقه الذي واثقكم به — ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر) وتسمية هذا الخط تذكر ليس بيبعد فكان التذكر ضربان : أحدهما : أن يذكر صورة كانت حاضرة الوجود في قلبه لكن غابت بعد الوجود . والآخر : أن يذكر صورة كانت مضمنة فيه بالفطرة . وهذه حقائق ظاهرة للنظر بنور البصيرة حقبة هل من يستروجه^(١) السماع والتقليد دون الكشف والعيان . ولذلك تراه يتخطى في مثل هذه الآيات ويتمسب وفي تأويل التذكر لإقرار النفوس أنواعا من التسميات ويتغافل إليه في الأخبار والآيات ضروب من المناقضات وربما يفلب ذلك عليه حتى ينظر إليها بعين الاستخار ويمتد فيها التفات . ومثاله مثال الأعلى الذي يدخل داراً فيعثر فيها بالأرواق المصفوفة في البار فيقول : ما لهذه الأرواق لا ترفع من الطريق وترد إلى مواضعها ؟ فيقال له : إنها في مواضعها وإنما الحل في بصرك . فكذلك خلل البصيرة يجرى مجراه وأطم منه وأعظم إذ النفس كالفرس والبدن كالفرس وعين الفارس أضر من عين الفرس وللمساحة بصيرة الباطن لبصيرة الظاهر قال الله تعالى (ما كذب الفؤاد ما رأى) وقال تعالى (وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض) الآية وسمى ضده عى فقال تعالى (فلما بنا لئى الأبصار ولكن نعى القلوب التي في الصدور) وقال تعالى (ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلا) وهذه الأمور التي كشفت للأنبياء بعضها كان بالبصر وبعضها كان بالبصيرة وسمى الكل رؤية . وبالجملة من لم تكن بصيرته الباطنة نافية لم يعلق به من الدين إلا قصوره وأمثلته دون لبايه وحقيقته . فهذه أقسام ما ينطلق اسم العقل عليها .

بيان تفاوت النفوس في العقل

قد اختلف الناس في تفاوت العقل ولا معنى للاشتغال بنقل كلام من قل تحصيله بل الأول والامم المبادرة إلى التصريح بالحق . والحق الصريح فيه أن يقال إن التفاوت ينطبق إلى الأقسام الأربعة سوى القسم الثاني : وهو العلم الضرورى بمجواز الجائزات واستحالة المستحيلات . فإن من عرف أن الاثنين أكثر من الواحد عرف أيضاً استحالة كون الجسم في مكانين وكون الشيء الواحد قدما حدا وكذا سائر النظائر وكل ما يدرك إدراكا حقيقا من غير شك ، وأما الأقسام الثلاثة فالتفاوت ينطبق إليها ، أما القسم الرابع وهو استيلاء القوة على قبح الشهوات فلا ينفى تفاوت الناس فيه بل لا ينفى تفاوت أحوال الشخص الواحد فيه ، وهذا التفاوت يكون نارة لتفاوت الشهوة إذ قد يقدر العاقل ترك بعض الشهوات دون بعض ولكن غير مقصور عليه . فإن الشاب قد يسر عن ترك الزنا وإذا كبر وهم غظه فصر عليه وشهوة الرياء والرياسة تزاد قوة بالكبر لاشغافا ، وقد يكون سببه التفاوت في العلم المرفق لتأثله تلك الشهوة ، ولهذا يقدر الطبيب على الاحتياط عن بعض الأطعمة المخرطة وقدم من يساويه في العقل على ذلك

(١) قوله « يستروجه » من الرواج أنه يكون السماع والتقليد وإنما عنده لأصل له مسجحه

إذا لم يكن طيباً وإن كان يعتقد على الجملة فيه معصرة لكن إذا كان علم الطيب أتم كان خوفه أشد فيكون الخوف جندا للعقل وعدة له في قبح الشهوات وكسرها . وكذلك يكون العالم أقدر على ترك المعاصي من الجاهل لقوة علمه بضرر المعاصي وأخفى به العالم الحقيقي دون أرباب الطيالة وأصحاب الهذيان . فإن كان التفاوت من جهة الشهوة لم يرجع إلى تفاوت العقل وإن كان من جهة العلم فقد سمي هذا الضرب من العلم عقلاً أيضاً فإنه يقوى غريزة العقل فيكون التفاوت فيها رجعت التسمية إليه وقد يكون بمجرد التفاوت في غريزة العقل فإنها إذا قويت كان قهراً للشهوة لا محالة أشد . وأما القسم الثالث وهو علوم التجارب فتفاوت الناس فيها لا ينكر فإنهم يتفاوتون بكثرة الإصابة وسرعة الإدراك ويكون سببه إما تفاوتاً في الغريزة وإما تفاوتاً في الممارسة ، فأما الأول وهو الأصل أخص الغريزة فالتفاوت فيه لا سبيل إلى جمده فإنه مثل نور يشرق على النفس ويطلع صحبه ومبادئ إشارته عند سن التمييز ثم لا يزال ينمو ويزداد نحواً حتى التدرج إلى أن يتكامل بقرب الأربعين سنة ؛ ومثاله نور الصباح فإن أوائله تخفى خفاء يثق إدراكه ثم يتدرج إلى الزيادة إلى أن يكمل بطلوع قرص الشمس ، وتفاوت نور البصيرة كتفاوت نور البصر والفرق مدرك بين الأعشى وبين حاد البصر بل سنة الله عز وجل جارية في جميع خلقه بالتدرج في الإيجاد حتى إن غريزة الشهوة لا تظهر في الصبي عند البلوغ دفعة وبفئة بل تظهر شيئاً فشيئاً على التدرج وكذلك جميع القوى والصفات ، ومن أنكر تفاوت الناس في هذه الغريزة فكأنه منخلع عن ربة العقل ، ومن ظن أن عقل النبي صلى الله عليه وسلم مثل عقل أحاد السوادية وأجلاف البوادي فهو أخص في نفسه من أحاد السوادية وكيف ينكر تفاوت الغريزة ولولاه لما اختلف الناس في فهم العلوم ولما انقسموا إلى بليد لا يفهم بالتفهيم إلا بعد تعب طويل من العلم وإلى ذكي يفهم بأدنى رمز وإشارة وإلى كامل تنبعت من نفسه حقائق الأمور بدون التعليم ؟ كما قال تعالى (يسجد زهبا يحضه ولو لم تحسه نار نور على نور) وذلك مثل الأنبياء عليهم السلام إذ يتضح لهم في مواطنهم أمور غامضة من غير تعلم وسماع وغير ذلك بالإلهام ، وعن مثله عزاء النبي صلى الله عليه وسلم حيث قال : إن روح القدس نفث في روعي : أحب من أحببت فأفك مفارقة وعش ما شئت فأفك ميت واعمل ما شئت فأفك مجزي به ^(١) ، وهذا الخط من تعريف الملائكة للأنبياء يخالف الوحي الصريح الذي هو سماع الصوت بحاسة الأذن ومشاهدة الملك بحاسة البصر ولذلك أخبر عن هذا بالنفث في الروح ، ودرجات الوحي كثيرة والخوض فيها لا يليق بعلم المعاملة بل هو من علم المكاشفة . ولاتفتان أن معرفة درجات الوحي تستدعي منصب الوحي إذ لا يبعد أن يعرف الطيب المريض درجات الصحة ويعلم العالم القاسق درجات العدالة وإن كان عالياً عنها فالعلم شيء ووجود المعلوم شيء آخر فلا كل من عرف الثبوت والولاية كان نبياً ولا ولياً ولا كل من عرف التقوى والورع وقامته كان تقياً . وانقسام الناس إلى من يتلى من نفسه ويفهم وإلى من لا يفهم إلا بتعليم وإلى من لا ينفعه التعليم أيضاً لا التنبية كاتقسام الأرض إلى ما يجتمع فيه الماء فيقوى فيتضجر بنفسه عيوناً وإلى ما يحتاج إلى الجفر ليخرج إلى التنبؤات وإلى ما لا ينفع فيه الجفر وهو اليابس وذلك لاختلاف جواهر الأرض في صفاتها فكذلك اختلاف النفوس في غريزة العقل . ويدل على تفاوت العقل من جهة النقل : ما روى أن عبد الله بن سلام رضى الله عنه سأل النبي صلى الله عليه وسلم في حديث طويل في آخره وصف عظم العرش وأن الملائكة قالوا : يا ربنا هل خلقت شيئاً أعظم من العرش ؟

(١) حديث « إن روح القدس نفث في روعي : أحب من أحببت فأفك مفارقة . المحذوف : أخرجه الفيروزى في الألهاب من حديث سهل بن سعد نحوه ، والطبراني في المعجم والأوسط من حديث علي وكلامه شريف

قال : نعم : العقل ، قالوا : وما بلغ من قدره ؟ قال : هيات لا يحاط بعلمه هل لكم علم بعدد الرمل ؟ قالوا : لا ، قال الله عز وجل : فإنّي خلقت العقل أصنافاً شتى كعدد الرمل فمن الناس من أعطى حبة ومنهم من أعطى حيتين ومنهم من أعطى الثلاث والأربع ومنهم من أعطى فرقا ومنهم من أعطى وسقا ومنهم من أعطى أكثر من ذلك ^(١) ، فإن قلت : فما بال أقوام من المتصوفة يذمون العقل والمقول ؟ فأعلم أن السبب فيه أن الناس نقلوا اسم العقل المقول إلى المجادلة والمناظرة بالمناقضات والإلزامات وهو صنعة الكلام فلم يقدروا على أن يقرروا عدم أنكم أعطائهم في التسمية إذ كان لا ينمى عن قلوبهم بعد تناول الآسنة به ورسوخه في القلوب فذموا العقل والمقول وهو المسمى به عندهم . فأما نور البصيرة التي بها يعرف الله تعالى ويعرف صدق رسله فكيف يتصور ذمه وقد اتى الله تعالى عليه وإن ذم فما الذى يذمه محمد ؟ فإن كان المحمرد هو الشرع فبم علم صحة الشرع ؟ فإن علم بالعقل المدعوم الذى لا يوثق به فيكون الشرع أيضا مدعوما ولا يلتفت إلى من يقول : أنه يدرك بعين اليقين ونور الإيمان لا بالعقل . فإننا نريد بالعقل : ما يريده بعين اليقين ونور الإيمان ، وهى الصفة الباطنة التى يتميز بها الآدمى عن البهائم حتى أدرك بها حقائق الأمور : وأكثر هذه التخييلات إنما نارت من جهل أقوام طلبوا الحقائق من الألفاظ فتخبطوا فيها لتخييل اصطلاحات الناس في الألفاظ ؛ فهذا القدر كاف في بيان العقل واه أهلك .

ثم كتاب العلم بحمد الله تعالى ومنه ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى كل عبد مصطفى من أهل الأرض والسماء .

يتلوه إن شاء الله تعالى كتاب قواعد العقائد والحمد لله وحده أولا وآخرا .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

كتاب قواعد العقائد وفيه أربعة فصول

الفصل الأول

في ترجمة عقيدة أهل السنة في كلتي الشهادة التي هي أحد مباني الإسلام

فقول وبالله التوفيق : الحمد لله المبدئ المعيد الفعال لما يريد ذى العرش المجيد والبطل الشديد الهادى صفوة العبيد إلى المنهج الرشيد والمسلك السديد المنعم عليهم بعد شهادة التوحيد بحراسة عقائدهم عن ظلمات التشكيك والترديد السالك بهم إلى اتباع رسوله المصطفى واقفاء آثاره الكرمين المكرمين بالتأييد والتسديد المتجمل لهم في ذاته وأفعاله بمحاسن أوصافه التي لا يدركها إلا من ألقى السمع وهو شهيد المرفع إمام أنه في ذاته واحد لا شريك له فرد لا مثيل له صمد لا حاد له منفرد لا نند له وأنه واحد قديم لا أول له أزلي لا بداية له مستمر الوجود لا آخر له أبدى لا نهاية له قويم لا انقطاع له دائم لا انصرام له لم يزل ولا يزال موصوفاً بعموت الجلال

(١) حديث ابن سلام « سئل النبي صلى الله عليه وسلم : في حديث طويل في آخره وصف عظم العرش وأن الملائكة كانت يارب هل خلفت شيئا أعظم من العرش الحديث أخرجه ابن الجبير من حديث أس بنهامة والترمذي الحسني في التواتر مختصراً

(١٢) - لحياء علوم الدين - (١)

لا يقضى عليه بالانقضاء والانفصال بتصرم الآباد وانقراض الآجال بل (هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم)

التنزيه : وأنه ليس بجم موصو ولا جوهر محدود مقدر وأنه لا يخالل والأجسام ولا في التقدير ولا في قبول الانقسام وأنه ليس بجموهر ولا تحله الجواهر ولا بمرض ولا تحله الأعراض بل لا يخالل موجودا ولا يخالل موجود (ليس كشيء شيء) ولا هو مثل شيء . وأنه لا يحده المقدار ولا تحويه الأنطار ولا تحيط به الجهات ولا تمكثفه الأرضون ولا السموات . وأنه مستو على العرش على الوجه الذي قاله والمعلق الذي أراد استواء منزها عن الماسة والاستقرار والتمسك والحلول والانتقال لا يحمله العرش بل العرش وحلته محمولون بلطف قدرته ومفهورون في قبضته . وهو فوق العرش والسياء وفوق كل شيء إلى تخوم الثرى ، فوقية لا تزيد قربا إلى العرش والسياء كما لا تزيد بعدا عن الأرض والثرى بل هو رفيع الدرجات عن العرش والسياء كما أنه رفيع الدرجات عن الأرض والثرى . وهو مع ذلك قريب من كل موجود وهو أقرب إلى العبد من حبل الوريد (وهو على كل شيء شيد) إذ لا يخالل قربه قرب الأجسام كما لا يخالل ذاته ذات الأجسام وأنه لا يحل في شيء ولا يحل فيه شيء تعالى عن أن يحويه مكان كما قدس عن أن يحده زمان بل كان قبل أن خلق الزمان والمكان وهو الآن على ما عليه كان . وأنه بائن عن خلقه بصفاته ليس في ذاته سواء ولا في سواء ذاته وأنه مقدس عن التنزي والانتقال لا تحله الحوادث ولا تفتريه العوارض بل لا يزال في نفوت جلاله منزها عن الزوال وفي صفات كاله مستغنيا عن زيادة الاستكمال . وأنه في ذاته معلوم الوجود بالمقول مرئ الذات بالأبصار نعمة منه وإطفا بالآبرار في دار القرار وإتماما منه للنعيم بالنظر إلى وجهه الكريم .

الحياة والقدرة : وأنه تعالى حي قادر جبار قادر لا يفتريه قصور ولا يجز ولا تأخذه سنة ولا نوم ولا يمارسه فناء ولا موت وأنه ذو الملك والملكوت والمنة والجبروت له السلطان والقهر والخلق والأمر والسموات مطويات بيمينه والخالق مقهورون في قبضته . وأنه المنفرد بالخلق والاختراع المتوحد بالإيجاد والإبداع خلق الخلق وأعمالهم وقدر أركانهم وآجالهم لا يبد عن قبضته مقدور ولا يعزب عن قدرته تعاريف الأمور ، لا تحصي بقدراته ولا تقاي معلوماته

العلم : وأنه عالم بجميع المعلومات محيط بما يجري من تحوم الأرضين إلى أهل السموات وأنه عالم لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء بل يعلم ديب النلة السوداء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء ويدرك حركة النور في جو الهواء ويعلم السر وأخفى ، ويطلع على هواجس الضائر وحركات الخواطر وخفيات الرائر يعلم قديم أزلى لم يزل موصوفا به في أزل الأزال لا يعلم متجدد حاصل في ذاته بالحلول والانتقال ،

الإرادة : وأنه تعالى مرید للسكرات مديبر للمعادن فلا يجري في الملك والملكوت قليل أو كثير صغير أو كبير خير أو شر نفع أو ضرر إيمان أو كفر عرفان أو نكر فوز أو خسران زيادة أو نقصان طاعة أو عصيان لا يقضاه وقدره وحكمته ومشيتة . فما شاء كان وما لم يكن لا يخرج عن مشيتة لفظة ناظر ولا فلتة خاطر بل هو المبدئ المعيد الفعال لما يريد لا راد لأمره ولا معقب لقضائه ولا مهرب لعبد عن محبته إلا بتوقيفه وحسنه . ولا قوة له على طاعته إلا بمشيئته وإرادته فلو اجتمع الإنس والجن والملائكة والشياطين على أن يحركوا في العالم ذرة أو يسكنوها دون إرادته ومشيتة لمجرعوا ذلك . وأن إرادته قائمة بذاته في جملة صفاته لم يزل كذلك موصوفا بها

مريدا في أزل لوجود الأشياء في أوقاتها التي قدرها فوجدت في أزلها من غير تحتم ولا تأخر بل وقعت على وفق علمه وإرادته من غير تبدل ولا أنير . دير الأمور لا بترتيب أفكار ولا بزمن زمان فذلك لم يشغله شأن عن شأن .

السمع والبصر : وأنه تعالى سميع بصير يسمع ويرى ولا يعرب عن سمعه مسموع وإن خفي ، ولا يضيغ عن رؤيته مرئي وإن دق . ولا يحجب سمعه بعد ولا ينفخ رؤيته ظلام . يرى من غير حدة وأجفان ويسمع من غير أصمحة وأذان كما يعلم بغير قلب ويبطش بغير جارحة . ويخلق بغير آلة إذ لا تنبى صفاته صفات الخلق كما لا تنبى ذاته ذوات الخلق .

الكلام : وأنه تعالى متكلم آمرناه واعد متوعد بكلام أزل قديم قائم بلمانه لا يشبه كلام الخلق فليس بصوت يحدث من انسلال هواء أو اصطكاك أجرام ولا بحرف ينقطع بإطباق شفة أو تحريك لسان . وأن القرآن والتوراة والإنجيل والزبور كتبه المنزلة على رسله عليهم السلام . وأن القرآن مرقوم بالإنسة مكتوب في المصاحف محفوظ في القلوب وأنه مع ذلك قديم قائم بذات الله تعالى لا يقبل الانفصال والافتراق بالانتقال إلى القلوب والأوراق ، وأن موسى صلى الله عليه وسلم سمع كلام الله بغير صوت ولا حرف ، كما يرى الأبرار ذات الله تعالى في الآخرة من غير جوهر ولا عرض . وإذا كانت له هذه الصفات كان حيا عالما قادرا مريدا سميعا بصيرا متكلما بالحياة والقدرة والعلم والإرادة والسمع والبصر والكلام لا بمجرد الذات .

الآفعال : وأنه سبحانه وتعالى لا موجود سواه إلا وهو حادث بفعله وفاعله من عدله على أحسن الوجوه وأكملها وأتمها وأدها وأنه حكيم في أفعاله عادل في أفضيته لا يقاس عدله بعدل العباد إذ العبد يتصور منه الظلم بتصرفه في ملك غيره . ولا يتصور الظلم من الله تعالى فإنه لا يصادف لغيره ملكا حتى يكون تصرفه فيه ظلما ، فكل ما سواه من إنس وجن وملك وشيطان وسما وأرض وحويوان ونبات وجواد وجوهر وهرم ومعدرك ومحسوس حادث اخترعه بقدرته بعد العدم اختراعا وأنشاء إنشأ بعد أن لم يكن شيئا إذ كان موجودا وحده ولم يكن معه غيره فأحدث الخلق بعد ذلك إظهارا لقدرة وتحقيقا لما سبق من إرادته ولما حق في الأزل من كلفته لا لافتقاره إليه وحاجته . وأنه متفضل بالخلق والاختراع والتكليف لا عن وجوب ومتغزل بالإلزام والإصلاح لا عن لزوم ، فله الفضل والإحسان والنعمة والامتنان إذ كان قادرا على أن يصب على عباده أنواع العذاب ويبتليهم بضرور الآلام والأوصاب ولو فعل ذلك لكان منه عدلا ولم يكن منه قبيحا ولا ظلما . وأنه عز وجل يثبت عباده المؤمنين على الطاعات بحكم الكرم والوعد لا بحكم الاستحقاق والردم له إذ لا يجب عليه لأحد فعل ولا يتصور منه ظلم ولا يجب لأحد عليه حق . وأن حقه في الطاعات وجب على الخلق لإيجابه على أئسنه أنبيائه عليهم السلام لا بمجرد العقل ولكنه بمقتضى الرسل وأظهر صدقهم بالمعجزات الظاهرة فبلنوا أمره ونبيه ووعده ووعيده فوجب على الخلق تصديقهم فيها جامعا به .

(معنى الكلمة الثانية) وهي الشهادة للرسول بالرسالة وأنه بمقتضى النبي الأبي القرمش محمدا صلى الله عليه وسلم برسالته إلى كافة العرب والمجم والجن والإنس ففسخ بشريته الشرائع إلا ما قرره منها . وفضله على سائر الأنبياء وجعله سيد البشر . ومنع كال الإيمان بشهادة التوحيد وهو قول لا إله إلا الله ، ما لم يفتن بها شهادة الرسول وهو قولك ، محمد رسول الله ، وألزم الخلق تصديقه في جميع ما أخبر عنه من أمور الدنيا والآخرة . وأنه لا يتقبل

إيمان عبد حتى يؤمن بما أخبر به بعد الموت ، وأوله : سؤال منكرو تكبير وحما طهوان مهيان هائلان يقضدان القلب في قبره سوا ذا روح وجسد فيأله عن الترسيد والرسالة ويقولان له : من ربك وما ديتك ومن نيلك ^(١) ؟ وما ثقتنا القبر ^(٢) . وسؤالها أول فتنة بعد الموت ^(٣) . وأن يؤمن بلذاب القبر ^(٤) . وأنه حق وحكمه عدل على الجسم والروح على ما يشاء . وأن يؤمن بالميزان ذي الكفتين واللسان وصفته في الدظم أنه مثل طبقات السموات والأرض يوزن الأعمال بقدره الله تعالى ، والصنع يومئذ مثالب الذنر والحردل تحقيقاً لقسم العدل ، وتوضع صحائف الحسنات في صورة حسنة في كفة الثور فيمثل بها الميزان على قدر درجاتها عند الله بفضل الله وتطرح صحائف السيئات في صورة قبيحة في كفة الظللة فيمثل بها الميزان بعدل الله ^(٥) . وأن يؤمن بأن الصراط حق وهو جسر ممدود على متن جهنم أحد من السيف وأحد من الشجرة تزل عليه أقدام الكافرين يصعق الله سبحانه فتقوى بهم إلى النار وتثبت عليه أقدام المؤمنين بفضل الله فيساقون إلى دار القرار ^(٦) . وأن يؤمن بالخوض المورود حوض محمد صلى الله عليه وسلم يشرب منه المؤمنون قبل دخول الجنة وبعد جواز الصراط ^(٧) . من شرب منه شربة لم يظأ بعدها أبداً عرصة مسيرة شهر مائه أشد ريحاً من الريح وأمل من الصل حوله أباريق عددها بعدد نجوم السماء ^(٨) . فيه ميزان يعبان فيه من الكثرة ^(٩) . وأن يؤمن بالحساب وتفاوت الناس فيه إلى مناقش في الحساب وإلى مساح فيه وإلى مدخل

كتاب قواعد العقائد

(١) حديث « سؤال منكرو تكبير » أخرجه الترمذي وصححه ابن حبان من حديث أبي هريرة « لذا قبر الميت - أو قال أحدكم - أنه ملكان أسودان أزرقان يقال لأحدهما المنكر وللآخر الشكير . وفي الصحيحين من حديث أنس « أن النبي - ﷺ - إذا وضع في قبره وتولى عنه أصحابه وأنه ليسمى روح لعالم أنه ملكان فيعدانه .. الحديث » (٢) حديث « إنما ثقتنا القبر » أخرجه أحمد وابن حبان من حديث عبد الله بن عمرو « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر ثقتنا القبر فقال عمر : أتروا علينا عرصة ؟ .. الحديث » (٣) حديث « إن سؤالها أول فتنة بعد الموت » لم أجده (٤) حديث « عذاب القبر » أخرجه من حديث عائشة « أنكم تظنون أن مذبور في يومئذ . الحديث » ولها من حديث أبي هريرة وعائشة « استئذنه صلى الله عليه وسلم من عذاب القبر » (٥) حديث « الإيمان بالميزان ذي الكفتين واللسان وصلته في الضمأن أنه مثل طباق السموات والأرض » أخرجه البيهقي في البعث من حديث عمر « قال : الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته ورسوله وتؤمن بالجنة والنار والميزان ... الحديث » وأصله عند مسلم ليس فيه ذكر الميزان ، ولأن داود من حديث عائشة « أما في ثلاثة مواطن لا يذكر أحد أحداً عند الميزان حتى يعلم أنصف ميزانه أم يثقل ؟ زاد ابن مردويه في تفسيره » قالت عائشة : أي حق قد علمنا الموازين هي الكفتان يوضع في هذه القوى ويوضع في هذه القوى لتتبع إحداها وتنف الأخرى » والترمذي وحسنه من حديث أنس « وأطلبني عند الميزان » ومن حديث عبد الله بن عمر في حديث البطالة « فتوضع السجلات في كفة والبطالة في كفة .. الحديث » وروى ابن ماجة في كتاب السنة من ابن عباس « كفة الميزان كالمطابق الدنيا كلها » (٦) حديث « الإيمان بالصراط وهو جسر ممدود على متن جهنم أحد من السيف وأحد من الشجر » أخرجه البيهقي من حديث أبي هريرة « وضرب الصراط بين ظهري جهنم » ولها من حديث أبي سعيد « ثم يضرب الجسر على جهنم » زاد مسلم « قال أبو سعيد : إن الجسر واحد من القصر واحد من السيف » ورواه أحمد من حديث عائشة والبيهقي في القبر ، والبيهقي من حديث أنس وضئفه ؟ وفي البعث من رواية عبد الله بن ميمون مراسلون قول ابن مسعود « الصراط كجهد السيف » وفي آخر الحديث ما يله على أنه مروج

(٧) حديث « الإيمان بالخوض وأنه يعبر منه المؤمنون » أخرجه مسلم من حديث أنس في نزول « أنا أطيناك الكثرة » « هو حوض ترد عليه يوم القيامة أنبته هذه النجوم » ولها من حديث ابن مسعود وعقبة ابن عامر وجندب بن سفيان بن سعد « أنا فرطكم على الخوض » ومن حديث ابن عمر « أنكم حوض كما بين جرداء وأودج » وقال الفرياني « كما ينسك وبين جرداء وأودج » وهو السواب . وذكر الطوسي في الصحيح من حديث أبي هريرة وأبي سعيد وعبد الله بن عمر وحذيفة وأبي ذر وحابس ابن عمة وطلحة بن زهد وثوبان وعائشة وأم سلمة وأسماء . (٨) حديث « من شرب منه شربة لم يظأ بعدها أبداً عرصة مسيرة شهر أشد ريحاً من الريح وأمل من الصل حوله أباريق عدد نجوم السماء » من حديث عبد الله بن عمرو ولها من حديث أنس « فيه من الأباريق كعدد نجوم السماء » وفي رواية لمسلم « أكثر من عدد النجوم » (٩) حديث « فيه ميزان يعبان فيه من الكثرة » أخرجه مسلم من حديث ثوبان « بنت فيه ميزان يعبانه من الجنة أحدهما من ذهب والآخر من وور

الجنة بغير حساب وهم المقربون فيسأل الله تعالى^(١) من شاء من الأنبياء عن تبليغ الرسالة ومن شاء من الكفار عن تكذيب المرسلين^(٢) ويسأل المجتدعة عن السنة^(٣) ويسأل المسلمين عن الأعمال^(٤). وأن يؤمن بأخراج الروحين من النار بعد الانتقام حتى لا يبقى في جهنم موحد بفضل الله تعالى فلا يخلد في النار موحد^(٥). وأن يؤمن بشفاة الأنبياء ثم العلماء ثم الشهداء ثم سائر المؤمنين على حسب جاهه ومنزله عند الله تعالى ومن يق من المؤمنين ولم يكن له شفيع أخرج بفضل الله عز وجل فلا يخلد في النار ومن بل يخرج منها من كان في قلبه مقال ذنبة من الإيمان^(٦). وأن يعتقد فضل الصحابة رضي الله عنهم وترتيبهم وأن أفضل الناس بعد النبي صلى الله عليه وسلم : أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي رضي الله عنهم^(٧). وأن يحسن الظن بجميع الصحابة ويؤمن عليهم كما آتى الله عز وجل ورسوله صلى الله عليه وسلم عليهم أجمعين^(٨) فكل ذلك مما وردت به الأخبار وشهدت به الآثار فاعتقد جميع ذلك موثقة كان من أهل الحق وعصابة السنة وفارق رهب الضلال وحزب البدعة . ففسأل الله كمال اليقين وحسن الثبات في الدين لنا ولكافة المسلمين برحمة إنه أرحم الراحمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى كل عبد مصطفى .

(١) حديث «الإيمان بالحساب والنفوس الخاقية إلى المناقب في الحساب ومسامح في وال من يدخل الجنة بغير حساب » أخرجه البيهقي في البعث من حديث عمر « فقال يا رسول الله ما الإيمان ، قال : أن تؤمن بالله ولا تسكته وكتبته ورسوله وأهل البيت من بعد الموت والحساب والجنة والنار والقدرة .. الحديث » وهو عند مسلم دون ذكر الحساب ، وللعقيدتين من حديث عائشة « من نزل الحساب عذب لانت قلت يقول الله تعالى (سوف يحاسب حساباً بيرا) قال ذلك الدرس » ولها من حديث ابن عباس « عرضت على الأمم قبل هذه أممك ومعهم سيئون أئنا يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب » ولهم من « حديث أبي هريرة وعمران بن حصين » يدخل من آمن الجنة سيئون أئنا بغير حساب » زاد البيهقي في البعث من حديث عمر بن حزم « وأعطاني مع كل واحد من السبعين ألفاً سبعين ألفاً » زاد أحمد من حديث عبد الرحمن بن أبي بكر بنده : هذه الزيادة فقال « فخلا استدرجه قال قد استدرجه فأعطاني مع كل رجل سبعين ألفاً قال عمر فخلا استدرجه قال قد استدرجه فأعطاني مائة ألفاً » وخرج عبد الرحمن بن أبي بكر بنده . . . الحديث » (٢) حديث « سؤال من شاء من الأنبياء عن تبليغ الرسالة ومن شاء من الكفار عن تكذيب المرسلين » أخرجه البخاري من حديث أبي سعيد « يدعى لوج يوم القيامة يقول ليبيك ومعداك يا ب . ب يقول هل قلت يقول لهم فيقال لأله فيقولون ما أنا ما من نذر فيقول من يشهد لله فيقول محمد وأمهته ... الحديث » وابن ماجه « ويهمل النبي يوم القيامة ... الحديث » وفيه « فيقال هل قلت قومه ... الحديث » (٣) حديث « سؤال المجتدعة عن السنة » رواه ابن ماجه من حديث عائشة « من تسلم بغيري من التمس سئل عنه يوم القيامة » ومن حديث أبي هريرة « ما من داع يدعو إلى شيء إلا وقف يوم القيامة لازماً له دعوه ما دعا إليه وإن دعا رجل رجلاً » وأساندها ضيف (٤) حديث « سؤال المسلمين عن الأعمال » أخرجه أصحاب السنن « من حديث أبي هريرة « إن أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة من عمله صلاته .. الحديث » وسأني في الصلاة . (٥) حديث « لأخراج الروحين من النار حتى لا يبقى فيها موحد بفضل الله سبحانه » أخرجه البيهقي من حديث أبي هريرة في حديث طويل « حتى إذا فرغ الله من القضاء بين العباد وأراد أن يخرج برحمة من أراد من أهل النار أرض الملائكة أن يخرجوا من النار من كان لا يبرك الله شيئاً من أراد الله أن يخرج من برحه من يقول لا إله إلا الله .. الحديث » (٦) حديث شفاة الأنبياء ثم العلماء ثم الشهداء ثم سائر المؤمنين ومن يق من المؤمنين ولم يكن لهم شفيع أخرج بفضل الله فلا يخلد في النار مؤمن بل يخرج منها من كان في قلبه مقال ذنبة من الإيمان » أخرجه ابن ماجه من حديث عثمان بن عفان « يقع يوم القيامة ثلاثة : الأولياء ثم العلماء ثم الشهداء . وقد تقدم في التمهيد » وللعقيدتين من حديث أبي سعيد الخدري « من وجدتم في قلبه مقال حسنة من خردل من الإيمان فأخرجوه » وفي رواية « من خير » وفيه « يقول الله تعالى شملت الملائكة وشملت النبيون وثمن المؤمنين ولبى إلى أرحم الراحمين فيض من النار فيخرج منها لوما لم يصلوا خيراً قط .. الحديث » (٧) حديث « أفضل الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم علي بن أبي بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي » أخرجه البخاري من حديث ابن عمر قال « كنت أنحى بين الناس في زمن النبي صلى الله عليه وسلم فخير أبو بكر ثم عمر ثم عثمان رضي الله عنهم » ولأبي داود « كنا نقول ورسوله الله صلى الله عليه وسلم من أفضل أمة النبي صلى الله عليه وسلم أبو بكر ثم عمر ثم عثمان رضي الله عنهم » زاد الطبراني « وضع ذلك النبي صلى الله عليه وسلم ولا ينكره » (٨) حديث « لحسان الظن بجميع الصحابة وأتاهم » أخرجه الترمذي من حديث عبد الله بن منفل « الله لا أحب إلى أصحابي لا يتخذون ذرناً بدي » وللعقيدتين من حديث أبي سعيد « لا يسبوا أصحابي » وللعقيدتين من حديث ابن مسعود « لهذا ذكر أصحابي فأسكوا »

الفصل الثاني

في وجه التدريج إلى الإرشاد وترتيب درجات الاعتقاد . اعلم أن ما ذكرناه في ترجمة العقيدة ينبغي أن يقدم إلى الصبي في أول نشوه ليحفظه حفظاً ثم لا يزال ينكشف له معناه في كبره شيئاً فشيئاً ؛ فابتدأه بالحفظ ثم الفهم ثم الاعتقاد والإيقان والتصديق به ، وذلك بما يحصل في الصبي بغير برهان . فمن فضل الله سبحانه على قلب الإنسان أن شرحه في أول نشوه للإيمان من غير حاجة إلى حجة وبرهان ، وكيف ينكر ذلك وجيع عقائد العوام مبادئها التلقين المجدد والتقليد المحض ؟ نعم يكون الاعتقاد الحاصل بمجرد التقاليد غير عال عن نوع من الضعف في الابتداء على معنى أنه يقبل الإزالة بقبضه أو ألقي إليه فلا بد من تقويته وإلجائه في نفس الصبي والعالم حتى يترسخ ولا يتزلزل . وليس الطريق في تقويته وإلجائه إن يعلم صنعة الجدل والسكلام بل يشغل بتلاوة القرآن وتفسيره وقراءة الحديث ومعانيه . ويشغل بوظائف العبادات فلا يزال اعتقاده يرداد وسوعاً بما يقرع سمعه من أدلة القرآن وحججه وبما يرد عليه من شواهد الأحاديث وفوائدها وبما يسطع عليه من أنوار العبادات ووظائفها وبما يسرى إليه من مشاهدة السالحين وبمجالستهم وسياهم ومعاهم وهياتهم في الخضوع لله عز وجل والخوف منه والاستكانة له فيكون أول التلقين كإلقاء بذر في الصدر ، وتكون هذه الأسباب كالسقي والترية له حتى ينمو ذلك البذر يقوى ويرتفع ثمرة طيبة راححة أصلها ثابت وفرعها في السماء . وينبغي أن يحرس سمعه من الجدل والسكلام غاية الحراسة فلن ما يشوشه الجدل أكثر مما يهدده وما يفسده أكثر مما يصلحه بل تقويته بالجدل تضاهي ضرب السمرة بالمدة من الحديد وجاء تقويتها بأن تكثر أجزاؤها وربما يفتتها ذلك . يفسدها وهو الأغلب . والمشاهدة تكفيك في هذا بياناً فانهيك بالبيان برهاناً . ففس عقيدة أهل الصلاح والتقى من عوام الناس بعقيدة المتكلمين والمجاهدين فترى اعتقاد العوام في الثبات كالطود الشاخص لا تحركه الدواهي والصواعق وعقيدة المتكلم الحارص اعتقاده بتقسيمات الجدل كيط مرسل في الهواء تفيه الرياح مرة هكذا ومررة هكذا إلا من سمع منهم دليل الاعتقاد فتلقفه تقليداً كما تلقف نفس الاعتقاد تقليداً ؛ إذ لا فرق في التقليد بين تعليم الدليل أو تعلم المدلول فتلقين الدليل شيء والاستدلال بالنظر شيء آخر بعيد عنه . ثم الصبي إذا وقع نشوه على هذه العقيدة إن اشتغل بكسب الدنيا لم يفتح له غيرها ولكنه يعلم في الآخرة باعتقاد أهل الحق ، إذ لم يكلف الشرع أجلاف العرب أكثر من التصديق الجازم بظاهر هذه العقائد ، فأما البحث والتفتيش وتكلف نظم الأدلة فلم يكلفه أصلاً . وإن أراد أن يكون من السالك طريق الآخرة وساعده التوفيق حتى اشتغل بالعمل ولازم التقوى ونهى النفس عن الهوى واشتغل بالرياضة والمجاهدة انفتحت له أبواب من الهداية تكشف عن حقائق هذه العقيدة بنور إلى يقذف في قلبه بسبب المجاهدة تحقيقاً لوعده عز وجل إذ قال (والذين جاءوا فينا لندينهم سنبلنا وإن الله لمع المحسنين) وهو الجوهر النفيس الذي هو غاية إيمان الصديقين والمقربين ، وإليه الإشارة بالسرا الذي وفر في صدر أبي بكر الصديق رضي الله عنه حيث فضل به الحق . وانكشف ذلك السر بل تلك الأسرار له درجات بحسب درجات المجاهدة ودرجات الباطن في النظافة والطهارة عما سوى الله تعالى وفي الاستعداد بنور اليقين وذلك كسفوف الخلق في أسرار الطب والفقه وسائر العلوم إذ يختلف ذلك باختلاف الاجتهاد واختلاف الفطرة في الذكاء والفطنة وكما لا تنحصر تلك الدرجات فكذلك هذه (مسألة) فلن قلت : تعلم الجدل والسكلام مذموم كتعلم التجرم أو هو

مباح أو مندوب إليه ؟ فاعلم أنّ للناس في هذا غلوا وإسرافا في أطراف فن قال إنه بدعة أو حرام وأنّ العيدان
 لقي الله عز وجل بكل ذنب سوى الشرك خير له من أن يلقاه بالكلام ، ومن قال إنه واجب وفرض إما على
 الكتابة أو على الأعيان وأنه أفضل الأعمال وأعلى القربات فإنه تحقيق لعم التوحيد ونضال عن دين الله تعالى .
 وإلى التعرّيم ذهب الشافعي ومالك وأحمد بن حنبل وسفيان وجميع أهل الحديث من السلف . قال ابن عبد الأعل
 رحمه الله سمعت الشافعي رضي الله عنه يوم ناظر حفصا الفرد - وكان من متكلمي المعتزلة - يقول : لأن يلقى الله
 عز وجل العيد بكل ذنب ما خلا الشرك بالله خير من أن يلقاه بشيء من علم الكلام ولقد سمعت من حفص كلاما
 لا أقدر أن أحكيه ، وقال أيضا : قد اعلمت من أهل الكلام على شيء ما ظننته قط ولأن يبطل البعد بكل ما نهى الله
 عنه ماعدا الشرك خير له من أن ينظر في الكلام . وحكى الكرايسي أنّ الشافعي رضي الله عنه سئل عن شيء من
 الكلام فغضب وقال : سل عن هذا حفصا الفرد وأصحابه ، أغوام الله ، ولما مرض الشافعي رضي الله عنه دخل
 عليه حفص الفرد فقال له : من أنا ؟ فقال : حفص الفرد ، لاحظك الله ولا رعاك حتى تتوب ما أنت فيه . وقال
 أيضا لو علم الناس ما في الكلام من الأهواء لفزوا منه فراهم من الأسد ؟ وقال أيضا إذا سمعت الرجل يقول الاعم
 هو المسمى أو غير المسمى ؟ فاشهد بأنه من أهل الكلام ولا دين له . قال الزعفراني : قال الشافعي حكى في أصحاب
 الكلام أن يعزبوا بالجريد ويطلق بهم في القبايل والمشارف ويقال : هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة وأخذ في
 الكلام ؟ وقال أحمد بن حنبل : لا يطلع صاحب الكلام أبدا ، ولا تكاد ترى أحدا فطر في الكلام إلا ولا قلبه دغل ،
 وبالغ في ذمه حتى يمر الحارث المحاسبي مع زهده وورعه بسبب تصنيفه كتابا في الرد على المعتزلة وقال له : ويحك
 ألست تحكي بدعتهم أو لا ثم ترد عليهم ألست تحمل الناس بتصنيفك على مطالعة البدعة والتفكير في تلك الشبهات
 فيدعوم ذلك إلى الزأى والحيث ؟ وقال أحمد رحمه الله : علماء الكلام زنادقة . وقال مالك رحمه الله : رأيت إن
 جاءه من هو أجدل منه أبعد دينه كل يوم لدين جديد ؟ يعني أنّ أقوال المتجادلين تتفاوت . وقال مالك رحمه الله
 أيضا : لا تجوز شهادة أهل البدع والأهواء ؛ فقال بعض أصحابه - في تأويله - أنه أراد بأهل الأهواء أهل الكلام على
 أي مذهب كانوا . وقال أبو يوسف : من طلب العلم بالكلام تزندق . وقال الحسن : لا يجادلوا أهل الأهواء
 ولا يجالسوهم ولا تسمعوا منهم ، وقد اتفق أهل الحديث من السلف على هذا . ولا ينحصر ما نقل عنهم من التشديدات
 فيه وقالوا ما سكنت عنه الصحابة - مع أنهم أعرف بالحقائق وأفصح بترتيب الألفاظ من غيرهم - إلا لعلمهم بما يتولد
 منه من الشر . ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم « هلك المتنطعون هلك المتنطعون هلك المتنطعون ^(١) » أي المتنطعون
 في البحث والاستقصاء . واحتجوا أيضا بأن ذلك لو كان من الدين لكان ذلك أهم ما يامر به رسول الله صلى الله عليه
 وسلم ويعلم طريقه ويثنى عليه وعل أربابه ، فقد علمهم الاستنباط ^(٢) ، وندبهم إلى علم الفرائض وأثنى عليهم ^(٣)
 ونهاهم عن الكلام في القدر وقال أمسكوا ^(٤) عن القدر . وعلى هذا استمر الصحابة رضي الله عنهم فلا زيادة على
 الاستاذ طيفان وظل . وهم الأستاذون والقادة ونحو الأنبياء والتلاميذ . وأما الفرقة الأخرى فاحتجوا بأن قالوا :
 إن المخذور من الكلام إن كان هو لفظ الجوهر والعرض وهذه الاصطلاحات الغريبة التي لم تهدها الصحابة

(١) حديث « هلك المتنطعون » أخرجه مسلم من حديث ابن مسعود (٢) حديث أن النبي صلى الله عليه وسلم علمهم
 الاستنباط « أخرجه مسلم من حديث سلمان الفارسي (٣) حديث « نههم إلى علم الفرائض وأثنى عليهم » أخرجه ابن ماجه من
 حديث أبي هريرة (نقلوا الفرائض وعلموها الناس ... الحديث) ولقرئ من حديث أنس وأقرهم زيد بن ثابت
 (٤) حديث « نههم عن الكلام في القدر وقال أمسكوا » فهم في العلم

رضى الله عنهم فالأمر فيه قريب ، إذا ما من علم إلا وقد أحدث فيه اصطلاحات لأجل التفهيم كالحديث والتفسير والفقه ولو عرض عليهم عبارة النقص والكسر والتركيب والتعدي وفساد الوضع إلى جميع الأسئلة التي تورد على القياس لمساكنوا بغيره . فإحداث عبارة للدلالة بها على مقصود صحيح كإحداث آية على هيئة جديدة لاستعمالها في مباح ، وإن كان المحدث هو المعنى فحقن لالتمس به إلا معرفة الدليل على حدوث العلم ووحداية الخالق وصفاته كما جاء في الشرع لمن أين تحرم معرفة الله تعالى بالدليل ، وإن كان المحدث هو التثريب والتعصب والعداوة والبغضاء وما ينعى إليه الكلام فذلك محرم ويجب الاحتراز عنه كما أن الكبر والمجب والرياء وطلب الرئاسة مما ينعى إليه علم الحديث والتفسير والفقه وهو محرم يجب الاحتراز عنه ولكن لا يمنع من العلم لأجل أدائه إليه وكيف يكون ذكر الحجة والمطالبة بها والبحث عنها محظورا وقد قال الله تعالى (قل هاتوا برهانكم) وقال عز وجل (ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة) وقال تعالى (هل عندكم من سلطان بهذا) أي حجة وبرهان وقال تعالى (قل فقه الحجة بالآلة) وقال تعالى (ألم نزل إلى الذي ساج إبراهيم في ربه - إلى قوله - فهبت الذي كفر) إذ ذكر سبحانه احتجاج إبراهيم ومجادلته وإلحاحه خصمه في معرض التناء عليه وقال عز وجل (وذلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه) وقال تعالى (قالوا ياترج قد جادلنا فأكثر جدالنا) وقال تعالى في قصة فرعون (وما رب العالمين - إلى قوله - أولوا جنتك بئس مبين) وعلى الجملة فالقرآن من أوله إلى آخره بحاجة مع الكفار فعدة أدلة المتكلمين في التوحيد قوله تعالى (لو كان فيهما آله إلا الله لفسدتا) وفي النبوة (وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فاتوا بسورة من مثله) وفي البعث (قل يحيى الذي أنشأنا أول مرة) إلى غير ذلك من الآيات والأدلة . ولم نزل الرسل صلوات الله عليهم يحاجون المتكبرين ومجادلونهم قال تعالى (وجادلهم بالتي هي أحسن) فالصحابة رضی الله عنهم أيضا كانوا يحاجون المتكبرين ومجادلون ولكن عند الحاجة . وكانت الحاجة إلى قلة في زمانهم وأول من سن دعوة المبتدعة بالمجادلة إلى الحق : علي ابن أبي طالب رضي الله عنه ، إذ بعث ابن عباس رضي الله عنهما إلى الخوارج فكلهم فقال : ما تنقمون على إمامكم ؟ قالوا : قاتل ولم يسب بنتم ، فقال : ذلك في قتال الكفار ! أرايتم لو سببت عائشة رضي الله عنها في سم أحدكم أكنتم تستحلون منها ما تستحلون من ملككم وهي أمكم في نص الكتاب ؟ فقالوا : لا ، فرجع منهم إلى الطاعة بمجادلته ألفان . وروى أن الحسن ناظر قدريا فرجع عن القدر . وناظر علي بن أبي طالب كرم الله وجهه رجلا من القدرية . وناظر صيد الله بن مسعود رضي الله عنه يزيد بن عبيدة في الإيمان ، قال عبادة : لو قلت إني مؤمن لقلت إني في الجنة ؟ فقال له يزيد بن عبيدة : يا صاحب رسول الله هذه زلة منك وهل الإيمان إلا أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث والميزان وتحق الصلاة والصوم والزكاة ؟ ولنا ذنوب لو نعم أنما نغفر لنا لعلمنا أننا من أهل الجنة ، فمن أجل ذلك نقول إنا مؤمنون ولا نقول إنا من أهل الجنة . فقال ابن مسعود صدقت والله إنها من زلة ، فينبغي أن يقال كان خوضهم فيه قليلا لا كثيرا وقصيرا لا طويلا وعند الحاجة لا بطريق التصنيف والتدريس واتخاذ مناهج ، فيقال أما قللة خوضهم فيه فانه كان لقللة الحاجة إنا لم تكن البدعة تظهر في ذلك الزمان ، وأما القصر فقد كان الناية إنظام الخصم واعترافه وانكشاف الحق وإزالة الشبهة ، فلوطال إشكال الخصم وإلجائه لطال لا محالة إلزامهم . وما كانوا يقدرون قدر الحاجة يميزان ولا مكيا ل بعد الشروع فيها . وأما عدم تصديهم للتدريس والتصنيف فيه فهكذا كان دأبهم في الفقه والتفسير والحديث أيضا ، فإن جاز تصنيف الفقه ووضع الصور النادرة التي لا تنشق إلا على الدور إما إدخال اليوم وقوعها وإن كان نادرا أو تمحيضا للخواطر ضمن أيضا ترتيب طرق

المجادلة لتوقع وقوع الحاجة بشوران شبه أو هيجان مبتدع أو لتشجيع الحاطر أو لادخار الحجة حتى لا يصر عنها عند الحاجة على البديهة والارتجال ، كن يد السلاح قبل القتال ليوم القتال فهذا ما يمكن أن يذكر الفريقين . فإن قلت : فما المختار عندك فيه ؟ فأعلم أن الحق فيه أن إطلاق القول بذمه في كل حال أو بحمده في كل حال خطأ بل لابد فيه من تفصيل . فأعلم أولاً أن الشيء قد يحرم لذاته كالحز واللينة وأحق بقوله ، لذاته ، أن علة تحريمه وصف في ذاته وهو الإسكار والموت . وهذا إذا سئلنا عنه أطلقنا القول بأنه حرام ولا يلتفت إلى إباحة الميتة عند الاضطراب وإباحة تجرع الخمر إذا غص الإنسان بلقمة ولم يجد ما يسبغها سوى الخمر وإلى ما يحرم لغيره كالبيع على بيع أخيك المسلم في وقت الحيار والبيع وقت النداء ، وكأكل الطين فإنه يحرم لما فيه من الإضرار وهذا ينقسم إلى ما يضر قليلة وكثيره فيطلق القول عليه بأنه حرام كالسم الذي يقتل قليلاً وكثيره ، وإلى ما يضر عند الكثرة فيطلق القول عليه بالإباحة كالسم فإن كثيراً يضر بالمحرور ، وكأكل الطين . وكان إطلاق التحريم على الطين والخمر والتحليل على السمل التفات إلى أغلب الأحوال ؛ فإن تصدق شيء تقابلت فيه الأحوال فالأول والأبعد عن الالتباس أن يفصل فنمود إلى علم الكلام ونقول : إن فيه منفعة وفيه مضرة ، فهو باعتبار منفعة في وقت الانتفاع حلال أو مندوب إليه أو واجب كما يقتضيه الحال ، وهو باعتبار مضرته في وقت الاستضرار ومعه حرام أما مضرته فإثارة الشبهات وتحريك العقائد وإزالتها عن الجزم والتصميم فذلك مما يحصل في الابتداء ورجوعها بالدليل مشكوك فيه ، ويختلف فيه الأشخاص ، فهذا ضرره في الاعتقاد الحق . وله ضرر آخر في تأكيد اعتقاد البديعة وتثبيتها في صدورهم بحيث تلجس دواعيهم ويستند حرم على الإصرار عليه ولكن هذا الضرر بواسطة التمسك الذي يثور من الجدل ولذلك ترى المبتدع العامى يمكن أن يزول اعتقاده بالظف في أسرع زمان إلا إذا كان نفوذه في بلد يظهر فيها الجدل والتعصب فإنه لو اجتمع عليه الآثرون والآخرون لم يقدروا على نزع البديعة من صدره بل الهوى والتعصب وبغض خصوم المجادلين وفرقة المخالفين يستول على قلبه ويمنعه من إدراك الحق حتى لو قيل له : هل تريد أن يكشف الله تعالى لك الغطاء ويعرفك بالبيان أن الحق مع خصمك لكراه ذلك خيفة من أن يفرح به خصمه ؟ وهذا هو البلاء العضال الذي استطار في البلاد والعباد وهو نوع فساد أمارة المجادلون بالتعصب فهذا ضرره . وأما منفعة فقد ينظر أن فائدته كشف الحقائق ومعرفة ما على ما هي عليه وهيئات فليس في الكلام وفاء بهذا المطالب الشريف ولعل التخطيط والتضليل فيه أكثر من الكشف والتعريف ، وهذا إذا سمعته من محدث أو حشوى وبما خطر ببالك أن الناس أعداء ما جهلوا فاصبر هذا . من خبر الكلام ثم قلناه بعد حقيقة الخبرة وبعد التغفل فيه إلى متى درجة المتكلمين وجاوز ذلك إلى التعمق في علوم آخر تناسب نوع الكلام وتحقق أن الطريق إلى حقائق المعرفة من هذا الوجه مسدود . ولعمري لا ينفك الكلام عن كشف وتدريب وإيضاح لبعض الأمور ولكن على التدور في أمور جليلة تكاد تفهم قبل التعمق في صنعة الكلام بل منفعة شيء واحد وهو حراسة العقيدة التي ترجعها على العوام وحفظها عن نقوشات المبتدعة بأنواع الجدل فإن العامى ضعيف يستفزه جدل المبتدع وإن كان فاسداً ، ومعارضة الفاسد بالفاسد تدفعه . والناس متعبدون بهذه العقيدة التي قد منها إذ ورد الشرع بها لها فيها من صلاح دينهم وديارهم وأجمع السلف الصالح عليها والعلماء يتعمدون بحفظها على العوام من تلبسات المبتدعة كما تعبد السلاطين بحفظ أموالهم من تهجمات الظلة والنصاب وإذا وقعت لإحاطة بضرره ومنفعة فينبغي أن يكون كالطبيب الحاذق في استعمال الدواء الخطر إذ لا يضره إلا في موضعه وذلك وقت الحاجة وعلى قدر الحاجة . وتفصيله أن العوام المشغولين بالحرف والصناعات يجب أن يتركوا على سلامة عقائدهم

التي اعتقدوها مهما تلقوا الاعتقاد الحق إلهي ذكرناه فإن تعليمهم الكلام ضرر محض في حقهم إذ ربما يثير لهم شكاً ويزلزل عليهم الاعتقاد ولا يمكن القيام بعد ذلك بالإصلاح . وأما العاشر المعتقد البدعة فينبغي أن يدعى إلى الحق بالتلطف لا بالتمسب وبالكلام اللطيف المتنع النفس المؤثر في القلب القريب من سياق أدلة القرآن والحديث المروج بن من الوعد والتحذير فإن ذلك أنفع من الجدال الموضوع على شرط المتكلمين ؛ إذ العاشر إذا سمع ذلك اعتقد أنه نوع صمنة من الجدال تعلمها المتكلم ليستدرج الناس إلى اعتقاده فإن هجر عن الجواب قدر أن المجادلين من أهل مذهبه أيضاً يقدرون على دفعه . فالجدل مع هذا ومع الأول حرام وكذلك مع من وقع في شك إذ يجب إزالته باللفظ والوعد والأدلة القوية المقبولة البعيدة عن تعمق الكلام . واستقصاء الجدال إنما ينفع في موضع واحد وهو أن يفرض على اعتقد البدعة بنوع جدل سمعه فيقابل ذلك الجدال بمثله فيعود إلى اعتقاد الحق وذلك فيمن ظهر له من الأوس بالمجادلة ما يمنعه عن التنازع بالمواظم والتحذيرات العامة فقد انتهى هذا إلى حالة لا ينفي منها إلا دواء الجدال لحاز أن يلحق إليه . وأما في بلاد تفل فيها البدعة ولا تقتلف فيها المذاهب فيقتصر فيها على ترجمة الاعتقاد الذي ذكرناه ولا يتموضع للأذلة ويترس وقوع شبهة فإن وقعت ذكر بقدر الحاجة فإن كانت البدعة شائعة وكان يخاف على الصبيان أن يخذلوا فلا بأس أن يبدوا القدر الذي أودعاه كتاب الرسالة القدسية ليكون ذلك سبباً لدفع تأثير مجادلات المبتدعة إن وقعت إليهم وهذا مقدار مختصر وقد أودعاه هذا الكتاب لاختصاره فإن كان فيه ذكاه وتنبه بذلك لوضع سؤال أو مارت في نفسه شبهة فقد بدت العلة المحذورة وظهر الداء فلا بأس أن يرقى منه إلى القدر الذي ذكرناه في كتاب الاقتصاد في الاعتقاد - وهو قدر خمسين ورقة - وليس فيه خروج عن النظر في قواعد العقائد إلى غير ذلك من مباحث المتكلمين . فإن أقنعه ذلك فكف عنه وإن لم يقنعه ذلك فقد صارت العلة مكرمة والداء غالباً والمرضى ساروا فليتلطف به الطبيب بقدر إمكانه ويتنازل قضاء الله تعالى فيه إلى أن ينكشف له الحق بتبنيه من الله سبحانه وأيستمر على الشك والشبهة إلى ما قدر له فالقدر الذي يحويه ذلك الكتاب وجنبه من المصنفات هو الذي يرجى نفعه .

فأما الخارج منه فثمان ؛ أحدهما : بحث عن غير قواعد العقائد كالبحث عن الاعتقادات وعن الأكوان وعن الإدراكات وعن المفروض في الرؤية هل لها حد يسمى المنع أو العي ؟ وإن كان فذلك واحد هو منع عن جميع ما لا يرى أو لم يثبت لكل مرئي يمكن رؤيته منع بحسب عدده إلى غير ذلك من الترهات المضللات . والقسم الثاني : زيادة تقرير لتلك الأدلة في غير تلك القواعد وزيادة أسئلة وأجوبة وذلك أيضاً استقصاء لا يزيد إلا ضلالاً وجهلاً في حق من لم يقنعه ذلك القدر فرب كلام يزيد الإطباب والتقرير غموضاً . ولوقال قائل : البحث عن حكم الإدراكات والاعتقادات فيه فائدة لتحديد الخواطر . والمخاطر آلة الدين كالسيف آلة الجهاد فلا بأس بتفصيله كان كقول لعب الشطرنج يشهد المخاطر فهو من الدين أيضاً وذلك هوس فإن المخاطر يشهد بسائر علوم الشرع ولا يخاف فيها مضرة فقد عرفت بهذا القدر المذموم والقدر المحمود من الكلام والحال التي يذم فيها والحال التي يحمدها والشخص الذي ينتفع به والشخص الذي لا ينتفع به . فإن قلت : مهما اعترفت بالحاجة إليه في دفع المبتدعة والآث قد عاينت البدع وعمت البلوى وأدركت الحاجة فلا بد أن يصير القيام بهذا العلم من فروض الكفايات كالقيام بحراسة الأموال وسائر الحقوق كالتقضاء والولاية وغيرهما ؟ وما لم يشغل العلماء بنشر ذلك والتدريس فيه والبحث عنه لا يدرهم ولو ترك بالكلية لا يدرس وليس في مجرد الطبع كفاية لحل شبه المبتدعة مالم

يتعلم فينبغي أن يكون التدريس فيه والبحث عنه أيضا من قروض الكفايات بخلاف زمن الصحابة رضى الله عنهم فإن الحاجة ما كانت ماسة إليه . فاعلم أن الحق أنه لا بد في كل بلد من قائم بهذا العلم مستقل يدفع شبه المبتدعة التي تآرت في تلك البلدة وذلك بدوم بالتعليم ولكن ليس من الصواب تدريسه على العموم كندريس اللغة والتفسير فإن هذا مثل الدواء والنفقة مثل الغذاء وضرر الغذاء لا يحذر وضرر الدواء محذور لما ذكرنا فيه من أنواع الضرر . فاعلم الذي ينبغي أن ينحصر بتعليم هذا العلم من فيه ثلاث خصال : إحداهما : التجرد للعلم والحرص عليه ، فإن المحترف بمنه الشغل عن الاستكثار وإزالة الشكوك إذا عرضت . الثانية : الذكاء والنفطة والفضاحة فإن البليد لا ينتفع بفهمه والفرد لا ينتفع بمحاجه فيخاف عليه من ضرر الكلام ولا يرجى فيه نفعه . الثالثة : أن يكون في طبعه الصلاح والديانة والتقوى ولا تكون الشهوات غالبة عليه فإن الفاسق بأذى شبه ينخلع عن الدين فإن ذلك يحل عنه الحجر ويرفع للسد الذي بينه وبين الملاذ فلا يحرص على إزالة الشبهة بل يقتسمها ليتعاضد من أعباء التكليف فيكون ما يفسده مثل هذا المتعلم أكثر مما يصلحه . وإذا عرفت هذه الانقسامات اتضح لك أن هذه الحجة المحصورة في الكلام إنما هي من جلس حجج القرآن من الكلمات اللطيفة المؤثرة في القلوب المقتنة النفوس دون التغافل في التقسيات والتدقيقات التي لا يفهمها أكثر الناس وإذا فهموها اعتقدوا أنها شعوذة وصناعة لتهدم صاحبها للتدريس ، فإذا قابله مثله في السننة قاومة . وعرفت أن الشافعي وكافة السلف إنما منعوا عن الخوض فيه والتجرد له لما فيه من الضرر الذي نهينا عليه . وأن ما نقل عن ابن عباس رضى الله عنهما من مناصرة الخوارج وما نقل عن علي رضى الله عنه من المناظرة في القدر وغيره كان من الكلام الجلل الظاهر وفي محل الحاجة وذلك محمود في كل حال . نعم قد تختلف الأعصار في كثرة الحاجة وقتها فلا يبعد أن يختلف الحكم لذلك فهذا حكم العقيدة التي تعبد الخلق بها وحكم طريق النضال عنها وحفظها فأما إزالة الشبهة وكشف الحقائق ومعرفة الأشياء على ما هي عليه وإدراك الأمور التي يترجمها ظاهر ألفاظ هذه العقيدة فلا مفتاح له إلا بالمجادة وقمع الشهوات والإقبال بالكلية على الله تعالى وملزمة الفكر الصافي عن شوائب المجادلات وهي رحمة من الله عز وجل تفيض على من يتعرض لتفحاتها بقدر الرزق وبحسب التعرض وبحسب قبول العمل وطهارة القلب وذلك البحر الذي لا يدرك غوره ولا يبلغ ساحله (مسألة) فإن قلت : هذا الكلام يشير إلى أن هذه العلوم لها ظواهر وأسرار وبعضها جلي يندو أولا وبعضها خفي يتصنع بالمجادة والرياسة والطلب الحثيث والفكر الصافي والسر الخالي عن كل شيء من أشغال الدنيا سوى المطلوب وهذا يكاد يكون مغالفا للشرع إذ ليس للشرع ظاهر وباطن وسر وعلم بل الظاهر والباطن والسر والعلم واحد فيه ؟ فاعلم أن انقسام هذه العلوم إلى خفية وجلية لا ينكرها ذو بصيرة وإنما ينكرها القاصرون الذي تلقفوا في أوائل الصبا شيئا وجدوا عليه فلم يكن لهم ريق إلى شأو الملاد ومقامات العلماء والأولياء وذلك ظاهر من أدلة الشرع قال صلى الله عليه وسلم : **لَيْسَ لِلْقُرْآنِ ظَاهِرٌ وَبَاطِنٌ وَحَدٌّ وَمَطْلَعٌ** ^(١) ، وقال صلى الله عليه وسلم : **إِنَّ هُنَا عُلُومًا جَمَّةً لَوْ وَجَدْتُ لَهَا حِلَّةً** . وقال صلى الله عليه وسلم : **نَحْنُ مِمَّا سَرَّ الْأَنْبِيَاءُ أَمْرًا أَنْ نَسْكُمَ النَّاسَ عَلَى قَدْرِ عَقُولِهِمْ** ^(٢) ، وقال صلى الله عليه وسلم : **مُحَمَّدٌ أَحَدُ قَوْمَا مُجِدِّدٍ لِمَا بَلَّغَهُ عَقُولُهُمْ إِلَّا كَانَتْ قِتَّةٌ عَلَيْهِمْ** ^(٣) ، وقال الله تعالى (**وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يُعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ**) وقال

(١) حديث « إن القرآن ظاهرا وباطنا .. الحديث » أخرجه ابن حبان في صحيحه من حديث ابن مسعود نحوه (٢) حديث « نحن ماسر الأنبياء أمرنا أن نسكُم الناس على قدر عقولهم .. الحديث » تقدم في العلم (٣) حديث (ماحدث أحد قوما مجديت لم يبلغه عقولهم ... الحديث) تقدم في العلم

صلى الله عليه وسلم ، إن من العلم كهيئة المكنون لا يعلمه إلا العارف بالله تعالى ^(١) ، الحديث إلى آخره كما أوردناه في كتاب العلم . وقال صلى الله عليه وسلم : لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا ^(٢) ، فليت شعري إن لم يكن ذلك سرا منع من إفشائه لقصور الأنهام عن إدراكه أو لما في آخر فلم لم يذكره لهم ولا شك أنهم كانوا يصدقونه لو ذكره لهم ؟ وقال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله عز وجل (الله الذي خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن متبازل الأمر بينهن) لو ذكرت تفسيره لرجتموني . وفي لفظ آخر : لقلتم إنه كافر ، وقال أبو هريرة رضي الله عنه : حفظت من رسول الله صلى الله عليه وسلم وعامرين أما أحدهما فيثنته وأما الآخر لو بثنته لقطع هذا الحلقوم . وقال صلى الله عليه وسلم : ما فضلكم أبو بكر بكثرة صيام ولا صلاة ولكن بسر وقر في صدره ^(٣) ، رضي الله عنه ولا شك في أن ذلك السر كان متعلقا بقواعد الدين غير خارج منها وما كان من قواعد الدين لم يكن حافيا بطواهه على غيره ، وقال سهل التستري رضي الله عنه : العالم ثلاثة علوم : علم ظاهر يبذله لأهل الظاهر وعلم باطن لا يسمه إظهاره إلا لأهله وعلم هو بينه وبين الله تعالى لا ينظره لأحد . وقال بعض العارفين : إفشاء سر الربوبية كفر . وقال بعضهم : للربوبية سر لو أظهر لبطلت النبوة ، والنبوة سر لو كشف لبطل العلم ، وللعلماء بالله سر لو أظهره لبطلت الأحكام ، وهذا القائل إن لم يرد بذلك بطلان النبوة في حق الضعفاء انقص فهمهم فا ذكره ليس بحق بل الصحيح أنه لا تخاص فيه وأن السكامل من لا يطعن نور معرفته نور ورعه ، وملاك الودع النبوة (مسألة) فإن قلت : هذه الآيات والأخبار يتطرق إليها تأويلات فيبين لنا كيفية اختلاف الظاهر والباطن فإن الباطن إن كان منافضا للظاهر ففيه إبطال الشرع ، وهو قول من قال : إن الحقيقة خلاف الشريعة وهو كفر لأن الشريعة عبارة عن الظاهر والحقيقة عبارة عن الباطن وإن كان لا ينافيه ولا يخالفه فهو هو فيزول به الانقسام ولا يكون الشرع سر لا يغشى بل يكون الحق والجلي واحد ؟ فاعلم أن هذا السؤال يحرك خطبيا عظيما وينجز إلى علوم المكاشفة ويخرج عن مقصود علم المعاملة وهو غرض هذه الكتب فإن العقائد التي ذكرناها من أعمال القلوب وقد تمهدنا بتلقيها بالقبول والتصديق بمقدد القلب عليها لا بأن يتوصل إلى أن ينكشف لنا حقائقها فإن ذلك لم يكلف به كافة الخلق ، ولولا أنه من الأعمال لما أوردناه في هذا الكتاب ، ولولا أنه عمل ظاهر القلب لا عمل باطنه لما أوردناه في السطر الأول من الكتاب وإنما الكشف الحففي هو صفة سر القلب وباطنه ولكن إذا انجز الكلام إلى تحريك خيال في منافضة الظاهر للباطن فلا بد من كلام وجيز في حله . فن قال : إن الحقيقة تخالف الشريعة أو الباطن ينافي الظاهر فهو إلى الكفر أقرب منه إلى الإيمان بل الأسرار التي يختص بها المقزبون بدرجتها ولا يشاركهم الآكثرون وعلمهم ويتمتعون عن إفشائها إليهم ترجع إلى خمسة أقسام : القسم الأول : أن يكون الشيء في نفسه دقيقا تكل أكر الأنهام عن دركه فيختص بدركه الخواص وعليهم أن لا يشعروا إلى غير أهله فيصير ذلك فتنة عليهم حيث تقصر أنهامهم عن الإدراك . وإخفاء سر الروح وكف رسول الله صلى الله عليه وسلم عن بيانه ^(٤) من هذا القسم فإن حقيقة بما تكل الأنهام عن دركه وتقصر الأوامم عن تصور كنهه . ولا تظن أن ذلك لم يكن مكشوفاً لرسول الله صلى الله عليه وسلم فإن من لم يعرف الروح فكأنه لم يعرف نفسه ومن لم يعرف نفسه

(١) حديث (لن من العلم كهيئة المكنون .. الحديث) تقدم في العلم (٢) حديث (لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا) أخرجه من حديث عائشة وأنس (٣) حديث (ما فضلكم أبو بكر بكثرة صيام .. الحديث) تقدم في العلم (٤) حديث (كف رسول الله صلى الله عليه وسلم عن بيان الروح) أخرجه الشيخان من حديث ابن مسعود حين سأله اليهود عن الروح قال (فأسكن الله صلى الله عليه وسلم فلم يرد عليهم شيئا ... الحديث)

فكيف يعرف به سبحانه ؟ ولا يبعد أن يكون ذلك مكتشفاً لبعض الأولياء والعلماء وإن لم يكونوا أنبياء ولكنهم يتأدبون بأداب الشريعة فيستكون عاصيكت عنه بل في صفات الله عز وجل من الخفايا ما تقتصر أفهام الجماهير عن دركه ولم يذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم منها إلا الظواهر الأفهام من العلم والقدرة وغيرها حتى يفهما الخلق بنوع مناسبة توهمها إلى علمهم وقدرتهم إذ كان لهم من الأوصاف ما يسمى علماً وقدرة فيتوهمون ذلك بنوع مقابسة . ولو ذكر من صفاته ما ليس للخلق مما يناسبه بعض المناسبة شيء لم يفهموه ، بل لذة الجماع إذا ذكرت الصبي أو العنين لم يفهمها إلا بمناسبة إلى لذة المعلوم الذي يدركه ولا يكون ذلك فهما على التحقيق . والخالفة بين علم الله تعالى وقدرته وعلم الخلق وقدرتهم أكثر من الخالفة بين لذة الجماع والأكل . وبالجملة فلا يدرك الإنسان إلا نفسه وصفاته نفسه بما هي حاضرة له في الحال أو ما كانت له من قبل ثم بالمقابلة إليه يفهم ذلك لغيره ثم قد يصدق بأن بينهما تفاوتا في الشرف والكمال فليس في قوة البشر إلا أن يثبت لله تعالى ما هو ثابت لنفسه من الفعل والعلم والقدرة وغيرها من الصفات مع التصديق بأن ذلك أكمل وأشرف فيكون مدغم تحريمه على صفات نفسه لا على ما اخضع الرب تعالى به من الجلال . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك^(١) ، وليس المعنى أني أعجز عن التعبير عما أدركته بل هو اعتراف بالتقصير عن إدراك كنهه جلالة . ولذلك قال بعضهم : ما عرف الله بالحقيقة سوى الله عز وجل . وقال الصديق رضي الله عنه : الخلد الذي لم يعمل للخلق سبيلاً إلى معرفته إلا بالعجز عن معرفته . ولتقبض عنان الكلام عن هذا الخط ولترجع إلى الغرض وهو أن أحد الأنعام ما تكل الأنعام عن إدراكه ومن جلته الروح ومن جلته بعض صفات الله تعالى . ولعل الإشارة إلى مثله في قوله صلى الله عليه وسلم : إن الله سبحانه وتعالى سبعين حجاباً من نور لو كشفها لأحرقت سبحات وجهه كل من أدركه بصره^(٢) ، القسم الثاني : من الخفيات التي تمتنع الأنبياء والصديقون عن ذكرها ما هو مفهوم في نفسه لا بكل الفهم لكنه ذكره يعرض بأكثر المستمعين ولا يعرض بالأنبياء والصديقين . وسر القدر الذي منع أهل العلم من إفشائه من هذا القسم ، فلا يبعد أن يكون ذكر بعض الحقائق معضراً لبعض الخلق كما يعرض نور الشمس بأبصار الخفافيش وكما يعرض رياح الورد بالجمل ، وكيف يبعد هذا وقولنا إن الكفر والزنا والمعاصي والشروط كلها بقضاء الله تعالى وإرادته ومشيئته حتى في نفسه وقد أضر سماعه بقوله إذ أوم ذلك عندهم أنه دلالة على السفه ونقيض الحكمة والرضا بالقياس والظلم ؟ وقد ألد ابن الروندي وطائفة من المخدولين مثل ذلك . وكذلك سر القدر لو أفشى لأوم عند أكثر الخلق عجزاً إذ تقتصر أفهامهم عن إدراك ما يزيل ذلك الوم عنهم ، ولو قال قائل : إن القيامة لو ذكر ميقاتها وأنها بعد ألف سنة أو أكثر أو أقل لكان مفهومها ولكن لم يذكر لمصلحة العباد وخوفاً من الضرر فلعل المدة اليها بعيدة فيطول الأمد ، وإذا استبطأت النفوس وقت العقاب قل أكثراتها ولعلها كانت قريبة في علم الله سبحانه ولو ذكرت لعظم الخوف وأعرض الناس عن الأعمال وخربت الدنيا ، فهذا المعنى لو اتجه وصح فيكون مثالا لهذا القسم

(١) حديث (لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك) أخرجه مسلم من حديث عائشة أنها سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ذلك في سجوده . (٢) حديث (إن الله سبعين حجاباً من نور لو كشفها لأحرقت سبحات وجهه) أدركه بصره . أخرجه أبو الشيخ ابن حبان في كتاب الطائفة من حديث أبي هريرة (بين الله وبين الملائكة الذين حول العرش سبعون حجاباً من نور) ولسانه ضيق . وفيه أيضاً من حديث أنس (قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لجبريل هل ترى ربك ؟ قال أن بيني وبينه سبعين حجاباً من نور) والأكبر لمباراني من حديث سهل بن سعد (دون الله تعالى ألف حجاب من نور وظلمة) ولمسلم من حديث أبي موسى (حجاب نور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه) (وابن ماجه) (في أدركه بصره)

القسم الثالث : أن يكون الشيء بحيث لو ذكر صريحا لفهم ولم يكن فيه ضرر ولكن يكفى عنه على سبيل الاستمارة والرمز ليكون وقعه في قلب المستمع أغلب وله مصلحة في أن يدغم وقت ذلك الأمر في قلبه ، كما لو قال قائل ؛ رأيت فلانا يملك الدر في أعناق الخنازير ؛ فكفى به عن إفساء العلم وبث الحركة إلى غير أهلها فالمستمع قد يسبق إلى فهمه ظاهر اللفظ ، والمحقق إذا تبار وعلم أن ذلك الإنسان لم يكن معه دزولا كان في موضعه خنزير تفتل لدرك السر والباطن فيتفاوت الناس في ذلك ، ومن هذا قال الشاعر :

رجلان خياط وآخر حاملك متقابلان على السماك الأعزل

لازال يلمس ذاك خرقه مدير ويخط صاحبه ثياب القبيل

فانه عبر عن سبب سماوى في الإقبال والإدبار برجلين صائدين وهذا النوع يرجع إلى التعبير عن المعنى بالصورة التي تتضمن عين المعنى أو مثله ، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم : إن المسجد ليسزوى من النخامة كما تنزوى الجملدة على النار ^(١) ، وأنت ترى أن ساحة المسجد لا تنقبض بالنخامة ، ومعناه أن روح المسجد كونه معظما ورمى النخامة فيه تحقيره ليعضاد معنى المسجدية مضادة النار لاتصال أجزاء الجملدة ، وكذلك قوله صلى الله عليه وسلم : أما يخشى الذى يرفع رأسه قبل الإمام أن يحول رأسه رأس حمار ^(٢) ، وذلك من حيث الصورة لم يكن قط ولا يكون ؛ ولكن من حيث المعنى هو كائن إذ رأس الحمار لم يكن بحقيقته لكونه وشكله بل بخاصيته وهى البلادة والحق ، ومن رفع رأسه قبل الإمام فقد صار رأسه رأس حمار في معنى البلادة والحق وهو المقصود دون الشكل الذى هو قالب المعنى. إذ من غاية الحق أن يجمع بين الاقتداء وبين التقدم فإنهما متناقضان . ولأما يعرف أن هذا السر على خلاف الظاهر إما بدليل عقل أو شرعى ، أما العقل فأن يكون حمله على الظاهر غير ممكن كقوله صلى الله عليه وسلم قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن ^(٣) ، إذ لو فتننا من قلوب المؤمنين لم نجد فيها أصابع فعلم أنها كناية عن القدرة التي هى سر الأصابع وروحها الحق ، وكفى بالأصابع عن القدرة لأن ذلك أعظم وقفاً في تفهم تمام الاقتدار . ومن هذا القبيل في كنيته عن الاقتدار قوله تعالى ﴿ إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون ﴾ فإن ظاهره عمتنع إذ قوله « كن » ، إن كان خطايا لشيء قبل وجوده فهو محال إذا المدوم لا يلهم الخطأ حتى يمشى وإن كان بعد الوجود فهو مستغن عن التكوين . ولكن لما كانت هذه الكناية أوقع في النفوس في تفهم غاية الاقتدار عدل إليها وأما المدرك بالشرع فهو أن يكون إجراؤه على الظاهر ممكنا ولكنه يروى أنه أريد به غير الظاهر كما ورد في تفسير قوله تعالى ﴿ أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها ﴾ الآية وأن معنى الماء ههنا هو القرآن ومعنى الأودية هى القلوب وأن بعضها احتشكت شيئا كثيرا وبعضها قليلا وبعضها لم يحتمل . والزبد مثل الكفر والنفق فإنه وإن ظهر وطفا على رأس الماء فإنه لا يثبت والهداية التي تنفع الناس تمك . وفي هذا القسم تعمق جماعة فأولوا ما ورد في الآخرة من الميزان والصراط وغيرها وهو بدعة إذ لم ينقل ذلك بطريق الرواية وإجراؤه على الظاهر غير محال فيجب إجراؤه على الظاهر . القسم الرابع : أن يدرك الإنسان الشيء جملة ثم يدركه تفصيلا بالتحقيق والذوق بأن يصير حالا ملاسها له فيتفاوت الملبان ويكون الأول كالقشر والثاني كاللباب ، والأول كالظاهر والثاني كالباطن.

(١) حديث (إن المسجد ليسزوى من النخامة .. الحديث) لم أجده أصلا (٢) حديث (أما يخشى الذى يرفع رأسه قبل الإمام .. الحديث) أخرجه من حديث أبي هريرة (٣) حديث (قلب العبد بين أصبعين من أصابع الرحمن) أخرجه مسلم من حديث عبد الله بن عمرو

وذلك كما يمثل الإنسان في عينه شخص في النملة أو على البعد فيحصل له نوع علم فإذا رآه بالتقريب أو بمعدل والظلام أدرك تفرقة بينهما ، ولا يكون الأخير ضد الأول بل هو استكمال له . فكذلك العلم والإيمان والتصديق ، إذ قد يصدق الإنسان بوجود العشق والمرضى والملوث قبل وقوعه ولكن تحققه به عند الوقوع أو كمال من تحققه قبل الوقوع بل للإنسان في الشهوة والعشق وسائر الأحوال ثلاثة أحوال متفاوتة إدراكات متباينة ، الأول : تصديقه بوجوده قبل وقوعه . والثاني . عند وقوعه . والثالث : بعد تصدقه . فإن تحققك بالجرع بعد زواله يخالف التحقيق قبل الزوال وكذلك من علوم الدين ما يصير ذوقاً فيكمل فيكون ذلك كالباطن بالإضافة إلى ما قبل ذلك ، ففرق بين علم المريض بالصحة وبين علم الصحيح بها . ففي هذه الأقسام الأربعة تتفاوت الخلق وليس في شيء منها باطن يناقض الظاهر بل يتممه وبكلاهما كما يتمم اللب بالشر والصلاح . الخامس : أن يعبر بلسان المقال عن لسان الحال فالقاصر الفهم يقف على الظاهر ويمتدده نطقاً ، والبصير بالخفايق يدرك السر فيه وهذا كقول القائل : قال الجواد لله تملق ؟ قال : سل من يدق فلم يركض وراق الحجر الذي ورائي ؟ فهذا تعبير عن لسان الحال بلسان المقال ، ومن هذا قوله تعالى (ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرها قالتا أتينا طائعين) فالبليد يفتقر في فهمه إلى أن يفكر لها حياة وعقل وفهما للخطاب وخطاباً هو صوت وحرف تسميه السماء والأرض فتحيان بحرف وصوت وتقولان (أئينا طائعين) والبصير يعلم أن ذلك لسان الحال وأنه إنباء عن كونها مسخرين بالضرورة ومضطرين إلى التسخير . ومن هذا قوله تعالى (وإن من شيء إلا يسبح بحمده) فالبليد يفتقر فيه إلى أن يقدر للعبادات حياة وعقلًا ونطقاً بصوت وحرف حتى يقول : سبحان الله ليتحقق تسيحه . والبصير يعلم أنه ما أريد به نطق الإنسان بل كونه مسجداً بوجوده ومقتضياً بذاته وشاهدًا بوحداية الله سبحانه كما يقال :

وفي كل شيء له آية تدل على أنه الواحد

وكما يقال : هذه الصنعة المحسنة تشهد لسانها بحسن التدبير وكال العلم لا بمعنى أنها تقول أشهد بالقول ولكن بالذات والحال . وكذلك ما من شيء إلا وهو محتاج في نفسه إلى موجد يرجده ويقيه ويدبر أوصافه ويرده في أطواره فهو بحاجة يشهد لخالفه بالتقديس يدرك شهادته ذوو البصائر دون الجاهدين على الظواهر . ولذلك قال تعالى (ولكن لا تفقهون تسبيحهم) وأما القاصرون فلا يفقهون أصلاً وأما القربون والعلماء الراعون فلا يفقهون كنهه وكأله إذ لكل شيء شهادات حتى على تقديس الله سبحانه وتسيحه ، ويدرك كل واحد بقدر عقله وبصرته ، وتعدد تلك الشهادات لا يلبس بعمق المأملة . فهذا الفن أيضاً متفاوت أرباب الظواهر وأرباب البصائر في علمه وتظهر به مفارقة الباطن للظاهر . وفي هذا المقام لأرباب المقامات إسراف واقتصاد فمن صرف في رفع الظواهر اتى إلى تنزيه جميع الظواهر والبراهين أو أكثرها حتى حلوا قوله تعالى (وتسلطنا أيديهم ونشد أرجلهم) وقوله تعالى (وقالوا الجلود لم تشهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء) وكذلك المخاطبات التي يجري من منكر ونكير وفي الميزان والصراط والحساب ومناظرات أهل النار وأهل الجنة في قولهم (أفبعضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله) زعموا أن ذلك كله بلسان الحال . وغلا آخرون في حسم الباب منهم أحد بن حنبل رضى الله عنه حتى منع تأويل قوله (كن فيكون) وزعموا أن ذلك خطاب بحرف وصوت يرجع من الله تعالى في كل لحظة بعدد كون ممكن حتى سمعت بعض أصحابه يقول : إنه حسم باب التأويل إلا ثلاثة ألفاظ قوله

صلى الله عليه وسلم : الحجر الأسود بين الله في أرضه ^(١) ، وقوله صلى الله عليه وسلم : قلب المؤمنين بين أصبعين من أصابع الرحمن ، وقوله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم : إني لأجد نفس الرحمن من جانب اليمين ^(٢) ، وما إلى حسم الباب أبواب الظواهر . والظن بأحد بن حنبل رضى الله عنه أنه علم أن الاستواء ليس هو الاستقرار والتدول ليس هو الانتقال ولكنه منع من التأويل حسماً للباب ورعاية لصلاح الخلق . فإنه إذا فتح الباب اتسع الحرق وخرج الأمر عن الضيق وجاوز حد الاقتصاد إذ حد ما جاوز الاقتصاد لا يتضبط فلا بأس بهذا الزجر ويشهد له سيرة السلف فإنهم كانوا يقولون : أمروها كما جاءت ، حتى قال مالك رحمه الله لما سئل عن الاستواء : الاستواء معلوم والكيفية مجهولة والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة . وذهبت طائفة إلى الاقتصاد وفتحوا باب التأويل في كل ما يتعلق بصفات الله سبحانه وتركوا ما يتعلق بالآخرة على ظواهرها ومنعوا التأويل فيه وهم الأشعرية . وزاد المعتزلة عليهم حتى أقولوا من صفاته تعالى الرؤية وأقولوا كونه سمياً بصيراً وأقولوا المعراج وزعموا أنه لم يكن بالجسد وأقولوا غلاب القبر والميزان والصراط وجملة من أحكام الآخرة . ولكن أقروا بعشر الأجساد وبالجنة واشتباها على المأكولات والمشروبات والمنكوحات والملاذ المحسوسة ، وبالنار واشتباها على جسم محسوس يحرق بحرق الجلود ويذيب الشحوم . ومن ترقبهم إلى هذا الحد زاد الفلاسفة فأقولوا كل ما ورد في الآخرة وردوه إلى آلام عقلية وروحانية ولذات عقلية وأنكروا حشر الأجساد وقالوا بقاء النفوس وأنها تكون إما مذبة وإما منعمة بمذاب ونعم لا يدرك بالحس وهؤلاء هم المسرفون . وحد الاقتصاد بين هذا التحلل كله وبين جود الخاتبة دقيق غامض لا يطلع عليه إلا الموفقون الذين يدركون الأمور بنور إلهي لا بالسمع ، ثم إذا انكشف لهم أسرار الأمور على ما هي عليه نظرنا إلى السمع والألفاظ الواردة فأوافق ما شاهده بنور اليقين أتوره وما عاين أولوه . فأما من يأخذ بمعرفة هذه الأمور من السمع المجرد فلا يستقر له فيها قدم ولا يتعين له موقف . والالتيق بالمقتصر على السمع المجرد : مقام أحمد بن حنبل رحمه الله . والآن فكشف الغطاء عن حد الاقتصاد في هذه الأمور داخل في علم المكاشفة والقول فيه يطول فلا نخوض فيه ؛ والفرض بيان موافقة الباطن للظاهر وأنه غير مخالف له فقد انكشف بهذه الأقسام الخمسة أمور كثيرة . وإذا رأينا أن تقتصر بكافة العوام على ترجمة العقيدة التي حوَرناهم وأنهم لا يكفون غير ذلك في الدرجة الأولى إلا إذا كان خوف تفويض لشيوع البدعة فيرق في الدرجة الثانية إلى عقيدة فيها لوازم من الأدلة مختصرة من غير تعمق . فلنورد في هذا الكتاب تلك اللوامع ولنقتصر فيها على ما حوَرناه لأهل القدس وبمبناه الرسالة القدسية في قواعد العقائد ، وهي مودعة في هذا الفصل الثالث من هذا الكتاب

الفصل الثالث

من كتاب قواعد العقائد في لوازم الأدلة المعقدة التي ترجعها بالقدس فقول

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي ميز عصابة السنة بأنوار اليقين وآثر رطل الحق بالهداية إلى دعائم الدين وجنبهم زيغ الزاعمين وضلال الملحدين وفهمهم للاقتداء بسيد المرسلين وسددهم لتأسي بصحبه الأكرمين ويسر لهم اقتفاء آثار السلف

(١) حديث (الحجر بين الله في الأرض) أخرجه الحاكم وصححه من حديث عبد الله بن عمر (٢) حديث (إني لأجد نفس الرحمن من جانب اليمين) أخرجه أحمد بن حنبل من حديث أبي هريرة في حديث قال فيه (وأجد نفس ويسكن قبل اليمين) ورواه ثقات

الصالحين حتى اعتصموا من مقتضيات العقول بالحيل المتين ومن سِر الأتزين وغايتهم بالتمسك المبين ، لجمعوا بالقول بين نتائج العقول وقضايا الشرع المنقول ، وتحققوا أنَّ التعلق بما تعبدوا به من قول : لا إله إلا الله محمد رسول الله ، ليس له طائل ولا محصل إن لم تتحقق الإحاطة بما تنور عليه هذه المهادمة من الانطباع والأصول ، وعرفوا أن كلتي الشهادة على إنجازها تتضمن إثبات ذات الإله وإثبات صفاته وإثبات أفعاله وإثبات صدق الرسول ، وعلوا أن بناء الإيمان على هذه الأركان وهي أربعة ويدور كل ركن منها على عشرة أصول (الركن الأول) في معرفة ذات الله تعالى ومداره على عشرة أصول : وهي العلم بوجوده تعالى وقدمه وبقائه وأنه ليس بجمهر ولا جسم ولا عرض وأنه سبحانه ليس غرضاً بجهة ولا مستقراً على مكان وأنه يرى وأنه واحد (الركن الثاني) في صفاته ويشتمل على عشرة أصول : وهو العلم بكونه حياً عالماً قادراً حريصاً سميعاً بصيراً متكبلاً منزهاً عن حلول الحوادث وأنه قديم الكلام والعلم والإرادة (الركن الثالث) في أفعاله تعالى ومداره على عشرة أصول : وهي أنَّ أفعال العباد مخلوقة لله تعالى وأنها مكتسبة للباد وأنها مرادة لله تعالى وأنه متفضل بالخلق والاختراع وأنَّ له تعالى تكليف ما لا يطاق ، وأنَّ له إيلام البرى ولا يجب عليه رعاية الأصلح ، وأنه لا واجب إلا بالشرع وأنَّ بعث الأنبياء جائز وأنَّ نبوة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ثابتة مؤيدة بالمعجزة (الركن الرابع) في السمعات ومداره على عشرة أصول : وهي إثبات الحشر والنشر وسؤال منكر ونكير وعذاب القبر والميزان والصراط وخلق الجنة والنار وأحكام الإمامة وأنَّ فضل الصحابة على حسب ترتيبهم وشروط الإمامة .

فأما الركن الأول من أركان الإيمان : في معرفة ذات الله سبحانه وتعالى

وأنَّ الله تعالى واحد ومداره على عشرة أصول

(الأصل الأول) معرفة وجوده تعالى وأوَّل ما يستضاء به من الأنوار ويسلك من طريق الاعتبار ما أرشد إليه القرآن فليس بعد بيان الله سبحانه بيان وقد قال تعالى ﴿ أَلَمْ يَجْعَلِ الْأَرْضَ مهاداً والجبال أوتاداً وخَلَقْنَاكُمْ أزواجاً وجعلنا نومكم سباتاً وجعلنا الليل لباساً وجعلنا النهار معاشاً ونبينا فرقكم سبعاً شداداً وجعلنا سراجاً وهاجاً وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجاً لنخرج به حبا ونباتاً وجنات ألفافاً ﴾ وقال تعالى ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفَلَكَ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَع النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبِشْيَءٍ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ وقال تعالى ﴿ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقاً وجعل القمر فيهن نوراً وجعل الشمس سراجاً والله أنبىكم من الأرض نباتاً ثم يميزكم فيها ويخرجكم إخراجاً ﴾ وقال تعالى ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْنُونَ مَا أَنتُمْ تَحْقُقُونَهُ أَتُحْسِنُ الْحَاقِقُونَ ﴾ لئَلَّ قَوْلُهُ ﴿ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ فليس يعني على من معه أدنى مسكة من عقل إذا تأمل بأدنى فكرة مضمون هذه الآيات وأدرك نظره على عجائب خلق الله في الأرض والسماوات وبدائع فطرة الحيوان والنبات أن هذا الأمر العجيب والترتيب المحكم لا يستغنى عن صانع يديره وقاقل يحكمه ويقدره ؛ بل تكاد فطرة النفوس تشهد بكونها مقهورة تحت تسخيرها ومصرفة بمقتضى تدييره . ولذلك قال الله تعالى ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ شَيْءاً فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾ ولهذا بعث الأنبياء صلوات الله عليهم لدعوة الخلق إلى التوحيد ليقولوا لا إله إلا الله ، وما أمرنا أن يقولوا لنا إله وللعالَم إله . فإن ذلك كان مجبولاً في فطرة عقولهم من مبدل تشوم وفي عنفوان شبابه . ولذلك قال عز وجل ﴿ وَلَوْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ وقال تعالى ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي ﴾

فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم) فإذا في ضرورة الإنسان وشواهد القرآن ما يغني عن إقامة البرهان . ولكننا على سبيل الاستظهار والاقتداء بالعلماء النظار نقول : من بداية القول أن الحوادث لا يستغني عن حدوثه عن سبب مجده ، والعالم حادث فإذا لا يستغني في حدوثه عن سبب . أما قولنا : إن الحوادث لا يستغني في حدوثه عن سبب ، بل في كل حادث مختص بوقت يجوز العقل تقدير تقديره وتأخيرها فاختصاصه بوقته دون ما قبله وما بعده يقتضي بالضرورة إلى المخصص وأما قولنا : العالم حادث ، فبرهانه أن أجسام العالم لا تخلو عن الحركة . والكون وهما حادثان وما لا يخلو عن الحوادث فهو حادث . ففي هذا البرهان ثلاث دعاوى : الأولى : قولنا ، إن الأجسام لا تخلو عن الحركة والسكون ، وهذه مدركة بالبدية والاضطرار فلا يحتاج فيها إلى تأمل واكتشاف فإن من عقل جسميا لا ساكنا ولا متحركا كان لثقل الجهل راءكا وعن نهج العقل ناكبا . الثانية : قولنا ، إنها حادثان ، ويدل على ذلك تماثلها ووجود البعض منها بعد البعض وذلك مشاهد في جميع الأجسام ما شوهد منها وما لم يشاهد فلان ساكن إلا والعقل قاض بجواز حركته وما من متحرك إلا والعقل قاض بجواز سكونه فالطارئ منهما حادث لطريقاته والسابق حادث لعدمه ؛ لأنه لو ثبت قدمه لاستحال عدمه . على ما سيأتي بيانه وبرهانه في إثبات بقاء الصانع تعالى وبقائه . الثالثة : قولنا ، ما لا يخلو عن الحوادث فهو حادث . وبرهانه أنه لو لم يكن كذلك لكان قبل كل حادث حوادث لا أول لها ولو لم تنقض تلك الحوادث بجمليتها لامتثلت التوبة إلى وجود الحوادث الحاضرة في الحال وانقضاء ما لانهاية له محال ، ولأنه لو كان للخلق دورات لانهاية لها لكان لا يخلو عددها عن أن تكون شفعاً أو وترأ أو شفعاً وترأ جميعاً أو لا شفعاً ولا وترأ ، ومحال أن يكون شفعاً وترأ جميعاً أو لا شفعاً ولا وترأ . فإن ذلك جمع بين النفي والإثبات ؛ إذ في إثبات أحدهما نفي الآخر وفي نفي أحدهما إثبات الآخر . ومحال أن يكون شفعاً لأن الشفع يصير وترأ بزيادة واحد . وكيف يجوز ما لانهاية له : واحد ؟ ومحال أن يكون وترأ إذ الوتر يصير شفعاً بواحد فكيف يصير وترأ واحد مع أنه لانهاية لأعدادها . ومحال أن يكون لا شفعاً ولا وترأ إذ لانهاية . فتحصل من هذا أن العالم لا يخلو عن الحوادث وما لا يخلو عن الحوادث فهو إذن حادث . وإذا ثبت حدوثه كان افتقاره إلى المحدث من المدركات بالضرورة (الأصل الثاني) العلم بأنه تعالى قديم لم يزل ، أزلي ليس لوجوده أول بل هو أول كل شيء وقبل كل ميت وحى . وبرهانه أنه لو كان حادثاً ولم يكن قديماً لافتقر هو أيضاً إلى محدث وانفقر محدثه إلى محدث وتسلسل ذلك إلى ما لانهاية ، وما تسلسل لم يتحصل أو ينتهي إلى محدث قديم هو الأول وذلك هو المطلوب الذي سميناه صانع العالم ومبدئه وبارئه وعدته ومبدئه (الأصل الثالث) العلم بأنه تعالى مع كونه أزلياً أبدياً ليس لوجوده آخر فهو الأول والآخر والظاهر والباطن لأن ما ثبت قدمه استحالة عدمه ، وبرهانه أنه لو انعدم لكان لا يخلو إما أن ينعدم بنفسه أو بعدم يضاده ولو جاز أن ينعدم شيء يتصور دوامه لجاز أن يوجد شيء يتصور عدمه بنفسه فكما يحتاج طرياقاً الوجود إلى سبب فكذلك يحتاج طرياقاً لعدم إلى سبب . وباطل أن ينعدم بعدم يضاده لأن ذلك المعدم لو كان قديماً لما تصور الوجود معه . وقد ظهر بالأصلين السابقين وجوده وقدمه فكيف كان وجوده في القدم ومعه عنده ؟ فإن كان العدم حادثاً كان محالاً ؛ إذ ليس الحادث في مضاده القديم حتى يقطع وجوده بأولى من القديم في مضاده الحادث حتى يدفع وجوده ، بل الدفع أهون من القطع والتقديم أقوى وأولى من الحادث (الأصل الرابع) العلم بأنه تعالى ليس بمزبور يتحين بل يتعالى ويتقدس عن مناسبة الخبير . وبرهانه أن كل جوهر مشحون فهو مختص بمزوره ولا يخلو من أن يكون ساكناً فيه أو متحركاً عنه ، فلا يخلو عن الحركة أو السكون

وهما حادثان ، وما لا يتخلو عن الحوادث فهو حادث . ولو تصور جوهر متعين قدم لكان يعقل قدم جواهر العالم فإن سماء مسم جوهر أو لم يرد به التحيز كان غلطاً من حيث التقط لامن حيث المعنى (الأصل الخامس) العلم بأنه تعالى ليس بجسم مؤلف من جواهر . إذ الجسم عبارة عن المؤلف من الجواهر ، وإذا بطل كونه جوهرًا مخصوصًا بتعين بطل كونه جسمًا لأن كل جسم مختص بتعين ومركب من جوهر فالجوهر يستحيل خلوه عن الاتفاق والاجتماع والحركة والسكون والهيئة والمقدار وهذه سمات الحدوث . ولو جاز أن يستقدأن صانع العالم جسم لجاز أن يعتقد الإلهية للشمس والقمر أو لشيء آخر من أقسام الأجسام . فإن تجاسر متجاسر حل تسميته تعالى جسمًا من غير إرادة التأليف من الجواهر كان ذلك غلطاً في الاسم مع الإضافة في نفي معنى الجسم (الأصل السادس) العلم بأنه تعالى ليس بمرض قائم بجسم أو حال في محل لأن المرض ما يحل في الجسم ؛ فكل جسم فهو حادث لاحالة ويكون محدثه موجوداً قبله . فكيف يكون حالاً في الجسم وقد كان موجوداً في الأزل وحده وما معه غيره . ثم أحدث الأجسام والأعراض بعده ؟ ولأنه عالم قادر مريد خالق - كإساقيا يانه - وهذه الأوصاف تستحيل على الأعراض بل لا يتصل إلا لموجود قائم بنفسه مستقل بذاته . وقد تحصل من هذه الأصول أنه موجود قائم بنفسه ليس بجوهر ولا جسم ولا عرض . وأن العالم كله جواهر وأعراض وأجسام فإذا لا يشبه شيئاً ولا يشبهه شيء بل هو الحى القيوم الذى ليس كمثل شيء وأنى يشبه المخلوق خائفه والفقير والمصور مصوره . والأجسام والأعراض كلها من خلقه وصنعه فاستحال القضاء عليها بمائلته ومشابته (الأصل السابع) العلم بأن الله تعالى هذه الذات عن الاختصاص بالجهات فإن الجهة إما فوق وإما أسفل وأما عين وإما شمال أو قدام أو خلف ، وهذه الجهات هو الذى خلقها وأحدثها بواسطة خلق الإنسان إذ خلق له طرفين أحدهما يعتمد على الأرض ويسمى رجلاً ، والآخر يقابله ويسمى رأساً . لحدث اسم الفوق لما على جهة الرأس واسم السفلى لما على جهة الرجل حتى إن الفلاة التى تدب منكسة تحت السقف تغلب جهة الفوق فى حضا تحتها وإن كان فى حضا فوقاً . وخلق للإنسان اليدين وإحداها أقوى من الأخرى فى الناب لحدث اسم اليمين للأقوى واسم الشمال لما يقابله وتسمى الجهة التى تلى اليمين يميناً والأخرى شمالاً ، وخلق له جانين يصمرن أحدهما ويتحرك إليه لحدث اسم القدام للجهة التى يتقدم إليها بالحركة واسم الخلف لما يقابلهما ، فالجهات حادثة بحدوث الإنسان ولو لم يخلق الإنسان بهذه الخلقه بل خلق مستديراً كالكرة لم يكن لهذه الجهات وجود أثبتته . فكيف كان فى الأزل مختصاً بجهة والجهة حادثة ؟ وكيف صار مختصاً بجهة بعد أن لم يكن له ؟ أبان خلق العالم فوفيه ويتعالى عن أن يكون له فوق إذ تعالى أن يكون له رأس والفوق عبارة عما يكون جهة الرأس أو خلق العالم مقته فتعالى عن أن يكون له تحت إذ تعالى عن أن يكون له رجل والتحت عبارة عما على جهة الرجل ؛ وكل ذلك مما يستحيل فى العقل ولأن المقول من كونه مختصاً بجهة أنه مختص بتعين اختصاص الجواهر أو مختص بالجواهر اختصاص العرض وقد ظهر استحالة كونه جوهرًا أو مرضاً فاستحال كونه مختصاً بالجهة ؛ وإن أريد بالجهة غير هذين المعنيين كان غلطاً فى الاسم مع المساعدة على المعنى ولأنه لو كان فوق العالم لكان معاذياً له ، وكل محاذ لجسم فلما أن يكون مثله أو أصغر منه أو أكبر وكل ذلك تقدير عجوج بالضرورة إلى مقدر ويتعالى عنه الخالق الواحد المدير ، فأما رفع الأبدى ضد السؤال إلى جهة السماء فهو لأنها قبله السماء . وفيه أيضاً إشارة إلى ما هو وصف للدهر من الجلال والكبرياء فليها بقصد جهة العلو على صفة الجدد والعلاء فانه تعالى فوق كل موجود بالقهر والاستيلاء (الأصل

الثامن) العلم بأنه تعالى مستور على عرشه بالمعنى الذى أراد الله تعالى بالاستواء وهو الذى لا ينافى وصف الكبرياء ولا يتطرق إليه سمات الحدوث والفناء وهو الذى أريد بالاستواء إلى السماء حيث قال فى القرآن (ثم استوى إلى السماء وهو دخان) وليس ذلك إلا بطريق القهر والاستيلاء كما قال الشاعر :

قد استوى بشر على العراق من غير سيف ودم مبرق

واضطر أهل الحق إلى هذا التأويل كما اضطر أهل الباطن إلى تأويل قوله تعالى ﴿ وهو معكم أينما كنتم ﴾ إذ حمل ذلك بالانتماء على الإحاطة بالعالم ، وحمل قوله صلى الله عليه وسلم « قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن » على القدرة والقهوة ، وحمل قوله صلى الله عليه وسلم « الصجر الأسود بين الله فى أرضه » على التشريف والإكرام لأنه لو ترك على ظاهره لزم منه المحال فكذا الاستواء لو ترك على الاستقرار والتحكم لزم منه كون المتحكم جسما بما للعرش إما مثله أو أكبر منه أو أصغر وذلك محال ، وما يؤدى إلى المحال فهو محال (الاصل التاسع) العلم بأنه تعالى مع كونه منزها عن الصورة والمقدار مقدسا عن الجهات والانتظار مرئى بالآعين والأبصار فى الدار الآخرة دار القرار لقوله تعالى ﴿ وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة ﴾ ولا يرى فى الدنيا تصديقا لقوله عز وجل ﴿ لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار ﴾ ولقوله تعالى فى خطاب موسى عليه السلام ﴿ ان ترى ﴾ وليت شعري كيف عرف المذلول من صفات رب الأرباب ما جهله موسى عليه السلام ؟ وكيف سأل موسى عليه السلام الرؤية مع كونها محالا ؟ ولعل الجهل بذوى البدع والأهواء من الجهلة الأغبياء أولى من الجهل بالأنبياء صلوات الله عليهم ، وأما وجه إجراء آية الرؤية على الظاهر فهو أنه غير مؤد إلى المحال ، فإن الرؤية نوع كشف وعلم لا أنه أتم وأوضح من العلم فاذا جاز تعلق العلم به وليس فى جهة جاز تعلق الرؤية به وليس بجهة ، وكما يجوز أن يرى الله تعالى الخلق وليس فى مقابلتهم جاز أن يراه الخلق من غير مقابلة ، وكما جاز أن يعلم من غير كيفية وصورة جاز أن يرى كذلك (الاصل العاشر) العلم بأن الله عز وجل واحد لا شريك له فرد لأنه لا انفرد بالخلق والإبداع واستند بالإيجاد والاختراع لأمثله يساهمه ويساويه ولا ضده فينازعه وينابوه : وبرهانه قوله تعالى ﴿ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ﴾ ويانه أنه لو كانا اثنين وأراد أحدهما أمرا فالتانى إن كان مضطرا إلى مساعدته كان هذا الثانى مقهورا عاجزا ولم يكن لهما قادرا ، وإن كان قادرا على مخالفته ومداغمته كان الثانى قويا قاهرا والأول ضعيفا قاهرا ولم يكن لهما قادرا

الركن الثانى العلم بصفات الله تعالى ومداره على عشرة أصول

﴿ الأصل الأول ﴾ العلم بأن صانع العالم قادر وأنه تعالى فى قوله ﴿ وهو على كل شئ قدير ﴾ صادق لأن العالم عكم فى صنئته مرتب فى خلقته زمن رأى ثوبا من ديباج حسن النسيج والتأليف متناسب التطريز والتطريف ثم تروم صدور نسجه عن ميت لا استطاعة له أو عن إنسان لا قدرة له كان منخلما عن غريزة العقل ومنخرطا فى سلك أهل النبوة والجهل (الاصل الثانى) العلم بأنه تعالى عالم بجميع الموجودات ومحيط بكل المخلوقات (لا يعزب عن علمه متقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء) صادق فى قوله ﴿ وهو بكل شئ عليم ﴾ ومرشد إلى صدقه بقوله تعالى (ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير) أرشدك إلى الاستدلال بالخلق على العلم بأنك لا تستريب فى دلالة الخلق اللطيف والصنع المزين بالترتيب ولو فى الشئ العقير الضعيف على علم الصانع بكيفية الترتيب والترصيف فما ذكره الله سبحانه هو انتهى فى الهداية والتعريف (الاصل الثالث) العلم بكونه عز وجل حيا فان من لبث

عنه وقدرته ثبت بالضرورة حياته ولو تصور قادر وعالم فاعل مدبر دون أن يكون حيا لجاز أن يشك في حياة الحيوانات عند تردها في الحركات والسكنات بل في حياة أرباب الحرف والصناعات وذلك الغناس في غرة الجهالات والضلالات (الاصل الرابع) العلم بكونه تعالى مريدا لأفامه فلا موجود إلا وهو مستند إلى مفيته وصادر عن إرادته فهو المبدئ للعبد والفعال لما يريد وكيف لا يكون مريدا وكل فعل صادر منه أمكن أن يصدر منه ضده؟ وما لا ضده له أمكن أن يصدر منه ذلك بعينه قبله أو بعده. والقدرته تناسب العندين والوقتتين مناسبة واحدة فلا بد من إرادة صارفة للقدرته إلى أحد المقدورين، ولو أغنى العلم عن الإرادة في تمحيص المعلوم حتى يقال إنما وجد في الوقت الذي سبق بوجوده لجاز أن يغنى عن القدرة حتى يقال وجد بغير قدرة لأنه سبق العلم بوجوده فيه (الاصل الخامس) العلم بأنه تعالى سميع بصير لا يعرب عن رؤيته هواجس الضمير وغفيا الزم والتفكير ولا يخذل عن سمعه صوت ديب الخلة السوداء في الليلة الظلماء على الصخرة الصماء: وكيف لا يكون سميعا بصيرا والسمع والبصر كال لا حالة وليس ينقص؟ فكيف يكون المخلوق أكمل من الخالق والمصنوع أسنى وأتم من الصانع؟ وكيف تمتد القسمة مهما وقع النقص في جهته والكمال في خلقه وصنفته أو كيف تستقيم حجة إبراهيم صلى الله عليه وسلم على أبيه إذ كان يعبد الأصنام جهلا وغيا فقال له (لم تعبد مالا لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئا) ولو انقلب ذلك عليه في معبره لاضحت حجة داحضة ودلالته سافطة ولم يصدق قوله تعالى (وذلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه) وكما عقل كونه فاعلا بلا جارحة وطائلا بلا قلب ودماغ فليقل كونه بصيرا بلا حدقة وسميعا بلا أذن إذ لا فرق بينهما (الاصل السادس) أنه سبحانه وتعالى متكلم بكلام وهو وصف قائم بذاته ليس بصوت ولا حرف بل لا يشبه كلامه كلام غيره كما لا يشبه وجوده وجود غيره، والكلام بالحقيقة كلام النفس وإنما الأصوات قطعت حروفا للدلالات كما يدل عليها تارة بالحركات والإشارات وكيف التبس هذا على طائفة من الأغبياء ولم يلتبس على جملة الشعراء حيث قال قائلهم:

لئن الكلام لفي الفؤاد وإنما جعل اللسان على الفؤاد دليلا

ومن لم يعقله ولا نهى نهاء عن أن يقول: لاني حادث ولكن ما يحدث فيه بقدرتي الحادثة قديم، فانقطع عن حقة طمعه وكف عن خطابه لسانك. ومن لم يفهم أن التقديم عبارة عما ليس قبله شيء. وأن الباء قبل السين في قولك بسم الله فلا يكون السين المتأخر عن الباء قديما فزه عن الالتفات إليه قلبك فقه سبحانه سر في إبعاد بعض العباد (ومن يضلل الله فله من عاد) ومن استبعد أن يسمع موسى عليه السلام في الدنيا كلاما ليس بصوت ولا حرف فليستكر أن يرى في الآخرة موجودا ليس بجسم ولا لون: وإن عقل أن يرى ما ليس بلون ولا جسم ولا قدر ولا كمية وهو إلى الآن لم ير غيره فليقل في حاسة السمع ما عقله في حاسة البصر. وإن عقل أن يكون له علم واحد هو علم جميع الموجودات فليقل صفة واحدة للذات هو كلام جميع مادل عليه من العبارات. وإن عقل كون السموات السبع وكون الجنة والنار مكتوبة في ورقة صغيرة ومحفوفة في مقدار ذرة من القلب وأن كل ذلك مرئي في مقدار عدسة من الحدقة من غير أن تحمل ذات السموات والأرض والجنة والنار في الحدقة والقلب والورقة فليقل كون الكلام مقروما بالآلئسة محفوظا في القلوب مكتوبا في المصاحف من غير حلول ذات الكلام فيها إذ لو حلت بكتاب الله ذات الكلام في الورق لحل ذات الله تعالى بكتابة اسمه في الورق وحلت ذات النار بكتابة اسمها في الورق ولا حرق (الاصل السابع) أن الكلام القائم بنفسه قديم وكذا جميع صفاته إذ يستحيل أن يكون يملا

لحوادث داخل تحت التغير بل يجب الصفات من نعت القدم ما يجب للذات فلا تميزه التغيرات ولا تحله الحادثات بل لم يزل في قدمه موصوفاً بمحامد الصفات ولا يزل في أبده كذلك منزها عن تغير الحالات لأن ما كان محل الحوادث لا يتغير عنها ولا يتغير عن الحوادث فهو حادث . وإنما ثبت نعت الحدوث للأجسام من حيث تميزها بتغير وتقلب الأوصاف فكيف يكون عائلتها مشاركا لها في قبول التغير ؟ وينبغي على هذا أن كلامه قديم قائم بذاته وإنما الحادث هي الأصوات الدالة عليه ، وكما عقل قيام طلب التعلل وإرادته بذات الوالد لولده قبل أن يخلق ولده حتى إذا خلق ولده وعقل وخلق الله له علما متملقا بما في قلب أبيه من الطلب صار مأمورا بذلك الطلب الذي قام بذات أبيه ودام وجوده إلى وقت معرفة ولده له فليعقل قيام الطلب الذي دل عليه قوله عز وجل (اخلق نمليك) بذات الله ومصير موسى عليه السلام مخاطبا به بعد وجوده إذ خلقت له معرفة بذلك الطلب وسمع لذلك الكلام القديم (الاصل الثامن) أن علمه قديم فلم يزل عالما بذاته وصفاته وما يحدته من غلقاته . ومهما حدثت المخلوقات لم يحدث له علم بها بل حصلت مكتسوة له بالعلم الأزلي إذ لو خلق لنا علم به بتدوم زيد عند طلوع الشمس ودام ذلك العلم تقديرا حتى طامت الشمس لكان قدوم زيد عند طلوع الشمس معلوما لنا بذلك العلم من غير تجديد علم آخر . فكيف هذا يلبي أن يفهم قدم علم الله تعالى (الاصل التاسع) أن إرادته قديمة وهي في القدم تعلقت بإحداث الحوادث في أوقاتها اللاحقة بها على وفق سبق العلم الأزلي إذ لو كانت حادثة لصار محل الحوادث ، ولو حدثت في غير ذاته لم يكن هو مريدا لما كان لا تكون أنت متحركا بحركة ليست في ذاتك وكيف قدرت فيفتقر حدوثها إلى إرادة أخرى ، وكذلك الإرادة الأخرى فتفتقر إلى أخرى ويتسلسل الأمر إلى غير نهاية ، ولو جاز أن يحدث إرادة بغير إرادة لجاز أن يحدث العالم بغير إرادة (الاصل العاشر) أن الله تعالى عالم بعلم ، حي بحياة ، قادر بقدره ، ومريد بإرادته ، ومتكلم بكلام ، وسميع بسمع ، وبصير بصير ، وله هذه الأوصاف من هذه الصفات القديمة . وقول القائل : عالم بلا علم كقوله : غني بلا مال وعلم بلا عالم وعالم بلا معلوم ، فإن العلم والمعلوم والعالم متلازمة كالقتل والمقتول والقاتل ، وكما لا يتصور قاتل بلا قتل ولا قاتل ولا يتصور قاتل بلا قاتل ولا قاتل كذلك لا يتصور عالم بلا علم ولا علم بلا معلوم ولا معلوم بلا عالم بل هذه الثلاثة متلازمة من العقل لا ينفك بعض منها عن البعض فمن جوز انفكاك العالم عن العلم فليجوز انفكاك العلم عن المعلوم وانفكاك العلم عن العالم إذ لا فرق بين هذه الأوصاف .

الركن الثالث : العلم بأفعال الله تعالى ، ومداره على عشرة أصول

(الاصل الأول) العلم بأن كل حادث في العالم فهو فعله وخلقه واختراعه لا عائق له سواء ولا يحدث له إلا إياه . خلق الخلق وصنعهم وأوجد قدرتهم وحركتهم لجميع أفعال عبادته مخلوقة له ومتعلقة بقدرته تصديقا له في قوله تعالى (الله خالق كل شيء) وفي قوله تعالى (والله خالقكم وما تعملون) وفي قوله تعالى (وأسروا قولكم أو اجهروا به إنه عليم بذات الصدور) ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير) أمر المباد بالتحيز في أقوالهم وأفعالهم وإسرارهم وإخفائهم لئلا يورد أفعالهم . واستند على العلم بالخلق ، وكيف لا يكون خالقاً لفعل المبدوءة تامة لا تقصر فيها وهي متعلقة بحركة أبدان المباد والحركات متائلة وتلقى القدرة بها لذاتها فالذي يقصر تعلفها عن بعض الحركات دون البعض مع تماثلها ؟ وكيف يكون الحيوان مستقبلاً بالاختراع ويصدر من المنكبات والنحل وسائر الحيوانات من لطائف الصناعات ما يتحيز فيه عقول ذوى الألباب فكيف انفردت هي باختراعها دون رب الأرباب وهي غير عالة بتفصيل ما يصدر منها من الاكتساب ؟ هيئات هيئات ! ذلت المخلوقات وتفرد بالملك والملكوت

جبار الأرض والسموات (الأصل الثاني) أنَّ انفراد الله سبحانه باختراع حركات العباد لا يخرجها عن كونها مقدورة للعباد على سبيل الاكتساب بل الله تعالى خلق القدرة والمقدور جميعاً وخلق الاختيار واختار جميعاً . فأما القدرة فوصف للعبد وخلق ألرب سبحانه وليست بكسب له . وأما الحركة فخلق ألرب تعالى ووصف للعبد وكسبه فإنها خلقت مقدورة بقدرة هي وصفه وكانت للحركة نسبة إلى صفة أخرى تسمى قدرة فتسمى باعتبار تلك النسبة كسباً ، وكيف تكون جبراً محضاً وهو بالضرورة يدرك التفرقة بين الحركة المقدورة والعدة الضرورية ؟ وكيف يكون خلقاً للعبد وهو لا يمحيط علماً بتفاصيل أجزاء الحركات المكتسبة وأعدادها وإذا بطل الطرفان لم يبق إلا الاقتصاد في الاعتقاد وهو أنها مقدورة بقدرة الله تعالى اختراعاً وبقدرته العبد على وجه آخر من التعليل يعبر عنه بالاكتساب . وليس من ضرورة تعلق القدرة بالمقدور أن يكون الاختراع فقط ؛ إذ قدرة الله تعالى في الأزل قد كانت متعلقة بالعالم ولم يكن الاختراع حاصلها وهي عند الاختراع متعلقة به نوعاً آخر من التعلق فيه يظهر أنَّ تعلق القدرة ليس مخصوصاً بحصول المقدور بها (الأصل الثالث) أنَّ فعل العبد وإن كان كسباً للعبد فلا يخرج عن كونه مراداً لله سبحانه . فلا يجري في الملك والملوك طرفة عين ولا فتنة خاطر ولا فتنة ناظر إلا بقضاء الله وقدرته وبإرادته ومشيئته . ومنه الشر والخير والنفع والضر والإسلام والكفر والعرفان والشكر والفقر والغنى والحسرة والغواية والرشد والطاعة والمعصية والشرك والإيمان لاراد لقضائه ولا معقب لحكمه يضل من يشاء ويهدي من يشاء (لا يمثل عما يفعل وهم يسألون) ويدل عليه من النقل قول الأمة قاطبة وما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، وقوله عز وجل (أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعاً) وقوله تعالى (ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها) ويدل عليه من جهة النقل أنَّ المعاصي والجرائم إن كان الله يكرهها ولا يريد بها وإنما هي جارية على وفق إرادة العبد بل ليس لعنه الله مع أنها ضدُّه سبحانه ، والجارية على وفق إرادة العبد أكثر من الجارية على وفق إرادته تعالى فليت شعري كيف يستجيز المسلم أن يرد ملك الجبار ذى الجلال والإكرام إلى رتبة لو ردت إليها رياسته زعيم ضئيلة لاستنكف منها ؛ إذ لو كان ما يستمر لمحو الزعيم في القرية أكثر مما يستقيم له لاستنكف من زعامته وتبرأ عن ولايته . والممصية هي الغالبة على الخلق وكل ذلك جار عند المبتدعة على خلاف إرادة الحق تعالى وهذا غاية الضعف والمعجز ، تعالى رب الأرباب عن قول الظالمين علواً كبيراً . ثم مهما ظهر أنَّ أفعال العباد مخلوقة لله صح أنها مرادة له ؛ فإن قيل : فكيف ينهى عما يريد ويأمر بما لا يريد ؟ قلنا : الأمر غير الإرادة . ولذلك إذا ضرب السيد عبده فقام به السلطان عليه فاعتذر بتوعد عبده عليه فكذبه السلطان - فأراد إظهار حجته بأن يأمر العبد بفعل ويحالفه بين يديه - فقال له : أصرح هذه البداية بمشهد من السلطان ، فهو يأمره بما لا يريد امتثاله ، ولو لم يكن آسراً لما كان عنده عند السلطان عهداً ، ولو كان مريداً لامتثاله لكن مريداً لهلاك نفسه وهو محال (الأصل الرابع) أنَّ الله تعالى متفضل بالخلق والاختراع ومتعطل بتكليف العباد ولم يكن الخلق والتكليف واجباً عليه . وقالت المنزلة وجب عليه ذلك لما فيه من مصلحة العباد وهو محال ؛ إذ هو الموجب والآمر والنهي وكيف يتهدف لإيجاب أو تمعُّض للزوم وخطاب ؟ والمراد بالواجب أحد أمرين : إما الفعل الذي في تركه ضرر إما أجل ؛ كما يقال يجب على العبد أن يطيع الله حتى لا يعذبه في الآخرة بالنار ، أو ضرر عاجل ؛ كما يقال يجب على العطشان أن يشرب حتى لا يموت . ولما أنَّ يراد به الذي يؤدي عدمه إلى محال كما يقال وجود المعلوم واجب إذ عدمه يؤدي إلى محال وهو أن يصير العلم جهلاً ، فإن أراد الخصم بأنَّ الخلق واجب على الله بالمضى الأزل

فقد عزته للضرر وإن أراد به المعنى الثاني فهو مسلم ؛ إذ بعد سبق العلم لا بد من وجود المعلوم وإن أراد به معنى ثالثاً فهو غير مفهوم . وقوله « يجب لمصلحة عباده » كلام فاسد فإنه إذا لم يتضرر بترك مصاحبة العباد لم يكن للوجوب في حقه معنى . ثم إن مصلحة العباد في أن يخلقهم في الجنة فأما أن يخلقهم في دار البلياء ويعزهم للخطايا ثم يهدفهم لخطر العقاب وهول العرض والحساب فما في ذلك غيلة عند ذوى الأبواب (الأصل الخامس) أنه يجوز على الله سبحانه أن يكلف الخلق ما لا يطيقونه . خلافاً للمعتزلة . ولولم يجر ذلك لاستحالة سؤال دفعه وقدسأوا ذلك فقالوا (ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به) ولأن الله تعالى أخبر نبيه صلى الله عليه وسلم بأن أبا جهل لا يصدقه ، ثم أمره بأن يأمره بأن يصدقه في جميع أقواله وكان من جملة أقواله أنه لا يصدقه ، فكيف يصدقه في أنه لا يصدقه وهل هذا إلا محال وجوده ؟ (الأصل السادس) أن الله عز وجل إيلام الخلق وتعذيبهم من غير جرم سابق ومن غير ثواب لاحق خلافاً للمعتزلة . لأنه متصرف في ملكه ولا يتصور أن يمدو تصرفه ملكه ، والظلم هو عبارة عن التصرف في ملك الغير بغير إذنه وهو محال على الله تعالى فإنه لا يصادف لغيره ملكاً حتى يكون تصرفه فيه ظالماً ؛ ويدل على جواز ذلك وجوده فإن ذبح الهائم إيلام لما وماصب عليها من أنواع العذاب من جهة الآدميين لم يتقدمها جريمة . فإن قيل : إن الله تعالى يحشرها ويجازيها على قدر ما قاسته من الآلام ويجب ذلك على الله سبحانه ؟ فنقول : من زعم أنه يجب على الله إحياء كل نملة وطئت وكل بقعة عركت حتى يثيبها على آلامها فقد خرج عن الشرع والعقل ؛ إذ يقال وصف الثواب والحشر بكونه واجبا عليه إن كان المراد به أن يتضرر بتركه فهو محال ، وإن أريد به غيره فقد سبق أنه غير مفهوم إذ خرج عن المعاني المذكورة للواجب (الأصل السابع) أنه تعالى يفعل بعباده ما يشاء فلا يجب عليه رعاية الأصلح لعباده لما ذكرناه من أنه لا يجب عليه سبحانه شيء بل لا يعقل في حقه الوجوب فإنه (لا يسأل عما يفعل وهم يسألون) وليست شعري بما يجب للمعتزلي في قوله « إن الأصلح واجب عليه » في مسألة لمرضاها عليه ؛ وهو أن يفرض مناظرة في الآخرة بين صبي وبين بالغ مائة مسلمين فإن الله سبحانه يريد في درجات البالغ ويفضله على الصبي لأنه يحب بالإيمان والطاعات بعد البلوغ ، ويجب عليه ذلك . عند المعتزلي . فلو قال الصبي : يارب لم رفعت منزلة على فيقول : لأنه بلغ واجتهد في الطاعات ، ويقول الصبي : أنت أمتي في الصبا فكان يجب عليك أن تديم حياتي حتى أبلغ فأجتهد . فقد عدلت عن العدل في التفضل عليه بطول العمر له دوني فلم فضله ؟ فيقول الله تعالى : لأنني علست أنك لو بلغت لأشركت أو عصيت فكان الأصلح لك الموت في الصبا . هذا عند المعتزلي عن الله عز وجل . وعند هذا ينادى الكفار من دركات لظى ويقولون : يارب أما علست أننا إذا بلغنا أشركتنا فهلا أمتنا في الصبا فإننا راضينا بما دون منزلة الصبي المسلم ؟ فإذا يجب من ذلك وهل يجب عند هذا إلا القطع بأن الأمور الإلهية تتعالى بحكم الجلال عن أن توزن بميزان أهل الاعتزال ؟ • فإن قيل : مهما قدر على رعاية الأصلح للعباد ثم سلب عليهم أسباب العذاب كان ذلك قبيحاً لا يليق بالحكمة ؟ قلنا : القبح ما لا يوافق الغرض حتى إنه قد يكون الشيء قبيحاً عند شخص حسناً عند غيره إذا وافق غرض أحد مهادن الآخر حتى يستصبح قتل الشخص أوليائه ويستحسنه أعداؤه . فإن أريد بالقبيح ما لا يوافق غرض الباري سبحانه فهو محال إذ لا غرض له فلا يتصور منه قبح كما لا يتصور منه ظلم إذ لا يتصور منه التصرف في ملك الغير . وإن أريد بالقبيح ما لا يوافق غرض الغير فلم قلتم إن ذلك عليه محال ؟ وهل هذا إلا مجرد شبه يشهد بخلافه ما قد فرغناه من عاصمة أهل النار ؟ ثم الحكيم معناه العالم بمقتضى الأشياء القادر على إحكام فعلها على وفق إرادته وهذا من أين يوجب رعاية

الأصلح ؟ وأما الحكم منا بראى الأصلح نظرا لنفسه ليستفيد به في الدنيا ثم في الآخرة ثوابا أو يدفع به عن نفسه آفة . وكل ذلك محال على الله سبحانه وتعالى (الأصل الثامن) أن معرفة الله سبحانه وطاعته واجبة بإيجاب الله تعالى وشرعه لا بالعقل - خلافا للمتزلة - لأن العقل وإن أوجب الطاعة فلا يغلو إما أن يوجبها لغير فائدة وهو محال فإن العقل لا يوجب العبث ، وإما أن يوجبها لفائدة وغرض وذلك لا يغلو إما أن يرجع إلى المعبود ذلك محال في حقه تعالى فإنه يتقدس عن الأغراض والفوائد بل الكفر ، والإيمان والطاعة والعصيان في حقه تعالى سيات ، وإما أن يرجع ذلك إلى غرض العبد وهو أيضا محال لأنه لا غرض له في الحال بل يتعب به وينصرف عن الشهوات لسيئه وليس في المال إلا التراب والعقاب . ومن أين يعلم أن الله تعالى يثيب على المعصية والطاعة ولا يعاقب عليهما مع أن الطاعة والمعصية في حقه يتساويان ، إذ ليس له إلى أحدهما ميل ولا به لأحدهما اختصاص وإنما عرف تمييز ذلك بالشرع ، ولقد زل من أخذ هذا من المقايسة بين الخالق والمخلوق حيث يفرق بين الشكر والكفران لما له من الارتياح والاعتزاز والتلذذ بأحدهما دون الآخر ه فإن قيل : فإذ لم يجب النظر والمعرفة إلا بالشرع والشرع لا يستقر ما لم ينظر المكلف فيه ؛ فإذا قال المكلف للشيء : إن العقل ليس يوجب على النظر والشرع لا يثبت عندى إلا بالنظر ولست أقدم على النظر ، أدى ذلك إلى إلحاح الرسول صلى الله عليه وسلم ؟ قلنا : هذا بضاهي قول القائل لوائف في موضع من المواضع إن وراك سبعا ضاريا فإن لم يبرح عن المكان قتلك وإن التفت وراك . ونظرت عرف صدق ، فيقول الواقف لا يثبت صدقك ما لم ألتفت ورائي ولا ألتفت ورائي ، ولا أنظر ما لم يثبت صدقك ؛ فيدل هذا على حماقة هذا القائل وتهدئه للهلاك ولا ضرر فيه على المهادي المرشد ؛ فكذلك التي صلى الله عليه وسلم يقول : إن وراكم الموت ودونه السباع الضارية والنيران المحرقة إن لم تأخذوا منها حذركم فترغفوا إلى صدق بالاتفات إلى معجزتي وإلا هلكم ، فمن التفت عرف واحترز ونجا ومن لم يلتفت وأصر هلك وتردى ولا ضرر على إن ملك الناس كلهم أجمعون ، وإنما على البلاغ المبين ، فالشرع يعرف وجود السباع الضارية بعد الموت ، والعقل يفيدهم كلامه والإحاطة بإمكان ما يفعله في المستقبل . والطبع يستحث على الجذر من الضرر ، ومعنى كون الشيء واجبا أن في تركه ضررا ، ومعنى كون الشرع موجبا أنه معرف الضرر المتوقع فإن العقل لا يهتدي إلى التهديد للضرر بعد الموت عند اتباع الشهوات ، فهذا معنى الشرع والعقل وتأثيرهما في تقدير الواجب ، ولولا خوف العقاب على ترك ما أمر به لم يكن الواجب ثابتا ، إذ لا معنى للواجب إلا ما يرتبط بتركه ضرر في الآخرة (الأصل التاسع) أنه ليس يستحيل بعثة الأنبياء عليهم السلام - خلافا للبراهمة - حيث قالوا : لا فائدة في بعثهم إذ في العقل مندوحة عنهم لأن العقل لا يهتدي إلى الاتصال المتنجية في الآخرة كما لا يهتدي إلى الأدوية المفيدة للصحة ، لحاجة الخلق إلى الانبياء كحاجتهم إلى الأحياء ولكن يعرف صدق الطبيب بالتجربة ويعرف صدق النبي بالمعجزة . (الأصل العاشر) أن الله سبحانه قد أرسل محمدا صلى الله عليه وسلم خاتما للنبيين ونافعا لما قبله من شرائع اليهود والنصارى والصابئين ؟ وأيده بالمعجزات الظاهرة والآيات الباهرة كأنشقاق القمر ^(١) وتسييح الحصى ^(٢) وإنطاق العجما ^(٣) وما تفصير من بين أصابعه من الماء . ومن آياته الظاهرة التي تحدى بها - مع كافة العرب - القرآن العظيم

(١) حديث : انشقاق القمر ؛ متفق عليه من حديث أنس وابن مسعود وابن عباس (٢) حديث : تسييح الحصى ؛ أخرجه البيهقي في دلائل النبوة من حديث أبي ذر . وقال صالح بن أبي الأخضر ليس بالمحافظ والمهذوب رواية رجل من بني سلم لم يسم من أبي ذر (٣) حديث : انطالق العجما ، أخرجه أحمد والبيهقي بإسناد صحيح من حديث يعل بن مرة في الجبر الذي شكك في النبي صلى الله عليه وسلم أهله . وقد ورد في كلام السب والقتب والحرة أحاديث رواها البيهقي في الدلائل

فأنهم مع تميزهم بالفصاحة والبلاغة تهدقوا لبه ونبيه وقتله وإخراجه - كما أخبر الله عز وجل - عنهم ولم يقدرُوا على معارضته بمثل القرآن ، إذ لم يكن في قدرة البشر الجمع بين جرالة القرآن ونظمه ، هذا مع ما فيه من أخبار الأولين مع كونه أميا غير مارس للكتب والإتيان عن النيب في أمور تحقق صدقه فيها في الاستقبال كقوله تعالى (لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين حافين دونكم ومقصرين) وكقوله (ألم غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيفلون في بضع سنين) ووجه دلالة المعجزة على صدق الرسل أن كل ما هجر عنه البشر لم يسكن إلا فعلا لله تعالى . فهما كان مقرونا بتحدى النبي صلى الله عليه وسلم ينزل منزلة قوله ، صدقت ، وذلك مثل القائل بين يدي الملك المصطفى على رعيته أنه رسول الملك إليهم فإنه مهما قال لذلك إن كنت صادقا فقم على سريرك فلا تأرقفد - على خلاف عادتك - ففعل الملك ذلك حصل الحاضرين علم ضروري بأن ذلك نازل منزلة لقوله ، صدقت ،

الركن الرابع في السمعيات وتصديقه صلى الله عليه وسلم فيما أخبر عنه

وملارده على عشرة أصول

(الأصل الأول) الحشر والنشر ^(١) وقد ورد بهما الشرع وهو حق والتصديق بهما واجب لأنه في العقل ممكن ؛ ومعناه الإعادة بعد الإيفاء وذلك مقدوره تعالى كابتداء الإنشاء قال الله تعالى (قال من ينجي العظام وهي رميم قل يحياها الذي أنشأها أول مرة) فاستدل بالابتداء على الإعادة وقال عز وجل (ما خلقكم ولا بشكم إلا كنس واحدة) والإعادة ابتداء ثان فهو ممكن كالابتداء الأول (الأصل الثاني) سؤال منكروه وتكثير ^(٢) وقد وردت به الأخبار فيجب التصديق به لأنه ممكن إذ ليس يستدعي إعادة الحياة إلى جوه من الأجزاء الذي به فهم الخطاب وذلك ممكن في نفسه ولا يدفع ذلك ما يشاهد من سكوت أجزاء الميت وعدم سماعنا السؤال له ، فإن التامم ساكن بظاهره ويدرك باطنه من الآلام والذات ما يحس بتأثيره عند التثبي ، وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسمع كلام جبريل عليه السلام ويشاهده ومن حوله لا يسمعون ولا يرونه ^(٣) ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء فلذا لم يخلق لهم السمع والرؤية لم يدركوه (الأصل الثالث) عذاب القبر وقد ورد الشرع به قال الله تعالى (النار يمرضون عليها غدوا وعشيا ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب) واشتهر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم والسلف الصالح الاستعاذة من عذاب القبر ^(٤) وهو ممكن فيجب التصديق به ولا يمنع من التصديق به تفرق أجزاء الميت في بطون السباع وحواصل الطيور ؛ فإن المدرك لآلم العذاب من الحيوان أجزاء مخصوصة بقدر الله تعالى على إعادة الإدراك إليها (الأصل الرابع) الميزان وهو حق قال الله تعالى (ولنضع الموازين القسط ليوم القيمة) وقال تعالى (فن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلطون) ومن خفت موازينه الآية ووجهها أن الله تعالى يحدث في صحائف الأعمال وزنا بحسب درجات الأعمال عند الله تعالى فتصير مقادير أعمال العباد معلومة

(١) - حديث : الحشر والنشر ، أخرجه الشيخان من حديث ابن عباس ، لم ينسك لهمودون إلى الله .. الحديث « ومن حديث سهل ، ومحمد الناس يوم القيامة على أرض بيضاء .. الحديث » ومن حديث عائشة « يوم القيامة حانة » ومن حديث أبي هريرة « يحضر الناس على ثلاث طرائق .. الحديث » ولابن ماجه من حديث ميمونة مولاة النبي صلى الله عليه وسلم « أفتنا في بيت المقدس وأرض الحمير والمقدور .. الحديث » وإسناد جيد (٢) - حديث : سؤال منكروه وتكثير ، تقدم

(٣) - حديث « كان يسمع كلام جبريل وينشأه ومن حوله لا يسمعون ولا يرونه » أخرجه البخاري ومسلم من حديث عائشة قالت « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما يا عائشة ههنا جبريل يترتك السلام وعليه السلام ورحمة الله وبركاته ترى ما لا أرى » قلت وهذا هو الأغلب والأشد رأى جبريل جماعة من الصحابة منهم عمر وابنه عبد الله وكعب بن مالك ومالك وغيرهم .

(٤) - حديث « استأذن من عذاب القبر » أخرجه من حديث أبي هريرة وعائشة وقد تقدم

للمبدأ حتى يظهر لهم العدل في العقاب أو الفضل في المعفو وتضيف الثواب (الأصل الخامس) الصراط وهو جسر ممدود على متن جهنم أرق من الشعرة وأحد من السيف قال الله تعالى ﴿ فامدوهم إلى صراط الجحيم وتقوم إنهم مشرولون ﴾ وهذا ممكن فيجب التصديق به لأن القادر على أن يطير الطير في الهواء قادر على أن يسير الإنسان على الصراط (الأصل السادس) أن الجنة والنار مخلوقتان قال الله تعالى ﴿ وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين ﴾ ف قوله تعالى ﴿ أعدت ﴾ دليل على أنها مخلوقة فيجب إجزاءه على الظاهر إذ لا استحالة فيه ، ولا يقال لا فائدة في خلقهما قبل يوم الجزاء لأن الله تعالى ﴿ لا يستل عما يفعل وهم يسئلون ﴾ (الأصل السابع) أن الإمام الحق بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي رضي الله عنهم ولم يكن نص رسول الله صلى الله عليه وسلم على إمام أصلا ؛ إذ لو كان لسكان أولى بالظهور من نصب أحاد الولاة والأمراء هل الجنود في البلاد ولم يخف ذلك فكيف خفي هذا ؟ وإن ظهر فكيف اندوس حتى لم ينقل إلينا ؟ فلم يكن أبو بكر إماما إلا بالاختيار والبيعة وأما تقدير النص على غيره فهو نسبة الصحابة كلهم إلى مخالفة رسول الله صلى الله عليه وسلم وغزو الإجماع ، وذلك مما لا يستجري على اختراجه إلا الروافض ، واعتاد أهل السنة تركية جميع الصحابة والثناء عليهم كما أتى سبحانه وتعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم . وما جرى بين معاوية وعلي رضي الله عنهما كان مبليا على الاجتهاد لا منازعة من معاوية في الإمامة ؛ إذ كان علي رضي الله عنه أن تسليم قتلة عثمان مع كثرة دسائهم واختلاطهم بالمعسكر يؤدي إلى اضطراب أمر الإمامة في بنائها فرأى التأخير أصوب ، وظن معاوية أن تأخير أمرهم مع علم جنابيتهم يوجب الإغراء بالآلعة ويعرض النساء للسفك . وقد قال أفضل العلماء : كل يجتهد مصيب . وقال قائلون : المصيب واحد ولم يذهب إلى تحطته على ذو تحصیل أصلا (الأصل الثامن) أن فضل الصحابة رضي الله عنهم على تربيهم في الخلافة إذ حقيقة الفضل ما هو فضل عند الله عز وجل وذلك لا يطلع عليه إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقد ورد في الثناء على جميعهم آيات وأخبار كثيرة ^(١) وإنما يدرك دقائق الفضل والترتيب فيه المشاهدون للوحي والتذليل بقرائن الأحوال ودقائق التفصيل ، فلو لا فهمهم ذلك لما تعبوا الأمر كما لا تأخذهم في الله لومة لائم ولا يصرفهم عن الحق صارف . (الأصل التاسع) أن شرائط الإمامة بعد الإسلام والتكليف خمسة : الذكورة والورع والعلم والكفاية ونسبة قريش ؛ لقوله صلى الله عليه وسلم « الأئمة من قريش » ^(٢) ، وإذا اجتمع عدد من الموصوفين بهذه الصفات فالإمام من انقعدت له البيعة من أكثر الحلق ، والمخالف للأكثر باغ يجب رده إلى الانقياد إلى الحق (الأصل العاشر) أنه لو تمزج وجود الورع والعلم فيمن يتصدى للإمامة وكان في صرفة إثارة فتنة لا تطلق حكما بالمعاد إمامته ، لأن بين أن تحرك فتنة بالاستبدال ، فما يلقى المسلمون فيه من الضر يزيد على ما يفوتهم من نقصان هذه الشروط التي أثبتت لمزية المصلحة فلا يهتم أصل المصلحة شغفا بزيابها كالأديبي قصر وجههم مصرا وبين أن تحكم بخلق البلاد عن الإمام وفساد الأفضية وذلك محال . ونحن نقضي بنزول قضاء أهل البنى في بلادهم لميسر حاجتهم فكيف لا نقضي بصحة الإمامة عند الحاجة والضرورة ؟ فهذه الأركان الأربعة الحاوية للأصول الأربعين هي قواعد العقائد فمن اعتقدها كان موافقا لأهل السنة ومباينا لروح البدعة . ف الله تعالى يسد لنا بترقيقه ويهدينا إلى الحق وتحقيقه بنه دسة جوده وفضله ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وكل عبد مصطفى .

(١) حديث « الثناء على الصحابة » تقدم (٢) حديث « الأئمة من قريش » أخرجه السنن من حديث أس والماكم من حديث ابن عمر

الفصل الرابع من قواعد العقائد

في الإيمان والإسلام وما بينهما من الاتصال وما يتطرق إليه من الزيادة والنقصان

ووجه استثناء السلف فيه وفيه ثلاث مسائل

(مسألة ١) اختلفوا في أن الإسلام هو الإيمان أو غيره وإن كان غيره فهل هو منفصل عنه يوجد دونه أو مرتبط به يلزمه ؟ فقبل إنهما شيء واحد وقيل إنهما شيان لا يتواصلان وقيل إنهما شيان ولكن يرتبط أحدهما بالآخر . وقد أورد أبو طالب السكي في هذا كلاما شديدا الانطراب كثير التطويل فلهجهم الآن على التصريح بالحق من غير تعرج على نقل ما لا تحصيل له ، فنقول في هذا ثلاثة مباحث : بحث عن موجب اللفظين في اللغة ، وبحث عن المراد بهما في إطلاق الشرع ، وبحث عن حكمهما في الدنيا والآخرة ، والبحث الأول لغوي ، والثاني تفسيري ، والثالث فقهي شرعي . البحث الأول : في موجب اللغة ؛ والحق فيه أن الإيمان عبارة عن التصديق ؛ قال الله تعالى (وما أنت بمؤمن لنا) أي ؛ بمصدق ، والإسلام عبارة عن التسليم والاستسلام بالإذعان والانقياد وترك النزذ والإباء والعناد ، وللتصديق محل خاص وهو القلب ، واللسان ترجمان . وأما التسليم فإنه عام في القلب واللسان والجوارح فإن كل تصديق بالقلب فهو تسليم وترك الإباء والجحود وكذلك الاعتراف باللسان وكذلك الطاعة والانقياد بالجوارح . فوجب اللغة أن الإسلام أعم والإيمان أضيق فكان الإيمان عبارة عن أشرف أجزاء الإسلام ؛ فإذا كل تصديق تسليم وليس كل تسليم تصديقا ؛ البحث الثاني : عن إطلاق الشرع ؛ والحق فيه أن الشرع قد ورد باستعمالها على سبيل الترادف والتوارد وورد على سبيل الاختلاف وورد على سبيل التداخل ، أما الترادف ففي قوله تعالى (فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين ، فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين) ولم يكن بالاتفاق إلا بيت واحد وقال تعالى (يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فليبه توكوا إن كنتم مسلمين) وقال صلى الله عليه وسلم : « بني الإسلام على خمس ^(١) ، وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم مرة عن الإيمان فأجاب بهذه الخمس ^(٢) وأما الاختلاف فقوله تعالى (قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا) ومعناه استسلمنا في الظاهر ، فأراد بالإيمان هنا التصديق بالقلب فقط وبالإسلام الاستسلام ظاهرا باللسان والجوارح ، وفي حديث جبرائيل عليه السلام لما سأله عن الإيمان فقال : « أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبأنه الموت وبالحساب وبالقدر خيره وشره ، فقال : « ما الإسلام ؟ فأجاب بذكر الحاصل الخمس ^(٣) ، فعبّر بالإسلام عن تسليم الظاهر بالقول والعمل . وفي الحديث عن سعد أنه صلى الله عليه وسلم أعطى رجلا عطاء ولم يسط الآخر ؛ فقال له سعد : يا رسول الله تركت فلانا لم تعطه وهو مؤمن ؟ فقال صلى الله عليه وسلم أو سلم فأعاد عليه فأعاد رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(٤) ، وأما التداخل فما روى أيضا أنه

(١) حديث « بني الإسلام على خمس » أخرجه من حديث ابن عمر (٢) حديث « مثل عن الإيمان فأجاب بهذه الخمس أخرجه البيهقي في الاعتقاد من حديث ابن عباس في قصة وفد عبد القيس « تدرون » الإيمان : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وأن نبينا الصلاة وتؤتوا الزكاة وتصوموا وحضان وتحموا البيت الحرام » والحدِيث في الصحيحين لكن ليس فيه ذكر الحج وزاد « وأن تؤتوا حضا من المنى » (٣) حديث جبرائيل لما سأله عن الإيمان ؛ فقال أن تؤمن بالله وملائكته والهدية » أخرجه من حديث أبي هريرة ومسلم من حديث عمر دون ذكر « الحساب » فرواه البيهقي في البعث وقد تهدم (٤) حديث سعد « أعطى رجلا عطاء ولم يسط الآخر فقال له سعد يا رسول الله تركت فلانا لم تعطه وهو مؤمن فقال أو سلم الحديث » أخرجه بنحوه

سئل : فقيل أى الأعمال أفضل ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : الإسلام ، فقال : أى الإسلام أفضل ، فقال صلى الله عليه وسلم : الإيمان ^(١) ، وهذا دليل على الاختلاف وعلى التداخل وهو أوفق الاستعمالات فى اللغة لأن الإيمان عمل من الأعمال وهو أفضلها ، والإسلام هو تسليم إما بالقلب وإما باللسان وإما بالجوارح وأفضلها الذى بالقلب وهو التصديق الذى يسمى إيمانا والاستعمال لها على سبيل الاختلاف وعلى سبيل التداخل وعلى سبيل الترادف كله غير خارج عن طريق التجوز فى اللغة . أما الاختلاف فهو أن يجعل الإيمان عبارة عن التصديق بالقلب فقط وهو موافق للغة ، والإسلام عبارة عن التسليم ظاهراً وهو أيضاً موافق للغة فإن التسليم ببعض محال التسليم ينطلق عليه اسم التسليم ، فليس من شرط حصول الاسم عموم المعنى لكل محل يمكن أن يوجد المعنى فيه فإن من لم يسره ببعض بدنه يسمى لامساً وإن لم يستغرق جميع بدنه ، فإطلاق اسم الإسلام على التسليم الظاهر عند عدم تسليم الباطن مطابق للسان وعلى هذا الوجه جرى قوله تعالى ﴿ قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تَمُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا ﴾ وقوله صلى الله عليه وسلم فى حديث سعد ، أو مسلم ، لأنه فضل أحدهما على الآخر ، ويريد بالاختلاف تفاضل المسميين . وأما التداخل فوافق أيضاً للغة فى خصوص الإيمان وهو أن يجعل الإسلام عبارة عن التسليم بالقلب والقول والعمل جميعاً ، والإيمان عبارة عن بعض مداخل فى الإسلام وهو التصديق بالقلب وهو الذى عنيته بالتداخل وهو موافق للغة فى خصوص الإيمان وعموم الإسلام للكل ، وعلى هذا خرج قوله : الإيمان ، فى جواب قول السائل : أى الإسلام أفضل ، لأنه جعل الإيمان خصوصاً من الإسلام فأدخله فيه ، وأما استعماله فيه على سبيل الترادف بأن يجعل الإسلام عبارة عن التسليم بالقلب والظاهر جميعاً فإن كل ذلك تسليم تركذا الإيمان ويكون التصرف فى الإيمان على الخصوص بتعميمه وإدخال الظاهر فى معناه وهو جائز لأن تسليم الظاهر بالقول والعمل ثمرة تصديق الباطن ونقيضه ، وقد يطلق اسم الشجر ويراد به الشجر مع ثمره على سبيل التسامح فيصير بهذا التقدير من التعميم مراداً لاسم الإسلام ومطابقاً له فلا يزيد عليه ولا ينقص ؛ وعليه خرج قوله ﴿ فَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ البحث الثالث : عن الحجب الشرعى . والإسلام والإيمان حكمان أخريان ودنيوياً . أما الأخرى فهما الإخراج من النار ومنع التخليد إذ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يخرج من النار من كان فى قلبه مثقال ذرة من إيمان ^(٢) ، وقد اختلفوا فى أن هذا الحكم على ماذا يرتب ؟ وعبروا عنه بأن الإيمان ماذا هو ؟ فمن قائل إنه مجرد العقد ومن قائل يقول إنه عقد بالقلب وشهادة باللسان ومن قائل يزيد ثالثاً وهو العمل بالأركان ، ونحن نكشف الغطاء عنه ونقول من جمع بين هذه الثلاثة فلا خلاف فى أن مستقره الجنة وهذه درجة . الدرجة الثانية : أن يوجد اثنان وبعض الثالث - وهو القول والعقد وبعض الأعمال - ولكن ارتكب صاحبه كبيرة أو بعض الكبائر ؛ فمعد هذا قالت المعتزلة : خرج بهذا عن الإيمان ولم يدخل فى الكفر بل اسمه فاسق وهو على منزلة بين المنزلتين وهو مخد فى النار ؛ وهذا باطل كما سنذكره الدرجة الثالثة : أن يوجد التصديق بالقلب والشهادة باللسان دون الأعمال بالجوارح ، وقد

(١) حديث « سئل أى الأعمال أفضل فقال أى الإسلام فقال أى الإسلام أفضل فقال الإيمان » أخرجه أحمد والطبراني من حديث عمرو بن عبسة بالظن الأخير « فقال يا رسول الله أى الإسلام أفضل قال الإيمان » وأسناده صحيح

(٢) حديث « يخرج من النار من كان فى قلبه مثقال ذرة من الإيمان » أخرجه من حديث أبي سعيد الخدرى فى الشافعية « وفيه » أذهبوا فمن وجدتم فى قلبه مثقال ذرة من إيمان فأخرجوه . . الحديث « ولها من حديث أسد » فيقال أطلق فأخرج منها من كان فى قلبه مثقال ذرة - أو خرقة - من إيمان « لفظ البخارى » منها « وله تعليل من حديث أسد » يخرج من النار من قال لا إله إلا الله وقبى قلبه وزن ذرة من إيمان « وهو عندهما متصل بلفظ « خير » مكان « إيمان »

اختلفوا في حكمه ، فقال أبو طالب السكي : العمل بالجوارح من الإيمان ولا يتم دونه وادعى الإجماع فيه واستدل بأدلة تفسر بنقيض غرضه كقوله تعالى ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ إذ هذا يدل على أن العمل وراء الإيمان لامن نفس الإيمان ولا فيكون العمل في حكم الماد ؟ والعجب أنه ادعى الإجماع في هذا وهو مع ذلك ينقل قوله صلى الله عليه وسلم « لا يفكر أحد إلا بعد وجوده لما أقر به ^(١) » وينكر على المعتزلة قولهم بالتخليد في النار بسبب الكبائر ؛ والقاتل بهذا قائل بنفس مذهب المعتزلة ؛ إذ يقال له من صدق بقلبه وشهد بلسانه ومات في الحال فهل هو في الجنة ؟ فلا بد أن يقول نعم ، وفيه حكم بوجود الإيمان دون العمل ، فنزيد ونقول لوبيح حياتي دخل عليه وقت صلاة واحدة فتركها ثم مات أمزى ثم مات ، فهل يغفل في النار ؟ فإن قال نعم فهو مراد المعتزلة ، وإن قال لا فهو تصريح بأن العمل ليس ركنا من نفس الإيمان ولا شرطا في وجوده ولا في استحقاق الجنة به ، وإن قال أردت به أن يعيش مدة طويلة ولا يصل ولا يقدم على شيء من الأعمال الشرعية ، فنقول لما ضبطت تلك المدة وما عددت تلك الطاعات التي تركها يبطل الإيمان وما عدد الكبائر التي باركتها يبطل الإيمان ؟ وهذا لا يمكن التحكم بتقديره ولم يصبر إليه صائر أصلا . الدرجة الرابعة : أن يوجد التصديق بالقلب قيل أن ينطق باللسان أو يستعمل بالأعمال ومات فهل نقول مات مؤمنا بينه وبين الله تعالى ؛ وهذا مما اختلف فيه ومن شرط القول بتمام الإيمان يقول هذا مات قيل الإيمان وهو فاسد إذ قال صلى الله عليه وسلم « يخرج من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من الإيمان » وهذا قلب طافح بالإيمان فكيف يغفل في النار ؟ ولم يشترط في حديث جبريل عليه السلام للإيمان إلا التصديق بالله تعالى ودلائل كونه وكتبه واليوم الآخر كما سبق . الدرجة الخامسة : أن يصدق بالقلب ويساعده من العمر مهلة التعلق بكلمتي الشهادة وعلم وجهها ولكمته لم ينطق بها فيحتمل أن يحمل امتناعه عن التعلق كما متناعه عن الصلاة ، ونقول هو مؤمن غير غافل في النار ، والإيمان هو التصديق الخالص واللسان ترجمان الإيمان فلا بد أن يكون الإيمان موجودا بتمامه قبل اللسان حتى يترجمه اللسان وهذا هو الظاهر ؛ إذ لا مستند إلا إجماع موجب الألفاظ ووضع اللسان أن الإيمان هو عبارة عن التصديق بالقلب . وقد قال صلى الله عليه وسلم « يخرج من كان في قلبه مثقال ذرة » ولا ينعدم الإيمان من القلب بالسكوت عن النطق الواجب كما لا ينعدم بالسكوت عن الفعل الواجب ، وقال قائلون : القول ركن إذ ليس كلنا الشهادة [خيارا] عن القلب بل هو إنشاء عند آخر وإبتداء شهادة والتزام والأول أظهر ، وقد غلاني هذا طائفة المرجئة فقالوا هذا لا يدخل النار أصلا وقالوا إننا لنعلم من وإن عصي فلا يدخل النار وسبطل ذلك عليهم . الدرجة السادسة أن يقول بلسانه « لا إله إلا الله محمد رسول الله » ولكن لم يصدق بقلبه فلا تنسك أن هذا في حكم الآخرة من التكفار وأنه غفل في النار ، ولا تنسك في أنه في حكم الدنيا الذي يتعلق بالآخرة والولاية من المسلمين لأن قلبه لا يطلع عليه ، وعلينا أن نؤمن به أنه ما قاله بلسانه إلا وهو منطوق عليه في قلبه وإنما نفسك في أمر ثالث وهو الحكم الدنيوي فيما بينه وبين الله تعالى ، وذلك بأن يموت له في الحال قريب مسلم ثم يصدق بعد ذلك بقلبه ثم يستغنى ويقول كنت غير مصدق بالقلب حالة الموت والميراث الآن في يدي فهل يحل لي بيني وبين الله تعالى ؟ أو نكح مسلمة ثم صدق بقلبه هل تلزمه إعادة النكاح ؟ هذا عمل نظر فيحتمل أن يقال أحكام الدنيا منوطه بالقول الظاهر ظاهرا وباطنا ويحتمل أن يقال تناط بالظاهر في حق غيره لأن باطنه غير ظاهر لغيره وباطنه ظاهر له في نفسه بينه وبين الله تعالى ، والظاهر والعلم عند الله

(١) حديث « لا يفكر أحد إلا بعد وجوده لما أقر به » أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث أبي سعيد « ان يخرج أحد من الإيمان إلا بعد وجوده لما أقر به » وإسناده ضيف ..

تعالى أنه لا يحل له ذلك. الميراث ويؤمره إعادة التكاح ولذلك كان حذيفة رضى الله عنه لا يحضر جنازة من يموت من المنافقين وعمر رضى الله عنه كان راعى ذلك منه فلا يحضر إذا لم يحضر حذيفة رضى الله عنه ، والصلاة فعل ظاهر في الدنيا وإن كانت من العبادات . والتوفى عن الحرام أيضا من جملة ما يجب لله الصلاة لقوله صلى الله عليه وسلم : « طلب الحلال فريضة بعد فريضة » وليس هذا مانقضا لقولنا إن الإرتحار حكا للإسلام وهو الاستسلام إلى الاستسلام التام هو ما يشمل الظاهر والباطن ، وهذه مباحث فقهية ظنية تبقى على ظواهر الألفاظ والعمومات والأقيسة فلا ينبغي أن يغتنى القاصر في العلوم أن المطلوب فيه القطع من حيث جرت العادة بإبراده في فن الكلام الذى يطلب فيه القطع لما أفلع من نظر إلى المعاديات والمراسم في العلوم ، فإن قلت : لما شبهة المعتزلة والمرجئة وما حجة بطلان قولهم ؟ فأقول شبهتهم عمومات القرآن ؛ أما المرجئة فقالوا لا يدخل المؤمن النار وإن أتى بكل المعاصى لقوله عز وجل (فمن يؤمن بربه فلا يخاف نجسا ولا رهقا) ولقوله سبحانه وتعالى (والذين آمنوا بالله ورسوله أولئك هم الصديقون) الآية ولقوله تعالى (كلما أتى فيها فوج سألم خزنتها - إلى قوله - فكذبنا وقتلنا مازل الله من شيء) فقوله (كلما أتى فيها فوج) عام فليبين أن يكون من أتى في النار مكذبا ولقوله تعالى (لا يصلها إلا الأشقي الذى كذب وتولى) وهذا حصر وإثبات ونفى ولقوله تعالى (من جاء بالحسنة فله خير منها) وهم من فوج يرصد آمنون) فالإيمان رأس الحسنات ولقوله تعالى (والله يحب المحسنين) وقال تعالى (إنا لا نضع أجر من أحسن عملا) ولا حجة لهم في ذلك فإنه حيث ذكر الإيمان في هذه الآيات أريد به الإيمان مع العمل إذ بينا أن الإيمان قد يطلق ويراد به الإسلام وهو الموافقة بالقلب والقول والعمل ، ودليل هذا التأويل أخبار كثيرة في مناقبة العاصين ومقادير العقاب وقوله صلى الله عليه وسلم : يخرج من النار من كان في قلبه مقال ذرة من إيمان ، فكيف يخرج إذا لم يدخل ؟ ومن القرآن قوله تعالى (إن الله لا ينظر أن يفركه) ويفر ما دون ذلك لمن يشاء) والاستثناء بالمشيئة يدل على الانقسام وقوله تعالى (ومن يعص الله ورسوله فإن له نار جهنم خالدين فيها) وتخصيصه بالكفر تحكم وقوله تعالى (إلا الذين الظالمين في عذاب مقيم) وقال تعالى (ومن جاء بالبيت فكذب وجوههم في النار) فهذه العمومات في معارضة عموماتهم ولا بد من تليط التخصيص والتأويل على الجانبين لأن الأخبار مصرحة بأن العصاة يمدحون^(١) بل قوله تعالى (وإن منكم إلا واردها) كالصريح في أن ذلك لا بد منه لكل إذ لا يخلو مؤمن عن ذنب يرتكبه وقوله تعالى (لا يصلها إلا الأشقي الذى كذب وتولى) أراد به من جماعة مخصوصين أو أراد بالأشقي شخصا معينا أيضا وقوله تعالى (كلما أتى فيها فوج سألم خزنتها) أى فوج من الكفار ، وتخصيص العمومات قريب . ومن هذه الآية وقع للأشعري وطائفة من المتكلمين إنكار صيغ العموم وأن هذه الألفاظ يتوقف فيها إلى ظهور قرينة تدل على معناها . وأما المعتزلة فشبهتهم قوله تعالى (وإنى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى) وقوله تعالى (والمصر إن الإنسان لئى خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات) وقوله تعالى (وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتما مقضيا) ثم قال (ثم تجى الذين اتقوا) وقوله تعالى (ومن يعص الله ورسوله فإن له نار جهنم) وكل آية ذكر الله عز وجل العمل الصالح فيها مقرونا بالإيمان وقوله تعالى (ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها) وهذه العمومات أيضا مخصوصة بدليل قوله تعالى

(١) حديث : تصيب النصارى . أخرجه البخارى من حديث أنس . يعصين أوامرا سلخ من النار بذنوب أما بوعا . الحديث . ويأتى في ذكر الموت عدة أحاديث

(ويغفر مادون ذلك لمن يشاء) فيلبي فيلبي أن تبقى له مشيئة في مغفرة ماسوي الشرك . وكذلك قوله عليه السلام : يخرج من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان ، وقوله تعالى (إنا لانضيق أجر من أحسن عملا) وقوله تعالى (إن الله لانضيق أجر المحسنين) فكيف ينضيق أجر أصل الإيمان وجميع الطاعات بمصيبة واحدة ؟ وقوله تعالى (ومن يقتل مؤمنا متعمدا) أي لإيمانه وقد ورد حل مثل هذا السبب : فإن قلت : فقد مال الاختيار إلى أن الإيمان حاصل دون العمل . وقد اشتهر عن السلف قولهم : الإيمان عقد وقول وعمل ؛ فما معناه ؟ قلنا : لا يمدان عقد العمل من الإيمان لأنه مكمل له ومتمم كما يقال الرأس واليدان من الإنسان ومعلوم أنه يخرج عن كونه إنسانا بعدم الرأس ولا يخرج عنه بكونه مقطوع اليد وكذلك يقال التسيحات والتكبيرات من الصلاة وإن كانت لا تبطل بفقدها فالتصديق بالقلب من الإيمان كالرأس من وجود الإنسان إذ ينعدم بعدمه وبقي الطاعات كالأطراف بعضها أعلى من بعض وقد قال صلى الله عليه وسلم : لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن^(١) ، والصحابة رضي الله عنهم ما اعتقدوا مذهب المعتزلة في الخروج عن الإيمان بالزنا ولكن معناه غير مؤمن حقا إيمانا تاما كاملا كما يقال للماجر المقطوع الأطراف هذا ليس بإنسان أي ليس له الكمال الذي هو وراء حقيقة الإنسانية

(مسألة) فإن قلت : فقد اتفق السلف على أن الإيمان يزيد وينقص - يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية - فإذا كان التصديق هو الإيمان فلا يتصور فيه زيادة ولا نقصان ؟ فأقول : السلف هم الشهود العدول وما لاحد عن قولهم عدول لما ذكروه حق وإنما الشأن في فهمه ، وفيه دليل على أن العمل ليس من أجزاء الإيمان وأركان وجوده بل هو مزيد عليه يزيد به الزوائد موجود والتنافس موجود والثواب لا يزيد بذاته ، فلا يجوز أن يقال الإنسان يزيد برأسه بل يقال يزيد بجميته وسمنه ، ولا يجوز أن يقال الصلاة تزيد بالكسوف والسجود بل تزيد بالأداب والسنن فهذا تصريح بأن الإيمان له وجود ثم بعد الوجود يختلف حاله بالزيادة والنقصان . فإن قلت : فالإشكال قائم في أن التصديق كيف يزيد وينقص وهو خصلة واحدة ؟ فأقول : إذا تركنا المداينة ولم نكثر بتشفين من تذهب وكشفنا النطاء أرفع الإشكال فنقول : الإيمان اسم مشترك يطلق من ثلاثة أوجه الأول : أنه يطلق للتصديق بالقلب على سبيل الاعتقاد والتقليد من غير كشف والشرع صدوره وإيمان العوام بل إيمان الخلق كله إلا الخواص ، وهذا الاعتقاد عقدة عن القلب تارة تشدد وتقوى وتارة تضعف وتسترخي كالعقدة على الخيط مثلا . ولا تستبعد هذا واعتبره باليهودي وصلاته في عقيدته التي لا يمكن نزوعها عنها بتخويف وتحذير ولا بتخويل وعظ ولا تحقيق وبرهان وكذلك النصراني والمبتدعة وفيهم من يمكن تشكيكه بأدى كلام ويمكن استنواؤه عن اعتقاده بأدى استمالة أو تخويف مع أنه غير شاك في عقده كالأئول ولكنهما متفانونان في شدة التسميم . وهذا موجود في الاعتقاد الحق أيضا والعمل يؤثري نماء هذا التسميم وزيادته كما يؤثر سقي الماء في نماء الأنهار ولذلك قال الله تعالى (فزادتهم إيمانا) وقال تعالى (لزيدادوا إيمانا) مع إيمانهم) وقال صلى الله عليه وسلم فيما يروى في بعض الأخبار : الإيمان يزيد وينقص^(٢) ، وذلك بتأثير الطاعات في القلب وهذا لا يدرك إلا من راقب أحوال نفسه في أوقات المواظبة على العبادة والتجود لها بحضور القلب مع أوقات الفتر وادراك التفاوت في السكون إلى عقائد الإيمان في هذه الأحوال حتى يزيد عقده استقصاء على من يريد حله بالتشكيك بل من يمتد في القيم معنى الرحمة إذا عمل بموجب اعتقاده فسح رأسه وتلفظ به أدرك

(١) حديث : لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ، متفق عليه من حديث أبي هريرة

(٢) حديث : الإيمان يزيد وينقص ، أخرجه ابن عدى في السكائل وأبو الفيض في كتاب التواب من حديث أبي هريرة . وقال ابن عدى باطل فيه محمد بن أحمد بن حرب الملقب بالكذاب وهو عند ابن منبه موقوف على أبي هريرة وابن عباس وأبي الرواد

من باطنه تأكيد الرحمة وتضاعفها بسبب العمل : وكذلك معتقد التواضع إذا عمل بموجبه عملاً مقبلاً أو ساجداً لغيره أحسن من قلبه بالتواضع عند إقدامه على الخدمة . وهكذا جميع صفات القلب تصدر منها أعمال الجوارح ثم يعود أثر الأعمال عليها فيؤكدها ويزيدها ، وسيأتي هذا في ربيع المنجيات والمهلكات عند بيان وجه تعلق الباطن بالظاهر والأعمال بالمقائد والقلوب فإن ذلك من جنس تعلق الملك بالملكوت وأعني بالملك عالم الشهادة المدرك بالحواس وبالملكوت عالم الغيب المدرك بنور البصيرة والقلب من عالم الملكوت والأعضاء وأعمالها من عالم الملك . ولطف الارتباط ودقته بين العالمين انتهى إلى حد ظن بعض الناس اتحاداً أحدهما بالآخر وظن آخرون أنه لا عالم إلا عالم الشهادة وهو هذه الأجسام المحسوسة . ومن أدرك الأمرين وأدرك تعلقهما ثم ارتباطهما عبر عنه فقال :

رق الزجاج ووقت الخمر وتغابها قفشاكل الأمر
فكأنما خمر ولا قدح وكأنما قدح ولا خمر

ولنرجع إلى المقصود فإن هذا العلم خارج عن علم المعاملة ولكن بين العليين أيضاً اتصال وارتباط فذلك ترى علوم المكاشفة تسلك كل ساعة على علوم المعاملة إلى أن تتكشف عنها بالتكليف فهذا وجه زيادة الإيمان بالعبادة بموجب هذا الإطلاق ، ولهذا قال على كرم الله وجهه : إن الإيمان ليبدو لمة يضاء فإذا عمل العبد الصالحات نمت فزادت حتى يبيض القلب كله وإن التفاني ليدور نكتة سوداء فإذا انتهك الحرامات نمت وزادت حتى يسود القلب كله فيطبع عليه فذلك هو الختم وتلا قوله تعالى (كلا بل ران على قلوبهم) الآية . الإطلاق الثاني : أن يراد به التصديق والعمل جميعاً كما قال صلى الله عليه وسلم « الإيمان بضع وسبعون باباً »^(١) ، وقال صلى الله عليه وسلم « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ، وإذا دخل العمل في مقتضى لفظ الإيمان لم تحذف زيادته وتقصاته وهل يؤثر ذلك في زيادة الإيمان الذي هو مجرد التصديق ؟ هذا فيه نظر وقد أشرنا إلى أنه يؤثر في . الإطلاق الثالث : أن يراد به التصديق البقيني على سبيل الكشف وانسراح الصدر والمخاضة بنور البصيرة وهذا أبعد الأقسام عن قبول الزيادة ولكن أقول الأمر البقيني الذي لاشك فيه تختلف طمأنينة النفس إليه فليس طمأنينة النفس إلى أن لا يتبين أكثر من الواحد كطمأنيتها إلى أن العالم مصنوع حادث وإن كان لاشك في واحد منهما فإن اليقينييات تختلف في درجات الإيضاح ودرجات طمأنينة النفس إليها ، وقد تميزنا لهذا في فصل اليقين من كتاب العلم في باب علامات علماء الآخرة فلا حاجة إلى الإعادة . وقد ظهر في جميع الإطلاقات أن ما قالوه من زيادة الإيمان وتقصاته حق وكيف وفي الأخبار « أنه يخرج من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان » وفي بعض المواضع في خبر آخر « مقال دينار »^(٢) ، فأى معنى لاختلاف مقاديره إن كان ما في القلب لا يتفاوت ؟

(مسألة) فإن قلت : ما وجه قول السلف « أنا مؤمن إن شاء الله » والاستكثار شك والصك في الإيمان كفر وقد كانوا كلهم يسمعون عن جزم الجواب بالإيمان ويحترزون عنه . فقال سفيان الثوري رحمه الله ، من قال أنا مؤمن عند الله فهو من الكذابين ومن قال أنا مؤمن حقاً فهو بدعة ، فكيف يكون كاذباً وهو يعلم أنه مؤمن في نفسه ومن كان مؤمناً في نفسه كان مؤمناً عند الله ؟ كما أن من كان طويلاً وسعياً في نفسه وعلم ذلك كان كذلك عند الله وكذلك من

(١) حديث « الإيمان بضع وسبعون باباً » وذكر بعد هذا أفراد فيه « أداها لامة الأذى من الطريق » أخرجه البخاري وصححه من حديث أبي هريرة « الإيمان بضع وسبعون » زاد مسلم في رواية « وأفتابها قول لا إله إلا الله وأداها » لم يذكره ورواه فقط الأصناف الثماني وصححه . (٢) حديث « يخرج من النار من كان في قلبه مثقال دينار » متفق عليه من حديث أبي سعيد ، وسيأتي ذكر الموت وما بعده

كان مسرورا أو عريانا أو مهيما أو بهيما ، ولو قيل للإنسان هل أنت حيوان : لم يحسن أن يقول أنا حيوان إن شاء الله . ولما قال سفيان ذلك قيل له فإذا تقول ؟ قال : قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وأى فرق بين أن يقول آمنا بالله وما أنزل إلينا وبين أن يقول أنا مؤمن ؟ وقيل للحسن : مؤمن أنت ؟ فقال إن شاء الله ، فقيل له : لم تستثنى يا أبا سعيد في الإيمان ؟ فقال أخاف أن أقول نعم فيقول الله سبحانه كذب يا حسن فتحق على الكلفة . وكان يقول : ما يؤمنني أن يكون الله سبحانه قد اطلع على بعض ما يكره ففتنى وقال اذهب لأقبلت لك عملا ؛ فأنا أعمل في غير معمل . وقال إبراهيم بن آدم : إذا قيل لك مؤمن أنت ؟ فقل لا إله إلا الله وقال مرة : قل أنا لا أشك في الإيمان وسؤالك إياي بدعة . وقيل لعقمة : مؤمن أنت ؟ قال : أرجو إن شاء الله . وقال الثوري : نحن مؤمنون بالله وملائكته وكتبه ورسله وما يدرى ما نحن عند الله تعالى ؟ فامعنى هذه الاستنادات ؟ فالجواب : أن هذا الاستثناء صحيح وله أربعة أوجه ؛ وجهان مستندان إلى الشك لا في أصل الإيمان ولكن في عاقبته أو كماله ، وجهان لا يستندان إلى الشك . الوجه الأول - الذى لا يستند إلى معارضة الشك : الاحتراز من الجرم خيفة ما فيه من تزكية النفس قال الله تعالى (فلا تزكوا أنفسكم) وقال تعالى (ألم تر إلى الذين يركون أنفسهم) وقال تعالى (انما كيف يفترون على الله الكذب) وقيل لحكيم : ما الصدق القبيح : فقال : تمام المرء على نفسه . والإيمان من أعلى صفات المجد والجرم تزكية مطلقة وصيغة الاستثناء كأنها مقل من عرف التزكية ، كما يقال للإنسان أنت طيب أو فقيه أو مفسر ؟ فيقول : نعم إن شاء الله ، لا في معرض التشكيك ولكن لإخراج نفسه عن تزكية نفسه فالصيغة صيغة التردد والتضعيف لنفس الحبيب ومعناه التضعيف للائتمار من لوازم الخير وهو التزكية . وهذا التأويل لوسل عن وصف ذم لم يحسن الاستثناء . الوجه الثاني : التأديب بذكر الله تعالى في كل حال وإسالة الأمور كلها إلى مشيئة الله سبحانه فقد أدب الله سبحانه نبيه صلى الله عليه وسلم فقال تعالى (ولا تقولوا لنبيه إني فاعل ذلك غدا إلا إن يشاء الله) ثم لم يقتصر على ذلك فيما لا يشك فيه بل قال تعالى (لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محظنن ردوسكم ومقصرن) وكان الله سبحانه عالما بأنهم يدخلون لا محالة وأنه شاهده ولكن المقصود تعليمه ذلك فتأديب رسول الله صلى الله عليه وسلم في ما كان يخبر عنه معلوما كان أو مشكوكا حتى قال صلى الله عليه وسلم لمأذخل المقابر السلام عليكم دار قوم مؤمنين وإنا إن شاء الله بكم لاحقون ^(١) . والحق بهم غير مشكوك فيه ولكن مقتضى الأدب ذكر الله تعالى وربها في الأمور به . وهذه الصيغة دالة عليه حتى صار يعرف الاستعمال عبارة عن إظهار الرغبة والتمنى ، فإذا قيل لك إن فلانا يموت سريعا فتقول إن شاء الله فيفهم منه رغبتك لانتشكك ، وإذا قيل لك فلان سيؤزل مرحه ويصعب فتقول إن شاء الله بمعنى الرغبة فقد صارت الكلمة معلولة عن معنى التشكيك إلى معنى الرغبة . وكذلك المعلوم إلى معنى التأديب لذكر الله تعالى كيف كان الأمر : الوجه الثالث : مستفاد الشك ومعناه أنا مؤمن حقا إن شاء الله . إذ قال الله تعالى لقوم مخصوصين بأحيائهم (أولئك هم المؤمنون حقا) فانقسموا إلى قسمين ويرجع هذا إلى الشك في كمال الإيمان لا في أصله ، وكل إنسان شاك في كمال إيمانه وذلك ليس بكفر . والشك في كمال الإيمان حق من وجهين ؛ أحدهما : من حيث إن الاتفاق يزيل كمال الإيمان وهو غنى لاتحقق البراءة منه . والثاني : أنه يكل بأعمال الطاعات ولا يدرى وجودها على الكمال : أما العمل فقد قال الله تعالى (إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون) فيكون

(١) حديث : لما دخل المقابر قال : السلام عليكم دار قوم مؤمنين .. الحديث . أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة

الثالث في هذا الصدق وكذلك قال الله تعالى (ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتب والنبين) ففرط عشرين وصفا كالوفاء بالعهد والصبر على الشدائد . ثم قال تعالى (أولئك الذين صدقوا) وقد قال تعالى (يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات) وقال تعالى (لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقال) الآية وقد قال تعالى (هم درجات عند الله) وقال صلى الله عليه وسلم ، الإيمان حريان وبإسائه القوى ^(١) ، الحديث وقال صلى الله عليه وسلم ، الإيمان بضع وسبعون بابا أدناها إمالة الأذى عن الطريق ، فهذا ما يدل على ارتباط كمال الإيمان بالأعمال وأما ارتباطه بالبراءة عن النفاق والشرك الحق فقله صلى الله عليه وسلم ، أربع من كن فيه فهو منافق عاصم وإن صام وصلى وزعم أنه مؤمن : من إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا اتهم خان وإذا غاصم فجر ^(٢) ، وفي بعض الروايات ، وإذا طاهد غدر ، وفي حديث أبي سعيد الخدري «القلب أربعة : قلب أجرد وفيه سراج يهره فذلك قلب المؤمن وقلب مصفح فيه إيمان ونفاق فقل الإيمان فيه كمثل البقلة يدهما الماء المذهب ومثل النفاق فيه كمثل القرحة يدهما القيح والصديد فأى المادتين غلب عليه حكم له بها ^(٣) ، وفي لفظ آخر ، غلبت عليه ذهبته به ، وقال عليه السلام ، أكثر منافق هذه الأمة قراؤها ^(٤) ، وفي حديث ، الشرك أخفى في أمت من ديب النمل على الصفا ^(٥) ، وقال حذيفة رضى الله عنه ، كان الرجل يتكلم بالكلمة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم يصير بها منافقا إلى أن يموت وإلى لاسمها من أحدكم في اليوم عشر مرات ^(٦) ، وقال بعض العلماء : أقرب الناس من النفاق من يرى أنه برىء من النفاق . وقال حذيفة : المنافقون اليوم أكثر منهم على عهد النبي صلى الله عليه وسلم يظهره وهم اليوم يظهره وهذا النفاق يصاد صدق الإيمان وكأله وهو خفي وأبعد الناس منه من يتخوفه وأفرجه منه من يرى أنه برىء منه . فقد قيل الحسن البصري : يقولون أن لا نفاق اليوم فقال يا أخى لو هلك المنافقون لاستوحشتم في الطريق . وقال هو أو غيره : لو بقيت للنفاقين أذاب ما قدرنا أن نلأ على الأرض بأفدانا ، وسمع ابن عمر رضى الله عنه رجلا يتمنئ للحجاج فقال : أريت لو كان حاضرا يسمع أكنت تتكلم فيه ؟ فقال : لا ، فقال : كما نعد هذا نفاقا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(٧) ، وقال صلى الله عليه وسلم ، من كان ذا لسانين في الدنيا جعله الله ذا لسانين في الآخرة ، وقال أيضاً صلى الله عليه وسلم ، شر الناس ذو الوجهين الذي يأتي هؤلاء بوجه ويأتي هؤلاء بوجه ، وقيل الحسن : إن قوما يقولون إنا لا نخاف النفاق ، فقال : والله لأن أكون أعلم أنى برىء من النفاق أحب إلى من تلأع الأرض ذهباً . وقال الحسن : إن من النفاق اختلاف اللسان والقلب ، والسر والملاية ، والمخل والفرج . وقال رجل لحذيفة رضى الله عنه : إنى أخاف أن أكون منافقا ، فقال : لو كنت منافقا ما خفت النفاق إن المنافق قد آمن النفاق . وقال ابن أبي مليكة : أدركت

(١) حديث « الإيمان حريان » تقدم في العلم (٢) حديث « أربع من كن فيه فهو منافق .. الحديث » متفق عليه من حديث عبد الله بن عمرو (٣) حديث « كالقلب أربعة : قلب أجرد .. الحديث » أخرجه أحمد من حديث أبي سعيد وفيه لئى ابن أبي سلمة غلط فيه (٤) حديث « أكثر منافق هذه الأمة قراؤها » أخرجه أحمد والطبراني من حديث عتبة بن حاصم (٥) حديث « الشرك أخفى في أمت من ديب النمل على الصفا » أخرجه أبو يعلى وابن ميثم وابن حبان في الضعفاء من حديث أبي بكر وأحمد والطبراني نحوه من حديث أبي موسى ، وسيأتى في قدم الجاه والراء (٦) حديث حذيفة « كان الرجل يتكلم بالكلمة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم يصير بها منافقا » الحديث . أخرجه أحمد بإسناد فيه جهالة ، وحديث حذيفة « المنافقون اليوم أكثر منهم على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم .. الحديث » أخرجه البخاري إلا أنه قال (شر) بلذكر (٧) حديث « سمع ابن عمر رجلا يتمنئ للحجاج فقال أريت لو كان حاضرا أكنت تتكلم فيه قال لا قال كما نعد هذا نفاقا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم » رواه أحمد والطبراني بصوره وليس فيه ترك الحجاج

للايمان ومائة - وفي رواية بخمسين ومائة - من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم كلهم يخافون النفاق . وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان جالساً في جماعة من أصحابه فذكروا رجلاً وأكثرواثناء عليه فينهام كذلك إذ طلع عليهم الرجل ووجهه يقطر ماء من أثر الرضوء وقد علق نعله بيده وبين عينيه أثر السجود فقالوا : يا رسول الله هو هذا الرجل الذي وصفناه ، فقال صلى الله عليه وسلم : أرى على وجهه سفة من الشيطان ، لجاء الرجل حتى سلم وجلس مع القوم فقال النبي صلى الله عليه وسلم : فندتك الله هل حدثت نفسك حين أشرفت على القوم أنه ليس فيهم خير منك ؟ فقال : اللهم نعم ^(١) ، فقال صلى الله عليه وسلم في دعائه : اللهم إني أستغفرك لما علمت ولم أعلم ، فقيل له : أتعترف يا رسول الله ؟ فقال : وما يؤمنني والقلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء ، وقد قال سبحانه (وما لهم من الله ما لم يكونوا يحتمسون) ^(٢) ، قيل في التفسير : عملوا أعمالاً ظنوا أنها حسنات فكانت في كفة السيئات . وقال سري السقطي : لو أن إنساناً دخل بستاناً فيه من جميع الأشجار عليها من جميع الطيور لخالطه كل طير منها بلغة ؟ فقال : السلام عليك يا أولي الله ، فكنت نفسه إلى ذلك كان أسيراً في يديها فهداه الأخبار والآثار تعرفه خطر الأمر بسبب دفاق النفاق والشرك الخفي وأنه لا يؤمن منه حتى كان حزين المخطئ رضى الله عنه يسأل حذيفة عن نفسه وأنه هل ذكر في المنافقين ؟ وقال أبو سليمان النراقى : سمعت من بعض الأمراء شيئاً فأردت أن أنكره فحلفت أن يأمر يقتل ولم أخف من الموت ولكن خشيت أن يعرض لقلى الترين للخلع عند خروج روحى فكففت . وهذا من النفاق الذى يضاد حقيقة الإيمان وصدقه وكأله وصفاه لأصله . فالتناقى نفاقان ، أحدهما : يخرج من الدين ويلحق بالكافرين ويسلك في زمرة المخالفين في التار . والثاني : يفضى بصاحبه إلى التار مدة أو ينقص من درجات عليين ويحبط من رتبة الصديقين وذلك مشكوك فيه ولذلك حسن الاستثناء فيه . وأصل هذا النفاق تنافرت بين السر والعلانية ، والأمن من مكر الله ، والمعجب ، وأمور أخرى لا يحيط بها إلا الصديقون . الوجه الرابع : وهو أيضاً مستند إلى الشك وذلك من خوف الخاتمة فإنه لا يدري أسلم له الإنسان عند الموت أم لا ؟ فإن ختم له بالكفر حبط عمله السابق لأنه موقوف على سلامة الآخر ، ولو سئل الصائم خضرة الثمار عن صحة صومه فقال : أنا صائم قطعاً ، فلو أفطر في أثناء نهاره بعد ذلك لتبين كذبه إذ كانت الصحة موقوفة على إتمام إلى غروب الشمس من آخر النهار . وكذا أن النهار ميقات تمام الصوم فالعمر ميقات تمام صحة الإيمان وصفه بالصحة قبل آخره بناء على الاستصحاب وهو مشكوك فيه ، والعاقبة غوفة ولاجلها كان يكاه أكثر الخائفين لأجل أنها ثمرة القضية الساجدة والمعية الأزلية التى لا تظهر إلا بظهور القضية بسلامة عليه لأحد من البشر ، لحرف الخاتمة خوف السابقة وربما يظهر في الحال ما سبقت الكلمة بتقيضه ، فمن الذى يدري أنه من الذين سبقت لهم من الله الحسنى ؟ وقيل في معنى قوله تعالى (وجاءت سكرة الموت بالحق) أى بالسابقة بمعنى أظهرتها . وقال بعض السلف : إنما يوزن من الأعمال خواتيمها . وكان أبو الدرداء رضى الله عنه يحفظ بالله ما من أحد يأمن أن يسلب إيمانه إلا سلبه . وقيل من الذنوب ذنوب عتويتها سوء الخاتمة نعوذ بالله من ذلك . وقيل هي عقوبات دعوى الولاية والكرامة بالافتراء . وقال بعض العارفين : لو عرضت على الشهادة عذاب النار والموت على التوحيد

(١) حديث : كان جالساً في جماعة من أصحابه فذكروا رجلاً فأكثرهثناء عليه فينهام كذلك إذ طلع عليهم الرجل ووجهه يقطر ماء من أثر الرضوء .. الحديث . أخرجه أحمد والبخاري والدارقطني من حديث أنس . (٢) حديث : اللهم إني أستغفرك لما علمت وما لم أعلم .. الحديث . أخرجه مسلم من حديث عائشة . اللهم إني أعوذ بك من شر ما عملت ومن شر ما لم أعمل ، ولأن بكر بن الصديق في الصغائر في حديث مرسل «وشر ما أعمل وشر ما لا أعمل»

عند باب الحجرة لاخترت الموت على التوحيد عند باب الحجرة لاني لأدري ما يمرض قلبي من التغير عن التوحيد إلى باب النار ؟ وقال بعضهم : لوهرفت واحدا بالتوحيد خمسين سنة ثم حال بيني وبينه سارية ومات لم أحكم أنه مات على التوحيد . وفي الحديث : من قال أنا مؤمن فهو كافر ومن قال أنا عالم فهو جاهل ^(١) . وقيل في قوله تعالى (وتحت كلمت ربك صدقا وعدلا) صدقا لمن مات على الإيمان وعدلا لمن مات على الشرك وقد قال تعالى (وفيه عاقبة الأمور) فهما كان الشك بهذه المثابة كان الاستثناء واجبا لأن الإيمان عبارة عما يفيد الجنة كما أن الصوم عبارة عما يبرئ الذمة . وما فسد قبل الغروب لا يبرئ الذمة فيخرج عن كونه صوما فكذاك الإيمان بل لا يبعد أن يسأل عن الصوم الماضي الذي لا يشك فيه بعد الفراغ منه فيقال أصحت بالأس ؟ فيقول نعم إن شاء الله تعالى إذ الصوم الحقيقي هو القبول والقبول غائب عنه لا يطلع عليه إلا الله تعالى فمن هذا حسن الاستثناء في جميع أعمال البر ويكون ذلك شكافي القبول ، إذ يمنع من القبول بعد جريان ظاهر شروط الصحة أسباب خفيفة لا يطلع عليها إلا رب الأرباب جل جلاله فيحسن الشك فيه . فهذه وجوه حسن الاستثناء في الجواب عن الإيمان وهي آخر ما نتم به ، كتاب قواعد العقائد ، ثم الكتاب بمحمد الله تعالى وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى كل عبد مصطفى

كتاب أسرار الطهارة

وهو الكتاب الثالث من ربيع العبادات

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي تطلب بعباده فتقدم بالطهارة ، وأفاض على قلوبهم تزيك أسرارهم أنوار الطهارة ، وأعد لهم طهارة لها الماء المخصوص بالزكاة والطهارة ، وصلى الله على النبي محمد المستغرق بنور الهدى أطراف العالم وأكافه ، وعلى آله الطيبين الطاهرين صلاة تحيينا بركائنا يوم المحافاة ، وتمنصب جنة بيننا وبين كل آفة . أما بعد . فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : بني الدين على النظافة ^(٢) . وقال صلى الله عليه وسلم : مفتاح الصلاة الطهور ^(٣) ، وقال الله تعالى (فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين) وقال النبي صلى الله عليه وسلم : الطهور نصف الإيمان ^(٤) ، وقال الله تعالى (ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم) فتفطن ذوو البصائر بهذه الظواهر أن أهم الأمور تطهير السرائر إذ يبعد أن يكون المراد بقوله صلى الله عليه وسلم : الطهور نصف الإيمان ، عمارة الظاهر بالتنظيف بإفاحة الماء وإلقائه وتخريب الباطن وإبقائه مشحونا بالأخبار والأقذار هيئات

(١) حديث « من قال أنا مؤمن فهو كافر ومن قال أنا عالم فهو جاهل » أخرجه الطبراني في الأوسط وانظر الأخير منه من حديث ابن عمر وفيه ليط بن أبي سلمة تقدم ، وانظر الأول روى من قوله يحيى بن أبي كثير رواه الطبراني في الأوسط بنقله من قال أنا في الجنة فهو في النار » وسنده ضعيف

كتاب الطهارة

(٢) حديث (بني الدين على النظافة) لم أجده هكذا ، وفي الشفاء لابن حبان من حديث عائشة (تغفروا لأن الإسلام نظيف) والطبراني في الأوسط بسند ضعيف جدا من حديث ابن مسعود (النظافة تدعوا إلى الإيمان) (٣) حديث (مفتاح الصلاة الطهور) أخرجه ت . من حديث علي ، قال الترمذي : هذا أصح شيء في هذا الباب وأحد (٤) حديث (الطهور نصف الإيمان) أخرجه ت من حديث رجل من بني سلمة وقاله . حسن يرواه مسلم من حديث أبي مالك الأشعري بنقله (غلط) كما في الإحياء

هيات ١ والطهارة لها أربع مراتب (المرة الأولى) تطهير الظاهر عن الأحداث وعن الآخيات والفضلات (المرة الثانية) تطهير الجوارح عن الجرائم والآثام (المرة الثالثة) تطهير القلب عن الأخلاق المذمومة والذائل المقنونة (المرة الرابعة) تطهير السر عاوى الله تعالى وهي طهارة الأنبياء صلوات الله عليهم والصديقين ، والطهارة في كل رتبة نصف العمل الذى فيها فإن الغاية القصوى في عمل السر أن يتكف له جلال الله تعالى وعظمته ولن تحمل معرفة الله تعالى بالحقيقة في السر ما لم يرتحل ماسوى الله تعالى عنه . ولذلك قال الله عز وجل (قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون) لأنهما لا يجتمعان في قلب (وما جعل الله لرجل في قلبين في جوفه) وأما عمل القلب فالغاية القصوى عمارته بالأخلاق الحمودة والمقائد المشروعة ولن يتصف بها عالم ينظف عن نقائصها من العقائد الفاسدة والذائل المقنونة ، فتطهيره أحد الشطرين وهو الشطر الأول الذى هو شرط في الثاني فكان الطهور شطر الإيمان بهذا المعنى ، وكذلك تطهير الجوارح عن التماهى أحد الشطرين وهو الشطر الأول الذى هو شرط في الثاني، فتطهيره أحد الشطرين وهو الشطر الأول وعمارته بالطاعات الشطر الثاني فهذه مقامات الإيمان ولكل مقام طبقة ولن ينال العبد الطبقة العالية إلا أن يجاوز الطبقة السافلة ، فلا يصل إلى طهارة السر عن الصفات المذمومة وعمارته بالمحمودة ما لم يفرغ من طهارة القلب عن الخلق المذموم وعمارته بالخلق الحمود ، ولن يصل إلى ذلك من لم يفرغ من طهارة الجوارح عن التماهى وعمارته بالطاعات ، وكذا عز المطلوب وشرف صعب مسلكه وطال طريقه وكثرت عقباته فلا تظن أن هذا الأمر يدرى كونه لا يدرى، نعم من عييت بصيرته عن تفاوت هذه الطبقات لم يفهم من مراتب الطهارة إلا الدرجة الأخيرة التي هي كالقشرة الأخيرة الظاهرة بالإضافة إلى الباطن المطلوب ، فصار يعم فيها ويستقي في مجاريها ويستوعب جميع أوقاته في الاستجماء وغسل الثياب وتلطيف الظاهر وطلب المياه الجارية الكثيرة ظنا منه بمحك الوسوسة وتمثيل العقل أن الطهارة المطلوبة الشريفة هي هذه فقط وجهالة بسيرة الأولين واستغراقهم جميع الهم والفكر في تطهير القلب وتساهلهم في أمر الظاهر ، حتى إن عمر رضى الله عنه مع علو منصبه تواضاً من مافى حزة نصرانية ، وحتى إنهم ما كانوا يفسلون اليدين السمومات والأطعمة بل كانوا يسمحون أصابعهم بأخص أقدامهم وعدوا الأشتان من البدع المحذرة ، ولقد كانوا يصلون على الأرض في المساجد ويمشون حفاة في الطرقات ، ومن كان لا يحمل بينه وبين الأرض حاجراً في مضجعه كان من أكابرهم ، وكانوا يجتصرون على الحجارة في الاستجماء . وقال أبو هريرة وغيره من أهل الصفة : وكنا نأكل الفواكه نقتطع الصلاة فندخل أصابعنا في الحصى ثم نفرسها بالتراب ونكبر^(١) ، وقال عمر رضى الله عنه : « ما كنا نعرف الأشتان في عصر رسول الله صلى الله عليه وسلم وإنما كانت نادياً بطون أرجلنا^(٢) كما إذا كنا نأكل الفواكه مسحاً بها ، ويقال أول ما ظهر من البدع بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أربع : المتأخر والأشتان والمأخذ والشمع . فكانت عنايتهم كلها بنظافة الباطن حتى قال بعضهم : الصلاة في التملين أفضل ، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما نزع نعليه في صلاته لم يخبر جبريل عليه السلام له أن بهما نجاسة وخلع الناس نعالهم قال صلى الله عليه وسلم لم خلعتم نعالكم^(٣) ؟ وقال النخعي في الذين يخلعون نعالهم « وددت لو أن محتاجاً جاء إليها فأخذها ، منكرأ لخلع النعال . فكذلك كان تساهلهم في هذه الأمور بل كانوا يمشون في طين الصوارع حفاة ويمسحون عليها ويصلون

(١) حديث « كنا نأكل الفواكه نقتطع الصلاة فندخل أصابعنا في الحصى .. الحديث » أخرجه . من حديث عبد الله بن الحارث بن جزء . ولم أره من حديث أبي هريرة . (٢) حديث عمر (ما كنا نعرف الأشتان على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وإنما كانت نادياً بطون أرجلنا .. الحديث) لم أجده من حديث عمر ولا بن ماجه نحوه مختصراً من حديث جابر . (٣) حديث « خلع نعلي في الصلاة لم أخبره جبريل عليه الصلاة والسلام أن عليهما نجاسة » أخرجه . وكذا وصحه من حديث أبي سفيان الجذري

في المساجد على الأرض، وبأكلون من دقيق البر والشعير وهو يندس بالدواب وببول عليه، ولا يمتزجون من هرق الإبل والحيل مع ككرة تمزجها في التماسات، ولم ينقل قط عن أحد منهم سؤال في دقائق التماسات فيكندا كان تساهلهم فيها. وقد انتهت التوبة الآن إلى طائفة يسمون الرعونة فطائفة يقولون هي مبنى الدين فأكثر أوثقهم في ترتيبهم الظواهر، ككفعل الماشطة بمرسها والباطن خراب مشحون بمخامئ السكب والصجب والجهل والرياء والنفاق ولا يستكرون ذلك ولا يتعجبون منه ولو اقتصر مقتصر على الاستعجاء بالحجر أو مشى على الأرض حافياً أو صلى على الأرض أو على بوارى المسجد من غير سجدة مفروشة أو مشى على الفرش من غير غلاف للقدم من آدم أو تواضع من آنية عجوز أو رجل غير متشفف أقاموا عليه القيامة وشذوا عليه التكبر ولقيوه بالتقذر وأخرجوه من زميرتهم واستكفوا عن مواكفته وغالطته. فسموا البذاءة التي هي من الإيمان فذارة والرعونة نطافة فانظر كيف صار المنكر معروفاً والمعروف منكراً وكيف اندرس من الدين رسمه كما اندرس حقيقته وعلمه. فإن قلت: أقول إن هذه العادات التي أحدثها الصوفية في هيئاتهم ونظافتهم من المخطورات والمكرات؟ فأقول حاش لله أن أطلق القول فيه من غير تفصيل ولكن أقول إن هذا التنظيف والتكلف وإعداد الآواني والآلات واستعمال غلاف القدم والإزار الملتصق به لدفع الغبار وغير ذلك من هذه الأسباب إن وقع النظر إلى ذاتها على سبيل التجرد فهي من المباحات وقد يقرن بها أحوال ونيات تلحقها تارة بالمحرمات وتارة بالمكرات، فأما كونها مباحة في نفسها فلا يخفى أن صاحبها متصرف بها في ماله وبدنه وريائه فيفعل بها ما يريد إذا لم يكن فيه إضاعة وإسراف، وأما مصيرها منكراً فإن يجعل ذلك أصل الدين ويفسر به قوله صلى الله عليه وسلم: «بني الدين على النظافة» حتى ينكر به على من يتساهل فيه الأولين أو يكون القصد به تزيين الظاهر للخلق وتحسين موقع فطرهم، فإن ذلك هو الرياء المخطور فيصير منكراً بهذين الاعتبارين، أما كونه معروفاً فإن يكون القصد منه الخير دون التزين وأن لا ينكر على من ترك ذلك ولا يؤخر بسببه الصلاة عن أحوال الأوقات ولا يشتغل به عن عمل هو أفضل منه أو عن علم أو غيره، فإذا لم يقرن به شيء من ذلك فهو مباح يمكن أن يجعل قرينة بالنسبة ولكن لا يتيسر ذلك إلا للبطالين الذين لو لم يشتغلوا بصرف الأوقات فيه لاشتغلوا بنوم أو حديث فيها لا يمين فيصير شغلهم به أولى لأن الاشتغال بالطهارات يمتد ذكر الله تعالى وذكر العبادات فلا بأس به إذا لم يخرج إلى منكر أو إسراف. وأما أهل العلم والمعمل فلا ينبغي أن يصرفوا من أوقاتهم إليه إلا قدر الحاجة فالزيادة عليه منكر في حقهم وتضييع العمر الذي هو أنفس الجواهر وأعزها في حق من قدر على الإبتغاء به. ولا يتعجب من ذلك فإن حسنات الأبرار سيئات المقربين. ولا ينبغي للبطال أن يترك النظافة وينكر على المتصوفة ويرغم أنه يتشبه بالصالحين إذ التقبى بهم في أن لا يتفزع إلا لما هو أهم منه، كما قيل لداود الطائي لم لا تشرح لحيتك؟ قال: إني إذن لغارغ. فلهذا لا أرى العالم ولا النظم والاعمال أن يضع وقتاً في غسل الثياب إحتراماً من أن يلبس الثياب المقصورة وتوها بالقصر قصيراً في الغسل؛ فقد كانوا في مصر الأول يصلون في الفراء المدبوغة ولم يعلم منهم من فزع بين المقصورة والمدبوغة في الطهارة والنجاسة، بل كانوا يمتثلون النجاسة إذا شاهدوها ولا يدقون فطرهم في استنباط الاحتالات الدقيقة؛ بل كانوا يتأملون في دقائق الرياء والظلم حتى قال سيفان التوري لرفيق له: كان يمشي معه فطر إلى باب دار مرفوع معمود: لا تمفل ذلك فإن الناس لو لم ينظروا إليه لكان صاحبه لا يتعاطى هذا الإسراف. فانظر إليه ممين له على الإسراف. فكانوا يمدون جمام الدمن لاستنباط مثل هذه الدقائق لافي احتالات النجاسة. فلو وجد العالم حامية

يتعاطى له غسل الثياب محتاطاً فهو أفضل فإنه بالإضافة إلى التساهل خير . وذلك العاصي يلتفت بتعاطيه إذ يشغل نفسه الأمانة بالسوء بعمل المباح في نفسه فيمتنع عليه المعاصي في تلك الحال . والنفس إن لم تشغل بشيء شغلت صاحبها وإذا قصد به التفرغ إلى العالم صار ذلك عنده من أفضل التراتب . فوقت العالم أشرف من أن يصرفه إلى مثله فيبقى محفوظاً عليه ، وأشرف وقت العاصي أن يشغل بمثله فيتوفر الخير عليه من الجوانب كلها . وليتفطن بهذا المثل لنظره من الأعمال وترتيب فضائلها ووجه تقديم البعض منها على بعض ، فتدقيق الحساب في حفظ لحظات العمر بصرفها إلى الأفضل أهم من التدقيق في أمور الدنيا بخلافها . وإذا عرفت هذه المقدمة واستنبطت أن الطهارة لها أربع مراتب . فاعلم أنا في هذا الكتاب لسنا نتكلم إلا في المرتبة الرابعة وهي نظافة الظاهر لأننا في الشطر الأول من الكتاب لا تعرض قصداً إلا للظواهر . فنقول طهارة الظاهر ثلاثة أقسام : طهارة عن الخبث وطهارة عن الحدث وطهارة عن فضلات البدن ، وهي التي تحصل بالقلم والاستعداد واستعمال التوبة والتختان وغيره .

القسم الأول : في طهارة الخبث ، والنظر فيه يتعلق بالمرال والموال به والإزالة

الطرف الأول في المرال

وهي النجاسة . والأعيان ثلاثة : جمادات وحوانات وأجزاء حيوانات . أما الجمادات فطاهرة كلها إلا الخروكل متبذل مسكر ، والحيوانات طاهرة كلها إلا الكلب والخنزير وما تولد منهما أو من أحدهما . فإذا ماتت فكلها نجسة إلا خمسة : الأدمى والسملكة والجراد ودود التفاح . وفي معناه كل ما يستحيل من الأطعمة . وكل ما ليس له نفس سائلة كالذباب والخنفساء وغيرهما فلا ينجس الماء بوقوع شيء منها فيه . وأما أجزاء الحيوانات فنقسم ، أحدهما : ما يقطع منه وحكمه حكم الميت . والشعر لا ينجس بالجز ، والموت والعظم نجس . الثاني : الرطوبات الخارجة من باطنه فكل ما ليس مستحيلاً ولا له مقز فهو طاهر كالدمع والرق واللعاب والخاص ، وما له مقز وهو مستحيل نجس ، إلا ما هو مادة الحيوان كاللبن والبيض . والقيح والدم والروث والبول نجس من الحيوانات كلها . ولا يعني عن شيء من هذه النجاسات قليلها وكثيرها إلا عن خمسة : الأول : أثر التجو بعد الاستنجار بالأحجار يعني عنه مالم بعد المخرج والثاني : طين الشوارع وغبار الروث في الطريق يعني عنه مع يقف النجاسة بقدر ما يتعدى الاحتراز عنه ، وهو الذي لا يلبس المتلطف به إلى تفرط أو سقطة . الثالث : ما على أسفل الخف من نجاسة لا يخلو الطريق عنها فيمن عنه بعد ذلك العاجية : الرابع : دم البراغيث ما قل منه أو كثر إلا إذا جاوز حد العادة سواء كان في ثوبك أو في ثوب غيرك فلبسته . الخامس : دم البثرات وما يتفصل منها من قيح وصديد . وذلك ابن عمر رضي الله عنه برة على وجهه تخرج منها الدم وصل ولم يقتل . وفي معناه ما يترشح من لطعات الدمايل التي تدمر غالباً وكذلك أثر القصد إلا ما يقع نادراً من خراج أو غيره فيلحق بدم الاستحاضة ، ولا يكون في معنى البثرات التي لا يخلو الإنسان عنها في أحواله . ومساحة الشرع في هذه النجاسات الحسن ترفكه أن أمر الطهارة على التساهل وما ابتدع فيها وسوسة لا أصل لها .

الطرف الثاني : في المرال به

وهو إما جامد وإما مائع ؛ أما الجامد فنجس الاستنجاء وهو مطهر تطهير تخفيف بشرط أن يكون صلباً طاهراً منشفاً غير محترق ، وأما المائعات فلا تزال النجاسات بشيء منها إلا الماء ؛ ولا كل ماء بل الطاهر الذي لا يتناحش

تغيره بمخالطة ما يستغنى عنه . ويخرج الماء عن الطهارة بأن يتغير بملاقاة نجاسة طعمه أو لونه أو ريحه . فإن لم يتغير وكان قريبا من مائتين وخمسين مثا - وهو خمسة مائة وطل برطل العراق - لم ينسج لقوله صلى الله عليه وسلم « إذا بلغ الماء قلتين لم يحمل خبثا ^(١) » وإن كان دونه صار نجسا عند الشافعي رضى الله عنه . هذا في الماء الراكد . وأما الماء الجاري إذا تغير بالنجاسة فالجربة المتغيرة نجسة دون ما فوقها وما تحته لأن جريات الماء متفصلات . وكذا النجاسة الجارية إذا جرت بمجرى الماء فالتنجس موقعها من الماء وما عن يمينها وشمالها إذا تقاصر عن قلتين . وإن كان جرى الماء أقوى من جرى النجاسة لما فوق النجاسة طاهر وما أسفل منها نجس وإن تباعد وكثر إلا إذا اجتمع في حوض قدر قلتين . وإذا اجتمع قلتان من ماء نجس طهر ولا يهود نجسا بالتفريق . هذا هو مذهب الشافعي رضى الله عنه . وكنت أود أن يكون مذهبه كذهب مالك رضى الله عنه في أن الماء وإن قل لا ينسج إلا بالتغير إذا الحاجة ماسة إليه ومثار الوسواس اشترط القلتين ، ولأجله شق على الناس ذلك : وهو لعمري سبب المشقة ويعرفه من مجربه ويتأمله . وما لا أشك فيه أن ذلك لو كان مشروطا لكان أول المواضع يستمر الطهارة : مكة والمدينة ؛ إذ لا يكثر فيها المياه الجارية ولا الراكدة الكثيرة . ومن أول عصر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى آخر عصر أصحابه لم تنقل واقعة في الطهارة ولا سؤال عن كيفية حفظ الماء عن النجاسات . وكانت أواني مياههم يتساقطها الصبيان والإماء الذين لا يعترفون عن النجاسات . وقد تروا عمر رضى الله عنه بما في جرة نصرانية ، وهذا كالصريح في أنه لم يعول إلا على عدم تغير الماء . وإلا فنجاسة النصرانية وإنما غالبية تعلم بطن قريب ، فإذا عسر القيام بهذا المذهب . وعدم وقوع السؤال في تلك الأعمار ؛ دليل أول . وفعل عمر رضى الله عنه : دليل ثان . والدليل الثالث : إصغاء رسول الله صلى الله عليه وسلم الإناء لقهقهة ^(٢) وعدم تغطية الأواني منها : بعد أن يرى أنها تاكل الفأرة ولم يكن في بلادهم حيض تلغ السائير فيها وكانت لا تنزل الأبار . والرابع : أن الشافعي رضى الله عنه نص على أن غسالة النجاسة طاهرة إذا لم تتغير ونجسة إذا تغيرت ، وأى فرق بين أن يلاقى الماء النجاسة بالورود عليها أو بورودها عليه ؟ وأى معنى لقول القائل إن قوة الورود تدفع النجاسة مع أن الورود لم يمنع مخالطة النجاسة ؟ وإن أحيل ذلك على الحاجة والحاجة أيضا ماسة إل هذا فلا فرق بين طرح الماء في إجابة فيها ثوب نجس أو طرح الثوب النجس في الإجابة وفيها ماء ؟ وكل ذلك متداد في غسل الثياب والأواني ، والخامس : أنهم كانوا يستنجون على أطراف المياه الجارية القليلة ، ولا خلاف في مذهب الشافعي رضى الله عنه أنه إذا وقع بول في ماء جار ولم يتغير أنه يجوز التوضؤ به وإن كان قليلا . وأى فرق بين الجاري والراكد ؟ وليت شعري هل الأحوال على عدم التغير أولى أو على قوة الماء بسبب الجريان ؟ ثم ماحدة تلك القوة أتجرى في المياه الجارية في أنابيب الحمامات أم لا ؟ فإن لم تجر فالفرق وإن جرت فالفرق بين ما يقع فيها وبين ما يقع في مجرى الماء من الأواني على الأبدان وهي أيضا جارية ؟ ثم البول أشد اختلاطا بالماء الجاري من نجاسة جامدة ثابتة إذا نفضي بأن يمسح به إرنال من يتغير نجس أن يجتمع في مستنقع قلتان ، فأى فرق بين الجامد والمائع والماء واحد والاختلاط أشد من المجامرة ؟ والسادس : أنه إذا وقع رطل من البول في قلتين ثم فرقنا فشكل كوز يتفرق منه طاهر ، ومعلوم أن البول منتثر فيه وهو قليل وليت شعري هل تحليل طهارته بعدم التغير أولى أو بقوة الماء بعد انقطاع الكثرة وزوالها مع

(١) حديث (إذا بلغ الماء قلتين لم يحمل خبثا) أخرجه أصحاب السنن وابن حبان وإنما كرمجحه من حديث ابن عمر .

(٢) حديث (إصغاء الإناء لقهقهة) ، أخرجه الطبراني في الأوسط والدارقطني من حديث عائشة ؟ وروى أصحاب السنن ذلك من

فصل أبي قتادة

تتفق بقاء أجزاء النجاسة فيها؟ والسابع: أن الحمامات لم تزل في الأعصار الحالية يتوخأ فيها المتشفون ويغسسون الأبدى والأرواح في تلك الحياض مع قلة الماء ومع العلم بأن الأبدى النجسة والطاهرة كانت تتوارد عليها. فهذه الأنوار مع الحاجة الشديدة تقوى في النفس أنهم كانوا ينظرون إلى عدم التغير مؤولين على قوله صلى الله عليه وسلم خلق الماء طهورا لانه شيء إلا ماغير طعمه أو لونه أو ريحه (١) وهذا فيه تحقيق، وهو أن طبع كل مائع أن يقلب إلى صفة نفسه كل مايقع فيه وكان مغلوبا من جهته؛ فكما ترى الكلب يقع في الملمحة فيستحيل ملما ويحكم بطهارته بصبرورته ملما وزوال صفة السلبية عنه، فكذلك الحبل يقع في الماء وكذا اللبن يقع فيه وهو قليل فتبطل صفته ويتصور بصفه الماء وينطبع بطبعه إلا إذا كثر وغلب وتعرف غلبته بقلبه طعمه أو لونه أو ريحه فهذا الميار. وقد أشار الشرع إليه في الماء القوي على إزالة النجاسة وهو جدير بأن يقول عليه فيندفع به الحرج ويظهر به معنى كونه طهورا إذ يقلب عليه فيطهره، كما صار كذلك فيما بعد القلتين وفي الغسالة وفي الماء الجاري وفي إصفاة الإناء للهرة ولا تظن ذلك ضوا إذ لو كان كذلك لكان كآثر الاستجماء ودم البراغيث حتى يصير الماء الملاقى له نجسا ولا ينجس بالغسالة ولا يبولغ السور في الماء القليل. وأما قوله صلى الله عليه وسلم لا يحمل خبثا، فهو في نفسه مهم فإنه يحمل إذا تغير. فإن قيل، أراد به إذا لم يتغير فيمكن أن يقال إنه أراد به أنه في الغالب لا يتغير بالنجاسات المعتادة؟ ثم هو تمسك بالمفهوم فيما إذا لم يبلغ قلتين، وترك المفهوم بأقل من الأدلة التي ذكرناها يمكن وقوله لا يحمل خبثا، فظاهره نفي الحبل أي يقلبه إلى صفة نفسه، كما يقال للملمحة لا تحمل كلبا ولاغيره أي يقلب، وذلك لأن الناس قد يستجرون في المياه القليلة وفي الفدران ويغسسون الأرواح النجسة فيها ثم يترددون في أنها تغيرت تغيرا مؤثرا أم لا؟ فتبين أنه إذا كان قلتين لا يتغير بهذه النجاسة المعتادة. فإن قلت: فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم لا يحمل خبثا، ومهما كثرت حملها فهذا يقلب عليك فإنها مهما كثرت حملها حكا كما حملها حسا. فلا بد من التخصيص بالنجاسات المعتادة على المذهبين جميعا. وعلى الجملة فيل في أمور النجاسات المعتادة إلى التساهل فيما من سيرة الأولين وحسب لمادة الوسواس وبذلك أفتيت بالطهارة فيما وقع الخلاف فيه في مثل هذه المسائل.

الطرف الثالث: في كيفية الإزالة

والنجاسة إن كانت حكيمة وهي التي ليس لها جرم محسوس فيمكن إجراء الماء على جميع مواردها، وإن كانت صيفية فلا بد من إزالة العين، وبقاء الطعم يدل على بقاء العين وكذا بقاء اللون إلا فيما يلتصق به فهو مغفوع عنه بعد الحث والقرص. أما الرائحة فيقاها يدل على بقاء العين ولا يبقى عنها إلا إذا كان القوة له رائحة فاتحة يمسر إلانها فالدلك والمصر مرات متواليات يقوم مقام الحث والقرص في اللون، والمزيل للوسواس أن يعلم أن الأشياء خلقت طاهرة يبين فما لا يشاهد عليه نجاسة ولا يحملها يقينا يصل معه، ولا ينبغي أن يتوصل بالاستبساط إلى تقدير النجاسات القسم الثاني: طهارة الأحداث، ومنها الوضوء والغسل والتيمم ويتقدمها الاستجماء، فلوورد كيفيةها على الترتيب مع آدابها وسننها مبتدئين بسبب الوضوء وآداب قضاء الحاجة إن شاء الله تعالى.

باب آداب قضاء الحاجة

ينبغي أن يبعد عن أعين الناظرين في الصعراء وأن يستتر بشيء إن وجده وأن لا يكشف عورته قبل الانتهاء

(١) حديث (خلق الله الماء طهورا لانه شيء إلا ماغير لونه أو طعمه أو ريحه) أخرجه ابن ماجه من حديث أبي أمامة بنيسابغ، وقد رواه يعقوب بن السنائي وأبو هارون والنسائي والترمذي من حديث أبي سعيد وصححه أبو داود وغيره

إلى موضع الجلوس وأن لا يستقبل الشمس والقمر وأن لا يستقبل القبلة ولا يستدبرها إلى إذا كان في بناء ، والعدول أيضا عنها في البناء أحب وإن استمر في الصحراء براحلته جاز وكذلك بذيله ، وأن يتقى الجلوس في محدث الناس وأن لا يبول في الماء الراكد ولا تحت الشجرة المثمرة ولا في الجحر ، وأن يتقى الموضع الصلب ومهاب الرياح في البول استنزاها من وشاشه وأن يتكى في جلوسه على الرجل اليسرى وإن كان في بنية يقدم الرجل اليسرى في الدخول والثاني في الخروج ولا يبول قائما . قالت عائشة رضي الله عنها : من حدثكم أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يبول قائما فلا تصدقوه ^(١) ، وقال عمر رضي الله عنه : رأي رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا أبول قائما فقال : يا عمر لا تميل قائما ^(٢) ، قال عمر : فابلت قائما بعد ، وفيه رخصة إذ روى حذيفة رضي الله عنه : أنه عليه الصلاة والسلام قال قائما فأبيت يوضو فتوضأ ومسح على خفيه ^(٣) ، ولا يبول في المغفل قال صلى الله عليه وسلم : عامة الوسواس منه ^(٤) ، وقال ابن المبارك : قد وسع في البول في المغفل إذا جرى الماء عليه ذكره الترمذي وقال عليه الصلاة والسلام : لا يبول أحدكم في مستحمه ثم يتوضأ فيه فإن عامة الوسواس منه ، وقال ابن المبارك : إن كان الماء جاريا فلا بأس به ولا يستحب شيئا عليه اسم الله تعالى أو رسوله صلى الله عليه وسلم ، ولا يدخل بيت الماء حاسر الرأس . وأن يقول عند الدخول : بسم الله أعوذ بالله من الرجس التجس الخبث الحثيث الشيطان الرجيم ، وعند الخروج : الحمد لله الذي أذهب عني ما يؤذيني وأبق عني ما ينفعني ، ويكون ذلك خارجا عن بيت الماء وأن يعد التبل قبل الجلوس وأن لا يستحب في موضع الحاجة وأن يستبرئ من البول بالتنضيع والثر : ثلاثا - وإمرار اليد على أسفل القضيب ولا يكثر التفكير في الاستبراء فيتوسوس ويشق عليه الأمر وما يحس به من بلى فأيقدر أنه بقية الماء . فإن كان يؤذيه ذلك فليرش عليه الماء حتى يقوى في نفسه ذلك ولا يسقط عليه الشيطان بالوسواس . وفي الخبر أنه صلى الله عليه وسلم فعله أعني رش الماء ^(٥) وقد كان أخفهم استبراء أفقهم فتدل الوسوسة فيه على قلة الفقه . وفي حديث سلمان رضي الله عنه : علنا رسول الله صلى الله عليه وسلم كل شيء حتى الخمراء فأمرنا أن لا نتدبج بعظم ولا روث ونهانا أن نستقبل القبلة بنافط أو بول ^(٦) ، وقال رجل لبعض الصحابة من الأعراب وقد غاصمه : لأحسبك تحسن الخمراء قال : بلى وأهلك إني لأحسناوإني بها لحاذق أبعد الأثر وأعد المدر واستقبل الشيع وأستدبر الرج وأقمي إقصاء الطيب وأجفل لإجفل النعام - الشيع نبت طيب الرائحة بالبادية ، والإقصاء مهنا أن يستوفز على صدور قدميه ، والإجفل أن يرفع جمزه . ومن الرخصة أن يبول الإنسان قريبا من صاحبه مستترا عنه ^(٧) فعل ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم مع شدة حياته ليبين للناس ذلك .

(١) حديث عائشة (من حدثكم أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يبول قائما فلا تصدقوه) أخرجه الترمذي والنسائي وابن ماجه قال الترمذي هو أحسن شيء في هذا الباب واضح (٢) حديث عمر (رأي النبي صلى الله عليه وسلم وأنا أبول قائما فقال يا عمر لا يبول قائما) أخرجه ابن ماجه بإسناد ضعيف ، ورواه ابن حبان من حديث ابن عمر ليس فيه ذكر عمر (٣) حديث (٤) حديث (قال في البول في المغفل : عامة الوسواس) أخرجه أصحاب السنن من حديث عبد الله بن مغفل قال الترمذي غريب لثقة وإسناده صحيح (٥) حديث (رش الماء بعد الوضوء) وهو الانتضاح أخرجه أبو داود والنسائي وابن ماجه من حديث سفيان بن الحسك الثقي أو الحسك بن سفيان وهو مضطرب قال الترمذي وابن عبد البر (٦) حديث سلمان « علنا رسول الله صلى الله عليه وسلم كل شيء حتى الخمراء ... الحديث » أخرجه مسلم وقد تقدم في فوائد الطائفة (٧) حديث « البول قريبا من صاحبه » متفق عليه من حديث حذيفة

كيفية الاستنجاء

ثم يستنجى لقدمته بثلاثة أحجار ، فإن أتقى وإلا استعمل رابعا ، فإن أتقى وإلا استعمل خامسا لأن الإتيان واجب والإتيان مستحب ، قال عليه السلام : « من استنجز فليوتر »^(١) ، وبأخذ الحجر بيساره ويضعه على مقدم المقدمة قبل موضع النجاسة ويمسح بالإصبع إلى المؤخر ، وبأخذ الثاني ويضعه على المؤخر كذلك ويمر به إلى المقدمة ، وبأخذ الثالث فيديره حول المصرة إدارة فإن عصرت الإدارة ومسح من المقدمة إلى المؤخر أجزأه ، ثم يأخذ حجرا كبيرا يمينه والقضيب بيساره ويمسح الحجر بقضيبه وبحرك اليسار فيمسح ثلاثا في ثلاثة مواضع أوفى ثلاثة أحجار أو في ثلاثة مواضع من جدار إلى أن لا يرى الطوبى في عمل المسح ، فإن حصل ذلك بيمين أي بالثالثة ، ووجب ذلك إن أراد الاتصاف على الحجر ، وإن حصل بالرابعة استحب الخامسة للإتيان . ثم ينتقل من ذلك الموضع إلى موضع آخر ويستنجى بالماء بأن يفيضه باليمنى على محل النجس وبذلك باليسرى حتى لا يبقى أثر يدركه الكف بحس اللس ، ويدرك الاستقصاء فيه بالترصص لباطن فإن ذلك منبع الوسواس ، ولعلم أن كل ما لا يصل إليه الماء فهو باطن ولا يثبت حكم النجاسة للفضلات الباطنة ما لم تظهر ، وكل ما هو ظاهر وثبت له حكم النجاسة لحظ ظهوره أن يصل الماء إليه فزيله ولا معنى للوسواس . ويقول عند الفراغ من الاستنجاء : اللهم طهر قلبي من الشقاق وحسن فرجي من الفواحش ، وبذلك يده بمخالط أو بالأرض إزالة الرائحة إن بقيت . والجمع بين الماء والحجر مستحب فقد روى : أنه لما نزل قوله تعالى ﴿ فيه رجال يحiron أن يتطهروا والله يحب المطهرين ﴾ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأهل قباء : ما هذه الطهارة التي أتى الله بها عليكم ، قالوا : كنا نجمع بين الماء والحجر^(٢) .

كيفية الوضوء

إذا فرغ من الاستنجاء اشتغل بالوضوء فلم ير رسول الله صلى الله عليه وسلم قط خارجا من الغائط إلا توضأ وابتدئ بالسواك فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن أفرأكم طرق القرآن فطيبوها بالسواك »^(٣) ، فينبغي أن يتروى عند السواك تطهير له لقراءة القرآن وذكر الله تعالى في الصلاة وقال صلى الله عليه وسلم : صلاة على أثر سواك أفضل من خمس وسبعين صلاة بغير سواك^(٤) ، وقال صلى الله عليه وسلم : « لو أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة »^(٥) ، وقال صلى الله عليه وسلم : « ما أراكم تتدخلون على قلحا استاكوا »^(٦) ، أي صفر الأثان ، وكان عليه الصلاة والسلام يستاك في الليلة مرارا^(٧) ، وعن ابن عباس رضى الله عنه أنه قال : « لم يزل صلى الله عليه وسلم يأمرنا بالسواك حتى ظننا أنه سينزل عليه فيه شيء »^(٨) ، وقال عليه السلام : عليكم بالسواك فإنه

(١) حديث « من استنجز فليوتر » متفق عليه من حديث أبي هريرة (٢) حديث « لما نزل قوله تعالى ﴿ فيه رجال يحiron أن يتطهروا ﴾ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما هذه الطهارة التي أتى الله بها عليكم ، قالوا : كنا نجمع بين الماء والحجر » رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه . أخرجه البزار من حديث ابن عباس بسند ضعيف ورواه ابن أبي شيبة والحاكم وصححه من حديث أبي أيوب وجابر وأبي راس في الأسناداء بالأسانيد . ليس فيه ذكر « الحجر » وقول النووي تجا لا ينال الصلح « لأن الجمع بين الماء والحجر في أصله لا يعرف » مردود بنا تقدم (٣) حديث « إن أفرأكم طرق القرآن فطيبوها بالسواك » أخرجه أبو داود في الحديث من حديث علي ورواه ابن ماجه موقوفا على علي وكلاما ضعيف (٤) حديث « صلاة على أثر سواك أفضل من خمس وسبعين صلاة بغير سواك » رواه أبو داود في كتاب الوضوء من حديث ابن عمر بإسناد ضعيف ورواه أبو داود والحاكم وصححه والبيهقي وضعفه من حديث عاتكة وضعفه بإسناد من سجين صلاة (٥) حديث « لو أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة » متفق عليه من حديث أبي هريرة (٦) حديث « ما أراكم تتدخلون على قلحا استاكوا » أخرجه البزار والبيهقي من حديث النحاس بن عبدالمطلب وأبو داود والبيهقي من حديث أبي هريرة (٧) حديث « كان يستاك من الليل مرارا » أخرجه مسلم من حديث ابن عباس (٨) حديث ابن عباس « لم يزل يأمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالسواك حتى ظننا أنه سينزل عليه فيه شيء » رواه أحمد

مطهرة للفم ومرحاة الرب^(١) ، وقال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه : السواك يزيد في الحفظ ويذهب بالغم^(٢) وكان أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يروحون بالسواك على أذانهم . وكيفيته : أن يتأكد بنفس الأراك أو غيره من قضبان الأشجار مما يمتحن ويزيل القلق ويتأكد عرضاً وطولاً وإن اقتصر فرحاً . ويستحب السواك عند كل صلاة وعند كل وضوء وإن لم يعمل عليه وعند تغير التكةة بالقوم أو طول الأزم أو كل ما تكره وأتمته ، ثم عند الفراغ من السواك يجلس الوضوء مستقبل القبلة ويقول : بسم الله الرحمن الرحيم ، قال صلى الله عليه وسلم : لا وضوء لمن لم يذكر الله تعالى^(٣) ، أي لا وضوء كامل . ويقول عند ذلك : أعوذ بك من هزات الشياطين وأعوذ بك رب أن يحضرون ، ثم ينسل يديه ثلاثاً قبل أن يدخلهما الإناء ، ويقول : اللهم إني أسألك الجن والبركة وأعوذ بك من الشوم والمهلكة ، ثم ينوي رفع الحدث أو استحالة الصلاة ويستديم التنية إلى غسل الوجه فإن نسيها عند الوجه لم يجزه ، ثم يأخذ غرفة لفيه يمينه فيتمضمض بها ثلاثاً ويغرغران يرد الماء إلى الفمصة إلا أن يكون صائماً فيغرق ويقول : اللهم أعني على تلاوة كتابك وكثرة الذكر لك ، ثم يأخذ غرفة لآفته ويستنشق ثلاثاً ويصعد الماء بالنفس إلى خياشيمه ويستنثر ما فيها ويقول في الاستنشاق : اللهم أوجد لي راحة الجنة وأنت عني راض ، وفي الاستنثار : اللهم إني أعوذ بك من روائح النار ومن سوء النار ، لأن الاستنشاق لإصال والاستنثار إزالة ، ثم يعرف غرفة لوجهه فيفسله من مبدل سطح الجبهة إلى منتهى ما يقبل من الذقن إلى الطول ، ومن الأذن إلى الأذن في العرض ، ولا يدخل في حد الوجه الزرعان اللتان على طرفي الجبين فهما من الرأس ، ويوصل الماء إلى موضع التحذيف وهو ما يمتاد النساء تحية الشعر عنه وهو القدر الذي يقع في جانب الوجه ، مهما وضع طرف الحيط على رأس الأذن والطرف الثاني على زاوية الجبين ، ويوصل الماء إلى منابت الشعور الأربعة : الحاجبان والشاربان والمذاران والأهداب : لأنها خفيفة في الثواب . والمذاران هما ما يوزان الأذنين من مبدل الحية . ويجب إصال الماء إلى منابت الحية الخفيفة أعني ما يقبل من الوجه وأما الكثيفة فلا ، وحكم المنقعة حكم الحية في الكافة والخفة ، ثم يفعل ذلك ثلاثاً ويفيض الماء على ظاهر ما استقر من الحية ويدخل الأصابع في عجاير العينين وموضع الرمض ويجمع الكحل وينقيها . فقد روى أنه عليه السلام فعل ذلك^(٤) وبأمل عند ذلك خروج الخطايا من عينيه وكذلك عند كل عضو ويقول عنده : اللهم بيض وجهي بنورك يوم تبيض وجوه أوليائك ولا تسود وجهي بظلماتك يوم تسود وجوه أعدائك ، ويغسل الحية الكثيفة عند غسل الوجه فإنه مستحب ، ثم ينسل يديه إلى مرفقيه ثلاثاً ويمسك الحاتم ويغسل الفرة ويرفع الماء إلى أعلى العنق فأنهم يحشرون يوم القيامة غراً محجلين من آثار الوضوء ، كذلك ورد الخبر . قال عليه السلام : من استطاع أن

(١) حديث : عليكم بالسواك لأنه مطهرة للفم ومرحاة الرب . أخرجه البخاري تعليقاً وهو من حديث عائشة والنسائي وابن خزيمة «موسلاً» قلت وصل المصنف هذا الحديث بمحدث ابن عباس الذي نسباً وقد روه من حديث ابن عباس الشيرازي في الأوسط والبيهقي في دمع الأيوان (٢) حديث : كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يروحون بالسواك على أذانهم . أخرجه الخطيب في كتابه أسماء من روى عن مالك وعبد الله بن داود والترمذي وصححه . أنزله بن خالد كان يلهي بالصلوات وسواك على أذنه موضع الفم من أذن السكائب (٣) حديث : لا وضوء لمن لم يذكر الله . أخرجه الترمذي وابن ماجه من حديث سمع بن سفيان في الدعاء . وعمل الترمذي من البخاري أنه أحسن شيء في هذا الباب (٤) حديث : أخاف الأصابع في عجاير العينين وموضع الرمض ويجمع الكحل . أخرجه أحمد من حديث أبي أمامة كان يتأهده المتأففين ورواه الدارقطني من حديث أبي هريرة بإسناد ضعيف . أخرجه المساء أمينكم

يطيل غمره فليقل^(١)، وروى أن الحلية تبلغ مواضع الوضوء^(٢) ويبدأ باليمنى ويقول: اللهم أعطني كتابي يميني وحاسني حسابي يسيرا، ويقول عند غسل الشال: اللهم إني أعوذ بك أن تعطيني كتابي بشئ أو من وراء ظهري، ثم يستحب رأسه بالمسح بأن يبل يديه ويلصق رءوس أصابع يديه اليمنى باليسرى ويضعه على مقدمة الرأس ويهدمها إلى التقاء ثم يردمها إلى القدمة، وهذه مسحة واحدة، يفعل ذلك ثلاثا ويقول: اللهم غشني برحمتك وأزل علي من بركاك وأظني تحت ظل هرشك يوم لا ظل إلا ظلك، ثم مسح أذنيه ظاهرهما وباطنهما بماء جديد بأن يدخل مسحيتيه في صباغ أذنيه ويدبر إبهاميه على ظاهر أذنيه ثم يضع الكف على الأذنين استظهارا، ويكرره ثلاثا ويقول: اللهم اجعلني من الذين يستمعون القول فيقبلون احسنه اللهم اسمعني منادى الجنة مع الأبرار، ثم مسح رقبته بماء جديد لقوله صلى الله عليه وسلم: مسح الرقبة أمان من الغل يوم القيامة^(٣)، ويقول: اللهم فك رقبتي من النار وأعوذ بك من السلاسل والأغلال، ثم يمسح وجهه اليمنى ثلاثا ويغسل باليد اليسرى من أسفل أصابع الرجل اليمنى ويبدأ بالخصر من الرجل اليمنى ويمتد بالخصر من الرجل اليسرى ويقول: اللهم ثبت قدمي على الصراط المستقيم يوم تزل الأقدام في النار، ويقول عند غسل اليسرى: أعوذ بك أن تزل قدمي عن الصراط يوم تزل فيه أقدام المنافقين، ويرفع الماء إلى أنصاف الساقين، فإذا فرغ رفع رأسه إلى السماء وقال: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله سبحانه اللهم ومحمدك لا إله إلا أنت هلك سودا وظلت نفسي أستغفرك اللهم وأتوب إليك فأغفر لي وب على أنك أنت التراب الرحيم اللهم اجعلني من التوابين واجعلني من المتطهرين واجعلني من عبادك الصالحين واجعلني عبدا صبوراً شكوراً واجعلني أذكرك كثيراً وأسبغك بكرة وأصيلاء يقال: إن من قال هذا بعد الوضوء غنم على وضوئه يغنم ورفع له تحت العرش فلم يزل يسبح الله تعالى وبقدسه ويكتب له ثواب ذلك إلى يوم القيامة. ويكره في الوضوء أمور: منها أن يزيد على الثلاث فمن زاد فقد ظلم، وأن يفسد في الماء، وتوضأ عليه السلام ثلاثا وقال من زاد فقد ظلم وأساء^(٤)، وقال: سيكون قوم من هذه الأمة يبتدون في الدعاء والظهور^(٥)، ويقال: من ومن علم الرجل ولوعه بالماء في الظهور^(٦) وقال إبراهيم بن آدم: يقال إن أول ما يبتدئ السواس من قبل الظهور، وقال الحسن: إن شيطانا يضحك بالناس في الوضوء يقال له الوهان. ويكره أن ينفض اليد فيرش الماء وأن يتكلم في أثناء الوضوء وأن يلطم وجهه بالماء لطمًا. وكره قوم التنشيف وقالوا: الوضوء يوزن، قاله سعيد بن المسيب والزهري، لكن روى معاذ رضى الله عنه: أنه عليه السلام مسح وجهه بطرف ثوبه^(٧)، وروى عائشة رضى الله عنها: أنه صلى الله عليه وسلم كانت له منشفة^(٨)، ولكن طعن في هذه الرواية عن عائشة. ويكره أن يتوضأ من إناء صغروا أن يتوضأ بالماء الشمس وذلك من جهة الطب. وقد روى عن ابن عمر رآي حريرة رضى الله عنها كراهية إناء الصفر: وقال بعضهم: أخرجت لشعبة ماء في إناء صغرفاني أن يتوضأ منه. ونقل كراهية

(١) حديث من استطاع منك أن يطيل غمره فليقل، أخرجه من حديث أبي هريرة (٢) حديث: بلغ الحلية من الماخذ ما يبلغ ماء الوضوء، أخرجه من حديث (٣) حديث: مسح الرقبة أمان من الغل، أخرجه أبو منصور الترمذي في مستدرق الحديث من حديث عمرو بن شعيب (٤) حديث: توضأ ثلاثا ثلاثا قال من زاد فقد أساء وظلم، أخرجه أبو داود والترمذي واللفظ له وإن ماجه من روايات عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده (٥) حديث: سيكون قوم من هذه الأمة يبتدون في الدعاء والظهور، أخرجه أبو داود وابن ماجه وابن حبان والحاكم من حديث عبد الله ابن سفل (٦) حديث: من ومن علم الرجل ولوعه، في إناء في الظهور، لم أجده أصلا (٧) حديث ساذ: أن النبي صلى الله عليه وسلم مسح وجهه بطرف ثوبه، أخرجه الترمذي وقال حديثه حسن (٨) حديث عائشة: أن النبي صلى الله عليه وسلم كان له منشفة، أخرجه الترمذي وقال ليس بالقائم، قال ولا مسح عن النبي صلى الله عليه وسلم في هذا الباب شيء.

ذلك عن ابن عمر وأبي هريرة رضي الله عنهما . ومهما فرغ من وضوئه وأقبل على الصلاة فينبغي أن يحضر به آله طهر ظاهره وهو موضع نظر الخلق أن يستحي من مناجاة الله تعالى من غير تطهير قلبه وهو موضع نظر الرب سبحانه . وليحقق طهارة القلب بالتوبة . والخلو عن الأخلاق الذمومة والتخلق بالأخلاق الحميدة أولى . وأن من يقتصر على طهارة الظاهر كمن يدعو ملكا إلى بيته فتركه مشحونا بالتأذيرات واشتغل بتجسيص طاهر الباب البراني من النار . وما أجدر مثل هذا الرجل بالتعرض للفت والبرار والله سبحانه وتعالى أعلم .

فضيلة الوضوء

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من توضأ فأحسن الوضوء وصلّى ركعتين لم يحدث نفسه فيها بشيء من الدنيا خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه »^(١) ، وفي لفظ آخر : « ولم يسه فيها غفر له ما تقدم من ذنبه » وقال صلى الله عليه وسلم أيضا : « ألا أنبئكم بما يكفر الله به الخطايا ويرفع به الدرجات ؟ إسباغ الوضوء على المكاره ونقل الأقدام إلى المساجد وانتظار الصلاة بعد الصلاة فذلكم الرباط - ثلاث مرات - » . « وتوضأ صلى الله عليه وسلم مرة » وقال : « هذا وضوء لا يقبل الله الصلاة إلا به » ، وتوضأ مرتين مرتين وقال : « من توضأ مرتين مرتين أتاه الله أجره مرتين » ، وتوضأ ثلاثا ثلاثا وقال : « هذا وضوء الأنبياء من قبل » ووضوء خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام^(٢) ، وقال صلى الله عليه وسلم : « من ذكر الله عند وضوئه طهر الله جسده كله ومن لم يذكر الله لم يطهر منه إلا ما أسبأ الماء »^(٣) ، وقال صلى الله عليه وسلم : « من توضأ على طهر كتب الله له به عشر حسنات »^(٤) ، وقال صلى الله عليه وسلم : « الوضوء على الوضوء نور على نور »^(٥) ، وهذا كله حث على تجديد الوضوء وقال عليه السلام : « إذا توضأ العبد المسلم فتعوض خرجت الخطايا من فيه فإذا استدرج خرجت الخطايا من أنفه فإذا غسل وجهه خرجت الخطايا من وجهه حتى تخرج من تحت أشعار عينيه فإذا غسل يديه خرجت الخطايا من يديه حتى تخرج من تحت أظفاره فإذا مسح رأسه خرجت الخطايا من رأسه حتى تخرج من تحت أذنيه وإذا غسل رجليه خرجت الخطايا من رجليه حتى تخرج من تحت أظفار رجليه ثم كان عليه إلى المسجد وصلاته نافعة له »^(٦) ، وروى : « إن الطاهر كالصائم »^(٧) ، قال عليه الصلاة والسلام : « من توضأ فأحسن الوضوء ثم رفع طرفه إلى السماء فقال أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله فتحت له أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيها شاء »^(٨) ، وقال عمر رضي الله عنه :

(١) حديث « من توضأ وأحسن الوضوء وصلّى ركعتين لم يحدث نفسه فيها بشيء من الدنيا خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه » . وفي لفظ آخر : « لم يسه فيها غفر له ما تقدم من ذنبه » أخرجه ابن المبارك في كتاب الزهد والرفق والمبلغين مما وهو متفق عليه من حديث عثمان بن عفان دون قوله « بشيء من الدنيا » ودون قوله « ولم يسه فيها » وأخرجه أبو داود من حديث زيد بن خالد « ثم صلى ركعتين لا يسهو فيها الحديث » (٢) حديث « ألا أنبئكم بما يكفر الله به الخطايا ويرفع به الدرجات .. الحديث » أخرجه مسلم عن أبي هريرة (٣) حديث « توضأ مرة مرة وقال هذا وضوء لا يقبل الله الصلاة إلا به .. الحديث » أخرجه ابن ماجه من حديث ابن عمر بإسناد ضعيف (٤) حديث « من ذكر الله عند وضوئه طهر الله جسده كله .. الحديث » رواه الدارقطني من حديث أبي هريرة بإسناد ضعيف (٥) حديث « من توضأ على طهر كتب الله له به عشر حسنات » أخرجه أبو داود والترمذي وابن ماجه من حديث ابن عمر بإسناد ضعيف (٦) حديث « الوضوء على الوضوء نور على نور » لم أجده أصلا (٧) حديث « إذا توضأ العبد المسلم أو المؤمن فتعوض خرجت الخطايا من فيه الحديث » أخرجه أبو داود وابن ماجه من حديث الصائغين إسناده صحيح ، ولكن اختلف في صحته وعند مسلم من حديث أبي هريرة وعمر بن عبد العزيز عن عاصم (٨) حديث « الطاهر التام كالصائم » أخرجه أبو منصور الديلمي من حديث عمرو بن حريث « الطاهر التام كالصائم التام » وسنده ضعيف (٩) حديث « من توضأ فأحسن الوضوء ثم رفع طرفه إلى السماء فقال أشهد أن لا إله إلا الله ... الحديث » أخرجه أبو داود من حديث عدي بن عاصم وهو عند مسلم دون قوله « ثم رفع هكذا » عزاء المزني في الأطراف وقد رواه الدارقطني في اليوم والليالي من رواية علي بن طاهر وكذا رواه الدارقطني في مسنده

إن الوضوء الصالح يطرد عنه الشيطان . وقال مجاهد : من استطاع أن لا يبيت إلا طاهراً ذا كراً مستغفراً فليعمل
فلن الأرواح تيمت على ما قبضت عليه .

كيفية الغسل

وهو أن يضع الإنسان عن يمينه ثم يمسى الله تعالى ويغسل يديه ثلاثاً ، ثم يستدحي كما وصفت لك ويوزل ما على
بدنه من نجاسة إن كانت ، ثم يتوضأ وضوءه للصلاة كما وصفنا إلا غسل القدمين فإنه يؤخرهما فلن غسلهما ثم
وضعهما على الأرض كان إصاعة للساء ، ثم يصب الماء على رأسه ثلاثاً ، ثم على شقه الأيمن ثلاثاً ، ثم على شقه
الأيسر ثلاثاً ، ثم يدلك ما أقبل من بدنه ويغسل شعر الرأس والحية ويوصل الماء إلى منابت ما كلف
منه أو خف ، وليس على المرأة نقض الضفائر إلا إذا طلت أن الماء لا يصل إلى خلال الشعر ، ويتعهد معاطف
البدن وليتق أن يمس ذكره في أثناء ذلك فإن فعل ذلك فليعد ذلك فليعد الوضوء ، وإن توضأ قبل الغسل فلا يسيده بعد
الغسل . فهذه سنن الوضوء والغسل ذكرنا منها ما لا بد لسالك طريق الآخرة من حله وعمله ، وما عداه من
المسائل التي يحتاج إليها في حواري الأحوال فليرجع فيها إلى كتب الفقه . والواجب من جملة ما ذكرناه في الغسل
أمران . التية واستيعاب البدن بالغسل . وفروض الوضوء . التية . غسل الوجه وغسل اليدين إلى المرفقين
ومسح ما ينطق عليه الاسم من الرأس وغسل الرجلين إلى الكعبين والترتيب . وأما الموالاة فليست بواجبة . والغسل
الواجب بأربعة : بمخرج المني والتقاء الختانين والحصى والنفاس ، وما عداه من الأغسال سنة كغسل اليدين والجمعة
والأعياد والإحرام والوقوف بعرفة ومزدلفة ولدخول مكة وثلاثة أغسال أيام التشريق ولطواف الوداع . على
قول . والكافر إذا أسلم غير جنب والمجنون إذا أفاق ولن غسل ميتا ، فكل ذلك مستحب

كيفية التيمم

من تعذر عليه استعمال الماء - لفقده بعد الطلب أو مانع له عن الوصول إليه من سبغ أو حابس أو كان الماء
الحاضر يحتاج إليه لمطه أو لعطش رفيق أو كان ملكاً لغيره ولم يمه إلا بأكثر من ثمن المثل أو كان به جراحة
أو مرض وعاف من استعماله فساد العضو أو شدة الضنا - فيلجئ أن يصبر حتى يدخل عليه وقت الفريضة ، ثم
يقصد صعيداً طيباً عليه تراب طاهر خالص لين بحيث يثور منه غبار ، ويضرب عليه كفيه تماماً بين أصابعه ويمسح
بهما جميع وجهه مرة واحدة ، وينوي عند ذلك استباحة الصلاة ، ولا يكفي لإصال الغبار إلى ما تحته الشعور
خفت أو كفت ، ويجهت أن يستوعب بشرة وجهه بالتراب - ويحصل ذلك بالضربة الواحدة فلن عرض الوجه
لا يزيد على عرض الكفين - ويكفي في الاستيعاب غالب الظن ، ثم ينزع خاتمه ويضرب ضربة ثانية فيرجع فيها بين
أصابعه ثم يلمص ظهور يده اليمنى يطون أصابع يده اليسرى - بحيث لا يجاوز أطراف الأناامل من إحدى
الجلنتين عرض المسبحة من الأخرى - ثم يمر يده اليسرى من حيث وضعا على ظاهر ساعده الأيمن إلى المرفق ، ثم
يقلب يطن كفه اليسرى على باطن ساعده الأيمن ويهرما إلى الكوع ، ويبر يطن لإهامه اليسرى على ظاهر لإهامه
اليمنى ، ثم يفعل باليسرى كذلك . ثم يمسح كفيه ويخلل بين أصابعه ، وغرض هذا التكليف تحصيل الاستيعاب
إلى المرفقين بضربة واحدة فإن عسر عليه ذلك فلا بأس بأن يستوعب بضرتين وزيادة . وإذا صلى بالفرض فله أن
يتنفل كيف شاء ، فلن جمع بين فرضتين فيلجئ أن يعيد التيمم لثانية . وهكذا يرد كل فريضة بيمينه والله أعلم .

القسم الثالث من النظافة : التنظيف عن الفضلات الظاهرة وهي نواتج أوساخ وأجزاء النوع الأول : الأوساخ والرطوبات المترسبة وهي ثمانية :

(الاول) ما يجتمع في شعر الرأس من الدرن والقمل فالتنظيف عنه مستحب بالفسل والترحيل والتدهين لإزالة السمك عنه ، وكان صلى الله عليه وسلم يدهن الشعر ورجله غيا ويأمر به ^(١) ويقول عليه الصلاة والسلام : ادهنوا غيا ^(٢) وقال عليه الصلاة والسلام من كان له شجرة فليكرمها ^(٣) أى ليصنها عن الأوساخ ، ودخل عليه رجل ثائر الرأس أشعث اللحية فقال : أما كان لهذا دهن يسكن به شعره ثم قال : يدخل أحكم كأنه شيطان ^(٤) . (الثاني) ما يجتمع من الوسخ في معاطف الأذن ، والمسح يزيل ما يظهر منه وما يجتمع في قعر الصباغ فينبى أن ينظف يرفق عند الخروج من الحمام فإن كثرة ذلك ربما تضر بالسمع . (الثالث) ما يجتمع في داخل الأنف من الرطوبات المنمقة المتصقة بجوانبه ويزيلها بالاستنشاق والاستنثار . (الرابع) ما يجتمع على الأسنان وطرف اللسان من القلع فيزيله السواك والمضمضة وقد ذكرناها . (الخامس) ما يجتمع في اللحية من الوسخ والقمل إذا لم يشهد ويستحب إزالة ذلك بالفسل والتسريح بالمشط . وفي الخبر المشهور أنه صلى الله عليه وسلم كان لا يغارقه المسط والمدرى والمرأة في سفر ولا حضر ^(٥) ، وهي سنة العرب وفي خبر غريب ، أنه صلى الله عليه وسلم كان يسرح لحيته في اليوم مرتين ^(٦) ، وكان صلى الله عليه وسلم كك اللحية ^(٧) ، وكذلك كان أبو بكر ، وكان عثمان طويل اللحية وبقياها وكان على عريض اللحية قد ملأت ما بين منكبيه . وفي حديث أغرب منه قالت عائشة رضي الله عنها : اجتمع قوم يباب رسول الله صلى الله عليه وسلم فخرج إليهم فرأيتهم يطلع في الحب يسوى من رأسه ولحيته ^(٨) فقلت أو تفعل ذلك يا رسول الله ؟ فقال : نعم إن الله يحب من عبده أن يتجمل لإخوانه إذا خرج إليهم ، والجاهل ربما يظن أن ذلك من حب التزين للناس قياسا على أخلاق غيره وتشبيها للملائكة بالخدامين وهيئات ! فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم مأمورا بالدهونة وكان من وظائفه أن يسمى في تعليم أسر نفسه في قلوبهم كيلا يزدرى نفوسهم ويحسن صورته في أعينهم كيلا تستصغروهم أعينهم فينفرهم ذلك ويتعلق المناقرون بذلك في تفجيرهم . وهذا القصد واجب على كل عالم تصدى لدعوة الخلق إلى الله عز وجل ، وهو أن يراعى من ظاهره ما لا يوجب نفرة الناس عنه . والاعتدال في مثل هذه الأمور على النية فإنها أعمال في أنفسها تكتسب الأوصاف من المقصود ، فالتزين

(١) حديث « كان يدهن الشعر ورجله » أخرجه الترمذى في المعالي بإسناد خفيف من حديث أسد « كان يكثر دهن رأسه وتسريح لحيته » وفي التباين أيضا بإسناد حسن من حديث صحابي لم يسم « أنه عليه الصلاة والسلام كان يترجل غيا » (٢) حديث « ادهنوا غيا » قال ابن الصلاح لم أجده أصلا وقال النووي غير معروف وعند أبي داود والترمذى والنسائى من حديث عبد الله بن منفل « النبي بن الترجل لا غيا » بإسناد صحيح (٣) حديث « من كانت له شجرة فليكرمها » من حديث أبي هريرة رضي الله عنه فليكرمها ، وليس إسناده بالقوى (٤) حديث « دخل عليه رجل ثائر الرأس أشعث اللحية فقال أما كان لهذا دهن يسكن به شعره .. الحديث » أخرجه أبو داود والترمذى وابن حبان من حديث جابر بإسناد جيد (٥) حديث « كان لا يغارقه المسط والمدرى في سفر ولا حضر » أخرجه ابن طاهر في كتاب صفة التصوف من حديث أبي سعيد « كان لا يبارق مصلاه سواك وبسطه » ورواه الطبراني في الأوسط من حديث عائشة وإسناده ضعيف . وسيأتى في آداب السائر بطولا (٦) حديث « كان يسرح لحيته كل يوم مرتين » تقدم حديث أسد « كان يكثر تسريح لحيته » وفيه نصيب في الجائع من حديث المسك موصلا « كان يسرح لحيته بالمسط » (٧) حديث « كان كك اللحية » أخرجه الترمذى في المعالي من حديث عبد الله بن أبي هاشم وأبو نعيم في دلائل النبوة من حديث علي وأمه عند الترمذى (٨) حديث عائشة « اجتمع قوم يباب رسول الله صلى الله عليه وسلم فخرج إليهم فرأيتهم يطلع في الحب يسوى من رأسه ولحيته » أخرجه ابن عدي وقال حديث شكير

حل هذا القصد محبوب وترك الشك في التحية إظهارا للزهد وقلة المبالاة بالنفس محذور وتركه شغلا بما هو أمر منه محبوب . وهذه أحوال باطنة بين العبد وبين الله عز وجل . والثابت بصير والتبليس غير رائج عليه بحال ، ومن جاهل بتماطى هذه الأمور التفتتا إلى الخلق وهو بلبس على نفسه وعلى غيره ويرغم أن قصد الخير ، قترى جماعة من العلماء بلبسوا الثياب الفاخرة ويرعون أن يقدم إرغام المبتدعة والمجاهدين والتقرب إلى الله تعالى به . وهذا أمر يشكك يوم تلى السرائر ، ويوم يثمر ما في القبور ويحصل ما في الصدور ؛ فعند ذلك تتميز السبيكة الخالصة من البرجة فتعزذ بالله من الخزي يوم العرض الأكبر (السادس) وسخ البراجم وهي معاطف ظهور الأنامل ، كانت العرب لا تكثر غسل ذلك لتركها غسل اليد عقيب الطعام فيجتمع في تلك الغضون وسخ فأمرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بغسل البراجم (١) (السابع) تطيف الرواجب (٢) أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم عليه وسلم العرب بتطيفها وهي ردوس الأنامل وماتحت الأظفار من الوسخ لأنها كانت لا يحضرها المقرض في كل وقت فاجتمع فيها أوساخ ؛ فوقت لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم قلم الأظفار وتنف الإبط وحلق الأمانة أربعين يوما (٣) لكنه أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بتطيف ماتحت الأظفار (٤) وجاء في الآثار ، أن النبي صلى الله عليه وسلم استبظا الوسى فلما هبط عليه جبريل عليه السلام قال له : كيف تنزل عليك وأنت لا تفسلون برامجكم ولا تطفون رواجبيكم (٥) ولما لا تستأكلون . مرأيتك بذلك ، والاف وسخ الظفر ، والتف وسخ الأذن وقوله عز وجل (فلا تقل لها أف) تمهما أى بما تحت الظفر من الوسخ ، وقيل لاتأذ بها كما تتأذى بما تحت الظفر (الثامن) الدون الذى يجمع على جميع البدن برش العرق وغبار الطريق ، وذلك يزيله الحمام ولا بأس بدخول الحمام ، دخل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم حمامات الشام وقال بعضهم : نعم البيت بيت الحمام يظهر البدن ويذكر النار ؛ روى ذلك عن أبي الدرداء وأبي أيوب الأنصاري رضى الله عنهما . وقال بعضهم . بش البيت بيت الحمام يبدى العورة ويذهب الحياء . فهذا تعرض لأفنه وذلك تعرض لعافته ولا بأس بطلب عافته عند الاحتراز من أفنه . ولكن هل داخل الحمام وظلمات من السنن والواجبات ، فعليه واجبان في عورته وواجبان في عورة غيره . أما الواجبان في عورته فهو أن يصبونها عن نظر الغير ويصبونها عن من الغير فلا يتعاطى أمرها وإزالة وسخها لإليده ، ويمنع بذلك من مس الفخذ وما بين السرة إلى العانة ، وفي إباحة من مائيس بسوء لإزالة الوسخ احتياجا ، ولكن الأفيص التحريم إذ الحق من السوائين في التحريم بالنظر فكذلك ينبغي أن تكون بقية العورة أعنى الفخذين . والواجبان في عورة الغير أن يفض بصر نفسه عنها وأن ينهى عن كشفها لأن النبي عن المنكر واجب ، وعليه ذكر ذلك وليس عليه القبول ولا يسقط عنه وجوب الذكر إلا لحوف ضرب أو شتم أو ما يجرى عليه مما هو حرام في نفسه ، فليس عليه أن ينكر حراما يرقح المنكر عليه إلى مباشرة حرام آخر . فأما قوله أعلم أن ذلك لا يفيد ولا يعمل به فهذا

(١) حديث « الأمر بغسل البراجم » أخرجه الترمذى المصحح في « نوادر من حديث عبد الله بن بسر » قالوا : برامجكم « ولأن عدى في حديث لأمس » وأن : جماعه البرامج إذا توشأ . وللمسلم من حديث عائشة « عمن من الفطرة - وفيه - وغسل البراجم » (٢) الأمر بتطيف الرواجب « أخرجه أحمد من حديث ابن عباس » أنه قيل له يا رسول الله قد أعطاكم جبريل قبل ولم لا يطهركم ؟ وأنتم لا تستنون ولا تطفون أظفاركم ولا تحسون خوارجكم ولا تتقون رواجبيكم « وفيه إسماعيل بن عياش (٣) حديث « الذي في قلم الأظفار وتنف الإبط وحلق الأمانة أربعين يوما » أخرجه مسلم من حديث أنس (٤) حديث « الأمر بتطيف ماتحت الأظفار » أخرجه الطبراني من حديث واحة بن سعيد « سألت النبي صلى الله عليه وسلم عن كل شيء حتى سأله عن الوسخ الذى يكون بين الأظفار فقال وجع ما يريك لى ما لا يريك » (٥) حديث « استبظاء الوسى : فلما هبط عليه جبريل قال له : كيف تنزل عليك وأنت لا تفسلون برامجكم ولا تطفون رواجبيكم » تقدم قبل هذا حديثين

لا يكون عدواً بل لابد من الذكر ، فلا يخلو قلب عن التأثر من سماع الإنكار واستعمار الاحترام عند التعبير بالمعاصي وذلك يؤثر في تقيح الأمر في عينه وتغير نفسه فلا يجوز تركه ، ولعل هذا صار الحرم ترك دخول الحمام في هذه الأوقات إذ لاخلاق عن عورات مكشوفة لا سيما ماتحت المرة إلى مافوق العانة ؛ إذ الناس لا يملكونها عودة وقد أحقها الشرع بالعودة وجعلها كالحریم لما ولهذا يستحب تخلية الحمام . وقال بشر بن الحرث : ما أعنف رجلاً لا يملك إلا درهما دفعه ليخل في الحمام . وروى ابن عمر رضي الله عنهما في الحمام ووجهه إلى الخائط وقد عصب عينيه بعصابة وقال بعضهم : لأبأس بدخول الحمام ولكن بإزارين : إزار البورة وإزار الرأس يتنقع به ويحفظ عينيه ، وأما السنن فمفسرة ، فالأول : البية وهو أن لا يدخل لاجل دنيا ولا عاباً لاجل هوى بل يقصد به التلطف المحبوب تريناً للصلاة ، ثم يعطى الحمامى الأجرة قبل الدخول فإن ما يستوفيه مجهول وكذا ما ينتظره الحمامى ، فسلم الأجرة قبل الدخول دفع الجمالة من أحد الموحين وتطليب نفسه ، ثم يقدم رجله اليسرى عند الدخول ويقول بسم الله الرحمن الرحيم أعوذ بالله من الرجس النجس الخبيث الخبيث الشيطان الرجيم ، ثم يدخل وقت الخلوة أو يتكلم تخلية الحمام فإنه إن لم يكن في الحمام إلا أهل الدين والمتحاطين للمورات فالنظر إلى الأبدان مكشوفة فيه شائبة من قلة الحياء وهو مذكر للنظر في المورات ، ثم لا يخلو الإنسان في الحركات عن انكشاف المورات بالنظاف في أطراف الإزار فيقع البصر على العورة من حيث لا يدري ، ولأجله عصب ابن عمر رضي الله عنهما عينيه ، وينسل الجناحين عند الدخول ولا يجعل بدخول البيت الحار حتى يبرق في الأول ، وأن لا يكثر صب الماء بل يقتصر على قدر الحاجة فإنه المأذون فيه بقرينة الحال والإرادة عليه أو طلع الحمامى لكرهه ، لا سيما الماء الحار فله مثونة وفيه تعب وأن يتذكر حر النار بجمرة الحمام ويقذف نفسه محبوساً في البيت الحار ساعة ويقبضه إلى جهنم ، فإنه أشبه بيت جهنم : النار من تحت والظلام من فوق نموذج باق من ذلك ، بل المائل لا ينفصل عن ذكر الآخرة في لحظة فإنها مصيره ومستقره فيكون له في كل ما يراه من ماء أو نار أو غيرها عبرة وموعظة ، فإن المرء ينظر بحسب مهته . فإذا دخل برزاق ونجار وبناء وحائكه داراً معمورة مفروشة فإذا تفقدتهم رأيت البراز ينظر إلى الفرش يتأمل قيمتها والحائكه ينظر إلى الثياب يتأمل نسجها والتجار ينظر إلى السقف يتأمل كيفية تركيبها والبناء ينظر إلى المحيطان يتأمل كيفية إحكامها واستقامتها . فكذلك سالك طريق الآخرة لا يرى من الأشياء شيئاً إلا ويكون له موعظة وكروى للآخرة ، بل لا ينظر إلى شيء إلا ويفتح الله عز وجل له طريق عبادة فإن نظر إلى سواد تذكر ظلة البعد وإن نظر إلى حية تذكر أفاعى جهنم وإن نظر إلى صورة قبيحة شبيهة تذكر منكراً وكبيراً والزانية ، وإن سمع صوتاً مألواً تذكر نفخة الصور وإن رأى شيئاً حسناً تذكر نعيم الجنة وإن سمع كلمة رد أو قبول في سوق أودار تذكر ما ينكشف من آخر أمره بعد الحساب من الرد والقبول وما أجبر أن يكون هذا هو الغالب على قلب العاقل إذ لا يصرفه عنه إلا مهمات الدنيا ؛ فإذا نسب مدة المقام في الدنيا إلى مدة المقام في الآخرة استخفوا إن لم يكن من أغفل قلبه وأحميت بصيرته . ومن السنن : أن لا يسهل عند الدخول وإن سلم عليه لم يجب بلطف السلام بل يسكت إن أجاب غيره وإن أحب قال : عافاك الله ، ولا بأس بأن يضاضع الداخل ويقول : عافاك الله ، لا ابتداء الكلام . ثم لا يكثر الكلام في الحمام ولا يقرأ القرآن إلا سرا ولا بأس بإظهار الاستعاذة من الشيطان ويكره دخول الحمام بين المشامين وقرينيه من الغروب فإن ذلك وقت انتفاخ الشياطين ، ولا بأس أن يدلكه غيره فقد قل ذلك عن يوسف بن أسباط أوصى بأن ينسله إنسان لم يكن من أصحابه وقال : إنه دلكتني في الحمام مرة فأردت أن أكلته بما يفرح به وإنه

ليخرج بذلك . ويدل على جوازه ما روى بعض الصحابة : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نزل منزلا في بعض أسفاره فنام على بطنه وعبد أسود بنمى ظهره فقلت : ما هذا يا رسول الله ؟ فقال : إن الناقة تضحكت في (١) ، ثم هما فرغ من الحمام شكر الله عز وجل على هذه النعمة . فقد قيل الماء الحار في الشتاء من التيمم الذي يسأل عنه . وقال ابن عمر رضي الله عنهما : الحمام من التيمم الذي أحدثوه . هذا من جهة الشرع . أما من جهة الطب فقد قيل : الحمام بمداخلة أمان من الجذام . وقيل : التوردة في كل شهر مرة تقطع الماررة الصفراء وتقي اللون وتزيد في الجماع . وقيل : يروى في الحمام قائما في الشتاء أنفع من شربة دواء . وقيل : نومة في الصيف بعد الحمام تعدل شربة دواء . وغسل القدمين بماء بارد بعد الخروج من الحمام أمان من القرس ويكره صب الماء البارد على الرأس عند الخروج وكذا شربه ، هذا حكم الرجال : وأما النساء فقد قال صلى الله عليه وسلم : لا يجل للرجل أن يدخل حليته الحمام (٢) ، وفي البيت مستحم ، والمشهور أنه حرام على الرجال دخول الحمام إلا بمنزلة (٣) ، وحرام على المرأة دخول الحمام إلا لفشاء أو مريض . ودخلت عائشة رضي الله عنها حماما من سقم بها . فإن دخلت لغسوة فلا تدخل إلا بمنزلة سابع ، ويكره للرجل أن يعطيا أجرة الحمام فيكون معينا لها على المكروه .

النوع الثاني : فيما يحدث في البدن من الأجزاء وهي ثمانية

(الأول) شعر الرأس ولا بأس بجمعه لمن أراد التنظيف ولا بأس بتركه لمن يدهنه ويرجله إلا إذا تركه قوطا ، أى قطعيا وهو دأب أهل الشطارة ، أو أرسل الذنائب على هيئة أهل الشرف حيث صار ذلك شعارا لهم فإنه إذا لم يكن شريفا كان ذلك تليسا (الثاني) شعر الثارب وقد قال صلى الله عليه وسلم على آلِه وسلم : فقصوا الثارب ، وفي لفظ آخر : جزوا الثوارب ، وفي لفظ آخر : حفوا الثوارب وأعفوا الله (٤) ، أى اجملوها حفا الشفة أى حولها ، وحفا الشفة : حوله . ومنه (وترى الملائكة حافين من حول العرش) وفي لفظ آخر : حفوا ، وهذا يفسر بالاستئصال وقوله : حفوا ، يدل على ماديون ذلك . وقال الله عز وجل (إن يستلكنها فيضكن يخطوا) أى يستغفى عليكم ، وأما الحلق فلم يرد . والإحفاء القريب من الحلق نقل عن الصحابة : نظر بعض التابعين إلى رجل أحق شاربه فقال : ذكرتني أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقال المنيرة بن شعبة : نظر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد طال شاربه فقال : تعال فقصه لي على سواك (٥) ، ولا بأس بترك سبالي وهما طرفا الثارب ، فمل ذلك عمر وغيره لأن ذلك لا يستر الفم ولا يبقى فيه غر الطعام إذا لم يصل إليه : وقوله صلى الله عليه وسلم : أعفوا الله ، أى كثرها وفي الخبر : إن اليهود يعفون شواربهم

(١) حديث « نزل منزلا في بعض أسفاره فنام على بطنه وعبد أسود بنمى ظهره ... الحديث » أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث عمر بن عبد العزيز (٢) حديث « لا يجل للرجل أن يدخل حليته الحمام .. الحديث » يأتي في الذي يليه مع اختلاف (٣) حديث « حرام على الرجال دخول الحمام إلا بمنزلة .. الحديث » أخرجه النسائي والحاكم وصححه من حديث جابر : من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يدخل الحمام إلا بمنزلة ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يدخل حليته الحمام ، ولما كان من حديث عائشة : الحمام حرام على النساء أجمع ، قال صحيح الإسناد ولأبي داود وابن ماجه من حديث عبد الله بن عمر : فلا يدخلها الرجال إلا بالإنزال وامتوا النساء إلا من مريض أو نساء (٤) حديث « قصوا » وفي لفظ « جزوا » وفي لفظ « حفوا » الثوارب وأعفوا الله ، متفق عليه ، من حديث ابن عمر بن الخطاب « حفوا » ولم ينسب الحديث إلى امرأة « جزوا » ولأحد من حديثه « قصوا » (٥) حديث المنيرة بن شعبة : نظر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد طال شاربه فقال : تعال فقصه لي على سواك » أخرجه أبو داود والترمذي في الصحيحين

ويقصون لحام^(١) غلاف القوم ، وكره بعض العلماء الحلق ورآه بدعة (الثالث) شعر الإبط ويستحب تنفثه في كل أربعين يوماً مرة وذلك سهل على من تؤمّد تنفثه في الابتداء ، فأما من تؤمّد الحلق فيفككه الحلق إذ في التنفث تليدب وإيلام ، والمقصود النظافة وأن لا يجتمع الوسخ في خلها ويحصل ذلك بالحلق (الرابع) شعر العانة ويستحب إزالتها ذلك إما بالحلق أو بالثورة ولا ينبغي أن تتأخر عن أربعين يوماً (الخامس) الأظفار وتقدمها مستحب لتنافة صورتها إذا طالت ولما يجتمع فيها من الوسخ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا أبا هريرة أظفرك فإني الشيطان يقعد على ما طال منها^(٢) ، ولو كان تحت الظفر وسخ فلا ينفع ذلك صفة الوضوء لأنه لا ينفع وصول الماء ولأنه يتساهل فيه للحاجة لا سيما في أظفار الرجل وفي الأوساخ التي تجتمع على البراجم وظهور الأرجل والأيدي من العرب وأهل السواد ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمرهم بالقلم ويترك عليهم ما يرى تحت أظفارهم من الأوساخ ولم يأمرهم بإعادة الصلاة ، ولو أصر به لكان فيه فائدة أخرى وهو التغلغل والزرع عن ذلك . ولم أر في الكتب خبراً سريوا في ترتيب قلم الأظفار ولكن سمعت ، أنه صلى الله عليه وسلم بدأ بمسحه اليمنى وغتم بإبهامه اليمنى وابتدأ في اليسرى بالمخصر إلى الإبهام^(٣) ، ولما تأملت في هذا خطر لي من المعنى ما يدل على أن الرواية فيه صحيحة إذ مثل هذا المعنى لا ينكشف ابتداء لإنبور النبوة ، وأما العالم ذو البصيرة فثابته أن يستنبطه من العقل بعد نقل الفعل إليه . فالذي لاح لي فيه والعلم عند الله سبحانه أنه لا بد من قلم أظفار اليد والرجل ، واليد أشرف من الرجل فيبدأ بها ، ثم اليمنى أشرف من اليسرى فيبدأ بها ، ثم على اليمنى خمسة أصابع والمسبة أشرفها إذ هي المشيرة في كلتي الشهادة من جملة الأصابع ، ثم بعدها ينفى أن يبتدئ بها على يمينها إذ الشرع يستحب إدارة الظهور وغيره على اليمين ، وإن وضعت ظهر الكف على الأرض فالإبهام هو اليمين ، وإن وضعت بطن الكف فالرسالة هي اليمنى ، واليد إذا تركت بطنها كان الكف مائلاً إلى جهة الأرض إذ جهة حركة اليمين إلى اليسار واستقامت الحركة إلى اليسار يجعل ظهر الكف عالياً فما يقتضيه الطبع أول ، ثم إذا وضعت الكف على الكف صارت الأصابع في حكم حلقة دائرة ، فيقتضى ترتيب الدور الذهاب عن يمين المسحة إلى أن يعود إلى المسحة ، فتقع البداية بمخصر اليسرى والختم بإبهامها ويقيم لإبهام اليمنى فيختم به التعليل . وإنما قدرت الكف موضوعة على الكف حتى تصير الأصابع كأشخاص في حلقة ليظهر ترتيبها . وتقدير ذلك أولى من تقدير وضع الكف على ظهر الكف أو وضع ظهر الكف على ظهر الكف فإن ذلك لا يقتضيه الطبع . وأما أصابع الرجل فالأولى عندي - إن لم يثبت فيها نقل - أن يبدأ بمخصر اليمنى ويختم بمخصر اليسرى كما في التخليل ، فإن المعاني التي ذكرها في اليد لا تتجه منها إذ لا مسبة في الرجل . وهذه الأصابع في حكم صف واحد ثابت على الأرض فيبدأ من جانب اليمنى فإن تقديرها حلقة بوضع الأصابع على الأصابع يأباه الطبع بخلاف البدن . وهذه الدقائق في الترتيب تنكشف بنور النبوة في لحظة واحدة ولأنما يطول التنبه علينا ، ثم لو سئلنا ابتداء عن الترتيب في ذلك ربما لم ينظر لنا . وإذا ذكرنا فعله صلى الله عليه

(١) حديث « إن اليهود ينفون شواربهم ويقصون لحام غلاف القوم » أخرجه أحمد من حديث أبي أمامة . فلما يارسل الله أن أهل الكذب يقصون ثنايتهم ويؤفرون سبيلهم فقال قصوا سبيلكم ووفروا ثنايتكم وخالفوا أهل الكتاب . قلت والظهور أن هذا فعل الجوس في صحيح ابن عمر في الجوس « أنهم يؤفرون سبيلهم ويقصون لحام غلاف القوم »

(٢) حديث « يا أبا هريرة قل ظفرك فان الشيطان يقعد على ما طال منها » أخرجه الخطيب في الجامع بإسناد ضعيف من حديث جابر . قصوا أظفاركم ، فان الشيطان يجري من ابن آدم والنظر (٣) حديث « البداية في قلم الأظفار » . جهة اليمنى والختم بإبهامها وفي اليسرى بالمخصر إلى الإبهام . لم أجده أصلاً وقد أسكره أبو عبد الله المازري في الرد على التزالي وشرح عليه به

وسلم وترتيبه ربما تبسر لنا بما عاينه صلى الله عليه وسلم بشهادة الحكم وتنبه على المعنى استنباط المعنى ، ولا تظن أن أفعاله صلى الله عليه وسلم في جميع حركاته كانت خارجة عن وزن وقانون وترتيب بل جميع الأمور الاختيارية التي ذكرناها يتردد فيها الفاعل بين قسمين أو أقسام كان لا يقدّم على واحد معين بالاتفاق بل بمعنى يقتضي الإقدام والتقديم ، فإن الاسترسال مهملًا كما يتفق - بحجة البهائم ، وضبط الحركات بموازين المعاني بحجة أولياء الله تعالى . وكلما كانت حركات الإنسان وخطاه إلى الضبط أقرب وعن الإهمال وتركه سدى أبعد : كانت مرتبته إلى رتبة الأنبياء والأولياء أكثر وكان قربه من الله عز وجل أظهر ؛ إذ القريب من النبي صلى الله عليه وسلم هو القريب من الله عز وجل والقريب من الله لا بد أن يكون قريبًا فالقريب من القريب قريب بالإضافة إلى غيره فعمود بالله أن يكون زمام حركاتنا وسكانتنا بيد الشيطان بواسطة الهوى . واعتبر في ضبط الحركات باكتحاله صلى الله عليه وسلم ، فإنه كان يمكنه في هيئة النبي ثلاثا وفي اليسرى اثنين ^(١) ، فبدأ باليمين لشرفها . وتفاوت بين اليمين لتمكن الجلة وترا ، فإن للوتر فضلا عن الزوج فإن الله سبحانه وتر يحب الوتر فلا ينبغي أن يخلو فعل العبد من مناسبة لوصف من أوصاف الله تعالى . ولذلك استحب الإيتار في الاستجمار . وإنما لم يقتصر على الثلاث وهو وتر لأن اليسرى لا يخصصها إلا واحدة والثالب أن الواحدة لا تستوعب أصول الأجفان بالكل ، وإنما خصص اليمين بالثلاث لأن التفضيل لا بد منه للإيتار واليمين أفضل فهي بالزيادة أحق . فإن قلت : فلم تقتصر على اليمين اليسرى وهي زوج ؟ فالجواب أن ذلك ضرورة إذ لو جعل لكل واحدة وتر لكان المجموع زوجا إذ الوتر مع الوتر زوج ، ورعايته الإيتار في مجموع الفعل وهو في حكم الحصلة الواحدة أحب من رعايته في الأحاد . ولذلك أيضا وجه وهو أن يكتمل في كل واحدة ثلاثا على قياس الوضوء ^(٢) . وقد نقل ذلك في الصحيح وهو الأول . ولو ذهب استقصى دقائق ما راعاه صلى الله عليه وسلم في حركاته لطال الأمر ففسر بما سمعت ما لم تسمعه . واعلم أن العالم لا يكون واردا للنبي صلى الله عليه وسلم إلا إذا أطلع على جميع معاني الشريعة حتى لا يكون بينه وبين النبي صلى الله عليه وسلم إلا درجة واحدة وهي درجة النبوة ، وهي الدرجة الفارقة بين الوارث والموروث ، إذ الموروث هو الذي حصل المال له واشتغل بتحصيله واقتدر عليه والوارث هو الذي لم يحصل ولم يقدر عليه ولكن انتقل إليه وتلقاه منه بعد حصوله له ، فأمثال هذه المعاني مع سهولة أسرها بالإضافة إلى الأغوار والأسرار لا يستقل بدركها ابتداء إلا الأنبياء ولا يستقل باستباطها تلقيا بعد تنبيه الأنبياء عليها إلا العلماء الذين هم ورثة الأنبياء عليهم السلام (السادس والسابع) زيادة السرة وقلة الخسفة ؛ أما السرة فتقطع في أول الولادة وأما التطهير بالختان فعادة اليهود في اليوم السابع من الولادة وعملاتهم بالتأخير إلى أن يفر الولد أحب وأبعد عن الخطر قال صلى الله عليه وسلم : « الختان سنة الرجال ومكرمة النساء » ^(٣) . وينبغي أن لا يبلغ في خفض المرأة قال صلى الله عليه وسلم : « لا م علية وكانت تخفض » ، بأم عطية أمي ولا تهكي فإنه أمرى للوجه وأخطى عند الزوج ^(٤) ، أي أكثر لمباه الوجه ودمه وأحسن في جماعها فأنظر إلى جرالة لفظه صلى الله عليه وسلم في الكفاية وإلى إشراق نور النبوة من مصالح الآخرة التي هي أم مقاصد النبوة إلى

- (١) حديث « كان يكتمل في يمينه اليمنى » ثلاثا « وفي اليسرى اثنين » أخرجه الطبراني من حديث ابن عمر بإسناد ضعيف
(٢) حديث « الا كسحال في كل عين ثلاثا » قال الزايل ونقل ذلك في الصحيح ، قلت هو عند الترمذي وإن ما جاء من حديث ابن عباس قال الترمذي حديث حسن .
(٣) حديث « الختان سنة الرجال مكرمة النساء » أخرجه أحمد والبيهقي من رواية أبي الميجر بن أسامة عن أبيه بإسناد ضعيف
(٤) حديث « أم عطية أمي ولا تهكي » الحديث « أخرجه الحاكم والبيهقي من حديث الضحاك بن قيس ولأبي داود نحوه من حديث أم عطية وكلاهما ضعيف

مصالح الدنيا حتى انكشف له وهو أمي من هذا الأمر التازل قدره ماله وقمت النقلة خيف ضرره فسبحان من أرسله رحمة للعالمين ليجمع لهم يمين بعثته مصالح الدنيا والدين صلى الله عليه وسلم (الثالثة) ما طال من الحياة وإنما أخرناها لنلحق بها مافي الحياة من السن والبدع إذ هذا أقرب موضع يليق به ذكرها وقد اختلفوا فيها طال منافعها فإن قبض الرجل على لحيته وأخذ مافضل عن التبيضة فلا بأس فدفعله ابن عمر وجماعة من التابعين واستحسنه الشعبي وابن سيرين وكرهه الحسن وقتادة وقالوا تركها عافية أحب لقوله صلى الله عليه وسلم « اغفروا اللهى » والأمر في هذا قريب إن لم يفته إلى تقصيص اللحية وتدويرها من الجوانب فإن الطول المفرط قد يشوه الخلقة وبطلن السنة المقتاين بالتبذ إليه فلا بأس بالاحتراز عنه على هذه النية . وقال النخعي عجب لرجل عاقل طويل اللحية كيف لا يأخذ من لحيته ويجعلها بين لحيتين فإن التوسط في كل شئ حسن ، ولذلك قيل كلما طالت اللحية تشمر العقل .

فصل

وفي اللحية عشر خصال مكروهة وبعضها أشد كراهة من بعض ؛ خطابها بالسواد ويمسحها بالكبريت وتنتها وتنتف الشيب منها والتقصان منها والزيادة وتسميحها قصنا لأجل الزيادة وتركها شمة إظهاراً للزهد والقل إلى سوادها عجا بالشباب وإلى رياضتها تكبرا بعلو السن وخطابها بالحرمة والصفرة من غيرنية تشبها بالصالحين . أما الأول وهو الحطاب بالسواد فهو منبى عنه لقوله صلى الله عليه وسلم « خير شابكم من تشبه بشيوخكم وشروئكم من تشبه ببشايكم »^(١) والمراد بالتشبه بالشيوخ في الوفاق لا في تبيض الشعر و « نهي عن الحطاب بالسواد »^(٢) وقال مو خطاب أهل النار^(٣) ، وفي لفظ آخر ، الحطاب بالسواد خطاب الكفار ، وتزوج رجل على عهد عمر رضى الله عنه وكان غضب بالسواد فنصل خطابه وظهرت شيبته فرقمه أهل المرأة إلى عمر رضى الله عنه فرد نكاحه وأوجبه ضرباً وقال : غزوت القوم بالشباب ولست عليهم شيبته ويقال أول من غضب بالسواد فرعون لعنه الله وعن ابن عباس رضى الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « يكون في آخر الزمان قوم يعضون بالسواد كحوامل الحمام لا يرمون وأمة الجنة »^(٤) ، الثاني : الحطاب بالصفرة والحرمة وهو جائز تليسا للشيب على الكفار في الفوز والجهاد فإن لم يكن على هذه النية بل للتشبه بأهل الدين فهو مذموم وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الصفرة خطاب المسلمين والحرمة خطاب المؤمنين »^(٥) ، وكانوا يعضون بالحناء للحرمة وبالخلوق والكتم الصفرة ، وغضب بعض العلماء بالسواد لأجل الفوز وذلك لأبأس به إذا صحت النية ولم يكن فيه هوى وشهوة . الثالث : تبيضها بالكبريت استعمالاً لإظهار علو السن توصلاً إلى التوقير وقبول الشهادة والتصديق بالرواية عن الشيوخ وترقماً عن الشباب وإظهاراً لكثرة العلم فلنا بأن كثرة الأيام تعطيه فضلاً وهيأت فلا يريد كبر السن الجاهل للإجهاق فلم ثمة العقل عهى غريزة ولا يؤثر الشيب فيها ومن كانت غريزته الحق فطول المدة يؤكد حماقة وقد كان الشيوخ يقدمون الشباب

- (١) حديث « خير شابكم من تشبه بشيوخكم .. الحديث » أخرجه الطبراني من حديث وثالة بإسناد ضعيف
(٢) حديث « نهي عن الحطاب بالسواد » أخرجه ابن سعد في الطبقات من حديث عمرو بن العاص بإسناد متضع ، ولمع من حديث جابر « وفهروا هذا بعمى واجعلوا السواد » فانه حين رأى يافى شعر أبى عفاة
(٣) حديث « الحطاب بالسواد خطاب أهل النار » وفي لفظ « خطاب الكفار » أخرجه الطبراني والمالك من حديث ابن عمر بلفظ « الكفار » قال ابن أبي حاتم منكر .
(٤) حديث « يكون في آخر الزمان قوم يعضون بالسواد ... الحديث » أخرجه أبو داود والنسائي من حديث ابن عباس بإسناد جيد . (٥) حديث « البقرة خطاب المسلمين والحرمة خطاب المؤمنين » أخرجه الطبراني والمالك بلفظ الإفراد من حديث ابن عمر قال ابن أبي حاتم منكر .

بالمعلم . كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقدم ابن عباس وهو حديث السن على أكابر الصحابة ويسأله دونهم . وقال ابن عباس رضى الله عنهما : ما أتى الله عز وجل عبداً علماً إلا شاباً والخبير كله من الشباب ثم تلا قوله عز وجل ﴿ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يذُكِّرُ مِمَّا قَدْ نُبَى ﴾ وقوله تعالى ﴿ لَئِنْ فَتْنَةً أَمْنُوا بَرِجَهُمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴾ وقوله تعالى ﴿ وَأَتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبَاحاً ﴾ وكان أنس رضى الله عنه يقول : قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم وليس في رأسه ولحيته شعرون شجرة بيضاء فليل له يا أبا حمزة فقد أسن فقال لم يشته الله بالشيب فليل أهو شين فقال كلكم يكرهه ^(١) . ويقال إن يحيى بن أكرم ولى القضاء وهو ابن إحدى وعشرين سنة فقال له رجل في مجلسه يريد أن يخجله بصغر سنه كم سن القاضي أيده الله فقال مثل سن عتاب بن أسيد حين ولاه رسول الله صلى الله عليه وسلم إمارة مكة وقضاءها فأخذه ^(٢) وروى عن مالك رضى الله عنه أنه قال قرأت في بعض الكتب لا تفرنك اللهى فإن التيس له لحية وقال أبو عمرو بن العلاء إذا رايت الرجل طويل القامة صغير الحامة عريض اللحية فاقض عليه بالحق ولو كان أمية ابن عبد شمس وقال أيوب السخيتي أدركت الشيخ ابن ثمانين سنة يتبع الغلام يتعلم منه . وقال علي بن الحسين من سبق فيه العلم قبلك فهو إمامك فيه وإن كان أصغر سناً منك ، وقيل لأبي عمرو بن العلاء أيحسن من الشيخ أن يتعلم من الصغير فقال إن كان الجهل يقبض به فالتعلم يحسن به وقال يحيى بن معين لأحد بن حنبل وقد رآه يمشى خلف بطة الشافعي يا أبا عبد الله تركت حديث سفيان بعلوه وتمشى خلف بطة هذا الفتى وتسمع منه فقال له أحمد لو عرفت لكنت تمشى من الجانب الآخر إن علم سفيان إن فأتى بعلوه أدركته بزول وإن عقل هذا الشاب إن فأتى لم أدركه بعلوه ولا نزول (الرابع) تنفيضها استكفاً من الشيب . وقد نهى عليه السلام عن تنف الشيب وقال هونور المؤمن ^(٣) ، وهو في معنى الحجاب بالسواد وعلة الكراهية ماسبق والشيب نور الله تعالى والرغبة عنه رغبة في النور (الخامس) تنفيها أو تنف بعضها بحكم البعث والحواس وذلك مكروه ومشوه للخلق وتنفي الفتيان بدعة وهما جانباً المنفعة . شهد عند عمر بن عبد العزيز رجل كان يلبس فتيكه فرد شهادته ورد عمر بن الخطاب رضى الله عنه زابن أبي بليل قاضى الله بته شهادته من كان يلبس لحيته وأما تنفيها في أول الثبات نفسها بالمرء في المنكرات الكبار فإن اللحية زينة الرجال فإن لله سبحانه ملائكة يقسمون والذي زين بنى آدم بالحي وهو من تمام الخلق وبها يتميز الرجال عن النساء وقيل في غريب التأويل اللحية هي المراد بقوله تعالى ﴿ يزيد في الخلق ما يشاء ﴾ قال أصحاب الأصف بن قيس وددنا أن نشتري لأحنف لحية ولو بعشرين ألفاً وقال شريح القاضي وددت أن لي لحية ولو بعشرة آلاف وكيف تكروه اللحية وفيها تعظيم الرجل والتفرز إليه بين العلم والوقار والرفع في المجالس وإقبال الوجه إليه والتقديم على الجماعة ووقاية العرض ؟ فإن من يشتم يمرض باللعية إن كان للشتم لحية وقد قيل إن أهل الجنة مرد إلا هرون أما موسى صلى الله عليه وسلم فإن له لحية إلى سترته تخصيصاً له وتفضيلاً (السادس) تخصيصها كاتمية طاعة على طاعة

(١) حديث « قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم وليس في رأسه ولحيته شعرون شجرة بيضاء فليل له يا أبا حمزة وقد أسن فقال لم يبه الله بالشيب » متفق عليه من حديث أنس دون قوله « فليل... الخ » وإسناد من حديثه « وسئل عن شيب رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ما شأنه يا بريء » (٢) حديث يحيى بن أكرم « ولى القضاء وهو ابن إحدى وعشرين سنة فليل له كم سن القاضي فقال مثل سن عتاب بن أسيد حين ولاه رسول الله صلى الله عليه وسلم لمرة مكة وقضاءها يوم الفتح وأنا أكبر من ماذا ابن جليل حين وجه به رسول الله صلى الله عليه وسلم فاحيا على أهل اليمن » أخرجه الخطيب في التاريخ بإسناد فيه نظر وما ذكره ابن أكرم صحيح بالنسبة إلى عتاب بن أسيد فإنه كان حين الولاية ابن عشرين ، ولما بالنسبة إلى ماذا فإنه لم يزل ذلك على قول يحيى ابن سعيد الأصبهاني والفقهاء ابن حاتم أنه كان حين مات ابن ثمان وعشرين سنة والمرجح أنه مات ابن ثلاث وثلاثين سنة في السلطنة سنة ثمانية وعمر وفاة أعلم (٣) حديث « نهى عن تنف اللحية وقاله هو نور المؤمن » أخرجه أبو داود والترمذي وحسن النسائي وابن ماجة من رواية عمرو بن شبيب عن أبيه عن جده

للتزين للنساء والتضع قال كعب : يكون في آخر الزمان أقوام يقصون لحام كذنب الحامة ويعربون نعالهم كالنساءجل أوئلك لا خلق لهم (السابع) الزيادة فيها وهو أن يزيد في شعر العارضين من الصديغين وهو من شعر الرأس حتى يجاوز عظم الحصى وينتهي إلى نصف الحذ وذلك يبين هيئة أهل الصلاح . (الثامن) تسريحها لأجل الناس قال بشر : في اللحية شركان : تسريحها لأجل الناس وتركها متفتلة لإظهار الزهد . (التاسع والعاشر) النظر في سوادها أو في بياضها بعين العجب وذلك مذموم في جميع أجزاء البدن بل في جميع الأخلاق والأفعال . على ماسأى يباه فهذا ما أردنا أن نذكره من أنواع التزين والنظافة وقد حصل من ثلاثة أحاديث من سنن الجسد اثنتا عشرة خصلة خمس منها في الرأس وهي فرق شعر الرأس^(١) والمضمضة والاستنشاق^(٢) وقص الشارب والسواك وللاحدة في اليد والرجل وهي القلم وغسل البراجم وتطيف الرواجب^(٣) وأربعة في الجسد وهي تنف الإبط والاستحداد والحتان والاستنجاء بالماء فقد وردت الأخبار بمجموع ذلك وإذا كان غرض هذا الكتاب التعمُّس للطهارة الظاهرة دون الباطنة فلتقتصر على هذا وليتحقق أنَّ فضلات الباطن وأوساخه التي يجب التنظيف منها أكثر من أن تحصى وسيأتي تفصيلها في ربيع المهلكات مع تعريف الطرق في إزالتها وتطهير القلب منها إن شاء الله عز وجل .

تم كتاب أسرار الطهارة بحمد الله تعالى وعونه . ويتلوه إن شاء الله تعالى كتاب أسرار الصلاة والحمد فوحده وصلى الله على سيدنا محمد وعلى كل عبد مصطفى .

كتاب أسرار الصلاة ومهماتها



الحمد لله الذي غفر العباد بطائفه ، وحرر قلوبهم بأنوار الدين ووظائفه التي تنزل عن عرش الجلال إلى السواء الدنيا من درجات الرحمة إحدى عرابطه فأرق الملوك مع التفرد بالجلال والكبرياء برغيب الخالق في السؤال والثناء فقال : هل من داع فاستجب له وهل من مستغفر فأغفر له ؟ وبأن السلاطين بفتح الباب ، ورفع الحجاب فرخص للعباد في المناجاة بالصلوات كيفما تقبلت بهم الحالات في الجماعات والخلوات ولم يقتصر على الرخصة بل تعلق بالترغيب والدعوة وغيره من ضعفاء الملوك لا يسمح بالخلوة إلا بعد تقديم الهدية والرشوة فسبحانه ما أعظم شأنه وأقوى سلطانه ، وأتم لطفه ، وأهم إحسانه ؛ والصلاة على محمد نبيه المصطفى ووليّه النبي وعلى آل وأصحابه مفتاح الهدى ومصابيح الدجى وسلم تسليماً . أما بعد : فإن الصلاة عماد الدين ، وعصام اليقين ، ورأس القربات ، وعزة الطاعات ؛ وقد استعصنا في الثقة - في بساط المذهب وبسيطه ووجيزه - أسرارها فروعها ، صارفين بجام العناية إلى تقاربها التاددة . ووقائها الشاذة لتكون خزانة للمعق منها يستمد ومقولا له إليها ينزع ويرجع . ونحن الآن

(١) حديث « فرق شعر الرأس .. الخ » من حديث ابن عباس « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يبدل شعره لكي أن قال ثم فرق رسول الله صلى الله عليه وسلم رأسه » (٢) حديث « عمر من الفطرة .. الحديث » أخرجه مسلم من حديث عائشة ولفظه « قص الشارب وأضام العية والسواك واستغسله الماء ومس الأظفار وغسل البراجم وتنف الإبط وحلق البانة واتناسم المساء » قال وكعب بنى الاستنجاء - قال مصعب ونسيت البشارة ألا أن استكون المضيف ضيف النساء ولأبى داود وابن ماجه من حديث عمار بن ياسر نحوه فذكر فيه المضمضة والاختتان والانتشاح ولم يذكر لغناء العية وتناسف الماء قال أبو داود وروى نحوه عن ابن عباس . قال « غس كلها في الرأس » وذكر منها « الفرق » ولم يذكر « لءاء العية » وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة « الفطرة خمس : الختان .. الحديث » (٣) حديث « تطيف الرواجب » وهم

في هذا الكتاب تقتصر على ما لا بد للمريد منه من أعمالها الظاهرة وأسرارها الباطنة ، وكاشفون من دقائق معانيها الخفية في معاني الخشوع والإخلاص والثبات ما لم تجر العادة بذكره في فن الفقه ؛ ومربون الكتاب على سبعة أبواب . الباب الأول : في فضائل الصلاة . الباب الثاني : في تفضيل الأعمال الظاهرة من الصلاة . الباب الثالث : في تفضيل الأعمال الباطنة منها . الباب الرابع : في الإمامة والتقدوة . الباب الخامس : في صلاة الجمعة وأدائها . الباب السادس : في مسائل متفرقة تعم بها البلوى يحتاج المريد إلى معرفتها . الباب السابع : في التطوعات وغيرها .

الباب الأول : في فضائل الصلاة السجود والجماعة والأذان وغيرها

فضيلة الأذان

قال صلى الله عليه وسلم : ثلاثة يوم القيامة على كتيب من مسك أسود لا يورث حساب ولا ينالهم فزع حتى يفرغ ما بين الناس : رجل قرأ القرآن ابتغاء وجه الله عز وجل وأم يقوم وهم به راؤون ؛ ورجل أذن في مسجد ودعا إلى الله عز وجل ابتغاء وجه الله ؛ ورجل ابتلى بالرزق في الدنيا فلم يشغله ذلك عن عمل الآخرة ^(١) ، وقال صلى الله عليه وسلم : لا يسمع نداء المؤذن حين ولا إنس ولا شيء إلا شهد له يوم القيامة ^(٢) ، وقال صلى الله عليه وسلم : يد الرحمن على رأس المؤذن حتى يفرغ من أذانه ^(٣) ، وقيل في تفسير قوله عز وجل ﴿ ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً ﴾ نزلت في المؤذنين ، وقال صلى الله عليه وسلم : إذا سمعت النداء فقولوا مثل ما يقول المؤذن ^(٤) ، وذلك مستحب إلا في الحيلتين فإنه يقول فيهما : لا حول ولا قوة إلا بالله ؛ وفي قوله قد قامت الصلاة أقامها الله وأدامها ما دامت السموات والأرض وفي التثويب صدقت وبررت ونصحت ؛ وعند الفراغ يقول : اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمداً الوسيلة والفضيلة والدرجة الرفيعة وابثه المقام المحمود الذي وعدته إنك لا تخلف الميعاد . وقال سعيد بن المسيب من صلى بأرض فلاة صلى عن يمينه ملك وعن شماله ملك فإن أذن وأقام صلى وراه أمثال الجبال من الملاحة .

فضيلة المكتوبة

قال الله تعالى ﴿ إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم : خمس صلوات كتبتن الله على العباد فمن جاء بهن ولم يضيع منهن شيئاً استخفافا بحفظهن كان له عند الله عهد أن يدخله الجنة ومن لم يأت بهن فليس له عند الله عهد إن شاء عذبه وإن شاء أدخله الجنة ^(٥) . وقال صلى الله عليه وسلم : مثل الصلوات الخمس كمثل نهر عذب غمر بباب أحدكم يقتسم فيه كل يوم خمس مرات فما تزود ذلك يبقى من درته قالوا لا شيء قال صلى الله عليه

باب أسرار الصلاة

(١) حديث « ثلاثة يوم القيامة على كتيب من مسك » . الحديث أخرجه الترمذي وحسنه من حديث ابن عمر رضي الله عنهما وهو في الصحيحين . (٢) حديث « لا يسمع صوت المؤذن » . الحديث أخرجه الطبراني في المعجم الكبير . (٣) حديث « يد الرحمن على رأس المؤذن حتى يفرغ من أذانه » . أخرجه الطبراني في الأوسط والحسن بن سعيد في مسنده من حديث أبي إسحاق شيبان . (٤) حديث « إذا سمعت النداء فقولوا مثل ما يقول المؤذن » . متفق عليه من حديث أبي سعيد . (٥) حديث « خمس صلوات كتبتن الله على العباد » . الحديث أخرجه أبو داود والترمذي وابن ماجه وابن حبان من حديث عباد بن الصامت وصححه ابن عبد البر .

وسلم فإن الصلوات الخمس تذهب الذنوب كما يذهب الماء الدرن^(١) ، وقال صلى الله عليه وسلم : إن الصلوات كفارة لما يتبين ما اجتنبت الكبائر^(٢) ، وقال صلى الله عليه وسلم : بيننا وبين المنافقين شدة العتمة والصبح لا يستقيمونها^(٣) ، وقال صلى الله عليه وسلم : من لم يركب معصية للصلاة لم يعبأ الله بشيء من حسنة^(٤) ، وقال صلى الله عليه وسلم : الصلاة عماد الدين فمن تركها فقد هدم الدين^(٥) ، وسئل صلى الله عليه وسلم : أى الأعمال أفضل فقال الصلاة لموافقيتها^(٦) ، وقال صلى الله عليه وسلم : من حافظ على الخمس إلى كمال طهورها وموافقيتها كانت له نوراً وبرهاناً يوم القيامة ومن ضيعها حشر مع فرعون وهامان^(٧) ، وقال صلى الله عليه وسلم : مفتاح الجنة الصلاة^(٨) ، وقال : ما اقترض الله على خلقه بعد التوحيد أحب إليه من الصلاة ولو كان شيء أحب إليه منها لتعبد به ملائكته فهم راكم ومنهم ساجد ومنهم قائم وقاعد^(٩) ، وقال النبي صلى الله عليه وسلم : من ترك صلاة متعمداً فقد كفر^(١٠) ، أى قارب أن ينخلع عن الإيمان بالخلل عروته وسقوط عماده كما يقال لمن قارب البلدة إنه بانها ودخلها . وقال صلى الله عليه وسلم : من ترك صلاة متعمداً فقد برئ من ذمة محمد عليه السلام^(١١) ، وقال أبو هريرة رضى الله عنه : من تركها فأحسن وضوءه ثم خرج عامداً إلى الصلاة فإنه في صلاة ما كان يعمد إلى الصلاة وأنه يكتب له إحدى خطوئيه حسن وتحمى حنطه بالآخرى سيئة فإذا سمع أحكم الإقامة فلا يبغي له أن يتأخر فإن أعظمكم أجراً أبعدكم داراً ، قالوا لم يا أبا هريرة؟ قال : من أجل كثرة الخطأ . وروى : إن أول ما ينظر فيه من عمل العبد يوم القيامة الصلاة^(١٢) فإن وجدت تامة قبلت منه وسائر عمله وإن وجدت ناقصة ردت عليه وسائر عمله وقال صلى الله عليه وسلم : يا أبا هريرة مرأى لك بالصلاة فلأن الله يأملك بالرزق من حيث لا تحسب^(١٣) ، وقال بعض العلماء : مثل المصلى مثل التاجر الذى لا يحصل له الربح حتى يخلص له رأس المال ، وكذلك المصلى لا تميل له نافعة حتى يؤدى الفريضة . وكان أبو بكر رضى الله عنه يقول : إذا حضرت الصلاة قوموا إلى ناركم إلى أوقدتوها فأطفئوها .

فضيلة إتمام الأركان

قال صلى الله عليه وسلم : مثل الصلاة المكتوبة كتل الميزان من أوفى استوفى^(١٤) ، وقال يزيد الرقاشي : كانت

- (١) حديث : مثل خمس صلوات كتل نهر .. الحديث : أخرجه مسلم من حديث جابر وأبو هريرة
- (٢) حديث : الصلوات كفارة لما يتبين ما اجتنبت الكبائر ، أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة (٢) حديث : بيننا وبين المنافقين شدة العتمة والصبح لا يستقيمونها ، أخرجه مسلم من رواية سعيد بن المسيب مرسلاً (٤) حديث : من لم يركب معصية للصلاة لم يعبأ الله بشيء من حسنة ، وفي معناه حديث : أول ما يحاسب به العبد الصلاة ، وفيه : فإن لم تكن أسد سائر عمله ، ورواه الطبراني في الأوسط من حديث أنس (٤) حديث : الصلاة عماد الدين ، ورواه البيهقي في الشعب بسند ضعيف من حديث عمر قال الحاكم : عكرمة لم يسع من عماله ورواه ابن عمر لم يفتحه إلا بالصلاة فقال في مثل الوسيط لأنه غير معروف (٦) حديث : سئل أى الأعمال أفضل فقال الصلاة أو قنيتها ، متفق عليه من حديث ابن مسعود (٧) حديث : من حافظ على الخمس إلى كمال طهورها وموافقيتها كانت له نوراً وبرهاناً ، أخرجه أحمد وابن حبان من حديث عبد الله بن عمرو (٨) حديث : مفتاح الجنة الصلاة ، ورواه أبو داود وعليه من حديث جابر وهو عند الترمذي ولا يمكن ليس داخلاً في الرواية (٩) حديث : ما اقترض الله على خلقه بعد التوحيد شيئاً أحب إليه من الصلاة .. الحديث : لم أجده هكذا وأخر الحديث عند الطبراني من حديث جابر وعند الحاكم من حديث ابن عمر (١٠) حديث : من ترك صلاة متعمداً فقد كفر ، أخرجه البزار من حديث أبي هريرة بإسناد فيه مقال . (١١) حديث : من ترك صلاة متعمداً الدرن من ذمة محمد صلى الله عليه وسلم ، أخرجه أحمد والبيهقي من حديث أم أيمن بنحوه ورواه ثقات (١٢) حديث : أول ما ينظر الله فيه يوم القيامة من عمل العبد الصلاة .. الحديث : ورواه في الطيوريات من حديث أبي سعيد بإسناد ضعيف والاصحاب الذين لما أصبحوا استأذنه عمرو من حديث أبي هريرة وسأني (١٣) حديث : يا أبا هريرة مرأى لك بالصلاة لأن الله يأملك بالرزق من حيث لا تحسب ، لم ألق له حل أصلاً (١٤) حديث : مثل الصلاة المكتوبة كتل الميزان من أوفى استوفى ، أخرجه ابن المبارك في الزهد من حديث الحسن مرسلاً واستند البيهقي في الشعب من حديث ابن عباس بإسناد فيه جهالة

صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم مستوية كأنها موزونة^(١١) ، وقال صلى الله عليه وسلم إن الرجلين من أمي ليقوما إلى الصلاة وركوعهما ومجروحهما واحد وإن مابين صلاتيهما ما بين السماء والأرض^(١٢) ، وأشار إلى الخشوع وقال صلى الله عليه وسلم لا ينظر الله يوم القيامة إلى العبد إلا بيمينه عليه بين ركوعه ومجوده^(١٣) ، وقال صلى الله عليه وسلم أما يغافل الذي يحول وجهه في الصلاة أن يحول الله وجهه وجه حمار^(١٤) ، وقال صلى الله عليه وسلم من صلى صلاة لوقتها وأصبح وضوءها وأتم ركوعها ومجروحها وخشوعها عرجت وهي بيضاء مسفرة تقول حفظك الله كما حفظتني ومن صلى لغير وقتها ولم يسبح وضوءها ولم يتم ركوعها ولا مجروحها ولا خشوعها عرجت وهي سوداء مظلمة تقول ضيعك الله كما ضيعتني حتى إذا كنت حيث شاء الله لفت كما يلف الثوب الخلق فيضرب بها وجهه^(١٥) ، وقال صلى الله عليه وسلم أسوأ الناس سرقة الذي يسرق من صلاته^(١٦) ، وقال ابن مسعود رضي الله عنه وسليمان رضي الله عنه : الصلاة ميكال لمن أوى استوى ، ومن طلف فقد حل ما قال الله في اللطفين .

فضيلة الجماعة

قال صلى الله عليه وسلم : صلاة الجماعة تفضل صلاة الفرد بسبع وعشرين درجة^(١) ، وروى أبو هريرة أنه صلى الله عليه وسلم فقد ناسا في بعض الصلوات فقال : لقد سمعت أن أمرا رجلا يصل بالناس ثم أعانف إلى رجال يتخلفون عنها فأحرق عليهم بيوتهم^(٢) ، وفي رواية أخرى : ثم أعانف إلى رجال يتخلفون عنها فأسرحهم فتحرق عليهم بيوتهم بحرق الحطب ولو علم أحدكم أنه يجد عظاما مبرأين لشدها ، يعني صلاة المشاء . وقال عثمان رضي الله عنه مرفوعا : من شهد المشاء فكأنما قام نصف ليلة ومن شهد الصبح فكأنما قام ليلة^(٣) ، وقال صلى الله عليه وسلم : من صلى صلاة في جماعة فقد مال بحره عبادة^(٤) ، وقال سعيد بن المسيب : ما أذن مؤذن منذ عشرين سنة إلا لأذان في المسجد . وقال محمد بن واسع : ما أشتى من الدنيا إلا ثلاثة : أحا إنه إن توجعت فوفى وقوتا من الرزق عفوان غير تبعة وصلاة في جماعة يرفع عن سبها ويكتب في فضلها . وروى أن أبا حبيدة بن الجراح أم قوما مرة فلما انصرف قال : مازال الشيطان في أنفاسي أريت أني في فضلنا غيري لأؤم أبدا . وقال الحسن : لا تصلا خلف رجل لا يختلف إلى العلماء . وقال التيمي : مثل الذي يؤم الناس بعير علم مثل الذي يكبل الماء في البحر لا يدرى

[illegible]

زيادته من نقصاته ؟ وقال حاتم الأحم : فأتيت الصلاة في الجماعة فمراني أبو إسحق البخاري وحده ، ولو مات لي ولله لعزاني أكثر من عشر آلاف لأن مصيبة الدين أهون عند الناس من مصيبة الدنيا . وقال ابن عباس رضي الله عنهما من سمع المنادي فلم يجب لم يرد خيرا لم يرد به خيرا . وقال أبو هريرة رضي الله عنه : لأن تملأ أذن ابن آدم رصاصا مذابا خير له من أن يسمع النداء ثم لا يجيب . وروى أن ميمون بن مهران أتى المسجد فقبل له : إن الناس قد انصرفوا فقال (إنا لله وإنا إليه راجعون) لفعل هذه الصلاة أحب إلى من ولاية العراق . وقال صلى الله عليه وسلم : من صلى أربعين يوما الصلوات في جماعة لانفوته فيها تكبيرة الإحرام كتب الله له براءتين : براءة من النفاق وبرائة من النار (١) ، ويقال إنه إذا كان يوم القيامة يحشر قوم وجوههم كالنكوب النرى فتقول لهم الملائكة : ما كانت أعمالكم ؟ فيقولون : كسا إذا سمعنا الأذان قنا إلى الطهارة لا يشفنا غير ما ثم تحشر طائفة وجوههم كالأقمار فيقولون بعد السؤال : كسا ترضوا قبل الوقت ثم تحشر طائفة وجوههم كالشمس فيقولون : كسا نسمع الأذان في المسجد . وروى أن السلف كانوا يعززون أنفسهم ثلاثة أيام إذا فاتتهم التكبيرة الأولى ويعززون سبعا إذا فاتتهم الجماعة .

فضيلة السجود

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما تقرب العبد إلى الله بشيء أفضل من سجود خفي (٢) . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما من مسلم يسجد لله سجدة إلا رفعه الله بها درجة وحط عنه بها سيئة (٣) ، وروى : أن رجلا قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : ادع الله أن يجعلني من أهل شفاعتك وأن يرزقني مراقبتك في الجنة فقال صلى الله عليه وسلم : أهي بكثرة السجود (٤) ، وقيل : إن أقرب ما يكون العبد من الله تعالى أن يكون ساجدا (٥) ، وهو معنى قوله عز وجل (واجتهد واقرب) وقال عز وجل (سيام في وجوههم من أثر السجود) فقيل هو ما يلتصق بوجوههم من الأرض عند السجود وقيل هو نور الخشوع فإنه يشرق من الباطن على الظاهر ، وهو الأصح وقيل هي الغرر التي تكون في وجوههم يوم القيامة من أثر الوضوء . وقال صلى الله عليه وسلم : إذا قرأ ابن آدم السجدة فسجد اعتزل الشيطان يبكي ويقول يا ويله أمر هذا بالسجود فسجد فله الجنة وأمرت أنا بالسجود فعميت فلي النار (٦) ، وروى عن علي بن عبد الله بن عباس أنه كان يسجد في كل يوم ألف سجدة وكانوا يسمونه السجاد . وروى أن عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه كان لا يسجد إلا على التراب . وكان يوسفن أسباط يقول : يا معشر الصباب بادروا بالصحة قبل المرض لها بقي أحد أحسنه إلا رجل يتم ركوعه وسجوده وقد حيل بيني وبين ذلك . وقال سعيد بن جبير : ما آسى على شيء من الدنيا إلا على السجود . وقال عتبة بن مسلم : ما من غصلة في العبد أحب إلى الله عز وجل من رجل يحب لقاء الله عز وجل وما من ساعة العبد فيها أقرب إلى الله عز وجل

(١) حديث من صلى أربعين يوما الصلوات في جماعة لانفوته تكبيرة الإحرام ... الحديث أخرجه الترمذي من حديث أبي إسحاق
رجاله ثقات (٢) حديث : تقرب العبد إلى الله بشيء أفضل من سجود خفي ، رواه ابن المبارك في الزهد من حديث حمزة بن حبيب صريلا (٣) حديث : ما من مسلم يسجد لله سجدة إلا رفعه الله بها درجة وحط عنه خطيئة ، أخرجه ابن ماجه من حديث عبادة بن الصامت بإسناد صحيح ولم يخرجه من حديث ثوبان وأبي هريرة (٤) حديث : أن رجلا قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم ادع الله أن يجعلني من أهل شفاعتك ويرزقني مراقبتك في الجنة .. الحديث أخرجه مسلم من حديث ربيعة بن كعب الأسلمي نحوه وهو الذي سأله ذلك (٥) حديث : أن أقرب ما يكون العبد إلى الله أن يكون ساجدا ، أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة (٦) حديث : إذا قرأ ابن آدم السجدة فسجد اعتزل الشيطان يبكي .. الحديث أخرجه سنن من حديث أبي هريرة

منه حيث يحضر ساجداً ، وقال أبو هريرة رضى الله عنه : أقرب ما يكون للعبد إلى الله عز وجل إذا حمد فأكثروا الدعاء عند ذلك .

فضيلة الخشوع

قال الله تعالى ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لَذِكْرِي ﴾ وقال تعالى ﴿ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ ﴾ وقال عز وجل ﴿ لَا تَقْرُبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ ﴾ قيل سكرارى من كثرة الهم وقيل من حب الدنيا . وقال وهب : المراد به ظاهره ففيه تنبيه على سكر الدنيا إذ بين فيه العلة فقال ﴿ حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ ﴾ وكم من مصل لم يشرب خمرًا وهو لا يعلم ما يقول في صلاته . وقال النبي صلى الله عليه وسلم : من صلى ركعتين لم يمضت نفسه فيها بشئ من الدنيا غفر له ما تقدم من ذنبه ^(١) ، وقال صلى الله عليه وسلم : إنما الصلاة تمسكن وتواضع وتضرع وتأوه وتجادم وتضع يديك فتقول اللهم اللهم فمن لم يفعل فهي خداج ^(٢) ، وروى عن أبيه سبحانه في الكتب السالفة أنه قال : ليس كل مصل أقبل صلاته إنما أقبل صلاة من تواضع لمطلق ولم يتكبر على عبادى وأطعم الفقير الجائع لوجهي ، وقال صلى الله عليه وسلم : إنما فرضت الصلاة وأمر بالحج والطواف وأشمرت المناسك لإقامة ذكر الله تعالى فإذا لم يكن في قلبك للذكر الذي هو المقصود والمبغى عظيمة ولا هبة فاقبلة ذكرك ^(٣) ، وقال صلى الله عليه وسلم للذي أراه صاه : وإذا صليت فصل صلاة مودع ^(٤) ، أى مودع لنفسه مودع لهواه مودع لعمره سائر إلى مولاه كما قال عز وجل ﴿ يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدَسًا فَلَاحِجٌ ﴾ وقال تعالى ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيَسْلَمْ اللَّهُ ﴾ وقال تعالى ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقُوهُ ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم : من لم تمته صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يرد من الله إلا بعدا ^(٥) ، والصلاة مناجاة فكيف تكون مع الغفلة ؟ وقال بكر بن عبد الله : يا ابن آدم إذا شئت أن تدخل على مولاك بنير إذن وتكلمه بلا ترجمان دخلت ، قيل : وكيف ذلك ؟ قال : تسبغ وضوءك وتدخل عمارتك فإذا أنت قد دخلت على مولاك بنير إذن فتكلمه بنير ترجمان . وعن عائشة رضى الله عنها قالت : وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحدثنا ويحدثه فإذا حضرت الصلاة فكأنه لم يعرفنا ولم نعرفه ^(٦) ، اشتغالا بعبادة الله عز وجل وقال صلى الله عليه وسلم : لا ينظر الله إلى صلاة لا يحضر الرجل فيها قلبه مع بدنه ^(٧) ، وكان إبراهيم الخليل إذا قام إلى الصلاة يسمع وجيب قلبه على ميلين . وكان سعيد التنوخى إذا صلى لم تقطع الدموع من خديه على لحيته

- (١) حديث « من صلى ركعتين لم يمضت فيها نفسه بغيره من الدنيا ففر له ما تقدم من ذنبه » أخرجه ابن أبي حنيفة في المسند من حديث صف بن أشجيم مرسلًا وهو في الصحيحين من حديث عثمان بن زيادة في أوله دون قوله « بغيره » من الدنيا ، وزاد الطيالسي الأخير ^(٢) حديث « إنما الصلاة تمسكن ودعاء وتضرع .. الحديث » أخرجه الترمذى والذاهلى بنحوه من حديث الفضل بن عباس بإسناد مضطرب ^(٣) حديث « أنا فرضت الصلاة وأمر بالحج والطواف وأشمرت المناسك لإقامة ذكر الله » أخرجه أبو داود والترمذى من حديث عاتكة بنجرمة دون ذكر « الصلاة » قال الترمذى حسن صحيح ^(٤) حديث « إذا صليت فصل صلاة مودع » أخرجه ابن ماجه من حديث أبي أيوب والمالك من حديث سعد بن أبي وقاص ، وقال صحيح الإسناد والبيهقى في الزهد من حديث ابن عمر ومن حديث أنسوه ^(٥) حديث « من لم تمته صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد من الله إلا بعدا » أخرجه علي بن زييد في كتاب الطاعة والحسنة من حديث الحسن مرسلًا بإسناد صحيح ورواه الطبراني وأسنده ابن مردويه في تفسيره من حديث ابن عباس بإسناد ابن الطبراني من قول ابن مسعود « من لم تأمره صلاة بالمعروف وتنهه عن المنكر .. الحديث » وأسنده صحيح ^(٦) حديث عائشة « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحدثنا ويحدثه فإذا حضرت الصلاة فكأنه لم يعرفنا ولم نعرفه » أخرجه الأزدى في الضعفاء من حديث سويد بن غفلة مرسلًا « كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا سمع الأذان كأنه لا يعرف أسنانه من الناس » ^(٧) حديث « لا ينظر الله إلى صلاة لا يحضر الرجل فيها قلبه مع بدنه لم أجده بهذا المفظ وروى محمد بن نصر في كتاب الصلاة من رواية عثمان بن وهش مرسلًا « لا يبال الله من عبد عملا حتى يذهب قلبه مع بدنه » ورواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أبي بن كعب وأسناده ضعيف

« ورأى رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلاً يبعث بإحيتة في الصلاة فقال لروضع قلب هذا لحشمت جوارحه (١) » ويروي أن الحسن نظر إلى رجل يبعث بالحصى ويقول : اللهم زجني الحور العين ، فقال : بشرا الخاطب أنت تغضب الحور العين وأنت تبعث بالحصى . وقيل لحلق بن أيوب : ألا يؤذيك الذباب في صلاتك فتطرد قال : لا أهرد نفسي شيئاً يفسد على صلاتي ، قبل له : وكيف تصبر على ذلك ؟ قال : بلني أن الفساق يصبرون تحت أسواط السلطان ليقال فلان صبور ويستخرون بذلك فأنا قائم بين يدي ربى أفأضيق لذبابه ؟ ويروي عن مسلم بن يسار أنه كان إذا أراد الصلاة قال لأهله : تحمّلوا أتم فاني لست أسمعكم . ويروي عنه أنه كان يصل يوماً في جامع البصرة فسقطت ناحية من المسجد فاجتمع الناس لذلك فلم يشعر به حتى انصرف من الصلاة . وكان على بن أبي طالب رضى الله عنه وكثر وجهه إذا حضر وقت الصلاة ينزل ويتلون وجهه قليل له : مالك يا أمير المؤمنين ؟ فيقول جاء وقت أمانة عرضها الله على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملنها . ويروي عن علي بن الحسين أنه كان إذا توضأ أصفر لونه فيقول له أهله : ما هذا الذي يمتريك عند الوضوء ؟ فيقول : أتعدون بين يدي من أريد أن أقوم ؟ ويروي عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال : قال داود صلى الله عليه وسلم في مناجاة : إلهي من يسكن بيتك ومن تقبل الصلاة ؟ فأوحى الله إليه : يا داود إنما يسكن بيتي وأقبل الصلاة منه من تواضع لهظقي وقطع نهاره بذكري وكف نفسه عن الشهوات ، من أجلى يطعم الجائع ويؤوى الغريب ويرحم المصاب فذلك الذي يعنى نوره في السموات كالشمس ، إن دعاني لبيته وإن سألني أعطيت ، أجعل له في الجهل حلاً وفي الغفلة ذكراً وفي الظلمة نوراً ، وإنما مثله في الناس كالفرديوس في أعلى الجنان لا يلبس أنهارها ولا تنتثر ثمارها . ويروي عن حاتم الأصم رضى الله عنه أنه سئل عن صلاته فقال : إذا حانت الصلاة أسبغت الوضوء وأتيت الموضع الذي أريد الصلاة فيه فأفعد حتى يجتمع جوارحي ، ثم أقوم إلى صلاتي وأجعل التكبيرة بين حاجتي والصراف تحت قدمي والجنة بين يميني والنار عن شمالي وملك الموت ورائي أظنها آخر صلاتي ، ثم أقوم بين الرجا والخوف وأكبر تكبيرة بتحقيق وأقرأ قراءة بترتيل وأركع ركوعاً بتواضع وأحمد بعبودا بتخشع وأقعد صل الورك الأيسر وأفرش ظهري فقدمها وأنصب القدم اليمنى على الإبهام وأنبعها بالإخلاص ، ثم لأدري أقبلت منى أم لا ؟ وقال ابن عباس رضى الله عنهما : ركعتان مقتصدتان في تفكير خير من قيام ليلة والقلب ساه .

فضيلة المسجد وموضع الصلاة

قال الله عز وجل : ﴿ إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم : من بنى لله مسجداً ولو كمخض قطاة بنى الله له قصراً في الجنة (٢) ، وقال صلى الله عليه وسلم : من ألب المسجد ألله الله تعالى (٣) ، وقال صلى الله عليه وسلم : إذا دخل أحدكم المسجد فليركع ركعتين قبل أن يجلس (٤) ، وقال صلى الله عليه وسلم : لا صلاة لجار المسجد إلا في المسجد (٥) ، وقال صلى الله عليه وسلم : الملازمة تصل على أحدكم ما دام

- (١) حديث « رأى رجلاً يبعث بإحيتة في الصلاة فقال لروضع قلب هذا لحشمت جوارحه » أخرجه الترمذي المتكبر في الزوائد من حديث أبي هريرة بسند ضعيف أنه من قوله سعيد بن المسيب ورواه ابن أبي ذينة في المصنف وفيه رجل لم يسم
(٢) حديث « من بنى لله مسجداً ولو مثل مخض قطاة ... الحديث » أخرجه ابن ماجه من حديث جابر بسند صحيح وابن حبان من حديث أبي هريرة متفق عليه من حديث عثمان دون قوله « ولو مثل ملص للقطاة »
(٣) حديث « من ألب المسجد ألله الله تعالى » أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث أبي سعيد بسند ضعيف (٤) حديث « إذا دخل أحدكم المسجد فليركع ركعتين قبل أن يجلس » متفق عليه من حديث أبي قتادة (٥) حديث « لا صلاة لجار المسجد إلا في المسجد » أخرجه الحاكم في المستدرج من حديث جابر وأبي هريرة بإسنادين ضعيفين والحاكم من حديث أبي هريرة

في مصلاه الذي يصلي فيه تقول : اللهم صل عليه اللهم ارحمه اللهم اغفر له ما لم يحدث أو يخرج من المسجد ^(١) . وقال صلى الله عليه وسلم : « يأتي في آخر الزمان ناس من أمم يأتون المساجد فيمعدون فيها حلقة حلقة ذكرهم الدنيا وحسب الدنيا لا يجالسهم فليس لله بهم حاجة » ^(٢) . وقال صلى الله عليه وسلم : « قال الله عز وجل في بعض الكتب إن يوتى في أرضي المساجد وإن زوّاري فيها عمارها فطوبى لعبد تطهر في بيته ثم زارني في بيتي لحق على الزور أن يكرم زائره » ^(٣) . وقال صلى الله عليه وسلم : « إذا رأيتم الرجل يعتاد المسجد فاشهدوا له بالإيمان » ^(٤) . وقال سميد بن السيب من جلس في المسجد فلما يجالس ربه فاحس أنه يقول إلا خيراً . ويرى في الآثار أو الخبر الحديث في المسجد يأكل الحنات كاتأكل البهائم الحشيش ^(٥) . وقال النعمي : كانوا يرون أن المشي في الليلة المظلمة إلى المسجد موجب للجنة : وقال أنس بن مالك : من أسرج في المسجد سراجاً لم تزل الملائكة وحلة العرش يستغفرون له ما دام في ذلك المسجد ضوؤه . وقال علي كرم الله وجهه : « إذا مات العبد يركب عليه مصلاه من الأرض ومعدن عمله من السماء ، ثم قرأ ﴿ فابكيت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين ﴾ » وقال ابن عباس : تبكى عليه الأرض أربعين صباحاً . وقال عطاء الخراساني : ما من عبد يسجد لله سجدة في بقعة من بقاع الأرض إلا شهدت له يوم القيامة وبكت عليه يوم يموت . وقال أنس بن مالك : ما من بقعة يذكر الله تعالى عليها بصلاة أو ذكر إلا افتتحت على ماحولها من البقاع واستبشرت بذكر الله عز وجل إلى فتاتها من سبعين أرضين وما من عبد يقوم يصلي إلا تزخرت له الأرض . ويقال : ما من منزل ينزل فيه قوم إلا أصبح ذلك المنزل يصلي عليهم أو يلتمهم .

الباب الثاني : في كيفية الأعمال الظاهرة من الصلاة والبداءة بالتكبير وما قبله

يلبى للصلى إذا فرغ من الوضوء والطهارة من الخبث في البدن والمكان والثياب وستر العورة من السرة إلى الركبة أن يتنصب قائماً متوجهاً إلى القبلة ويواجه بين قدميه ولا يعضهما فإن ذلك مما كان يستدل به على فقه الرجل وقد « نبى صلى الله عليه وسلم عن الصفن والصفد في الصلاة » ^(١) ، والصفد هو اقتران القدمين معاً ومنه قوله تعالى ﴿ مقربين ﴾ والصفاد هو رفع إحدى الرجلين ومنه قوله عز وجل ﴿ الصافات الجياد ﴾ هذا ما يراعيه في رجله عند القيام ويراعى في ركبتيه ومعدن نطافه الانتصاب ، وأما رأسه إن شاء تركه على استواء القيام وإن شاء أطرق والإطراق أقرب للخشوع وأخفض البصر وليكن بصره محصوراً على مصلاه الذي يصلي عليه ، فإن لم يكن له

- (١) حديث « الملائكة تصل على أحدكم ما دام في مصلاه ... الحديث » « دخل عليه من حديث أبي هريرة
- (٢) حديث « يأتي في آخر الزمان ناس من أمم يأتون المساجد فيمعدون فيها حلقة حلقة ذكرهم الدنيا ... الحديث » أخرجه ابن حبان من حديث ابن عسود والمحكم من حديث أنس وقال صحيح الاستاذ (٣) حديث « قال الله تعالى : لن يوتى في أرضي المساجد ولن زوّاري فيها عمارها . الحديث » أخرجه أبو نعيم من حديث أبي سعيد بسند ضيف « يقول الله عز وجل يوم القيامة ابن جبراني تفعل الملائكة من هذا الذي ينبغي له أن يماورك يقول ابن فراء الفران وعمار المساجد » وهو في الصب نحوه موقوفاً على أصابع رسول الله صلى الله عليه وسلم وأساءه صحيح ، واستد ابن حبان في الضعفاء آخر الحديث من حديث سلمان وضفه (٤) حديث « إذا رأيتم الرجل يعتاد المسجد فاشهدوا له بالإيمان رواه الترمذي وحسنه وابن ماجه والمحكم وصححه من حديث أبي سعيد
- (٥) حديث « الحديث في المسجد يأكل الحنات كاتأكل البهائم الحشيش » لم ألق له على أصل

الباب الثاني

- (٦) حديث « النبى عن الصفن والصفد في الصلاة » عزاه زرّين إلى الترمذي ولم أجده عنده ولا ضد فيه وإنما ذكره أصحاب الترمذي كابن الأثير في النهاية . وروى سميد بن منصور أن ابن مسعود رأى رجلاً سافراً أو سافراً فقدمه فقال : أحسب هذا السنة

مصلح فليقرب من جدار الحائط أو ليخط خطا ، فإن ذلك يقصر مسافة البصر ويمنع تفوق الفكر ويجبر على بصره أن يمازج أطراف المصلح وحدود الخط ؟ وليندم على هذا القيام كذلك إلى الركوع من غير التفات . هذا أدب القيام فإذا استوى قيامه واستقبله وإطرافه كذلك فليقرأ ﴿ قل أعوذ برب الناس ﴾ تحصنا به من الشيطان ، ثم ليأت بالإنشاد وإن كان رجوعه حضور من يقتدى به فليؤذن أولا ثم ليحضر الثانية وهو أن ينوي في الظاهر مثلا ويقول : أودى فريضة الظهره ، ليعيها بقوله أودى : عن القضاء وبالفرقة عن النفل ، وبالظهر عن العصر وغيره ، ولتكن معاني هذه الألفاظ حاضرة في قلبه فإنه هو البتة ، والألفاظ مذكرات وأسباب لحضورها ، ويحتد أن يستدبر ذلك إلى آخر التكبير حتى لا يمزج فإذا حضر في قلبه ذلك فليرفع يديه إلى حدو منكبيه بعد إرساله بحسب مجازي بكسفيه منكبيه وإبهامية ضممت أذنيه وبرموس أصابعه ورموس أذنيه ^(١) ليكون جامعا بين الأفعال الواردة فيه ، ويكون مقبلا بكفيه وإبهامية إلى القبلة ويبسط الأصابع ولا يقبضها ، ولا يتكفف فخر بها ولا عابا بل يتركها على مقتضى طبيعتها ، إذ نقل في الأثر النشر والعزم ^(٢) وهذا بينهما فهو أولى . وإذا استقرت البدان في مقرهما ابتداء التكبير مع إرسالها وإحضار البتة ، ثم يضع اليدين على مافوق السرة وتحته الصدر ويضع اليمنى على اليسرى إكراما لليمنى بأن تكون محمولة ، ويفسر المسحة والوسطى من اليمنى على طول الساعد ويقبض بالإبهام والمخمس والبصر على كوع اليسرى ، وقد روى أن التكبير مع رفع اليدين ^(٣) ومع استقرارهما ^(٤) ومع الإرسال ^(٥) فكل ذلك لا حرج فيه وأراء بالإرسال أليق فإنه كلمة التقيد ، ووضع إحدى اليدين على الأخرى في صورة التقيد ومبدؤه الإرسال وآخره الوضع . ومبدأ التكبير الألف وآخره الزاء فليقل مراعاة التطابق بين الفعل والعقد ، وأما رفع اليد فكل مقدمة هذه البداية . ثم لا ينشئ أن يرفع يديه إلى قدام رفا عند التكبير ولا يردهما إلى خلف منكبيه ولا ينفضهما من بين وشمال نفضا إذا فرغ من التكبير وبرسلهما إرسالا خفيفا رقيقا ويستأنف وضع اليدين على الشال بعد الإرسال ، وفي بعض الروايات أنه صلى الله عليه وسلم كان إذا كبر أرسل يديه وإذا أراد أن يقرأ وضع اليمنى على اليسرى ^(٦) ، فإن صح هذا فهو أولى مما ذكرناه . وأما التكبير فينبغي أن يعزم الهاء من قوله : الله ، ضمة خفيفة من غير مبالغة ولا يدخل بين الهاء والألف شبه الواو ، وذلك ينساق إليه بالمبالغة : ولا يدخل بين باء أكبر وراه ألفا ، كأنه يقول : أكبر ، ويهزم راء التكبير ولا يضمها فهذه هيئة التكبير وما معه .

القراءة

ثم يبتدى بدعاء الاستفتاح وحسن أن يقول عقب قوله الله أكبر : الله أكبر كبيرا والحمد لله كثيرا وسبحان

(١) حديث « رفع اليدين للحدو المنكبين » وورد « لل شمة أذنيه » وورد « لل رموس أذنيه » ، متفق عليه من حديث ابن عمر باللفظ الأول وأبو داود من حديث وائل بن حجر إسناد ضعيف « لل شمة أذنيه » ، ولمسلم من حديث مالك بن الحويرث « فرفع أذنيه » (٢) حديث « قدر الأصابع هذه الالتماع » وقل « ضمها » وقال عطاء ، وابن خزيمة من حديث أبي هريرة « ولم يرفع بين أصابعه ولم يقبضها » ولم أجده التصريح بضم الأصابع (٣) حديث التكبير مع رمان اليدين أخرجه البخاري من حديث ابن عمر « كان يرفع يديه حين يكبر » ولأبي داود من حديث وائل « يرفع يديه مع التكبير » (٤) حديث التكبير مع استقرار اليدين أى صوفيهين أخرجه مسلم من حديث ابن عمر « كان إذا قام إلى الصلاة رفع يديه حتى يكونا حدو منكبيه ثم كبر » زاد أبو داود « وما كذلك » (٥) حديث « التكبير مع إرسال اليدين » أخرجه أبو داود من حديث ابن عمر « كان إذا قام إلى الصلاة يرفع يديه حتى يجاذي بها » ، بكسفه ثم كبر حتى يترك كل عظم في موضعه مستديلا » قال ابن الصلاح في المثلث فـ « كسبه » ، حتى « أي هي قائمة ثلثها على هل ما ذكره » أي من ابتداء التكبير مع الإرسال (٦) « كان إذا كبر أرسل يديه فإذا أراد أن يقرأ وضع اليمنى على اليسرى » أخرجه الطبراني من حديث معاذ بن إسناد ضعيف

الله بكرة وأصيلا^(١) وجهت وجهي - إلى قوله - وأنا من المسلمين^(٢) ، ثم يقول : سبحانك اللهم وبحمدك وتبارك اسمك وتعالى جدك وجل ثناؤك ولا إله غيرك^(٣) ، ليكون جامعا بين منفردات ما ورد في الأخبار . وإن كان خلف الإمام اختصر إن لم يكن الإمام سكتة طويلة يقرأ فيها ثم يقول : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، ثم يقرأ فاتحة يبتدئ فيها : بسم الله الرحمن الرحيم ، يتام تقديماتها وحروفها ويجهت في الفرق بين الضاد والظاء ويقول : آمين ، في آخر الفاتحة ويمددا ، ولا يصل : آمين ، بقوله : ولا الضالين ، وصلا . ويجهر بالقراءة في الصبح والمغرب والعشاء إلا أن يكون مأموما ، ويجهر بالتأمين . ثم يقرأ السورة أو قدر ثلاث آيات من القرآن لما فرغها ، ولا يصل آخر السورة بتكبير الهوى بأن يفصل بينهما بقدر قوله : سبحان الله ، ويقرأ في الصبح من السور الطوال من المفصل وفي المغرب من قصاره ، وفي الظهر والعصر والعشاء نحو (والسما ذات البروج) وما قاربها . وفي الصبح في المغرب (قل يا أيها الكافرون قل هو الله أحد) وكذلك في ركعتي الفجر والطواف والتحية وهو في جميع ذلك مستديم للقيام ووضع اليدين كما وصفنا في أول الصلاة .

الركوع ولواحقه

ثم يركع ويراعي فيه أمورا وهو أن يكبر للركوع وأن يرفع يديه مع تكبيرة الركوع وأن يمد التكبير هذا إلى الانتهاء إلى الركوع وأن يضع راحتيه على ركبتيه في الركوع وأصابعه منشورة موجهة نحو القبلة على طول الساق وأن ينصب ركبتيه ولا يثنيهما وأن يمد ظهره مستويا وأن يكون عنقه ورأسه مستويين مع ظهره كالصفحة الواحدة لا يكون رأسه أخفض ولا أرفع وأن يحمي مرفقيه عن جنبه . وتنعيم المرأة مرفقها إلى جنبها . وأن يقول : سبحان رب العظيم ، ثلاثا والزيادة إلى السبعة وإلى العشرة حسن ، إن لم يكن إماما ، ثم يرفع من الركوع إلى القيام ويرفع يديه ويقول : سمع الله لمن حمده ، ويعطمان في الاعتدال ويقول : ربنا لك الحمد ملء السموات وملء الأرض وملء ما شئت من شيء بعد ، ولا يطول هذا القيام إلا في صلاة التسبيح والكسوف والصبح . وينت في الصبح في الركعة الثانية بالكلمات المأثورة قبل السجود^(٤) .

السجود

ثم يهوي إلى السجود مكبرا فيضع ركبتيه على الأرض ويضع جبهته وأنفه وكفيه مكشوفة ويكبر عند الهوى ولا يرفع يديه في غير الركوع ، ويلبث أن يكون أول ما يقع منه على الأرض ركبته وأن يضع يدهما عليه ثم يضع يدهما وجهه وأن يضع جبهته وأنفه على الأرض وأن يحمي مرفقيه عن جنبه : ولا تفعل المرأة ذلك . وأن يفرج بين رجليه . ولا تفضل المرأة ذلك . وأن يكون في سجوده غويا على الأرض . ولا تكون المرأة غوية .

(١) حديث « أنه يقول بعد قوله الله أكبر : الله أكبر كبيرا والحمد لله كثيرا وسبحان الله بكرة وأصيلا » أخرجه مسلم من حديث ابن عمر قال : « بنا نحن نصل على رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ قال رجل من القوم الله أكبر كبيرا .. الحديث » أخرجه أبو داود وابن ماجه من حديث جبير بن مطعم « أنه رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم يصل صلاة قال : الله أكبر كبيرا ... الحديث » (٢) حديث « دعاء الاستفتاح وجهت وجهي ... الحديث » أخرجه مسلم من حديث علي (٣) حديث « سبحانك اللهم وبحمدك .. الحديث » في الاستفتاح أيضا أخرجه أبو داود والترمذي والمالك وصححه من حديث عائشة وضمه الترمذي والمناذري ورواه مسلم موقفا على عمر وعنه البيهقي من حديث جابر بن عبد الله « وجهت » وبين « سبحانك اللهم » (٤) حديث « الذنوب في الصبح بالكلمات المأثورة » أخرجه البيهقي من حديث ابن عباس « كان النبي صلى الله عليه وسلم ينت في صلاة الصبح ولي وتر الليل هؤلاء الكلمات : اللهم اهدني فيمن هديت ... الحديث » أخرجه أبو داود والترمذي وحسنه والبيهقي من حديث الحسن « أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يله هؤلاء الكلمات يقولهن في الوتر » وأسناده صحيح

والتخوية : رفع اليدين عن الفخذين والتفريق بين الركبتين . وأن يضع يديه على الأرض حذاء منكبيه ولا يفرح بين أصابعهما بل يضمهما ويضم الإبهام إليهما ، وإن لم يضم الإبهام فلا بأس ، ولا يفرش ذراعيه على الأرض كما يفرش الكلب ^(١) فإنه منهي عنه . وأن يقول « سبحان ربّي الأعلى » ثلاثاً فإن زاد لحسن إلا أن يكون إماماً . ثم يرفع من السجود فيطمئن جالساً مستديلاً فيرفع رأسه ميكراً ويجلس على رجله اليسرى وينصب قدمه اليمنى ويضع يديه على فخذه والأصابع مشدودة ولا يتكلم فيها ولا يفرجها . ويقول « وب اغفر لى وارزقنى وأهدنى واجبرنى وعافنى وعاف عني » ولا يطول هذه الجلسة إلا في سجود التسليم . وبقي بالسجدة الثانية كذلك ويستوى منها جالساً جلسة خفيفة للاستراحة في كل ركعة لا تشهد حقيها . ثم يقوم فيضع اليد على الأرض ولا يقدم إحدى رجله في حال الارتفاع ويمد التكبير حتى يستغرق ما بين وسط ارتفاعه من القعود إلى وسط ارتفاعه إلى القيام . بحيث تكون الهاء من قوله « الله » عند استوائه جالساً ؛ وكأف « أكبر » عند اعتاده على اليد للقيام ، وراء « أكبر » في وسط ارتفاعه إلى القيام ويبتدئ في وسط ارتفاعه إلى القيام حتى يقع التكبير في وسط انتقاله ولا يخلو عنه إلا طرفاه وهو أقرب إلى التعميم . ويصل الركعة الثانية كالأولى ويميد التمدد كالابتداء .

التشهد

ثم يشهد في الركعة الثانية التشهد الأول . ثم يصل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى آله ويضع يده اليمنى على فخذه اليمنى ويضم أصابعه اليمنى إلا السبعة ، ولا بأس بارسال الإبهام أيضاً ، ويشير بمسحة يمينه وحدها عند قوله « لا إله إلا الله » عند قوله « لا إله » ويجلس في هذا التشهد على رجله اليسرى كما بين السجدين . وفي التشهد الأخير يستكمل الدعاء المأثور ^(٢) بعد الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم وسنة كسائر التشهد الأول لكن يجلس في الأخير على ورثة الأئمة ، لأنه ليس مستوفراً للقيام بل هو مستقر ، ويضع رجله اليسرى خارجة من تحته وينصب اليمنى ويضع رأس الإبهام إلى جهة القبلة إن لم يثق عليه . ثم يقول « السلام عليكم ورحمة الله » ويثقف يميناً بحيث يرى خده الأيمن من واديه من الجانب اليمين ويثقف شمالاً كذلك . ويسلم تسليمه ثانية وينوى الخروج من الصلاة بالسلام وينوى بالسلام من على يمينه الملائكة والمسلمين في الأول ، وينوى مثل ذلك في الثانية . ويجزم التسليم ^(٣) ولا يده مداه فهو السنة . وهذه هيئة صلاة المنفرد ، ويرفع صوته بالتكبيرات ولا يرفع صوته إلا بقدر ما يسمع نفسه . وينوى الإمام الإمامة لينال الفضل فإن لم ينو صحص صلاة القوم إذا نواوا الابتداء ونالوا فضل الجماعة ، ويسر بدعاء الاستفتاح والتعوذ كالمنفرد ، ويحجر بالفاتحة والسورة في جميع الصبح وأولي العشاء والمغرب . وكذلك المنفرد . ويحجر بقوله « آمين » في الصلاة الجهرية وكذلك المأموم . ويقرن المأموم تأمينة بتأمين الإمام معاً لا تأمينة . ويسكت الإمام سكته عتيق الفاتحة ليثوب إليه نفسه ويقرأ المأموم الفاتحة في الجهرية في هذه السكته ليتمكن من الاستماع عند قراءة الإمام . ولا يقرأ المأموم السور في الجهرية إلا إذا لم يسمع صوت الإمام . ويقول الإمام « سمع الله من عباده » عند رفع رأسه من الركوع وكذا المأموم . ولا يزيد الإمام على الثلاث في تسميات الركوع والسجود ، ولا يزيد

(١) حديث « النبي أن يفرش ذراعيه على الأرض كما يفرش الكلب » متفق عليه من حديث أنس (٢) حديث « الدعاء المأثور بعد التشهد » أخرجه مسلم من حديث علي في دعاء الاستفتاح قال « ثم يكون من أكثر ما يقول بين التشهد والصلوة : اللهم اغفر لي ما قدمت .. الحديث » وفي الصحيحين من حديث عائشة « فإذا تمسك أحدكم للتشهد بقية من أربع : من مذهب جهنم ... الحديث » وفي الباب غير ذلك جميعاً في الأصل (٣) حديث « جزم السلام سنة » أخرجه أبو داود والترمذي من حديث أبي هريرة وقال حسن صحيح وضعه ابن الصلاح .

في التشهد الأول بعد قوله ، اللهم صل على محمد وعلى آل محمد ، وبقتصر في الركعتين الأخيرتين على الفاتحة ولا يعطى
على القوم ولا يزيد على دعائه في التشهد الأخير على قدر التشهد والصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم . وينوى
عند السلام : السلام على القوم والملائكة . وينوى القوم بتسليمهم جوابه وبثبوت الإمام ساعة حتى يفرغ الناس
من السلام ويقبل على الناس بوجهه . والأولى أن يثبت إن كان خلف الرجال فساد لينصرفن قبله ، ولا يقوم واحد
من القوم حتى يقوم . وينصرف الإمام حيث يشاء عن يمينه وشماله واليمين أحب إلى . ولا يخص الإمام نفسه بالدعاء
في قنوت الصبح بل يقول ، اللهم اهدنا ، ويحمر به ويؤمن القوم ويرفعون أيديهم حذاء الصدور ، ويمسح لوجهه عند
ختم الدعاء . لحديث نقل فيه ، وإلا فالتقيا أن لا يرفع اليد كما في آخر التشهد .

المنهيات

نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الصفن في الصلاة والصفد وقد ذكرناهما وعن الإبقاء^(١) وعن السدل^(٢)
والسكت^(٣) وعن الاختصار^(٤) وعن الصلب^(٥) وعن المواصلة^(٦) وعن صلاة الحافق^(٧) والحافق^(٨) والحازق^(٩)
وعن صلاة الجالغ والفضيان والمثلث^(١٠) وهو ستر الوجه . أما الإبقاء : فهو عند أهل اللغة أن يجلس على وركيه
وينصب ركبته ويجعل يديه على الأرض كالكلب . وعند أهل الحديث أن يجلس على ساقيه جائيا وليس على الأرض
منه إلا رموس أصابع الرجلين والركبتين . وأما السدل : فذهب أهل الحديث فيه أن يلتحف بثوبه ويدخل يديه
من داخل فركع ويسجد كذلك . وكان هذا فعل اليهود في صلاتهم فنوا عن التشبه بهم . والقميص في معناه فلا ينبغي
أن يركع ويسجد وبداهة في بدن القميص . وقيل معناه أن يمتنع وسطا لإزار على رأسه ويرسل طرفه عن يمينه وشماله
من غير أن يجمعا على كتفيه . والأول أقرب . وأما الكف فهو أن يرفع يديه من بين يديه أو من خلفه إذا أراد
السجود . وقد يكون الكف في شعر الرأس فلا يصلين وهو عاقص شعره والنهي للرجال . وفي الحديث : أمرت

(١) حديث « النهي عن الإبقاء » أخرجه الترمذى وابن ماجه من حديث علي بن إسحق ضعيف « لا يقع بين السجدين » وسئل من
حديث عائشة « كان ينهى عن عقبية الضيق » والمالك من حديث سمرة وصححه « نهى عن الإبقاء » (٢) حديث « نهى عن
السدل في الصلاة » أخرجه أبو داود والترمذى والمالك وصححه من حديث أبي هريرة (٣) حديث « النهي عن السكت في
الصلاة » من حديث ابن عباس « أمرنا النبي صلى الله عليه وسلم أن نسجد على سبعة أعظم ولا نكف عن السجدة ولا نأولها » (٤) حديث « النهي
عن الاختصار » أخرجه أبو داود والمالك وصححه من حديث أبي هريرة وهو عتق عليه بلفظ « نهى أن يدخل الرجل مختصرا »
(٥) حديث « النهي عن الصلب في الصلاة » أخرجه أبو داود والترمذى من حديث ابن عمر بإسناد صحيح (٦) حديث
« النهي عن المواصلة » من حديث زر بن أبي أنس ، ولم أجده عنده ، وقد فسره الترمذى بإسناد صحيح « نهى عن المواصلة »
وهو ذلك . وقد روى أبو داود والترمذى وصححه وابن ماجه من حديث سمرة « سكتان خلفتها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم
لذا دخل في صلاته : إذا فرغ من فرائده ولذا فرغ من قراءة القرآن » وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة : « كان يسكت بين
التسبيح والقرآن لسكته » الحديث (٧) حديث « النهي عن صلاة الحافق » أخرجه ابن ماجه والدارقطني من حديث أبي أمامة
أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى أن يدخل الرجل وهو حافق ، وأبو داود من حديث أبي هريرة « لا يصل رجل يؤمن بالله
واليوم الآخر أن يصل وهو حافق » وفي الترمذى وصححه نحوه من حديث ثوبان وسئل من حديث عائشة « لأصلاة بمحضرة طعام
ولا وهو يداه الأختان » (٨) حديث « النهي عن صلاة الحافق » لم أجده بهذا اللفظ وبسر المصنف تبعا للأثر من حديثه
الفاظ وفيه حديث عائشة التي قبل هذا (٩) حديث « النهي عن صلاة الحافق » من حديث زر بن أبي أنس ، ولم أجده عنده وفي
ذكره أصحاب الريب حديث « لا رأى لحافق » وهو صاحب الخلف الضيق (١٠) حديث « النهي عن التثاق في الصلاة »
أخرجه أبو داود وابن ماجه من حديث أبي هريرة بمسند حسن « نهى أن يعطى الرجل طاء في الصلاة » ورواه المالك وصححه قال
الحفاظي هو التثاق على الأقوال

أن أجد على سبعة أعضاء ولا أكفت شعرا ولا ثوبا ^(١) ، وكره أحد بن حنبل رضى الله عنه أن يأثر فوق التقيص في الصلاة وآدم من الكفت ، وأما الاختصار : فإن يضع يديه على خاصرته . وأما الصلابة فإن يضع يديه على خاصرته في القيام ويجافي بين عضديه في القيام . وأما المواصله : فهي خمسة : اثنان على الإيمان أن لا يصل قراءة بتكبير الإحرام ولا ركوع بقراءته ، واثنان على المؤمن أن لا يصل تكبيرة الإحرام بتكبيره ، واحدة بينهما أن لا يصل تسليمه الفرض بالتسليم الثانية ويفصل بينهما وأما الحاقن : فن البول ، والحاقب : من القاطع . والحازق : صاحب الحنف الضيق . فإن كل ذلك يمنع من الخشوع . وفي معناه الجامع والمهم . وفيه من الجائع من قوله صلى الله عليه وسلم : إذا حضر العشاء وأقيمت الصلاة فأبدهوا بالمشاء إلا أن يضيق الوقت أو يكون ساكن القلب ^(٢) ، وفي الخبر لا يدخل أحدكم الصلاة وهو مقطب ولا يصلين أحدكم وهو غضبان ^(٣) ، وقال الحسن : كل صلاة لا يصير فيها القلب فهي إلى العقوبة أسرع . وفي الحديث : سبعة أشياء في الصلاة من الشيطان : الرعاف والتماس والوسوسة والتأثؤب والحكاك والالتفات والبيت بالشئ ^(٤) ، وزاد بعضهم : السهو والشك ، وقال بعض السلف : أربعة في الصلاة من الجفاء - الالتفات ومسح الوجه وتسوية الحصى وأن تصلى بطريق من يمز بين يديك - ومن أيضا عن أن يشبك أصابعه ^(٥) أو يفرق أصابعه ^(٦) أو يستر وجهه ^(٧) أو يضع إحدى كفيه على الأخرى يدخلها بين يديه في الركوع ^(٨) ، وقال بعض الصحابة رضى الله عنهم : كنا نفعل ذلك فنهينا عنه . ويكره أيضا أن يرفع في الأرض عند السجود للتطيف وأن يسقى الحصى بيده فإنها أفعال مستغنى عنها ولا يرفع إحدى قدميه فيها على غلظه ولا يستند في قيامه إلى حائط فإن استند بحيث لو سل ذلك الحائط لسطق فالأظهر بطلان صلاته والله أعلم .

تمييز الفرائض والسنن

جملة ما ذكر يشتدل على فرائض وسنن وآداب وهيئات بما ينبغي لمريد طريق الآخرة أن يراعى جميعها . فالفرض من جعلها اثنتا عشرة خصلة : الثبة والتكبير والقيام والقائعة ، والاعتقاد في الركوع إلى أن تال راحتاه وركبتيه مع الطمأنينة والاعتدال عنه قائما ، والسجود مع الطمأنينة ولا يجب وضع اليدين والاعتدال عنه قاعدا ، والجلوس للشهادة الأخير والتشهد الأخير والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ، والسلام الأول . فأما نية الخروج فلا يجب وماعدا هذا فليس بأوجب بل هي سنن وهيئات فيها . وفي الفرائض : أما السنن فمن الأفعال أربعة : رفع اليدين في تكبيرة الإحرام وعند الموى إلى الركوع وعند الارتفاع إلى القيام ، والجلسة للتشهد الأول . فأما ما ذكرناه من كيفية

(١) حديث « أحسن أن أسجد على سبعة أعضاء ولا أكفت شعرا ولا ثوبا » متفق عليه من حديث ابن عباس (٢) حديث « إذا حضر العشاء وأقيمت الصلاة فأبدهوا بالمشاء » متفق عليه من حديث ابن عمر وعائشة (٣) حديث « لا يدخل أحدكم الصلاة وهو مقطب ولا يصلين أحدكم وهو غضبان » لم أجده (٤) حديث « سبعة أشياء من الفجاءة في الصلاة : الرعاف والتماس والوسوسة والتأثؤب والالتفات » وزاد بعضهم « السهو والشك » أخرجه الترمذى من رواية عن أبي ذئب عن أبيه عن جده فذكر منها الرعاف والتماس والتأثؤب وزاد ثلاثة أخرى . وقال حديث غريب ولسلم من حديث عثمان بن أبي العباس « يا رسول الله إن الشيطان قد حال بيني وبين سلاتي الحديث » وفيه خبر من حديث عائشة في الصلاة ثم احتل بالخلع الشيطان من صلاة أحدكم ولا يفرق من حديث أبي هريرة التثؤب من الشيطان ولما من حدث أبي هريرة أن أحدهم إذا قام يصل جاء الشيطان فليس عليه صلاته حتى لا يدري كم صلى (٥) حديث « النبي من تشبك الأصابع » أخرجه أحمد وابن حبان والحاكم وصححه من حديث أبي هريرة وأبو داود والترمذى وابن ماجه وابن حبان نحوه من حديث كعب بن جهم (٦) حديث « النبي تفلج الأماح في الصلاة » أخرجه ابن ماجه من حديث أبي هريرة (٧) حديث « النبي من ستر الوجه أخرجه أبو داود وابن ماجه والحاكم وصححه من حديث أبي هريرة (٨) حديث « النبي عن التطبيق في الركوع » متفق عليه من حديث سعد بن أبي وقاص : كنا نعمل قنينا عنه وأمرنا أن نضع الأيدي على الركب

نشر الأصابع وحدّ رفعها فهي هيئات تابعة لهذه السنة ، والتورك والاقتراش هيئات تابعة للجلسة والإطراق وترك الالتفات هيئات للقيام وتحسين صورته ، وجلسة الاستراحة لم تعدنا من أصول السنة في الأفعال لأنهم كالتحسين لمية الارتفاع من السجود إلى القيام لأنها ليست مقصودة في نفسها ولذلك لم تفرد بذلك . وأما السنن من الأذكار فدعاء الاستفتاح ثم التوسُّد ثم قوله « آمين » فإنه سنة مؤكدة ثم قراءة السورة ثم تكبيرات الانتقال ، ثم المذكر في الركوع والسجود والاعتدال عنهما ، ثم التشهد الأول والصلاة فيه على النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم الدعاء في آخر التشهد الأخير ، ثم التسليم الثانية وإن جمعناها في اسم السنة فلها درجات متفاوتة إذ تجبر أربعة منها بسجود السهو . وأما من الأفعال فواحدة : وهي جلسة الأولى للتشهد الأول فلها مؤثرة في ترتيب نظم الصلاة في أعيان الناظرين حتى يعرف بها أثمار باعية أم لا ؟ بخلاف رفع اليدين فإنه لا يؤثر في تغيير النظم فمبصر عن ذلك البعض . وقيل الأيمان بجبر بالسجود : وأما الأذكار فكلها لا تقتضي مجرد السهو إلا لثلاثة : التنون والتشهد الأول والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم فيه ، بخلاف تكبيرات الانتقال وأذكار الركوع والسجود والاعتدال عنهما ، لأن الركوع والسجود في صورتها مخالفان للمادة ويحصل بها معنى العبادة مع السكوت عن الأذكار وعن تكبيرات الانتقال فقدم تلك الأذكار لا لتغير صورة العبادة . وأما الجلسة للتشهد الأول ففعل متعاد وما زيدت إلا للتشهد فتركها ظاهر التأمير . وأما دعاء الاستفتاح والسورة فتركها لا يؤثر مع أن القيام صار معموراً بالفاتحة وعبارة عن المادة بها ، وكذلك الدعاء في التشهد الأخير والتنون أبعد ما يجبر بالسجود ولكن شرع مدة الاعتدال في الصباح لأجله فكان كد جلسة الاستراحة إذ صارت بالمد مع التشهد جلسة للتشهد الأول ، فبقى هذا قياماً معدوماً معتاداً ليس فيه ذكر واجب وفي الممدود احتراز عن غير الصباح وفي خلقه عن ذكر واجب احتراز عن أصل القيام في الصلاة . فإن قلت : تميز السنن عن القرائن معقول إذ نفوت الصحة بفوت الفرض دون السنة ويتوجه المقاب به دونها فأما تميز سنة عن سنة والكل مأمور به على سبيل الاستحباب ولا عتاب في ترك الكل والثواب موجود على الكل فما معناه ؟ فاعلم أن اشتراكهما في الثواب والمقاب والاستحباب لا يرفع تفاوتهما ، ولتكشف ذلك لك بمثال : وهو أن الإنسان لا يكون إنساناً موجوداً كاملاً إلا بمعنى باطن وأعضاء ظاهرة ، فالمنى الباطن هو الحياة والروح ، والظاهر أجسام أعضائه . ثم بعض تلك الأعضاء ينضم الإنسان بعددها كالقلب والكبد والدماغ ، وكل عضو نفوت الحياة بفواته ، وبعضها لا نفوت بها الحياة ولكن يفوت بها مقاصد الحياة كالعين واليد والرجل واللسان ، وبعضها لا يفوت بها الحياة ولا مقاصدها ولكن يفوت بها الحسن كالحاجبين والحية والأهداب وحسن اللون ، وبعضها لا يفوت بها أصل الجلال ولكن كاله كاستقواس الحاجبين وسواد شعر الحية والأهداب وتناسب خلقه الأعضاء وامتزاج الحرارة بالبرودة في اللون فهذه درجات متفاوتة ؛ فكذلك العبادة صورة صورها الشرع وتعبدها باكتسابها فروحها وحياتها الباطنة الخشوع والثبة وحضور القلب والإخلاص - كما سيأتى - ونحن الآن في أجزائها الظاهرة فالركوع والسجود والقيام وسائر الأركان تجري منها بجري القلب والرأس والكبد إذ يفوت وجود الصلاة بفواتها . والسنن التي ذكرناها من رفع اليدين ودعاء الاستفتاح والتشهد الأول تجري منها بجري اليدين والعين والرجلين ولا نفوت الصحة بفواتها كالنفوت الحياة بفوات هذه الأعضاء ولكن يصير الشخص بسبب فواتها مشوّعاً الخلق مذموماً غير مرغوب فيه ، فكذلك من اقتصر على أقل ما يجزى من الصلاة كان كمن أهدى إلى ملك من الملوك ميداناً حياً مقطوعاً الأطراف . وأما الهيئات وهي ما وراء السنن فتجربى أسباب الحسن من الحاجبين والحية والأهداب

وحسن اللون ، وأما وظائف الأذكار في تلك السنن فهي مكالات الحسن كاستقواس الحاجبين واستدارة العية وغيرهما . فالصلاة عندك قربة وثيقة تقترب بها إلى حضرة ملك الملوك كوصيفة يهتديها طالب القربة من السلاطين إليهم . وهذه التحفة تعرض على الله عز وجل . ثم ترد عليك يوم العرض الأكبر فإليك الخيرة في تحسين صورتها وتزيينها . فإن أحسنت فلنفسك وإن أسأت فقلبك . ولا ينبغي أن يكون حظك من ممارسة الفقه أن يمتد لك السنة عن العرض فلا يعلق بفهمك من أوصاف السنة إلا أنه يجوز تركها فتتركها فإن ذلك يضاهي قول الطيب : إن فقه الدين لا يبطل وجود الإنسان ولكن يخرجه عن أن يصدق رجاء المتقرب في قبول السلطان إذا أخرجه في معرض الهدية - فهكذا ينبغي أن تفهم مراتب السنن والغيثات والآداب ، فكل صلاة لم يتم الإنسان ركوعها وبجودها فهي الخضم الأول على صاحبها تقول : ضيعك الله كما ضيعني . فطالع الأخبار التي أوردناها في كمال أركان الصلاة ليظهر لك وقعها .

الباب الثالث : في الشروط الباطنة من أعمال القلب

ولنذكر في هذا الباب ارتباط الصلاة بالخشوع وحضور القلب . ثم نذكر المعاني الباطنة وحدودها وأسبابها ودلاجها . ثم نذكر تفصيل ما ينبغي أن يحضر في كل ركن من أركان الصلاة لتكون صالحة لزاد الآخرة .

بيان أشراط الخشوع وحضور القلب

أعلم أن أدلة ذلك كثيرة فن ذلك قوله تعالى (أقم الصلاة لذكري) وظاهر الأمر الوجوب ، والنفقة تضاد الذكر فن غفل في جميع صلاته كيف يكون مقبلاً للصلاة لذكره ؟ وقوله تعالى (ولا تكن من الغافلين) نهي وظاهره التحريم وقوله عز وجل (حتى عملوا ما يقولون) تعليل لنهي السكران وهو مطرد في الغافل المستغرق اللهم بالنوراس وأفكار الدنيا وقوله صلى الله عليه وسلم : إنما الصلاة تسكن وتواسع ، حصر بالآلف واللام وكلمة : وإنما ، للتحقيق والتوكيد ، وقد فهم الفقهاء من قوله عليه السلام : وإنما الضميمة فيما لم يقصر ، الحصر والالتماس والتضييق ، وقوله صلى الله عليه وسلم : من لم تنه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يرد من الله إلا بدلاً ، وصلاة الغافل لا تمتنع من الفحشاء والمنكر ، وقال صلى الله عليه وسلم : كم من قائم حظه من صلاته التعب والنصب ^(١) وما أراد به إلا النافل وقال صلى الله عليه وسلم (ليس للعبد من صلاته إلا ما عطل منها ^(٢)) والتحقق فيه أن المصلح مناجاة ربه عز وجل ^(٣) ، كما ورد به الخبر والكلام مع النفلة ليس بمناجاة البتة ، وبأنه أن الزكاة إن غفل الإنسان عنها مثلاً فهي في نفسها مخالفة للشبهة شديدة على النفس ، وكذا الصوم قاهر للقوى كاسر لسلطة الهوى الذي هو آلة للشيطان عدو الله ، فلا يبعد أن يحصل منها مقصود مع النفلة ، وكذلك الحج أفعاله شاقة شديدة وفيه من المجاهدة ما يحصل به

الباب الثالث

(١) حديث « كم من قائم حظه من صلاته التعب والنصب » أخرجه النسائي من حديث أبي هريرة « رب قائم ليس له فياحه . إلا التعب » ولأحمد « رب قائم حظه من صلاته التعب » وإسناده حسن .

(٢) حديث « ليس للعبد من صلاته إلا ما عطل » لم أجده مرفوعاً روى محمد بن نصر المروزي في كتاب الصلاة من رواية ثمان ابن أبي دهرش مرسلاً لا يثبت أنه من عبد ملاح يقصد قلبه مع بدنه » ورواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أبي ابن كعب ولابن المبارك في الزهد مرفوعاً على عمار لا يكتب الرجل من صلاته ما سبها عنه

(٣) حديث « المصلح يتلجى ربه » متفق عليه من حديث أنس

الإيلاء كان القلب حاضراً مع أفعاله أو لم يكن ؟ أما الصلاة فليس فيها إلا ذكر وقراءة وركوع وسجود وقيام وقعود ، فأما الذكر فإنه مجاورة ومناجاة مع الله عز وجل فأما أن يكون المقصود منه كونه خطاباً ومحاوراً أو المقصود منه الحروف والأصوات امتحاناً للسان بالعمل كما تمتحن المعدة والفرج بالإمساك في الصوم ، وكما تمتحن البدن بمشاق الحسج ، ويمتن بمشقة إخراج الزكاة واقتطاع المال المشوق . ولا شك أن هذا التسم باطل فإن تحريك اللسان بالهذيان ما أخفه على الغافل فليس فيه امتحان من حيث أنه عمل بل المقصود الحروف من حيث أنه نطق ، ولا يكون نطقاً إلا إذا أعرب عما في الضمير ولا يكون معرباً إلا بحضور القلب ، فأى سؤال في قوله (إعدنا الصراط المستقيم) إذا كان القلب غافلاً ؟ وإذا لم يقصد كونه تعريضاً ودعاء فأى مشقة في تحريك اللسان به مع النفثة لاسباب بعد الاحتياط ؟ هذا حكم الأذكار بل أقول لو حلف الإنسان وقال : لأشكرن فلاناً وأثنى عليه وأسأله حاجة ؛ ثم جرت الألفاظ العالقة على لسانه في النوم لم يبر في يمينه ، ولو جرت على لسانه في ظلة وذلك للإنسان حاضر وهو لا يعرف حضوره ولا يراه لا يصير بارأى في يمينه إذ لا يكون كلامه خطاباً ولطفاً معه ما لم يكن هو حاضرًا في قلبه ، فلو كانت تجرى هذه الكلمات على لسانه وهو حاضر إلا أنه في بياض النهار غافل لكونه مستغرق الهم يفكر من الأفكار ولم يكن له قصد توجيه الخطاب إليه عند نطقه لم يصبر بارأى في يمينه . ولا شك أن المقصود من القراءة والأذكار الحمد والتناء والتضرع والدعاء ، والمخاطب هو الله عز وجل وقلبه بمجباب الغفلة محبوب عنه فلا يراه ولا يشاهده بل هو غافل عن المخاطب ولسانه يتحرك بحكم العادة لا أيهد هذا عن المقصود بالصلاة التي شرعت لتسقيت القلب وتجديد ذكر الله عز وجل ووسوخ صدق الإيمان به ؛ هذا حكم القراءة والذكر . وبالجملة فهذه الخاصية لاسبيل إلى إنكارها في النطق وتمييزها عن الفعل . وأما الركوع والسجود فالمقصود بهما التعظيم قطعاً ولو جاز أن يكون معظماً لله عز وجل بفعله وهو غافل عنه لجأز أن يكون معظماً لسم موضوع بين يديه وهو غافل عنه ، أو يكون معظماً للحادث الذي بين يديه وهو غافل عنه ، وإذا خرج عن كونه تعظيماً لم يبق إلا مجرد حركة الظهر والرأس وليس فيه من المشقة ما يقصد الامتحان به ، ثم يجعل عماد الدين والفصل بين الكفر والإسلام ويقدم على الحسج وسائر العبادات ويجب القتل بسبب تركه على الخصوص ، وما أرى أن هذه العظيمة كلها للصلاة من حيث أعمالها الظاهرة إلا أن يضاف إليها مقصود المناجاة فإن ذلك يتقدم على الصوم والزكاة والحسج وغيره بل الضحايا والقرابين التي هي مجاهدة النفس بتقيص المسأل قال الله تعالى (إن ينال الله لخمومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم) أى الصفة التي استولت على القلب حتى حلت على أمثال الأوامر هي المطلوبة فكيف الأمر في الصلاة ولا أرب في أفعالها ؟ فهذا ما يدل من حيث المعنى على اشتراط حضور القلب . فان قلت : إن حكمت بطلان الصلاة وجعلت حضور القلب شرطاً في صحتها عاقلت إجماع الفقهاء فإنهم لم يشترطوا إلا حضور القلب عند التكبير ؟ فأعلم أنه قد تقدم في كتاب العلم : أن الفقهاء لا يتصرفون في الباطن ولا يشقون عن القلوب ولا في طريق الآخرة بل يبتون أحكام الدين على ظاهر أعمال الجوارح ؛ وظاهر الأعمال كاف لسقوط القتل وتمزيق السلطان ؛ فأما أنه ينفع في الآخرة فليس هذا من حدود الفقه على أنه لا يمكن أن يدعى الإجماع . فقد نقل عن بشر بن الحارث فيها رواه عنه أبو طالب السكي عن سفيان الثوري أنه قال : من لم يمشع فسدت خللاته وروى عن الحسن أنه قال : كل صلاة لا يحضر فيها القلب فهي إلى العقوبة أسرع . وعن معاذ بن جبل : من عرف من على يمينه وشماله متمعداً ، وهو في الصلاة فلا صلاة له . وروى أيضاً مستنداً قال رسول الله صلى الله عليه وسلم

« إن العبد ليصل الصلاة لا يكتب له سدسها ولا عشرها وإنما يكتب العبد من صلاته ما عقل^(١) منها » وهذا لو نقل عن غيره لجعل مذهبا فكيف لا يتسلك به ؟ وقال عبد الواحد بن زيد : أجمعت العلماء على أنه ليس العبد من صلاته إلا ما عقل منها ، فجعله إجماعا ، وما نقل من هذا المجلس عن الفقهاء التزويين وعن علماء الآخرة أكثر من أن يحصى . ولحق الرجوع إلى أدلة الشرع والأخبار ، والآثار ظاهرة في هذا الشرط إلا أن مقام الفتوى في التكليف الظاهر يتقدر بقدر قصور الخلق . فلا يمكن أن يشترط على الناس إحضار القلب في جميع الصلاة فإن ذلك يعجز عنه كل البشر إلا الأفالين وإذا لم يمكن اشتراط الاستيعاب للضرورة فلا مرد له إلا أن يشترط منه ما يطلق عليه الاسم ولو في اللحظة الواحدة ، وأولى اللحظات به لحظة التكبير فاقصرنا على التكليف بذلك . ونحن مع ذلك نرجو أن لا يكون حال الناقل في جميع صلاته مثل حال التارك بالكيفية . فانه على الجملة أقدم على العمل ظاهرا وأحضر القلب لحظة . وكيف لا والذي صلى مع الحدث ناسيا صلاته باطلة عند الله تعالى ولكن له أجر ما يجب فعله وعلى قدر قصوره وعذره ، ومع هذا الرجاء فيخشى أن يكون حاله أشد من حال التارك وكيف لا والذي يعجز الخدمة ويهاون بالحضرة ويتكلم بكلام الناقل المستحقر أشد حالا من الذي يمرض عن الخدمة ؟ وإذا تعارض أسباب الخوف والرجاء وصار الأمر مضطرا في نفسه فأليك الحيرة بعده في الاحتياط والسؤال . ومع هذا فلا مطمع في مخالفة الفقهاء فيها أفترأ به من الصحة مع الغفلة فإن ذلك من ضرورة الفتوى - كما سبق التنبيه عليه - ومن عرف سر الصلاة علم أن الغفلة تضادها . ولكن قد ذكرنا في باب الفرق بين العلم الباطن والظاهر في كتاب قواعد العقائد أن قصور الخلق أحد الأسباب السانئة عن التصريح بكل ما يتكشف من أسرار الشرع . فلتقتصر على هذا القدر من البحث فإن فيه مقنا للريد الطالب لطريق الآخرة . وأما المجالد المشغب فلننا قصد مخاطبته الآن وحاصل الكلام أن حضور القلب هو روح الصلاة وأن أقل ما يبق به رمت الروح الحضور عند التكبير . فالتقصان منه هلاك . وبقدر الزيادة عليه تنبسط الروح في أجزاء الصلاة . وكمن حي لا حراك به قريب من ميت ؟ فصلاة الناقل في جميعها إلا عند التكبير كمثل حي لا حراك به نسأل الله حسن العون

بيان المعاني الباطنة التي تتم بها حياة الصلاة

إعلم أن هذه المعاني تكثر عبارات عنها ولكن يجمعها ست جل وهي : حضور القلب والتفهم والتعظيم والهيبة والرجاء والحياء . فلنذكر تفصيلها ثم أسبابها ثم العلاج في كتابنا . أما التفصيل : فالأول ، حضور القلب . ونعني به أن يغرق القلب عن غير ما هو ملابس له ومتكلم به ، فيكون العلم بالفعل والقول مقرونا بهما ، ولا يكون الفكر جبالا في غيرهما ، ومهما انصرف في الفكر عن غير ما هو فيه وكان قلبه ذكر لما هو فيه ولم يكن فيه غفلة عن كل شيء فقد حصل حضور القلب . ولكن التفهم لمعنى السلام أمر وراء حضور القلب ، فربما يكون القلب حاضرا مع اللفظ ولا يكون حاضرا مع معنى اللفظ ؛ فأشكال القلب على العلم بمعنى اللفظ هو الذي أردناه بالتفهم . وهذا مقام يتفاوت الناس فيه إذ ليس يشترك الناس في تفهم المعاني للقرآن والتدبيحات . وكمن معان لطيفة يفهمها المصل في أثناء الصلاة ولم يكن قد خطر بقلبه ذلك قبله ؟ ومن هذا الوجه كانت الصلاة ناهية عن الفحشاء والمنكر ، فلما تفهم أمورا ؛ تلك الأمور تمنع عن الفحشاء لا محالة . وأما التعظيم فهو أمر وراء حضور القلب والتفهم إذا الرجل يخاطب عبده بكلام هو حاضر القلب

(١) حديث « إن العبد ليصل الصلاة لا يكتب له سدسها ولا عشرها ... الحديث » أخرجه أبو داود والبيهقي وابن حبان من حديث عمار بن ياسر بنحوه

فيه ومتفهم لمعناه ولا يكون مدظلاً له فالتعظيم زائد عليهما . وأما الهيبة فرائدة على التعظيم بل هي عبارة عن خوف منشؤه التعظيم لأن من لا يخاف لا يسمي هائبا ، والخافة من المقرب وسوء خلق العبد وما يجري مجراه من الأسباب الخفية لا تسمى مهابة ، بل الخوف من السلطان المعظم يسمى مهابة ، والهيبة خوف مصدرها الإجلال . وأما الرجاء فلا شك أنه زائد فكم من مدظم ملكا من الملوك يهابه أو يخاف سطوته ولكن لا يرجو موته . والعبد يفيئ أن يكون راجيا بصلاته ثواب الله عز وجل كما أنه خائف بتقصيره عقاب الله عز وجل ، وأما الحياء فهو زائد على الجملة لأن مستنده استعمار تقصير وتوهم ذنب ويتصور التعظيم والخوف والرجاء من غير حياء حيث لا يكون توهم تقصير وارتكاب ذنب . وأما أسباب هذه المعاني الستة فاعلم أن حضور القلب سببه الهمة فإن قلبك تابع لهمتك فلا يحضر إلا قيا يهيمك . ومهما أمكك أمر حضر القلب فيه شاء أم أبى فهو مجبر على ذلك ومسخر فيه . والقلب إذا لم يحضر في الصلاة لم يكن متعللا بل جائلا فيها الهمة مصروفة إليه من أمور الدنيا ، فلا حيلة ولا علاج لإحضار القلب إلا بصرف الهمة إلى الصلاة ، والهمة لا تنصرف إليها مالم يتبين أن الغرض المطلوب مترطبا وذلك هو الإيمان والتصديق بأن الآخرة خير وأبقى وأن الصلاة وسيلة إليها ، فإذا أضيف هذا إلى حقيقة العلم بمخارة الدنيا ومهماتها حصل من مجموعها حضور القلب في الصلاة ، وبمثل هذه الهمة يحضر قلبك إذا حضرت بين يدي بعض الأكابر من لا يقدر على معصرتك ومنفعتك ، فإذا كان لا يحضر عند المناجاة مع ملك الملوك الذي بيده الملك والملكوت والنفع والضر فلا تظن أن له سببا سوى حذف الإيمان فاجتهد الآن في تقوية الإيمان - وطريقه يستقصي في غير هذا الموضع - وأما التفهم فسيه بعد حضور القلب إيمان الفكر وصرف الذهن إلى إدراك المعنى وعلاجه ما هو علاج إحضار القلب مع الإقبال على الفكر والتفكير لدفع الخواطر . وعلاج دفع الخواطر الشاغلة قطع موادها أعنى التزود عن تلك الأسباب التي تجذب الخواطر إليها ، ومالم تقطع تلك المواد لا تنصرف عنها الخواطر فإن أحب شيئا أكثر ذكره فذكر المحبوب يهجم على القلب بالضرورة ، لذلك ترى أن من أحب غير الله لا يصفوله صلاة عن الخواطر . وأما التعظيم فهي حالة للقلب تتولد من معرفتين ، إحداهما : معرفة جلال الله عز وجل وعظمته وهو من أصول الإيمان فإن من لا يستد عظمته لا تذهن النفس لتعظيمه . الثانية : معرفة حقارة النفس وخساستها وكونها عبدا مسخرا مبروبا حتى يتولد من المعرفتين الاستكانة والانكسار والخشوع لله سبحانه فيعبر عنه بالتعظيم ، ومالم تتجزع معرفة حقارة النفس بمعرفة جلال الله لا تنتظم حالة التعظيم والخشوع فإن المستغنى عن غيره الآمن على نفسه يجوز أن يعرف من غيره صفات العظمة ولا يكون الخشوع والتعظيم حاله لأن القرينة الأخرى وهي معرفة حقارة النفس وساحتها لم تقتن إليه ، وأما الهيبة والخوف لحالة للنفس تتولد من المعرفة بقدرته الله وسطوته وتفوقه فهيته فيه مع قوة المبالاة به ، وأنه لو أهلك الأولين والآخرين لم ينقص من ملكه ذرة هذا مع مطالعة ما يجري على الأنبياء والأولياء من المصائب وأتوارع البلاء مع القدرة على الدفع على خلاف ما يشاهد من ملوك الأرض . وبالمجلة كلما زاد العلم بالله زادت الخشية والهيبة - وسياق أسباب ذلك في كتاب الخوف من ريع المنجيات - وأما الرجاء فسيه معرفة لطف الله عز وجل وكرمه وعيم إنعامه ولطائف منحه ومعرفة صدقه في وعده الجنة بالصلاة ، فإذا حصل اليقين برعده والمعرفة بلطفه انبعث من مجموعها الرجاء للاحالة : وأما الحياء فاستشعار التقصير في العبادة وعمله بالمعز عن القيام بتعظيم حق الله عز وجل ويقوى ذلك بالمعرفة بعيوب النفس وآفات وأوقلة إخلاصها ونخب دخلتها ورميها إلى الحظ المآجل في جميع أفعالها مع العلم بتعظيم ما يقتضيه جلال الله عز وجل والعلم

بأنه مطلع على السر وخطرات القلب وإن دقت وخفيت ، وهذه المعارف إذا حصلت بقينا أثبت منها بالضرورة حالة تسمى الحياء فهذه أسباب هذه الصفات وكل ما طلب تحصيله فملاجه إحضار سببه في معرفة السبب معرفة العلاج . ورابطة جميع هذه الأسباب الإيمان . واليقين أعني به هذا المعارف التي ذكرناها ومعنى كونها يقينا انتماء القلب واستيلائها على القلب ، كما سبق في بيان اليقين من كتاب العلم . ويقدر اليقين يخشع القلب ولذلك قالت عائشة رضي الله عنها : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحدثنا ونحدثه فإذا حضرت الصلاة كأنه لم يعرفنا ولم نعرفه ، وقدرى أن الله سبحانه أوحى إلى موسى عليه السلام : يا موسى إذا ذكرتني فاذكرني وأنت تلتفتض أعضائك وكن عند ذكرى عاشما مطمئنا وإذا ذكرتني فأجعل لسانك من وراء قلبك وإذا قلت بين يدي فقم قيام العبد الدليل وناجى بقلب وجل ولسان صادق ، وروى أن الله تعالى أوحى إليه : قل لعصاة أمتك لا يذكرني فإني آليت على نفسي أن من ذكرني ذكرته فإذا ذكروني ذكرتهم بالجنة ، وهذا هاض غير غافل في ذكره فكيف إذا اجتمعت الغفلة والعصيان ؟ وباختلاف المعاني التي ذكرناها في القلوب انقسم الناس إلى غافل يشتم صلاته ولم يحضر قلبه في لحظة نيتا . وإلى من يتم ولم يغيب قلبه في لحظة بل ربما كان مستوعب المه بها بحيث لا يحس بما يجري بين يديه . ولذلك لم يحس مسلم بن يسار بسقوط الاسطوانة في المسجد اجتمع الناس عليا . وبعضهم كان يحضر الجماعة مدة ولم يعرف قط من على يمينه ويساره . ووجب قلب إبراهيم صلوات الله عليه وسلامه كان يسمع على مبلين . وجماعة كانت تصفر وجوههم وترتعد فرائصهم . وكل ذلك غير مستبعد فإن أضعافه مشاهد في هم أهل الدنيا وخوف ملوك الدنيا مع هزهم وضعفهم وخساسة الحظوظ الحاصلة منهم حتى يدخل الواحد على ملك أو وزير ويحدثه بميمته ثم يخرج ، ولو سئل عن حوائله أو عن ثوب الملك لكان لا يقدر على الإخبار عنه لا اشتغالهم به ، عن ثوبه وعن الحاضرين حوائله (ولكل درجات مما عملوا) لحظ كل واحد من صلاته بقدر خوفه وخشوعه وتظيمه فإن موقع نظر الله سبحانه القلوب دون ظاهر المركات . ولذلك قال بعض الصحابة رضي الله عنهم : يحشر الناس يوم القيامة على مثال هيئتهم في الصلاة من الطمأنينة والهدوء ومن وجود النعم بها والذلة ، ولقد صدق فإنه يحشر كل على مامات عليه ويموت على ما عاش عليه : ويرأى في ذلك حال قلبه لاحال نفسه فن صفات القلوب تصاغ الصور في الدار الآخرة ولا ينجر إلا من أتى الله بقلب سليم ، نسأل الله حسن التوفيق بلطفه وكرمه

بيان الدواء النافع في حضور القلب

أعلم أن المؤمن لابد أن يكون مطلقا عن وجل وخالفا منه وراجيا له ومستعينا من تعصيه فلا ينفك عن هذه الأحوال بعد إيمانه ، وإن كانت قوتها بقدر قوة يتيته فانفكاكه عنها في الصلاة لا سبب له إلا تفوق الفكر وتقسيم الحاطر وغلبة القلب عن المناجاة والغفلة عن الصلاة . ولا يلهي عن الصلاة إلا الحواطر الواردة الشاغلة ، فالدواء في إحضار القلب هو دفع تلك الحواطر ولا بدفع الشيء إلا بدفع سببه فلتعلم سببه . وسبب موارد الحواطر إما أن يكون أمرا خارجا أو أمرا في ذاته باطنا . أما الخارج فإما يجرع السمع أو يظهر للبصر فإن ذلك قد يختلف الملم حتى يتغيره ويتصرف فيه ثم تتجر منه الفكرة إلى غيره ويتسلسل ، ويكون الإبصار سببا للاشتغال ، ثم تعير بعض تلك الأفكار سببا لبعض . ومن قويت نيته وعلت همته لم يلهه ما جرى على حواسه ولكن الضعيف لا بد وأن يتفوق به ففكره . وعلاجه قطع هذه الأسباب بأن ينض بصره أو يصلي في بيت مظلم أو لا يترك بين يديه ما يشغل حسه ويقرب من حائط عند صلاته حتى لا تتسع مسافة بصره ، ويجتري من الصلاة على التواريخ

وفي المواضع المنقوشة المصنوعة وعلى الفرش المصبوغة . ولذلك كان المتعبدون يتعبدون في بيت صغير مظلّم سعت قدر السجود ليكون ذلك أجمع لهم . والأقوياء منهم كانوا يحضرون المساجد وينضون البصر ولا يجاوزون به موضع السجود ويرون كمال الصلاة أن لا يرفقوا من على بينهم وشمالهم . وكان ابن عمر رضي الله عنهما لا يذبح في موضع الصلاة مصحفا ولا سيفا إلا زحاه . وأما الأسباب الباطنة فهي أشدّ فإن من تسمعت به المومون في أودية الدنيا لا ينحصر فكره في فن واحد بل لا يزال يطير من جانب إلى جانب وغض البصر لا يفتنيه ، فإن ما وقع في القلب من قبل كاف للشغل فهذا طريقه أن يرد النفس قهرا إلى فهم ما يقرؤه في الصلاة ويشغلها به عن غيره ، ويعينه على ذلك أن يستمدّه قبل التحريم بأن يحثّد على نفسه ذكر الآخرة وموقف المناجاة وخطر المقام بين يدي الله سبحانه وهو المطلع ويفرغ قلبه قبل التحريم بالصلاة عما يهجم فلا يترك نفسه شغلا يلتفت إليه عاطره . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعثمان بن أبي شيبة : « إني نسيت أن أقول لك أن تحضر القدر الذي في البيت ^(١) » فإنه لا يذبح أن يكون في البيت شيء يشغل الناس عن صلاتهم ؛ فهذا طريق تسكين الأفكار . فإن كان لا يسكن هوائج أفكاره بهذا الدواء المسكن فلا ينحيه إلا المسهل الذي يقنع مادة الدواء من أعماق العروق وهو أن ينظر في الأمور الصارفة الشاغلة عن إحضار القلب ، ولا شك أنها تعود إلى مهماته وأنها إنما صارت مهمات لشهواته فيعاقب نفسه بالنزوع عن تلك الشهوات وقطع تلك العلائق ، فكل ما يشغله من صلاته فهو صدّه دينه وجند إبليس عدوّه فليساكأ أمر عليه من إخراجها فيتخلص منه بإخراجها كما روى أنه صلى الله عليه وسلم : لما لبس الخيصة أتى أناه بها أبو جهم وعليها علم وصلى بها زعجا بعد صلاته ، وقال صلى الله عليه وسلم : اذهبوا بها إلى أبي جهم فإنها أمتعت أئفا من صلاتي والتوتى بأنجانية أبي جهم ^(٢) . وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بتجديد شركاء ليله ثم نظر إليه في صلاته إذ كان جديدا فأمر أن يمزج منها ويرد الشركاء الخلق ^(٣) . وكان صلى الله عليه وسلم قد احتذى نملا فأجهجه حسنا فوجد وقال : تواضعت لربي عز وجل كي لا يفتني ، ثم خرج بها فدفنها إلى أول سائل لقيه ، ثم أمر عليا رضي الله عنه أن يشقري له نملين سبعتين جردوين فلبسهما ^(٤) . وكان صلى الله عليه وسلم في يده عاتم من ذهب قبل التحريم وكان على الشجر فرماه وقال شغلني هذا : نظرة إليه ونظرة إليك ^(٥) . وروى : أن أبا طلحة صلى في حائط وفيه شجر فأجهجه دبى طار في الشجر يلتبس خرجا فأقبه بصره ساعة ثم لم يدرك صلى ؟ فذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أصابه من الفتنة ثم قال : يا رسول الله هو صدقة فضمه حيث شئت ^(٦) . وعن رجل آخر أنه صلى في حائط له والتخل مطوقة بشرها فنظر إليها فأجهبت ولم يدرك صلى ؟ فذكر ذلك لعثمان رضي الله عنه وقال : هو صدقة فأجهله في سبيل الله عز وجل

(١) حديث « إني نسيت أن أقول لك تحضر القدرين اللتين في البيت .. الحديث » أخرجه أبو داود من حديث عثمان المحبى وهو عثمان بن طلحة كما في سند أحمد وروى المصنف أنه قال ذلك لعثمان بن أبي شيبة وهو وم .

(٢) حديث « نزع الخيصة وقال التوتى بأنجانية أبي جهم » متفق عليه من حديث عائشة وقد تقدم في العلم

(٣) حديث « أمره بتزج العراك الجديد ورد الشركاء الخلق إذ نظر إليه في صلاته » أخرجه ابن المبارك في الزهد من حديث أبي التضر صرحا بإسناد صحيح (٤) حديث « احتذى نملا فأجهجه حسنا فوجد وقال تواضعت لربي .. الحديث » أخرجه أبو عبد الله ابن حبان في شرف القراء من حديث عائشة بإسناد ضعيف

(٥) حديث « رمى بالخاتم الذهب من يده وقال شغلني هذا نظرة إليه ونظرة إليك » أخرجه الترمذي من حديث ابن عباس بإسناد صحيح وليس فيه بيان أن الخاتم كان ذهبيا ولا قصة إنما هو

معلق (٦) حديث « إن أبا طلحة صلى في حائط له فيه دبى فأجهبه برش عاتم في العصر .. الحديث » أخرجه في سهو في الصلاة وتصدقه بالمطاط مالك عن عبد الله بن أبي بكر أن أبا طلحة الأصمى فذكره بصرو

قباعه عثمان بن عفان أن ألقا . فكانوا يفعلون ذلك قطعا لمادة الفكر وكفارة لما جرى من نقصان الصلاة وهذا هو الدواء الطاطع لمادة العلة ولا يفتى غيره . فأما ما ذكرناه من التلطف بالتسكين والرد إلى فهم الذكر ذلك ينفع في الذموات الضعيفة والهضم التي لا تشغل إلا حواس القلب . فأما الشهوة القوية الرقيقة فلا ينفع فيها التسكين بل لا تزال تجاذبها وتجاذبك ثم تنالك وتتعضى جميع صلاتك في شغل المجاذبة . ومثاله : رجل تحت شجرة أراد أن يصفو له فكره وكانت أصوات المصافير تشوش عليه ، فلم يزل يطيرها بخفية في يده ويهود إلى فكره فتعود المصافير فيعود إلى التنفير بالخشبة ، فيقول له : إن هذا أسير السواني ولا يقطع فإن أردت الخلاص فانزع الشجرة . فكذلك شهوة الشهوات إذا تشعبت وتفرعت أغصانها انجذبت إليها الأفكار انجذاب المصافير إلى الأشجار وانجذاب الذباب إلى الأقدار والشغل يطول في دفعها فإن الذباب كلما ذب آب ولاجله سعى ذبابا . فكذلك الحواطر ، وهذه الشهوات كثيرة وقلبا يخلو العبد عنها ويعجمها أصل واحد وهو حب الدنيا ، وذلك رأس كل خطيئة وأساس كل نقصان ومنع كل فساد . ومن أعطوى باطنه حل حب الدنيا حتى مال إلى شيء منها لا ليتزود منها ولا ليستعين بها على الآخرة فلا يطمعن في أن تصفو له لذة المناجاة في الصلاة . فإن من فرح بالدنيا لا يفرح بالله سبحانه وبمناجاته . وهمة الرجل مع قوة عينه فإن كانت قوة عينه في الدنيا انصرف لا محالة إليها همه ولكن مع هذا فلا ينبغي أن يترك المجاهدة ورد القلب إلى الصلاة وتخليط الأسباب الماغلة ، فهذا هو الدواء المز ومراره استنشئة الطباع وبقية العلة مزمنة وصار الداء عضالا ، حتى إن الأكابر اجتهدوا أن يصلوا ركعتين لا يجتهدوا أنفسهم فيها بأمور الدنيا فيجبروا عن ذلك فإن لم يقطع فيه لأمثالنا ، وليته سلم لنا من الصلاة شطرها أو ثلثها من الرسواس لنكون من خلط عملا صالحا وآخر سيئا . وعلى الجملة فهمة الدنيا وهمة الآخرة في القلب مثل الماء الذي يصب في قديم ملوه يغل فيفقد ما يدخل فيه من الماء يخرج منه من الخلل لا محالة ولا يجتمعان .

بيان تفصيل ما ينبغي أن يحضر في القلب - عند كل ركن وشرط - من أعمال الصلاة

نقول : حاك إن كنت من المريدن للآخرة أن لا تفعل أولا عن التنبيهات التي في شروط الصلاة وأركانها . أما الشروط السابقة فهي الأذان والطهارة وسر العورة واستقبال القبلة والانتصاب قائما والنية . فإذا سمعت نداء المؤذن فأحضر في قلبك هول النداء يوم القيامة وتشمر بظاهرك وباطنك للإجابة والمسارة . فإن للمسارعين إلى هذا النداء هم الذين ينادون بالطهارة يوم العرض الأكبر فأعرض قلبك على هذا النداء فإن وجدته علوما بالفرح والاستبشار مشحونا بالرغبة إلى الابتداء فاعلم أنه يأتيك النداء بالبشرى والفرح يوم القضاء . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : أرحنا يا بلال^(١) ، أى أرحنا بها وبانتهاء إليها إذ كان قرعة عينه فيها صلى الله عليه وسلم . وأما الطهارة فإذا أتيت بها في مكانك وهو ظرفك الأبد ثم في ثيابك وهى غلافك الأخرى ، ثم في بشرتك وهى قشرك الأذن فلا تفعل عن لبك الذى هو ذاتك وهو قلبك فاجتهد له تطهيرا بالتوبة والتم على ما فزوت وتصميم العزم على الترك في المستقبل فطهر بها باطنك فإنه موضع نظر مبروك . وأما سر العورة فاعلم أن مناء تنطية مقابك بذلك عن أبصار الخلق فإن ظاهر بدنك موقع لنظر الخلق فما بالك في عورات باطنك وفضائح سرارك التي لا يطلع عليها إلا ربك عز وجل ؟ فأحضر تلك الفضائح بياك وطالب نفسك بسترها وتحقق أنه لا يستر عن عين الله سبحانه

(١) حديث : بها أرحنا يا بلال ، أخرجه الدارقطني في المال من حديث بلال ولأبي داود نحوه من حديث رجل من الصحابة لم يسم إسمه صحيح .

ساتر . وإنما يغفرها الندم والحياة والخوف فتستفيد بالحضارها في قلبك انبثات جنود الخوف والحياة من مكانهما فتدبها بنفسك ويستكين تحت الحجة قلبك وتقوم بين يدي الله عز وجل قيام العبد المجرم المولى . الآن الذي ندم فرجع إلى مولاه فاكسا رأسه من الحياة والخوف . وأما الاستقبال فهو صرف ظاهر وجهك عن سائر الجهات إلى جهة بيت الله تعالى ، أقرى أن صرف القلب عن سائر الأمور إلى الله عز وجل ليس مطلوباً منك مبهات فلا مطلوب سواء . وإنما هذه الظواهر تحريكات البواطن وضبط للجوارح وتكئين لها بالإيات في جهة واحدة حتى لا ينبغي على القلب فإنها إذا بنت وظلت في حركاتها والتفتانها إلى جهاتها استقيمت القلب وانقلبت به عن وجه الله عز وجل فليكن وجه قلبك مع وجهه بذلك . فاعلم أنه كما لا يتوجه الوجه إلى جهة البيت إلا بالانصراف عن غيرها فلا ينصرف القلب إلى الله عز وجل إلا بالتفرغ عما سواه وقد قال صلى الله عليه وسلم : إذا قام العبد إلى صلاته فكان هوأه ووجهه وقلبه إلى الله عز وجل انصرف كيوم وودته أمه ^(١) ، وأما الاعتدال قائماً فإنما هو مثول بالخصص والقلب بين يدي الله عز وجل ، فليكن رأسك الذي هو أرفع أعضائك مطرقاً مطأطأ متتكسا ، وليكن وضع الرأس عن ارتفاعه تنظيراً على إلزام القلب التواضع والتذلل والتبرى عن الترويض والتكبر ، وليكن على ذكرك مهناتخطر القيام بين يدي الله عز وجل في هول المطلع عند العرض السؤال . واعلم في الحال أنك قائم بين يدي الله عز وجل وهو مطلع عليك فقم بين يديه قيامك بين يدي بعض ملوك الزمان إن كنت تعجز عن معرفة كنه جلاله بل قدر في دوام قيامك في صلاتك أنك ملحوظ ومرقوب بمين كائنه في رجل صالح من أهلك أو من ترهب في أن يعرفك بالصلاح ، فإنه تبدأ عند ذلك أطرافك وتفتتح جوارحك وتسكن جميع أجزائك خيفة أن يسلبك ذلك العاجز المسكين إلى قلة الخسوف . وإذا أحسست من نفسك بالتأمل عند ملاحظة عبد مسكين فعاب نفسك وقال لها : إنك تدعين معرفة الله وجهه أفلا تستعين من استشعرك عليه مع توقيرك عبداً من عبادته أو تخشع الناس ولا تخشعهم وهو أحق أن يخشع ؟ ولذلك لما قال أبو هريرة : كيف الحياء من الله فقال صلى الله عليه وسلم تستحي منه كما تستحي من الرجل الصالح من قوله ^(٢) ، وروى من أهلك ، وأما التوبة فاعزم على إجابة الله عز وجل في امتثال أمره بالصلاة وإتمامها والكف عن نواقضها ومفسداتها وإخلاص جميع ذلك لوجه الله سبحانه رجاء لثوابه وخوفاً من عقابه وطلباً للقرية منه متقلداً للجنة فإنه إياك في المناجاة مع سوء أدبك وكثرة عصيانك ، وعظم في نفسك قدر مناجاته وانظر من تناجى وكيف تناجى وماذا تناجى ؟ وعند هذا ينبغي أن يرق جبينك من الخجل وترتعد فرائصك من الغيبة ويصفى وجهك من الخوف . وأما التكبير فإذا نطق به لسانك فينبغي أن لا يكذبه قلبك فإن كان في قلبك شيء هو أكبر من الله سبحانه فاته يشرد إنك لكاذب وإن كان الكلام صدقاً كما شهد على المنافقين في قولهم : إنه صلى الله عليه وسلم رسول الله . فإن كان هوأك أعظم عليك من أمر الله عز وجل فأنت أطوح له منك لله تعالى فقد اتخذته إلهك وكبرته فيوشك أن يكون قولك : الله أكبر ، كلاماً بالسان المجرد وقد تخلف القلب عن مساعدته ؛ وما أعظم الخطر في ذلك لولا التوبة والاستغفار وحسن الظن بكرم الله تعالى وعفوه . وأما دعاء الاستفتاح فأول كلماته قولك : وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض ، وليس المراد بالوجه الوجه الظاهر فإنه إنما وجهته إلى جهة القبلة والله سبحانه يتقدس

(١) حديث : إذا قام العبد إلى صلاته وكان وجهه وهوأه إلى الله انصرف كيوم وودته أمه ، لم أجده

(٢) حديث : قال أبو هريرة كيف الحياء من الله قال تستحي منه كما تستحي من الرجل الصالح من قوله : أخرجه البخاري في معارج الأئمة والبيهقي في الشعب من حديث سعيد بن زيد مرسلًا نحوه وأرسله البيهقي بزيادة ابن عمر في اللند وفي العمل البخاري عن ابن عمر له وقال إنه أحب شيء بالصواب لوروده من حديث سعيد بن زيد أسند الضعيف

هن أن تحمده الجهات حتى تقبل بوجهه بذلك عليه . وإنما وجه القلب هو الذي تتوجه به إلى فاطر السموات والأرض فانظر إليه أم توجه هو إلى أمانيه وهمه في البيت والسوق متبع للشهوات أو مقل على فاطر السموات ؟ وإياك أن تكون أول مفاتنك المناجاة بالكذب والاختلاق . ولن ينصرف الوجه إلى الله تعالى إلا بانصرافه عما سواه فاجتهد في الحال في صرفه إليه وإن عجزت عنه على الدوام فليكن قولك في الحال صادقا . وإذا قلت : خفيضا مسلما ، فينبغي أن يظهر بياك أن المسلم هو الذي يسلم المسلمون من لسانه ويده فإن لم تكن كذلك كنت كاذبا فاجتهد أن تعزم عليه في الاستقبال وتقدم على ما سبق من الأحوال . وإذا قلت : وما أنا من المشركين ، فأخطر بياك الشرك الخفي فإن قوله تعالى (فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا) نزل فيمن يقصد بعبادته وجهه الله وحد الناس وكان حذرا مشفقا من هذا الشرك ، واستشعر الحجة في تلك إن وصفت نفسك بألك لست من المشركين من غير رامة عن هذا الشرك فإن اسم الشرك يقع على القليل والكثير منه . وإذا قلت : عياني ومعاييتي ، فأعلم أن هذا حال عبد مفقود لنفسه موجود لسيده وأنه إن صدر ممن رضاء وغضبه وقبامه وقعوده وروغبته في الحياة وروغبته من الموت لأمور الدنيا لم يكن ملائما للحال . وإذا قلت : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، فأعلم أنه عدوك ومترصد لصرق قلبك عن الله عز وجل حسدا لك على مناجاتك مع الله عز وجل ومجردك له مع أنه لمن يسبب بهمة واحدة تركها ولم يوفق لها ، وأن استعاذتك بالله سبحانه منه بترك ما عجب وتبدله بما يحب الله عز وجل لا بمجرد قولك ، فإن من قصده سبع أو عدو ليفترسه أو يقتله فقال : أعوذ منك بذلك الحصن الحصين وهو ثابت على مكانه ، فإن ذلك لا ينفعه ، بل لا يبيده إلا بتذليل المكان ؛ فتكذلك من يقيم الشهوات التي هي محاب الشيطان ومكاره الرحمن فلا يفتنه بمجرد القول فليقتربن قوله بالزم على التوعد بحسن الله عز وجل عن شر الشيطان وحسنه لا إلا الله ، إذ قال عز وجل فيا أخبر عنه نبينا صلى الله عليه وسلم لا إلا الله حصني فمن دخل حصني أمن من عذابي (١) ، والمتحصن به لا مجرد له سوى الله سبحانه فأما من اتخذ له هواء فهو في ميدان الشيطان لافي حسن الله عز وجل . وأعلم أن من مكابده أن يشغلك في صلاتك بذكر الآخرة وتدبير فعل الخيرات لئلا يشغلك عن فهم ما تقرا . فأعلم أن كل ما يشغلك عن فهم معاني قراءتك فهو وسواس فإن حركة اللسان غير مقصودة بل المقصود معانيها : فأما القراءة فالتناس فيها ثلاثة ، وجل يتحرك لسانه وقلبه غافل ورجل يتحرك لسانه وقلبه يتبع اللسان فيفهم ويسمع منه كأنه يسمعه من غيره وهي درجات أصحاب الجنين ، ورجل يسبق قلبه إلى المعاني أولا ثم يخدم اللسان القلب فيترجمه . ففرق بين أن يكون اللسان ترجمان القلب أو يكون معلم القلب والمترجمون لسانهم ترجمان يقع القلب ولا يتبعه القلب . وتفصيل الترجمة المعاني أنك إذا قلت : بسم الله الرحمن الرحيم ، فان به التبرك لابتداء القراءة لكلام الله سبحانه ، وافهم أن الأمور كلها بالله سبحانه . وأن المراد بالاسم هنا هو المسمى . وإذا كانت الأمور بالله سبحانه فلا جرم كان الحمد لله ، ومعناه أن الشكر لله إذ النعم من الله . ومن يرى من غير الله نعمة أو يقصد غير الله سبحانه بشكر لا من حيث إنه مسخر من الله عز وجل في تسميته وتحميده نقصان بقدر التفاته إلى غير الله تعالى . فإذا قلت : الرحمن الرحيم ، فأحضري قلبك جميع أنواع لطفه لتنتسح لك رحمة فينبعث بها وجاؤك . ثم استر من قلبك التعظيم والخوف بقولك : مالك يوم الدين ، أما العظمة فلا تله ملك إلا له

(١) حديث : قال الله تعالى لا إلا الله حصني ، أخرجه الحاكم في «التاريخ» وأبو نعيم في «الحلية» من طريق أهل البيت من حديث علي بن إسماعيل ضيف جدا ، وقول أبي منصور الدبلي أنه حديث ثابت مرهونه عليه .

وأما الحرف فلهول يوم الجزاء والحساب الذي هو المالك . ثم جدد الإخلاص بقوله . إياك نعبد ، وإياك نستعين ، ونحقق أنه ما تيسرت طاعتك إلا بإيجاته وأن له المنة إذ وفقت لطاعته واستخدمك لعبادته وجملك أهلاً لمناجاته . ولو حرمك التوفيق لكنت من المطرودين مع الشيطان اللعين . ثم إذا فرغت من التمؤد ومن قولك ، بسم الله الرحمن الرحيم ، ومن التعميد ومن إظهار الحاجة إلى الإجابة مطلقاً فحين سؤالك ولا تطلب إلا أمراً حاجتك وقل ، إهدنا الصراط المستقيم ، الذي يسوقنا إلى جوارك وبغضى بنا إلى مرضاتك . وزده شرحاً وتفصيلاً وتأكيذاً واستشهاداً بالذين أفاض عليهم نعمة الهداية من التبيين والصديقين والشهداء والصالحين دون الذين غضب عليهم من الكفار والزائغين من اليهود والنصارى والصابئين ثم اتس الإجابة وقل ، آمين ، فإذا تلوت الفاتحة كذلك فيشبه أن تكون من الذين قال الله تعالى فيهم فيما أخبر عنه النبي صلى الله عليه وسلم ، قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين نصفها لي ونصفها لعبدي ولعبدي ما سأل^(١) ، يقول المبد ، الحمد لله رب العالمين ، فيقول الله عز وجل : حمدني عبدي وأثنى علي . وهو معنى قوله ، سمع الله من حمده ... الحديث الخ ، فلم يكن لك من صلاتك حظ سوى ذكر الله لك في جلاله وعظمته فتأنيلك بذلك غنية فكيف بما ترجوه من ثوابه وفضله ؟ وكذلك ينبغي أن تفهم ما تقرأه من السور - كما سيأتي في كتاب تلاوة القرآن - فلا تغفل عن أمره ونهيه ووعده ووعيده ومواعظه وأخبار أنبيائه وذكر منته وإحسانه . ولكل واحد حق فالرجاء حق الوعد ؛ والخوف حق الوعيد ؛ والعزم حق الأمر والنهي ؛ والاتعاظ حق الموعظة ، والفكر حق ذكر الله ، والاعتبار حق إخبار الأنبياء . وروى أن زرارة بن أوفى لما انتهى إلى قوله تعالى (فاذا قرأ القرآن فاستمع له حتى حط لعلته) خرومياً وكان إبراهيم التيمي إذا سمع قوله تعالى (إذا السماء انشقت) اضطرب حتى تضطرب أوصاله . وقال عبد الله بن واقد : رأيت ابن عمر يصلي مغلوباً عليه ؛ وحرق أن يمتدح قلبه بوعده سيده ووعيده فإنه عبد مذنب ذليل بين يدي جبار قاهر . وتكون هذه المعاني بحسب درجات الفهم ويكون الفهم بحسب وفور العلم وصفاء القلب . ودرجات ذلك لا تحصر . والصلاة مفتاح القلوب فيها تكشف أسرار الكلمات فهذا حق القراءة وهو حق الأذكار والتسبيحات أيضاً . ثم يراعى الهية في القراءة فيرتل ولا يسرد فإن ذلك أسر للتأمل . ويفرق بين نغاته في آية الرحمة والمناجاة والوعد والتحديد والتعظيم والتمجيد . كان التيمي إذا سر بمثل قوله عز وجل (ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله) يخفص صوته كالمتسجعي عن أن يذكره بكل شيء لا يليق به . وروى أنه يقال لقارئ القرآن ، اقرأ واروق ورتل كما كنت ترتل في الدنيا^(٢) ، وأما دوام القيام فإنه تنبيه على إقامة القلب مع الله عز وجل على نعمت واحد من الحضور قال صلى الله عليه وسلم : « إن الله عز وجل مقبل على المصلح ما لم يلتفت »^(٣) ، وكما يجب حراسة الرأس والدين عن الالتفات إلى الجهات فكذلك يجب حراسة السر عن الالتفات إلى غير الصلاة . فإذا التفت إلى غيره فذكره باطلاع الله عليه وبيع التهاون بالمشاجى عند غفلة الحاجي ليعود إليه . والألم لخشوع القلب فإن الخلاص من الالتفات بأشياء وظاهراً ثمة الخشوع . ومهما خضع الباطن خضع الظاهر قال صلى الله عليه وسلم وقد رأى رجلاً مصلياً يبعت بلعته وأماهنا

(١) حديث « قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين ... الحديث » أخرجه سنن من أبي هريرة (٢) حديث « يقال لصاحب القرآن اقرأ واروق » الحديث . أخرجه أبو داود والنسائي من حديث عبد الله بن عمر وقال الترمذي حسن صحيح

(٢) « إن الله يميل على المصلح ما لم يلتفت » أخرجه أبو داود والشافعي وأما وصححه إسناده أبي ذر

لو خضع قلبه لخصمت جوارحه ، فلئن الرعية بحكم الراعي . ولهذا ورد في الدعاء ، اللهم أصليح الراعي والرعية (١) . وهو القلب والجوارح . وكان الصديق رضي الله عنه في صلاته كأنه وتد . وابن الزبير رضي الله عنه كأنه عود . وبعضهم كان يسكن في ركوعه بحيث تقع المصافير عليه كأنه جراد ، وكل ذلك يقتضيه الطبع بين يدي من يعلم من أبناء الدنيا كيف لا يتقاضاه بين يدي ملك الملوك عند من يعرف ملك الملوك ؟ وكل من يطعن بين يدي غير الله عز وجل عاشما واضطرب أطرافه بين يدي الله عابثا فذلك لتقصور معرفته عن جلال الله عز وجل وعن اصلاحه على سره وضميره . وقال عكرمة في قوله عز وجل (الذي يراك حين تقوم وتقلبك في الساجدين) قال : قيامه وركوعه وسجوده وجولسه . وأما الركوع والسجود فيلغيني أن تهتد عندهما ذكر كبرياء الله سبحانه وترفع يديك مستجيرا بعفو الله عز وجل عن عقابه بتجديد نية ومتبعا سنة نبيه صلى الله عليه وسلم . ثم تستأنف له ذلا وتواضعا بركوعك وتهتد في ترفيق قلبك وتجديد خشوعك وتستشعر ذلك وعز مولاك وانضاعتك وعلو ربك . وتستعين على تقرير ذلك في قلبك بلسانك فتسبح ربك وتهتد له بالظمة وأنه أعظم من كل عظيم وتذكر ذلك على قلبك لتؤكد بالتكرار . ثم ترفع من ركوعك لراجيا أنه ارحم لك ومؤكدا للرجاء في نفسك بقوله ، جميع اهلن حمده ، أي أجاب لمن شكره . ثم تردف ذلك الفكر المتقاضي للزيد فتقول ، ويا لك الحمد ، وتكرر الحمد بقوله ، ملء السموات وملء الأرض ، ثم تهوي إلى السجود وهو أعلى درجات الاستكانة فتسكن أعز أعضائك وهو الوجه من أذل الأشياء وهو التراب . وإن أمسكتك أن لا تهمل بينهما حائلا فتسجد على الأرض فافعل فإنه أجلب للخشوع وأدل على الدل . وإذا وضعت نفسك موضع الذل فاعلم أنك وضعت موضعها ورددت الترفع إلى أصله فأذلك من التراب خلقت وإليه تعود فمتد هذا جتد على قلبك عظمة الله وقل ، سبحان ربي الأعلى ، وأكدته بالتكرار فلئن الكثرة الواحدة ضعيفة الأثر فلذا رق قلبك وظهر ذلك فانتصدق برباك في رحمة الله فإن رحمة تسارع إلى الضعف والذل لا إلى التكبر والبطر فارفع رأسك مكبرا وسائلا حاجتك وقائلا ، رب اغفر وارحم وتجاوز عما تعلم ، أو ما أردت من الدعاء . ثم أكد التواضع بالتكرار فمد إلى السجود ثانيا كذلك . وأما التشهد فلذا جلست له فاجلس متادبا وصرح بأن جميع ما تبدل به من الصلوات والطيبات أي من الأخلاق الطاهرة لله . وكذلك الملك لله وهو معنى التحيات ، وأحضر في قلبك النبي صلى الله عليه وسلم وضمه الكرم وقل ، سلام عليك أيما النبي ورحمة الله وبركاته ، وليصدق أمك في أنه يبلغه ويرد عليك ما هو أوفى منه . ثم تسلم على نفسك وعلى جميع عباد الله الصالحين . ثم تأمل أن يرد الله سبحانه عليك سلاما وإيفا بعدد عباد الصالحين . ثم تهتد له تعالى بالرحمانية ولحمد نبيه صلى الله عليه وسلم بالرسالة مجددا عهد الله سبحانه بإعادة كفى الشهادة ومستأنفا للتحصن بها . ثم ادع في آخر صلاتك بالدعاء المأثور مع التواضع والخشوع والافتبال وصدق الرجاء بالإجابة . وأشرك في دعائك أوبريك وسائر المؤمنين . واقتصد عند التسليم السلام على الملازمة والحاضرين وادوخم الصلاة به . واستشعر شكر الله سبحانه على توفيقه لإتمام هذه الطاعة . وتوهم أنك مودع لصلاته هذو أنك ربما لا تميش مثلها . وقال صلى الله عليه وسلم للذي أوصاه ، صل صلاة مودع ، ثم أشعر قلبك بالرجاء والحياة من التقصير في الصلاة ، وخف أن لا تقبل صلاتك وأن تكون عمقوتا بذنب ظاهرا أو باطنا فتزد صلاتك في وجهك ، وترجع مع ذلك أن يقبلها بكرمه وفضله . كان يحيى بن وثاب إذا صلى مكث ما شاء الله تعرف عليه كتابة الصلاة .

(١) حديث : اللهم أصليح الراعي والرعية ، لم أرف له على أصل فسر المصنف بالقلب والجوارح

وكان إبراهيم يحس بعد الصلاة ساحة كأنه مريض . فهذا تفصيل صلاة الخاشعين ، الذين هم في صلاتهم عاشقون ... والذين هم على صلاتهم دائمون . والذين هم يتاجون الله على قدر استطاعتهم في العبودية فيعرض الإنسان نفسه على هذه الصلاة ، فبالقدر الذي يبر له منه ينبغي أن يفرح وعلى ما يغفوه ينبغي أن يتحسر وفي مداراة ذلك ينبغي أن يجتهد . وأما صلاة العاقلين فهي عظيمة إلا أن يتفهمه الله برحمته والرحمة واسعة والكرم فائق فغسل الله أن يتفهمنا برحمته ويغفرنا بمغفرته إذ لا وسيلة لنا إلا الاعتراف بالعجز عن القيام بطاعته . وعلم أن تخليص الصلاة عن الآفات وإخلاصها لوجه الله عز وجل وأدائها بالشروط الباطنة التي ذكرناها من الخشوع والتعظيم والحياء سبب لحصول أنوار في القلب تكون تلك الأنوار مفاتيح علوم المكاشفة . فأولياء الله المكاشفون بملكوته السموات والأرض وأسرار الربوبية إنما يكاشفون في الصلاة لأسباب في السجود إذ يتقرب العبد من ربه عز وجل بالسجود . ولذلك قال تعالى ﴿ واجهد واقترب ﴾ وإنما تكون مكاشفة كل حصل على قدر صفاته من كدورات الدنيا ، ويتقلب ذلك بالقوة والصف والقلّة والكثرة وبالجلال والخفاء حتى يكشف لبعضهم الشيء بعينه ويكشف لبعضهم الشيء بمثاله ، كما كشف لبعضهم الدنيا في صورة جيفة والشيطان في صورة كاب جهنم عليها يدعو إليها . ويختلف أيضا بما فيه المكاشفة فبعضهم يكشف له من صفات الله تعالى وجلاله وبعضهم من أفعاله وبعضهم من دقائق علوم المعاملة . ويكون لثمين تلك المعاني في كل وقت أسباب خفية لاصحى وأشدّها مناسبة المهمة فإنها إذا كانت مصروفة إلى شيء معين كان ذلك أولى بالانكشاف ولما كانت هذه الأمور لا تترامى إلا في المراتب الصغرى وكانت المرأة كلها صدمة فاحتجبت عنها الهداية لا لبعث من جهة المنعم بالهداية بل لحجب متراكم الصدا على مصعب الهداية تسارعت الألسنة إلى إنكار مثل ذلك ، إذ الطبع يجول على إنكار غير الحاضر ، ولو كان للجنين عقل لا ينكر إمكان وجود الإنسان في متسع الهواء ، ولو كان للطفل تمييز ما ربما أنكر ما يروى العقلاء إدراكه من ملكوت السموات والأرض ، وهكذا الإنسان في كل طور يكاد ينكر ما بهد . ومن أنكر طور الولاية لمه أن ينكر طور النبوة ، وقد خلق الخلق أطوارا فلا ينبغي أن ينكر كل واحد ما وراء درجته ، نعم لما طلبوا هذا من المجادلة والمباحثة المشوشة ولم يطلبوها من تصفية القلوب عما سوى الله عز وجل ففقدوه فأنكروه . ومن لم يكن من أهل المكاشفة فلا أقل من أن يؤمن بالغييب ويصدق به إلى أن يشاهد بالتجربة في الخبر . إن العبد إذا قام في الصلاة رفع الله سبحانه الحجاب بينه وبين عبده وواجهه بوجهه وقامت الملائكة من لدن تنكبه إلى الهواء بصلاته ويؤمنون على دعائه . وإن المصلي لينتظر عليه البر من ثنائ السماء إلى مفرق رأسه وينادي مناد : لو علم هذا المتألم ما لتفت . وإن أبواب السماء تفتح للمصلين . وإن الله عز وجل يباهي ملائكته بعبده المصل ^(١) ، ففتح أبواب السماء ومواجهة الله تعالى إياه بوجهه كتابة عن الكشف الذي ذكرناه . وفي التوراة مكتوب : يا ابن آدم لا تعجز أن تقوم بين يدي مصليا باكيا فأنا الله الذي اقتربت من قلبك وبالنسب رأيت نوري ، قال : فكانا نرى أن تلك الرقة والبكاء والفتوح الذي عبده المصل في قلبه من دوائر سجنانه من القلب . وإذا لم يكن هذا الدنو هو القرب بالمكان فلا معنى له إلا الدنو بالهداية والرحمة وكشف الحجاب . ويقال إن العبد إذا صلى ركعتين عجب منه عشرة صفوف من الملائكة كل صف منهم عشرة آلاف وباهى الله به مائة ألف ملك . وذلك أن العبد قد جمع في الصلاة بين القيام والقعود والركوع والسجود وقد فرق الله ذلك على أربعين ألف ملك ، فألقاهم

(١) حديث : لما العبد إذا قام في الصلاة رفع الله الحجاب بينه وبين عبده . الحديث : لم أجده

لا يركعون إلى يوم القيامة والساجدون لا يرفعون إلى يوم القيامة ، وهكذا الراكعون والقاعدون ، فإن ما رزق تعالى للملائكة من القرب والرتبة لازم مستمر على حال واحد لا يزيد ولا ينقص لذلك أخبر الله عنهم أنهم قالوا (وما منا إلا له مقام معلوم) وفارقوا الإنسان والملائكة في الترقى من درجة إلى درجة فإنه لا يزال يتقرب إلى الله تعالى فيستفيد من قرب قربه وباب المزيد مسدود على الملائكة عليهم السلام وليس لكل واحد إلا رتبة التي هو وقف عليه . وعبادة التي هو مشغول بها لا يلتفت إلى غيرها ولا يفترعها (لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون يسبحون الليل والنهار لا يفترون) ومحتاج مزيد الدرجات هي الصلوات . قال الله عز وجل (قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم عاشعون) فلهجوم بعد الإيمان بصلاة مخصوصة وهي المقرونة بالخشوع . ثم غنم أوصاف المفلحين بالصلاة أيضا فقال تعالى (والذين هم على صلواتهم يحافظون) ثم قال تعالى في ثمرة تلك الصفات (أولئك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس هم فيها عابدون) فوصفهم بالفلاح أولا وبوراثة الفردوس آخرا ، وما عدى أن هزيمة اللسان مع غلبة القلب تنتهي إلى هذا الحد ولذلك قال الله عز وجل في أضعادهم (ماسلككم في سقر قالوا لم نك من المصلين) فالمصلون هم ورثة الفردوس وهم المشاهدون لنور الله تعالى والمتمتعون بقربه ودنوه من قلوبهم . نسال الله أن يجمعنا منهم وأن يمدنا من عبادة من تربيت أفعاله وقبحت أفعاله إنه الكريم المنان القديم بالإحسان وصلى الله على كل عبد مصطفى .

حكايات وأخبار في صلاة الخاشعين رضي الله عنهم

اعلم أن الخشوع ثمرة الإيمان ونتيجة اليقين الحاصل بجلال الله عز وجل ومن رزق ذلك فإنه يكون عاشقا في الصلاة وفي غير الصلاة بل في خلوته وفي بيت المال عند الحاجة ، فإن موجب الخشوع معرفة اطلاع الله تعالى على العبد ومعرفة جلاله ومعرفة تقصير العبد . فمن هذا المألف يتولد الخشوع وليست مختصة بالصلاة ولذا لا يرى عن بعضهم أنه لم يرفع رأسه إلى السماء أربعين سنة حياة من الله سبحانه وخشوعه له ، وكان الريح بن خثيم من شدة غصه لبصره وإطرأه يظن بعض الناس أنه أعمى ، وكان يختلف إلى منزل ابن مسعود عشرين سنة فإذا رآه جاريته قالت لابن مسعود : صدقك الأعمى قد جاء ، فكان يضحك ابن مسعود من قولها ، وكان إذا دق الباب يخرج الجارية إليه فقرأ مطرقا غاضا بصره ، وكان ابن مسعود إذا نظر إليه يقول (ويشر المختبين) أما والله لورأك محمد صلى الله عليه وسلم لفرح بك . وفي لفظ آخر : لأحبك وفي لفظ آخر : لضحك . ومضى ذات يوم مع ابن مسعود في الحدادين فلما نظر إلى الأكرار تنفخ وإلى النار تلتبج صق وسقط منشيا عليه وقعد ابن مسعود عند رأسه إلى وقت الصلاة فلم يبق لحمله على ظهره إلى منزله ، فلم يزل منشيا عليه إلى مثل الساعة التي صعد فيها فقامت خمس صلوات وابن مسعود عند رأسه يقول : هذا والله هو الخوف . وكان الريح يقول ، ما دخلت في صلاة قط فأمنى فيها إلا ما أقول وما يقال لي ، وكان عامر بن عبد الله من عاشق المصلين وكان إذا صلى ربما ضربت ابنته بالدف وتحذت النساء بما يردن في البيت ولم يكن يسمح بذلك ولا يهمله ، وقيل له ذات يوم من حمدك نفسك في الصلاة بشيء ؟ قال : نعم يرفق بين يدي الله عز وجل ومنصرفي لإحدى المادرن ، قيل : فهل تجد شيئا مما نجد من أمور الدنيا ؟ فقال : لأن تختلف الآئنة في أحب لي من أن أجد في خلقي ما تجدون وكان يقول : لو كشف الغطاء ما ازددت يقينا . وقد كان مسلم بن يسار منهم ، وقد قلنا أنه لم يصغر بسقوط أسطوانة في المسجد وهو في الصلاة . وتأكّل طرف من أطراف بعضهم واحتج فيه إلى القطع فلم يكن منه فقيل : إنه في الصلاة لا يحس بما يجري عليه ؛ فقطع وهو في الصلاة . وقال بعضهم : الصلاة من الآخرة فإذا دخلت فيها

خرجت من الدنيا وقيل لآخر : هل تحب نفسك بشيء من الدنيا في الصلاة ؟ فقال : لا في الصلاة ولا في غيرها .
وسئل بعضهم هل تذكر في الصلاة شيئاً ؟ فقال : وهل شيء أحب إلي من الصلاة فأذكره فيها ؟ وكان أبو النضر
رضي الله عنه يقول : من فقه الرجل أن يبدأ بمحاسبته قبل دخوله في الصلاة ليدخل في الصلاة قلبه فارغ . وكان بعضهم
يخفف الصلاة خيفة الوسواس ، وروى أن عمار بن ياسر صلى صلاة فأخفها فقبل له : خفت يا أبا اليقظان فقال :
هل رأيت مني نقصت من حدودها شيئاً ؟ قالوا : لا : قال : إني بادرت سهواً لليطان ، إن رسول الله صلى الله عليه
وسلم قال : إن العبد ليصل الصلاة لا يكتب له نصفها . ولا ثلثها ولا ربعها ولا خمسها ولا سدسها ولا عشرها . وكان
يقول : إنما يكتب العبد من صلاته ما عقل منها ^(١) ، ويقال إن طلحة والوزير وطائفة من الصحابة رضي الله عنهم كانوا
أخف الناس صلاة ، وقالوا نبادر بها وسوسة الشيطان . وروى أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال هل للمبتر : إن
الرجل ليصيب عاراضه في الإسلام وما أكمل لله تعالى صلاة ، قيل : وكيف ذلك ؟ قال : لا يتم خشوعها وتواضعها
ورقبته على الله عز وجل فيها : وسئل أبو العالية عن قوله تعالى (الذين هم عن صلاتهم ساهون) قال هو الذي يسهو في
صلاة فلا يدري على كم يتصرف أعلى شفع أم على وتر ؟ وقال الحسن : هو الذي يسهو عن وقت الصلاة حتى تفرج
وقال بعضهم : هو الذي إن صلاها في أول الوقت لم يفرح وإن أخرها عن الوقت لم يحزن فلا يرى تمجيلها خيراً
ولا تأخيرها إثمًا ، واعلم أن الصلاة قد يحسب بعضها ويكتب بعضها دون بعض كدلت الأخبار عليه وإن كان
الفقيه يقول : إن الصلاة في الصحة لا تجزأ ، ولكن ذلك له معنى آخر ذكرناه وهذا المعنى دلت عليه الأحاديث
إذ ورد جبر نقصان الفرائض بالتوافل ^(٢) وفي الخبر : قال عيسى عليه السلام : يقول الله تعالى بالفرائض نجما
عبدى وبالتوافل تقرب إلى عبدى ، وقال النبي صلى الله عليه وسلم : قال الله تعالى لا ينجز مني عبدى إلا بأداء
ما افترضته عليه ^(٣) ، وروى أن النبي صلى الله عليه وسلم ، صلى صلاة فترك من قراءتها آية فلما انقضى قال ماذا قرأت
فبكى القوم ؟ فقال أي بن كعب رضي الله عنه فقال : قرأت سورة كذا وترك آية كذا فأنشدت أم
رفعت ؟ فقال : أنت لما يا أباي ، ثم أقبل على الآخرين فقال : ما بال أقوام يحضرون صلاتهم ويتلون صفوفهم
ونهم بين أيديهم لا يدرون ما يتلو عليهم من كتاب ربهم ؟ ألا إن بني إسرائيل كذا فعلوا فأوحى الله عز وجل
إلى نبيهم أن قل لقومك تحضروني أبادنكم وتمطونى ألفتكم وتقيون حتى يفلوكم باطل ما تذهبون إليه ^(٤) ، وهذا
يدل على أن استماع ما يقرأ الإمام وفهمه يدل على قراءة السورة بنفسه : وقال بعضهم إن الرجل يسجد
السجدة عنده أنه تقرب بها إلى الله عز وجل ولو قسمت ذنوبه في سجده على أهل مدينته لمسكوا : قيل
وكيف يكون ذلك ؟ قال : يكون ساجداً عند الله وقلبه مصغى إلى هوى ومشاهد لباطل قد استولى عليه .
فهذه صفة الحاشمين . فدللت هذه الحكايات والأخبار مع ما سبق على أن الأصل في الصلاة الحشوع وحضور القلب
وأن مجرد الحركات مع الغفلة قليل الجدوى في المعاد والله أعلم . نسأل الله حسن التوفيق

(١) حديث : أن عمار بن ياسر صلى فأخفها فقبل له خفت يا أبا اليقظان .. الحديث . وفيه : إن العبد ليصل صلاة لا يكتب له نصفها ولا ثلثها ، . للآخر . أخرجه أحمد بإسناد صحيح وتقدم المرفوع عنه وهو عند أبي داود والنسائي

(٢) حديث : جبر نقصان الفرائض بالتوافل رواه أصحاب السنن والحاكم وصححه من حديث أبي هريرة . إن أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة من عمله صلاته . وفيه فإن انتقص من فرضه شيئاً قال الرب عز وجل انظروا هل لعبدى من متاع : فيكلم بها ما نقص من الفريضة . (٣) حديث : قال الله تعالى لا ينجز مني عبدى إلا بأداء ما افترضته عليه ، لم أجده

(٤) حديث : صلى صلاة فترك من قراءتها آية فلما انقضى قال ماذا قرأت فبكى القوم فقال أي بن كعب .. الحديث . رواه محمد بن نصر في كتاب الصلاة من سلالة أبو منصور المديني من حديث أبي بن كعب ورواه النسائي مختصراً من حديث عبد الرحمن بن أبيزيد بإسناد صحيح

الباب الرابع في الإمامة والقنوة

وعلى الإمام وظائف قبل الصلاة وفي القراءة وفي أركان الصلاة وبعد السلام :

أما الوظائف التي هي قبل الصلاة فستة (أولها) أن لا يتقدم للإمامة على قوم يكرهونه فإن اختلفوا كان النظر إلى الأكثرين ، فإن كان الأقلون هم أهل الخير والدين فالنظر إليهم أولى وفي الحديث « ثلاثة لا يجاوز صلاتهم ودعوتهم : العبد الآبى وامرأه زوجها ساخط عليها وإمام أم قوما هم له كارهون ^(١) » ، وكما ينهى عن تقديمه مع كراهيتهم فكذلك ينهى عن التقدمة إن كان وراءه من هو أفقه منه إلا إذا امتنع من هو أولى منه فله التقدم ، فإن لم يكن شيء من ذلك فليتقدم مهما قدم وعرف من نفسه القيام بشروط الإمامة . ويكره عند ذلك المداومة فقد قيل إن قوما يتدافعوا للإمامة بعد إقامة الصلاة ينصف بهم . وما روى من مدافعة الإمامة بين الصحابة رضى الله عنهم فسيب لإثارة من رآه أنه أولى بذلك أرغوفهم على أنفسهم السبر وخطر حبان صلاتهم ، فإن الأئمة ضياء وكان من لم يتقود ذلك ربما يشتغل قلبه ويتقوش عليه الإخلاص في صلاته حياء من القندين لاسيا في جهره بالقراءة ، فكان لاحتراز من احتز أسباب من هذا المجلس . (الثانية) إناخير المزمع بين الأذان والإمامة فينبغي أن يتأخر الإمامة فإن لكل واحد منهما فضلا ولكن الجمع مكروه بل يلغى أن يكون الإمام غير المؤذن ، وإذا تمدد الجمع فالإمامة أولى . وقال قائلون : الأذان أولى لما نقلناه من فضيلة الأذان وتقلوه صلى الله عليه وسلم . الإمام ضامن بالمؤذن مؤتمن ^(٢) ، فقالوا ، فيها خطر الضمان . وقال صلى الله عليه وسلم « الإمام أمين فإذا ركع فاركعوا وإذا سجد فاسجدوا ^(٣) » وفي الحديث « فإن أتم ظهركم ولم وإن نقص فعلي لا عليهم ^(٤) » ، ولأنه صلى الله عليه وسلم قال « اللهم أرشد الأئمة واغفر للمؤذنين ^(٥) » ، والمغفرة أولى بالطلب فإن الرد يدبر للغفرة وفي الخبر « من أم في مسجد سبع سنين وجبت له الجنة بلا حساب ومن أذن أربعين عاما دخل الجنة بغير حساب ^(٦) » ، ولذلك نقل عن الصحابة رضى الله عنهم أنهم كانوا يتدافعون للإمامة : والصحيح أن الإمامة أفضل إذ واطب عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر ومحمد رضى الله عنهما والأئمة بعدهم . نعم فيها خطر الضمان والفضيلة مع الخطر كما أن رتبة الإمامة أفضل لقوله صلى الله عليه وسلم « ليوم من سلطان عادل أفضل من عبادة سبعين سنة ^(٧) » ، ولكن فيها خطر ولذلك وجب تقديم الأفضل

الباب الرابع

(١) حديث « ثلاثة لا يجاوز صلاتهم ودعوتهم : العبد الآبى ... الحديث » أخرجه الترمذى من حديث أبي أمامة وقال حسن غريب وضعف البيهقي (٢) حديث « الإمام ضامن والمؤذن مؤتمن » أخرجه أبو داود والترمذى من حديث أبي هريرة ، وحسن ابن المديني أنه لم يثبته ورواه أحمد من حديث أبي أمامة بإسناد حسن (٣) حديث « الإمام أمين فإذا ركع فاركعوا .. الحديث » أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة دون قوله « الإمام أمين » وهو بهذه الزيادة في مسند الجعفي وهو متفق عليه من حديث أنس دون هذه الزيادة (٤) حديث « فإن أتم ظهركم ولم وإن نقص فعلي ولا عليهم » أخرجه أبو داود وابن ماجه والحاكم وصححه من حديث عقة بن حمار والبخاري من حديث أبي هريرة « يصلون بك قال أسأروا للسكر وإن أسخطوا للسكر عليهم » (٥) حديث « اللهم أرشد الأئمة واغفر للمؤذنين » هو بقية حديث « الإمام ضامن » وتقدم قبل مجديدين (٦) حديث « من أذن في مسجد سبع سنين وجبت له الجنة ومن أذن أربعين عاما دخل الجنة بغير حساب » أخرجه الترمذى وابن ماجه من حديث ابن عباس بالقطر الأول نحوه قال الترمذى حديث غريب (٧) حديث « ليوم من سلطان عادل أفضل من عبادة سبعين سنة » أخرجه الطبراني من حديث ابن عباس بسند حسن بلفظ سبعين

والآفة فقد قال صلى الله عليه وسلم « أتمتكم شعاؤكم » أو قال وفدكم إلى الله . فإن أردتم أن تكونوا صلاتكم تقدموا خياركم^(١) ، وقال بعض السلف . ليس بعد الأنبياء أفضل من العلماء ولا بعد العلماء أفضل من الأئمة المصلين لأن هؤلاء قاموا بين يدي الله عز وجل وبين خلقه هنا بالنبوة وهذا بالمعلم وهنا بهد الدين وهو الصلاة . وبهذه الحجة احتج الصعابة في تقديم أبي بكر الصديق رضي الله عنه وعنه للخلافة ، إذ قالوا لفرنا فإذا الصلاة عماد الدين فاختارنا لديننا من رضى رسول الله صلى الله عليه وسلم لديننا^(٢) وما قدموا بلالا احتجاجا بأنه رضى للأذان^(٣) وما روى . أنه قال له رجل : يا رسول الله دلتني على عمل أدخل به الجنة قال : كن مؤذنا ، قال لا أستطيع ، قال : كن إماما ، قال : لا أستطيع ، فقال : صل بأزاء الإمام^(٤) ، فلم يلهى أنه لا يرضى لإمامته إذ الأذان إليه والإمامة إلى الجماعة وتقديمه . ثم بعد ذلك توم أنه ربما يقدر عليها (الثالثة) أن يراعى الإمام أوقات الصلوات فيصل في أوقاتها ليدرك رضوان الله سبحانه بفضل أول الوقت على آخره كفضل الآخرة على الدنيا^(٥) هكذا روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي الحديث : إن العبد ليصل الصلاة في آخر وقتها ولم يفتته ، ولما قاله من أول وقتها خيره من الدنيا وما فيها^(٦) ، ولا ينبغي أن يؤخر الصلاة لانتظار كثرة الجماعة بل عليهم المبادرة لحيازة فضيلة أول الوقت فهي أفضل من كثرة الجماعة ومن تطويل السورة . وقد قيل كانوا إذا حضر اثنان في الجماعة لم ينتظروا الثالث ، وإذا حضر أربعة في الجماعة لم ينتظروا الخامس . وقد تأخر رسول الله صلى الله عليه وسلم عن صلاة الفجر وكانوا في سفر وإنما تأخر للطهارة فلم ينتظر . وقد عبد الرحمن بن عوف فعلى بهم حتى قامت رسوله صلى الله عليه وسلم ركعة فقام بقضيتها ، قال : فأسفقتنا من ذلك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قد أحسستم هكذا فافعلوا^(٧) ، وقد تأخر في صلاة الظهر فقدموا أبا بكر رضي الله عنه حتى جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في الصلاة فقام إلى جانبه^(٨) ، وليس على الإمام انتظار المؤذن وإنما على المؤذن انتظار الإمام للإقامة فإذا حضر فلا ينتظر غيره (الرابعة) أن يؤم عظماء عز وجل ومؤيدي أمانة الله تعالى في طهارته وجميع شروط صلاته . أما الإخلاص

(١) حديث « أتمتكم وفدكم إلى الله أتمل فان أردتم أن تكونوا صلاتكم تقدموا خياركم » أخرجه البخاري والبيهقي وسند ابنه من حديث ابن عمر والبنوي وابن قانع والطبراني في مساجهم والمالك من حديث حماد بن أبي سريته نحوه وهو منقطع وفيه يحيى بن يحيى الأسدي وهو ضعيف . (٢) حديث « تقدم الصعابة أبا بكر ولو لم اخترنا لدينا من اختياره رسول الله صلى الله عليه وسلم لدينا » أخرجه ابن شاهين في شرح مذهب أهل السنة من حديث علي قال « لقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا بكر أن يصل بالناس ولما شاعده ما أبا بناب ولا في مرض - فرضنا لدينا ما نرضى به - التي صلى الله عليه وسلم لدينا » والمرحوم منه متفق عليه من حديث عائشة وأبي موسى في حديث « قال مروا أبا بكر ليصل بالناس » (٣) حديث « تقدم الصعابة بلالا » احتجاجا بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم رضى للأذان أما للمرفوع منه فرواه أبو داود والترمذي وصححه وابن ماجه وابن خزيمة وابن حبان من حديث عبد الله بن زيد في بدء الأذان وفيه « ثم مع بلال فألقى عليه ما رأيت فيؤذن به .. الحديث » وأما تقديمه له بعد موت النبي صلى الله عليه وسلم فروى الطبراني أن بلالا جاءه لي أبا بكر فقال يا خليفة رسول الله أردت أن أربط نفسي في سبيل الله حتى أموت فقال أبو بكر الحمد لله بلال لا يزال وحرمي وسقني لله تكبريت من وضعت فوقي واقترب اجل فأقام بلال معه ، فلما توفى أبو بكر جاء عمر فقال له مثل ما قال لأبي بكر فأبى عليه فقال عمر فن أبال ، فقال لي سعد فانه قد اذن ببدءه على بدر رسول الله صلى الله عليه وسلم ليصل مع الأذان لي سعد ومعية « وروى عنه جيهان » (٤) حديث « قال له رجل يا رسول الله دلتني على عمل أدخل به الجنة فقال كن مؤذنا .. الحديث » أخرجه البخاري في التاريخ والبيهقي في الفضل . والطبراني في الأوسط من حديث أبيه أسد ضعيف . (٥) حديث « فضل أول الوقت على آخره كفضل الآخرة على الدنيا » أخرجه أبو منصور الديلمي في مستدركه من حديث ابن عمر بسند ضعيف . (٦) حديث « إن العبد ليصل الصلاة في آخر وقتها ولم يفتته .. الحديث » أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة نحوه . (٧) حديث « تأخر رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما عن صلاة الفجر وكان في سفر وإنما تأخر للطهارة فقدموا أبا بكر رضي الله عنه حتى جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في الصلاة فقام إلى جانبه » أخرجه البخاري في مساجهم . (٨) حديث « تأخر في صلاة الظهر فقاموا أبا بكر رضي الله عنه حتى جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في الصلاة فقام إلى جانبه » أخرجه البخاري في مساجهم .

فإن لا يأخذ عليها أجرة فقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم عثمان بن أبي التماس التقي وقال «اغخذ مؤذنا لا يأخذ على الأذان أجرا»^(١) ، فالأذان طريق إلى الصلاة فهي أول بأن لا يؤخذ عليها أجر ، فإن أخذ رزقا من مسجد قد وقف على من يقوم بإمامته أو من السلطان أو آحاد الناس فلا يحكم بتحريمه ولكنه مكروه . والكراهية في الفرائض أشد منها في التراويح ، وتكون أجرة له على مداومته على حضور الموضع ومراقبة مصالح المسجد في إقامة الجماعة لا على نفس الصلاة . وأما الإمامة فهي الطهارة باطنيا عن الفسق والكبائر والإصرار على الصغائر فالترشح للإمامة ينبغي أن يحترز عن ذلك بمجهد فإنه كالوفد والشفيع للقوم فينبغي أن يكون خيرا للقوم وكذا الطهارة ظاهرا عن الحدث والخبث فإنه لا يطلع عليه سواء ، فإن تذكر في أثناء صلاته حدثا أو خرج منه ريح فلا ينبغي أن يستحي بل يأخذ بيد من يقرب منه ويستخلفه ، فقد تذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم الجنب في أثناء الصلاة فاستخلف واعتقل ثم رجع ودخل في الصلاة^(٢) ، وقال سفيان : صل خلف كل بر وفاجر إلا مدمن خمر أو معلن بالفسوق أو عاق لوالديه أو صاحب بدعة أو عبد آتني (الحامسة) أن لا يكبر حتى تستري الصفوف فليست يميناً وشمالاً فإن رأى خلا أمر بالتسوية . قيل كانوا يتحاذون بالناكث ويتضامون بالكاتب . ولا يكبر حتى يفرغ المؤذن من الإقامة . والمؤذن يؤخر الإقامة عن الأذان بقدر استعداد الناس في الصلاة . ففي الخبر «ليتمهل المؤذن بين الأذان والإقامة بقدر ما يفرغ الأكل من طعامه والمعتصر من اعتصامه»^(٣) ، وذلك لأنه نهي عن مداومة الأخيين^(٤) وأمر بتقديم المشاء على المشاء^(٥) طلباً لفرغ القلب (السادسة) أن يرفع صوته بتكبيره الإحرام وسائر التكبيرات ولا يرفع المأموم صوته إلا بقدر ما يسمع نفسه . وينوي الإمامة لبشال الفضل فإن لم يشو صحت صلاته وصلاة القوم إذا نواوا الاقتداء . وقالوا فضل القدوة وهو لا ينال فضل الإمامة ، وليؤخر المأموم تكبيره عن تكبيره الإمام فيبتدئ بعد فراغه والله أعلم . وأما وظائف القراءة فثلاثة (أولها) أن يسر بدعاء الاستفتاح والتعوذ كالمفرد ويجهر بالفاتحة والسورة بدعاً في جميع الصبح وأولي العشاء والمغرب وكذلك المنفرد . ويجهر بقوله «آمين» في الصلاة الجهرية وكذا المأموم ويرن المأموم تأمينه بتأمين الإمام معاً لاتعقياً^(٦) ويجهر بـ «بسم الله الرحمن الرحيم» والأخبار فيه متعارضة^(٧) واختيار الشافعي رضي الله عنه الجهر (الثانية) أن يكون للإمام في القيام ثلاث سكينات^(٨) هكذا رواه سمرة بن جندب وعمران بن الحصين عن

- (١) حديث «اغخذ مؤذنا لا يأخذ له أجرة» أخرجه أصحاب السنن والحاكم وصححه «حديث عثمان بن أبي التماس التقي (٢) حديث «تذكر النبي صلى الله عليه وسلم الجنب في صلاته فاستخلف واغترل ثم رجع» أخرجه أبو داود من حديث أبي بكره يستأذن صحيح وليس فيه ذكر الاستبلال وإنما قال «ثم أولاً» أيهم أن مكاتبة . الحديث «ورد الاستخلاف من قبل عمر وعلى وعند البخاري استخلاف عمر في قصة طه (٣) حديث «يمهل المؤذن بين الأذان والإقامة بقدر ما يفرغ الأكل من طعامه والمعتصر من اعتصامه» أخرجه الترمذي والحاكم من حديث جابر «يا بلال اجعل بين أذانك ولشائك قدر ما يفرغ الأكل من آكله والتأرب من شربه والمعتصر إذا دخل فلهما حاجته» قال الترمذي : إسناده مجهول وقال الحاكم لم يكسب في إسناده مطروقة غير عمرو بن ثابت . لك : بل فيه عبد الله بن أبي الجهمي ذكر الحديث قال البخاري وغيره . (٤) حديث النبي عن مداومة الأخيين أخرجه مسلم من حديث عائشة بنظ «صلاة» والبيهقي «لا يصير أحدكم .. الحديث» (٥) «الأمر بتقديم العشاء على الصبح» تقدم من حديث ابن عمر وعائشة «إذا حضر العشاء وأقيمت الصلاة فادعوا بالعشاء» متفق عليه . (٦) حديث الجهر : «بسم الله الرحمن الرحيم» أخرجه الدارطني والحاكم وصححه من حديث ابن عباس (٧) حديث «ذكر الجهر به» أخرجه مسلم من حديث أنس وصليت خلف النبي صلى الله عليه وسلم وأبى بكر وعمر ثم أسمع أحدا منهم يقرأ بسم الله الرحمن الرحيم ، ولقنا في مجهره «بسم الله الرحمن الرحيم» (٨) حديث سمرة بن جندب وعمران بن حصين في سكينات الإمام رواه الإمام أحمد من حديث سمرة قال «كانت رسول الله صلى الله عليه وسلم سكينات في صلاته . وقال عمران : أنا أحفظها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فكثيراً أن ذلك لي أبي أني كسب ؟ فكنت أن سمرة قد حفظ ، وهكذا وجدته في غير نسخة صحيحة من المسند والمرووف أن عمران أنكر ذلك على سمرة هكذا غير موضع من المسند رواه أبو داود وابن ماجه وابن جابر ، وروى الترمذي «فأنكر ذلك عمران وقال خلفنا سكنة والحديث»

رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ أولاهن : إذا كبر وهى الطولى منهن مقدار ما يقرأ من خلفه فاتحة الكتاب وذلك وقت قراءته لنسائه الاستفتاح فإنه إن لم يسكت يفتهم الاستماع فيكون عليه ما نقص من صلاتهم ، فإن لم يقرأوا الفاتحة في سكوتهم واشتغلوا بغيرها فذلك عليه لاعليم . السكنة الثانية : إذا فرغ من الفاتحة ليتم من يقرأ الفاتحة في السكنة الأولى فاتحته وهى كصيف السكنة الأولى . السكنة الثالثة : إذا فرغ من السورة قبل أن يركع وهى أخفها وذلك بقدر ماتم فصل القراءة عن التكبير فقد نهى عن الوصل فيه . ولا يقرأ للمأموم وراء الإمام إلا الفاتحة فإن لم يسكت الإمام قرأ فاتحة الكتاب معه والمقصود هو الإمام . وإن لم يسمع المأموم في الجهرية بعده أو كان في السرية فلا بأس بقراءة السورة (الوظيفة الثالثة) أن يقرأ في الصبح سورتين من المثاني مادون المائة فإن الإطالة في قراءة النجر والتغليس بها سنة ، ولا يضره الخروج منها مع الإسفار ، ولا بأس بأن يقرأ في الثانية بأواخر السور نحو الثلاثين أو العشرين إلى أن يجمتها لأن ذلك لا يتكرر على الأصابع كثيراً فيكون أبلغ في الوضوء وأدعى إلى التفكير ، وإنما كره بعض العلماء قراءة بعض أول السور وقطعها . وقد روى أنه صلى الله عليه وسلم قرأ بعض سورة يونس فلما اتى إلى ذكر موسى وفرعون قطع فركع ^(١) وروى أنه صلى الله عليه وسلم قرأ في الضحى آية من البقرة ^(٢) وهى قوله (قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا) وفى الثانية (ربنا آمنا بما أنزل) وسمح بلالا يقرأ من ههنا وههنا ؛ فسأله عن ذلك فقال : أخطأ الطيب بالطيب ، فقال : أحسنت ^(٣) ويقرأ في الظهر بطوال الفصل إلى ثلاثين آية وفى العصر بنصف ذلك وفى المغرب بأواخر الفصل . وآخر صلاة صلاها رسول الله صلى الله عليه وسلم : المغرب ؛ قرأ فيها سورة المرسلات ماضى بعدها حتى قبض ^(٤) . وبالجملة التخفيف أولى لاسيما إذا كثرت الجمع قال صلى الله عليه وسلم في هذه الرخصة : إذا صلى أحدهم بالناس فليخفف فإن فيهم الضعيف والكبير وإذا الحاجة وإذا صلى لنفسه فليطول ما شاء ^(٥) . وقد كان معاذ بن جبل يصل بقرن المشاء فقرأ البقرة فخرج رجل من الصلاة وأتم نفسه ، فقالوا : نائق الرجل ، فقتلوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فجزر رسول الله صلى الله عليه وسلم معاذاً فقال : أفتأت أنت بأعماذ أقرأ سورة سبوح والسياء والطارق والشمس وضحاها ^(٦) . وأما وظائف الأركان الثلاثة ؛ أولها : أن يخفف الركوع والسجود فلا يزيد في التسيحات على ثلاث فقد روى عن أنس أنه قال : ما رأيت أخف صلاة من رسول الله صلى الله عليه وسلم في تمام ^(٧) . ثم روى أيضاً أن أنس بن مالك لما صلى خلف عمر بن عبد العزيز وكان أميراً بالمدينة قال : ما صليت وراء أحد أشبه صلاة بصلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم

حسن انتهى وليس في حديث حمزة إلا سكتان : ولكن اختلف عنه في محل الثانية . فروى عنه بعد الفاتحة وروى عنه بعد السورة وقدره لفظي من حديث أبي هريرة وضمه « من صلى صلاة مكتوبة مع الإمام فليقرأ بفاتحة الكتاب في سكتانه »

- (١) حديث « قرأ بعض سورة يونس ، فلما انتهى إلى ذكر موسى وفرعون قطع فركع » أخرجه مسلم من حديث عبد الله بن السائب وقال : سورة المؤمنین وقال موسى وعادون وعلقه البخاري (٢) حديث قرأ في القجر (قولوا آمنا بالله) الآية ، وفى الثانية (ربنا آمنا بما أنزل) أخرجه مسلم من حديث ابن عباس كان يقرأ في ركعتي النجر في الأولى منها (قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا) الآية التي في البقرة وفى الأخرى منها (آمنا بالله واشهد أنا مسلمون) رواه أبو داود من حديث أبي هريرة (فل آمنا بالله وما أنزل علينا) الآية وفى الركعة الآخرة (ربنا آمنا بما أنزل) أو (لنا أرسلك بالحق) (٣) حديث « سمع بلالا يقرأ من ههنا ومن ههنا » فسأله عن ذلك فقال أخطأ الطيب بالطيب فقال أحسنت « أخرجه أبو داود من حديث أبي هريرة بإسناد صحيح نحوه »
- (٤) حديث « قراءته في المغرب بالمسلمات وهى آخر صلاة صلاها » متفق عليه من حديث أم الفضل
- (٥) حديث « إذا صلى أحدهم بالناس فليخفف .. الحديث » متفق عليه من حديث أبي هريرة (٦) حديث « صلى معاذ يوم المشاء فقرأ البقرة فخرج رجل من الصلاة .. الحديث » متفق عليه من حديث جابر وليس فيه ذكر (والسياء والطارق) وهى عند الباقين
- (٧) حديث أنس « ما رأيت أخف صلاة من رسول الله صلى الله عليه وسلم في تمام » متفق عليه

وسلم من هذا الشاب قال : وكنا نسبح وراءه عشرا عشرا ^(١) ، وروى بجمل أنهم قالوا : كما نسبح وراء رسول الله صلى الله عليه وسلم في الركوع والسجود عشرا عشرا ^(٢) ، وذلك حسن ولكن الثلاث إذا كثرت أجمع أحسن ، فإذا لم يحضر إلا المتجردون للدين فلا بأس بالشر ، هذا وجه الجمع بين الروايات . ويغنى أن يقول الإمام عند رفع رأسه من الركوع : سمع الله من حمده ، الثانية : في المأموم ؛ يغنى أن لا يسأوا الإمام في الركوع والسجود بل يتأخر فلا يهوى للسجود إلى إذا وصلت جبهة الإمام إلى المسجد ، هكذا كان اقتداء الصحابة برسول الله صلى الله عليه وسلم ^(٣) ولا يهوى للركوع حتى يستوى الإمام رакماً . وقد قيل إن الناس يخرجون من الصلاة على ثلاثة أقسام : طائفة بخمس وعشرين صلاة وهم الذين يكبرون ويركعون بعد الإمام : وطائفة بصلوة واحدة وهم الذين يسأونه ، وطائفة بلا صلاة وهم الذين يسابقون الإمام . وقد اختلف في أن الإمام في الركوع هل ينتظر لحوق من يدخل لينال فضل الجماعة وإدراكهم لتلك الركعة ؟ ولعل الأولى أن ذلك مع الإخلاص لا بأس به إذا لم يظهر تفاوت ظاهر للحاضرين فإن حقهم مرعى في ترك التطويل عليهم . الثالثة : لا يزيد في دعاء التشهد على مقدار التشهد حداً من التطويل ولا يخص نفسه في الدعاء بل يأتي بصيغة الجمع فيقول : اللهم اغفر لنا ، ولا يقول : اغفر لي ، فقد كره الإمام أن يخص نفسه ولا بأس أن يستعبد في التشهد بالكلمات الحسن المأثورة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقول : ونعوذ بك من عذاب جهنم وعذاب القبر ونعوذ بك من فتنة المحيا والممات ومن فتنة المسيح الدجال وإذا أردت بقرعة فتنة فاقبضنا إليك غير مقترنين ^(٤) ، وقيل سمي مسجداً لأنه يمسح الأرض بطولها وقيل لأنه مسح العين أي عطسها ، وأما وظائف التحلل فثلاثة ، أولاً : أن ينوي بالتسليمتين السلام على القوم والملائكة . الثانية : أن يثيب عقيب السلام كذلك فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وعمر رضي الله عنهما فيصلي الثالثة في موضع آخر . فإن كان خلفه نسوة لم يقم حتى ينصرفن ^(٥) ، وفي الخبر المشهور : أنه صلى الله عليه وسلم لم يكن يقعد إلا قدر قوله : اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت إذا بالجلال والإكرام ^(٦) ، الثالثة : إذا وثب فيلنهي أن يقبل بوجهه على الناس ويكره للمأموم القيام قبل انتقال الإمام . فقد روى عن طلحة والزبير رضي الله عنهما أنهما صليا خلف إمام فلما سبأ قال الإمام ما أحسن صلاتك وأنما لا شيئاً واحداً أنك لما سلمت لم تفتل بوجهك . ثم قالوا الناس : ما أحسن صلاتكم إلا أنكم انصرفتم قبل أن يفتل إمامكم . ثم ينصرف الإمام حيث شاء من يمينه وشماله واليمين أحب . هذه وظيفة الصلوات ، وأما الصبح فريد فيها الفتن فيقول الإمام : اللهم اهدنا ، ولا يقول اللهم اهدني ، ويؤمن المأموم فإذا انتهى إلى قوله : إنك تقضي ولا يقضى عليك ، فلا يليق به التأمين وهو ثناء ، فيقرأ منه فيقول مثل قوله أرى يقول : بلى وأنا على ذلك من الشاهدين ، أو : صدقت وبررت ، وما أشبه ذلك . وقد روى حديث في رفع اليدين في الفتن ^(٧) فإذا صح

(١) حديث أبيه : أنه صلى الله عليه وسلم من عبد العزيز فقال ما صليت وراء أحد أشبه صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم من هذا العابد .. الحديث أخرجه أبو داود والسنن في إسناده وضعفه ابن القطن . (٢) حديث : كما نسبح وراء رسول الله صلى الله عليه وسلم في الركوع والسجود عشرا ، لم أجده أسلاً في الحديث الذي فيه وفيه « فخرنا في ركوعه عشر تسبيحات وفي سجوده عشر تسبيحات » (٣) حديث : كان الصحابة لا يهجون للسجود إلا إذا وصلت جبهة النبي صلى الله عليه وسلم إلى الأرض ، متفق عليه من حديث البراء بن عازب . (٤) حديث : « العوذ في التشهد من عذاب جهنم وعذاب القبر .. الحديث » وهم وزاد فيه ، الفرائد هنا ، وإذا أردت بقوم فتنة فاقبضنا إليك غير مقترنين ، ولم أجده مفيداً بخبر الصلاة ولترتفع من حديث ابن عباس ، وإذا أردت بسبائك فتنة فاقبض إليك غير مقترنين ، وروى الحاكم نحوه من حديث ثوبان وعبد الرحمن بن عيسى وصحبه وسألت في الدعاء

(٥) حديث : « المسكت بعد السلام » أخرجه البخاري من حديث أم سلمة . (٦) حديث : « أنه لم يكن يقعد إلا بقدر قوله : اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت إذا بالجلال والإكرام » أخرجه مسلم من حديث عائشة . (٧) حديث : رفع اليدين في الفتن ، أخرجه البيهقي من حديث أبي سعيد جندب في فتنة الكراء ، ولقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم كلما صلى الفتنة رفع يديه ، يدور عليهم (٢٣ — لحياه علوم الدين — ١)

الحديث استحب ذلك وإن كان على خلاف الدعوات في آخر التشهد إذ لا يرفع بسببها اليد بل التعويل على التوقيف وبينهما أيضاً فرق أن الأبدى وظيفة في التشهد وهو الوضع على الفخذين على هيئة مخصوصة ولا وظيفة لهما منها ، فلا يبعد أن يكون رفع اليدين هو الوظيفة في القنوت ، فإنه لا يثنى بالثناء والله أعلم . فهذه جمل آداب القدوة والإمامة والله الموفق .

الباب الخامس : فضل الجمعة وآدابها وسننها وشروطها

فضيلة الجمعة

إعلم أن هذا يوم عظيم عظم الله به الإسلام وخصص به المسلمين . قال الله تعالى (إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسموا إلى ذكر الله وذروا البيع) لحرم الاشتغال بأمور الدنيا وبكل صارف عن السعي إلى الجمعة . وقال صلى الله عليه وسلم « إن الله عز وجل فرض عليكم الجمعة في يوم هذا في مقام هذا ^(١) » وقال صلى الله عليه وسلم « من ترك الجمعة ثلاثاً من غير عذر طبع الله على قلبه ^(٢) » وفي لفظ آخر « فقد نبت الإسلام وراء ظهره ^(٣) » واختلف رجل إلى ابن عباس يسأله عن رجل مات لم يكن يشهد جمعة ولا جماعة ، فقال : في النار ، فلم يزل يتردد إليه ثم رآه يسأله عن ذلك وهو يقول في النار وفي الخبر : إن أهل الكتابين أعطوا يوم الجمعة فاختسلفوا فيه فصرقوا منه وهذا ما اتفق عليه أهل السنة . وفي حديث أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « أتاني جبريل عليه السلام في كسفة امرأة يضاء وقال : هذه الجمعة يفرضها عليك ربك لتكون لك عبداً ولأمتك من بعدك . قلت : فالتأنيب ؟ قال : لك فيها خير ساعة من دعا فيها بخير قسم له أعطاه الله سبحانه إياه أو ليس له قسم ذخره له ما هو أعظم منه ؟ أو تؤخذ من شر مكتوب عليه إلا أعاده الله عز وجل من أعظم منه وهو سيد الأيام عندنا ونحن ندعوه في الآخرة يوم المزيد ، قلت : ولم ؟ قال : إن ربك عز وجل اتخذ في الجنة وادياً أفصح من المسك أبيض فإذا كان يوم الجمعة نزل تعالى من عليين على كرسية فيستجلى لهم حتى ينظروا إلى وجهه الكريم ^(٤) » وقال صلى الله عليه وسلم « خير يوم طلعت عليه الشمس يوم الجمعة ، فيه خلق آدم عليه السلام وفيه أدخل الجنة وفيه أهبط إلى الأرض وفيه تيب عليه وفيه مات وفيه تقوم الساعة ، وهو عند الله يوم المزيد كذلك تسميه الملائكة في السماء وهو يوم النظر إلى الله تعالى في الجنة ^(٥) » وفي الخبر « إن الله عز وجل في كل جمعة ستائة ألف عتيق من النار ^(٦) » وفي حديث أنس رضي الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم

الباب الخامس

- (١) حديث « إن الله فرض عليكم الجمعة في يوم هذا .. الحديث » أخرجه ابن ماجه من حديث جابر بإسناد ضعيف
- (٢) حديث « من ترك الجمعة ثلاثاً من غير عذر طبع الله على قلبه » أخرجه أحمد واللفظ له وأصحاب السنن ورواه الحاكم وصححه
- من حديث أبي الجهم الضمري (٣) حديث « من ترك الجمعة ثلاثاً من غير عذر فقد نبت الإسلام وراء ظهره » أخرجه البيهقي في الشعب
- من حديث ابن عباس (٤) حديث « إن أهل الكتابين أعطوا يوم الجمعة فاختسلفوا فيه .. الحديث » متفق عليه من حديث أبي هريرة بنعنه
- (٥) حديث أنس « أتاني جبريل في كسفة امرأة يضاء فقال هذه الجمعة .. الحديث » أخرجه الترمذي في المسند والطبراني في الأوسط
- وإن مردويه في التفسير بأسانيد ضعيفة مع اختلاف (٦) حديث « خير يوم طلعت عليه الشمس يوم الجمعة .. الحديث » أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة
- (٧) حديث « إن الله في كل جمعة ستائة ألف عتيق من النار » أخرجه ابن عدى وابن حبان في

الضعفاء وفي الشعب من حديث أنس قال النار تطلق في الليل والحديث غير ثابت

قال « إذا سلت الجمعة سلت الأيام »^(١) ، وقال صلى الله عليه وسلم « إنَّ الجمعَ تسعِرُ في كل يوم قبل الزوال عند استواء الشمس في كبد السماء فلا تفصلوا في هذه الساعة إلا يوم الجمعة فإنه صلاة كله وإن جهنم لا تسعِر فيه »^(٢) ، وقال كعب : إن الله عز وجل فضل من البلدان مكة ومن الشهور رمضان ومن الأيام الجمعة ومن الأيام ليلة القدر ويقال إن الطير والحوام يلتقي بعضها بعضاً في يوم الجمعة فتقول : سلام - سلام يوم صالح وقال صلى الله عليه وسلم « من مات يوم الجمعة أو ليلة الجمعة كتب الله له أجر شهيد ووفى قنعة القبر »^(٣) .

بيان شروط الجمعة

اعلم أنها تشترك جميع الصلوات في الشروط وتتميز عنها بستة شروط (الأول) الوقت : فإن وقت تلبية الإمام في وقت العصر فانت الجمعة وعليه أن يتبها ظهراً أربعاً ، والمسبوق إذا وقتت ركعتها الأخيرة خارجاً من الوقت ففيه خلاف (الثاني) المكان : فلا تصح في الصحارى والبرارى وبين الخيام بل لا بد من بقعة جامعة لأبوية لا تتقل بجمع أربعين من تلمذهم الجمعة والقرية فيه كالبدة ، ولا يشترط فيه حضور السلطان ولا إذنه ولكن لأصحاب استكذانه (الثالث) العدد : فلا تمتد بأقل من أربعين ذكوراً مكلفين أحراراً مقيمين لا يظنون عنها شتاء ولا صيفاً فإن انقصوا حتى نقص العدد إما في الخطبة أو في الصلاة لم تصح الجمعة بل لا بد منهم من الأول إلى الآخر (الرابع) الجماعة : فلو صلى أربعون في قرية أو في بلة متفرقين لم تصح جمعتهم . ولكن المسبوق إذا أدرك الركعة الثانية جازله الانفراد بالركعة الثانية . وإن لم يدرك ركوع الركعة الثانية اقتضى نوى الظهر وإذا سلم الإمام تمبها ظهراً (الخامس) أن لا تكون الجمعة مسبوقة بأخرى في ذلك البلد . فإن تعذر اجتماعهم في جامع واحد جاز في جامعين وثلاثة وأربعة بقدر الحاجة . وإن لم تكن حاجة فالصحيح الجمعة التي يقع بها التحريم أولاً . وإذا تحققت الحاجة فالأفضل الصلاة خلف الأفضل من الإمامين ، فإن تساوى فالمسجد الأقدم ، فإن تساوى في الأقرب ، وكثرة الناس أيضاً فضل يراعى (السادس) الخطبتان : فهما فريضتان والقيام فيها فريضة والجلوس بينهما فريضة . وفي الأولى أربع فرائض : التحميد وأقله الحمد لله . والثانية : الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم . والثالثة : الوصية بتقوى الله سبحانه وتعالى والرابعة : قراءة آية من القرآن . وكذا فرائض الثانية أربعة إلا أنه يجب فيها الدعاء بدل القراءة . واستماع الخطبتين واجب من الأربعين . وأما السنن : فإذا زالت الشمس وأذن المؤذن وجلس الإمام على المنبر انقطعت الصلاة سوى التحية ، والكلام لا ينقطع إلا بإفتتاح الخطبة . ويسلم الخطيب على الناس إذا أقبل عليهم بوجهه ويردون عليه السلام فإذا فرغ المؤذن قام مقبلاً على الناس بوجهه لا يلتفت يمينا ولا شمالاً ويشغل يديه بقائم السيف أو العزة والمنبر كي لا يهبت هبما أو يضع إحداهما على الأخرى . ويخطب خطبتين بينهما جلسة خفيفة . ولا يستعمل غريب اللغة ولا يخطب ولا يتغنى . وتكون الخطبة قصيرة بلغة جامعة . ويستحب أن يقرأ آية في الثانية أيضاً . ولا يسلم من دخل والخطيب يخطب فإن سلم لم يستحق جواباً ، والإشارة بالجواب حسن ، ولا يشمت المعاصرين أيضاً . هذه شروط الصحة . فأما شروط الوجوب : فلا تجب الجمعة إلا على ذكر بالغ عاقل مسلم حرم مقيم في قرية تشمل على أربعين جامعاً

(١) حديث أسد « إذا سلت الجمعة سلت الأيام » أخرجه ابن حبان في الضعاف وأبو نعيم في الحلية والبيهقي في الشعب من حديث عائشة ولم أجده من حديث أسد (٢) حديث « إن الجمع تسعير كل يوم قبل الزوال عند استواء الشمس - إلى أن قال - إلا يوم الجمعة .. الحديث » أخرجه أبو داود من حديث أبي قتادة وأعله بالانقطاع (٣) حديث « من مات يوم الجمعة كتب الله له أجر شهيد ووفى قنعة القبر » أخرجه أبو نعيم في الحلية من حديث جابر روى الزهدي نحوه مختصراً من حديث عبد الله بن عمر وقال غريب ليس إسناده بمجمل . قلت . وصله الترمذي المحسّن في النوادر

لهذه الصفات ، أو في قرية من سواد البلد يلغنها نداء البلد من طرف بابها والأصوات ساكنة والمؤذن رفيع الصوت لقوله تعالى (إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع) ويرخص لهؤلاء في ترك الجمعة لعذر للمطر والرحل والفرع والمرض والتريض إذا لم يكن للتريض قيم غيره . ثم يستحب لهم أتعى أصحاب الأعداء - تأخير الظهور إلى أن يفرغ الناس من الجمعة ، فإن حضر الجمعة مريض أو مسافر أو عبد أو امرأة صحمت مجتمعت وأجرات عن الظهور والله أعلم

بيان آداب الجمعة على ترتيب العادة وهي عشر جل

(الأول) أن يستعد لها يوم الخميس عزما عليها واستقبالا لفضلها فيستقبل بالدهاء والاستغفار والتسبيح بعد العصر يوم الخميس لأنها ساعة غوبلت بالساعة المهمة في يوم الجمعة . قال بعض السلف : إنَّ لله عز وجل فضلا سوى أزواق العباد لا يعطى من ذلك الفضل إلا من سأله عشية الخميس ويوم الجمعة ، ويضل في هذا اليوم ثيابه ويبعضها ويعد الطيب إن لم يكن عنده ، ويفرح قلبه من الأشغال التي تمنعه من الكور إلى الجمعة ، وينوي في هذه الليلة صوم يوم الجمعة فإن له فضلا ولكن مضموما إلى يوم الخميس أو السبت - لا مفردا فإنه مكروه - ويستقبل بإحياء هذه الليلة بالصلاة ويختم القرآن فلها فضل كثير وينسحب عليها فضل يوم الجمعة . ويجماع أهل في هذه الليلة أو في يوم الجمعة فقد استحب ذلك قوم حلوا عليه قوله صلى الله عليه وسلم « رحم الله من بكر وأبكر وغسل واغتسل »^(١) ، وهو حمل الأهل على الغسل . وقيل معناه غسل ثيابه فغوى بالتخفيف - واغتسل لجسده . وهذا تم آداب الاستقبال ويخرج من زمرة المنافقين الذين إذا أصبحوا قالوا ما هذا اليوم ؟ قال بعض السلف : أوفى الناس نصيبا من الجمعة من انتظرها ورعاها من الأوس ، وأخفهم نصيبا من إذا أصبح يقول : أيُّ اليوم ؟ وكان بعضهم يبيت ليلة الجمعة في الجامع لأجلها (الثاني) إذا أصبح ابتداء بالفضل بعد طلوع الفجر ، وإن كان لا يكر فأقر به إلى الرواح أحب ليكون أقرب عبدا بالظافة ، فالغسل مستحب استحبابا مؤكدا ، وذهب بعض السلف إلى وجوبه قال صلى الله عليه وسلم « غسل الجمعة واجب على كل محتلم »^(٢) ، والمشهور من حديث نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما « من أتى الجمعة فليغتسل »^(٣) ، وقال صلى الله عليه وسلم « من شهد الجمعة من الرجال والنساء فليغتسل »^(٤) ، وكان أهل المدينة إذا تساب التسابان يقول أحدهما للآخر : لانت أشر من لا يغتسل يوم الجمعة . وقال عمر لثمان رضي الله عنهما « من أتى الجمعة دخل وهو يخطب « أهذه الساعة ؟ - فنكر عليه ترك الكور - فقال : ما زدت بعد أن سمعت الأذان على أن توشأت وخرجت فقال : والوضوء أيضا : وقد علمت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يأمرنا بالفضل »^(٥) . وقد عرف جواز ترك الغسل بوضوء ثمان رضي الله تعالى عنه وبما روى أنه صلى الله عليه وسلم قال « من توضأ يوم الجمعة فيها ونعمت ومن اغتسل فالغسل أفضل »^(٦) ، ومن اغتسل للجمعة فليغتسل الماء على بدنه مرة أخرى

(١) حديث « رحم الله من بكر وأبكر وغسل واغتسل ... الحديث » رواه أصحاب السنن وابن حبان والحاكم وصححه من حديث أوس بن أوس « من غسل يوم الجمعة واغتسل وبكر وابتكر .. الحديث » وصححه الترمذي
(٢) حديث « غسل يوم الجمعة واجب على كل محتلم » متفق عليه من حديث أبي سعيد (٣) حديث نافع عن ابن عمر « من أتى الجمعة من الرجال والنساء فليغتسل » متفق عليه وهذا لفظ ابن حبان (٤) حديث « من شهد الجمعة من الرجال والنساء فليغتسلوا » أخرجه ابن حبان والبيهقي من حديث ابن عمر (٥) حديث « قال عمر لثمان لما دخل وهو يخطب : أهذه الساعة .. الحديث » - إلى أن قال - والوضوء أيضا وقد علمت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يأمر بالفضل - متفق عليه من حديث أبي هريرة ولم يسم البخاري ثمان (٦) حديث « من توضأ يوم الجمعة فيها ونعمت ... الحديث » أخرجه أبو داود والترمذي وصححه ورواه النسائي من حديث سمرة

على نية غسل الجمعة ، فإن اكتفى بغسل واحد أجزأه وحصل له الفضل إذا نوى كليهما ودخل غسل الجمعة في غسل الجنابة . وقد دخل بعض الصحابة على ولده وقد اغتسل فقال له : الجمعة ؟ فقال : بل عن الجنابة ، فقال : أعد غسلاً ثانياً ، وروى الحديث في غسل الجمعة هل كل محتلم . وإنما أمره به لأنه لم يكن نواه . وكان لا يبعد أن يقال المقصود النظافة وقد حصلت دون النية ، ولكن هذا يتقدح في الوضوء أيضاً وقد جعل في الشرع قرينة فلا بد من طلب فضلها . ومن اغتسل ثم أحدث تواضعاً ولم يطل غسله والأحب أن يحترز عن ذلك (الثالثة) الزيتة ، وهي مستحبة في هذا اليوم وهي ثلاثة : الكسوة والنظافة وتطيب الرائحة . أما النظافة فبالسواك وحلق الشعر وقلم الظفر وقص الشارب وسائر ما سبق في كتاب الطهارة . قال ابن مسعود : من قلم أظفاره يوم الجمعة أخرج الله عروجه وأحب منه داه وأدخل فيه شفاء ، فإن كان قد دخل الحمام في الخيس أو الأربعة فقد حصل المقصود . فلتطيب في هذا اليوم بأطيب طيب عنده ليلب بها الروائح الكريمة ويوصل بها الروح والرائحة إلى مثام الحاضرين في جواره ، وأحب طيب الرجال ما ظهر ريحه وخفي لونه وطيب النساء ما ظهر لونه وخفي ريحه ^(١) ، وروى ذلك في الأثر . وقال الشافعي رضي الله عنه : من نطق ثوبه قل همه ومن طاب ريحه زاد عقله . وأما الكسوة فأحبها البياض من الثياب - إذ أحب الثياب إلى الله تعالى البياض - ولا يلبس ما فيه شجرة . وليس السواد ليس من السنة ولا فيه فضل بل كره جماعة النظر إليه لأنه بدعة محدثة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم والعامة مستحبة في هذا اليوم . وروى وأئمة الأئمة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : **إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يَمْلِكُونَ عَلَى أَصْحَابِ الْمَاءِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ** ^(٢) ، فإن أكرهه الحرف فلا بأس بزينة قبل الصلاة وبمبدها ولكن لا يزعج في وقت السمن من اللز إلى الجمعة ولا في وقت الصلاة ولا عند صعود الإمام المنبر وفي خطبته (الرابع) البكور إلى الجامع : ويستحب أن يقصد الجامع من فرحين وملائك وليكير . ويدخل وقت البكور بطلوع الفجر وفضل البكور عظيم . ويعني أن يكون في سعيه إلى الجمعة عاشماً متواضعاً تائباً للاحتكاف في المسجد إلى وقت الصلاة قاصداً للبادرة إلى جواب نداء الله عز وجل إلى الجمعة له . والمساورة إلى مغفرته ورضوانه وقد قال صلى الله عليه وسلم : من راح إلى الجمعة في الساعة الأولى فكأنما قرب بدنة ومن راح في الساعة الثانية فكأنما قرب بقرة ومن راح في الساعة الثالثة فكأنما قرب كبشاً أقرن ومن راح في الساعة الرابعة فكأنما أدى دجاجة ومن راح في الساعة الخامسة فكأنما أدى بيضة فإذا خرج الإمام طويت الصحف ورفعت الأقاليم واجتمعت الملائكة عند المنبر يستمعون الذكر فن جاء بعد ذلك فأنما جاء لحق الصلاة ليس له من الفضل شيء ^(٣) . والساعة الأولى إلى طلوع الشمس ؛ والثانية إلى ارتفاعها ، والثالثة إلى انبساطها حين ترمض الأقدام ، والرابعة والخامسة بعد الضحى الأعلى إلى الزوال وفضلها قليل ؛ ووقت الزوال حتى الصلاة ولا فضل فيه . وقال صلى الله عليه وسلم : ثلاث لو يعلم الناس ما فيهن لركضوا إلىهن فطلبهن ؛ الأذان والصف الأول والغدو إلى الجمعة ^(٤) ، وقال أحمد بن حنبل رضي الله عنه : أفضلهن الندى إلى الجمعة . وفي الخبر

(١) حديث « طيب الرجال ما ظهر ريحه ، وخفي لونه وطيب النساء ما ظهر لونه وخفي ريحه » أخرجه أبو داود والترمذي وحسنه والنسائي من حديث أبي هريرة . (٢) حديث وأئمة بن الأسمع « لأن الله وملائكته يملكون على أصحاب الماء يوم الجمعة » أخرجه الطبراني وصدي ، وقال مشكور من حديث أبي الدرداء ولم أره من حديث وأئمة . (٣) حديث « من راح إلى الجمعة في الساعة الأولى فكأنما قرب بدنة .. الحديث » متفق عليه من حديث أبي هريرة وأبو داود . وروى الأقاليم : وهذه النفقة عند البيهقي من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده . (٤) حديث « ثلاث لو يعلم الناس ما فيهن لركضوا إلىهن فطلبهن : الأذان والصف الأول والغدو إلى الجمعة » أخرجه أبو الشيخ في تواب الأعمال من حديث أبي هريرة ، ثلاث لو يعلم الناس ما فيهن ما أخذتهن إلا بالاستهتام عليهن حرصاً على ما فيهن من الخير والبركة .. الحديث » قال « والتجهيز إلى الجمعة » وفي الصحيحين من حديثه « لو يعلم الناس ما في النداء والصف الأول ثم لم يجدوا إلا أن يستهوا لاستهوا ولو يعلمون ما في التجهيز لاستبقوا إليه » .

و إذا كان يوم الجمعة قدمت الملائكة على أبواب المساجد بأيديهم صحف من فضة وأقلام من ذهب يكتبون الأول فالأول على مسراتهم ^(١) ، وجاء في الخبر إن الملائكة يتفقدون الرجل إذا تأخر عن وقته يوم الجمعة فيسأل بعضهم بعضا عنه : ما فعل فلان وما الذي أخره عن وقته ؟ فيقولون : اللهم إن كان أخره فقر فأغته وإن كان أخره مرض فأغته وإن كان أخره شغل فغتره إبيادته وإن كان أخره لحو فأقبل بقلبه إلى طاعتك ^(٢) ، وكان يرى في القرن الأول سمرا وبعد الفجر الطرقات مملوءة من الناس يمشون في السرج ويزدحون بها إلى الجامع كأيام العيد حتى اندرس ذلك فقيل : أول بدعة حدثت في الإسلام ترك البكور إلى الجامع . وكيف لا يستحي المسلمون من اليهود والنصارى وهم يكررون إلى البيع والكنائس يوم السبت والأحد ؟ وطلاب الدنيا كيف يكررون إلى رحاب الأسواق للبيع والشراء والرجع فلم لا يسأفهم طلاب الآخرة ؟ وقال : إن الناس يكونون في قهرهم عند النظر إلى وجه الله سبحانه وتعالى على قدر بكمورهم إلى الجمعة . ودخل ابن مسعود رضى الله عنه بكرة الجامع فرأى ثلاثة نفر قد سبقوه بالكور فأغم ذلك وجعل يقول في نفسه مما تاب لها : رابع أربعة : وما رابع أربعة من البكور يعمد (الخامس) في هيئة الدخول : ينبغي أن لا يتخطى رقاب الناس ولا يمر بين أيديهم والبكور يسهل ذلك عليه فقد ورد وعيد شديد في تخطف الرقاب وهو أنه يجعل جسرا يوم القيامة يتخطاه الناس ^(٣) ، وروى ابن جريج مرسلا وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم ينأى عن يتخطى رقاب الناس حتى تقدم مجلس فلما قضى النبي صلى الله عليه وسلم صلاته عارض الرجل حتى لقيه فقال : يا فلان ما منعتك أن تجمع اليوم معنا ؟ قال : يا نبي الله قد جمعت معكم : فقال النبي صلى الله عليه وسلم : ألم ترك تخطف رقاب الناس ^(٤) ، أشار به إلى أنه أحبط عمله . وفي حديث مسند أنه قال : ما منعتك أن تصل معنا ؟ قال : أو لم ترني يارسول الله ، فقال صلى الله عليه وسلم : رأيته تأتيت وآذيت ^(٥) ، أى تأخرت عن البكور وآذيت الحضور . ومهما كان الصف الأول متروكا خاليا فله أن يتخطى رقاب الناس لأنهم ضيعوا حقهم وتركوا موضع الفضيلة . قال الحسن : تخطفوا رقاب الناس الذين يقدعون على أبواب الجوامع يوم الجمعة فإنه لا حرمة لهم . ولذا لم يكن في المسجد إلا من يصل فينبغي أن لا يسلم لأنه تكليف جواب في غير عمله (السادس) أن لا يمر بين يدي الناس ويجلس حيث هو إلى قرب أسطوانة أو سائط حتى لا يمر من بين يديه أى بين يدي المصل فإن ذلك لا يقطع الصلاة ولكنه منى عنه قال صلى الله عليه وسلم : لأن يقف أربعين عاما خير له من أن يمر بين يدي المصل ^(٦) ، وقال صلى الله عليه وسلم : لأن يكون الرجل رمادا أو رميا

(١) حديث « إذا كان يوم الجمعة قدمت الملائكة على أبواب المساجد بأيديهم صحف من فضة وأقلام من ذهب .. الحديث » أخرجه ابن مردويه في التفسير من حديث علي بن إسماعيل ضعيف « إذا كان يوم الجمعة نزل جبريل فترك لواء بالسجد الحرام وغشا سائر الملائكة إلى المساجد التي يجتمع فيها يوم الجمعة فتركوا ألوانهم وديانهم أبواب المساجد ثم نصرخوا وأقلاما من ذهب

(٢) حديث « إن الملائكة يتفقدون البكر إذا تأخر عن وقته يوم الجمعة فيسأل بعضهم بعضا ما فعل فلان ، أخرجه ابن جريج من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن زيادة وثقه بإسناده حسن . وأما أن الصف ذكر هذا فإن لم يرد به حديثا ساروا فليس من شرطنا وإنما ذكرناه احتياطا (٣) حديث « من تخطف رقاب الناس يوم الجمعة أخذ جسرا إلى جهنم » أخرجه الترمذي وضعفه وابن ماجه من حديث حاذ بن أسد (٤) حديث ابن جريج مرسلا أن النبي صلى الله عليه وسلم ينأى عن يتخطى رقاب الناس . ويضعف رقاب الناس . الحديث وفيه ما منعتك أن تجمع معنا اليوم » أخرجه ابن المبارك في الرقائق (٥) حديث « ما منعتك أن تصل معنا فقال أو لم ترني قال رأيته تأتيت وآذيت » أخرجه أبو داود والنسائي وابن حبان والحاكم من حديث عبد الله بن بسر مختصرا

(٦) حديث « لأن يقف أربعين سنة خير له من أن يمر بين يدي المصل » أخرجه البزار من حديث زيد بن خالد بن الصعيجين من حديث أبي جهم « أن يقف أربعين » قال أبو النضر : لا أدري « أربعين يوما أو شهرا أو سنة » رواه أبو داود وابن حبان من حديث أبي هريرة « مائة عام »

تذروه الرياح خير من أن يمز بين يدي المصل^(١) . وقد روى في حديث آخر في المسار والمصل حيث صلى على الطريق أو قصر في الدفع فقال : لو يعلم الحار بين يدي المصل والمصل ما عليهما في ذلك لكان أن يقف أربعين سنة خيراً له من أن يمز بين يديه^(٢) . والأسطوانة والحائط والمصل المفروش حدة للمصل فمن اجتاز به فليفتش أن يدفعه قال صلى الله عليه وسلم : ليدفعه فإن أبى فليدفعه فإن أبى فليقاتله فإنه شيطان^(٣) . وكان أبو سعيد الخدري رضي الله عنه يدفع من يمر بين يديه حتى يصرفه ، فربما تعلق به الرجل فاستمدى عليه عند مروان فيخبره أن النبي صلى الله عليه وسلم أمره بذلك . فإن لم يجد أسطوانة فليصب بين يديه شيئاً طوله قدر ذراع ليكون ذلك علامة لحذره (السابع) أن يطلب الصف الأول فإن فضله كثير كما روينا وفي الحديث : من غسل واغتسل وبكر وابتكر ودنا من الإمام واستمع كان ذلك له كفارة لما بين المجتمعين وزيادة ثلاثة أيام^(٤) . وفي لفظ آخر : غفر الله له إلى الجمعة الأخرى . وقد اشترط في بعضها . ولم يتخط رقاب الناس^(٥) . ولا يغفل في طلب الصف الأول عن ثلاثة أمور ، أولها : أنه إذا كان يرى بقرب الخطيب منكراً يعجز عن تغييره . من لبس حرير من الإمام أو غيره أو صلى في سلاح كثير ثقيل شاغل أو سلاح مذهب أو غير ذلك . مما يجب فيه الإنكار فالتأخر له أسلم وأجمع لهم ، فعل ذلك جماعة من العلماء طلباً للسلامة . قيل لبشر بن الحرث : نراك تبكر وتصل في آخر الصفوف ، فقال : إنما يراد قرب القلوب لأقرب الأجساد . وأشار به إلى أن ذلك أقرب لسلامة قلبه . ونظر سفيان الثوري إلى شعيب بن حرب عند المنبر يسمح إلى الخطبة من أبي جعفر التصور فلما فرغ من الصلاة قال : شغل قلبي قربك من هذا هل أنت أن تسمع كلامي يجب عليك إنكاره فلا تقوم به ؟ ثم ذكر ما أحدثوا من لبس السواد فقال : بأنا عبد الله ليس في الخبر « أدن واستمع »^(٦) . فقال : ويحك ذاك للخلفاء الراشدين المهديين ، فأما هؤلاء فكما يحدث عنهم ولم تنظر إليهم كان أقرب إلى الله عز وجل . وقال سعيد بن عامر : صليت إلى جنب أبي الدرداء فجعل يتأخر في الصفوف حتى كئنا في آخر صف ، فلما صلينا قلنا له : ليس يقال خير الصفوف أولها ؟ قال : نعم إلا أن هذا الأمة مرحومة منظور إليها من بين الأمم^(٧) فإن الله تعالى إذا نظر إلى عبد في الصلاة غفر له ولئن رآه من الناس لمألماً تأخرت وجهه أن يغفر له بواحد منهم ينظر الله إليه . وروى بعض الرواة أنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ذلك ، فمن تأخر على هذه الآية إشاراً وإظهاراً لحسن الخلق فلا بأس ، وعند هذا يقال : الأعمال بالنيات ، ثانيها : إن لم تكن مقصورة عند الخطيب مقتطعة عن المسجد للسلطين فالصف الأول محبوب وإلا فقد كره بعض العلماء دخول المقصورة . كان الحسن وبكر المزني لا يصلان في المقصورة ورأيا أنها قصرت على السلطين وهي بدعة أحدثت بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم في المساجد . والمسجد مطلق لجميع الناس وقد اقتطع ذلك على خلافة وصلى أنس بن مالك

- (١) حديث « لأن يكون الرجل رمداً تفروه الرياح خيراً له من أن يمز بين يدي المصل » أخرجه أبو نعيم في تاريخ أسبهان وابن عبد البر في التمهيد وموفقاً على عبد الله بن عمر وزاد « متصداً » (٢) حديث « لو يعلم الحار بين يدي المصل والمصل ما عليهما في ذلك » الحديث . رواه هكذا أبو العباس محمد بن يعقوب السراج في مسنده من حديث زيد بن خالد بأسناد صحيح (٣) حديث أبي سعيد « فليدفعه فإن أبى فليقاتله فإنه شيطان » متفق عليه (٤) حديث « من غسل واغتسل وبكر وابتكر ودنا من الإمام واستمع .. الحديث » أخرجه الحاكم من حديث أوس بن أوس وأما عند أصحاب السنن (٥) حديث « أنه اشترط في بعضها ولم يتخط رقاب الناس » أخرجه أبو داود وابن حبان والحاكم من حديث أبي سعيد بن مريم وقال صحيح على شرط مسلم (٦) حديث « أدن واستمع » أخرجه أبو داود من حديث سمره . اضطروا الله فزادوا من الإمام « وتقدم بلفظه من هجر ودنا واستمع » وهو عند أصحاب السنن من حديث عباد (٧) حديث أبي الدرداء « أن هذه الأمة مرحومة منظور إليها من بين الأمم وإن الله إذا نظر إلى عبد في الصلاة غفر له ولئن رآه من الناس لم أجده »

وعمران بن حصين في المقصورة ولم يكرها ذلك لطلب القرب . ولعل الكراهية تختص بحالة التخصيص والمنع فأما مجرد المقصورة إذا لم يكن منع فلا يرى جديراً ومثلاً : أن أبا عبد الله يقطع بعض الصفوف وإنما الصف الأول الواحد المتصل الذي في فناء المنبر وما على طرفه منقطع . وكان الثوري يقول : الصف الأول هو الخارج بين يدي المنبر وهو متجه لانه متصل ولأن الجالس فيه يقابل الخطيب ويسمع منه . ولا يبعد أن يقال الأقرب إلى القبلة هو الصف الأول ولا يراعى هذا المعنى . وتكره الصلاة في الأسواق والرحاب الخارجة عن المسجد وكان بعض الصحابة يضرب الناس ويقيمهم من الرحاب (الثامن) أن يقطع الصلاة عند خروج الإمام ويقطع الكلام أيضاً بل يشتغل بجواب المؤذن ثم باستماع الخطبة . وقد جرت عادة بعض العوام بالسجود عند قيام المؤذنين ولم يثبت له أصل في أثر ولا خبر ، ولكنه إن وافق سجود ثلاثة فلا بأس بها للدعاء لانه وقت فاضل : ولا يحكم بتحريم هذا السجود فإنه لا حسب التحريم ، وقد روى عن علي وعثمان رضي الله عنهما أنهما قالوا : من استمع وأصغت فله أجران ومن لم يستمع وأصغت فله أجر . ومن سمع ولما فعله وزران ومن لم يستمع ولما فعله وزر واحد . وقال صلى الله عليه وسلم : « من قال لصاحبه والإمام خطب أنصت أو مه فقد لنا ومن لنا والإمام خطب فلا جمعة له ^(١) » ، وهذا يدل على أن الإسكات ينبغي أن يكون بإشارة أو رضى حصة لا بالنطق . وفي حديث أبي ذر « أنه لما سأل أبا رزائيل رضي الله عنه عليه وسلم خطب فقال : متى أزلت هذه السورة ؟ فأومأ إليه أن أسكت : فلما نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له أبي : اذهب فلا جمعة لك ، فشكاه أبو ذر إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : صدق أبي ^(٢) » ، وإن كان بعيداً من الإمام فلا ينبغي أن يتكلم في العلم وغيره بل يسكت لأن كل ذلك يتسلل ويفضي إلى هينة حتى ينتهي إلى المستمعين . ولا يجلس في حلقة من يتكلم فن يخرج عن الاستماع بالبعد فليصت فهو المستحب . وإذا كان تكره الصلاة في وقت خطبة الإمام فالكلام أولى بالكراهية . وقال علي كرم الله وجهه : تكره الصلاة في أربع ساعات : بعد الفجر وبعد العصر ونصف النهار والصلاة والإمام خطب (التاسع) أن يراعى في قنوة الجمعة ما ذكرناه في غيرها : فإذا سمع قراءة الإمام لم يقرأ سوى الفاتحة . فإذا فرغ من الجمعة قرأ الحمد لله سبع مرات قبل أن يتكلم هو الله أحد والمعوذتين ، سبعاً سبعاً وروى بعض السلف أن من فعله عصم من الجمعة إلى الجمعة وكان حرزاً له من الشيطان ويستحب أن يقول بعد الجمعة اللهم يا غني يا حميد يا معبد يا رحيم يا ودود أغني بحلالك عن حرامك وفضلك عن سواك . يقال من داوم على هذا الدعاء أضاء الله سبحانه عن خلقه ورزقه من حيث لا يحتسب ، ثم يصلي بعد الجمعة ست ركعات ، فقد روى ابن عمر رضي الله عنهما أنه صلى الله عليه وسلم كان يصلي بعد الجمعة ركعتين ^(٣) ، وروى أبو هريرة أربعة ^(٤) ، وروى علي وعبد الله بن عباس رضي الله عنهما ستاً ^(٥) ، والكل صحيح في أحوال مختلفة ، والأكمل أفضل

(١) حديث « من قال لصاحبه والإمام خطب أنصت فقد لنا ومن لنا لا جمعة له » أخرجه الترمذي والنسائي عن أبي هريرة روى الترمذي قوله « ومن لنا فلا جمعة له » قال الترمذي حديث حسن صحيح وهو في الصحيحين بلفظ « إذا قلت لصاحبك » أخرجه أبو داود من حديث ثعلب « من فعله فقد لنا ومن لنا فلا جمعة له » (٢) حديث أبي ذر « لما سأل أبا رزائيل رضي الله عنه عليه وسلم خطب فقال : متى أزلت هذه السورة .. الحديث » أخرجه البيهقي وقال في المرفوعة إسناد صحيح أخرجه أبو داود وابن ماجه من حديث أبي بن كعب بسند صحيح أذا نال الله أبو الفرداء وأبو ذر ولأحد من حديث أبي الفرداء أنه سأل أبا رزائيل عن حديث جابر أن السائل عبد الله بن مسعود ولا يمل من حديث جابر قال « قال سعد بن أبي وقاص لرجل : لا جمعة لك فقال له النبي صلى الله عليه وسلم لم يسمع فقال لأنه كان يتكلم وأنت تخطب فقال صدق سعد » (٣) حديث ابن عمر في الركعتين بعد الجمعة متفق عليه (٤) حديث أبي هريرة في الأربع ركعات بعد الجمعة أخرجه مسلم « لذا صل أحدكم الجمعة فليصل بعدها أربعة » (٥) حديث علي وعبد الله في صلاة ست ركعات بعد الجمعة أخرجه البيهقي سرفوعاً من حديث علي بن مسعود وأبو داود من حديث ابن عمر : كان إذا كان يحسب صلى بعد الجمعة ستاً

(المأثر) أن يلزم المسجد حتى يصل العصر فإن أقام إلى المغرب فهو الأفضل . يقال من صلى العصر في الجامع كان له ثواب الحج ومن صلى المغرب فله ثواب حجة وعمره فإن لم يأمن التصع ودخول الآفة عليه من نظر الحلق إلى احتكافه أوعاف الخوض فيها لا يبنى فالأفضل أن يرجع إلى بيته فأكرا الله عز وجل مفسكرا في آياته شاكر الله تعالى على توفيقه خائفا من قصيره مراقبا لقلبه ولسانه إلى غروب الشمس حتى لا يغترة الساعة الشريفة . ولا يبنى أن يتكلم في الجامع وغيره من المساجد بحديث الدنيا قال صلى الله عليه وسلم : يأتي كل الناس زمان يكون حديثهم في مساجدهم أمرا دنياهم ليس لله تعالى فيهم حاجة فلا تهاجسوا ^(١) .

بيان الآداب والسنن الخارجة عن الترتيب السابق الذي يعم جميع النهار وهي سبعة أمور (الأول) أن يحضر مجالس العلم بكرة أو بعد العصر ولا يحضر مجالس القصاص فلا خير في كلامهم . ولا يبنى أن يغفل المرید في جميع يوم الجمعة عن الخيرات والدعوات حتى توافيه الساعة الشريفة وهو في خير ولا يبنى أن يحضر الحلق قبل الصلاة . وروى عبد الله بن عمر رضي الله عنهما : أن النبي صلى الله عليه وسلم نهى عن التحلق يوم الجمعة قبل الصلاة ^(٢) ، إلا أن يكون طالما بالله يذكر أيام الله ويوقفه في دين الله يتكلم في الجامع بالنداء فيجلس إليه فيكون جامعا بين البكور وبين الاستيعاب . واستماع العلم النافع في الآخرة أفضل من اشتغاله بالثوفا قد روى أبو ذر ، إن حضور مجلس علم أفضل من صلاة ألف ركعة ^(٣) ، قال أنس بن مالك في قوله تعالى ﴿ فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله ﴾ أما إنه ليس بطلب دنيا لكن عيادة مريض وشهود جنازة وتعلم علم وزيارة أخ في الله عز وجل . وقد سمى الله عز وجل العلم فضلا في مواضع قال تعالى ﴿ ولعلكم تاتقون ﴾ ولعلكم تاتقون وكان فضل الله عليكم عظيما ﴿ وقال تعالى ﴿ ولقد آتينا داود منا فضلا ﴾ يعني العلم فتعلم العلم في هذا اليوم وتقليبه من أفضل القربات . والصلاة أفضل من مجالس القصاص إذ كانوا يرونه بدعة ويمرجون القصاص من الجامع : بكر ابن عمر رضي الله عنهما إلى مجلسه في المسجد الجامع فإذا قاص في موضعه فقال : قم من مجلسي ا فقال : لا أقوم وقد جلست وسبقتك إلي ، فأرسل ابن عمر إلى صاحب الشرطة فأقامه . فلو كان ذلك من السنة لمجازات إقامته فقد قال صلى الله عليه وسلم : لا يمين أحكم أعياه من مجلسه ثم يجلس فيه ولكن تفصحوا وتوسعوا ^(٤) ، وكان ابن عمر إذا قام الرجل له من مجلسه لم يجلس فيه حتى يعود إليه . وروى أن قاصا كان يجلس بفناء حجرة عائشة رضي الله عنها فأرسلت إلى ابن عمر : إن هذا قد آذاني بقصصه وشغلتني عن سبحي ، فضربه ابن عمر حتى كسر عصاه على ظهره ثم طرده (الثاني) أن يكون حسن المراقبة للساعة الشريفة ففي الخبر المشهور : إن في الجمعة ساعة لا يراها عبد مسلم يسأل الله عز وجل فيها شيئا إلا أعطاه ^(٥) ، وفي خبر آخر : لا يصادفها عبد يصل ^(٦) ، واختلف فيها فقيل لأنها عند طلوع الشمس وقيل عند الزوال وقيل مع الأذان وقيل إذا صعد الإمام المنبر وأخذ في الخطبة وقيل إذا قام

(١) حديث « يأتي كل أمة زمن يكون حديثهم في مساجدهم أمرا دنياهم ... الحديث » أخرجه البيهقي في الشعب من حديث الحسن ومرسله وأسنده الحاكم من حديث أنس وصححه إسناده وأخرج ابن حبان نحوه من حديث ابن مسعود واه تقدم .

(٢) حديث « عبد الله بن عمر في النهي عن التحلق يوم الجمعة » أخرجه أبو داود والسناني ورواه ابن ماجة من رواية عمرو ابن شبيب عن أبيه عن جده من حديث ابن عمر (٣) حديث أبي ذر « حضور مجلس من أفضل من صلاة ألف ركعة » تقدم في العلم (٤) حديث « لا يمين أحكم أعياه من مجلسه » الحديث متفق عليه من حديث ابن عمر (٥) حديث « لن في الجمعة ساعة لا يوافقها عبد مسلم يسأل الله فيها شيئا إلا أعطاه » أخرجه الترمذي وابن ماجة من حديث عمرو بن عوف المزني (٦) حديث « لا يصادفها عبد يصل » متفق عليه من حديث أبي هريرة

الناس إلى الصلاة وقيل آخر وقت العصر - أضي وقت الاختيار - وقيل قبل غروب الشمس ، وكانت فاطمة رضي الله عنها تراعى ذلك الوقت وتأمّر خادماتها أن تنزل إلى الشمس فتؤذنها بسقوطها فتأخذ في البكاء والاستغفار إلى أن تغرب الشمس ، وتخبر بأن تلك الساعة هي المنتظرة وتؤثره عن أبيها صلى الله عليه وسلم وعليها ^(١) ، وقال بعض العلماء : هي مهمة في جميع اليوم مثل ليلة القدر تتوفر النواحي على مراقبتها . وقيل إنها تنتقل في ساعات يوم الجمعة كنتقل ليلة القدر وهذا هو الأشبه ، وله سر لا يليق بعلم المعاملة ذكره ولكن ينبغي أن يصدق بما قال صلى الله عليه وسلم : إن ربكم في أيام دهركم نفحات ألا فتمضوا لها ^(٢) ، ويوم الجمعة من جملة تلك الأيام فينبغي أن يكون المبد في جميع نهاره متمرنا لها بإحضار القلب وملازمة الذكر والزوج عن وساوس الدنيا فمساء يحظى بشيء من تلك النفحات . وقد قال كعب الأحبار : إنها في آخر ساعة من يوم الجمعة وذلك عند الغروب ، فقال أبو هريرة : وكيف تكون آخر ساعة وقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لا يرافقه أحد يصلي ولات حين صلاة ! فقال كعب : ألم يقل رسول الله صلى الله عليه وسلم من قد ينتظر الصلاة فهو في الصلاة ^(٣) قال : بلى ، قال : فذلك صلاة ؟ فسكت أبو هريرة . وكان كعب مائلا إلى أنها رحمة من الله سبحانه للعالمين بحق هذا اليوم وأوان لإرسالها عند الفراغ من تمام العمل . وبالجملة هذا وقت شريف مع وقت صعود الإمام المنيّر فليكثر البكاء فيها (الثالث) يستحب أن يكثر الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذا اليوم فقد قال صلى الله عليه وسلم : من صلى على في يوم الجمعة ثمانين مرة غفر الله له ذنوب ثمانين سنة قيل يا رسول الله كيف الصلاة عليك ؟ قال تقول اللهم صل على محمد عبدك ونيبك ورسولك النبي الأمي ، وأقمه واحدة ، وإن قلت اللهم صل على محمد وعلى آل محمد صلاة تكون لك رضا وخفة أداء وأعطه الوسيلة وابته المقام المحمود الذي وعدته واجزه عنا ما هو أهله واجزه أفضل ما جازيت نبيا عن أمته وصل عليه وصلى جميع إخوانه من التبيين والصالحين بأرسم الراحين ^(٤) ، تقول هذا سبع مرات فقد قيل من قالها في سبع جمع في كل جمعة سبع مرات وجبت له شفاعته صلى الله عليه وسلم . وإن أراد أن يزيد أتى بالصلاة المأثورة فقال : اللهم اجعل فضائل صلواتك ونواحي بركاتك وشرائف زكواتك ورافقتك ورحمتك ونجيتك على محمد سيد المرسلين وإمام المتقين وعامم التبيين ورسول رب العالمين قائد الخير وفاتح البر ونبي الرحمة وسيد الأمة اللهم أبته مقاما محمودا ترلف به قربه وتقو به عينه ينطبه به الآثرون والآخرون اللهم أعطه الفضل والفضيلة والشرف والوسيلة والدرجة الرفيعة والمنزلة الشائعة المنيفة اللهم أعط محمدا سؤله وبلغه مأموله واجعله أول شافعه وأول مشفع اللهم عظم برهانه وتقل مبراته وأبلغ حاجته وارفع في أعلى المقربين درجته اللهم احشRNA في زمرة واجعلنا من أهل شفاعته وأحيانا على سنته وتوفنا على ملته

- (١) حديث فاطمة : في ساعة الجمعة أخرجه البخاري في الدليل والبيهقي في الشعب وعله الاختلاف (٢) حديث : إن ربكم في أيام دهركم نفحات . . الحديث ، أخرجه الحاكم في التواتر والطبراني في الأوسط من حديث محمد بن مسلمة وابن عبد البر في التمهيد نحوه من حديث أبي هريرة في كتاب التبرج من حديث أبي هريرة واختلف في استاده (٣) حديث : اختلاف كعب وأبي هريرة في ساعة الجمعة وقول أبي هريرة سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لا يرافقه أحد يصلي ولات حين صلاة فقال كعب ألم يقل عليه الصلاة والسلام من قد ينتظر الصلاة فهو في صلاة ، قلت في الإحياء أن كعبا هو الذي كان أخر ساعة وليس كذلك وإنما هو عبد الله بن سلام . وأما كعب فلأنها قال لها في كل سنة مرة ثم رجع والمحدث رواه أبو داود والترمذي والنسائي وابن حبان من حديث أبي هريرة وابن ماجه ونحوه من حديث عبد الله بن سلام (٤) حديث : من صلى على في يوم الجمعة ثمانين مرة . . الحديث ، أخرجه البخاري في رواية ابن المسيب قال أغضبه من أبي هريرة وقال حديث غريب ، وقال ابن النماك حديث حسن

وأوردنا حوضه واسقنا بكأسه غير خزايا ولا تآدين ولا شاكين ولا مبدلين ولا فاقين ولا مفتونين آمين يارب العالمين ^(١) ، وعلى الجملة فشكل ما أتى به من أنفاط الصلاة ولو بالمسجورة في التشهد كان مصليا . وينبغي أن يضيف إليه الاستغفار فإن ذلك أيضا مستحب في هذا اليوم (الرابع) قراءة القرآن فليكثر منه وليقرأ سورة الكهف خاصة . فقد روى عن ابن عباس وأبي هريرة رضى الله عنهما : أن من قرأ سورة الكهف ليلة الجمعة أو يوم الجمعة أعطى نورا من حيث يقرؤها إلى مكة وغفر له إلى يوم الجمعة الأخرى وفضل ثلاثة أيام وصلى عليه سبعون ألف ملك حتى يصبح وعرفى من الماء والديلة وذات الحنب والبرص والجذام وفتنة الدجال ^(٢) ، ويستحب أن ينعلم القرآن في يوم الجمعة وليليتها إن قدر ، وليكن ختمه للقرآن في ركعتي الفجر إن قرأ بالليل أو في ركعتي المغرب أو بين الأذان والإقامة للجمعة فله فضل عظيم . وكان العابدون يستحبون أن يقرأوا يوم الجمعة قل هو الله أحد ألف مرة . ويقال إن من قرأها في عشر ركعات أو عشرين فهو أفضل من ختمه وكانوا يصلون على النبي صلى الله عليه وسلم ألف مرة وكانوا يقولون : سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ، ألف مرة وإن قرأ المسلمات الست في يوم الجمعة أو ليلتها لحسن . وليس يروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يقرأ سورا بأعقابها إلا في يوم الجمعة وليلتها كان يقرأ في صلاة المغرب ليلة الجمعة ، قل يا أيها الكافرون . وقل هو الله أحد ، وكان يقرأ في صلاة العشاء الآخرة ليلة الجمعة : سورة الجمعة والمنافقين ^(٣) وروى أنه صلى الله عليه وسلم كان يقرؤها في ركعتي الجمعة . وكان يقرأ في الصبح يوم الجمعة : سورة براءة لقمان وسورة هل أتى على الإنسان ^(٤) (الخامس) الصلوات يستحب إذا دخل الجامع أن لا يجلس حتى يصل أربع ركعات يقرأ فيهن قل هو الله أحد ، مائة مرة في كل ركعة خمسين مرة ^(٥) فقد نقل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : أن من فعله لم يمت حتى يرى مقعده من الجنة أو يرى له ، ولا يدع ركعتي التمتع وإن كان الإمام يخطب ولكن يخفف . أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك ^(٦) وفي حديث غريب : أنه صلى الله عليه وسلم سكت للدخول حتى صلاهما ^(٧) ، فقال الكوفيون : إن سكت له الإمام صلاهما . ويستحب في هذا اليوم أو في ليلته أن يصل أربع ركعات بأربع سور : الأنعام والكهف وطه ويس . فإن لم يحسن قرأ يس وسورة براءة لقمان وسورة الدخان وسورة الملك . ولا بدع قراءة هذه الأربع سور في ليلة الجمعة فيها فضل كبير . ومن لا يحسن القرآن قرأ ما يحسن فهو له بمنزلة الحتمية . ويكثر من قراءة سورة الإخلاص . ويستحب أن يصل صلاة التسليم - كما سيأتي في باب التطوعات كيفيتها - لأنه صلى الله عليه وسلم قال لعنه العباس : صلاها في كل جمعة ^(٨) وكان ابن عباس رضى الله عنهما لا بدع هذه الصلاة يوم الجمعة بعد الزوال

(١) حديث « اللهم اجعل فاذلك ملوئك .. الحديث » أخرجه ابن أبي عمير في كتاب الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم من حديث ابن مسعود نحوه بسند ضعيف وقوله على ابن مسعود (٢) حديث ابن عباس وأبي هريرة ومن قرأ سورة الكهف ليلة الجمعة أو يوم الجمعة .. الحديث » لم أحد . من حديثهما (٣) حديث « القراءة في المغرب ليلة الجمعة قل يا أيها الكافرون وقل هو الله أحد » وفي حديثها الجمعة والمنافقين » أخرجه ابن حبان والبيهقي من حديث سمرة وحدث ابن حبان المخطوط عن سماك مرسل قلت لا يصح مستندا ولا مرسل (٤) حديث « القراءة في الجمعة بالجمعة والمنافقين » وفي صحيح الجمعة بالسجدة وهل أتى » أخرجه مسلم من حديث ابن عباس وأبي هريرة (٥) حديث « من دخل يوم الجمعة المسجد فصل أربع ركعات قرأ فيها قل هو الله أحد مائة مرة .. الحديث » أخرجه المصلي في الزوال من ذلك من حديث ابن عمر وقال غريب جدا

(٦) حديث « الأمر بالتخفيف إذا دخل والإمام يخطب » أخرجه مسلم من حديث جابر والبخاري « الأمر بالركعتين » ولم يذكر التخفيف (٧) حديث « سكت رسول الله صلى الله عليه وسلم من الخطبة للدخول حتى فرغ من التمتع » أخرجه الحاكم من حديث أنس وقال أسند عبيد بن محمد وروى فيه والصواب عن عثمان بن أبي هريرة (٨) حديث « صلاة التسليم فلو لم يسهلها في كل جمعة » أخرجه أبو داود وابن ماجه وابن خزيمة والحاكم من حديث ابن عباس وقال القليل وفيه ليس فيها حديث صحيح

وكان يجر من جلالة فضائها . والأحسن أن يجعل وقته إلى الزوال الصلاة وبعد صلاة الجمعة إلى العصر لاستباح العلم وبعد العصر إلى المغرب للتسليم والاستغفار . (السادس) الصدقة مستحبة في هذا اليوم خاصة فإنها تتضاعف إلا على من سأل والإمام يخطب وكان يتكلم في كلام الإمام فهذا مكروه . وقال صالح بن محمد : سأل مسكين يوم الجمعة والإمام يخطب - وكان إلى جانب أبي - فأعطى رجل أبن قطعة لبنائه إياها فلم يأخذها منه أبي . وقال ابن مسعود إذا سأل الرجل في المسجد فقد استحق أن لا يعطى وإذا سأل على القرآن فلا تعطوه . ومن العلماء من كره الصدقة على السؤال في الجامع الذين يتخجلون وقاب الناس ؛ إلا أن يسأل قائما أوقاعدا في مكانه من غير تحط . وقال كعب الأحبار : من شرب الجمعة ثم الصرف فتصدق بشيئين مختلفين من الصدقة ثم رجع فركع ركعتين يتم ركوعهما ويهودهما وخشوعهما ثم يقول : اللهم إني أسألك باسمك بسم الله الرحمن الرحيم وباسمك الذي لا إله إلا الله هو الحى القيوم الذى لا تأخذه سنة ولا نوم ، لم يسأل الله تعالى شيئا إلا أعطاه . وقال بعض السلف . من أطعم مسكينا يوم الجمعة ثم غدا وابتكر ولم يؤذ أحدا ثم قال حين يسلم الإمام ، بسم الله الرحمن الرحيم الحى القيوم أسألك أن تغفر لى وترحنى وتغافى من النار ، ثم دعا بما بدله استجيب له (السابع) أن يجعل يوم الجمعة للآخره فيكتب فيه عن جميع أشغال الدنيا ويكثر فيه الأوراد ولا يبتدىئ فيه السفر فقد روى أنه من سافر في ليلة الجمعة دعا عليه ملكاه ^(١) ، وهو بعد طلوع الفجر حرام إلا إذا كانت الرفقة تفوت . وكره بعض السلف شراء الماء في المسجد من السقاء يشربه أو يسبله حتى لا يكون ميثاقا في المسجد فإن البيع والشراء في المسجد مكروه . وقالوا : لا بأس لو أعطى القطعة خارج المسجد ثم شرب أو سبل في المسجد . وبالجملة فينبى أن يري في الجمعة في أوراده وأنواع خيراته فإن الله سبحانه إذا أحب عبدا استعمله في الأوقات الفاضلة بفراصل الأعمال وإذا مقتته استعمله في الأوقات الفاضلة بسى الأعمال ليكون ذلك أوجع في عقابه وأشد لقتله لحرماته بركة الوقت وانتهاك حرمة الوقت . ويستحب في الجمعة دهوات ، وسياق ذكرها في كتاب الدهوات إن شاء الله تعالى . وصلى الله على كل عبد مصطفى .

الباب السادس : في مسائل متفرقة نعم بها البلوى ويحتاج المريد إلى معرفتها

فأما المسائل التي تقع فادرة فقد استقصيناها في كتب الفقه

(مسألة) الفعل القليل وإن كان لا يبطل الصلاة فهو مكروه إلا الحاجة وذلك في دفع النار وقتل المغرب التي تخاف ويمكن قتلها بغربة أو ضربتين فإذا صارت ثلاثا فقد كثرت وبطلت الصلاة ، وكذلك القملة والبرغوث مهما تأذى بها ما كان له دفنها ، وكذلك حاجته إلى الخلق الذى يتوش عليه الخشوع . كان مازا يأخذ القملة والبرغوث في الصلاة . وإن عمر كان يقتل القملة في الصلاة حتى يظهر الدم على يده . وقال النعمى : يأخذها ويوهنها ولا شيء عليه إن قتلها . وقال ابن المسيب : يأخذها ويغترها ثم يطرحها . وقال مجاهد : الأحب إلى أن يدعها إلا أن تؤذيه فتشغله عن صلاته فيوهنها قد رما لا تؤذى ثم يلقيها . وهذه رخصة وإلا فالكمال الاحتراز عن الفعل وإن قل . ولذلك كان بعضهم لا يطرد الذباب وقال : لا أعوذ نفسى ذلك فأفسد على صلاتي . وقد سمعت أن الساقى بين يدى

(١) حديث « من سافر يوم الجمعة دعا عليه ملكاه » أخرجه المنذرى في الأفراد من حديث ابن عمر ورواه ابن أبي شيبة وغيره والمحيط لى الرواة من مالك من حديث أبي هريرة بسند ضعيف

الملوك يصبرون على أذى كبير ولا يتحركون . ومهما تآلب فلا بأس أن يضع يده على فيه وهو الأول . وإن عطس أحداهم عز وجل في نفسه ولا يحرك لسانه . وإن نجساً فليغسل يده إلى السماء وإن سقط رداءه فلا يغسل . أن يسقيه وكذلك أطراف عمامته فكل ذلك مكروه إلا لضرورة .

(مسألة) الصلاة في الثمانين جائزة وإن كان نزع الثمانين سهلاً ، وليست الرخصة في الخف لمر التزج بل هذه التيسارة معفو عنها . وفي معناها المداس « صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم في ثمانين ، ثم نزع الثمانين ثمانين ثمانين فقال : لم خلتكم نالكم ؟ قالوا : وأينك خلعت نخلتكم فقال صلى الله عليه وسلم : إن جبرائيل عليه السلام أتاني فأخبرني أنهما خبتا فإذا أراد أحدكم المسجد فليقلب ثمانين ولينظر فيها فإن رأى خبتاً فابسجه بالأرض وليصل فيها^(١) ، وقال بعضهم : الصلاة في الثمانين أفضل لأنه صلى الله عليه وسلم قال « لم خلتكم نالكم ؟ » وهذه مخالفة لأنه صلى الله عليه وسلم سلم ثمانين ليعين لهم سبب خلعه إذ علم أنهم تخلوا على موافقته . وقد روى عبد الله بن السائب « أن النبي صلى الله عليه وسلم خلع ثمانين^(٢) ، فإذا قد فعل كليهما فنخلع فلا يغسل أن يضمهما من يمينه ويساره فيضيق الموضع ويقطع الصف بل يضمهما بين يديه ولا يتركهما وراءه فيكون قلبه ملتفتاً إليهما . ولعل من رأى الصلاة فيهما أفضل راض بهذا المعنى وهو الثفات القلب إليهما . روى أبو هريرة رضي الله عنه . أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إذا صلى أحدكم فليجعل ثمانين بين رجليه^(٣) » وقال أبو هريرة لغيره : اجعلها بين رجليك ولا تؤذ بها مسلماً . ووضعها رسول الله صلى الله عليه وسلم على يساره وكان إماماً^(٤) فلا إمام أن يفعل ذلك إذ لا يقف أحد على يساره . والأولى أن لا يضمهما بين قدميه فتشغلانه ولكن قدام قدميه ، ولعله المراد بالحديث . وقد قال جبير بن مطعم . وضع الرجل ثمانين بين قدميه بدعة .

(مسألة) إذا برق في صلاته لم يطل صلاته لأنه فعل قليل . وما لا يحصل به صوت لا يعد كلاماً وليس على شكل حروف الكلام إلا أنه مكروه فينبغي أن يحتزم منه إلا إذا أذن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه إذ روى بعض الصحابة « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى في القبة غمامة فغضب غضباً شديداً ثم حكها بمرجون كان في يده وقال : اتنوفى بصير ، فطلع أثرها برصفران ثم التفت إلينا وقال : أيكم يحب أن يبرق في وجهه ؟ قلنا : لا أحد ، قال : فإن أحدكم إذا دخل في الصلاة فإن الله عز وجل بينه وبين القبلة^(٥) » وفي لفظ آخر « وأجهه الله تعالى فلا يبرق أحدكم لتقاء وجهه ولا عن يمينه ولكن عن شماله أو تحت قدمه اليسرى فإن برقه بادرة فليصق في ثوبه وليقل به مكلداً وذلك بعضه ببعض »

(مسألة) لو قوف المقتدى : سنة وفرض ؛ أما السنة : فإن يقف الواحد من بين الإمام متأخراً عنه قليلاً ، والمرأة الواحدة تقف خلف الإمام ؛ فإن وقفت بجانب الإمام لم يضر ذلك ولكن خالفت السنة . فإن كان معها رجل

الباب السادس

- (١) حديث « صلى في ثمانين ثم نزع الثمانين ثمانين .. الحديث » أخرجه أحد الواقف لابن منبه وأبو داود والحاكم وصححه من حديث أبي سعيد (٢) حديث عبد الله بن السائب في « خلع النبي صلى الله عليه وسلم ثمانين » أخرجه مسلم
- (٣) حديث أبي هريرة « إذا صلى أحدكم فليجعل ثمانين بين رجليه » أخرجه أبو داود بسند صحيح وضعه المنذرى وليس بمجيد
- (٤) حديث « وضع ثمانين على يمينه » أخرجه مسلم من حديث عبد الله بن السائب
- (٥) حديث « رأى في القبة غمامة فغضب .. الحديث » أخرجه مسلم من حديث جابر وأما عليه مختصراً من حديث أنس ومائقة وأبي سعيد وأبي هريرة وابن عمر .

وقف الرجل من بين الإمام وهي خلف الرجل . ولا يقف أحد خلف الصف منفردا بل يدخل في الصف أو يجز إلى نفسه واحدا من الصف . فإن وقف منفردا صحته مع الكراهية . وأما الفرض . فأصل الصف وهو أن يكون بين المنتدئ والإمام رابطة جامعة فإنهما في جماعة فإن كانا في مسجد كفي ذلك جامعا لأنه يني له فلا يحتاج إلى اتصال صف بل أن يعرف أفعال الإمام ، صلى أبو هريرة رضى الله عنه على ظهر المسجد بصلاة الإمام . وإذا كان المأموم على فناء المسجد في طريق أو صحراء مشتركة وليس بينهما اختلاف بناء فمفروق فيكفي القرب بقدر غلوة سهم وكفى بها رابطة إذ يصل فعل أحدهما إلى الآخر . وإنما يشترط إذا وقف في محن دار على بين المسجد أو يساره وبابها لاطؤه في المسجد فالشرط أن يمتد صف المسجد في دلهيزها من غير انقطاع إلى الصحن . ثم تصح صلاة من في ذلك الصف ومن خلفه دون من تقدم عليه وهكذا حكم الأئمة المختلفة فأما البناء الواحد والمرصة الواحدة فكالصحراء .

(مسألة) للسبوق إذا أدرك آخر صلاة الإمام فهو أول صلاته فليوافق الإمام ولين عليه وليقت في المصبح في آخر صلاة نذره . وإن قمت مع الإمام وإن أدرك مع الإمام بعض القيام فلا يشتغل بالدعاء وليبدأ بالمناجاة وليصفيها . فإن ركع الإمام قبل تمامها وقدر على لحوقه في اعتداله من الركوع فليتم . فإن جاز وافق الإمام وركع وكان لبعض الفاتحة حكم جميعها فنسقط عنه بالسبق . وإن ركع الإمام وهو في السورة فليطعها . وإن أدرك الإمام في السجود أو التشهد كبر الإحرام ثم جلس ولم يكبر بخلاف ما إذا أدرك في الركوع فإنه يكبر ثانيا في الهوى لأن ذلك انتقال محسوب له . والتكثيرات للانتقالات الأصلية في الصلاة لا الموارد بسبب التدة . ولا يكون مدركا للركعة مالم يطمئن زاكما في الركوع والإمام بعد في حد الراكعين . فإن لم يتم طمأنينته إلا بعد مجاوزة الإمام تحذ الراكعين فاتته تلك الركعة .

(مسألة) من فاتته صلاة الظهر إلى وقت العصر فليصل الظهر أو لأتم العصر ، فإن ابتدأ بالمصر أجزأه ولكن ترك الأولى واتسم شبهة الخلاف . فإن وجد إماما فليصل العصر ثم ليصل الظهر بعده فإن الجماعة بالأداء أولى . فإن صلى منفردا في أول الوقت ثم أدرك جماعة صلى في الجماعة ونوى صلاة الوقت والله يحسب أيهما شاء . فإن نوى فاتته أو نطقا جاز . وإن كان قد صلى في الجماعة فأدرك جماعة أخرى فليبن الفاتحة أو النافلة فإعادة المؤداة بالجماعة مرة أخرى لأوجه وإنما احتمل ذلك لدرك فضيلة الجماعة .

(مسألة) من صلى ثم رأى على ثوبه نجاسة فالأحب قضاء الصلاة ولا يلزمه . ولو رأى النجاسة في أثناء الصلاة رى بالثوب وأتم والأحب الاستئفاف . وأصل هذا قصة خلع الثمين حين أخبر جبرائيل عليه السلام رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن عليه نجاسة فإنه صلى الله عليه وسلم لم يستأف الصلاة .

(مسألة) من ترك التشهد الأول أو القنوت أو ترك الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم في التشهد الأول أو فعل فعلا سهواً وكانت تبطل الصلاة بتمده أو شكه فلا يدر أصل ثلاثاً أو أربعاً : أخذ باليقين وسجد بجهدي الدموي قبل السلام . فإن نسي بعد السلام مهما تذكر على القرب . فإن سجد بعد السلام وبعد أن أحدث بطلت صلاته . فإنه لما دخل في السجود كأنه جعل سلامه نسياناً في غير محله فلا يحصل التحلل به وعاد إلى الصلاة فذلك يستأنف السلام بعد السجود . فإن تذكر سجود الدموي بعد خروجه من المسجد أو بعد طول الفصل فقد فات .

(مسألة) الوسوسة في نية الصلاة سبها خيل في العقل أو جهل بالشرع لأن امتثال أمر الله عز وجل مثل

امتثال أمر غيره وتعلّيمه كعظيم غيره في حق القصد . ومن دخل عليه عالم فقام له فقول قال : نويت أن أتصّبب قائما تعظيما لدخول زيد الفاضل لأجل فضله مقبلا عليه برجوى ، كان سفاها في عقله بل كما يراه ، ويعلم فضله تنبعث داعية التعظيم فتعظمه ويكون معظما إلا إذا قام لشغل آخر أو في غفلة : واشترط كون الصلاة ظاهرا أداء فرضا في كونه امتثالا كاشتراط كون القيام مقرونا بالدخول مع الإقبال بالوجه على الداخل وانتفاء باعث آخر سواء . وقصد التعظيم به ليكون تعظيما . فإنه لو قام مدبرا عنه أو صبرا فقام بعد ذلك بمدة لم يكن معظما . ثم هذه الصفات لازمة وأن تكون معلومة وأن تكون مقصودة ثم لا يطول حضورها في النفس في لحظة واحدة وإنما يطول نظم الألفاظ المأله عليها إما تلفظا باللسان وإما نفسكرا بالقلب . فمن لم يفهم نية الصلاة على هذا الوجه فكأنه لم يفهم النية . فليس فيه إلا أن يترك دعيت إلى أن تصلي في وقت فأجبت وقت فالوسوسة محض الجهل . فإن هذه القصد وهذه العلوم تجتمع في النفس في حالة واحدة ولا يمكن مفصلة الأحاد في الدهن بحيث تعالها النفس وتأملها . وفرق بين حضور الشيء في النفس وبين تفصيله بالفكر . والحضور معناه المزبور والغفلة ، وإن لم يكن مفصلا . فإن من علم الحوادث مثلا فعمله يعلم واحد في حالة واحدة وهذا العلم يتضمن علوما هي حاضرة وإن لم تكن مفصلة فإن من علم الحوادث فقد علم الموجود والمعدوم والتقدم والتأخر والزمان ، وأن التقدم للعدم وأن التأخر للوجود ، فهذه العلوم منطوية تحت العلم بالحوادث ، بدليل أن العالم بالحوادث إذا لم يعلم غيره لو قيل له هل طبت التقدم فقط أو التأخر أو العدم أو تقدم العدم أو تأخر الوجود أو الزمان المنضم إلى المتقدم والمتأخر ؟ فقال ما عرفته قط . كان كاذبا وكان قوله منافضا لقوله : إنّي أعلم الحوادث . ومن الجهل بهذه الدقيقة يشور الوسواس فإن الوسوس يكلف نفسه أن يحضر في قلبه الظهورية والأدائية والفرضية في حالة واحدة مفصلة بألفاظها وهو يطالها وذلك محال . ولو كلف نفسه ذلك في القيام لأجل العالم لتعذر عليه . فهذه المعرفة يتدفع الوسواس وهو أن امتثال أمر الله سبحانه في النية كاستئذان أمر غيره ثم أزيد على سبيل التذليل والترخيص وأقول . لو لم يفهم الوسوس النية إلا بإحضار هذه الأمور مفصلة ولم يمتثل في نفسه الامتثال دفعة واحدة وأحضر جملة ذلك في أثناء التكبير من أوله إلى آخره بحيث لا يفرغ من التكبير إلا وقد حصلت النية كتمام ذلك . ولا نكلفه أن يقرن الجريع بأول التكبير أو آخره فإن ذلك تكليف شغل . ولو كان مأمورا به لوقع للأولين سؤال عنه ولو سوس واحد من الصحابة في النية ، فقدم وقروح ذلك دليل على أن الأمر على التساهل ، فكيفما تيسرت النية للوسوس ينبغي أن يقتنع به حتى يتمود ذلك وتغافره الوسوسة ، ولا يطالب نفسه بتحقيق ذلك فإن التحقيق يزيد في الوسوسة . وقد ذكرنا في الفتاوى وجوها من التحقيق في تحقيق العلوم . والقصد المتعلقة بالنية تفتقر للمساءلة إلى معرفتها أما العامة فربما ضلوا سماعها ويبيح أغلبها الوسواس فلذلك تركناها .

(مسألة) ينبغي أن لا يتقدم المأموم على الإمام في الركوع والسجود والرفع منها ولا في سائر الأعمال ولا ينبغي أن يساويه بل يتبعه ويقتف أثره فهذا معنى الاقتداء ، فإن سواه عدا لم يطل صلاته كالوقوف بجنبه غير متأخر عنه . فإن تقدم عليه ففي بطلان صلاته خلاف ، ولا يبعد أن يقضى بالبطان تشبيها بما لو تقدم في الموقف على الإمام ؛ بل هذا أولى لأن الجماعة اقتداء في الفعل لا في الموقف بالتبعية في الفعل أم . وإنما شرط ترك التقدم في الموقف تسليلا للتابعة في الفعل وتحصيل صورة التبعية إذ الاتق بالمقتدى به أن يتقدم فالتقدم عليه في الفعل لإوجه له إلا أن يكون سهوا . ولذلك شدد رسول الله صلى الله عليه وسلم التكبير فيه فقال : أما ينبغي

الذى يرفع رأسه قبل الإمام أن يحول الله رأسه رأس حمار^(١) ، وأما التأخر عنه بركن واحد فلا يبطل الصلاة ، وذلك بأن يمتدل الإمام عن ركوعه وهو بعد لم يركع ولكن التأخر إلى هذا الحد مكروه فإن وضع الإمام وجهه على الأرض وهو بعد لم ينته إلى حد الراكعين بطلت صلاته . وكذا إن وضع الإمام وجهه للسجود الثانى وهو بعد لم يسجد السجود الأول .

(مسألة) حق على من حضر الصلاة إذا رأى من غيره إساءة في صلاته أن يغيره ويشكر عليه . وإن صدر من جاهل رفع بالجاهل وعله . فمن ذلك الأمر بقسوة الصفوف ومنع المنفرد بالوقوف خارج الصف ، والإنكار على من يرفع رأسه قبل الإمام إلى غير ذلك من الأمور . فقد قال صلى الله عليه وسلم : «ويل للعالم من الجاهل حيث لا يعلم»^(٢) ، وقال ابن مسعود رضى الله عنه : من رأى من يسيء صلاته فلم يغيره فهو شريك في وزرها . وعن بلال بن سعد أنه قال : الخطيئة إذا أنضيت لم تضر إلا صاحبها فإذا أظهرت فلم تغير أضررت بالعامه . وجاء في الحديث : «أن بلالا كان يسيء الصفوف ويضرب عراقيهم بالدره»^(٣) ، وعن عمر رضى الله عنه قال : تفقدوا إخوانكم في الصلاة فإذا فقدتموهم فإن كانوا مرضى فعودهم وإن كانوا أصحاء فماتوهم . والعتاب إنكار على من ترك الجماعة ولا ينبغي أن يتساهل فيه . وقد كان الأولون يبالغون فيه حتى كان بعضهم يحمل الجنائز إلى بعض من تخاف عن الجماعة إشارة إلى أن الميت هو الذى يتأخر عن الجماعة دون الحى . ومن دخل المسجد ينبغي أن يقعد بين الصف ؛ ولذلك تراهم الناس عليه في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى قيل له : تعطلت الميسرة فقال صلى الله عليه وسلم : «من عمر ميسرة للمسجد كان له كفلان من الأجر»^(٤) ، ومهما وجد غلاما في الصف ولم يجد لنفسه مكانا فله أن يخرجوه إلى خلف ويدخل فيه - أعنى إذا لم يكن بالغا - وهذا ما أردنا أن نذكره من المسائل التى نعلم بها البلوى . وسيأتى أحكام الصلوات المتفوتة في كتاب الأوراد إن شاء الله تعالى .

الباب السابع : في التوافل من الصلوات

اعلم أن ما عدا الفرائض من الصلوات ينقسم إلى ثلاثة أقسام : سنن ومستحبات وتطوعات . ونعني بالسنن ما نقل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم المواظبة عليه كالرواتب عقيب الصلوات وصلاة الضحى والوتر والتجديد وغيرها ؛ لأن السنة عبارة عن الطريق المسلوكة . ونعني بالمستحبات ما ورد الخبر بفضلها ولم ينقل المواظبة عليه . كما سنقله في صلوات الأيام والليالي في الأسبوع - وكالصلاة عند الخروج من المنزل والدخول فيه وأمثاله . ونعني بالتطوعات ما ورد عليه مما لم يرد في عينه أثر ولكنه تطوع به العبد من حيث رغب في مناجاة الله عز وجل بالصلاة التى ورد الشرع بفضلها مطلقا ؛ فكانه متبرع به إذا لم يندب إلى تلك الصلاة بعينا وإن تدب إلى الصلاة مطلقا ، والتطوع عبارة عن التبرع . وبميت الأقسام الثلاثة توافل من حيث إن النفل هو الزيادة وجملتها زائد على الفرائض . فلفظ : تنافله والسنة والمستحب والتطوع ؛ أردنا الاصطلاح عليه لتعريف هذه المقاصد . ولأخرج على من يغير هذا الاصطلاح فلا مشاحة في الألفاظ بعد فهم المقاصد . وكل قسم من هذه الأقسام تفاوتت درجاته في

(١) حديث «أما ينبغي الذى يرفع رأسه قبل الإمام» متفق عليه من حديث أبى هريرة .

(٢) حديث «ويل للعالم من الجاهل» الحديث أخرجه صاحب مسند الترمذى من حديث أنس بن مالك ضعيف .

(٣) حديث «أن بلالا كان يسيء الصفوف ويضرب عراقيهم بالدره» لم أجده .

(٤) حديث «قبل له قد تعطلت الميسرة فقال من عمر ميسرة المسجد... الحديث» أخرجه ابن ماجه من حديث عمر بن عبد العزيز .

الفضل بحسب ما ورد فيها من الأخبار والآثار الموثقة لفضلها وبحسب طول مواظبة رسول الله صلى الله عليه وسلم عليها وبحسب صحة الأخبار الواردة فيها واشتهارها ، ولذلك يقال سنن الجماعة أفضل من سنن الأفراد . وأفضل سنن الجماعة : صلاة العيد ثم الكسوف ثم الاستسقاء . وأفضل سنن الأفراد : الرز ثم ركعتا التجر ثم ما بينهما من الرواب على تفاوتها . وأعلم أن التوافل باعتبار الإضافة إلى معلقاتها تنقسم إلى ما يتعلق بأسباب كالكسوف والاستسقاء وإلى ما يتعلق بأوقات ، وللتعلق بالأوقات ينقسم إلى ما يتكرر بتكرار اليوم واليلة أو بتكرار الأسبوع أو بتكرار السنة فالجملة أربعة أقسام .

القسم الأول : ما يتكرر بتكرار الأيام والليالي وهي ثمانية ، خمسة هي رواتب الصلوات الخمس ، وثلاثة ورامها وهي صلاة النضى وإحياء ما بين العشاين والتجهد

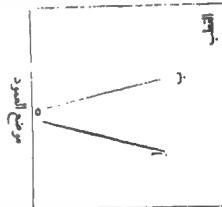
(الأول) رابعة الصبح وهي ركعتان قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ركعتا الفجر خير من الدنيا وما فيها^(١) ، ويدخل وقتها بطول الفجر الصادق وهو المستطير دون المستطيل . وإدراك ذلك بالمشاهدة عسير في أوله إلا أن يتعلم منازل القمر أو يعلم اقتراع طلوعه بالكواكب الظاهرة للبصر . فيستدل بالكواكب عليه . ويعرف بالقمر في ليلتين من الشهر فإن القمر يطلع مع الفجر ليلة ست وعشرين ، ويطلع الصبح مع غروب القمر ليلة اثني عشر من الشهر هذا هو الغالب ، ويتطرق إليه تفاوت في بعض البروج وشرح ذلك بطول . وتعلم منازل القمر من المهمات للريد حتى يطلع به على مقادير الأوقات بالليل وعلى الصبح ، ويغوث وقت ركعتي الفجر بغوث وقت فريضة الصبح وهو طلوع الشمس ، ولكن السنة أداؤها قبل الفرض . فإذ دخل المسجد وقد قامت الصلاة فليشتغل بالمكتوبة فإنه صلى الله عليه وسلم قال : إذا أقيمت الصلاة فلا صلاة إلا المكتوبة^(٢) ، ثم إذا فرغ من المكتوبة قام إليها وصلاتها ، والصحيح أنها أدام ما وقتها قبل طلوع الشمس لأنها تأتيتان للفرض في وقت وإتما الترتيب بينهما سنة في التقدم والتأخير إذا لم يصادف جماعة . فإذا صادف جماعة فليقبل الترتيب وبقية أدام . والمستحب أن يصلحها في المنزل ويخففهما ، ثم يدخل المسجد ويصلي ركعتين تحية المسجد ، ثم يجلس ولا يصل إلى أن يصل المكتوبة . وفيما بين الصبح إلى طلوع الشمس الأحب فيه الذكر والفكر والانتصار على ركعتي الفجر والفريضة (الثانية) رابعة الظهر وهي ست ركعات : ركعتان بعدها وهي أيضاً سنة مؤكدة ، وأربع قبلها وهي أيضاً سنة وإن كانت دون الركعتين الأخيرتين ، روى أبو هريرة رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : من صلى أربع ركعات بعد زوال الشمس يحسن قراءتين وركوعين ومجودهن صلى معه سبعون ألف ملك يستغفرون له حتى الليل^(٣) ، وكان صلى الله عليه وسلم لا يدع أربعاً بعد الزوال يطيلهن ويقول إن أبواب السماء تفتح في هذه الساعة فأحب أن يرفع لي فيها حل^(٤) ، رواه أبو أيوب الأنصاري ومثله ، ودل عليه أيضاً ما روت أم حبيبة زوج النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : من صلى في كل يوم اثنتي عشرة ركعة غير المكتوبة بنى له بيت في الجنة

الباب السابع

- (١) حديث « ركعتا الفجر خير من الدنيا .. الحديث » أخرجه مسلم من حديث عائشة .
- (٢) حديث « لذا أقيمت الصلاة فلا صلاة إلا المكتوبة » أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة .
- (٣) حديث أبي هريرة « من صلى أربع ركعات بعد زوال الشمس يحسن قراءتين .. الحديث » ذكره عبد الملك بن حبيب إلا أن من حديث أبي مسعود ولم أره من حديث أبي هريرة .
- (٤) حديث أبي أيوب « كان لا يدع أربعاً بعد الزوال » الحديث » أخرجه أحمد بسند ضعيف نحوه وهو عند أبي حنيفة وابن ماجه مختصراً وروى الترمذى نحوه من حديث عبد الله بن السائب وقال حين أخرجه (٢٥ - ٢٦) لحياء علوم الدين - (١)

ركعتين قبل الفجر وأربعا قبل الظهر وركعتين بعدها وركعتين قبل العصر وركعتين بعد المغرب ^(١) ، وقال ابن عمر رضي الله عنهما : حفظت من رسول الله صلى الله عليه وسلم في كل يوم عشر ركعات ^(٢) ، فذكر ما ذكرته أم حبيبة رضي الله عنها إلا ركعتي الفجر فإنه قال : لك ساعة لم يكن يدخل فيها على رسول الله صلى الله عليه وسلم ولكن حدثني أختي حفصة رضي الله عنها أنه صلى الله عليه وسلم كان يصلي ركعتين في بينهما ثم يخرج . وقال في حديثه : ركعتين قبل الظهر وركعتين بعد المشاء . فصارت الركعتان قبل الظهر أكد من جملة الأربعة . ويدخل وقت ذلك بالزوال . والزوال يعرف بزيادة ظل الأشخاص المنتصبة مائلة إلى جهة الشرق ، إذ يقع للشخص ظل عند الطلوع في جانب المغرب يستطيل فلا تزال الشمس ترتفع والظل ينقص وينصرف عن جهة المغرب إلى أن تبلغ الشمس منتهى ارتفاعها وهو قوس نصف النهار فيكون ذلك منتهى نقصان الظل . فإذا زالت الشمس عن منتهى الارتفاع أخذ الظل في الزيادة فمن حيث صارت الزيادة مدركة بالحس دخل وقت الظهر . ويعلم قطعاً أن الزوال في علم الله سبحانه وقع قبله ولكن التكليف لا يرتبط إلا بما يدخل تحت الحس . والقدر الباقي من الظل الذي منه يأخذ في الزيادة بطول في الشتاء ويقصر في الصيف ، ومنتى طوله بلوغ الشمس أول الجدى ، ومنتى قصره بلوغها أول السرطان . ويعرف ذلك بالأقدام والموازين . ومن الطرق القريبة من التحقيق لمن أحسن مراعاته أن يلاحظ القطب الشمال بالليل ويضع على الأرض لوحاً مربعاً مستويًا بحيث يكون أحد أضلاعه من جانب القطب ، بحيث لو رسمت سقوط حجر من القطب إلى الأرض ثم توهمت خطاً من مسقط الحجر إلى الضلع الذي يليه من اللوح لقام الخط على الضلع على زاويتين قائمتين أى لا يكون الخط مائلاً إلى أحد الضلعين ، ثم تصب عموداً على اللوح نصباً مستويًا في موضع علامة ه وهو يأزاء القطب فيقع ظله على اللوح في أول النهار مائلاً إلى جهة المغرب في صوب خط ائمه لا يزال يميل إلى أن ينطبق على خط ه ، بحيث لو تم رأسه لانتهى على الاستقامة إلى مسقط الحجر ، ويكون موازياً للضلع الشرقي والغربي غير مائل إلى أحدهما ، فإذا بطل ميله إلى الجانب الغربي فالشمس في منتهى الارتفاع ، فإذا انحرف الظل عن الخط الذي على اللوح إلى جانب الشرق فقد زالت الشمس . وهذا يدرك بالحس تحقيقاً في وقت هو قريب من أول الزوال في علم الله تعالى ، ثم يعلم على رأس الظل عند انحرافه علامة ، فإذا صار الظل من تلك العلامة مثل العمود دخل وقت العصر فهذا القدر لا بأس بمعرفته في علم الزوال وهذه صورته :

جانب الشرق



جانب الشرق

(الثالثة) رابعة العصر وهي أربع ركعات قبل

العصر . روى أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : رحم الله عبداً صلى قبل العصر أربعاً ^(٣) ، ففصل ذلك على رجاء الدخول في دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم مستجاب استجاباً مؤكداً فإن دعوته تستجاب لأحالة له . ولم تكن مواظبته على السنة قبل العصر كمواظبته على ركعتين قبل الظهر (الرابعة) رابعة المغرب وهما ركعتان بعد الفريضة لم

(١) حديث أم حبيبة « من صلى في يوم اثنين عشرة ركعة .. الله يثب » أخرجه النسائي والماورقي وصححه إسناده على شرط مسلم ورواه مسلم مختصراً ليس فيه تعيين أوقات الركعات (٢) حديث ابن عمر « حفظت من النبي صلى الله عليه وسلم في كل يوم عشر ركعات .. الحديث » متفق عليه واللفظ البخاري ولم يقل في كل يوم (٣) حديث أبي هريرة « رحم الله عبداً صلى أربعاً قبل العصر » =

تختلف الرواية فيها ، وأما ركعتان قبلها بين أذان المؤذن وإقامة المؤذن على سبيل المبادرة فتعقل عن جماعة من الصحابة كآبي بن كعب وعبيدة بن الصامت وأبي ذر وزيد بن ثابت وغيرهم قال عبادة أو غيره : كان المؤذن إذا أذن لصلاة المغرب ابتدر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم السواري يصلون ركعتين ^(١) وقال بعضهم : كنا نصل الركعتين قبل المغرب حتى يدخل الماخيل فيحسب أنا صليتنا فيأصلهم المغرب ؟ وذلك يدخل في محرم قوله صلى الله عليه وسلم : « بين كل أذانين صلاة لمن شاء » ^(٢) ، وكان أحمد بن حنبل يصلهما فمأبه الناس فتركهما فقبل له في ذلك فقال : لم أر الناس يصلونهما ، فتركتهما وقال : لئن صلاهما الرجل في بيته أو حيث لا يراه الناس لحسن . ويدخل وقت المغرب بغيوبة الشمس عن الأبصار في الأراضي المستوية التي ليست بمحرفة بالجلال فإن كانت محرفة بها في جهة المغرب فيتوقف إلى أن يرى إقبال السواد من جانب المشرق قال صلى الله عليه وسلم : « إذا أقبل الليل من ههنا وأدبر النهار من ههنا فقد أفطر الصائم » ^(٣) ، والأصح المبادرة في صلاة المغرب خاصة وإن أخرت وصليت قبل غيوبة الشفق الأحمر وقعت أذاه ولكنه مكروه . وأخر عمر رضى الله عنه صلاة المغرب ليلة حتى طلع نجم فأنتق رقية وأخرها ابن عمر حتى طلع كوكبان فأعق رقتين (الخامسة) رابعة العشاء الأخيرة أربع ركعات بعد الفريضة . قالت عائشة رضى الله عنها : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي بعد العشاء الأخيرة أربع ركعات ثم ينائم ^(٤) ، واختار بعض العلماء من مجموع الأخبار أن يكون عدد الرواتب سبع عشرة كددة المكتوبة : ركعتان قبل الصبح وأربع قبل الظهر وركعتان بعدها وأربع قبل العصر وركعتان بعد المغرب ويلاثن بعد العشاء الأخيرة وهي الوتر ^(٥) ومهما عرفت الأحاديث الواردة في فلا معنى للتقدير فقد قال صلى الله عليه وسلم : « الصلاة خير موضع فمن شاء أكثر ومن شاء أقل » ^(٦) ، فإذا اختير كل مرید من هذه الصلاة بقدر رغبته في الخير فقد ظهر فيها ذكرناه أن بعدها أكد من بعض ، وترك الأكاذم أبعد لاسيما والفرائض تكمل بالنوافل فمن لم يستكثر منها يوشك أن لا تسلم له فريضة من غير جابر (السادسة) الوتر : قال أنس بن مالك : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يوتر بعد العشاء بثلاث ركعات ، يقرأ في الأولى سبح اسم ربك الأعلى وفي الثانية قل يا أيها الكافرون وفي الثالثة قل هو الله أحد » ^(٧) ، وجاء في الخبر : أنه صلى الله عليه وسلم كان يصلي بعد الوتر ركعتين جالسا وفي بعضها متريبا ^(٨) ، وفي بعض الأخبار : « إذا أراد أن يدخل فراشه رخص إليه وصلى فوتر ركعتين قبل أن يرقه يقرأ فيها إذا زلزلت الأرض وسورة التكاثر » ^(٩) ، وفي رواية أخرى : قل يا أيها الكافرون ، وجموز الوتر بفصولا وموصولا ، بتسليمية واحدة

== أخرجه أبو داود والترمذي وابن حبان من حديث ابن عمر وأهله ابن القطان ولم أره من حديث أبي هريرة (١) حديث عبادة أو غيره : « في ابتداء أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم السواري إذا أذن لصلاة المغرب » متفق عليه من حديث أنس لأن حديث عبادة ، وروى عبادة بن أحمد في زيادات المسند : « أن ابن كعب وعبد الرحمن بن عوف كانا يركعان حيز درب الشمس وركعتين قبل المغرب » (٢) حديث « كنا نصل الركعتين قبل المغرب حتى يدخل الماخيل فيحسب أنا صليتنا » أخرجه مسلم من حديث أنس (٣) حديث « بين كل أذانين صلاة لمن شاء » متفق عليه من حديث عبادة بن مفلح (٤) حديث « إذا أقبل الليل من ههنا .. الحديث » متفق عليه من حديث عمر (٥) حديث عائشة « كان يصلي بعد العشاء الأخيرة أربع ركعات ثم ينائم » أخرجه أبو داود (٦) حديث « الوتر ثلاث بعد العشاء » أخرجه أحمد واللفظ للنسائي من حديث عائشة « كان يوتر بثلاث لا يوصل بينهما » (٧) حديث « الصلاة خير موضع » أخرجه أحمد وابن ماجه والبخاري ومعه من حديث أبي ذر (٨) حديث أنس « كان يوتر بعد العشاء بثلاث ركعات يقرأ في الأولى سبح .. الحديث » أخرجه ابن عدى في ترجمة محمد بن أبان ورواه الترمذي وابن ماجه من حديث ابن عباس بسند صحيح (٩) حديث « كان يصلي بعد الوتر ركعتين جالسا » أخرجه مسلم من حديث عائشة (١٠) حديث « إذا أراد أن يدخل فراشه رخص إليه ثم صلى ركعتين .. الحديث » أخرجه البيهقي من حديث أبي أمامة وأبي نحوه وضعفه زليس فيه « رخص إليه » ولا ذكر « الهاكم التكاثر »

وتسليتين : وقد أوتر رسول الله صلى الله عليه وسلم بركعة ^(١) وثلاث ^(٢) وخمس ^(٣) وهكذا بالأوتار ^(٤) إلى إحدى عشرة ركعة ^(٥) والرواية مترددة في ثلاث عشرة ^(٦) وفي حديث شاذ ، سبع عشرة ركعة ^(٧) ، وكانت هذه الركعات - أعني ما سمينا بجهتها - أوتر - صلاة بالليل وهو التهجد والتهجد بالليل سنة مؤكدة - وسيأتي ذكر فضلها في كتاب الأوراد وفي الأفضل خلاف فقيل إن الإبتار بركعة فردة أفضل إذ صح أنه صلى الله عليه وسلم كان يوطئ على الإبتار بركعة فردة وقيل الموصولة لأفضل للخروج عن شبهة الخلاف لأحسب الإمام إذ قد يقتدى به من لا يرى الركعة الفردة صلاة ، فإن صلى موصولا نوى بالجميع الوتر وإن اقتصر على ركعة واحدة بعد ركعتي العشاء أو بعد فرض العشاء نوى الوتر وضع . لأن شرط الوتر أن يكون في نفسه وترا وأن يكون موترا لغيره مما سبق قبله وقد أوتر الفرض ولو أوتر قبل العشاء لم يصح أي لا ينال فضيلة الوتر الذي هو خير له من حر النعم ^(٨) كما ورد به الخبر . وإلا فركعة فردة صحيحة في أي وقت كان وإنما لم يصح قبل العشاء لأنه خرق إجماع الحق في الفعل ولأنه لم يتقدم ما يصير به وترا . فأما إذا أراد أن يوتر بثلاث مفصلة ففي نيته في الركعتين نظر . فإنه إن نوى بهما التهجد أو سنة العشاء لم يكن هو من الوتر . وإن نوى الوتر لم يكن هو في نفسه وترا . وإنما الوتر ما بعده . ولكن الأظهر أن ينوي الوتر كما ينوي في الثلاث الموصولة الوتر . ولكن للوتر معنيان ، أحدهما : أن يكون في نفسه وترا ، والآخر أن ينشأ ليجعل وترا بما بعده فيكون مجموع الثلاثة وترا ، والركعتان من جملة الثلاث إلا أن وترته موقوفة على الركعة الثالثة . وإذا كان هو على عزم أن يوتر بها بثلاثة كان له أن ينوي بهما الوتر . والركعة الثالثة وتر بنفسها وموترة لغيرها . والركعتان لا يوتران غيرهما وليستا وترا بأنفسهما ولكنها موترتان بغيرهما . والوتر ينبغي أن يكون آخر صلاة الليل فيقع بعد التهجد . وسيأتي فضائل الوتر والتهجد وكيفية الترتيب بينهما في كتاب ترتيب الأوراد ^(٩) (السابعة) صلاة الضحى : فالواظبة عليها من عزائم الأعمال وفواضلها ، أما عدد ركعاتها فأكثر ما نقل فيه ثمان ركعات . روت أم هانئ أنها أتت علي بن أبي طالب رضي الله عنها ، أنه صلى الله عليه وسلم صلى الضحى ثمان ركعات أطالهن وحسنهن ^(١٠) ، ولم ينقل هذا القدر غيرها . فأما عائشة رضي الله عنها فلأنها ذكرت أنه صلى الله عليه وسلم كان يصل الضحى أربعاً ويريد ما شاء الله سبحانه ^(١١) ، فلم تحدد الزيادة أي أنه كان يراغب على الأربعة ولا ينقص منها وقد يزيد زيادات . وروى في حديث مفرد أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يصل الضحى ست ركعات ^(١٢) ، وأما وقتها فقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه

(١) حديث « الوتر بركعة » متفق عليه من حديث ابن عمر وهو أسلم من حديث عائشة (٢) حديث « الوتر بثلاث » تقدم (٣) حديث « الوتر خمس » من حديث عائشة . يوتر من ذلك بخمس ولا يجلس في شيء . إلا في آخرها .

(٤) حديث « الوتر سبع » أخرجه مسلم وأبو داود والترمذي . واللفظ له من حديث عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما كبر وضعت أوتر سبع ركعات لا يندد إلا إلى السادسة ثم ينفض ولا يطم فيصل السابعة . حديث « الوتر بسبع » أخرجه مسلم من حديث عائشة وهو في الذي قبله (٥) حديث الوتر إحدى عشرة . أخرجه أبو داود بإسناد صحيح من حديث عائشة وكان يوتر بأربع وثلاث وست وثلاث ، وثمان وثلاث ، وسبع وثلاث . الحديث . وللمحدثين . الحديث « كان يصل بالليل إحدى عشرة ركعة » الحديث (٦) حديث « الوتر بثلاث عشرة » تقدم في الذي قبله . ولترمذي والترمذي . الحديث « كان يصل من الليل ثلاث عشرة ركعة » زاد في رواية « بركعتي الفجر » (٧) حديث « الوتر سبع عشرة » أخرجه ابن المبارك من حديث طائوس مرسلاً . كان يصل سبع عشرة ركعة من الليل . (٨) حديث « الوتر خير من حر النعم » أخرجه أبو داود والترمذي وابن ماجه من حديث خارجة ابن حذافة « أن الله أمرك بصلاة هي خير لك من حر النعم » وضبط البخاري وغيره . (٩) حديث أم هانئ « صل الضحى ثمان ركعات أطالهن وأحسنهن » متفق عليه دون زيادة . أطالهن وأحسنهن . وهي مشككة (١٠) حديث عائشة « كان يصل الضحى أربعاً ويريد ما شاء الله » أخرجه مسلم (١١) حديث « كان يصل الضحى ست ركعات » أخرجه الحاكم في فضل صلاة الضحى من حديث جابر ورواه جهات

صلى الله عليه وسلم كان يصلي الضحى ستاً في وقتين ، إذا أشرقت الشمس وارتفعت قام وصلى ركعتين . وهو أول الورد الثاني من أوراد النهار كما سيأتي . وإذا انبسطت الشمس وكانت في ربع السماء من جانب الشرق صلى أربعاً ^(١) ، فالأول إنما يكون إذا ارتفعت الشمس قيد نصف رمح والثاني إذا مضى من النهار ربه لزيادة صلاة العصر فإن وقته أن يبقى من النهار ربه ، والظهر على منتصف النهار ، ويكون الضحى على منتصف ما بين طلوع الشمس إلى الزوال ، كما أن العصر على منتصف ما بين الزوال إلى الغروب . وهذا أفضل الأوقات . ومن وقت ارتفاع الشمس إلى ما قبل الزوال وقت للضحى على الجملة . (الثامنة) إحياء ما بين العشاءين وهي سنة مؤكدة ومما نقل عنه من فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم بين العشاءين ست ركعات ^(٢) . وهذه الصلاة فضل عظيم . وقيل إنها المراد بقوله عز وجل (تتجاثروا جنوبهم عن المضاجع) وقد روى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال ، من صلى بين المغرب والعشاء فإنه من صلاة الأوابين ^(٣) ، وقال صلى الله عليه وسلم : من عكف نفسه فيما بين المغرب والعشاء في مسجد جماعة لم يتكلم إلا بصلاة أو بقرآن كان حقا على الله أن يبنى له قصرين في الجنة مسيرة كل قصر منها مائة عام ويغرس له بينهما غراساً لو طافه أهل الأرض لرسمهم ^(٤) ، وسيأتي بقية فضائلها في كتاب الأوراد إن شاء الله تعالى .

القسم الثاني ما يشكر بتكرور الأسابيع

وهي صلاة أيام الأسبوع ولياليه لكل يوم ولكل ليلة

أما الأيام فنبدأ فيها بيوم الأحد . يوم الأحد : روى أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : من صلى يوم الأحد أربع ركعات يقرأ في كل ركعة بفاتحة الكتاب وآمن الرسول مرة كتب الله له بعد كل نصراني ونصرانية حسنة وأعطاه الله ثواب بني وكتب له حجة وعمره وكتب له بكل ركعة ألف صلاة وأعطاه الله في الجنة بكل حرف مدينة من مسكه أذفر ^(١) ، وروى عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : وحدوا الله بكثرة الصلاة يوم الأحد فإنه سبحانه واحد لا شريك له . فمن صلى يوم الأحد بعد صلاة الظهر أربع ركعات بعد الفريضة والسنة يقرأ في الأولى فاتحة الكتاب ويتريل السجدة ، وفي الثانية فاتحة الكتاب ويبارك الملك ثم تشهد وسلم ثم قام فصلى ركعتين أخريين يقرأ فيهما فاتحة الكتاب وسورة الجمعة وسأل الله سبحانه حاجته كان حقا على الله أن يقضى حاجته ^(٢) .

يوم الاثنين : روى جابر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : من صلى يوم الاثنين عند ارتفاع النهار ركعتين يقرأ في كل ركعة فاتحة الكتاب مرة وآية الكرسي مرة وقل هو الله أحد والمعوذتين مرة مرة فلوذا سلم

(١) حديث : « كان لدا أشرقت وارتفعت قام وصلى ركعتين وإذا انبسطت الشمس وكانت في ربع النهار من جانب المشرق صلى أربعاً » أخرجه الترمذي والنسائي وابن ماجه من حديث علي كان في الله صلى الله عليه وسلم : « إذا زالت الشمس من مظهرها قيد رمح أو رمحين ككسر صلاة العصر من منبرها صلى ركعتين ثم أمهل حتى إذا ارتفع الضحى صلى أربع ركعات » لفظ النسائي وقال الترمذي حسن . (٢) حديث : « صلى بين العشاءين ست ركعات » أخرجه ابن منده في الضعيف والطبراني في الأوسط والأصغر من حديث حماد ابن ياسر . بنده ضعيف والترمذي وضعفه من حديث أبي هريرة . من صلى بعد المغرب ست ركعات لم يتكلم فيها بيهن بسوء عدل له بعبادة نبي هجرة سنة . (٣) حديث : « من صلى بين المغرب والعشاء ثلثاً من صلاة الأوابين » أخرجه ابن المبارك في البرقي ، بنو أبيان في المنذر مرسل . (٤) حديث : « من عكف نفسه بين المغرب والعشاء في مسجد جماعة » أخرجه أبو داود في الضعيف في كتاب الصلاة . من طريق عبد الملك بن حبيب بإسناد له من حديث عبد الله بن عمر . (٥) حديث : « فمن صلى يوم الأحد أربع ركعات ... الخ » أخرجه أبو موسى المديني . بنده ضعيف . (٦) حديث علي : « وحدوا الله بكثرة الصلاة يوم الأحد » . بنده حديث : ذكره أبو موسى المديني في بيهن . (نقاد)

استغفر الله عشر مرات وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم عشر مرات غفر الله تعالى له ذنوبه كلها^(١) ، وروى أنس ابن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ، من صلى يوم الاثنين ثلثي عشرة ركعة يقرأ في كل ركعة فاتحة الكتاب وآية الكرسي مرة ، فإذا فرغ قرأ قل هو الله أحد ثلثي عشرة واستغفر اثنتي عشرة مرة ينادى به يوم القيامة : أين فلان بن فلان ليقيم فليأخذ ثوابه من الله عز وجل ؟ فأقول ما يدعي من الثواب ألف حلة ويتوجع ويقال له ادخل الجنة فيستقبله مائة ألف ملك مع كل ملك هدية يشيعونه حتى يدور على ألف قصر من نور يتلألا^(٢) .

يوم الثلاثاء : روى يزيد الرقاشي عن أنس بن مالك قال ، قال صلى الله عليه وسلم : من صلى يوم الثلاثاء عشر ركعات عند انقضاء النهار^(٣) ، وفي حديث آخر ، عند ارتفاع النهار يقرأ في كل ركعة فاتحة الكتاب وآية الكرسي مرة وقل هو الله أحد ثلاث مرات لم تكتب عليه خطيئة إلى سبعين يوماً فإن مات إلى سبعين يوماً مات شهيداً وغفر له ذنوب سبعين سنة .

يوم الأربعاء : روى أبو إدريس الخولاني عن معاذ بن جبل رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من صلى يوم الأربعاء ثلثي عشرة ركعة عند ارتفاع النهار يقرأ في كل ركعة فاتحة الكتاب وآية الكرسي مرة وقل هو الله أحد ثلاث مرات والمؤمنين ثلاث مرات نادى مناد عند العرش : يا عبد الله استأف العمل فقد غفرك ما تقدم من ذنبك ورفع الله سبحانه عنك صواب القبر وضيقه وظلمته ورفع عنك شدايد القيامة ، ورفع له من يومه عمل^(٤) .

يوم الخميس : عن عكرمة عن ابن عباس قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من صلى يوم الخميس بين الظهر والعصر ركعتين يقرأ في الأولى فاتحة الكتاب وآية الكرسي مائة مرة وفي الثانية فاتحة الكتاب وقل هو الله أحد مائة مرة ويصل على محمد مائة مرة أصلاه الله ثواب من صام رجب وشعبان ورمضان وكان له من الثواب مثل حاج البيت وكتب له بمد كل من آمن بالله سبحانه وتوكل عليه حسنة^(٥) .

يوم الجمعة ، روى عن علي بن أبي طالب رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ، يوم الجمعة صلاة كله ما من عبد مؤمن قام إذا استقلت الشمس وارتفعت قدر رمح أو أكثر من ذلك فتوضأ ثم أسبغ الوضوء فصل سجدة الضحى ركعتين إيمانا واحتساباً إلا كتب الله له مائتي حسنة ومعاونه مائتي سيئة ومن صلى أربع ركعات رفع الله سبحانه له في الجنة أربع مائة درجة ومن صلى ثمان ركعات رفع الله تعالى له في الجنة ثمان مائة درجة وغفر له ذنوبه كلها ومن صلى ثلثي عشرة ركعة كتب الله له ألفين ومائتي حسنة ومعاونه ألفين ومائتي سيئة ورفع له في الجنة ألفين ومائتي درجة^(٦) ، وعن نافع عن ابن عمر رضى الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ، من دخل الجامع

(١) حديث جابر « من صلى يوم الاثنين عند ارتفاع النهار ركعتين .. الحديث » أخرجه أبو موسى المديني عن حديث جابر عن عمر مرفوعاً وهو حديث مشكوك (٢) حديث أنس « من صلى يوم الاثنين اثنتي عشرة ركعة .. الحديث » ذكره

أبو موسى المديني بنحو سند وهو مشكوك . (٣) حديث يزيد الرقاشي عن أنس « من صلى يوم الثلاثاء عشر ركعات عند انقضاء النهار .. الحديث » أخرجه أبو موسى المديني بسند ضيف ولم يقل « عند انقضاء النهار ولا عند ارتفاعه »

(٤) حديث أبي إدريس الخولاني عن معاذ « من صلى يوم الأربعاء اثنتي عشرة ركعة .. الحديث » أخرجه أبو موسى المديني وقال رواه هات والمحدث مركب . قلت : بل فيه غير مسمى وهو محمد بن حيد الرازي أحد الكذابين

(٥) حديث عكرمة عن ابن عباس « من صلى يوم الخميس بين الظهر والعصر ركعتين .. الحديث » أخرجه أبو موسى المديني بسند ضيف جدا (٦) حديث علي « يوم الجمعة صلاة كله ما من عبد مؤمن قام إذا استقلت الشمس .. الحديث » لم أجده إلا بأسوا وهو أصل

يوم الجمعة فصل أربع ركعات قبل صلاة الجمعة يقرأ في كل ركعة الحمد لله وقل هو الله أحد خمسين مرة لم يمت حتى يرى مقعده من الجنة أو يرى له (١) .

يوم السبت : روى أبو هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : من صلى يوم السبت أربع ركعات يقرأ في كل ركعة فاتحة الكتاب مرة وقل هو الله أحد ثلاث مرات فإذا فرغ قرأ آية الكرسي كتب الله له بكل حرف حبة وعمره ورفع له بكل حرف أجر سنة صيام نهارها وقيام ليالها وأعطاه الله عز وجل بكل حرف ثواب شهيد وكان تحت ظل عرش الله مع النبيين والشهداء (٢) .

وأما الليالي : ليلة الأحد : روى أنس بن مالك في ليلة الأحد أنه صلى الله عليه وسلم قال : من صلى ليلة الأحد عشرين ركعة يقرأ في كل ركعة فاتحة الكتاب وقل هو الله أحد خمسين مرة والمؤمنين مرة مرة واستغفره عز وجل مائة مرة واستغفر نفسه ولوالديه مائة مرة وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم مائة مرة ومبرأ من حوله ورفقه والتجأ إلى الله ثم قال : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن آدم صفة الله وفطرته وإبراهيم خليل الله وعيسى كلم الله وعيسى روح الله ومحمدًا حبيب الله كان له من الثواب بعدد من دعا له ولدا ومن لم يدع له ولدا وبسته الله عز وجل يوم القيامة مع الآمين وكان حقا على الله تعالى أن يدخله الجنة مع النبيين (٣) .

ليلة الاثنين : روى الأعمش عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من صلى ليلة الاثنين أربع ركعات يقرأ في الركعة الأولى الحمد لله وقل هو الله أحد عشر مرات ، وفي الركعة الثانية الحمد لله وقل هو الله أحد عشرين مرة ، وفي الثالثة الحمد لله وقل هو الله أحد ثلاثين مرة ، وفي الرابعة الحمد لله وقل هو الله أحد أربعين مرة ثم يسلم ويقرأ قل هو الله أحد خمسا وسبعين مرة واستغفر الله لنفسه ولوالديه خمسا وسبعين مرة ثم سأل الله حاجته كان حقا على الله أن يعطيه سؤله ما سأل (٤) . وهي صلاة الحاجة .

ليلة الثلاثاء : من صلى ركعتين يقرأ في كل ركعة فاتحة الكتاب وقل هو الله أحد والمؤمنين خمس عشرة مرة ، ويقرأ بعد التسليم خمس عشرة مرة آية الكرسي واستغفره تعالى خمس عشرة مرة كان له ثواب عظيم وأجر جسيم . وروى عن عمر رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : من صلى ليلة الثلاثاء ركعتين يقرأ في كل ركعة فاتحة الكتاب مرة وإنا أنزلناه وقل هو الله أحد سبع مرات أعتق الله رقبة من النار ويكون يوم القيامة قائده ودليله إلى الجنة (٥) .

ليلة الأربعاء : روت فاطمة رضي الله عنها عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : من صلى ليلة الأربعاء ركعتين يقرأ في الأولى فاتحة الكتاب وقل أعوذ برب الفلق عشر مرات ، وفي الثانية بعد الفاتحة قل أعوذ برب الناس عشر مرات

(١) حديث تابع من أن عمر . من دخل الجامع يوم الجمعة فصل أربع ركعات . الحديث . أخرجه البخاري وغيره . وقال لا يصح وعبد الله بن وصيف مجهول والمطبق في الرواة عن مالك وقال غريب جدا ولا أراه له وجه غير هذا . (٢) حديث أبي هريرة . من صلى يوم السبت أربع ركعات . الحديث . أخرجه أبو موسى المديني في كتاب وظائف الليل والأيام بفتح ضيف جدا .

(٣) حديث . من صلى ليلة الأحد عشرين ركعة . الحديث . ذكره أبو موسى المديني بنهر إسناده وهو متكرر وروى أبو موسى من حديث أنس . في فضل الصلاة فيها ست ركعات وأربع ركعات . وكلاهما ضيف جدا .

(٤) حديث . الأعمش عن أنس . من صلى ليلة الاثنين أربع ركعات . الحديث . ذكره أبو موسى المديني هكذا عن الأعمش بغير إسناده من رواية يزيد الرقاشي عن أنس حديثا . في صلاة ست ركعات فيها . وهو متكرر .

(٥) حديث . الصلاة في ليلة الثلاثاء ركعتين . الحديث . ذكره أبو موسى بنهر إسناده حكاية عن بعض المصنفين وأسنده من حديث ابن مسعود وجابر حديثا . في صلاة أربع ركعات فيها . وكلاهما متكرر .

ثم إذا سلم استغفر الله عشر مرات ثم يصلي على محمد صلى الله عليه وسلم عشر مرات نزل من كل سماء سبعون ألف ملك يكتبون ثوابه لكل يوم القيامة (١) ، وفي حديث آخر : ست عشرة ركعة يقرأ بعد الفاتحة مائة ألف مرة ويقرأ في آخر الركعتين آية الكرسي ثلاثين مرة وفي الأولين ثلاثين مرة قل هو الله أحد يدفع عن عشرة من أهل بيته كلهم وجبت عليهم النار ، وروى طائفة ورضي الله عنها أنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من صلى ليلة الأربعاء ست ركعات قرأ في ركعة بعد الفاتحة قل اللهم مالك الملك إلى آخر الآية فإذا فرغ من صلاته يقول يقول جزي الله محمدا عنا ما هو الله غفر له ذنوب سبعين سنة وكتب له برائة من النار (٢) .

ليلة الخميس : قال أبو هريرة رضي الله عنه ، قال النبي صلى الله عليه وسلم : من صلى ليلة الخميس مائة بين المغرب والعشاء ركعتين يقرأ في كل ركعة فاتحة الكتاب وآية الكرسي خمس مرات وقيل هو الله أحد خمس مرات والمؤذنين خمس مرات فإذا فرغ من صلاته استغفر الله تسلياً خمس عشر مرة وجعل ثوابه لو ألبه فقد أدى حق والديه عليه وإن كان طافاً لها وأعطاه الله تعالى ما يعطى الصديقين والشهداء (٣) .

ليلة الجمعة : قال جابر ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من صلى ليلة الجمعة بين المغرب والعشاء اثنتي عشرة ركعة يقرأ في كل ركعة فاتحة الكتاب مرة وقيل هو الله أحد إحدى عشرة مرة فكأنما عبد الله تعالى اثنتي عشرة سنة صيام نهاراً وقيام ليلاً (٤) ، وقال أنس ، قال النبي صلى الله عليه وسلم : من صلى ليلة الجمعة صلاة العشاء الأخيرة في جماعة وصل ركعتي السنة ثم صلى بعدها عشر ركعات قرأ في كل ركعة فاتحة الكتاب وقيل هو الله أحد والمؤذنين مرة مرة ثم أدرك ثلاث ركعات ونام على جنبه الأيمن وجهه إلى القبلة فكأنما أسيا ليلة القدر (٥) . وقال صلى الله عليه وسلم : أكثروا من الصلاة على في الليلة الغزاة واليوم الأزهري ليلة الجمعة ويوم الجمعة (٦) .

ليلة السبت : قال أنس ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من صلى ليلة السبت بين المغرب والعشاء اثنتي عشرة ركعة بنى له قصر في الجنة وكأنما تصدق على كل مؤمن ومؤمنة وتبرأ من اليهود وكان حقا على الله أن ينفق له (٧) .

الفصل الثالث ما يتكبر بتكرار السنين

وهي أربعة : صلاة العيدين والتراويح وصلاة رجب وشعبان (الأولى) صلاة العيدين : وهي سنة مؤكدة وشعار من شعار الدين ويلبغى أن يراعى فيها سبعة أمور : الأول . التكبير ثلاثاً تسلياً فيقول : الله أكبر الله أكبر

- (١) حديث « من صلى ليلة الأربعاء ركعتين . الحديث » لم أجده فيه إلا حديث جابر « في صلاة أربع ركعات فيها » ورواه أبو موسى المديني وروى من حديث أنس « ثلاثين ركعة » (٢) حديث طائفة « من صلى ست ركعات حادى ليلة الأربعاء ... الحديث » أخرجه أبو موسى المديني بسند ضعيف جداً (٣) حديث أبي هريرة « من صلى ليلة الخميس مائة بين المغرب والعشاء ركعتين .. الحديث » أخرجه أبو موسى المديني وأبو منصور الديلمي في مسند الفردوس بسند ضعيف جداً وهو منسك (٤) حديث جابر « من صلى ليلة الجمعة بين المغرب والعشاء اثنتي عشرة ركعة .. الحديث » باطل لا أصل له (٥) حديث أنس « من صلى ليلة الجمعة العشاء الأخيرة في جماعة وصل ركعتي السنة ثم صلى بعدها عشر ركعات .. الحديث » باطل لا أصل له وروى المظفر بن الحسين الأرباعي في كتاب فضائل القرآن وإبراهيم بن الحنفري في كتاب وصول الأركان للبيت من حديث أنس « من صلى ركعتين ليلة الجمعة قرأ فيها فاتحة الكتاب ولذا زلزلت غص عصفرة صرة » وقال إبراهيم بن الحنفري « حين مرة أمته الله من عذاب العبر ومن أحوال يوم القيامة » ورواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من هذا الوجه ومن حديث ابن عباس أيضاً وكلها ضعيفة منكرة وليس يصح في أيام الأسبوع وإياها شيء والله أعلم (٦) حديث « أكثروا على من الصلاة في الليلة الغزاة واليوم الأزهري » أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث أبي هريرة وفيه عيب الضمير يشير ضد ابن معين وابن حبان (٧) حديث أنس « من صلى ليلة السبت بين المغرب والعشاء اثنتي عشرة ركعة .. الحديث » لم أجده له أصلاً

الله أكبر كبيرا والحمد لله كثيرا وسبحان الله بكرة وأصيلا لا إله إلا الله وحده لا شريك له غلصين له الدين ولو كره الكافرون ، يفتتح بالتكبير ليلة الفطر إلى الشروع في صلاة العيد ، وفي العيد الثاني يفتتح التكبير عقيب الصباح يوم عرفة إلى آخر النهار يوم الثالث عشر ، وهذا أكل الأفاويل . وبكبر عقيب الصلوات المفروضة وعقيب التوافل وهو عقيب الترائض أكد : الثاني : إذا أصبح يوم العيد ينقل ويتزين ويتطيب كما ذكرناه في الجمعة والرداء والعامة هو الأفضل للرجال ، وليجنب الصبيان الحرير والمجازر التزين عند الخروج . الثالث : أن يخرج من طريق ويرجع من طريق آخر ^(١) مكننا فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان صلى الله عليه وسلم ، يأمر بإخراج العواتق وذوات الخدور ^(٢) . الرابع : المستحب الخروج إلى الصحراء إلا بمكة وببيت المقدس ، فإن كان يوم مطر فلا بأس بالصلاة في المسجد ، ويجوز في يوم الصحو أن يأمر الإمام رجلا يصلي بالضمغة في المسجد ويخرج بالأقوياء مكبرين . الخامس : يراعى الوقت فوقت صلاة العيد ما بين طلوع الشمس إلى الزوال . ووقت الذبح لضحايا ما بين ارتفاع الشمس بقدر خطبتين وزكمتين إلى آخر اليوم الثالث عشر . ويستحب تعجيل صلاة الأضحية لأجل الذبح وتأخير صلاة الفطر لأجل تفريق صدقة الفطر قبلها . هذه سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(٣) . السادس : في كيفية الصلاة فليخرج الناس مكبرين في الطريق . وإذا بلغ الإمام المصل لم يجلس ولم ينقل ويقطع الناس التفل . ثم ينادى ناد : الصلاة جامعة . ويصلي الإمام بهم زكمتين يكبر في الأولى سوى تكبيرة الإحرام والركوع سبع تكبيرات يقول بين كل تكبيرتين ، سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ، ويقول ، وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض ، عقيب تكبيرة الافتتاح ويؤخر الاستعاذة إلى ما وراء الثامنة ويقرأ سورة ق ، في الأولى بعد الفاتحة واقتربت ، في الثانية . والتكبيرات الزائدة في الثانية خمس سوى تكبيرتي القيام والركوع . وبين كل تكبيرتين ما ذكرناه . ثم يعظ خطبتين بينهما جلسة ومن فاتته صلاة العيد فضاها ، السابع : أن يضحي بكبش ، وهي رسول الله صلى الله عليه وسلم بكبشين أملحين وذبح بيده وقال ، بسم الله والله أكبر هذا عن وعن لم يضح من أمي ^(٤) ، وقال صلى الله عليه وسلم : من رأى هلال ذي الحجة وأراد أن يضحي فلا يأخذ من شعره ولا من أظفاره شيئاً ^(٥) ، قال أبو أيوب الأنصاري : كان الرجل يضحي على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم بالشاة عن أهل بيته وبأكلون ويطعمون ^(٦) . وله أن يأكل من الضحية بعد ثلاثة أيام فما فوق ، وودت فيه الرخصة بعد النهي عنه . وقال سفيان الثوري : يستحب أن يصلي بعد عيد الفطر اثنتي عشرة ركعة وبعد عيد الأضحية ست ركعات ^(٧) ، وقال هو من السنة (الثانية) التراويح : وهي عشرون ركعة

(١) حديث « الخروج في طريق الرجوع في أخرى » أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة

(٢) حديث « كان يأمر بإخراج العواتق وذوات الخدور » متفق عليه من حديث أم عطية

(٣) حديث « تعجيل صلاة الأضحية وتأخير صلاة الفطر » أخرجه النافسي من رواية أبي المورث ، مرسلان النبي صلى الله عليه وسلم كتب إلى عمرو بن حزم وهو بنجرات أن يعجل الأضحية وأخر الفطر

(٤) حديث « ضحى بكبشين أملحين وذبح بيده وقال . بسم الله والله أكبر هذا عن وعن لم يضح من أمي » متفق عليه دون قوله « عن » الخ من حديث أبي هريرة وهذه الزيادة عند أبي داود والترمذي في حديث جابر وقال الترمذي غريب ومتنقل .

(٥) حديث « من رأى هلال ذي الحجة وأراد أن يضحي فلا يأخذ من شعره وأظفاره » أخرجه من حديث أم سلمة .

(٦) حديث أبي أيوب « كان الرجل يضحي على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم بالشاة عن أهله يأكلون ويطعمون » أخرجه الترمذي وابن ماجه ، قال الترمذي حسن صحيح (٧) قال سفيان الثوري : من السنة أن يصلي بعد الفطر اثنتي عشرة ركعة وبعد الأضحية ست ركعات . لم أجده إلا أسما في كونه سنة وفي الحديث الصحيح ما يخالفه وهو أنه صلى الله عليه وسلم لم يصل قبلها ولا بعدها وقد اختلفوا في قول الناجي : من السنة كذا ، وإنما قول أبي التاج كذلك كالثوري فهو مملوع .

وكيفيتها مشهورة وهي سنة مؤكدة وإن كانت دون العيدين واختلفوا في أن الجماعة فيها أفضل أم الانفراد ؟ وقد خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فيها ليلتين أو ثلاثاً ثم لم يخرج وقاله أخاف أن توجب عليكم^(١) . وجمع عمر رضي الله عنه الناس عليها في الجماعة حيث أمن من الوجوب بانقطاع الوحى ؛ فقيل إن الجماعة أفضل لفعل عمر رضي الله عنه ولأن الاجتماع بركة وله فضيلة بدليل الفرائض ولأنه ربما يكسل في الانفراد وينشط عند مشاهدة الجمع . وقيل الانفراد أفضل لأن هذه سنة ليست من الشعائر كالعيدين فالخافها بصلاة الضحى وتحية المسجد أولى ولم تشرع فيها جماعة . وقد جرت العادة بأن يدخل المسجد جمع مما ثم لم يصلوا التحية بالجماعة ولقوله صلى الله عليه وسلم « فضل صلاة التطوع في بيته على صلاته في المسجد كفضل صلاة المكتوبة في المسجد على صلاته في البيت^(٢) » ، وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال « صلاة في مسجدى هذا أفضل من مائة صلاة في غيره من المساجد وصلاة في المسجد الحرام أفضل من ألف صلاة في مسجدى ، وأفضل من ذلك كله رجل يصلى في زاوية بيته ركعتين لا يلهما إلا الله عز وجل^(٣) » ، وهذا لأن الرياء والتصنع ربما يتطرق إليه في الجمع ويأمن منه في الوحدة فهذا ما قيل فيه . والمختار أن الجماعة أفضل كما رآه عمر رضي الله عنه . فإن بعض التوافل قد شرعت فيها الجماعة وهذا جدير بأن يكون من الشبائرات التي تظهر . وأما الالتفات إلى الرياء في الجمع والكسل في الانفراد عدول عن مقصود النظر في فضيلة الجمع من حيث إنه جماعة ، وكان فائده يقول : الصلاة خير من تركها بالكسل والإخلاص خير من الرياء . فلفرض المسألة فيمن يثق بنفسه أنه لا يكسل لو انفراد ولا يرائى لو حضر الجمع فأيهما أفضل له ؟ فيدور النظر بين بركة الجمع وبين مزيد قوة الإخلاص وحضور القلب في الوحدة ، فيجوز أن يكون فيه تفضيل أحدهما على الآخر تردد وبما يستحب القنوت في الوتر في النصف الأخير من رمضان . أما صلاة رجب : فقد روى بإسناد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « ما من أحد يصوم أول خميس من رجب ثم يصلى فيها بين العشاء والعمة المئتي عشرة ركعة يفصل بين كل ركعتين بسليمة يقرأ في كل ركعة بفاتحة الكتاب مئة وإنا أنزلناه في ليلة القدر ثلاث مرات وقول هو الله أحد المئتي عشرة مئة ، فإذا فرغ من صلاته صلى على سبعين مئة يقول : اللهم صل على محمد النبي الأبي وعلى آله ثم يسجد ويقول في سجوده سبعين مئة : سبح قدوس رب الملائكة والروح ، ثم رفع رأسه ويقول سبعين مئة : رب اغفر وارحم وتجاوز عما تعلم إنك أنت الآخر الأكرم ، ثم يسجد سجدة أخرى ويقول فيها مثل ما قال في السجدة الأولى ثم يسأل حاجته في سجوده فإنها تقضى^(٤) » ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا يصلى أحد هذه الصلاة إلا غفر

(١) حديث « خرج يوم رمضان ليلتين أو ثلاثاً ثم لم يخرج وقال أخاف أن يوجب عليكم » متفق عليه من حديث طائفة بلفظ « خفيتم أن يمرض عليكم » (٢) حديث « فضل صلاة التطوع في بيته على صلاته في المسجد كفضل صلاة المكتوبة في المسجد على صلاته في البيت » رواه آدم بن أبي إياس في كتابه القرات من حديث ضمرة بن حبيب مرسل ورواه ابن أبي شبة في المنافع عنه ضمرة بن حبيب عن رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم موقوف . وروى ابن داود بإسناد صحيح من حديث زيد بن ثابت صلاة المرء في بيته أفضل من صلاته في مسجدى هذا لا المكتوبة

(٣) حديث « صلاة في مسجدى هذا أفضل من مائة صلاة في غيره من المساجد الحرام أفضل من ألف صلاة في مسجدى وأفضل من هذا كله رجل يصلى ركعتين في زاوية بيته لا يلهما إلا الله » أخرجه أبو الشيخ في التواب من حديث أنس « صلاة في مسجدى تعدل مائة آلاف صلاة وصلاة في المسجد الحرام تعدل مائة ألف صلاة والصلاة بأرض الرباط تعدل بألف صلاة وأكبر من ذلك كله الركعتان بجليهما اليد في جوف الليل لا يربد بها إلا وجه الله عز وجل » وإسناده ضعيف وذكر أبو الوليد الصغار في كتاب الصلاة تعليلاً من حديث الأوزاعي قال « دخلت على يحيى فأسند لي حديثاً فذكره ، إلا أنه قال الأول « ألف » وفي الثانية « مائة » (٤) حديث « ما من أحد يصوم أول خميس من رجب ... الحديث » في صلاة الرغائب أورده رزين في كتابه وهو حديث موضوع

الله تعالى له جميع ذنوبه ولو كانت مثل زبد البحر وعدد الرمل ووزن الجبال وورق الأشجار وبشفع يوم القيامة في سبعائة من أهل بيته ممن قد استوجب النار ، فهذه صلاة مستجابة ، وإنما أوردناها في هذا القسم لأنها تتكرر بتكرار السنين وإن كانت رتبة التتابع رتبة التراخي وصلاة العيد لأن هذه الصلاة تفعلها الأحاد ، ولكي رأيت أهل القدس بأجمعهم يواطئون عليها ولا يسمحون بتركها فأحببت إيرادها . وأما صلاة شعبان : فبيلة الخامسة عشر منه يصل مائة ركعة كل ركعتين بتسليمه يقرأ في كل ركعة بعد الفاتحة قل هو الله أحد إحدى عشرة مرة ، وإن شاء صلى عشر ركعات يقرأ في كل ركعة بعد الفاتحة مائة مرة قل هو الله أحد ، فهذا أيضا مروى في جملة الصلوات كان السلف يصلون هذه الصلاة ويسمونها صلاة الخير ويحتسمون فيها وربما صلوا جماعة . روى عن الحسن أنه قال : حدثني ثلاثون من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم أن من صلى هذه الصلاة في هذه الليلة نظر الله إليه سبعين نظرة ونفى له بكل نظرة سبعين حاجة أدناها المغفرة^(١)

القسم الرابع من التوافل : ما يتعلق بأسباب عارضة ولا يتعلق بالمواقيت وهي تسعة

صلاة الخسوف والكسوف والاستسقاء ونحية المسجد وركعتي الوضوء وركعتين بين الأذان والإقامة وركعتين عند الخروج من المنزل والدخول فيه . ونظائر ذلك فذكر منها ما يحضرنا الآن (الاول) صلاة الخسوف: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا يخفان لموت أحد ولحياته فإذا رأيت ذلك فافزعوا إلى ذكر الله والصلاة^(٢) ، قال ذلك لما مات ولده إبراهيم صلى الله عليه وسلم وكسفت الشمس فقال الناس : إنما كسفت لموته . والنظر في كفيئتها وقتها ، أما الكيفية : فإذا كسفت الشمس في وقت الصلاة فيه مكروهة أو غير مكروهة نودي « الصلاة جامعة » ، وصل الإمام بالناس في المسجد ركعتين وركع في كل ركعة ركوعين وألهمها أطول من أواخرها . ولا يهرق في الأولى من قيام الركعة الأولى الفاتحة والبقرة ؛ وفي الثانية الفاتحة وآل عمران ، وفي الثالثة الفاتحة وسورة النساء ، وفي الرابعة الفاتحة وسورة المائدة ، أو مقدار ذلك من القرآن من حيث أراد ، ولو اقتصر على الفاتحة في كل قيام أجزاء ولو اقتصر على سور قصار فلا بأس . ومقصود التطويل دوام الصلاة إلى الإجملاء . ويسبح في الركوع الأول قدر مائة آية ، وفي الثاني قدر مئتين ، وفي الثالث قدر سبعين ، وفي الرابع قدر خمسين . وليكن السجود على قدر الركوع في كل ركعة . ثم يخطب خطبتين بعد الصلاة بينهما جلسة ويأمر الناس بالصدقة والعتق والتوبة . وكذلك يفعل بخسوف القمر إلا أنه يهرق فيها لأهل البلية . فأما وقتها فعند ابتداء الكسوف إلى تمام الإجملاء ويخرج وقتها بأن تغرب الشمس كاسفة . ونفوت صلاة خسوف القمر بأن يطلع قرص الشمس إذ يطل سلطان الليل ولا تنفوت بغروب القمر خلافاً لأن الليل كله سلطان القمر ، فإن انجلى في أثناء الصلاة أتمها عطفة . ومن أدرك الركوع الثاني مع الإمام فقد فاتته تلك الركعة لأن الأصل هو الركوع الأول (الثانية) صلاة الاستسقاء : فإذا غارت الأنهار وانقطعت الأمطار أو إنهارت قناة فيستحب للإمام أن يأمر الناس أولاً بصيام ثلاثة أيام وما أطافوا من الصدقة والخروج من الظلم والتوبة من المعاصي ، ثم يخرج بهم في اليوم الرابع وبالمعائر والصياني مستظفين في ثياب بدلة واستكانة متواضعين - بخلاف العيد - وقيل يستحب

(١) حديث « صلاة ليلة نصف شعبان » حديث باطل رواه ابن ماجه من حديث علي « لذا كانت ليلة النصف من شعبان تقوموا ليها وسوموا نهارها » وأسناده ضيف (٢) حديث « لن الشمس والقمر آيتان من آيات الله .. الحديث » أخرجه من حديث المنيرة بن شعبة

إخراج الدواب لمشاركها في الحاجة ولقوله صلى الله عليه وسلم : لولا عصيان وضع وشايخ ركع وبهائم رنع لصب عليكم العذاب صبا^(١) . ولو خرج أهل الدمة أيضا متميزين لم يمنوا فإذا اجتمعوا في المصل الواصل من الصحراء نودى : الصلاة جامعة ، فصلى بهم الإمام وكتبتين مثل صلاة العيد - بغير تكبير - ثم يخطف خطبتين وبينهما جلسة خفيفة ، وليكن الاستغفار معظم الخطبتين ، وينبغي في وسط الخطبة الثانية ، أن يستدير الناس ويستقبل القبلة ويحول رداءه في هذه الساعة تفاؤلا بتحويل الحال^(٢) . هكذا فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم فيجعل أعلامه أسفله وما على العينين على الشمال وما على الشمال على اليمين . وكذلك يفعل الناس ويدعون في هذه الساعة سرا ، ثم يستقبلهم فيختم الخطبة ويدعون أردبتهم بحزلة كما هي حتى ينزعوها حتى نزعوا الشياطين . ويقول في الدعاء : اللهم إنك أمرتنا بدعائك ووعدتنا إجابتك فقد دعوتنا كما أمرتنا فأجبنا كما وعدتنا اللهم فامن علينا بمغفرة ما قارنا وإجابتك في سقايانا وسعة أرزاقنا . ولا بأس بالدعاء أدبار الصلوات في الأيام الثلاثة قبل الخروج ولهذا الدعاء آداب ومشروط باطعة من التوبة ورد المظالم وغيرها ، وسياق ذلك في كتاب الدعوات (الثالثة) صلاة الجنائز : وكيفية مشهورة وأجمع دعاء مأثور ما روى في الصحيح عن عوف بن مالك قال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم صلى على جنازة لم تحفظ من دعائه : اللهم اغفر له وارحمه وعافه واعف عنه وأكرم نزله ووسع مدخله واغسله بالماء والثلج والبرد ونقه من الخطايا كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس وأبدله داراً خيراً من داره وأهلاً خيراً من أهله وزوجاً خيراً من زوجة وأدخله الجنة وأعذه من عذاب القبر ومن عذاب النار^(٣) . حتى قال عوف : تمخيت أن أكون أنا ذلك الميت . ومن أدرك التكبير الثانية فينبغي أن يراعى ترتيب الصلاة في نفسه ويكبر مع تكبيرات الإمام فإذا سلم الإمام قضى تكبيره الذي فات كتمل المسبوق ، وإنه لو بادر التكبيرات لم يبق للقدوة في هذه الصلاة معنى ، فالتكبيرات هي الأركان الظاهرة ، وجدير بأن تقام مقام الركعات في سائر الصلوات ، هذا هو الأوجه عندي وإن كان غيره محتملاً . والأخبار الواردة في فضل صلاة الجنائز وتشجيعها مشهورة فلا نطيل طويلاً ، وكيف لا يعظم فضلاً وهي من فرائض الكفايات ؟ وإنما تصير نفلاً في حق من لم يتعين عليه بحضور غيره ، ثم ينال بها فضل فرض الكفاية وإن لم يتعين لأنهم يجعلهم قاموا بما هو فرض الكفاية وأسقطوا الحرج عن غيرهم ، فلا يكون ذلك كفضل لا يسقط به فرض عن أحد ، ويستحب طلب كثرة الجمع تبركاً بكثرة المهم والأدعية واشتغاله على ذي دعوة مستجابة لما روى كريب عن ابن عباس : أنه مات له ابن فقال : يا كريب أنظر ما اجتمع له من الناس قال : غرجت فإذا ناس قد اجتمعوا له فأخبرته فقال : تقول هم أربعون قلت : نعم ، قال : أخرجه فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ما من رجل مسلم يموت فيقوم على جنازته أربعون رجلاً لا يشركون بالله شيئاً إلا شفعم الله عز وجل فيه^(٤) . وإذا شيع الجنائز فوصل القابر أو دخلها ابتداء قال : السلام عليكم أهل هذه الديار من المؤمنين والمسلمين ويرحم الله المستقدمين منا والمتأخرين وإنا إن شاء الله بكم لأحقن . والأولى أن لا ينصرف حتى يدفن الميت فإذا سؤى حل الميت قبره قام عليه وقال : اللهم عبدك ودائك إليك فأرأف به وارحمه اللهم جاف الأرض عن جنبيه واقشع أبواب السماء لروحته وتقبله منك بقول حسن اللهم

(١) حديث لولا عصيان وضع وشايخ رنع .. الحديث » أخرجه البيهقي وضعفه من حديث أبي هريرة (٢) حديث استند الناس واحتال القبلة وتحول الرداء في الاستسقاء » أخرجه من حديث عبد الله بن زيد المازني (٣) حديث عوف بن مالك في الصلاة على الجنائز : اللهم اغفر له وله وارحمه وعافه واعف عنه .. الحديث » أخرجه مسلم دون الدعاء للمصل (٤) حديث ابن عباس : ما من رجل مسلم يموت فيقوم على جنازته أربعون ... الحديث » أخرجه مسلم

إن كان محسناً فضاغف له في إحسانه وإن كان سيئاً فتجاوز عنه (الرابعة) تحية المسجد : ركعتان فصاعدتان مؤكدة حتى أنها لا تسقط وإن كان الإمام يخطب يوم الجمعة مع تؤكد وجوب الإصغاء إلى الخطيب . وإن اشتغل بفرض أو قضاء تأدى به التحية وحصل الفضل إذ المقصود أن لا ينقطع ابتداء دخوله عن العبادة الخاصة بالمسجد فيما بحق المسجد . ولهذا بكرة أن يدخل المسجد على غير وضوء فإن دخل لمبور أو جلوس فليقل « سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر » ، يقولها أربع مرات يقال إنها عدل ركعتين في الفضل . وذهب الشافعي رحمه الله أنه لا تكره التحية في أوقات الكراهية : وهي بعد العصر وبعد الصبح ووقت الزوال ووقت الطلوع والغروب ، لما روى أنه صلى الله عليه وسلم صلى ركعتين بعد العصر فقبل له أما نحننا عن هذا ؟ قال : هما ركعتان كنت أصليهما بعد الظهر فشغلني عنهما الوفد ^(١) ، فأعاد هذا الحديث فأدبني إحداهما ؛ أن الكراهية مقصورة على صلاة لأسباب لها ومن أضعف الأسباب قضاء التوافل إذ اختلف العلماء في أن التوافل هل تقضى وإذا فعل مثل ما فاته هل يكون قضاء ؟ وإذا انتفت الكراهية بأضعف الأسباب فأجربى أن تنتفى بدخول المسجد وهو سبب قوي . ولذلك لا تكره صلاة الجنائز إذ حضرت ولا صلاة الحسوف والاستسقاء في هذه الأوقات لأن لها أسباباً . الفائدة الثانية : قضاء التوافل إذا قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك ولنا فيه أسوة حسنة . وقالت عائشة رضي الله عنها : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا غلبه نوم أو مرض فلم يقم تلك الليلة صلى من أول النهار اثنتي عشرة ركعة ^(٢) ، وقد قال العلماء : من كان في الصلاة ففاته جواب المؤذن فلما سلم قضى وأجاب وإن كان المؤذن سكت ، ولا معنى الآن لقول من يقول : إن ذلك مثل الأول وليس يقضى ، إذ لو كان كذلك لما صلاها رسول الله صلى الله عليه وسلم في وقت الكراهة . نعم من كان له ورد ففاته عن ذلك عذر فيلغى أن لا يخصص نفسه في تركه بل يشاكره في وقت آخر حتى لا تعيل نفسه إلى الدعة والرفاهية . وتشاركه حسن على سبيل مجاهدة النفس ولأنه صلى الله عليه وسلم قال : أحب الأعمال إلى الله تعالى أدومها وإن قل ^(٣) ، فيقصد به أن لا يفتر في دوام عمله وروث عائشة رضي الله عنها من النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : من عبد الله عز وجل بعبادة ثم تركها لماله مقته الله عز وجل ^(٤) ، فليحذر أن يدخل تحت الوعيد . وتحقيق هذا الخبر . أنه مقته الله تعالى بتركها ملة فلا المقت والإبعاد لما سلطت الملائة عليه (الخامسة) ركعتان بعد الوضوء مستحبتان لأن الوضوء قرينة ومقصودها الصلاة والأحداث عارضة قرباً يطرأ الحدث قبل صلاة فيلغى الوضوء ويضعف السعي فالمبادرة إلى ركعتين استيفاء لمقصود الوضوء قبل القوات . وعرف ذلك بحديث بلال إذ قال صلى الله عليه وسلم : دخلت الجنة فראيت بلالاً فيها فقلت لبلال : بم سبقتني إلى الجنة ؟ فقال بلال لا أعرف شيئاً إلا أني لا أحدث وضوءاً إلا أصلي عليه ركعتين ^(٥) ، (السادسة) ركعتان عند دخول المنزل وعند الخروج منه : روى أبو هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إذا خرجت من منزلك فصل ركعتين بيمينتك خرج السوء وإذا دخلت إلى منزلك فصل ركعتين

(١) حديث « صلى ركعتين بعد العصر قبل له أما نحننا عن هذا فقال هما ركعتان كنت أصليهما بعد الظهر ... الحديث » أخرجه من حديث أم سلمة وسلم من حديث عائشة « كان يصلي ركعتين قبل العصر ثم أتته شغل عنها .. الحديث »
 (٢) حديث عائشة « كان إذا غلبه نوم أو مرض فلم يقم تلك الليلة .. الحديث » أخرجه مسلم (٣) حديث « أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل » أخرجه من حديث عائشة (٤) حديث عائشة « من عبد الله عبادة ثم تركها لماله مقته الله » ورواه ابن السني في روضة المتقين موقوفاً على عائشة (٥) حديث « دخلت الجنة فראيت بلالاً فيها فقلت لبلال : بم سبقتني إلى الجنة . الحديث » أخرجه من حديث أبي هريرة

يتمناك مدخل السوء^(١)، وفي معنى هذا كل أمر يبدأ به بما له وقع، ولذلك ورد ركعتان عند الإحرام^(٢) وركعتان عند ابتداء السفر^(٣) وركعتان عند الرجوع من السفر^(٤) في المسجد قبل دخول البيت فكل ذلك مأثور من فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم. وكان بعض الصالحين إذا أكل أكلة صلى ركعتين وإذا شرب شربة صلى ركعتين، وكذلك في كل أمر يحسنه. وبداية الأمور يفيض أن يتبرك فيها بذكر الله عز وجل وهي على ثلاث مراتب: بعضها يتكرر مراراً كالآلال والشرب فيبدأ فيه باسم الله عز وجل وقال صلى الله عليه وسلم: كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه بسم الله الرحمن الرحيم فهو أتم^(٥)، الثانية: ما لا يكثر تكرره وله وقع كمقدد النكاح وابتداء النصيحة والمشورة فالمستحب فيها أن يصدر بحمد الله فيقول المزوج: الحمد لله والصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم وجئتك ابني، ويقول القابل: الحمد لله والصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم قبلت النكاح، وكانت عادة الصحابة رضي الله عنهم في ابتداء أداء الرسالة والنصيحة والمشورة تقديم التحميد. الثالثة: ما لا يتكرر كثيراً وإذا وقع دام وكان له وقع كالسفر وشراء دار جديدة والاحرام وما يجري مجراه فيستحب تقديم ركعتين عليه وأداء الخروج من المنزل والدخول إليه فإنه نوع سفر قريب (السابعة) صلوات الاستخارة: فمنهم بأمر وكان لا يدرى عاقبته ولا يعرف أن الخير في تركه أو في الإقدام عليه فقد أمره رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن يصلي ركعتين يقرأ في الأولى فاتحة الكتاب وقل يا أيها الكافرون، وفي الثانية الفاتحة وقل هو الله أحد، فإذا فرغ دعا وقال اللهم إني استخيرك بعلمك وأستقدر بقدرتك وأسألك من فضلك العظيم فإنك تقدر ولا أقدر وتعلم ولا أعلم وأنت علام الغيوب اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر خير لي في ديني ودنياي وعاقبة أمري وعاجله وآجله فاقدره لي وبارك لي فيه ثم يسره لي وإن كنت تعلم أن هذا الأمر شر لي في ديني ودنياي وعاقبة أمري وعاجله وآجله فاصرفني عنه واصرفه عني واقدر لي الخير أينما كان إنك على كل شيء قدير^(٦)، ورواه جابر بن عبد الله قال: «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلمنا الاستخارة في الأمور كلها كما يعلمنا السورة من القرآن»، وقال صلى الله عليه وسلم: «إذا هم أحدكم بأمر فليصل ركعتين ثم ليستم الأمر ويدعو بما ذكرناه»، وقال بعض الحكماء من أعطى أربعاً لم يمنع أربعاً، من أعطى الفكرة لم يمنع المزيد ومن أعطى التوبة لم يمنع التوبل ومن أعطى الاستخارة لم يمنع الخيرة ومن أعطى المشورة لم يمنع الصواب (الثامنة) صلاة الحاجة^(٧)، فمن ضاق عليه الأمر ومسته حاجة في صلاح دينه ودنياه إلى أمر تمذره عليه فليصل هذه الصلاة فقد روى عن وهيب بن الورد أنه قال: إن من الدعاء الذي لا يراد أن يصلي العبد تلقى عشرة ركعة يقرأ في كل ركعة

- (١) حديث أبي هريرة: «إذا خرجت من منزلك فصل ركعتين يتمناك بخروجك السوء، وإذا دخلت منزلك... الحديث» أخرجه البيهقي في الشعب من رواية يسكر بن عمرو بن صفوان بن سليم، قال بكر: حديثه عن أبي سلمة عن أبي هريرة ذكره: «وروى الحارثي في مكارم الأخلاق وابن عدى في السكائل من حديث أبي هريرة» لذا دخل أحدكم بيتك فلا يجلس حتى يركع ركعتين فإن الله يجعل له من ركبته خيراً» قال ابن عدى: وهو بهذا الإسناد منكروان البخاري لأصله^(٢)، «حديث» ركعتي الإحرام» أخرجه البخاري من حديث ابن عمر. (٣) حديث: «صلاة ركعتين عند ابتداء السفر» أخرجه الحارثي في مكارم الأخلاق من حديث أنس «ما استخلف في أهل من خليفة أحب إليه من أربع ركعات يصلهن البدي» «إذا شد عليه ثياب سفره... الحديث» وهو ضعيف (٤) حديث: «الركعتين عند القدوم من السفر» أخرجه من حديث كعب بن مالك (٥) حديث: «كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه بسم الله فهو أتم» أخرجه أبو داود والنسائي وابن ماجه وابن حبان في صحيحه من حديث أبي هريرة (٦) حديث: «صلاة الاستخارة» أخرجه البخاري من حديث جابر قال أحمد حديث منكرو (٧) حديث ابن مسعود: «في صلاة الحاجة اثني عشرة ركعة» أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس بإسنادين ضعيفين جداً فهما عمرسون بن هارون البيهقي كسذه في من حين وفيه على أخرى وقد وردت «صلاة الحاجة ركعتين» ورواه الترمذي وابن ماجه من حديث عبيد الله بن أبي أوفى وقال الترمذي حديث هريب وفي إسناده مقال

بأم الكتاب وآية الكرسي وقل هو الله أحد فإذا فرغ خز ساجدا ثم قال : سبحان الذي ليس المر وقال به سبحان الذي تعطف بالحمد وتكرم به سبحان الذي أحصى كل شيء بعلمه سبحان الذي لا يفيض التسبيح إلا له سبحان ذي المن والفضل سبحان ذي المرو والكرام سبحان ذي الطول أسألك بمناقد العزم وعرشك ومنتهى الرحمة من كتابك ويا ربك الأعظم وحذك الأعلى وكلما لك التامات العمامات التي لا يحاومهن ير ولا فاجر أن تصلي على محمد وعلى آل محمد ، ثم يسأل حاجته التي لا معصية فيها فيجاب إن شاء الله عز وجل . قال وهيب : بلغنا أنه كان يقال : لا تعلموها لسفهاكم فيتمانون بها على معصية الله عز وجل (التاسعة) صلاة التسبيح : وهذه الصلاة مأثورة على وجهها ولا تختص بوقت ولا بسبب ويستحب أن لا يتجاوز الأسبوع عنها مرة واحدة أو الشهر مرة . فقد روى عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما ، أنه صلى الله عليه وسلم قال للعباس بن عبد المطلب : ألا أعطيك ألا أمهلك ألا أجوك بشيء إذا أنت فعلته غفر الله لك ذلك أوله وآخره قديمه وحديثه خطؤه وعمدته سره وعلايته تصلي أربع ركعات تقرأ في كل ركعة فاتحة الكتاب وسورة ، فإذا فرغت من القراءة في أول ركعة وأنت قائم تقول : سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر . خمس عشرة مرة ثم تركع فتقولها وأنت راكع عشر مرات ، ثم ترفع من الركوع فتقولها قائما عشرا ، ثم تسجد فتقولها عشرا ، ثم ترفع من السجود فتقولها جالسا عشرا ، ثم تسجد فتقولها وأنت ساجد عشرا ، ثم ترفع من السجود فتقولها عشرا ، فذلك خمس وسبعون في كل ركعة تفعل ذلك في أربع ركعات إن استطعت أن تصلها في كل يوم مرة فافعل فإن لم تفعل ففي كل جمعة مرة فإن لم تفعل ففي كل شهر مرة فإن لم تفعل ففي السنة مرة ^(١) ، وفي رواية أخرى ، أنه يقول في أول الصلاة سبحانك اللهم وبحمدك وتبارك اسمك وتعالى جدك وقد قسدت أسمائك ولا إله غيرك ، ثم يسبح خمس عشرة تسبيحة قبل القراءة وحشرا بعد القراءة والباقي كما سبق عشرا عشرا ولا يسبح بعد السجود الأخير قاصدا ، وهذا هو الأحسن وهو اختيار ابن المبارك . والمجموع من الروايتين ثلثمائة تسبيحة فإن صلاها نهارا فبشليمية واحدة وإن صلاها ليلا فبشليميتين أحسن ؛ إذ ورد . أن صلاة الليل مثنى مثنى ^(٢) ، وإن زاد بعد التسبيح قوله ، لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، فهو حسن فقد ورد ذلك في بعض الروايات فهذه الصلوات المأثورة . ولا يستحب شيء من هذه التوافل في الأوقات المكروهة إلا تحية المسجد ، وما أوردها بعد التحية من ركعتي الرضوء وصلاة السفر والخروج من المنزل والاستسقاء فلا لأن الله تعالى مؤيد وهذه الأسباب ضعيفة فلا تبلغ درجة الحسوف والاستسقاء والتحية . وقد رأيت بعض المتصوفة يصل في الأوقات المكروهة ركعتي الرضوء وهو في غاية البعد لأن الرضوء لا يكون سببا للصلاة بل الصلاة سبب الرضوء . فينبغي أن يتوضأ ليصل لأنه يصل لأنه توضأ . وكل محدث يريد أن يصل في وقت الكراهية فلا سبيل له إلا أن يتوضأ ويصل فلا يبقى الكراهية معنى . ولا يباين أن ينوي ركعتي الرضوء كما ينوي ركعتي التحية بل إذا توضأ صلى ركعتين لتطوعا كيلا يشتمل وضوءه كما كان يفعله بلال فهو قطع محض يقع عقيب الرضوء . وحديث بلال لم يدل على أن الرضوء سبب الحسوف والتحية حتى ينوي ركعتي الرضوء فيستعمل أن ينوي بالصلاة الرضوء بل يفيض أن ينوي بالوضوء الصلاة . وكيف ينظم أن يقول في وضوءه أو وضأ لصلاقي وفي صلاته يقول أصلي لوضوئي ، بل من أراد أن يحرس وضوءه عن التعطيل في وقت الكراهية فليتوضأ إن كان يجوز أن يكون في ذمته صلاة تطوع إليها خلل لسبب من الأسباب فإن قضاء الصلوات في أوقات الكراهية غير مكروه ، فأمانة التطوع فلا وجه لها . ففي النهي في أوقات الكراهية مهات ثلاثة

أحدهما التوق من مضاهاة عبدة الشمس ، والثاني : الاحتراز من انتشار الشياطين إذ قال صلى الله عليه وسلم ، إن الشمس لتطلع ومعهما قرن الشيطان فإذا طلعت فارقتها فإن استوت فارقتها فإذا زالت فارقتها فإذا قضيت للغروب فارقتها فإذا غربت فارقتها . ونهى عن الصلوات في هذه الأوقات ونهى به على الملة ، والثالث : أن سالكى طريق الآخرة لا يزالون يواظبون على الصلوات في جميع الأوقات . والمواظبة على تحطواحد من العبادات يورث الملل . ومهما منع منها ساعة زاد النشاط وانبعث الدواعى ، والإنسان حريص على ما منع منه ففي تعطيل هذه الأوقات زيادة تمريض وبعث على انتظار انقضاء الوقت ، فخصص هذه الأوقات بالتيسير والاستغفار حذرا من الملل بالمداومة وتفرجا بالانتقال من نوع عبادة إلى نوع آخر . ففي الاستطراف والاستجداء لذة ونشاط وفي الاستمرار على شيء واحد استتقال وملال . ولذلك لم تكن الصلاة سجودا مجردا ولا ركوعا مجردا ولا قياما مجردا بل رعت العبادات من أمحال مختلفة وأذكار متباعدة ، فإن القلب يدرك من كل عمل منها لذة جديدة عند الانتقال إليها ولو واطب على الشيء الواحد لتسارع إليه الملل . فإذا كانت هذه أمور مهمة في النهي عن ارتكابات أوقات الكراهة إلى غير ذلك من أسرار أخر ليس في قوة البشر الاطلاع عليها والله ورسوله أعلم بها . فهذه المهمات لا تترك إلا بأسباب مهمة في الشرع مثل قضاء الصلوات وصلاة الاستسقاء والخسوف وتحيية المسجد . فأما ما صنف عنها فلا ينبغي أن يصادم به مقصود النهي . هذا هو الأوجه عندنا والله أعلم .

كل كتاب : أسرار الصلاة من كتاب إحياء علوم الدين . يتلوه إن شاء الله كتاب أسرار الزكاة بحمد الله وهو نه وحسن توقيفه . والحمد لله وحده وصلاته على خير خلقه محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا .

كتاب أسرار الزكاة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى أسعد وأشقى وأمات وأحيا وأخمل وأبكى وأوجد وأفنى وأقفر وأغنى وأفقر وأقرى وأغنى الذى خلق الحيوان من نطفة نمتى ، ثم تفرد عن الخلق بوصف الغنى ، ثم خصص بعض عبادته بالحنى فأفاض عليهم من لعمة ما ليس به من شاء واستغنى وأخرج إليه من أخفق في رزقه وأكدى إظهارا للامتحان والابتلا . ثم جعل الزكاة للدين أساسا ومبنى وبين أن بفضله تركى من عبادته من تركى ومن غناه تركى ماله من تركى والصلاة على محمد المصطفى سيد الورى وشمس الهدى وعلى آله وأصحابه المخصوصين بالعلم والتقى .

أما بعد : فإن الله تعالى جعل الزكاة إحدى مبادئ الإسلام وأردف بذكرها الصلاة التى هى أعلى الأعلام فقال تعالى (وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة) وقال صلى الله عليه وسلم : « بنى الإسلام على خمس : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة »^(١) وشدد الوعيد على المقصرين فيها فقال (والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فيشرمهم بعذاب أليم) ومضى الإنفاق في سبيل الله لإخراج حق الزكاة قال

(١) حديث « إن الشمس تطلع ومعهما قرن الشيطان فإذا طلعت فارقتها ... الحديث » أخرجه النسائي من حديث عبد الله الصائغى وهو مرسل وماله هو الذى يقوله عبد الله الصائغى وروى فيه والصواب عبد الرحمن ولم ير الله صلى الله عليه وسلم

الأحنف بن قيس : كنت في نفر من قرشي فزأ أبو ذر فقال بشر الكاذبين بك في ظهورهم يخرج من جنوبهم وبكى في أفتانهم يخرج من جباههم . وفي رواية أنه يوضع على حلة ندى أحدم فيخرج من فئض كفيه ويوضع على فئض كتيه حتى يخرج من حلة ثديه يتلوه . وقال أبو ذر : انتهيت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو جالس في ظل الكعبة فلما رأيته قال : هم الآخرون ورب الكعبة فقلت ومن هم : قال : الآخرون أموالا إلا من قال هكذا وهكذا من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله وقليل مأم ، مامن صاحب إيل ولا يقر ولا غنم لا يؤدى زكاتها إلا جاءت يوم القيامة أعظم ما كانت وأسمنه تنطلمه بقرونها وتظوه بأظلافها كلها فغدت أخرها عادت عليه أولاها حتى يقضى بين الناس^(١) ، وإذا كان هذا التشديد مخزجا في الصالحين فقد صار من مهمات الدين الكشف عن أسرار الزكاة وشروطها الجلية والخفية وممانها الظاهرة والباطنة مع الانصراف على ما لا يستغنى عن معرفته مدى الزكاة وقابضها وينكشف ذلك في أربعة فصول (الفصل الأول) في أنواع الزكاة وأسباب وجوبها (الثاني) آدابها وشروطها الباطنة والظاهرة (الثالث) في القابض وشروط استحقاته وآداب قبضه (الرابع) في صدقة التطوع ونفصلها

الفصل الأول : في أنواع الزكاة وأسباب وجوبها والزكوات باعتبار متعلقاتها ستة أنواع :

زكاة النعم والتقدين والتجارة وزكاة الركان والمعادن وزكاة الممرات وزكاة الفل

النوع الأول : زكاة النعم

ولا تجب هذه الزكاة وغيرها إلا على حر مسلم . ولا يشترط البلوغ بل تجب في مال الصبي والمجنون هذا شرط من عليه . وأما المال فشروطه خمسة : أن يكون لهاسامة باقية حولانصبا كاملا مملوكا على الكمال (الشرط الأول) كونه نفا فلا زكاة إلا في الإبل والبقر والغنم . أما الخيل والغال والحجر والمتولد من بين الطياء والغنم فلا زكاة فيها (الثاني) السوم : فلا زكاة في معلوفة وإذا أسيمت في وقت وعطفت في وقت أظهر بذلك مؤنتها فلا زكاة فيها (الثالث) الحول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا زكاة في مال حتى يحول عليه الحول^(٢) ، ويستثنى من هذا نتائج الحول (الرابع) كمال الملك والتصرف : فتجب الزكاة في الماشية المرهونة لأنه الذي حبر على نفسه فيه ولا تجب في الضال والمفصوب إلا إذا عاد بجميع نسيائه فجب زكاة ماضى عند عوده ولو كان عليه دين يستغرق ماله فلا زكاة عليه فإنه ليس غنيا به إذ التقى ما يفضل عن الحاجة . (الخامس) كمال التصاب .

أما الإبل فلا شيء فيها حتى تبلغ خمسا ففيها جذعة من الضأن والجذعة هي التي تكون في السنة الثانية ، أو ثنية من المعز وهي التي تكون في السنة الثالثة . وفي عشر شاتان ، وفي خمس عشرة ثلاث شياه . وفي عشرين أربع شياه . وفي خمس وعشرين بنت مخاض وهي التي في السنة الثانية ، فإن لم يكن في ماله بنت مخاض فإن لبون ذكر وهو الذي في السنة الثالثة يؤخذ إن كان قادرا على شراؤها . وفي ست وثلاثين ابنة لبون . ثم إذا بلغت ستا وأربعين ففيها حقة وهي التي في السنة الرابعة . فإذا صارت إحدى وستين ففيها جذعة وهي التي في السنة الخامسة ، فإذا صارت ستا وسبعين ففيها بنتا لبون . فإذا صارت إحدى وتسعين ففيها حقتان . فإذا صارت إحدى وعشرين ومائة ففيها ثلاث بنات لبون . فإذا صارت مائة وثلاثين فقد استقر الحساب ؛ ففي كل خمسين حقة ، وفي كل أربعين بنت لبون .

(١) حديث أبي ذر : انتهيت لما انتهى صلى الله عليه وسلم وهو جالس في ظل الكعبة فلما رأيته قال : هم الآخرون ورب الكعبة . الحديث : أخرجه مسلم والبخاري (٢) حديث : لا زكاة في مال حتى يحول عليه الحول ، أخرجه أبو داود من حديث علي بن زياد جيه وابن ماجه من حديث عاتقة بإسناد ضعيف

وأما البقر فلا شيء فيها حتى تبلغ ثلاثين ففيها تيسع وهو الذي في السنة الثانية . ثم في أربعين سنة وهي التي في السنة الثالثة . ثم في ستين تيمان . واستقر الحساب بعد ذلك . ففي كل أربعين سنة . وفي كل ثلاثين تبيع .
وأما الغنم فلا زكاة فيها حتى تبلغ أربعين ففيها شاة جذعة من الضأن أو ثنية من المزم . ثم لاشيء فيها حتى تبلغ مائة وعشرين وواحدة ففيها شاتان . إلى مائتي شاة واحدة فيها ثلاث شياه إلى أربعمائة ففيها أربع شياه . ثم استقر الحساب في كل مائة شاة . وصدة الخيلطين كصدقة المسالك الواحد في النصاب فإذا كان بين رجلين أربعون من الغنم ففيها شاة . وإن كان بين ثلاثة نفر مائة شاة وعشرون ففيها شاة واحدة . على جميعهم . وخلطة الجوار كخلطة الشيوخ ولكن يشترط أن يربحها معا ويسقيها معا ويحلبها معا ويسرحها معا ويكون المرعى معا ويكون إنزاء الفحل معا . وأن يكونا جميعاً من أهل الزكاة ولا حكم للخلطة مع الذمي والمكاتب . ومهما نزل في واجب الإبل عن سنٍّ إلى سنٍّ فهو جائز ما لم يجاوز بنت مخاض في التزول . ولكن نعمت إليه جبران السن لسنة واحدة شاتين أو عشرين درهما . ولستين أربع شياه أو أربعين درهما . وله أن يصعد في السن ما لم يجاوز الجذعة في الصدود بأخذ الجبران من الساعين من بيت المال . ولا تؤخذ في الزكاة مربعة إذا كان بعض المال محصيا ولو واحدة . ويؤخذ من الكراثم كريمة ومن الشام ثنية . ولا يؤخذ من المال الأكولة ولا المسخض ولا الربا ولا الفحل ولا غراء المال .

النوع الثاني : زكاة المعشرات

فيجب العشر في كل مستنبت مقتات بلغ ثمانمائة من ولا شيء فيها دونها ولا في الفواكه والقطن ، ولكن في الحبوب التي تقتات وفي القمح والزبيب . ويعتبر أن تكون ثمانمائة من تراً أو زيباً لأرطبا وحنبا ، ويخرج ذلك بعد التصفيف . وبكل مال أحد الخيلطين مال الآخر في خلطة الشيوخ كالبيتان المشترك بين ورة جميعهم ثمانمائة من من زبيب ، فيجب على جميعهم ثمانون من من زبيب بقدر حصصهم . ولا يعتبر خلطة الجوار فيه . ولا بكل نصاب الخلطة بالشعير . وبكل نصاب الشعير بالسلت فإنه نوع منه ، هذا قدر الواجب إن كان يسقى بسبع أوقاة فإن كان يسقى بنصف أو دالية فيجب نصف العشر ، فإن اجتمعا فلا غاب يعتبر . وأما صفة الواجب فالقمح والزبيب اليابس والحلب اليابس بعد التنقية . ولا يؤخذ عنب ولا رطب إلا إذا حلت بالأشجار آفة وكانت المصلحة في قطعها قبل تصام الإدراك ، فيؤخذ الرطب فيكال تسعة للمالك وواحد للفقير . ولا يمنع من هذه القسمة قولنا : إن القسمة يسع ، بل يرخص في مثل هذا للحاجة . ووقت الوجوب أن يبدو الصلاح في الثمار وأن يشتد الحب . ووقت الأداء بعد الجفاف .

النوع الثالث : زكاة النقيدين

فإذا تم الحول على وزن مائتي درهم بوزن مكة نقرة خالصة ففيها خمسة دراهم ، وهو ربع العشر ، وما زاد فبحسبه ولو درهما . ونصاب الذهب عشرون مثقالا خالصاً بوزن مكة ففيها ربع العشر ، وما زاد فبحسبه ، وإن نقص من النصاب حبة فلا زكاة . وتجب على من معه دراهم منشوشة إذا كان فيها هذا المقدار من النقرة الخالصة . وتجب الزكاة في التبر وفي الحل المحظور كأواني الذهب والفضة ومراكب الذهب للرجال . ولا تجب في الحل المباح . وتجب في الدين الذي هو على ملء . ولكن تجب عند الاسقيفاء وإن كان مؤجلاً فلا تجب إلا عند حلول الأجل .

النوع الرابع : زكاة التجارة

وهي زكاة التقدين ، وإنما ينمقذ الحول من وقت ملك النقد الذي به اشترى البضاعة إن كان النقد نصاباً ؛ فإن كان ناصباً أو اشترى بعرض على نية التجارة فالحول من وقت الشراء . وتؤدى الزكاة من نقد البلد وبه يقوم . فإن كان ما به الشراء نقداً وكان نصاباً كاملاً كان التقويم به أولى من نقد البلد . ومن نوى التجارة من مال قنية فلا ينمقذ الحول بمجرد نيته حتى يشتري به شيئاً ومهما قطع نية التجارة قبل تمام الحول سقطت الزكاة . والاولى أن تؤدى زكاة تلك السنة ، وما كان من ربح في السلعة في آخر الحول وجبت الزكاة فيه بحول رأس المال ولم يستأنف له حولا كما في النتائج . وأموال الصرافة لا ينقطع حولها بالمبادلة الجارية بينهم كسائر التجارات وزكاة ربح مال القراض على العامل وإن كان قبل القسمة ؛ هذا هو الأقيس .

النوع الخامس : الزكاز والمدن

والزكاز مال دفن في الجاهلية ووجد في أرض لم يمر عليها في الإسلام ملك ، فبلى واجده في الذهب والفضة منه الخس والحول غير معتبر . والاولى أن لا يعتبر النصاب أيضاً لأن إيجاب الخس يؤكد شبهه بالقيمة . واعتباره أيضاً ليس يبيد لأن مصرف الزكاة ولذلك يخصص على الصحيح بالتقدين . وأما المغان فلا زكاة فيها استخرج منها سوى الذهب والفضة ؛ ففيها بدد الطعن والتخلص ربع العشر على أصح القولين ، وعلى هذا يعتبر النصاب . وفي الحول قولان ، وفي قول : يجب الخس ؛ فعلى هذا لا يعتبر . وفي النصاب قولان والأقبح - والعلم عند الله تعالى - أن يلحق في قدر الواجب بزكاة التجارة فإنه نوع اكتساب . وفي الحول بالمعشرات فلا يعتبر لأنه عين الرق ويعتبر النصاب كالمعشرات ، والاحتياط أن يفرج الخس من القليل والكثير ، ومن عين التقدين أيضاً خروجاً عن شبهة هذه الاختلافات فإنها ظنون قريبة من التعارض وجزم الفتوى فيها خطر لتعارض الاشتباه .

النوع السادس : في صدقة الفطر

وهي واجبة - على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم - على كل مسلم فضل عن قوته وقوت من يقوته يوم الفطر وليته صاع مما يقتات^(١) بصاع رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو منوان وثلاث من ، يفرجه من جنس قوته أو من أفضل منه . فإن اقتات بالحنطة لم يمر الشعير . وإن اقتات حبوا مختلفة اختار خيرها ومن أيها أخرج أجراً . وقسمتها كسمة زكاة الأموال فيجب فيها استيعاب الأصناف ولا يجوز لإخراج الدقيق والسويق . ويجب على الرجل المسلم فطرة زوجته وعاليكه وأولاده وكل قريب هو في نفقته أخص من يجب عليه نفقته من الآباء والأمهات والأولاد . قال صلى الله عليه وسلم : « أدوا صدقة الفطر عن تمونون^(٢) » ، وتجب صدقة العبد للمشارك على الشريكين ولا تجب صدقة العبد للكافر . وإن تبرعت الزوجة بالإخراج عن نفسها أجزأها والزوج الإخراج عنها دون إذنها . وإن فضل عنه ما يؤدى عن بعضهم أدى عن بعضهم ، وأولاهم بالتقديم من كانت نفقته أكد . وقد

(١) حديث « وجوب صدقة الفطر على كل مسلم » أخرجه من حديث ابن عمر قال « فرض رسول الله صلى الله عليه وسلم زكاة الفطر من رمضان .. الحديث » (٢) حديث « أدوا زكاة الفطر عن تمونون » أخرجه البخاري والبيهقي من حديث ابن عمر « وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بصدقة الفطر عن الصنبي والكبير والمز والمجد من تمونون » قال البيهقي إسناده غير نوى

فقد رسول الله صلى الله عليه وسلم نفقة الولد على نفقة الزوجة ونفقتها على نفقة الخادم^(١) فهذه أحكام فقهية لابد للفقهاء من معرفتها ، وقد تعرض له وقائع نادرة خارجة عن هذا فله أن يتشكل فيها على الاستفتاء عند نزول الواقعة بعد إحاطته بهذا المقدار .

الفصل الثاني : في الأداء وشروطه الباطنة والظاهرة

اعلم أنه يجب على مؤدى الزكاة خمسة أمور (الأول) النية : وهو أن ينوى بقلبه زكاة الفرض ويسن عليه تعيين الأموال . فإن كان له مال غائب فقال هذا عن مال الغائب إن كان سالماً وإلا فهو نافلة جاز ؛ لأنه إن لم يصرح به فكذلك يكون عند إطلاعه . ونية الولي تقوم مقام نية المجنون والصبي . ونية السلطان تقوم مقام نية السالك المستع من الزكاة ولكن في ظاهر حكم الدنيا - أعني قطع المطالبة عنه - أما في الآخرة فلا بل تبقى ذمته مشغولة إلى أن يتسأنف الزكاة وإذا وكل بأداء الزكاة ونوى عند التوكيل أو وكل الوكيل بالنية كفاه لأن توكيله بالنية نية (الثاني) البدار عقيب الحول وفي زكاة الفطر لا يؤخرها عن يوم الفطر . ويدخل وقت وجوبها بغروب الشمس من آخر يوم من شهر رمضان . ووقت تعجيلها شهر رمضان كله . ومن أخر زكاة ماله مع التمكن هضم ولم يسقط عنه بتلف ماله وتمكنه بمصادفة المستحق . وإن أخر لعدم المستحق فتلف ماله سقطت الزكاة عنه . وتجب الزكاة جائز بشرط أن يقع بعد كمال النصاب والعتاد الحول . ويجوز تعجيل زكاة حولين . ومهما أجل فأت المسكين قبل الحول أو ارتد أو صار غنياً بغير ما أجل إليه أو تلف مال السالك أو مات ، فالمدفوع ليس بزكاة ، واسترجاعه غير ممكن إلا إذا قيد الدفع بالاسترجاع فليكن للمعجل مراقبا آخر الأمور وسلامة العاقبة (الثالث) أن لا يخرج بدلا باعتبار القيمة بل يخرج المنصوص عليه ، فلا يجزئ ورق عن ذهب ولا ذهب عن ورق وإن زاد عليه في القيمة . ولعل بعض من لا يدرك غرض الشافعي رضي الله عنه يتساهل في ذلك ويلاحظ المقصود من سد الخلة وما أبعداه عن التحصيل ، فإن سُد الخلة مقصود وليس هو كل المقصود بل واجبات الشرع ثلاثة أقسام : قسم هو تعبد محض لا مدخل للحطوط والأغراض فيه . وذلك كرى الجرات مثلا إذ لاحظ للجيرة في وصول المحصى إليها ، فقصود الشرع فيه الابتلاء بالعمل ليظهر المبد رقه وعبريته بفعل ما لا يعقل له معنى ، لأن ما يعقل معناه فقد يساعده الطبع عليه ويدعوه إليه فلا يظهر به خلوص الرق والعبودية ، إذ العبودية تظهر بأن تكون الحركة لحق أمر المعبود فقط لا لمشي آخر . وأكثر أعمال الخج كذلك ولذلك قال صلى الله عليه وسلم في إعرامه « ليكن بحجة حقا تعبد أوقافا^(٢) » تنبها على أن ذلك اظهار العبودية بالانقياد لجرد الأمر وامتناله كما أمر من غير استئناس العقل بما يميل إليه ويحث عليه . القسم الثاني : من واجبات الشرع ما المقصود منه حظ معقول وليس يقصد منه التمتع بقضاء دين الأديمين ورد المنسوب فلا جرم لا يعتبر فيه فعله ونيته . ومهما وصل الحق إلى مستحقة بأخذ المستحق أو يبدل عنه عند رضاه تأدى الوجوب وسقط خطاب الشرع . فهذان قسمان لا تركيب فيهما يشترك في دركهما جميع الناس والقسم الثالث : هو المركب الذي يقصد منه الأمران جميعا وهو حظ العباد وامتنان المكلف بالاستعداد ، فيجتمع فيه تعبد ربي الجار وحظ الحقوق فهذا قسم في نفسه معقول ، فإن ورد الشرع به وجب الإجماع بين المعنيين ولا ينبغي أن

(١) حديث « قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم نفقة الولد على نفقة الزوجة ونفقتها على نفقة الخادم » أخرجه أبو داود من حديث أبي هريرة بسند صحيح وابن حبان والحاكم وصححه ورواه النسائي وابن حبان يخدم « الزوجة على الولد » وسبأني

(٢) حديث « ليكن بحجة حقا تعبد أوقافا » أخرجه البزار والدارقطني في الطل من حديث أس

ينسى أدق المنين وهو التبعيد والاسترقاق بسبب أجلاهما ، ولعل الأدق هو الأهم والزكاة من هذا القبيل ولم ينتبه له غير الشافعي رضى الله عنه لحظ الفقير مقصود في سد الحاجة وهو جل سابق إلى الأنعام وحق التبعيد اتباع التفاصيل مقصود للفرع . وباعتباره صارت الزكاة قرينة للصلاة والحج في كونها من مباني الإسلام . ولاشك في أن على المكلف تمبا في تمديد أجناس ماله وإخراج حصص كل مال من نوعه وجنسه وصفته . ثم توزيعه على الأصناف الثمانية كما سيأتي . والتساؤل فيه غير قاذح في حظ الفقير لكنه قاذح في التبعيد . ويدل على أن التبعيد مقصود بتعيين الأنواع أمور ذكرناها في كتب الخلاف من الفقهاء . ومن أوضحها أن الشرع أوجب في خمس من الإبل شاة فعدل من الإبل إلى الشاة ولم يعدل إلى التقدنين والتقوم وإن قدر أن ذلك لفظة التفود في أيدي العرب بطل بذكره عشرين درهما في الجبران مع الشافيين فلم يذكر في الجبران قدر نقصان من القيمة ؟ ولم قدر بشرين درهما وشاتين ؟ وإن كانت الثياب والأمتعة كلها في متاعها . فهذا وأمثاله من التخصيصات يدل على أن الزكاة لم تترك عالية عن التبعيدات كما في الحج ولكن جمع بين المنين . والأذهان الضعيفة تنحصر عن درك المركبات فهذا شأن الفلفظ فيه (الرابع) أن لا ينقل الصدقة إلى بلد آخر فإن أعين المساكين في كل بلدة تمتد إلى أموالها ، وفي النقل تخييب للظنون . فإن فعل ذلك أجراه في قول ولكن المخرج عن شبهة الخلاف أولى فليخرج زكاة كل مال في تلك البلدة . ثم لا بأس أن يصرف إلى الغريب في تلك البلدة (الخامس) أن يقدم ماله بعدد الأصناف الموجودين في بلده ، فإن استيعاب الأصناف واجب وعليه يدل ظاهر قوله تعالى ﴿ إنما الصدقات للفقراء والمساكين ﴾ الآية فإنه يشبه قول الميرضى إنما لك مالى للفقراء والمساكين وذلك يقتضى التشريك في التملك . والمبادات ينبغي أن يتوق عن الهجوم فيها على الظواهر . وقد عدم من الثمانية صنفان في أكثر البلاد : وهم المؤلفون قلوبهم والماملون على الزكاة . ويوجد في جميع البلاد أربعة أصناف : الفقراء والمساكين والغارمون والمساكين - أعنى أبناء السبيل - وصنفان يوجدان في بعض البلاد دون البعض : وهم الغزاة والمكاتبون . فإن وجد خمسة أصناف مثلا قسم بينهم زكاة ماله بخمسة أسنام متساوية أو متقاربة وعين لكل صنف قسم . ثم قسم كل قسم ثلاثة أسهم فافوقه إما متساوية أو متقاربة وليس عليه التسوية بين أحاد الصنف فإن له أن يقسمه على عشرة وعشرين فينقص نصيب كل واحد . وأما الأصناف فلا تقبل الزيادة والنقصان فلا ينبغي أن ينقص من كل صنف من ثلاثة إن وجد . ثم لو لم يجب إلا صاع للفقرة ووجد خمسة أصناف فعليه أن يوصله إلى خمسة عشر نفرا . ولو نقص منهم واحد مع الإمكان غرم نصيب ذلك الواحد . فإن عسر عليه ذلك لفظة الواجب فليشارك جماعة من عليهم الزكاة وليخط مال نفسه بالمجم وليجمع المستحقين وليعلم إليهم حتى يتساوهوا فيه فإن ذلك لا بد منه .

بيان دقائق الآداب الباطنة في الزكاة

اعلم أن على مرديد طريق الآخرة بركاة وظائف الوظيفة الأولى : فهم وجوب الزكاة ومعناها ووجه الامتحان فيها وأنها لم تجعل من مباني الإسلام مع أنها تصرف مالى وليست من عبادة الأبدان وفيه ثلاث معان : الأول : أن التلطف يكلمك الشهادة التزام للتوحيد وشهادة بإفراد المعبود وشرط تمام الوفاء به أن لا يلقى للوحد محبوب سوى الواحد الفرد فإن المحبة لا تقبل الشراكة ، والتوحيد باللسان قليل الجدوى وإنما يتحقق به درجة المحبة بمفارقة المحبوب والأموال محبوبة عند الخلائق لأنها آلاء تتمتعهم بالدنيا وبسيما يأنسون بهذا العالم وينفرون عن ملوحت مع أنفيع لقاء المحبوب ، فامتحنوا بتصدق دعواهم في المحبوب واستزكروا من المال الذى هو مرفوقهم وممشوقهم . ولذلك قال

الله تعالى ﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة﴾ وذلك بالجهد وهو مساهمة بالمهجة شوقاً إلى لقاء الله عز وجل والمساهة بالمال أمون . ولما فهم هذا المعنى في بذل الأموال انقسم الناس إلى ثلاثة أقسام : قسم صدقوا التوحيد وفروا بعدهم وزلوا عن جميع أموالهم فلم يدخروا ديناراً ولا درهماً فأبوا أن يتصرفوا لجور الزكاة عليهم حتى قيل لبعضهم كم يجب من الزكاة في مائتي درهم ؟ فقال : أما على العوام بحكم الشرع خمسة دراهم ، وأما نحن فيجب علينا بذل الجميع . ولهذا تصدق أبو بكر رضي الله عنه بجميع ماله وعمر رضي الله عنه بشرط ماله فقال صلى الله عليه وسلم : ما بقيت لأهلك ، فقال : مثله ، وقال لابي بكر رضي الله عنه : ما بقيت لأهلك ، قال الله ورسوله ، فقال صلى الله عليه وسلم : يتشكوا ما بين كل شيكاً ^(١) ، فالصدق وفي بنام الصدق فلم يمسكه سوى المحبوب عنده وهو الله ورسوله . القسم الثاني : درجتهم دون درجة هذا وهم المسكون أموالهم المرابطون لموافيت الحاجات ومواسم الخيرات ، فيسكنون قسدهم في الادعاء الإنفاق على قدر الحاجة دون التتميم وصرف الفاضل عن الحاجة إلى وجوه البرهما طهر وجوهها ، هؤلاء لا يقتصرون على مقدار الزكاة . وقد ذهب جماعة من التابعين إلى أن المال حقوقاً سوى الزكاة كالنخعي والشامي وعطاء ومجاهد . قال الشعبي بعد أن قيل له هل في المال حق سوى الزكاة ؟ قال : نعم أناسمت قوله عز وجل ﴿وَأَتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّ ذَوِي الْقَرْبَى﴾ الآية واستدلوا بقوله عز وجل ﴿وَمَا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ ويقول تعالى ﴿وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ﴾ وزعموا أن ذلك غير مفسوخ بآية الزكاة بل هو داخل في حق المسلم على المسلم ، ومعناه أنه يجب على الموسر مهما وجد محتاجاً أن يزول حاجته فضلاً عن مال الزكاة والذي يصح في الفقه من هذا الباب أنه مهما أرفقته حاجته كانت إزالتها فرض كفاية لا يجوز تضييع مسلم ، ولكن يحتمل أن يقال ليس على الموسر إلا تسليم ما يزيل الحاجة فرضاً ولا يلزمه بذله بعد أن أسقط الزكاة عن نفسه ، ويحتمل أن يقال يلزمه بذله في الحال ولا يجوز له الافتراض أي لا يجوز له تكليف الفقير قبول القرض وهذا يختلف فيه ، والافتراض نزول إلى الدرجة الأخيرة من درجات العوام وهي درجة الثالث الذين يقتصرون على أداء الواجب فلا يزيدون عليه ولا يقتصون عنه وهي أقل الرتب ، وقد اقتصر جميع العوام عليه ليعلمهم بالمسال ويميلهم إليه وضمهم حبيبهم للأخرة قال الله تعالى ﴿إِنْ يَسْأَلُكُمْ فِيهَا فَيَكْفِ بِكُمْ مِنْهَا بِرْءً فَقَدْ كَفَيْتُمْ﴾ أي يستقص عليكم فكم بين عبد اشترى منه ماله ونفسه بأن له الجنة وبين عبد لا يستقص عليه ليعلمه ؛ فهذا أحد معاني أمر الله سبحانه عباده ببذل الأموال المعنى الثاني : التطهير من صفة البخل فإنه من المهلكات قال صلى الله عليه وسلم : ثلاث مهلكات شح مطاع وهوى متبع وإعجاب المرء بنفسه ^(٢) ، وقال تعالى ﴿وَمَنْ يَرْقُ شِعْراً فَآوْكَاهُ الْمَلْعُونُ﴾ وسيأتي في ربيع المهلكات وجه كونه مهلكاً وكيفية التقص منه ، ولما نزل صفة البخل بأن تمتد بذل المال لحب الشيء لا ينقطع إلا بفقر النفس على مفارقتها حتى يصير ذلك اعتياداً . فالزكاة بهذا المعنى طهرة أي تطهر صاحبها عن شح البخل المهلك وإنما طهارته بقدر بذله بقدر فرجه بإخراجه واستيقاضه بصرفه إلى الله تعالى . المعنى الثالث : شكر النعمة فإن الله عز وجل على عبده نعمة في نفسه وفي ماله فالعبادات الدينية شكر لنعمة البدن والمالية شكر لنعمة المال . ومما أخص من ينظر إلى الفقير وقد شقيق عليه الرزق وأحوج إليه ثم لا تسمح نفسه بأن يؤدي شكر الله تعالى على إغناؤه عن السؤال وإحواج غيره إليه بربع العشر أو العشر من ماله .

(١) حديث : جاء أبو بكر بجميع ماله وعمر بشرط ماله .. الحديث : أخرجه أبو داود والترمذي والمالك ومسححه من حديث ابن عمر وليس فيه قوله « يتشكوا ما بين كل شيكاً » . (٢) حديث : ثلاث مهلكات .. الحديث : تقدم

الوظيفة الثانية : في وقت الأداء ؛ ومن آداب ذى الدين التمتعيل عن وقت الوجوب إظهارا للريفة في الامتثال بإيصال السرور إلى قلوب الفقراء ومبادرة لمواثيق الزمان أن تقوموه عن الخيرات وعلمنا بأن في التأخير آفات مع ما يمتدح العبد له من العصيان لو أخر عن وقت الوجوب . ومهما ظهرت داعية الخير من الباطن فينبغي أن ينتقم فإن ذلك لمة الملك ، وقلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن ، فما أسرع تقبله والسيطان يعد الفقر وبأمرها للنشأة والمنكر . وله لمة عقيب لمة الملك فلينتمم الفرصة فيه وليعين لركابها إن كان يؤديها جميعا شهرا معلوما وليجتهد أن يكون من أفضل الأوقات ليكون ذلك سببا لنماء قربه وتضاعف زكاته . وذلك كشمس المحرم فإنه أول السنة وهو من الأشهر الحرم أو رمضان فقد كان صلى الله عليه وسلم أجود الخلق وكان في رمضان كالريح المرسلة لا يملك فيه شيئا ^(١) ولمضان فضيلة ليلة القدر وأنه أنزل فيه القرآن . وكان مجاهد يقول : لا تقولوا رمضان فإنه اسم من أسماء الله تعالى ولكن قولوا شهر رمضان . وذو الحجة أيضا من الشهور الكثيرة الفضل فإنه شهر حرام وفيه الحج الأكبر وفيه الأيام المعلومات وهي العشر الأول والأيام الممدودات وهي أيام التشريق . وأفضل أيام شهر رمضان العشر الاواخر . وأفضل أيام ذى الحجة العشر الأول .

الوظيفة الثالثة : الإسرار ؛ فإن ذلك أبعد عن الرياء والسمة قال صلى الله عليه وسلم : أفضل الصدقة جهد المقل إلى فقير في سر ^(٢) ، وقال بعض العلماء . ثلاث من كنوز البر منها إخفاء الصدقة ^(٣) . وقد روى أيضا مسندا . وقال صلى الله عليه وسلم : إن العبد ليعمل عملا في السر فيكتبه الله له سرا فإن أظهره نقل من السر وكتب في العلانية فإن تحدث به نقل من السر والعلانية وكتب رياء ^(٤) وفي الحديث المشهور : سبعة يظلمهم الله يوم لا ظل إلا ظله أحدهم رجل تصلق بصدقة فلم تعلم شامها بما أعطت يمينه ^(٥) ، وفي الخبر : صدقة السر تطفى غضب الرب ^(٦) ، وقال تعالى ﴿وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم﴾ وفائدة الإخفاء الخلاص من آفات الرياء والسمة فقد قال صلى الله عليه وسلم : لا يقبل الله من مسع ولا مرء ولا منان والمتحدث بصدقة يطلب السمة والمطلى في ملأ من الناس يبيى الرياء والإخفاء والسكوت هو المخلص منه ^(٧) ، وقد بالغ في فضل الإخفاء جماعة حتى اجتهدوا أن لا يعرف القابض المعطى فكان بعضهم يلقيه في يد أعمى وبعضهم يلقيه في طريق الفقير وفي موضع جلوسه حيث يراه ولا يرى المعطى وبعضهم كان يصره في ثوب الفقير وهو نائم . وبعضهم كان يوصل إلى يد الفقير على يد غيره بحيث لا يعرف المعطى وكان يستكم المتوسط شأنه ويوصيه بأن لا يفشي : كل ذلك توصلا إلى إطفاء غضب الرب وسبعائه واحترازاً من الرياء والسمة . ومهما لم يتمكن إلا بأن يعرفه شخص واحد فتسليمه إلى وكيل ليسلم إلى المسكين والمساكين لا يعرف أبلى : إذ في معرفة المسكين الرياء والمنة جميعا وليس في معرفة المتوسط إلا الرياء . ومهما كانت الشهرة مقصودة له

(١) حديث «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أجود الخلق وأجود ما يكون في رمضان .. الحديث» أخرجه من حديث أن عباس
(٢) حديث «أفضل الصدقة جهد المقل إلى فقير في سر» أخرجه أحمد وابن حبان والحاكم من حديث أبي ذر وأبي داود
من حديث أبي هريرة «أبى الصدقة أفضل؟» «الجهد المقل» (٣) حديث «ثلاث من كنوز البر فذكر منها إخفاء الصدقة»
أخرجه أبو نعيم في كتاب الإيجاز وجوامع الكلم من حديث ابن عباس بسند ضعيف (٤) حديث «إن العبد ليعمل عملا في
السر فيكتبه الله له سرا فإن أظهره نقل من السر .. الحديث» أخرجه المحقق في التاريخ من حديث أبي أسنوخه بإسناد ضعيف
(٥) حديث «سبعة يظلمهم الله في ظله .. الحديث» أخرجه من حديث أبي هريرة (٦) حديث «صدقة السر تطفى
غضب الرب» أخرجه الطبراني من حديث أبي أمامة ورواه أبو الفتح في كتاب الثواب والبهن في تلعب من حديث أبي سعيد
كلهما ضعيف والترمذي وحسنه من حديث أبي هريرة «أن الصدقة تطفى غضب الرب» ولابن حبان نحوه من حديث أنس وهو
ضعيف أيضا (٧) حديث «لا يقبل الله من مسع ولا مرء ولا منان» لم أقف به هكذا

حبط عمله لأن الزكاة إزالة للبخل وتضيف لحب المال . وحب الجاه أشد استيلاء على النفس من حب المال وكل واحد منهما مهلك في الآخرة ؛ ولكن صفة البخل تنقلب في حرك المثل عكسا لا دغا ، وصفة الرياء تنقلب في الغير أنس من الألاع وهو مأمور بتضييعهما أو قتلتهما لدفع أذاهما أو تخفيف أذاهما فهما قصد الرياء والسمة فكانته جعل بعض أطراف العزب مقويا للحية فيفقد ما ضعف من العزب زاد في قوة الحية ولو ترك الأمر كما كان لكان الأمر أهون عليه . وقوة هذه الصفات التي بها قوتها العمل بمقتضاها ، وضعف هذه الصفات بمجاهدتها ومخالفتها والعمل بخلاف مقتضاها فأى فائدة في أن يخالف دواعي البخل ويوجب دواعي الرياء فيضعف الأدنى ويقوى الأخرى ؟ وستأتى أسرار هذه المعاني في ربيع المهلكات .

الوظيفة الرابعة : أن يظهر حيث يعلم أن في إظهاره ترغيبا للناس في الاقتداء وبحرس سره من ذاعية الرياء بالطريق الذي سلكه في معالجة الرياء في كتاب الرياء فقد قال الله عز وجل (إن تبدوا الصدقات فنعما هي) وذلك حيث يقتضى الحسب الإبداء إما للاقتداء وإما لأن السائل إنما سأل على ملأ من الناس فلا ينبغي أن يترك التصديق خيفة من الرياء في الإظهار بل ينبغي أن يتصدق ويحفظ سره من الرياء بقدر الإمكان ، وهذا لأن في الإظهار محذورا ثالثا سوى المن والرياء وهو هتك سر الفقير ، فإنه ربما يتأذى بأن يرى في صورة المحتاج لمن أظهر السؤال فهو الذي هتك سر نفسه . فلا يحد هذا المن في إظهاره وهو كإظهار الفسق على من تستر به فإنه محذور ، والتجسس فيه والاعتداء بذكره منى عنه : فأما من أظهره فإقامة الحد عليه إشاعة ولكن هو السبب فيها . ويثل هذا المنى قال صلى الله عليه وسلم : من أتى جلاب الحياء فلا غيبة له ^(١) ، وقد قال الله تعالى (وأنفقوا ما رزقناهم سرا ولا يعلنوا) تدب إلى العلانية أيضا لما فيها من فائدة الترغيب فليكن البعد دقيق التأمل في وزن هذه الفائدة بالمحذور الذي فيه فإن ذلك يختلف بالأحوال والأشخاص ، فقد يكون الإعلان في بعض الأحوال لبعض الأشخاص أفضل . ومن عرف الفوائد والفوائد ولم ينظر بعين الشهوة اتضح له الأول والأخير بكل حال .

الوظيفة الخامسة : أن لا يفسد صدقته بالمن والأذى قال الله تعالى (لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى) واختلوا في حقيقة المن والأذى فقبل المن أن يذكرها والأذى أن يظهرها : وقال سفيان : من من فسد صدقته فقبل له كيف المن ، فقال : أن يذكره ويتحدث به . وقيل : المن أن يستخذه بالعطاء ، والأذى أن يعيره بالفقر . وقيل : المن أن يشكر عليه لأجل عطاؤه ، والأذى أن يقتره أو يبرحه بالمسألة . وقد قال صلى الله عليه وسلم لا يقبل الله صدقة من ^(٢) ، وعندي أن المن له أصل ومفرس وهو من أحوال القلب وصفاته : ثم يفرع عليه أحوال ظاهرة على اللسان والجوارح فأصله أن يرى نفسه محسنا إليه ومنعا عليه ، وحته أن يرى الفقير محسنا إليه يقبل حق الله عز وجل منه الذي هو طهرته ونجاسته من النار ، وأنه لو يقبله لبق مرتبها به لحته أن يتخذ منه الفقير إذ جعل كنهه نائبا عن الله عز وجل في قبض حق الله عز وجل . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الصدقة تقع بيد الله عز وجل قبل أن تقع في يد السائل ^(٣) ، فليتحقق أنه مسلم إلى عز وجل حقه والفقير آخذ من الله تعالى . رزقه بعد صيروره إلى الله عز وجل . ولو كان عليه دين لإنسان فأسال به عبده أو خادمه الذي هو متكفل برزقه

(١) حديث « من أتى جلاب الحياء فلا غيبة له » أخرجه ابن عمى وابن حبان في الضعفاء من حديث أنس بسند ضعيف

(٢) حديث « لا يقبل الله صدقة من » هو كالتى قبله بحديث لم أجده (٣) حديث « أن الصدقة تقع بيد الله قبل أن تقع في يد السائل » أخرجه الدارقطني في الأفراد من حديث ابن عباس وقال غريب من حديث عكرمة عنه ورواه البيهقي في الشعب بسند ضعيف

لكان اعتماد مودى الدين كون التابض تحت منته سفها وجهلا ، فإن المحسن إليه هو المتكفل برزقه . أما هو فإنما يقضى الذى لزمه بشراء ما أحبه فهو ساع فى حق نفسه فلم ين به على غيره . ومهما عرف الماعى الثلاثة التى ذكرناها فى فهم وجوب الزكاة أو أحدها لم ير نفسه محسنا إلا إلى نفسه ؛ إما يبدل ماله لإظهاره لحب الله تعالى أو لتطهير نفسه عن رذيلة البخل أو لشكرنا على لعمة المال طلبا للبريد . وكيف كان فلا عناية بينه وبين الفقير حتى يرى نفسه محسنا إليه . ومهما حصل هذا الجهل بأن رأى نفسه محسنا إليه تفزع منه على ظاهره ما ذكر فى معنى المن وهو التحدث به وإظهاره وطلب المكافأة منه بالشكر والنداء والخدمة والتوقير . والتنظيم والقيام بالحقوق والتقديم فى المجالس والمتابعة فى الأمور ؛ فهذه كلها ثمرات المنه ، ومعنى المنه فى الباطن ما ذكرناه . وأما الأذى : فظاهره التريبخ والتعير وتخفيف الكلام وقطيبي الوجه وهتك السر بالإظهار وفنون الاستخفاف ، وباطنه وهو منبه أمران ؛ أحدهما : كراهيته لرفع اليد عن المال وشدة ذلك على نفسه فإن ذلك يضيق الحزن لا محالة . والثانى : رؤيته أنه خير من الفقير وأن الفقير لسبب حاجته أخس منه وكلامها مفضوّه الجهل . أما كراهية تسليم المال فهو حق لأن من كره بذل درهم فى مقابلة ما يساوى ألفا فهو شديد الحق . ومعلوم أنه يبدل المال لطلب رضا الله عز وجل والثواب فى الدار الآخرة وذلك أشرف مما بذله أو يبذله لتطهير نفسه عن رذيلة البخل أو بئرا لطلب المزيد . وكيف فرض فالكراهية لا وجه لها . وأما الثانى : فهو أيضا جهل لأنه لا عرف فضل الفجر على النقي وهرف خطر الأغنياء لما استحق الفقير بل ببرك به وتحنى درجته ، فصلحاء الأغنياء يدخلون الجنة بعد الفقراء بمصمبات عام . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم ، هم الآخرى ورب الكعبة فقال أبو ذر : من هم ؟ قال : هم الآخرى أموالا ، الحديث ؟ ثم كيف يستحق الفقير وقد جملة الله تعالى متجرة له ؟ إذ يكتب المال بجهده ويستكثره ويهتد فى حفظه بمقدار الحاجة وقد أزم أن يسلم إلى الفقير قدر حاجته ويكف عنه الفاضل الذى يضره لو سلم إليه ؛ فالتنى مستخدم للسمى فى رزق الفقير ويشين عليه بتقليد المظالم والتزام المشاق وحراسة الفضلات إلى أن يموت فيأكله أعداؤه ، فإن مهما انتقلت الكراهية وتبدلت بالسرور والفرح بتوفيق الله تعالى له أداء الواجب وتنظيفه الفقير حتى يخلصه من عهده بقبوله منه اتقى الأذى والتوبيخ وقطيبي الوجه وتبدل بالاستبصار والتناء وقبول المنه فهذا منشأ المن والأذى . فإن قلت : فرويته نفسه فى درجة المحسن أمر غامض فهل من علامة يتحن بها قلبه فيعرف بها أنه لم ير نفسه محسنا ؟ فاعلم أن له علامة دقيقة واضحة وهو أن يقدر أن الفقير لو جنى عليه جناية أو مالا عدوا له عليه مثلا هل كان يزيد استكباره واستبداده له على استكباره قبل التصديق ؟ فإن زاد لم تغل صدقته عن شابة المنه لأنه توقع بسببه ما لم يكن يتوقعه قبل ذلك . فإن قلت ، فهذا أمر غامض ولا يفك قلب أحد عنه فما دراهم ؟ فاعلم أن به دراهم باطنا ودواء ظاهرا ؛ أما الباطن : فالمرقة بالحقائق التى ذكرناها فى فهم الوجوب وأن الفقير هو المحسن إليه فى تطهيره بالقبول . وأما الظاهر : فالأعمال التى يتباطاها متقلد المنه فإن الأعمال التى تصدر عن الأخلاق تصيب القلب بالأخلاق - كإسبات أسرار فى الشطر الأخير من الكتاب - ولها كان بعضهم يضع الصدقة بين يدى الفقير ويمثل قائما بين يديه يسأله قبولها حتى يكون هو فى صورة السائلين وهو يستسلم مع ذلك كراهية لو رده . وكان بعضهم يمسك كفه ليأخذ الفقير من كفه ويتركون يد الفقير هى العليا . وكانت عائشة وأم سلمة رضى الله عنهما إذا أرسلتا ممرورا إلى فقير قالتا للرسول : احفظ ما يدعوه ثم كانتا تردان عليه مثل قوله ، وتقولان : هذا بذاك حتى نخلص لنا صدقتنا . فكانوا لا يتوقعون الدماء لأنه شبه المكافأة وكانوا يقابلون الدماء

بثله . وهكذا فعل عمر بن الخطاب وابنه عبد الله رضي الله عنهما . وهكذا كان أرباب القلوب يداوون قلوبهم ولا دواء من حيث الظاهر إلا هذه الأعمال الباطنة على التذلل والتواضع وقبول المنة ومن حيث الباطن المعارف التي ذكرناها ؛ هذا من حيث العمل وذلك من حيث العلم . ولا يبالغ القلب إلا بمجموع العلم والعمل ، وهذه الشريعة من الزكوات تجري مجرى الخشوع من الصلاة وثبت ذلك بقوله صلى الله عليه وسلم ، ليس للرب من صلاته إلا ما حفل منها ^(١) . وهذا كقوله صلى الله عليه وسلم « لا يتقبل الله صدقة فنان ، وكقوله عز وجل ﴿ لا يبطئوا صدقاتكم بالبن والاذى ﴾ » وأما فتوى الفقيه بوقوعها وموقعها وبرائة ذمتها دون هذا الشرط لحديث آخر وقد أشرنا إلى معناه في كتاب الصلاة .

الوظيفة السادسة : أن يستنصر العلية فإنه إن استعظمها أعجب بها والمعجب من المهلكات وهو محيط للأعمال قال تعالى ﴿ ويوم حين إذا أعجمتم كزبرك فلم تغن عنكم شيئا ﴾ ويقال إن الطاعة كلها استعمرت عظمت عند الله عز وجل . والمصيبة كلها استعظمت صغرت عند الله عز وجل . وقيل لا يتم المعروف إلا بثلاثة أمور : تصغيره وتجميله وسره . وليس الاستعظام هو المن والاذى ، فإنه لو صرف ماله إلى عمارة مسجد أو رباط أسكن فيه الاستعظام ولا يمكن فيه المن والاذى بل المعجب والاستعظام يجري في جميع العبادات ودراؤه علم وحمل . أمام العلم : فهو أن يعلم أن العشر أو ربع العشر قليل من كثير وأنه قد قنع لنفسه بأخسر درجات البذل - كما ذكرنا في فهم الوجوب - فهو جدير بأن يستحي منه فكيف يستعظمه ؟ وإن ارتقى إلى الدرجة العليا فبذل كل ماله أو أكثره فليأتلأ أنه من أين له المال وإلى ماذا يصرفه ؟ فالمال لله عز وجل وله المنة عليه إذ أعطاه ووقفه لبذله فلم يستعظم في حق الله تعالى ما هو عين حق الله سبحانه ؟ وإن كان مقامه يقتضي أن ينظر إلى الآخرة وأنه يبذله الثواب فلم يستعظم بذل ما ينتظر عليه أضعافه ؟ وأما العمل : فهو أن يعطي عطاء الخجل من بخله بإمساك بقية ماله عن الله عز وجل فتكون هيئته الانكسار والحياء ، كهية من يطلب برد ودية فيمسك بعضها ويرد البعض ، لأن المال كله لله عز وجل وبذل جميعه هو الأجب عند الله سبحانه ، وإنما لم يأمر به عبده لأنه يثق عليه بسبب بخله كما قال الله عز وجل ﴿ فيحكم بخلوا ﴾ .

الوظيفة السابعة : أن يلتقي من ماله أجوده وأحب إليه وأجله وأطيبه فإن الله تعالى طيب لا يقبل إلا طيبا . وإذا كان الخرج من شبه فرما لا يكون ملكا له مطلقا فلا يقع الموضع . وفي حديث أبيان عن أنس بن مالك « طوي لعبد أنفق من مال اكتسبه من غير معصية ^(٢) ، وإذا لم يكن الخرج من جيد المال فهو من سوء الأدب إذ قد يمسك الجيد لنفسه أو لعبد أو لأهله فيكون قد آثر على الله عز وجل غيره ، ولو فعل هذا بضيفه وقدم إليه أردا طعاما في بيته لأورث بذلك صدره ، هذا إن كان نظره إلى الله عز وجل ، وإن كان نظره إلى نفسه وتوابعه في الآخرة فليس بمأفل من يؤثر غيره على نفسه ، وليس له من ماله إلا ما تصدق به فأبقى أو أكل فأفنى ، والذي يأكله قضاء وطير في الحال فليس من العقل قصر النظر على العاجلة وترك الادعاء وقد قال الله تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم وما أخرجنا لكم من الأرض ولا تيمموا الخيثة منه تنفقون ولستم بأخذبه إلا أن تنفقوا فيه ﴾ أي لا تأخذوه إلا مع كراهية وحياء وهو معنى الإغماض فلا تؤثروا به ويكم . وفي الخبر « سبق درهم مائة ألف درهم ^(٣) ،

(١) حديث « ليس للرب من صلاته إلا ما حفل منها » تقدم في الصلاة

(٢) حديث أنس « طوي لعبد أنفق من مال اكتسبه من غير معصية » أخرجه ابن عساق والبخاري (٣) حديث « سبق درهم مائة ألف » أخرجه النسائي وابن حبان وصححه من حديث أبي هريرة

وذلك بأن يخرج الإنسان وهو من أحل ماله وأجوده فيصدر ذلك عن الرضا والفرح بالذل ، وقد يخرج ماله ألبس درهم ما يكره من ماله فيذل ذلك على أنه ليس يؤثر الله عز وجل بشئ مما يجبه . وبذلك ذم الله تعالى قوما جعلوا لله ما يكرهون فقال تعالى (ويصنعون لله ما يكرهون وتصف السنتهم بالكذب بأن لهم الحسن لا) وقف بعض القراء على النبي تكديبا لهم ، ثم ابتدأ وقال (جرم أن لهم النار) أى كسب لهم جحيمهم لله ما يكرهون النار .

الوظيفة الثامنة : أن يطلب لصدقته من تزكو به الصدقة ولا يتكفى بأن يكون من عموم الأصناف الثمانية فإن في عمومهم خصوص صفات فليراع خصوص تلك الصفات وهي ستة . الأولى : أن يطلب الاقتداء المرغوبين عن الدنيا المتجودين لتجارة الآخرة قال صلى الله عليه وسلم : لا تأكل إلا طماق تقي ولا تأكل طعامك إلا تقي (١) . وهذا لأن التقي يستعين به على التقوى فتكون شريكا في طاعته بإعطائه إياه ، وقال صلى الله عليه وسلم : أطعموا طعامكم الإتياء وأولوا مروءة المؤمنين (٢) . وفي لفظ آخره : أحف بطعامك من محبة في الله تعالى ، وكان بعض العلماء يؤثر بالطعام فقراء الصوفية دون غيرهم فقيل له : لو سمعت بمرؤفة جميع الفقراء لكان أفضل . فقال : لا هؤلاء قوم ممدهم لله سبحانه فإذا طرقتما فانة تشتت هم أحدهم فلأن أردمة واحد إلى الله عز وجل أحب إلى من أن أعطى ألفا من مته الدنيا ، فذكر هذا الكلام الجيد فاستحسنه وقال : هذا من أولياء الله تعالى وقال ما سمعت منذ زمان كلاما أحسن من هذا ، ثم حكى أن هذا الرجل اختل حاله وهم بترك الحانوت فيمض إليه الجندب مالا وقال : أجمله بضاعتك ولا تترك الحانوت فإن التجارة لا تضر مثلك ، وكان هذا الرجل يقول لا يأخذ من الفقراء شئ ما يتعاون منه . الصفة الثانية : أن يكون من أهل العلم خاصة فإن ذلك إعانة له على العلم ، والعلم أشرف المبادات مما سمحت فيه النية . وكان ابن المبارك يخص بمرؤفة أهل العلم فقيل له : لو سمعت ، فقال : لا أن أرفق بدمعهم التبرع أفضل من مقام العلماء فإذا اشتغل قلب أحدهم بواجبه لم يتفرغ للعلم يقبل على التعلم فتغريهم العلم أفضل . الصفة الثالثة : أن يكون صادقا في تقواه وعليه بالتوحيد . وتوحيد أنه إذا أخذ العطاء حمد الله عز وجل وشكره ورأى أن النعمة منه ولم ينظر إلى واسطة فهذا هو أشكر العباد لله سبحانه وهو أن يرى أن النعمة كلها منه . وفي وصية لقمان لابنه : لا تجعل بينك وبين الله منكما وأعد نعمة غيره عليك مفرما . ومن شكر غير الله سبحانه فكأنه لم يعرف المنعم ولم يلقن أن الوسطة مقهور مسخر بتسخير الله عز وجل إذ سلب الله تعالى عليه دواعي الفعل ويسر له الأسباب فأعطى وهو مقهور ، ولو أراد تركه لم يقدر عليه ببدان أن الله عز وجل في قلبه أن صلاح دينه ودينه في فعله . فهذا يرى الباعث أوجب ذلك جزم الإرادة وانتهاض القدرة ولم يستطع العبد مخالفة الباعث القوى الذي لا يرد فيه والله عز وجل خالق للبركات ومهيأها ومزيل للضعف والتردد عنها ومسخر القدرة للانتهاض بمقتضى البركات . فمن يقن هذا لم يكن له نظر إلا إلى مسبب الأسباب : ويقن مثل هذا العبد أنفع للمعطي من ثناء غيره وشكره ، فذلك حركة لسان يقل في الأكثر جدها وإعانة مثل هذا العبد المرحح لا تضع . وأما الذي يمدح بالعطاء ويدهو بالخير فيسبغ بالتمسح ويدهو بالشر عند الإيذاء وأحواله متفاوتة ، وقد روى أنه صلى الله عليه وسلم بعث مروفا إلى بعض الفقراء وقال للرسول احفظ ما يقول ؛ فلما أخذ قال : الحمد لله الذي لا ينسى من ذكره ولا يضيع من شكره . ثم قال اللهم إنك لم تنس فلانا - يعنى نفسه - فأجمل فلانا لا ينساك - يعنى بفلان نفسه - فأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك

(١) حديث « لا تأكل إلا طماق تقي ولا تأكل طعامك إلا تقي » أخرجه أبو داود والترمذي من حديث أبي سعيد بن جابر .
 (٢) حديث « أطعموا طعامكم الإتياء وأولوا مروءة المؤمنين » أخرجه ابن المبارك في البر الوصلة من حديث أبي سعيد الخدري قال ابن طاهر غريب فيه مجهول (٣) حديث « أحف بطعامك من محبة الله » أخرجه ابن المبارك أنبأ جوير بن الضحاك مرسلا .

فسر وقال صلى الله عليه وسلم : حلت أنه يقول ذلك ^(١) ، فانظر كيف قصر التفاته على الله وحده ، وقال صلى الله عليه وسلم لرجل : تب فقال أتوب إلى الله وحده ولا أتوب إلى محمد فقال صلى الله عليه وسلم عرف الحق لأمله ^(٢) ، ولما نزلت براءة عائشة رضي الله عنها في قصة الإنك قال أبو بكر رضي الله عنه : قومي قبيل رأس رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت والله لأفعلن ولا أحد إلا الله فقال صلى الله عليه وسلم : دعها يا أبا بكر ^(٣) ، وفي لفظ آخر : أنها رضي الله عنها قالت لابي بكر رضي الله عنه : بحمد الله لا بحمدك ولا بحمد صاحبك ، فلم ينكر رسول الله صلى الله عليه وسلم عليها ذلك مع أن الوحى وصل إليها على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم . ورؤية الأشياء من غير الله سبحانه وصف الكافرين قال الله تعالى ﴿ ولذا ذكر الله وحده اشأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون ﴾ ومن لم يصف باطنه عن رؤية الوسايط إلا من حيث لأنهم وسايط فكانت له ينفك عن الشرك الحق سره . فليتنق الله سبحانه في تصفية توحده عن كدورات الشرك وشوائبه .

الصفة الرابعة : أن يكون مستترا غنيا حاجته لا يكثر اليك والشكوى أو يكون من أهل الروء عن ذهبت نعمته وتبنت عاداته فهو يتعيش في جلباب التجمل قال الله تعالى ﴿ يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس إلحافا ﴾ أى لا يلحون في السؤال لأنهم أغنياء يقيضهم أعزة بصبرهم ، وهذا ينبغي أن يطلب بالتفحص عن أهل الدين في كل محلة ويستكشف عن بواطن أحوال أهل الخير والتجمل فتواب صرف المعروف إليهم أضعاف ما يصرف إلى المجاهرين بالسؤال .

الصفة الخامسة : أن يكون مديلا أو محبوسا بمرض أو بسبب من الأسباب فيوجد فيه معنى قوله هو رجل ﴿ للفقراء الذين أحصروا في سبيل الله ﴾ أى حبسوا في طريق الآخرة بعملة أو ضيق معيشة أو إصلاح قلب ﴿ لا يستطيعون ضربا في الأرض ﴾ لأنهم مقصودوا الجناح مقيدوا الأطراف . فبهذه الأسباب كان عمر رضي الله عنه يعطى أهل البيت القطيع من الغنم - العشرة فما فوقها - وكان صلى الله عليه وسلم يعطى العطاء على مقدار العميلة ^(٤) وسأل عمر رضي الله عنه عن جهد البلاء فقال كثرة العيال وقلة المال .

الصفة السادسة : أن يكون من الأقارب وذوى الأرحام فتكون صدقة وصلة رحم وفي صلة الرحم من الثواب ما لا يحصى . قال على رضي الله عنه : لأن أصل أعمى من إخواني بدرهم أحب إلى من أن أنصدق بمشرين درهمين لأن أصله بمشرين درهمين أحب إلى من أن أنصدق بمائة درهم ولأن أصله بمائة درهم أحب إلى من أن أنصدق بربعة . والأصدقاء وإخوان الخبير أيضا

(١) حديث « بنت مروة آل أبي بكر رضي الله عنه قالت سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن رجل قال لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر ولا بأهل بيته ولا بأهل بيته ولا بأهل بيته ولا بأهل بيته ... الحديث » لم أجده إلا في حديث ضعيف من حديث ابن عمر روى ابن منده في الصحابة أنه قال صلى الله عليه وسلم : « من لم يؤمن بالله ولا بأهل بيته ولا بأهل بيته ولا بأهل بيته ... الحديث » وقال أبو بكر رضي الله عنه : قومي قبيل رأس رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت لأمله ^(٢) ، ولما نزلت براءة عائشة رضي الله عنها في قصة الإنك قال أبو بكر رضي الله عنه : قومي قبيل رأس رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت والله لأفعلن ولا أحد إلا الله فقال صلى الله عليه وسلم : دعها يا أبا بكر ^(٣) ، وفي لفظ آخر : أنها رضي الله عنها قالت لابي بكر رضي الله عنه : بحمد الله لا بحمدك ولا بحمد صاحبك ، فلم ينكر رسول الله صلى الله عليه وسلم عليها ذلك مع أن الوحى وصل إليها على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم . ورؤية الأشياء من غير الله سبحانه وصف الكافرين قال الله تعالى ﴿ ولذا ذكر الله وحده اشأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون ﴾ ومن لم يصف باطنه عن رؤية الوسايط إلا من حيث لأنهم وسايط فكانت له ينفك عن الشرك الحق سره . فليتنق الله سبحانه في تصفية توحده عن كدورات الشرك وشوائبه .

(٢) حديث « قال لرجل تب فقال أتوب إلى الله وحده ولا أتوب إلى محمد ... الحديث » أخرجه أحمد والطبراني في حديث الأحمود ابن مريم بسند ضعيف (٣) حديث « لما نزلت براءة عائشة رضي الله عنها في قصة الإنك قال أبو بكر رضي الله عنه : قومي قبيل رأس رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت لأمله ^(٢) ، ولما نزلت براءة عائشة رضي الله عنها في قصة الإنك قال أبو بكر رضي الله عنه : قومي قبيل رأس رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت والله لأفعلن ولا أحد إلا الله فقال صلى الله عليه وسلم : دعها يا أبا بكر ^(٣) ، وفي لفظ آخر : أنها رضي الله عنها قالت لابي بكر رضي الله عنه : بحمد الله لا بحمدك ولا بحمد صاحبك ، فلم ينكر رسول الله صلى الله عليه وسلم عليها ذلك مع أن الوحى وصل إليها على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم . ورؤية الأشياء من غير الله سبحانه وصف الكافرين قال الله تعالى ﴿ ولذا ذكر الله وحده اشأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون ﴾ ومن لم يصف باطنه عن رؤية الوسايط إلا من حيث لأنهم وسايط فكانت له ينفك عن الشرك الحق سره . فليتنق الله سبحانه في تصفية توحده عن كدورات الشرك وشوائبه .

(٤) حديث « كان يعطى العطاء على مقدار العميلة » لم أره إلا في حديث واحد من حديث عوف بن مالك « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا أهد الله له شيء من يومه وأعطى أهل بيتين وأعطى الزب حظا »

يقدمون على المعارف كما يتقدم الأقارب على الأجانب ؛ فليراع هذه الدقائق فهذه هي الصفات المطلوبة ، وفي كل صفة درجات فيليني أن يطلب أعلاها ، فإن وجد من جمع جملة من هذه الصفات فهي الخيرة الكبرى والنتيجة العظمى . وهما اجتهد في ذلك وأصاب فله أجران وإن أخطأ فله أجر واحد ، فإن أجد أجره في الحال تطهير نفسه من صفة للبخل وتأكيده حب الله عز وجل في قلبه واجتهاد في طاعته ، وهذه الصفات هي التي تقوى في قلبه فتشوقه إلى لقاء الله عز وجل . والأجر الثاني ما يعود إليه من فائدة دعواته وأخذ ميثاق قلبه الأبرار لها آثار في الحال والمآل ، فإن أصاب حصل الأجران وإن أخطأ حصل الأول دون الثاني فهذا يضاعف أجر المصيب في الاجتهاد وهنا وفي سائر المواضع والله أعلم .

الفصل الثالث في القايض وأسباب استحقاقه ووظائف قبضه

بيان أسباب الاستحقاق

اعلم أنه لا يستحق الزكاة إلا الحر مسلم ليس بهاشي ولا مطلق انصف بصفه من صفات الأصناف الثمانية المذكورين في كتاب الله عز وجل . ولا تصرف زكاة إلى كافر ولا إلى عبد ولا إلى هاشي ولا إلى مطلق . أما الصبي والمجنون فيجوز الصرف إليهما إذا قبض وليهما فلنذكر صفات الأصناف الثمانية (الصف الأول) الفقراء : والفقير هو الذي ليس له مال ولا قدرة له على الكسب ، فإن كان معه قوت يومه وكسوة حاله فليس بفقير ولكنه مسكين ، وإن كان معه نصف قوت يومه فهو فقير ، وإن كان معه قبض وليس معه متديل ولا خف ولا راويل ولم تكن قيمة القميص بحيث تفي بجميع ذلك كما يليق بالفقراء فهو فقير ، لأنه في الحال قد علم ما هو محتاج إليه وما هو عاجز عنه فلا ينبغي أن يشترط في الفقير أن لا يكون له كسوة سوى سائر المودة فإن هذا غلو ، والغالب أنه لا يوجد مثله ولا يخرج من الفقر كونه محتاداً للسؤال ، فلا يجعل السؤال كسباً بخلاف ماله قدر على كسب فإن ذلك يخرج من الفقر فإن قدر على الكسب بآلة فهو فقير ويجوز أن يشتري له آلة . وإن قدر على كسب لا يليق بمرءته وبحال مثله فهو فقير ، وإن كان متفقها ويمتعه الاشتغال بالكسب عن التفقه فهو فقير ولا تقبر قدرته ، وإن كان متعبداً بيمينه الكسب من وظائف العبادات وأرواد الأوقات فليكن كسب لأن الكسب أولى من ذلك قال صلى الله عليه وسلم : طلب الحلال فريضة بعد الفريضة ^(١) ، وأراد به السعي في الاكتساب . وقال عمر رضي الله عنه : كسب في شبهة خير من مسألة . وإن كان مكتفياً بنفقة أبيه أو من يجب عليه نفقته فهذا أهون من الكسب فليس بفقير (الصف الثاني) المساكين : والمسكين هو الذي لا يفي دخله بخبرجه فقد يملك ألف درهم وهو مسكين وقد لا يملك إلا نفاساً وحلماً وهو غني ، والدورة التي يسكنها والتوب الذي يستره على قدر حاله لا يسلب اسم المسكين ، وكذا أثاث البيت - أضي ما يحتاج إليه - وذلك ما يليق به ، وكذا كتب الفقه لا تخرج من المسكنة وإذا لم يملك إلا الكتب فلا تزره صدقة الفطر . وحكم الكتاب حكم الثوب وأثاث البيت فإنه محتاج إليه ولكن ينبغي أن يحتاط في قطع الحاجة بالكتاب ، فالكتاب محتاج إليه ثلاثة أغراض : التعليم والاستفادة والتفوق بالمطالعة . أما حاجة التفرج فلا تعتبر كافتناء كتب الأشعار وتواريخ الأخبار وأمثال ذلك مما لا ينفع في الآخرة ولا يجرى في الدنيا إلا مجرد التفرج والاستئناس ، فهذا يباع في الكفارة وزكاة الفطر ويمتنع اسم المسكنة . وأما حاجة التعليم إن كان لأجل الكسب كالطوب والمعلم والمدرس بأجره فهذه آتة فلا يباع في الفطرة كأدوات الحياض وسائر المترفين ، وإن كان يدرس للقيام بفرض

(١) حديث « طلب الحلال فريضة بعد الفريضة » أخرجه الطبراني والبيهقي في شعب الإيمان من حديث ابن مسعود بسند ضيف .

الكفاية فلا يتابع ولا يسلب ذلك اسم المسكين لأنها حاجة مهمة ، وأما حاجة الاستفادة والتعلم من الكتاب كادخاره كتب طب ليعالج بها نفسه أو كتاب وعظ ليطالع فيه ويتنظ به فإن كان في البلد طبيب وواعظ فهذا مستغنى عنه وإن لم يكن فهو محتاج إليه . ثم ربما لا يحتاج إلى مطالعة الكتاب إلا بعد مدة فينبغي أن يضبط مدة الحاجة . والأقرب أن يقال لا يحتاج إليه في السنة فهو مستغنى عنه فإن من فضل من قوت يومه شيء لزمته الفطرة . فإذا قدرنا القوت باليوم لحاجة أمثالك البيت وقيام البدن فينبغي أن تقدر بالسنة ؛ فلا يتابع ثياب الصيف في الشتاء والكتب بالثياب والأثاث أشبه وقد يكون له من كتاب نسختان فلا حاجة إلى إحداها . فإن قال : إحداها أصح والأخرى أحسن فأنا محتاج إليهما ؟ قلنا : اكتف بالأصح وبع الأحسن ودع التفرج والترفع . وإن كان نسختان من علم واجد إحداها بسيطة والأخرى وجيزة فإن كان مقصوده الاستفادة فليكتف بالبسيطة وإن كان قصده التدريس فيحتاج إليهما إذ في كل واحدة قاعدة ليست في الأخرى . وأمثال هذه الصور لا تحصر ولم يتمرض له في فن الفقه وإنما أوردناه لعموم البلوى والتشبه بحسن هذا النظر على غيره . فإن استقصاه هذه الصور غير ممكن إذ يمتدئ مثل هذا النظر في أمثالك البيت في مقدارها وهددها ونوعها وفي ثياب البدن وفي البار وسبها وضيقها . وليس لهذه الأمور حدود محدودة ولكن الفقيه يجتهد فيها برأيه ويقرب في التحديدات بما يراه ويتقن فيه خطر الشبهات . والمتنوع يأخذ فيه بالأحوط ويدع ما يراه إلى مالا يراه . والدرجات المتوسطة المشككة بين الأطراف المتقابلة الجلية كثيرة ولا ينشئ منها إلا الاحتياط والله أعلم . (الصف الثالث)

العاملون : وهم السعاة الذين يجمعون الزكوات سوى الخليفة والقاضي ويدخل فيه العريف والكاظم والمستوفى والحافظ والفتال ولا يزداد واحد منهم على أجره المثل ؛ فإن فضل شيء من الثمن عن أجره ملهم رد على بقية الأصناف وإن نقص كل من مال المصالح (الصف الرابع) المؤلفون فلو جهلهم على الإسلام : وهم الأشراف الذين أسلوا وهم مطاعون في قومهم ، وفي إعطائهم تقريرهم على الإسلام وترغيب نظائرهم وأنبأهمهم (الصف الخامس) المكاتبون : فيدفع إلى السيد سهم المكاتب وإن دفع إلى المكاتب جاز ولا يدفع السيد زكاته إلى مكاتب نفسه لأنه يمتد عبدا له . (الصف السادس) العارمون : والعارم هو الذي استقرض في طاعة أو مباح وهو فقير فإن استقرض في معصية فلا يمتدئ إلا إذا تاب ، وإن كان غنيا لم يقض دينه إلا إذا كان قد استقرض لمصلحة أو إطفاء فتنه (الصف السابع) الفزاة : الذين ليس لهم مرسوم في ديوان المرتزقة فيصرف إليهم سهم وإن كانوا أغنياء إعانة لهم على الغزو (الصف الثامن) أين السليل : وهو الذي خصص من بلده ليسافر في غير معصية أو اجتاز بها فيمض على إن كان فقيرا وإن كان له مال يملك آخر أعطى بقدر بلفته . فإن قلت : فم تعرف هذه الصفات ؟ قلنا : أما الفقير والمسكنة فيقول الآخذ ولا يطالب بيته ولا يحلف بل يجوز اعتياده قوله إذا لم يعلم كذبه . وأما الغزو والسفر فهو أمر مستحيل فيمض بقوله إلى غار فإن لم يف به استرد . وأما بقية الأصناف فلا بد فيها من البيعة فهذه شروط الاستحقاق . وأما مقدار ما يصرف إلى كل واحد فسيأتي .

بيان وظائف القايض وهي خمسة

(الأول) أن يعلم أن الله عز وجل أوجب صرف الزكاة إليه ليكني هم ويجعل همومه ما واحدا . فقد تبيد الله عز وجل الحق بأن يكون همهم واحدا وهو الله سبحانه واليوم الآخر وهو المعنى بقوله تعالى ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾ ولكن لما اقتضت الحكمة أن يسلم على العبد الشهوات والحاجات وهي تفرق هم

انتفى الكرم لإفاحة نعمة تمكن الحاجات فأكثر الأموال وصحبها في أيدى عباد لتسكن آله لم يدفع حاجاتهم وسيلة لتفريغهم لطاعاتهم ، فبهم من أكثر ماله فتنة وأولية فأفحصه في الخضر ومنهم من أحبه لحماة عن الدنيا كما يحصى المشفق مرهقه فزوى عنه فغضوها وساق إليه قدر حاجته على بد الأضياف ليكون سهل الكسب والتعب في الجمع والمحافظة عليهم ، وفائدته تعصب إلى الفقراء فيتمجدون لعبادة الله والاستعداد لما بعد الموت فلا تصرفهم عنها فضول الدنيا ولا تشغلهم عن التأهب للقاء وهذا منتهى النعمة . لحق الفقير أن يعرف قدر نعمة الفقر ويتحقق أن فضل الله عليه فيما زواه عنه أكثر من فضله فيما أعطاه - كما سيأتي في كتاب الفقر تحقيقه وبيان إن شاء الله تعالى - فلأياخذ ما يأخذه من الله سبحانه وزقا له وهو نا له على الطاعة وتسكن بيته فيه أن يتقوى به على طاعة الله فإن لم يقدر عليه فليصرفه إلى ما أباحه الله عز وجل فإن استعان به على معصية الله كان كافرا لأن الله عز وجل مستحق للبدن والمقت من الله سبحانه (الثاني) أن يشكر المعطى ويدعو له ويثني عليه ويكون شكره ودعاؤه بحيث لا يخرج عن كونه واسطة ولكنه طريق وصول نعمة الله سبحانه إليه ، والطريق حق من حيث جعله الله طريقا وواسطة وذلك لا ينافي رؤية النعمة من الله سبحانه فقد قال صلى الله عليه وسلم : « من لم يشكر الناس لم يشكر الله » (١) ، وقد أثنى الله عز وجل على عباده في مواضع على أعمالهم وهو خالقها وقاطر القدرة عليها نحو قوله تعالى ﴿ نعم المبدئ » أواب ﴿ إلى غير ذلك . وليل القابض في دعائه طهر الله قلبك في قلوب الأبرار وزكى عاكك في عمل الأخيار وصل على روحك في أرواح الشهداء وقد قال صلى الله عليه وسلم : « من أسدى إليك معروف فكافته فإن لم تستطعوا فادعوا له حتى تملوا أنكم قد كافأتموه » (٢) ، ومن تمام الشكر أن يستر صيوب العطاء إن كان فيه عيب ولا يحقره ولا يدمه ولا يعيره بالمنع إذا منع وبغض عند نفسه وعند الناس صفيه . فوظيفة المعطى الاستصغار ووظيفة القابض تفقد المنة والاستعظام . وصل كل عبد القيام بحقه ؛ وذلك لاتناقض فيه إذ موجبات التصغير والتعظيم تتعارض . والتافع للمعطى ملاحظة أسباب التصغير ويعضه خلافه والآنخذ بالمكس منه . وكل ذلك لا يناقض رؤية النعمة من الله عز وجل فإن من لا يرى الواسطة واسطة فقد جهل وإنما المنكر أن يرى الواسطة أصلا (الثالثة) أن ينظر فيما يأخذه فإن لم يكن من حل تورع عنه (ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب) وإن يعدم المتورع عن الحرام فتوحا من الحلال . فلا يأخذ من أموال الأتراك والجنود وعمال السلاطين ومن أكثر كسبه من الحرام إلا إذا ضاق الأمر عليه وكان ما يسلم إليه لا يعرف له مالكا مينا فله أن يأخذ بقدر الحاجة ؛ فإن فتوى الشرع في مثل هذا أن يتصدق به - على ماسيأتي بيانه في كتاب الحلال والحرام - وذلك إذا عجز عن الحلال فإذا أخذ لم يكن أخذه أخذ زكاة إذ لا يقع زكاة عن مؤديه وهو حرام (الرابعة) أن يتوقى مواقع الرية والأشقياء في مقدار ما يأخذه فلا يأخذ إلا اللقدار المباح ولا يأخذ إلا إذا تحقق أنه موصوف بصفة الاستحقاق . فإن كان يأخذه بالكتابة والفراغة فلا يزيد على مقدار الدين . وإن كان يأخذ بالعمل فلا يزيد على أجره للكل . وإن أعطى زيادة أبي واستع إذ ليس المال للمعطى حتى يتبرع به . وإن كان مسافرا لم يرد على الزاد وكراه العودة إلى مقصده . وإن كان غازيا لم يأخذ إلا ما يحتاج إليه للغزو خاصة من خيل وسلاح ونفقة . وتقدير ذلك بالاجتهاد وليس له حد ، وكلما زاد السفر ، والورع ترك ما يريبه إلا ما لا يريبه . وإن أخذ بالمسكة فليظن أولا لا أثم يتتوينا به

(١) حديث « من لم يشكر الناس لم يشكر الله » أخرجه الترمذي وحسنه من حديث أبي سعيد وله ولأبي داود وابن جرير نحوه من حديث أبي هريرة وقال حسن صحيح (٢) حديث « من أسدى إليك معروف فكافته » الحديث « أخرجه أبو داود والنسائي من حديث ابن عمر بإسناد صحيح بلفظ « من صنع »

وكتب له فيها ما يستغنى عنه بعينه أو يستغنى عن نفقاته فيمكن أن يدل بما يكفي ويفضل بعض قيمته ؟ وكل ذلك إلى اجتهاده . وفيه طرف ظاهر يتحقق معه أنه مستحق وطرف آخر مقابل يتحقق معه أنه غير مستحق وبينهما أوساط مشبهة ، ومن حاش حول الحق يوشك أن يقع فيه ، والاعتدال في هذا على قول الأخذ بظاهره . والاحتياج في تقدير الحاجات مقابلات في التصنيق والتوسيع ولا تحصر مراتبه وميل الورع إلى التصنيق وميل المتساهل إلى التوسيع حتى يرى نفسه محتاجا إلى فنون من التوسع وهو محقوت في الشرع . ثم إذا تحققت حاجته فلا يأخذن مالا كثيرا بل ما يتم كفايته من وقت أخذه إلى سنة . فهذا أقصى ما يرخص فيه من حيث أن السنة إذا تكررت تكررت أسباب الدخول . ومن حيث إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أدخل لبيته ثوبين سنة (١) فهذا أقرب ما يجد به هذا الفقير والمسكين ولو اقتصر على حاجة شهره أوحاجة يومه فهو أقرب التقوى . ومذاهب العلماء في قدر المأخوذ بحكم الزكاة والصدقة مختلفة فمن يبالغ في التقليل إلى حد أوجب الاقتصاد على قدر قوت يومه وليلته وتمسكوا بما روى سهل بن الحنفية . أنه صلى الله عليه وسلم نهى عن السؤال مع الفتي فسل عن غناه فقال صلى الله عليه وسلم غداؤه وعشاؤه (٢) . وقال آخرون : يأخذ إلى حد الفتي . حد الفتي نصاب الزكاة إذ لم يوجب الله تعالى الزكاة إلا على الأغنياء فقالوا له أن يأخذ بنفسه ولكل واحد من عياله نصاب زكاة . وقال آخرون : حد الفتي خمسون درهما أو قيمتها من الذهب لما روى ابن مسعود أنه صلى الله عليه وسلم قال : من سأل وله مال يقضيه جاء يوم القيامة وفي وجهه بخروش فسل وماذا ؟ قال خمسون درهما أو قيمتها من الذهب (٣) . وقيل : رواه ليس بقوى وقال قوم : أربعون ، لما رواه عطاء بن يسار منقطعاً أنه صلى الله عليه وسلم قال : من سأل وله أوقية فقد ألحف في السؤال (٤) ، وبالعكس آخرون في التوسع فقالوا : له أن يأخذ بمقدار ما يشتري به ضيعة فيستغنى به طول عمره أو يبيها بضاعة ليشتري بها ويستغنى بها طول عمره لأن هذا هو الفتي . وقد قال عمر رضي الله عنه : إذا أعطيت فاعطها ، حتى ذهب قوم إلى أن من افتقر فله أن يأخذ بقدر ما يعود به إلى مثل حاله ولو عشرة آلاف درهم إلا إذا خرج عن حد الاعتدال . ولما شغل أبو طلحة ببستانه عن الصلاة قال : جعلته صدقة . فقال صلى الله عليه وسلم : اجعله في قرابتك فهو خير لك (٥) ، فأعطاه حسان وأبا قتادة . فحاط من نخل لرجلين كبير من وأعطى عمر رضي الله عنه أعرابيا ناقة معها ظر لها ، فهذا ما حكى فيه فأما التقليل إلى قوت اليوم أو الأوقية فذلك ورد في كراهية السؤال والتردد على الأبواب وذلك مستفكر وله حكم آخر ، بل التجوز إلى أن يشتري ضيعة فيستغنى بها أقرب إلى الاحتياط وهو أيضاً مائل إلى الإسراف . والأقرب إلى الاعتدال كفاية سنة فما وراءه فيه خطر وفيها دونه تعنيق . وهذه الأمور إذا لم يكن فيها تقدير جزم بالتوقيف فليس للجهل إلا الحكم بما يقع له . ثم يقال الورع استغنى قلبك وإن افتقر وأفتقر (٦) ، كما قاله صلى الله عليه وسلم إذا أليم حراز القلوب ، فإذا وجد التابض في نفسه شيئاً مما يأخذه فليقت الله فيه ولا يترخص تملأ بالفتوى من

(١) حديث « أدخل لبيته ثوبين سنة » أخرجه من حديث جمر « كان ينزل ثوباً أهله سنة » وأما البراءة في الأوسط من حديث أنس « كان إذا أدخل أهله ثوبين سنة » في الحديث « قال القهي حديث منكرو
(٢) حديث سهل بن الحنفية « في النهي عن السؤال مع الفتي ليسأل ما يفتيه فقال غداؤه وعشاؤه » أخرجه أبو داود وابن حبان بلفظ « من سأل وله ما يفتيه فإنما يتكثر من جرحهم .. الحديث » (٣) حديث ابن مسعود « من سأل وله ما يفتيه جاء يوم القيامة وفي وجهه بخروش » الحديث « أخرجه أصحاب السنن وحسنه الأئمة وضعه النسائي والخطابي (٤) حديث عطاء بن يسار منقطعاً « من سأل وله أوقية فقد ألحف في السؤال » أخرجه أبو داود والنسائي من رواية صفاء بن رجل من بني أسد متصلاً وليس بمتقطع كما ذكر المصنف لأن الرجل صحابي فلا يضر عدم تسميته وأخرجه أبو داود والنسائي وابن حبان من حديث أبي سعيد (٥) حديث « لما شغل أبا طلحة ببستانه عن الصلاة قال جعلته صدقة » تقدم في الصلاة (٦) حديث « استغنى قلبك وإن افتقر » تقدم في العلم .

علماء الظاهر فإن لفتواهم قيودا ومغلقات من الضرورات ، وفيها تخمينات واقترام شبهات . والتوقى من الشبهات من شيم ذوى الدين وعادات السالكين لطريق الآخرة (الخامسة) أن يسأل صاحب المال عن قدر الواجب عليه فإن كان ما يعطيه فوق الثمن فلا يأخذه منه فإنه لا يستحق مع شريكه إلا الثمن فليتقص من الثمن مقدار ما يصرف إلى اثنين من صفته . وهذا السؤال واجب على أكثر الخلق فإنهم لا يراعون هذه القسمة إما لجهل وإما لتساهل ، وإنما يجوز ترك السؤال عن مثل هذه الأمور إذا لم يفتل على الظن احتمال التحريم . وسياق ذكر مظان السؤال ودرجة الاحتمال في كتاب الحلال والحرام إن شاء الله تعالى .

الفصل الرابع : في صدقة التطوع وفضلها وآداب أخذها وإعطائها

بيان فضيلة الصدقة

من الأخبار : قوله صلى الله عليه وسلم « تصدقوا ولو بشمرة فإنها تسد من الجائع وتطفى الخبيطة كما يطفى الماء النار »^(١) ، وقال صلى الله عليه وسلم « اتقوا النار ولو بشق ثمرة فإن تجدوا فيكلمة طيبة »^(٢) ، وقال صلى الله عليه وسلم « مامن عبد مسلم يتصدق بصدقة من كسب طيب ولا يقبل الله إلا طيبا إلا كان الله أخذها بيمنه فريها كما يرى أحكم فصيله حتى تبلغ الثرة مثل أحد »^(٣) ، وقال صلى الله عليه وسلم « إذا بلخت مرقة فأكثر ماها ثم انظر إلى أهل بيت من جيرانك فأصهم منه بمعروف »^(٤) ، وقال صلى الله عليه وسلم « ما أحسن عبد الصدقة إلا أحسن الله عز وجل الخلافة على تركته »^(٥) ، وقال صلى الله عليه وسلم « كل امرئ في ظل صدقة حتى يقضى بين الناس »^(٦) ، وقال صلى الله عليه وسلم « الصدقة تسد سبعين بابا من الشر »^(٧) ، وقال صلى الله عليه وسلم « صدقة السر تطفى غضب الرب عز وجل وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما ألدى أعطى من سعة بأفضل أجرا من الذى يقبل من حاجة »^(٨) ، ولعل المراد به الذى يقصد من دفع حاجته التفرغ للدين فيكون مساويا للمعطى الذى يقصد بإعطائه عجارة دينه . وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم « أى الصدقة أفضل ؟ قال : أن تصدق وأنت صحيح تأمل البقاء وتحشى الفاقة ولا تلهى حتى إذا بلغت الخلقوم قلت لفلان كذا ولفلان كذا وقد كان لفلان »^(٩) ، وقد قال صلى الله عليه وسلم يوما لأصحابه « تصدقوا فقال رجل إن عندى دينار فقال أنفقه على نفسك فقال : إن عندى آخر قال أنفقه

- (١) حديث « تصدقوا ولو بشمرة فإنها تسد من الجائع وتطفى الخبيطة كما يطفى الماء النار » أخرجه ابن المبارك في الزهد من حديث عكرمة مرسلا ولا أحد من حديث عائشة بسند حسن « استقرى من النار ولو بشق ثمرة » فإنها تسد من الجائع سدها من الضيقان « ولا يلى وبالبزاد من حديث أبى بكر » اتقوا النار ولو بشق ثمرة فإنها تهم الدوج وتكلم ميتة السوء وتكف من الجائع موفعة من البطان « وإسناده ضعيف وإسناده فى الكبرى وابن ماجه فى حديث صفاء « والصدقة تطفى الخبيطة كما يطفى الماء النار » (٢) حديث « اتقوا النار ولو بشق ثمرة فإن تجدوا فيكلمة طيبة » أخرجه من حديث عبد بن حاتم (٣) حديث « ما من عبد مسلم يحصق بصدقة من كسب طيب ولا يقبل الله إلا طيبا .. الحديث » أخرجه البخارى تعليقا ومسلم والترمذى والنسائى فى الكبرى واللفظ لابن ماجه من حديث أبى هريرة (٤) حديث « قال لأبى الفرداء إذا بلخت مرقة فأكثر ماها .. الحديث » أخرجه من حديث أبى ذر أنه قال ذلك له وما ذكره المصنف أنه قال لأبى الفرداء وم (٥) حديث « ما أحسن عبد الصدقة إلا أحسن الله الخلافة على تركته » أخرجه ابن المبارك في الزهد من حديث ابن عهاب مرسلا بإسناد صحيح وأسنده الخطيب فى روى عن مالك من حديث ابن عمر وضمنه (٦) حديث « كل امرئ في ظل صدقة حتى يقضى بين الناس » ابن النضر « وأسنده الخطيب فى روى عن مالك من حديث ابن عمر وضمنه (٧) حديث « الصدقة تسد سبعين بابا من الشر » أخرجه ابن المبارك في البر من حديث أنس بسند ضعيف « لأن الله يدرأ بالصدقة سبعين بابا من ميتة السوء » (٨) حديث « ما أعطى من سعة بأفضل أجرا من الذى يقبل من حاجة » أخرجه ابن حبان في الضعفاء والطبراني في الأوسط من حديث أنس ورواه فى الكبرى من حديث ابن عمر بسند ضعيف (٩) حديث « مثل أى الصدقة أفضل قال أن تصدق وأنت صحيح تنجح ... الحديث » أخرجه من حديث أبى هريرة

على زوجته قال إن عندي آخر قال أنفق على ولديك قال إن عندي آخر قال أنفق على خادمك قال إن عندي آخر . قال صلى الله عليه وسلم أنت أبصر به ^(١) ، وقال صلى الله عليه وسلم : لا تحمل الصدقة لأن محمد إنما أوساخ الناس ^(٢) ، وقال دروداً مذكراً للسائل ولو يمتل رأس الطائر من الطعام ^(٣) ، وقال صلى الله عليه وسلم : لو صدق السائل ما أفلح من رده ^(٤) ، وقال عيسى عليه السلام . من رد سائلاً غائباً من بيته لم تنفش الملائكة ذلك البيت سبعة أيام ، وكان نبينا صلى الله عليه وسلم لا يسكن خصلتين إلى غيره كان يضع ظهوره بالليل ويغمره وكان يناول المسكين يده ^(٥) ، وقال صلى الله عليه وسلم : ليس المسكين الذي ترده القرة والقرتان والقمة والقمتان إنما المسكين المتعفف اقرءوا إن شئتم لا يسألون الناس إلخافاً ^(٦) ، وقال صلى الله عليه وسلم : ما من مسلم يكسو مسلماً إلا كان في حفظ الله عز وجل ما دامت عليه منه رقعة ^(٧) . والآثار : قال عروة بن الزبير لقد تصدقت عائشة رضي الله عنها بمخمين ألفاً وإن درعها لم يرفع وقال بجاهد في قول الله عز وجل (ويعطونهم الطعام على حبه مسكيناً ويتيمماً وأسيراً) فقال : وهم يشبهونه وكان عمر رضي الله عنه يقول : اللهم اجعل الفضل عند خيارنا لعلمهم يعودون به على ذوي الحاجة منا . وقال عمر عبد العزيز : الصلاة بثلثك نصف الطريق والصوم يملكك باب الملك والصدقة تدخلك عليه . وقال ابن أبي الجعد : إن الصدقة تدفع سبعين باباً من سوءه وفضل سرها على علائقها بسبعين ضعفاً وإنها لتترك لحي سبعين شيطاناً . وقال ابن مسعود : إن رجلاً عبد الله سبعين سنة ثم أصاب فاحشة فأحبط عمله ثم مر بمسكين فتصدق عليه برغيف ففقر الله له ذنبه ورد عليه عمل السبعين سنة . وقال لقمان لابنه : إذا أخطأت خطيئة فأعط الصدقة . وقال يحيى بن معاذ ما أعرى حبة ترز جبال الدنيا إلا الحبة من الصدقة . وقال عبد العزيز بن أبي رواد : كان يقال ثلاثة من كوز الجنة كتمان المرض وكتمان الصدقة وكتمان المصائب . وروى مسنداً وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : إن الأعمال تهاجم فتقاتل الصدقة أنا أفضلكن . وكان عبد الله بن عمر يتصدق بالسكر ويقول سمعت الله يقول (لن تاتوا البر حتى تغفوا بما تمحرون) والله يعلم أني أحب السكر . وقال التيمي : إذا كان الشيء لله عز وجل لا يسرن أن يكون فيه عيب . وقال عبيد بن عمير : يحشر الناس يوم القيامة أجمع ما كانوا قط وأعطش ما كانوا قط وأعرى ما كانوا قط ، فمن أطعم الله عز وجل أشبعه الله ومن سقى الله عز وجل ساء الله ومن كسا الله عز وجل كسا الله ، وقال الحسن : لو شأما الله لجعلكم أغنياء لا فقير فيكم ولكنه ابتلى بعضكم ببعض . وقال الشعبي : من لم ير نفسه إلى ثواب الصدقة أخرج من الفقير إلى صدقته فقد أبطل صدقته وضرب بها وجهه . وقال مالك : لا ترى بأساً بشرب المؤمن من الماء الذي يتصدق به ويسقى في المسجد لأنه إنما جعل للعطشان من كان ، ولم يرد به أهل الحاجة والمسكنة على الخصوص ويقال : إن الحسن مر به نخاس

(١) حديث « قال يوماً لأصحابه تصدقوا فقال رجل إن عندي دينار فقال أنفق على نفسك .. الحديث » أخرجه أبو داود والنسائي واللفظ « وإن كان والمائة من حديث أبي هريرة وقد تقدم قبل بغير

(٢) « حديث لا تحمل الصدقة لأن محمد .. الحديث » أخرجه مسلم من حديث الخطاب بن ربيعة .

(٣) حديث « دروداً مذكراً للسائل ولو يمتل رأس الطائر من الطعام » أخرجه الطيالسي في الضعفاء من حديث عائشة

(٤) حديث « لو صدق السائل ما أفلح من رده » أخرجه الطيالسي في الضعفاء وابن عبد البر في التقييد من حديث عائشة ، قال الطيالسي لا يصح في هذا الباب شيء ، والطبراني نحوه من حديث أبي أمامة بنده ضعيف (٥) حديث « كان لا يسكن خصلتين إلى غيره .. الحديث » أخرجه المازيني من حديث ابن عباس بنده ضعيف ورواه ابن المبارك في البر مسنداً

(٦) حديث « ليس المسكين الذي ترده القرة والقرتان .. الحديث » متفق عليه من حديث عائشة

(٧) حديث « ما من مسلم يكسو مسلماً إلا كان في حفظ الله .. الحديث » أخرجه الترمذي وحسنه والحاكم وصححه إسناده من حديث ابن عباس وفيه خالف بن طهقان ضعيف

ومعه جارية فقال النخاس أترضى في ثمنها درهم والدرهمين ؟ قال : لا ، قال فاذبح فإن الله عز وجل رضى عن الحور العين بالنفس والقيمة .

بيان إخفاء الصدقة وإظهارها

قد اختلف طريق طلاب الإخلاص في ذلك فال قوم إلى أن الإخفاء أفضل ومال قوم إلى أن الإظهار أفضل ونحن نشير إلى مافي كل واحد من المعاني والآفات ثم نكشف الغطاء عن الحق فيه .

أما الإخفاء ففيه خمسة معان (الأول) أنه أبقى السر على الأخذ فإن أخذه ظاهراً هتك لسر المروءة وكشف عن الحاجة وخروج عن هيئة التمعف والتصون المحبوب الذي يحسب الجاهل أهله أغنياء من التمعف . (الثاني) أنه أسلم لقلوب الناس وأسلمتهم فلأنهم ربما يحسدون أو ينكرون عليه أخذه ويظنون أنه أخذهم الاستغناء أو يفتنونه إلى أخذ زيادة . والحسد وسوء الظن والفتنة من الذنوب الكبائر وصياتهم عن هذه الجرائم أولى . وقال أبو أيوب السخيتاني : إني لأترك لبس الثوب الجديد خشية أن يحدث في جيراني حسداً . وقال بعض الزهاد : ربما تركت استعمال الشيء لأجل إغوائى يقولون من أين له هذا ؟ وعن إبراهيم التيمي : أنه رأى عليه قبض جديد فقال بعض إخوانه من أين لك هذا ؟ فقال كسائيته أخی خيثة ولو علمت أن أهله صلوا به ما قبلته . (الثالث) إمانته المعطى على إسرار العمل فإن فضل السر على الجهر في الإعطاء أكثر والإمانة على إتصام المعروف معروف ، والكتمان لا يبر إلا باثنين فهما أظهر هذا انكشف أمر المعطى . ودفع رجل إلى بعض العلماء شيئاً ظاهراً فردده إليه ودفع إليه آخر شيئاً في السر فقبله ، فقيل له في ذلك فقال : إن هذا عمل الأدب في إخفاء معروفه فقبلته وذلك أسأداً به في عمله فردده عليه وأعطى رجل بعض الصوفية شيئاً في الملا فردده فقال له : لم ترد على الله عز وجل ما أعطاك ؟ فقال : إنك أشركت غير الله سبحانه فيما كان به تعالى ولم تقنع بالله عز وجل فرددت عليك شركك . وقيل لبعض العارفين في السر شيئاً كان رده في العلانية فقيل له في ذلك ؟ فقال صصيت الله بالجهر فلم أك هونا لك بالمصيبة وأطعت بالإخفاء فأعنتك على برك . وقال الثوري : لو علمت أن أحدهم لا يذكر صدقته ولا يتحدث بها لقبحت صدقته . (الرابع) أن في إظهار الأخذ ذلاً وامتهاناً وليس للؤمن أن يذل نفسه . كان بعض العلماء يأخذ في السر ولا يأخذ في العلانية ويقول : إن في إظهاره إذلالاً للعلم وامتهاناً لأهله فلا كنت بالذي أرفع شيئاً من الدنيا بوضع العلم وإذلال أهله (الخامس) الاحتراز من شبهة الشراكة قال صلى الله عليه وسلم ، من أهدى له هدية وعنده قوم فهم شركاؤه فيها ^(١) ، وبأن يكون ورقاً أو ذهباً لا يخرج من كونه هدية قال صلى الله عليه وسلم : أفضل ما يهدي الرجل إلى أخيه ورقاً أو يعطيه خبزاً ^(٢) ، لجل الورق هدية بانفرادها فما يعطى في الملا مكروه إلا برضا جميعهم ولا يخرج من شبهة ، فلذا انفرد سلم من هذه الشبهة .

أما الإظهار والتحدث به ففيه معان أربعة (الأول) الإخلاص والصدق والسلامة عن تلبس الحال والمرأة (والثاني) إسقاط الجاه والمغزلة وإظهار العبودية والمسكنة والتبرى عن الكبرياء ودعوى الاستغناء وإسقاط النفس من أعين الخلق . قال بعض العارفين لتلميذه : أظهر الأخذ على كل حال إن كنت أخذ فأنك لا تخلص من أحد رجلين :

(١) حديث « من أهدى له هدية وعنده قوم فهم شركاؤه فيها » أخرجه المصلي وابن حبان في الضعفاء والطبراني في الأوسط والبيهقي من حديث ابن عباس قال المصلي لا يصح في هذا المتن حديث (٢) حديث « أفضل ما يهدي الرجل إلى أخيه ورقاً أو يعطيه خبزاً » أخرجه ابن عدي وضحه من حديث ابن عمر « أفضل العمل عند الله أن يعطى من سلم منه أو يشتري عليه سرور أو يعطيه خبزاً » ولأحمد والترمذي وصححه من حديث البراء « من منع حصة ورق أو منعة لبن أو أهدى رقاً فهو كمن أهدى نسمة »

رجل تسقط من قلبه إذا فعلت ذلك فذلك هو المراد لأنه أسلم لديك وأقل لأفادت نفسك ، أو رجل تزداد في قلبه بإظهارك الصدق فذلك الذي يريد أخوك لأنه يرد ثوابا بزيادة حبه لك وتكثيره إياك فتوجرت إذ كنت سبب مزيد ثوابه . (الثالث) هو أن العارف لا ينظر له إلا إلى الله عز وجل والسر والملاينة في حقه واحد باختلاف الحال شرك في التوحيد . قال بعضهم : كما لا نبيأ بدعاء من يأخذ في السر ويرد في العلانية . والالتفات إلى الخلق حضروا أم غابوا نقصان في الحال ، بل ينبغي أن يكون النظر مقصور على الواحد الفرد . حكى أن بعض الشيوخ كان كبير المثل إلى واحد من جملة المريدين فشق على الآخرين فأراد أن يظهر لهم فضيلة ذلك المريد ، فأعطى كل واحد منهم دجاجة وقال : لينفرد كل واحد منكم بها وليدعها حيث لا يراه أحد . فأنفرد كل واحد وذبح إلا ذلك المريد فإنه رد الدجاجة ، فسألم فقالوا : فعلنا ما أمرنا به الشيخ فقال الشيخ للمريد : مالك لم تدع كما ذبح أصحابك ؟ فقال ذلك المريد : لم أقدر على مكان لا يراى فيه أحد فإن الله يراى في كل موضع ، فقال الشيخ : لهذا أميل إليه لأنه لا يفتشت لغير الله عز وجل . (الرابع) أن الإظهار إقامة لسنة الشكر وقد قال تعالى ﴿ وأما بنعمة ربك فحدث ﴾ والكتبان كفران النعمة وقد ذم الله عز وجل من أكرم ما آتاه الله عز وجل وقرنه بالبخل فقال تعالى ﴿ الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ويكتمون ما آتاهم الله من فضله ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم : إذا أنعم الله على عبد نعمة أحب أن ترى نعمته عليه ^(١) ، وأعطى رجل بعض الصالحين شيئا في السر فرفع به يده وقال : هذا من الدنيا والملاينة فيها أفضل والسر في أمور الآخرة أفضل . ولذلك قال بعضهم : إذا أعطيت في المأكل ثم لم ترد في السر والشكر فيه عثرت عليه . قال صلى الله عليه وسلم : من لم يشكر الناس لم يشكر الله عز وجل ^(٢) ، والشكر قائم مقام المكافأة حتى قال صلى الله عليه وسلم : من أسدى إليكم معروفا فكأنه قد أنعم الله عليكم فأنتم تستطيعون فأثموا عليه به خيرا وادعوا له حتى تعلموا أنكم قد كافأتموه ، ولما قال المهاجرون في الشكر : يا رسول الله ما رأينا خيرا من قوم نزلنا عندهم فاسمونا الأموال حتى خفنا أن يذهبوا بالأجر كله فقال صلى الله عليه وسلم كل ما شكرتم لهم وأنعمت عليهم به فهو مكافأة ^(٣) .

فإن إذا عرفت هذه المعاني فاعلم أن ما نقل من اختلاف الناس فيه ليس اختلافا في المسئلة بل هو اختلاف حال ، فكشف الغطاء في هذا أننا لا نحكم حكما بتا بأن الإخفاء أفضل في كل حال أو الإظهار أفضل بل يختلف ذلك باختلاف الثبات وتختلف الثبات باختلاف الأحوال والأشخاص . فينبغي أن يكون المخلص مراقبا لنفسه حتى لا يتبدل بجعل الغرور ولا يتخذه بتليس الطبع ومكر الشيطان والمكر والخذاع أغلب في معاني الإخفاء منه في الإظهار مع أن له دخلا في كل واحد منها . فاما مدخل الخداع في الإسرار فن ميل الطبع إليه لما فيه من في خفض الجاه والمآلة وسقوط القدر عن أعين الناس ونظر الخلق إليه بعين الازدراء وإلى المعلى بعين التمم المحسن فهذا هو الماء الدفين ويستكن في النفس . والشيطان بواسطته يظهر معاني الخير حتى يتعلم بالمعاني الحسنة التي ذكرناها . ومعيار كل ذلك وعكم أمر واحد وهو أن يكون تأمله بانكشاف أخسده الصدقة كآله بانكشاف صدقة أخذها بعض نظرائه وأمثاله ، فإنه إن كان ينبغي صيانة الناس عن النية والحسد وسوء الظن أو يتق

(١) حديث « إذا أعم الله تعالى على عبد نعمة أحب أن ترى عليه » أخرجه أحمد من حديث عمران بن حصين بسند صحيح وحسنه الترمذي من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده . (٢) حديث « من لم يشكر الناس لم يشكر الله » تقدم . (٣) حديث « قاله المهاجرون يا رسول الله ما رأينا خيرا من قوم نزلنا عنهم .. أخرجه الترمذي وصححه من حديث أنس ورواه مختصرا أبو داود والشافعي في اليوم واليا والمالك ومحمد بن ماجه

انتهاك السر أو إمانة المعطى على الإصرار أو صيانة العلم عن الابتذال فكل ذلك مما يحصل بانكشاف صدقة أخيه ، فإن كان انكشاف أمره أفضل عليه من انكشاف أمر غيره فتقديره الجود من هذه المعاني أغايط وأباطيل من مكر الشيطان وخدعه ، فإن إذلال العلم محذور من حيث إنه علم لا من حيث إنه علم زيد أو علم عمرو . والنية محذورة من حيث إنها تعرض لعرض مصون لا من حيث إنها تعرض لعرض زيد على الخصوص ومن أحسن من ملاحظة مثل هذا ربما يعجز الشيطان عنه وإلا فلا يزال كثير العمل قليل الحظ . . وأما جانب الإظهار فإيا الطبع إليه من حيث إنه تطبيق لقلب المعطى واستحثاث له على مثله وإظهاره عند غيره أنه من المباليين في الشكر حتى يرغبوا في إكرامه وتفقدوه وهذا داء دفين في الباطن ، والشيطان لا يقدر على المتدين إلا بأن يروج عليه هذا الخبث في معرض السنة ويقول له الشكر من السنة والإخفاء من الرياء وبورد عليه المعاني التي ذكرناها ليحصله على الإظهار وفصده الباطن ما ذكرناه ومعيار ذلك وعكسه أن ينظر إلى ميل نفسه إلى الشكر بحيث لا ينهي الجود للمعطى ولا إلى ميل من يرغب في عطائه ؛ وبين يدي جماعة يكرهون إظهار العلية ويترغبون في إخفائها وعادتهم أنهم لا يعطون إلا من يخفى ولا يشكر . فإن استوت هذه الأحوال عنده فليعلم أن باعته هو إقامة السنة في الشكر والتحدث بالنعمة وإلا فهو مغرور . ثم إذا علم أن باعته السنة في الشكر فلا ينبغي أن يففل عن قضاء حق المعطى فينظر فإن كان هو من يجب الشكر والنشر فينبغي أن يخفى ولا يشكر ، لأن قضاء حقه أن لا ينصرم على الظلم وطلبه الشكر ظلم . وإذا علم من حاله أنه لا يجب الشكر ولا يقصده فمئذ ذلك يشكره ويظهر صدقته . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم للرجل الذي مدح بين يديه « ضربتم عنقه لو سمعها ما أفلح »^(١) ، مع أنه صلى الله عليه وسلم كان يثني على قوم في وجوههم لثقتهم يثقونهم وعله بأن ذلك لا ينصرهم بل يزيد في رغبتهم في الخير فقال لواحد « إنه سيد أهل الورى »^(٢) ، وقال صلى الله عليه وسلم في آخر « إذا جاءكم كريم قوم فأكرموه »^(٣) ، وسمع كلام رجل فأنجب فقال صلى الله عليه وسلم « إن من البيان لسحراً »^(٤) ، وقال صلى الله عليه وسلم « إذا علم أحدكم من أخيه خيراً فليخبره فإنه يزداد رغبة في الخير »^(٥) ، وقال صلى الله عليه وسلم « إذا مدح المؤمن ربا الإيمان في قلبه »^(٦) ، وقال الثوري : من عرف نفسه لم ينصره مدح الناس . وقال أيضاً ليوسف بن أسباط : إذا أولئك معروفا كنت أنا أسره منك ورأيت ذلك نعمة من الله عز وجل على فأشكر وإلا فلا تشكر . ورفائق هذه المعاني ينبغي أن يلحظها من يراعى قلبه فإن أفعال الجوارح مع إعمال هذه الدقائق تحسك للشيطان وشماته له لكثرة التنبق وقلة النفع ، ويمثل هذا العلم هو الذي يقال فيه : إن تعلم مسألة واحدة منه أفضل من عبادة سنة إذ بهذا العلم تحيا عبادة العمل وبالجهد به تموت عبادة العمل كله وتعمل . وعلى الجلة فالأخذ في المأل والورد في السر أحسن المسالك وأسلمها ، فلا ينبغي أن يدفع بالتزويقات إلا أن تكون المعرفة

(١) حديث « قال للرجل الذي مدح بين يديه ضربتم عنقه لو سمعها ما أفلح » . ينفق عليه من حديث أبي بكره بلفظ « وعكك فطعت عنك جبارك » زاد الطبراني في رواية « والله لو سمعها ما أفلح أبدا » . وفي سننه على بن زيد بن جفان متشكك فيه وابن ماجه نحوه من حديث أبي موسى . (٢) حديث « إنه سيد الورى » أخرجه الترمذي والطبراني وابن قانع في مساجم وابن جبان في اللغات من حديث قيس بن عاصم القرظي « أن النبي صلى الله عليه وسلم قال ذلك » .

(٣) حديث « إذا جاءكم كريم قوم فأكرموه » أخرجه ابن ماجه من حديث ابن عمر ورواه أبو داود في المراسيل من حديث الشعبي مرسل إسناد صحيح وقال روى متصلا وهو ضعيف والمأخوذ من حديث عبيد بن خاف الأنصاري عن أبيه وصحيح إسناده (٤) حديث « إن من البيان لسحراً » أخرجه البخاري من حديث ابن عمر .

(٥) حديث « إذا علم أحدكم من أخيه خيراً فليخبره فإنه يزداد رغبة في الخير » أخرجه الماروقشي في المثل من رواية ابن المسيب عن أبي هريرة . وقال لأصم عن الزهري وروى عن ابن السبب مرسل .

(٦) حديث « إذا مدح المؤمن ربا الإيمان في قلبه » أخرجه الطبراني من حديث أسامة بن زيد بسند ضعيف

بحيث يشوى السر والعناية وذلك هو الكبريت الأحمر الذى يتحدث به ولا يرى . ثم أن الله الكريم حسن العون والتوفيق .

بيان الأفضل من أخذ الصدقة أو الزكاة

كان إبراهيم الخواص والجند وجماعة يرون أن الأخذ من الصدقة أفضل فإن في أخذ الزكاة مزاحمة للمساكين وتضييقاً عليهم ولأنه ربما لا يكل في أخذه صفة الاستحقاق كما وصف في الكتاب العزيز وأما الصدقة فالأمر فيها أوسع . وقال قائلون : بأخذ الزكاة دون الصدقة لأنها إغانة على الواجب . ولترك المساكين كلهم أخذ الزكاة لأنهم ؛ ولأن الزكاة لأمته فيها وإنما هو حق واجب لله سبحانه رزقا لعباده المحتاجين . ولأنه أخذ بالحاجة والإنسان يعلم حاجة نفسه قطعا . وأخذ الصدقة أخذ بالدين فإن الثالب أن المتصدق يطمئ من يعتد فيه خيرا ؛ ولأن مراقبة المساكين أدخل في الدل والمسكة وأبعد من التكبر ؛ إذ قد يأخذ الإنسان الصدقة في معرض الهدية فلا تميز عنه ؛ وهذا تنصيص على ذل الأخذ وحاجته . والقول الحق في هذا يختلف بأحوال الشخص وما يئلب عليه وما يحضره من التبه فإن كان في شبهة من اتصافه بصفة الاستحقاق فلا ينبغي أن يأخذ الزكاة . فإذا علم أنه مستحق قطعا إذا حصل عليه دين صرفه إلى غير وليس له وجه في قضائه فهو مستحق قطعا . فإذا غير هذا بين الزكاة وبين الصدقة فإذا كان صاحب الصدقة لا يتصدق بذلك المال لو لم يأخذه هو فليأخذ الصدقة ؛ فإن الزكاة الواجبة يصرفها صاحبها إلى مستحقها فن ذلك تكثير للخير وتوسيع على المساكين . وإن كان المال معروضا للصدقة ولم يكن في أخذ الزكاة تنصيص على المساكين فهو غير والأمم فيها متفاوت . وأخذ الزكاة أخذ في كسر النفس وإذلالها في أغلب الأحوال والله أعلم .

كل كتاب أسرار الزكاة بحمد الله وعونه وحسن توفيقه ؛ ويتلوه إن شاء الله تعالى كتاب أسرار الصوم والحمد لله رب العالمين وصل الله على سيدنا محمد وعلى جميع الأنبياء والمرسلين وعلى الملائكة والمقربين من أهل السموات والأرضين وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا دائما إلى يوم الدين والحمد لله وحده وحسبنا الله ونعم الوكيل ،

كتاب أسرار الصوم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى أعظم على عباده المنة ، بما دفع عنهم كيد الشيطان وفنه ، ورد أمه وغيب ظنه ؛ إذ جعل الصوم حصنا لإبرائمه وجنة ، وفتح لهم به أبواب الجنة ، وعزفهم أن وسيلة الشيطان إلى قلوبهم الشهوات المستكنة ، وإن بقسمها تصبح النفس المغلطة ظاهرة الشوك في قسم خصمها قوية المنة ، والصلاة على محمد قائد الخلق وعمود السنة وعلى آله وأصحابه ذوى الأبصار الثاقبة والقول المرجحة وسلم تسليما كثيرا . أما بعد : فإن الصوم ربيع الإيمان بمقتضى قوله صلى الله عليه وسلم « الصوم نصف الصبر »^(١) ، وبمقتضى قوله صلى الله عليه وسلم « الصبر نصف

كتاب أسرار الصيام

(١) حديث « الصوم نصف الصبر » أخرجه الترمذى وحسنه من حديث رجل من بنى سليم وابن ماجه من حديث أبى هريرة

الإيمان^(١)، ثم هو متميز بخاصية النسبة إلى الله تعالى من بين سائر الأركان إذ قال الله تعالى فيها حكاه عنه نبيه صلى الله عليه وسلم «كل حسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلا الصيام فإنه لي وأنا أجرى به»^(٢)، وقد قال الله تعالى (إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب) والصوم نصف الصبر فقد جاوز ثوابه قانون التقدير والحساب ونأمله في معرفة فضله قوله صلى الله عليه وسلم «والذي نفسي بيده لخالف فم الصائم أطيب عنده الله من ريح المسك يقول الله عز وجل إنما يبلو شهوته وطعامه وشرابه لأجل الصوم لي وأنا أجرى به»^(٣)، وقال صلى الله عليه وسلم «الجنة باب يقال له الريان لا يدخله إلا الصائمون وهو موعود ببقاء الله تعالى في جزء صومه»^(٤)، وقال صلى الله عليه وسلم «للصائم فرحتان فرحة عند إفطاره وفرحة عند لقاء ربه»^(٥)، وقال صلى الله عليه وسلم «لكل شيء باب وباب العبادة الصوم»^(٦)، وقال صلى الله عليه وسلم «نوم الصائم عبادة»^(٧)، وروى أبو هريرة رضي الله عنه «أنه صلى الله عليه وسلم قال: إذا دخل شهر رمضان فتحت أبواب الجنة وغلقت أبواب النار وضعت الشياطين ونادى مناد يا باغي الخير هلم ويا باغي الشر أقصر»^(٨)، وقال وكيع في قوله تعالى (كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم في الأيام الخالية) «ي أيام الصيام إذ تركوا فيها الأكل والشرب وقد جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم في رتبة المجاهدة بين الزهد في الدنيا وبين الصوم فقال «إن الله تعالى يباهي ملائكته بالشباب العابد فيقول: أيها الشاب اتارك شهوته لأجل الميزل شبابه لي أنت صدي كيمض ملائكتي»^(٩)، وقال صلى الله عليه وسلم في الصائم «يقول الله عز وجل: انظروا بلاملائكتي إلى عبدي ترك شهوته ولذته وطعامه وشرابه من أجل»^(١٠)، وقيل في قوله تعالى (فلا تملن نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون) قيل كان علمهم الصيام لأنه قال (إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب) فيفرغ للصائم جزاءه إفراغاً ويجازف جزاءه فلا يدخل تحت وهم وتقدير، وجدير بأن يكون كذلك لأن الصوم إنما كان له ومشرفاً بالنسبة إليه وإن كانت العبادات كلها له كما شرف البيت بالنسبة إلى نفسه والأرض كلها له لمعينين؛ أحدهما: أن الصوم كف وترك وهو في نفسه سر ليس فيه عمل يشاهد. وجميع أعمال الطاعات بمشهد من الخلق ومراى والصوم لا يراه إلا الله عز وجل فإنه عمل في الباطن بالصبر المجرد. والثاني: أنه قهر لمدق الله عز وجل فإن وسيلة الشيطان لئنه الله الشهوات؛ وإنما تقوى الشهوات بالأكل والشرب. ولذلك قال صلى الله عليه وسلم «إن الشيطان

(١) حديث «الصبر نصف الإيمان» أخرجه أبو نعيم في الحلية والمطيب في التاريخ من حديث ابن مسعود بسند حسن

(٢) حديث «كل حسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلا الصوم المحدث ..» أخرجه من حديث أبي هريرة

(٣) حديث «والذي نفسي بيده لخالف فم الصائم» .. الحديث «أخرجه من حديثه وهو بن أبي ثعلبة

(٤) حديث «الجنة باب يقال له الريان .. الحديث» أخرجه من حديث سهل بن سعد (٥) حديث الصائم فرحتان .. الحديث «أخرجه من حديث أبي هريرة (٦) حديث «لكل شيء باب وباب العبادة والصوم» أخرجه ابن المبارك في الزهد ومن طريقه أبو المصنف في التواب من حديث أبي هريرة بسند ضعيف (٧) حديث «نوم الصائم عبادة» ورواه في أمالي ابن منده من رواية ابن النيرة القواس عن عبد الله بن عمر بسند ضعيف وله عبد الله بن عمرو قالهم لم يذكروا لابن النيرة رواية إلا عنه ورواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث عبد الله بن أبي أوفى وفيه سليمان بن عمرو التميمي أحد الكذابين

(٨) حديث «لذا دخل شهر رمضان فتحت أبواب الجنة» أخرجه الترمذي وقال غريب وابن ماجه والحاكم وصححه على شرطهما من حديث أبي هريرة وصحح البخاري وقفه على مجاهد وأما متفق عليه دون قوله «ونادى مناد»

(٩) حديث «إن الله تعالى يباهي ملائكته بإعقاب العابد فيقول أيها الشاب اتارك شهوته .. الحديث» أخرجه ابن عدي من حديث ابن مسعود بسند ضعيف (١٠) حديث «يقول الله تعالى للملائكة بلاملائكتي انظروا إلى عبدي ترك شهوته وقته وطعامه وشرابه من أجل»

ليجري من ابن آدم بحرى الدم فضيقوا مجاريه بالجوع ^(١) ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم لعائشة رضى الله عنها : داوى قرع باب الجنة ؛ قالت : بماذا ؟ قال صلى الله عليه وسلم : بالجوع ^(٢) . - وسأنى فضل الجوع فى كتاب : شره الطعام - وعلاج - من ريع المهلكات - فلما كان الصوم على الخصوص لعسا الشيطان وسننا لمسالكة وتضييقا مجاريه استحق التخصيص بالنسبة إلى الله عز وجل فى قمع عذوق الله نصرته لله سبحانه وناصر الله تعالى موقفه على النصرة له قال الله تعالى (إن تصصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم) فالبداية بالجهد من العبد والجزاء بالمداية من الله عز وجل ولذلك قال تعالى (والذين جاهدوا فىنا لنهدينهم سبيلا) وقال تعالى (إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) وإنما التغير تكثير الشهوات فهى مرتع الشياطين ومرعاهم فإدامت غصبة لم ينقطع ترددوم وما داموا يترددون لم ينكشف للعبد جلال الله سبحانه وكان محجوبا عن لقائه . وقال صلى الله عليه وسلم : لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بنى آدم لنظروا إلى ملكوت السموات ^(٣) ، فن هذا الوجه صار الصوم باب العبادة وصار جنة ولذا عظمت فضيلته إلى هذا الحد فلا بد من بيان شروطه الظاهرة والباطنة بذكر أركانه وسننه وشروطه الباطنة ، وتبين ذلك بثلاثة فصول .

الفصل الأول : فى الواجبات والسنن الظاهرة والوازيم بإفساده

أما الواجبات الظاهرة فسته

(الأول) مراقبة أول شهر رمضان وذلك برؤية الهلال فإن غم فاستكمال ثلاثين يوما من شعبان . ونعنى بالرؤية العلم ، ويحصل ذلك بقول عدل واحد . ولا يثبت هلال شوال إلا بقول عدلين احتياطا للعبادة . ومن سمع عدلا ووثق بقوله وغلب على ظنه صدقه لومه الصوم وإن لم يقض القاضى به فليتبع كل حد فى عبادته موجب ظنه ، وإذا روى الهلال ببلدة ولم ير بأخرى وكان بينهما أقل من مرحلتين وجب الصوم على الكل ، وإن كان أكثر كان لكل بلدة حكمها ولا يتعدى الوجوب (الثانى) التية : ولا بد لكل ليلة من تية مينة معينة جازمة فلو نوى أن يصوم شهر رمضان دفعة واحدة لم يكفه ، وهو الذى حثينا بقولنا ، كل ليلة ، ولو نوى بالنهار لم يجزه صوم رمضان ولا صوم الفرض إلا التطوع ، وهو الذى حثينا بقولنا ، مينة ، ولو نوى الصوم مطلقا أو الفرض مطلقا لم يجزه حتى ينوى فريضة الله عز وجل صوم رمضان ولو نوى ليلة الشك أن يصوم غدا إن كان من رمضان لم يجزه فإنها ليست جازمة إلا أن تستند نيته إلى قول شاهد عدل ، واحتمال غلط العدل أو كذبه لا يبطل الجزم أو يستند إلى استحباب حال كالشك فى الليلة الأخيرة من رمضان ، فذلك لا يمنع جزم التية أو يستند إلى اجتهد كالمحبوس فى المظورة إذا غلب على ظنه دخول رمضان باجتهاده فشك لا يمتنه من التية . ومهما كان شاكا ليلة الشك لم ينفعه جزمه التية بالسان فإن التية علما القلب . ولا يتصور فيه جزم القصد مع الشك كالوقال فى وسط رمضان : أصوم غدا إن كان من رمضان فإن ذلك لا يضره لأنه ترديد لفظ وعمل التية لا يتصور فيه تردد بل هو قاطع بأنه من رمضان : ومن نوى ليلا ثم أكل لم تفسد نيته ولو نوت امرأة فى الحيض ثم طهرت قبل الفجر صح صومها (الثالث) الإمساك عن إيفال شيء إلى الجوف عمدا مع ذكر الصوم فيفسد صومه بالآكل والشرب والسعوط والحفنة . ولا يفسد بالقصد والحجامة

(١) حديث « إن الشيطان يجرى من ابن آدم بحرى الدم .. الحديث » متفق عليه من حديث مجة دون قوله « فضيقوا

مجاريه بالجوع » (٢) حديث « قال لعائشة داوى قرع باب الجنة .. الحديث » لم أجده إلا أصلا

(٣) حديث « لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بنى آدم .. الحديث » أخرجه أحمد من حديث أبي هريرة بنحو

والاحتكاح وإدخال الميل في الأذن والإحليل إلا أن يقطر فيه ما يبلغ المائنة وما يصل بنير قصد من غبار الطريق أو ذبابة تسبق إلى جوفه أو ما يسبق إلى جوفه في المضضة ، فلا يفطر إلا إذا بالغ في المضضة فيفطر لأنه مقصر وهو الذي أردنا بقولنا « عدا » فأما ذكر الصوم فأردنا به الإحراز عن الناس فإنه لا يفطر . أما من أكل عامدا في طرف النهار ثم ظهر له أنه أكل نهارا بالتحقيق فعليه القضاء . وإن بقى حل حكمه واجتباؤه فلا قضاء عليه ولا ينبغي أن يأكل في طرف النهار إلا بظن واجتهاد . (الرابع) الإمساك عن الجماع : وحده مغيب الحشفة وإن جامع ناسيا لم يفطر وإن جامع ليلا أو احتمل فأصبح جنباً لم يفطر وإن طلع الفجر وهو غائلا لم يفطر في الحال صح صومه فإن صبر فسد ولو تمت الكفارة . (الخامس) الإمساك عن الاستناء : وهو إخراج المني قصدا بجماع أو بنير جماع فإن ذلك يفطر ولا يفطر بنية زوجته ولا بمساجعتها ما لم يزل . لكن يكره ذلك إلا أن يكون شيئا أو مალكا لإربه ، فلا بأس بالتقيل وتركه أولى . وإذا كان يخاف من التقيل أن ينزل فقبل وسبق المني أنظر لتقصيره : (السادس) الإمساك عن إخراج القيء فالاستقاء يفسد الصوم وإن ذرعه القيء لم يفسد صومه ، وإذا ابتلع غمامة من حلقه أو صدره لم يفسد صومه رخصة لعموم البولي به إلا أن يقتله بعد وصوله إلى فيه فإنه يفطر عند ذلك .

وأما لوازم الإفطار فأربعة

القضاء والكفارة والغدية وإمساك بقية النهار تفهيا بالصائمين . أما القضاء : فوجوبه عام على كل مسلم مكلف ترك الصوم بمذرة أو بنير عذر ، فالخائف تقضى الصوم وكذا المرتد . وأما الكافر والعبي والمنون فلا قضاء عليهم ولا يشترط التتابع في قضاء رمضان ولكن يقتضى كيف شاء متفرقا ومجموعا .

وأما الكفارة : فلا يجب إلا بالجماع . وأما الاستناء والاكل والشرب وما عدا الجماع لا يجب به كفارة الكفارة عتق رقبة فإن أفسر فصوم شهرين متتابعين وإن عجز فأطعام ستين مسكينا من هذا .

وأما إمساك بقية النهار : فيجب على من عصى بالفطر أو قصر فيه . ولا يجب على المخالفين إذا ظهرت إمساك بقية نهارها ولا على المسافر إذا قدم مفطرا من سفر بلغ مرحلتين . ويجب الإمساك إذا شهد بالهلال عدل واحد يوم الشك . والصوم في السفر أفضل من الفطر إلا إذا لم يطق ولا يفطر يوم يخرج وكان مقبيا في أوله ولا يوم يقدم إذا قدم صائما .

وأما الغدية : فتجب على الحامل والمرضع إذا أفطرا خوفا على ولديهما ، لكل يوم مئة حنطة لمسكين واحد مع القضاء والشيخ الحرم إذا لم يصم تصدق عن كل يوم مئة .

وأما السنن فست : تأخير السجود ؛ وتسهيل الفطر بالتمر أو الماء قبل الصلاة ، وترك السواك بعد الزوال ، والجود في شهر رمضان لما سبق من فضائله في الزكاة ، ومدارسة القرآن ، والاعتكاف في المسجد ، لاسيا في العشر الأخير فهو عادة رسول الله صلى الله عليه وسلم . كان إذا دخل العشر الأخير طوى القرائن وشد الخرد وأب وأدأب أهله ^(١) ، أى أدأبوا النصب في العبادة إذ فيها ليلة القدر والأغلب أنها في أواخرها وأشباه الأوتارلية إحدى وثلاث وخمسين وسبع . والتتابع في هذا الاعتكاف أولى فإن نذر اعتكافا متتابعا أو نواه انقطع تتابعه بالخروج من

(١) حديث « كان إذا دخل العشر الأخير طوى القرائن .. الحديث » متفق عليه من حديث عائشة بلفظ . « أما الليل وأبسط أهله وجد وشد التمر » .

غير ضرورة؛ كما لو خرج لبيعة أو شهادة أو جنازة أو زيارة أو تجديد طهارة ، وإن خرج لقضاء الحاجة لم يقطع . وله أن يتوضأ في البيت . ولا ينبغي أن يصر على شغل آخر ، كان صلى الله عليه وسلم لا يخرج إلا لحاجة الإنسان . ولا يسأل عن المريض إلا ماراً^(١) ، ويقطع التتابع بالجماع ولا يقطع بالتبديل . ولا بأس في المسجد الطيب . وقد ينسكح وبالأكل والثوم وغسل اليد في الطست فكل ذلك قد يحتاج إليه في التتابع . ولا يقطع التتابع بخروج بعض بدنه ، كان صلى الله عليه وسلم يدين رأسه فترجله عائشة رضي الله عنها وهي في الحجرة^(٢) ، ومهما خرج المعتكف لقضاء حاجته فإذا عاد ينبغي أن يستأنف التوبة إلا إذا كان قد نوى أولاً عشرة أيام مثلاً . والأفضل مع ذلك التبتيد .

الفصل الثاني : في أسرار الصوم وشروطه الباطنة

اعلم أن الصوم ثلاث درجات : صوم العموم وصوم الخصوص وصوم خصوص الخصوص . أما صوم العموم فهو كصوم البطن والفرج عن قضاء الشهوة كما سبق تفصيله . وأما صوم الخصوص فهو كصوم السمع والبصر واللسان واليد والرجل وسائر الجوارح والآثام . وأما صوم خصوص الخصوص فهو صوم القلب عن المعصية الدنية والأفكار الدنيوية وكفه عما سوى الله عز وجل بالكلية ، ويحصل النظر في هذا الصوم بالفكر فيما سوى الله عز وجل واليوم الآخر والفكر في الدنيا لإدراك الدنيا تراد الدين ، فإن ذلك من زاد الآخرة وليس من الدنيا حتى قال أرباب القلوب : من تحرك همته بالتصرف في نهاره لتدبير ما يخطر عليه كسبت عليه خليعة ، فإن ذلك من قلة الوثوق بفعل الله عز وجل وقلة اليقين برزقة الوعود ، وهذه رتبة الأنبياء والصديقين والمقربين ولا يعطون النظر في تفصيلها فولا ولكن في تحقيقها علا ، فإنه إقبال بكه الهمة على الله عز وجل وانصراف عن غير الله سبحانه وتعالى بمعنى قوله عز وجل ﴿ قل الله ثم ذرم في خوضهم يلعبون ﴾ وأما صوم الخصوص وهو صوم الصالحين فهو كصوم الجوارح عن الآثام وتسامه بستره أمور : الأول : غض البصر وكفه عن الاتساع في النظر إلى كل ما يذم ويكره وإلى كل ما يشغل القلب ويلهي عن ذكر الله عز وجل قال صلى الله عليه وسلم : « النظرة سهم مسموم من سهام إبليس لئن الله فرس تركها خوفا من الله آثم الله عز وجل لئمانا محمد حلاوته في قلبه ^(١) » وروى جابر عن أنس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « خمس يفسدن الصائم الكذب والغيبة والنميمة والكاذبة والنظر بشهوة ^(٢) » . الثاني : حفظ اللسان عن الغديان والكذب والغيبة والنميمة والفحش والجفاء والخسومة والمراء ، وإلزامه السكوت وشغله بذكر الله سبحانه وتلاوة القرآن فهذا صوم اللسان . وقد قال سفيان : الغيبة تفسد الصوم . ورواه بشر بن الحارث عنه . وروى ليث عن مجاهد : خصلتان يفسدان الصيام النية والكذب . وقال صلى الله عليه وسلم : « إنما الصوم جنة فإذا كان أحدكم صائما فلا يرفث ولا يجهل وإن امرؤ قاتله أو شتمه فليقلل إلى صائم إلى صائم ^(٣) » وجاء في الخبر : « أن صائما امرأين صامتا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فأجهدهما الجوع والمطش من آخر الثمار حتى كادتا أن تلتفيا فبغت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يستأذنا في الإفطار فأرسل إليهما فدعا وقال صلى الله عليه وسلم : قل لهما

(١) حديث "كان يخرج إلى الجلالة ولا يسأل عن المريض إلا ماراً" متفق على القطر الأول من حديث عائشة والقطر الثاني "رواه أبو داود بنحوه يستدعي (٢) حديث "كان يدي رأسه لائقة" متفق عليه من حديثها (٣) حديث "النظرة سهم مسموم من سهام إبليس ... الحديث" أخرجه البخاري وصححه إسناده من حديث ذريقه (٤) حديث جابر عن أنس وعص بنظره العام ... الحديث أخرجه الأذني عن الضعفاء من رواية جابر عن أنس بن مالك من حديث أبي هريرة (٥) حديث "الصوم جنة فأنا كأن أحدكم صاماً" الحديث (٦) حديث "أخبرنا من حديث أبي هريرة

قيثا فيه ما أكلنا ففادت إحداهما نصفه دما عبيطا ولما غريضا وقامت الأخرى مثل ذلك حتى ملأناه ففجع الناس من ذلك فقال صلى الله عليه وسلم هاتان صامتتا عما أحل الله لهما وأفطرنا على ما حرم الله تعالى عليهما . تعدت إحداهما إلى الأخرى فجعلتا يفتانان الناس فهذا ما أكلنا من لحومهم^(١) ، الثالث : كف السمع عن الإصغاء إلى كل مكروه لأن كل ما حرم قوله حرم الإصغاء إليه ولذلك سوى الله عز وجل بين السمع وأكل السحت فقال تعالى ﴿ سامعون للكذب أكلون السحت ﴾ وقال عز وجل ﴿ لولا ينهاهم الربانيون والأحبار عن قولهم الإثم وأكلهم السحت ﴾ فالسكوت على النية حرام وقال تعالى ﴿ إنكم إذا مثلهم ﴾ ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « للكتاب وللمستمع شريكان في الإثم^(٢) » ، الرابع : كف بقية الجوارح عن الآثام من اليد والرجل عن السكره ، وكف البطن عن الشبهات وقت الإفطار . فلا معنى للصوم وهو الكف عن الطعام الحلال ثم الإفطار على الحرام . فثال هذا الصائم مثال من بنى قصرا ويجهد مصرا فإن الطعام الحلال إنما يضرب كثرته لابتغاه ، فالصوم لتقليله . وتوارك الاستكثار من الدعاء خوفا من ضرره إذ عدل إلى تناول السم كان سفيها . وأحرام سم مهلك الدين . والخلل دواء ينفع قلبه ويضر كثيره . وقصد الصوم تقليله . وقد قال صلى الله عليه وسلم « كم من صائم ليس له من صومه إلا الجوع والعطش^(٣) » ، وقيل هو الذي يفطر على الحرام ، وقيل هو الذي يمسك عن الطعام الحلال ويفطر على لحوم الناس بالنية وهو حرام ، وقيل هو الذي لا يحفظ جوارحه عن الآثام . الخامس : أن لا يستكثر من الطعام الحلال وقت الإفطار بحيث يمتلئ جوفه لما من وجاء أبفض إلى الله عز وجل من بطن ملء من حلال . وكيف يستفاد من الصوم قهر عدو الله وكسر الشهوة إذا تدارك الصائم عند فطره ما فاته ضحية نهاره وربما يزيد عليه في ألوان الطعام ؟ حتى استمرت العادات بأن تدخر جميع الأطعمة لرمضان فيؤكل من الأطعمة فيه ما لا يؤكل في عدة أشهر . ومعلوم أن مقصود الصوم الخواء وكسر الهوى لتقوى النفس على التقوى . ولذا دفعت المعدة من ضحية نهار إلى العشاء حتى هاجت شهوتها وقويت رغبتها ثم أطعمت من اللذات وأشبعت زادت لذتها وتضاعفت قوتها وأبعت من الشهوات ما صاها كانت راكدة لو تركت على عاداتها . فروح الصوم وسره تضييف القوى التي هي وسائل الشيطان في العود إلى الفسور ، ولن يصل ذلك إلا بالتقليل وهو أن يأكل أكلته التي كان يأكلها كل ليلة لو لم يصم فأما إذا جمع ما كان يأكل ضحية إلى ما كان يأكل ليلا فلم ينتفع بصومه . بل من الآداب أن لا يكثر النوم بالنهار حتى يحس بالجوع والعطش ويستشعر ضعف القوى فيصفو عند ذلك قلبه ويستديم في كل ليلة قدرا من الضعف حتى يصف عليه تهجده وأوراده ، فمسي الشيطان أن لا يحرم على قلبه فينظر إلى ملكوت السماء . وليلة القدر حجارة عن البلية التي ينكشف فيها شيء من الملكوت وهو المراد بقوله تعالى ﴿ إنا أنزلناه في ليلة القدر ﴾ ومن جعل بين قلبه وبين صدره غلالة من الطعام فهو عنه محجوب . ومن أغلى معدته فلا يكتفيه ذلك لرفع الحجاب المأخوذ منه عن غير الله عز وجل وذلك هو الأمر كله . ومبدأ جميع ذلك تقليل الطعام . وسياق له من زيد بيان في كتاب الأطعمة إن شاء الله عز وجل . السادس : أن يكون قلبه بهذا الإفطار مسقطا عن الحروف والجاه إذ ليس يدري أيقبل صومه فهو من المقرين أو يرد عليه فهو من المفقوتين ؟ وليسكن كذلك في آخر كل صادة يغفر

(١) حديث « أن امرأة من صامتات على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ... الحديث » في النية لصائم أخرجه أحمد بن حنبل
 صبيد مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم الحديث بنحوه في الجوهل (٢) حديث « للكتاب والسمع شريكان في الإثم » هرب
 والعلبان في حديث ابن عمر بنه ضيف نبي رسول الله صلى الله عليه وسلم من النية وعن الاستماع إلى النية
 (٣) حديث « كم من صائم ليس له من صيامه إلا الجوع والعطش » أخرجه النسائي وابن ماجه من حديث أبي هريرة

منها فقد روى عن الحسن بن أبي الحسن البصري أنه مرقوم وم يضحكون فقال : إن الله عز وجل جعل شهر رمضان مضيارا لخلقه يستيقظون فيه لطاعته فسيقون فغفارا وتغفب أقوام ظاهرا فالعجب كل العجب للضاحك اللاعب في اليوم الذي فاز فيه السابقون وغاب فيه المبطلون ، أما والله لو كشف الغطاء لاشتغل الحسن بإسبائه والنسب بإسائه أي كان سرور المتجول يصفه عن اللعب وحسرة المردود تسد عليه باب الضحك . وعن الأحنف بن قيس : أنه قيل له إنك شيخ كبير وإن الصيام يضعفك فقال : إني أعدت لسفر طويل والصبر على طاعة الله سبحانه أهون من الصبر على عذابه . فهذه هي المعاني الباطنة في الصوم . فإن قلت : فمن اقتصر على كف شهوة البطن والفرج وترك هذه المعاني فقد قال الفقهاء . صومه صحيح فما معناه ؟ فأعلم أن فقهاء الظاهر يشترط شروط الظاهر بأدلة هي أضعف من هذه الأدلة التي أوردناها في هذه الشروط الباطنة لأسباب الغيبة وأمثالها ، ولكن ليس إلى فقهاء الظاهر من التكليفات إلا ما يتيسر على عموم الثافلين المقلبين على الدنيا المدخول تحتها . فاما علماء الآخرة فيعتنون بالصحة القبول والقبول الوصول إلى المقصود . ويهتفون أن المقصود من الصوم التخليق بخلق من أخلاق الله عز وجل وهو الصمدية ، والافتقار بالملازمة في الكف عن الشهوات بحسب الإمكان فإنهم منزهون عن الشهوات . والإنسان وحيته فوق رتبة البهائم لقدرته بنور العقل على كسر شهوته ودون رتبة الملازمة لاستيلاء الشهوات عليه وكونه مبتلى بمجاهدتها ، فكلما انهمك في الشهوات انحط إلى أسفل السافلين والتحق بنهار البهائم ، وكلما قمع الشهوات ارتفع إلى أعلى عليين والتحق بأفق الملازمة . والملازمة مقربون من الله عز وجل والذي يقتدى بهم ويتشبه بأخلاقهم يقرب من الله عز وجل كقربهم ، فإن الشئ من التريب قريب ، وليس القرب ثم بالمكان بل بالصفات . وإذا كان هذا سر الصوم عند أرباب الآداب وأصحاب القلوب فأى جدوى لتأخير أكلة وجع أكلتين عند المشاء مع الانهماك في الشهوات الآخر طول النهار ؟ ولو كان لك جدوى فأى معنى لقوله صلى الله عليه وسلم « كم من صائم ليس له من صومه إلا الجوع والعطش » ولهذا قال أبو الدرداء : يا حبيذا نوم الأكياس وفطرم كيف لا يسيئون صوم الحنفي وسهرهم ! ولذرة من ذوى يقين وتقوى أفضل وأرجح من أمثال الجبال عبادة من المقتربين . ولذلك قال بعض العلماء كم من صائم مفطر وكم من مفطر صائم . والمفطر الصائم هو الذي يحفظ جوارحه عن الآثام ويأكل ويشرب ، والصائم المفطر هو الذي يجمع ويعطش ويطلق جوارحه . ومن فهم معنى الصوم وسره علم أن مثل من كف عن الأكل والجماع وأفطر بمخالطة الآثام كن مسح على عضو من أعضائه في الوضوء ثلاث مرات فقد وافق في الظاهر العدد إلا أنه ترك الهيم وهو الفصل فصلاته مردودة عليه بجهله ، ومثل من أفطر بالأكل وصام بجوارحه عن المكاره كن غسل أعضائه مرة مرة فصلاته متقبلة إن شاء الله لإحكامه الأصل وإن ترك الفضل . ومثل من جمع بينهما كن غسل كل عضو ثلاث مرات لجمع بين الأصل والفضل وهو الكمال . وقد قال صلى الله عليه وسلم « إن الصوم أمانة فليحفظ أحدكم أمانته ^(١) » ولما تلا قوله عز وجل (إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها) وضع يده على سمعه وبصره فقال : السمع أمانة والبصر أمانة ^(٢) ، ولولا أنه من أمانات الصوم لما قال صلى الله عليه وسلم « فليقل إلى صائم ، أي إلى أردعت لساني لأحفظه فكيف أطلقه بجوابك ؟ فإذا قد ظهر أن لكل عبادة ظاهرا وباطنا

(١) حديث « لنا الصوم أمانة فليحفظ أحدكم أمانته » أخرجه الخرائطي في مكارم الأخلاق من حديث ابن مسعود . في حديث في الأمانة والصوم وإسناده حسن . (٢) حديث « لما تلا قوله تعالى (إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها) وضع يده على سمعه وبصره » وقال الشيخ آمنة والبحر أمانة « أخرجه أبو عاود من حديث أبي هريرة دون قوله « السمع أمانة »

وقشرا وأيا ولتشرها درجات ولكل درجة طبقات . فإليك الحفيرة الآن في أن تتبع بالقشر من الباب أو تتجهز إلى غمار أبواب الآليات .

الفصل الثالث : في التطوع بالصيام وترتيب الأوراد فيه

اعلم أن استحباب الصوم يتأكد في الأيام الفاضلة وفواضل الأيام بعضها يوجدى كل سنة وبعضها يوجدى كل شهر وبعضها في كل أسبوع . أما في السنة بعد أيام رمضان فيوم عرفة ويوم عاشوراء والعشر الأول من ذي الحجة والعشر الأول من المحرم . وجميع الأشهر الحرم مثان الصوم وهي أوقات فاضلة ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكثر الصوم شعبان حتى كان يظن أنه في رمضان ^(١) ، وفي الخبر ، أفضل الصيام بعد شهر رمضان شهر الله المحرم ^(٢) . لأنه ابتداء السنة فينأزها على الخير أحب وأرجى لدوام بركته . وقال صلى الله عليه وسلم ، صوم يوم من شهر حرام أفضل من ثلاثين من غيره وصوم يوم من رمضان أفضل من ثلاثين من شهر حرام ^(٣) . وفي الحديث ، من صام ثلاثة أيام من شهر حرام الخمس والجمعة والسبت كتب الله له بكل يوم عبادة تسعة أيام ^(٤) ، وفي الخبر : إذا كان النصف من شعبان فلا صوم حتى رمضان ^(٥) . ولهذا يستحب أن يفطر قبل رمضان أياما فإن وصل شعبان برمضان جاز ^(٦) . فقل ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم مرة وفصل مرارا كثيرة ^(٧) . ولا يجوز أن يقصد استئجال رمضان بيومين أو ثلاثة إلا أن وافق ورده له وكره بعض الصحابة أن يصام رجب كله حتى لا يعضي بدور رمضان . فالأشهر الفاضلة : ذو الحجة والمحرم ورجب وشعبان . والأشهر الحرم : ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب ، واحد فرد وثلاثة سرد . وأفضلها ذو الحجة لأن فيه الحج والأيام المعلومات والمعدودات . وذو القعدة من الأشهر الحرم وهو من أشهر الحج ، وشؤال من أشهر الحج وليس من الحرم ، والمحرم ورجب ليسا من أشهر الحج . وفي الخبر ، « ما من أيام العمل فيها أفضل وأحب إلى الله عز وجل من أيام عشر ذي الحجة إن صوم يوم منه يعدل صيام سنة وقيام ليلة منه تعدل قيام ليلة القدر » قيل : ولا الجهاد في سبيل الله تعالى ، قال : ولا الجهاد في سبيل الله عز وجل إلا من حضر جواده وأهريق دمه ^(٨) ، وأما ما يتكرر في الشهر : فأول الشهر وأوسطه وآخره ، وأوسطه الأيام البيض وهي الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر . وأما في الأسبوع : فالأثنين والخميس والجمعة فهذه هي الأيام الفاضلة فيستحب فيها الصيام وتكثير الخيرات لتضاعف أجورها ببركة هذه الأوقات . وأما صوم الدهر فإنه

(١) حديث « كان يصكثر صيام شعبان .. الحديث » متفق عليه من حديث عائشة

(٢) حديث « أفضل الصيام بعد شهر رمضان شهر الله المحرم » أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة (٣) حديث « صوم يوم من شهر حرام أفضل من صوم ثلاثين .. الحديث » لم أجده هكذا وفي المعجم الصغير لغيره من حديث ابن عباس « من صام يوما من الحرم فله بكل يوم ثلاثون يوما » (٤) حديث « من صام ثلاثة أيام من شهر حرام الخمس والجمعة والسبت .. الحديث » أخرجه الأوزي في الضعفاء من حديث أبي أسيد . (٥) حديث « إذا كان النصف من شعبان فلا صوم حتى رمضان » أخرجه الأربعة من حديث أبي هريرة وابن جابر في صحيحه عنه « إذا كان النصف من شعبان فأنظروا حتى يهي رمضان » وصححه الترمذي (٦) حديث « وصل شعبان برمضان مرة » أخرجه الأربعة من حديث أم سلمة « لم يكن يوم من السنة شهرا أبدا لا شعبان يصل به رمضان وأخرج أبو داود والنسائي نحوه من حديث عائشة (٧) حديث « فصل شعبان من رمضان مرارا » أخرجه أبو داود من حديث عائشة ثالث « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحفظ من خلال شعبان ما لا يحفظ من غيره فان ظم عليه مد ثلاثين يوما ثم صام » وأخرجه البخاري وقال إسناد صحيح وقال صحيح على شرط الشيخين (٨) حديث « ما من أيام العمل فيها أفضل وأحب إلى الله من عشر ذي الحجة .. الحديث » أخرجه الترمذي وابن ماجه من حديث أبي هريرة دون قوله « قيل ولا الجهاد بالغ وعند البخاري من حديث ابن عباس « ما العمل في أيام أفضل من هذا الشهر قالوا ولا الجهاد قال ولا الجهاد لا رجل خرج يخاطر بنفسه وماله فلم يرجع بهي »

شامل لكل وزيادة والسالكين فيه طرق فمنهم من كره ذلك إذ وردت أخبار تدل على كراهته . والصحيح أنه إنما يكره لثنتين ؛ أحدهما : أن لا يفطر في العيدين وأيام التشريق فهو الدهر كله ^(١) والآخر أن يرغب عن السنة في الإفطار ويجعل الصوم حجرا على نفسه مع أن الله سبحانه يحب أن توفى رخصه كما يحب أن توفى عزائه . فإذا لم يكن شيء من ذلك ورأى صلاح نفسه في صوم الدهر فليعمل ذلك . فقد فعله جماعة من الصحابة والتابعين رضي الله عنهم . وقال صلى الله عليه وسلم فيما رواه أبو موسى الأشعري : من صام الدهر كله ضيق عليه جهنم وعقد تسعين ^(٢) . ومعناه لم يكن له فيها موضع ، ودونه درجة أخرى وهو صوم نصف الدهر بأن يصوم يوما ويفطر يوما وذلك أشد على النفس وأقوى في قهرها ، وقد ورد في فضله أخبار كثيرة لأن العبد فيه بين صوم يوم وشكر يوم فقد قال صلى الله عليه وسلم : عرضت على مفاتيح خزائن الدنيا وكوز الأرض فردتها وقلت أجوع يوما وأشبع يوما أحمدك إذا شبعت وأنزعرك إليك إذا جعت ^(٣) . وقال صلى الله عليه وسلم : أفضل الصيام صوم أخى داود كان يصوم ويفطر يوما ^(٤) . ومن ذلك : منزلته صلى الله عليه وسلم لعبد الله بن عمرو رضي الله عنهما في الصوم وهو يقول : إني أطيق أكثر من ذلك ، فقال صلى الله عليه وسلم : صم يوما وأفطر يوما ، فقال : إني أريد أفضل من ذلك ، فقال صلى الله عليه وسلم : لأفضل من ذلك ^(٥) . وقد روى أنه صلى الله عليه وسلم ما صام شهرا كاملا قط إلا رمضان ^(٦) ، بل كان يفطر منه ومن لا يقدر على صوم نصف الدهر فلا بأس بثلث وهو أن يصوم ويفطر يومين . وإذا صام ثلاثة من أول الشهر وثلاثة من الوسط وثلاثة من الآخر فهو ثلث ، وواقع في الأوقات الفاضلة . وإن صام الاثنين والخميس والجمعة فهو قريب من الثلث . وإذا ظهرت أوقات الفضيلة فالكمال أن يفهم الإنسان معنى الصوم وأن مقصوده تصفية القلب وتطهيره من الغم لله عز وجل . والفقيه بدقائق الباطن ينظر إلى أحواله فقد يقتضى حاله دوام الصوم وقد يقتضى دوام الفطر وقد يقتضى مزج الإفطار بالصوم . وإذا فهم المعنى وتحقق حده في سلوك طريق الأخيرة بمراقبة القلب لم يخف عليه صلاح قلبه ولذلك لا يوجب تربيما مستمرا . ولذلك روى أنه صلى الله عليه وسلم : كان يصوم حتى يقال لا يفطر ويفطر حتى يقال لا يصوم وينام حتى يقال لا يقوم ويقوم حتى يقال لا ينام ^(٧) . وكان ذلك بحسب ما ينكشف له بنور النبوة من القيام بحقوق الأوقات . وقد كره العلماء أن يوالى بين الإفطار أكثر من أربعة أيام تقديرا ليوم العيد وأيام التشريق وذكروا أن ذلك يقضى القلب ويولد ردى العادات ويفتح أبواب الشهوات ولعمري هو كذلك في حق أكثر الخلق لاسبيا من يأكل في اليوم والليل مريين . فهذا ما أردنا ذكره من ترتيب الصوم المتطوع به والله أعلم بالصواب . ثم كتاب : أسرار الصوم ، والحمد لله بجميع محامده كلها ما علمنا منها وما لم نعلم على جميع نعمه كلها ما علمنا منها

- (١) الأحاديث الواردة على كرامة صيام الحر أخرجها البخاري ومسلم من حديث عبد الله بن عمرو في حديث لابن ماجه . « لا صام من صام الأبد » . ولمسلم من حديث أبي قتادة : قيل يا رسول الله كيف ينص صام الدهر قال لا صام ولا أفطر . وأخرج السنن أن خود من حديث عبد الله بن عمر وعمران بن حصين وعبد الله بن الفضير .
- (٢) حديث أبي موسى الأشعري : « من صام الدهر كله ضيق عليه جهنم هكذا وعقد تسعين » أخرجه أحمد والنسائي في الكبرى وابن حبان وحسنه أبوعلی الطوسي (٣) حديث : « عرضت على مفاتيح خزائن الدنيا .. الحديث » أخرجه الترمذي من حديث أبي أمامة بنظ : عرض على ربي ليحصل لي بطاء مكة ذبعا . وقال حسن (٤) حديث : « أفضل الصيام صوم أخى داود .. الحديث » أخرجه من حديث عبد الله بن عمر (٥) حديث : « منزلته لعبد الله بن عمرو قوله : صم يوما وأفطر يوما .. الحديث » أخرجه من حديثه (٦) حديث : « ما صام شهرا كاملا قط إلا رمضان » أخرجه من حديث عائشة (٧) حديث : « كان يصوم حتى لا يقال لا يفطر .. الحديث » أخرجه من حديث عائشة وابن عباس دون ذكره القيام والنوم . والبخاري من حديث أنس : « كان يفطر من الشهر حتى يظن أن لا يصوم منه شيئا ويصوم حتى يظن أن لا يفطر منه شيئا » وكان لا ينام ثملا من الليل مصليا إلا رآه ولا نائما إلا رآه »

وما لم نعلم وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم وكرم وحل كل جِدٍ مصطفًى من أهل الأرض والسماء يتلوه إن شاء الله تعالى كتاب : أسرار الحج ، والله المدين لأرب غيره وما توفيق إلا بالله وحسبنا الله ونعم الوكيل .

كتاب أسرار الحج

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى جعل كلمة التوحيد لعماده حرزا وحصنا . وجعل البيت العتيق مثابة للناس وأمنا ، وأكرمه بالنسبة إلى نفسه تشريفاً وتحصينا ومنا ، وجعل زيارته والطواف به حجاً بين العبد وبين العذاب وجنا ، والصلاة على محمد نبي الرحمة وسيد الأمة وعلى آله وصحبه قادة الحق وسادة الخلق وسلم تسليماً كثيراً . أما بعد : فإن الحج من بين أركان الإسلام ومبانيه عبادة العمر وختام الأمر وتمام الإسلام وكال الدين . فيه أزل الله عز وجل (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً) وفيه قال صلى الله عليه وسلم : من مات ولم يحج فليمت إن شاء يهودياً وإن شاء نصراً^(١) ، فأعظم بعبادة يعدم الدين بفقدائها الكمال ويساوى تاركها اليهود والنصارى في الضلال ، وأجدر بها أن تصرف التناية إلى شرحها وتفصيل أركانها وسننها وآدابها وفضائلها وأسرارها . وبجملته ذلك يتكشف بتوفيق الله عز وجل في ثلاثة أبواب :

الباب الأول : في فضائلها وفضائل مكة والبيت العتيق وجمل أركانها وشرايط وجوبها .

الباب الثاني : في أحوالها الظاهرة على الترتيب من مبدل السفر إلى الرجوع .

الباب الثالث : في آدابها الدقيقة وأسرارها الخفية وأحوالها الباطنة : فتلبدأ بالباب الأول وفيه فصلان :

الفصل الأول : في فضائل الحج وفضيلة البيت ومكة والمدينة حرسهما الله تعالى

وشد الرجال إلى المساجد

فضيلة الحج

قال الله عز وجل (وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق) وقال قتادة لما أمر الله عز وجل لإبراهيم صلى الله عليه وسلم وحل نبينا وحل كل جِدٍ مصطفًى أن يؤذن في الناس بالحج نادى : يا أيها الناس إن الله عز وجل ينى بيتنا حجوه وقال تعالى (ليشهدوا منافع لهم) قيل التجارة في الموسم والأجر في الآخرة . ولما سمع بعض السلف هذا قال : غفر لهم ورب الكعبة . وقيل في تفسير قوله عز وجل (لأتقنن لهم صراطك المستقيم) أى طريق مكة يقدم الشيطان عليها لينعج الناس منها وقال صلى الله عليه وسلم : من حج البيت فلم يرفث ولم يفسق خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه^(٢) ، وقال أيضاً صلى الله عليه وسلم : مارؤى

كتاب أسرار الحج

(١) حديث « من مات ولم يحج فليمت إن شاء يهودياً وإن شاء نصراً » أخرجه ابن عدى من حديث أبي هريرة والترمذى نحوه من حديث علي وقال غريب وفى لسانه مقال (٢) حديث « من حج البيت لم يرفث ولم يفسق خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه » أخرجه من حديث أبي هريرة

الشیطان فی يوم اصفر ولا ادحر ولا احمر ولا اغیظ منه يوم عرفة ^(١) ، وما ذك إلا لما یرى من نزول الرحمة وتجاوز الله سبحانه عن الذنوب العظام إذ یقال : إن من الذنوب ذنوبا لا یكفرها إلا الوقوف بعرفة ^(٢) ، وقد أسنده جعفر بن محمد إلى رسول الله صلى الله علیه وسلم . وذكر بعض المكاشفين من المقتزين أن إبلیس اعتذله علیه ظهر له فی صورة شخص بعرفة فإذا هو نازل الجسم مصفر اللون بأبی العین مقصوف الظهر فقال له : ما الذى أبكى عینك ؟ قال : خروج الحاج إلیه بلا تجارة ، أقول قد قصدوه أخاف أن لا یغنیهم فیحزننى ذلك قال : فما الذى أغل جسمك ؟ قال : صیبل الخیل فی سبیل الله عز وجل ولو كانت فی سبیل كان أحب إلی ، قال : فما الذى غیر لونه ؟ قال تآمن الجماعة علی الطاعة ولو تعاونوا علی المعصية كان أحب إلی ، قال : فما الذى تصف ظهرك ؟ قال : قول العبد أسألك حسن الخاتمة ، أقول یا ویلتی متى یجب هذا بعمله أخاف أن یکون قد فطن ؟ وقال صلى الله علیه وسلم : من خرج من بیته حاجا أو معتمرا فأت أجرى له أجر الحاج المعتمر إلی يوم النیامة ومن مات فی أحد الحرمين لم یعرض ولم یحاسب وقیل له ادخل الجنة ^(٣) ، وقال صلى الله علیه وسلم : حجة مبرورة خیر من الدنیا وما فیها وحجة مبرورة لیس لها جزء إلا الجنة ^(٤) ، وقال صلى الله علیه وسلم : الحاج والعمرة والعمارة وفد الله عز وجل وزواره إن سألوه أعطاهم وإن استغفروه غفر لهم وإن دعوا استجب لهم وإن شفعوا شفعوا ^(٥) ، وفی حدیث مسند من طریق أهل البیت علیهم السلام : أعظم الناس ذنباً من وقف بعرفة فظن أن الله تعالى لم یغفر له ^(٦) ، وروى ابن عباس رضی الله عنهما عن النبی صلى الله علیه وسلم أنه قال : یزل علی هذا البیت فی کل يوم مائة وعشرون رحمة ستون للطائفین وأربعون للصائین وعشرون للناظرین ^(٧) ، وفی الخبر : استكثروا من الطواف بالبیة فإنه من أجل شيء یجدونه فی صحفكم يوم النیامة وأغیظ عمل یجدونه ^(٨) ، ولهذا یستحب الطواف ابتداء من غیر حج ولا عمرة وفی الخبر : من طاف أسبوعاً حافياً حاسراً كان له كعتق رقبة ومن طاف أسبوعاً فی المطر غفر له ما سلف من ذنبه ^(٩) . ویقال : إن الله عز وجل إذا غفر لعبد ذنباً فی الموقف غفره لكل من أصابه فی ذلك الموقف . وقال بعض السلف : إذا وافق يوم عرفة يوم جمعة غفر لكل أهل عرفة وهو أفضل

(١) حدیث « ما روى الشیطان فی يوم هو أصفر .. الحديث » أخرجه مالک عن إبراہیم بن أبی عیبة عن طلحة بن عبد الله بن کریر صرحلاً (٢) حدیث « من القنوب ذنوب لا یکفرها إلا الوقوف بعرفة » لم أجده إلا أصلاً

(٣) حدیث « من خرج من بیته حاجاً أو معتمراً فأت أجرى له أجر الحاج المعتمر إلی يوم النیامة ومن مات فی أحد الحرمين لم یعرض ولم یحاسب وقیل له ادخل الجنة » أخرجه البیہقی فی الشعب بالقطر الأول من حدیث أبی هريرة . وروى هو والوافضی من حدیث ثافة القطر الثاني نحوه وكلاهما ضعیف (٤) حدیث « حجة مبرورة خیر من الدنیا وما فیها وحجة مبرورة لیس لها جزء إلا الجنة » أخرجه من حدیث أبی هريرة القطر الثاني بلفظ « الحج المبرور » وقال : إن الحجة المبرورة « وعند ابن عدى « حجة مبرورة » (٥) حدیث « الحاج والعمارة وفد الله وزواره » الحديث « أخرجه من حدیث أبی هريرة دون قوله « وزواره » ودون قوله « إن سألوه أعطاهم » وروى ابن عباس عن النبی صلى الله علیه وسلم أنه قال : یزل علی هذا البیت فی کل يوم مائة وعشرون رحمة » أخرجه ابن حبان فی الضعفاء والبیہقی فی الشعب من حدیث ابن عباس بإسناد حسن وقال أبو حاتم حدیث منکر (٦) حدیث « استكثروا من الطواف بالبیة » الحديث « أخرجه ابن حبان والحاکم . من حدیث ابن عمر « استصموا من هذا البیت لأنه هم صریح یرفع فی النافذة » وقال الحاکم صحیح علی شرط الصیغین .

(٧) حدیث « من طاف أسبوعاً حافياً حاسراً كان له كعتق رقبة » ومن طاف أسبوعاً فی المطر غفر له ما سلف من ذنوبه . لم أجده هكذا وعند الترمذی وابن ماجه من حدیث ابن عمر « من طاف بهذا البیت أسبوعاً فأحصاه كان كعتق رقبة » لفظ الترمذی وحسنه .

يوم في الدنيا ، وفيه حج رسول الله صلى الله عليه وسلم حجة الوداع وكان واقفا إذ نزل قوله عز وجل (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً)^(١) ، قال أهل الكتاب : لو أنزلت هذه الآية علينا لجلعناها يوم عيد فقال عمر رضي الله عنه : أشهد لقد نزلت هذه الآية في يوم عشرين اثنين ؛ يوم عرفة ويوم الجمعة على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو واقف برفة ، وقال صلى الله عليه وسلم : اللهم أغفر الحاج ولئن استغفر له الحاج^(٢) ، ويروي أن علي بن موفق حج عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حججا قال : فرأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنام فقال لي : يا ابن موفق حجب عني ؟ قلت : نعم ، قال : وليت عني ؟ قلت : نعم . قال : فإني أكافئك بها يوم القيامة آخذ بيدك في الموقف فأدخلك الجنة والخلاق في كرب الحساب . وقال مجاهد وغيره من العلماء : إن الحاج إذا قدموا مكة تلقتهم الملائكة فسلموا على ركبائهم الإبل وصالحوا ركبائهم والحر واعتنقوا المشاة اعتناقاً . وقال الحسن : من مات صديق ومضن أو صديق غرو أو صديق حج مات شهيدا . وقال عمر رضي الله عنه : الحاج مغفور له ولئن استغفر له في شهر ذي الحجة والحرم وصفر وعشرين من ربيع الأول . وقد كان من سنة السلف رضي الله عنهم أن يشيعوا الفزاة وأن يستقبلوا الحاج ويقبلوا بين أعينهم ويسألهم الهدايا ويبادرون ذلك قبل أن يتدنسوا بالآثام . ويروي عن علي بن موفق قال : حججت سنة فلما كان ليلة عرفة تمت بمني في مسجد الخيف فرأيت في المنام كأن ملكين قد نزلا من السماء عليهما ثياب خضر فنادى أحدهما صاحبه : يا عبد الله فقال الآخر : لييك يا عبد الله ، قال : تدرى كم حج بيت ربنا عز وجل في هذه السنة ؟ قال : لا أدري قال : حج بيت ربنا ستائة ألف أتدرى كم قبل منهم ؟ قال : لا ، قال : ستة أنفس ، قال : ثم ارتفعا في الهواء فنا يا عني فالتفت فرحا واعتصمت غما شديدا وأمني أمرى فقلت : إذا قبل حج ستة أنفس فأين أنفس فأين أنا في ستة أنفس ؟ فلما أفضت من عرفة قلت عند المشعر الحرام فجعلت أفكر في كثرة الخلق وفي قلعة من قبل منهم ؛ لحملتي النوم فلذا الشخصان قد نزلا علي هيتيما ؛ فنادى أحدهما صاحبه وأعاد الكلام بيته ثم قال : أتدرى ماذا حكم ربنا عز وجل في هذه الليلة ؟ قال : لا ، قال : فإنه وهب لكل واحد من الستة مائة ألف ، قال : فالتفت وبني من السرور ما يحل عن الوصف . وعنه أيضا رضي الله عنه قال : حججت سنة فلما قضيت مناسك تفكرت فبين لا يقبل حجه فقلت : اللهم إني قد وهبت حتى وجعلت ثوابها لمن لم يقبل حجه قال : فرأيت رب العزة في النوم جل جلاله فقال لي : يا علي تسخى علي وأنا خلقت السخاء والاعطاء وأنا أجود الأجودين وأكرم الأكرمين وأحق بالجد والكرم من العالمين قد وهبت كل من لم أقبل حجه لمن قبله .

فضيلة البيت ومكة المشرفة

قال صلى الله عليه وسلم : إن الله عز وجل قد وعد هذا البيت أن يحجبه كل سنة ستائة ألف فلان تقصروا أكملهم الله عز وجل من الملائكة^(٣) ، وإن الكعبة تحضر كالروس المزفوفة وكل من حجها يتعلق بأستارها يسعون حولها حتى تدخل الجنة فيدخلون منها وفي الخبر : إن الحبر الأسود باقوة من يواقيت الجنة ولما يسمت يوم القيامة له عيتان ولسان ينطق

(١) حديث « وقوله في حجة الوداع يوم الجمعة ونزل (اليوم أكملت لكم دينكم) الحديث » أخرجه من حديث عمر

(٢) حديث « اللهم أغفر الحاج ولئن استغفر له الحاج » أخرجه الحاكم من حديث أبي هريرة وقال صحيح على شرط مسلم

(٣) حديث « أن الله قد وعد هذا البيت أن يحجبه في كل سنة ستائة ألف .. الحديث » لم أجده أصلا .

به يشهد لكل من استله بحق وصدق^(١) ، وكان صلى الله عليه وسلم قبله كثيرا^(٢) وروى أنه صلى الله عليه وسلم محمد عليه وكان يطوف على الراحة فيضع الحصى عليه ثم يقبل طرف الحصى^(٣) وقبله عمر رضي الله عنه ثم قال: إني لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع^(٤) ولولا أني رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبلك ما قبلتك ، ثم بكى حتى علا نحيبه فالتفت إلى ورائه فرأى عليا كرم الله وجهه ورضي الله عنه فقال : يا أبا الحسن ههنا تسكب العبرات وتستجاب الدعوات ، فقال علي رضي الله عنه : يا أمير المؤمنين بل هو يضر وينفع ، قال : وكيف ؟ قال : إن الله تعالى لما أخذ الميثاق على النذرية كتب عليهم كتابا ثم ألقاه هذا الحجر ؛ فهو يمدد للؤمن بالوفاء ويشدد على الكافر بالبحود . قيل : فذلك هو معنى قول الناس عند الاستلام : اللهم إيماننا بك وتصديقنا بكتابك ووفاء بعهدك . وروى عن الحسن البصري رضي الله عنه : أن صوم يوم فيها بمائة ألف يوم وصدقة درهم بمائة ألف درهم وكذلك كل حسنة بمائة ألف ويقال : طواف سبعة أسابيع يعدل عمرة وثلاث عمر تعدل حجة . وفي الخبر الصحيح : عرف رمضان كحجة معي^(٥) ، وقال صلى الله عليه وسلم : أنا أول من تنشق عنه الأرض ثم آتى أهل البقيع فيحشرون معي ثم آتى أهل مكة فأحشر بين الحرمين^(٦) ، وفي الخبر : إن آدم صلى الله عليه وسلم لما قضى مناسكه لقبيته الملائكة فقالوا : برحمتك يا آدم لقد حججنا هذا البيت قبلك بالي عام^(٧) ، وجاء في الآثار : إن الله عز وجل ينظر في كل ليلة إلى أهل الأرض فأول من ينظر إليه أهل الحرم وأول من ينظر إليه من أهل الحرم أهل المسجد الحرام فمن رآه طائفا غفر له ومن رآه مصليا غفر له ومن رآه قائما مستقبل الكعبة غفر له . وكشف بعض الأولياء رضي الله عنهم قال : إني رأيت الثغور كلها تسجد لعبادنا ورأيت عبادنا ساجدة لجنته . ويقال : لا تغرب الشمس من يوم إلا ويطوف بهذا البيت رجل من الأبدال ، ولا يطلع الفجر من ليلة إلا طاف به واحد من الأوتاد ، وإذا انقطع ذلك كان سبب رفعة من الأرض فيصبح الناس وقد رفعت الكعبة لا يرى الناس لها أثرا ، وهذا إذا أتى عليها سبع سنين بحجها أحد . ثم يرفع القرآن من المصاحف فيصبح الناس فإذا الورق أبيض يلوح ليس فيه حرف ، ثم ينسخ القرآن من القلوب فلا يذكر منه كلمة . ثم يرجع الناس إلى الأشعار والأغاني وأخبار الجاهلية . ثم يخرج الدجال وينزل عيسى عليه السلام فيقتله والساعة عند ذلك بمنزلة الحامل المقرب التي تتوقع ولادتها . وفي الخبر : استكثروا من الطواف بهذا البيت قبل أن يرفع فقد همم مريم وبرقع في الثالثة^(٨) ، وروى عن علي رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : قال

(١) حديث « إن الحجر ياقوتة من يوابج الجنة ويثبت يوم القيامة له عتبان . الحديث » أخرجه الترمذي وصححه النسائي من حديث ابن عباس « الحجر الأسود من الجنة » فلفظ النسائي وبقي الحديث رواه الترمذي وحسنه وابن ماجه وابن حبان والحاكم وصححه إسناده من حديث ابن عباس أيضا والحاكم من حديث أنس « إن الزكن والماء بالوقتان من يوابج الجنة » وصححه إسناده ورواه النسائي وابن حبان والحاكم من حديث عبد الله بن عمرو .

(٢) حديث « أنه صلى الله عليه وسلم كان يقبله كثيرا » أخرجه من حديث عمر دون قوله « كثيرا » والنسائي « أنه كان يقبله كل مرة ثلاثا إن رآه خاليا » (٣) حديث « أنه كان يسجد عليه » أخرجه البزار والحاكم من حديث عمر وصححه إسناده .

(٤) « أنه عمر وقال لاني لأعلم أنك حجر » أخرجه دون الزيادة التي رواها علي ورواه بذلك الحاكم من حديث عمر وصححه إسناده . (٥) الحديث « عمرة في رمضان كحجة معي » أخرجه من حديث ابن عباس دون قوله « معي » لهي عند مسلم على ذلك « تحق حجة أو حجة معي » ورواه الحاكم بزيادة من غير شك (٦) حديث « أنا أول من تنشق عنه الأرض ثم آتى أهل البقيع فيحشرون معي » الحديث « أخرجه الترمذي وحسنه ابن حبان من حديث ابن عمر .

(٧) حديث « أن آدم لما قضى مناسكه لقبيته الملائكة فقالوا : برحمتك يا آدم .. الحديث » رواه المفضل البجلي ومن طريقه ابن الجوزي في الملل من حديث ابن عباس وقال لا يصح ورواه الأزرق في تاريخ مكة موقوفا على ابن عباس .

(٨) حديث « استكثروا من الطواف بهذا البيت .. الحديث » أخرجه البزار وابن حبان والحاكم وصححه من حديث ابن عمر « استكثروا من هذا البيت فله هم مريم وبرقع في الثالثة »

الله تعالى ، وإذا أردت أن أخرب الدنيا بدأت ببني غرته ثم أخرب الدنيا على أثره ^(١) .

فضيلة المقام بمكة حرسها الله تعالى وكرامته

كره الخائفون المحتاطون من العلماء المقام بمكة لثمان ثلاثة (الأول) خوف التبرم والأذى بالبيت ، فإن ذلك ربما يؤثر في تسكين حركة القلب في الاحترام ، وهكذا كان عمر رضى الله عنه يضرب الحجاج إذا حجرا ويقول : يا أهل اليمن بمنكم ويا أهل الشام شامكم ويا أهل العراق عراقكم . ولذلك هم عمر رضى الله عنه بمنع الناس من كثرة الطواف ، وقال : خشيت أن يأنس الناس بهذا البيت (الثانى) تيسير الشوق بالمفارقة لتنظيم ذاهبة العودة فلما الله تعالى جعل البيت مثابة للناس وأمانا أى يثرون ويمودون إليه مرة بعد أخرى ولا يقضون منه وطرا . وقال بعضهم تكون في بلد وقلبك مشتاق إلى مكة متعلق بهذا البيت خير لك من أن تكون فيه وأنت متبرم بالمقام وقلبك في بلد آخر . وقال بعض السلف : كم من رجل بغراسان وهو أقرب إلى هذا البيت من يطوف ؟ ويقال : إن الله تعالى عبادا تطوف بهم الكعبة تمجدا إلى الله عز وجل (الثالث) الخوف من ركوب الخطايا والذنوب بها ، فإن ذلك عطر وبالخرى أن يورث مقت الله عز وجل لشرف الموضع . وروى عن وهيب بن الورد المكي قال : كنت ذات ليلة في الحصر أصلى فسمعت كلاما بين الكعبة والأستار يقول إلى الله أشكو ثم إليك يا جبرائيل ما ألقى من الطائفين حول من تسكرهم في الحديث ولغوهم ولغوهم لأن لم يفتوا عن ذلك لا تنفضن اتفانضة يرجع كل حجر منى إلى الجبل الذى قطع منه . وقال ابن مسعود رضى الله عنه : ما من بلد يؤخذ فيه العبدانية قبل العمل إلا مكة وتلافوه تعالى (ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم) أى أنه على مجرد الإزادة . ويقال : إن الشياطين تضاعف بها كما تضاعف الحسنات . وكان ابن عباس رضى الله عنه يقول : الاحتكار بمكة من الإلحاد بالحرم وقيل : الكذب أيضا وقال ابن عباس : لأن أذنب سبعين ذنبا بريكة أحب إلى من أن أذنب ذنبا واحدا بمكة . وركبة منزل بين مكة والطائف . والخوف ذلك انتهى بعض المقيمين إلى أن لم يقض حاجته في الحرم بل كان يخرج إلى الحل عند قضاء الحاجة . وبعضهم أقام شهرا وما وضع جنبه على الأرض . وللتنع من الإقامة كره بعض العلماء أجور دور مكة . ولا تظن أن كراهة المقام ينقض فضل البقعة لأن هذه كراهة علقها ضعف الخلق وقصورهم عن القيام بحق الموضع فعنى قولنا إن ترك المقام به أفضل أى بالإضافة إلى مقام مع التقصير والتبرم ، أما أن يكون أفضل من المقام مع الوفاء بحقه فهيئات ! وكيف لا ولما عاد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى مكة استقبل الكعبة وقال : إنك خير أرض الله عز وجل وأحب بلاد الله تعالى إلى ولولا أنى أخرجت منك لما خرجت ^(٢) . وكيف لا وانظر إلى البيت عبادة والحسنات فيها مضاعفة كما ذكرناه .

فضيلة المدينة الشريفة على سائر البلاد

ما بعد مكة بقعة أفضل من مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم فالأعمال فيها أيضا مضاعفة قال صلى الله عليه وسلم : صلاة في مسجدى هذا خير من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام ^(٣) . وكذلك كل عمل بالمدينة بألف

(١) حديث « قال الله إذا أردت أن أخرب الدنيا بدأت ببني غرته ثم أخرب الدنيا على أثره » ليس له أصل .

(٢) حديث « إنك خير أرض الله وأحب بلاد الله لل الله ولولا أنى أخرجت منك ما خرجت » أخرجه الترمذى وصححه النسائى فى الكبرى وابن ماجه وابن حبان من حديث عبد الله بن عمر بن الخطاب (٣) حديث « صلاة في مسجدى هذا خير من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام » متفق عليه من حديث أبى هريرة ورواه مسلم من حديث أبى عمر .

وبعد مدینة الأرض المقدسة فإن الصلاة فيها بخمسائة صلاة فيها مواءها إلا المسجد الحرام ، وكذلك سائر الأعمال . وروى ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : صلاة في مسجد المدينة بعشرة آلاف صلاة وصلاة في المسجد الأقصى بألف صلاة وصلاة في المسجد الحرام بمائة ألف صلاة ^(١) ، وقال صلى الله عليه وسلم : من صبر على شدتها ولأزواتها كتبت له شفيعا يوم القيامة ^(٢) ، وقال صلى الله عليه وسلم : من استطاع أن يموت بالمدينة فليمت فإنه لن يموت بها أحد إلا كتبت له شفيعا يوم القيامة ^(٣) ، وما بعد هذه البقاع الثلاث فالمواضع فيها متساوية إلا الثغور فإن المقام بها للرابطة فيها فيه فضل عظيم . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : لا تنشد الرحال إلا لثلاثة مساجد : المسجد الحرام ومسجدى هذا والمسجد الأقصى ^(٤) ، وقد ذهب بعض العلماء إلى الاستدلال بهذا الحديث في المنع من الرحلة لزيارة المشاهد وقبور العلماء والصلحاء . وما تبين لي أن الأمر كذلك بل الزيارة مأمور بها قال صلى الله عليه وسلم : كنت نهيتمكم عن زيارة القبور فزوروها ولا تقولوا هجرنا ^(٥) . والحديث إنما ورد في المساجد وليس في معناها المشاهد ، لأن المساجد بعد المساجد الثلاثة متناهية ولا بد إلا وفيه مسجد فلا معنى للرحلة إلى مسجد آخر ، وأما المشاهد فلا تقاوى بل ركة زيارتها على قدر درجاتهم عند الله عز وجل ، نعم لو كان في موضع لا مسجد فيه فله أن يشد الرحال إلى موضع فيه مسجد وينتقل إليه بالكلية إن شاء . ثم ليت شعري هل يمنع هذا القائل من شد الرحال إلى قبور الأنبياء عليهم السلام مثل إبراهيم وموسى ويحيى وغيرهم عليهم السلام ، فالمنع من ذلك في غاية الإحالة ، فإذا جاز هذا فقبور الأولياء والعلماء والصلحاء في معناها ، فلا يبعد أن يكون ذلك من أغراض الرحلة كما أن زيارة العلماء في الحياة من المقاصد ؛ هذا في الرحلة . أما المقام فالأولى بالمريد أن يلازم مكانه إذا لم يكن قصده من السفر استفادة العلم مهما سلم له حاله في وطنه ؛ فإن لم يسلم فيطلب من المواضع ما هو أقرب إلى الخول وأسلم للدين وأفرغ القلب وأيسر للعبادة فهو أفضل المواضع له ، قال صلى الله عليه وسلم : البلاد بلاد الله عز وجل والخلق عباده فأى موضع رأيته فيه رفقا فأقم واحمد الله تعالى ^(٦) . وفي الخبر : من يورك له في شيء فليزره ومن جعلت مبيشته في شيء فلا ينتقل عنه حتى يتغير عايه ^(٧) ، وقال أبو نعيم : رأيت سفينان الثوري وقد جعل جرابه على كتفه وأخذ نعله بيده فقلت : إلى أين يا أبا عبد الله ؟ قال : إلى بلد أملا فيه جرابي يدرهم . وفي حكاية أخرى يلقى عن قرية فيها رخص أقيم فيها ، قال فقلت : وتفعل هذا يا أبا عبد الله ؟ فقال : نعم إذا سمعت برخص في بلد فأقصده فإنه أسلم لدينك وأقل لمسك ، وكان يقول هذا زمان سوء لا يؤمن فيه على الخاملين فكيف

(١) - حديث ابن عباس : صلاة في مسجد المدينة بعبارة آلاف صلاة وصلاة في المسجد الأقصى بألف صلاة وصلاة في المسجد الحرام بمائة ألف صلاة . غريب لم أجده بهذه هكذا أخرجه ابن ماجه من حديث ميمونة إسناده جيد في بيت المقدس « الترمذى » قالوا له فان الصلاة فيه كالف صلاة في غيره « ولابن ماجه من حديث أنس » صلاة بالمسجد الأقصى بخمسين ألف صلاة وصلاة في مسجدى بخمسين ألف صلاة « وليس في إسناده من ضعف وقال الأعمى : له منكر

(٢) - حديث « لا يصبر على لأوائها وشدتها أحد إلا كتبت له شفيعا يوم القيامة » من حديث أبي هريرة وابن عمر وأبي سعيد

(٣) - حديث « من استطاع أن يموت بالمدينة فليمت بها . . الحديث » أخرجه الترمذى وابن ماجه من حديث ابن عمر قال الترمذى حسن صحيح (٤) - حديث « لا تعد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد . . الحديث » متعلق عليه من حديث أبي هريرة

وأبي سعيد (٥) - حديث « كنت نهيتمكم عن زيارة القبور فزوروها » أخرجه مسلم من حديث بريدة بن الحصيب

(٦) - حديث « البلاد بلاد الله والباد عباده فأى موضع رأيته فيه رفقا فأقم » أخرجه أحمد والترمذى من حديث الترمذى

بسند ضعيف (٧) - حديث « من رزق في شيء فليزره ومن جعلت مبيشته في شيء فلا ينتقل عنه حتى يتغير عايه » أخرجه ابن ماجه من حديث أنس بإسناد الأول بسند حسن ومن حديث عائشة بسند فيه جهالة بنقط « إذا سبب الله لأحدكم رزقا من وجه

فلا يدعه حتى يشتر أو يتكسر له »

بالمشهورين ؟ هذا زمان تنقل يفتقر الرجل من قرية إلى قرية يفزديته من الفتن . ويحكى عنه أنه قال : والله ما أدري أى البلاد أسكن ؟ فقيل له : خراسان ، فقال : مذاهب مختلفة وآراء فاسدة ، قيل : فالقائم ، قال : يشار إليك بالأصابع - أراد الشجرة - قيل فالعراق ، قال : بلها الجبارة ، قيل : مكة ، قال : مكة تذيب الكيس والبدن . وقال له رجل غريب : عزمت على المجاورة بمكة فأوصنى ، قال : أوصيك بثلاث : لاتصلين في الصف الأول ولا تصحبين قرشياً ولا تظهرين صدقة . وإنا نكره الصف الأول لأنه يشتر فيفتقد إذا غاب فيمتلئ بعمله التزين والتضع .

الفصل الثاني : في شروط وجوب الحج وصحة أركانه وواجباته ومخطلواته

أما الشرائط فشرط صحة الحج اثنان : الوقت والإسلام . فيصح حج الصبي ويحرم نفسه إن كان ممزاً ويحرم عنه وليه إن كان صغيراً ويفضل به ما يفضل في الحج من الطواف والسعى وغيره . وأما الوقت فهو شوال وذو القعدة وتسع من ذي الحجة إلى طلوع الفجر من يوم النحر ، فمن أحرم بالحج في غير هذه المدة فهي عمرة وجميع السنة وقت العمرة ، ولكن من كان معكوفاً على النسك أيام من فلا يفتى أن يحرم بالعمرة لأنه لا يتمسك من الاشتغال صغيبه لاشتغاله بأعمال منى . وأما شروط وقوعه عن حجة الإسلام فثلاثة : الإسلام والحزبة والبلوغ والعقل والوقت . فمن أحرم الصبي أو العبد ولكن عتق العبد وبلغ الصبي بعمرة أو بمزدلفة وعاد إلى عرفة قبل طلوع الفجر أجزأهما عن حجة الإسلام . لأن الحج عرفة ، وليس عليهما دم إلا شاة . وتشرط هذه الشرائط في وقوع العمرة عن فرض الإسلام إلا الوقت . وأما شروط وقوع الحج فثلاثة : الحر البالغ فهو بعد برائة ذمته عن حجة الإسلام لحج الإسلام متقدم ، ثم القضاء لمن أفسده في حالة الوقوف ، ثم التدرج ، ثم النيابة ، ثم الغل ؛ وهذا الترتيب مستحق ، وكذلك يقع وإن نوى خلافه . وأما شروط لزوم الحج فثلاثة : البلوغ والإسلام والعقل والحزبة والاستطاعة . ومن لزمه فرض الحج لزمه فرض العمرة . ومن أود دخول مكة لزيارة أو تجارة ولم يكن حطاباً لزمه الإحرام على قول ثم يتحل بعمل عمرة أو حج . وأما الاستطاعة فتروان : أحدهما المباشرة وذلك له أسباب أما في نفسه فبالصحة ، وأما في الطريق فبأن تكون خصبة آمنة بلا بحر عطر ولا عقد قاهر ، وأما في المال فبأن يجد نفقة ذهابه وإيابه إلى وطنه . كان له أهل أو لم يكن - لأن مفارقة الوطن شديدة وأن يملك نفقة من تلامه نفقته في هذه المدة وأن يملك ما يقضى به ديونه وأن يقدر على راحلة أو كراثها يحمل أو زاملة إن استمسك على الزاملة وأما النوع الثاني : فاستطاعة المعنوية بماله وهو أن يستأجر من يبيع عنه بعد فراغ الأجير عن حجة الإسلام لنفسه . ويمكن نفقة الذهاب بزاملة في هذا النوع ، والابن إذا عرض طاعته على الأب الزمن صار به مستطيعاً ولو عرض ماله لم يصبره مستطيعاً ، لأن الخدمة بالبدن فيها شرف للولد ، وبذلك المال فيه منة على الوالد . ومن استطاع لزومه الحج وله التأخير ولكنه فيه على خطر فإن تيسر له ولو في آخر عمره سقط عنه ؟ وإن مات قبل الحج لقي الله عز وجل وأصياً بترك الحج ، وكان الحج في تركه يصح عنه وإن لم يوص كسائر ديونه . وإن استطاع في سنة فلم يخرج مع الناس وهلك ماله في تلك السنة - قيل حج الناس - ثم مات لقي الله عز وجل ولا حرج عليه . ومن مات ولم يصح مع اليسار فأمره شديد عند الله تعالى . قال عمر رضي الله عنه : لقد سمعت أن أكتب في الأوصار بعرض الجزية على من لم يصح من يستطيع إليه سبيلاً . وعن سعيد بن جبير وإبراهيم النخعي ومجاهد وطاوس : لو علمت رجلاً غنياً وجب عليه الحج ثم مات قبل أن يصح ما صليت عليه وبعضهم كان له جار موسر فمات ولم يصح لم يصح عليه . وكان ابن عباس يقول : من مات ولم يرك ولم يصح بالرجعة إلى الدنيا وقرأ قوله عز وجل (وباركوا لمن عمل صالحاً فلن يتركه) قال :

الحج وأما الأركان التي لا يصح الحج بدونها الخمسة : الإحرام والطواف والسعى بعده والوقوف بعرفة والحلق بعده على قول وأركان العمرة كذلك إلا الوقوف والواجبات المجبورة بالدم مست : الإحرام من الميقات فمن تركه وجاز الميقات عملاً فله فيه الدم قولاً واحداً ، وأما الصبر بعرفة إلى غروب الشمس والمبيت بزدلفة والمبيت بنجر وطواف الوداع فهذه الأربعة يجبر تركها بالدم على أحد القولين ، وفي القول الثاني فيها دم على وجه الاستحباب . وأما وجوه أداء الحج والعمرة الثلاثة (الأول) الأفراد وهو الأفضل وذلك أن يقدم الحج وحده فإذا فرغ خرج إلى الحل فأحرم واعتمر . وأفضل الحل لإحرام العمرة الجمعانة ثم التمتع ثم الحديبية . وليس على الفرد دم إلا أن يتلوع (الثاني) القران وهو أن يجمع فيقول « ليكن حججة وعمرة معاً ، فيصير محرماً بهما ويكفيه أعمال الحج وتندرج العمرة تحت الحج كما يندرج الوضوء تحت الغسل ؛ إلا أنه إذا طاف وسعى قبل الوقوف بعرفة فسميه محسوب من النسكين وأما طوافه فغير محسوب ، لأن شرط الطواف الفرض أن يقع بعد الوقوف . وعلى القارئ دم شاة إلا أن يكون مكياً فلا شيء عليه لأنه لم يترك ميقاته إذ ميقاته مكة (الثالث) التمتع وهو أن يجاوز الميقات محرماً بمعة ويتحل بمكة ويتنعم بالمحظورات إلى وقت الحج ثم يحرم بالحج ولا يكون متمتعاً إلا بنفس شرائط . أحدهما أن لا يكون من حاضري المسجد الحرام وحاضره من كان منه على مسافة لا تقصر فيها الصلاة . الثاني . أن يقدم العمرة على الحج . الثالث . أن تكون عمرته في أشهر الحج . الرابع : أن لا يرجع إلى ميقات الحج ولا إلى مثل مسافته لإحرام الحج . الخامس : أن يكون حجبه وعمرته عن شخص واحد فإذا وجدت هذه الأوصاف كان متمتعاً ولزمه دم شاة ؛ فإن لم يجد فصيام ثلاثة أيام في الحج قبل يوم النحر متفرقة أو متتابعة وسبعة إذا رجع إلى الوطن ، وإن لم يصب الثلاثة حتى رجع إلى الوطن صام العشرة تتاباً أو متفرقاً وبدل دم القران والتمتع سواء . والأفضل للأفراد ثم التمتع ثم القران . وأما محظورات الحج والعمرة فستة ؛ الأول : القيس للقميص والسراري والحف والعمامة بل يلبس أن يلبس لئلا يرداه . ثانياً ، فإن لم يجد نعلين فكممين فإن لم يجد إزاراً فمراويل ولا بأس بالمنطقة والاستئطال في الحمل ولكن لا يلبس أن يغطي رأسه فإن إحرامه في الرأس وللرأة أن تلبس كل غيظ بعد أن لا تستر وجهها بما يماسه فإن إحرامها في وجهها . الثاني الطيب فليجتنب كل ما يدهد العقلاء طيباً فإن تطيب أو لبس فعليه دم شاة . الثالث : الحلق والقلم وفيهما الفدية أعنى دم شاة ، ولا بأس بالكحل ودخول الحمام والغسل والحجامة وترجيل الشعر ، الرابع : الجماع وهو مفسد قبل التحلل الأول وفيه بدنة أو بقرة أو سبع شياه وإن كان بعد التحلل الأول لزمه الهدية ولم يفسد حجبه . والخامس : مقدمات الجماع كالقبلة والملازمة التي تقتض الطهر مع النساء فهو محرم وفيه شاة وكذا في الاستنماء ، ويحرم التكاح والإنكاح ولا دم فيه لأنه لا ينقذ . السادس : قتل صيد البر أعنى ما يؤكل أو هو متولد من الحلال والحرام فإن قتل صيداً فعليه مثله من النعم يراعى فيه التقارب في الحلقة وصيد البحر حلال ولا جواز فيه .

الباب الثاني في ترتيب الأعمال الظاهرة من أول السفر إلى الرجوع وهي عشر جل

الحلة الأولى : في السير من أول الخروج إلى الإحرام وهي ثمانية

(الأول) في المال : فينبغي أن يبدأ بالتوبة ورد المظالم وقضاء الديون وإعداد النفقة لكل من تلزمه نفقته إلى وقت الرجوع ويرد ماعنده من الودائع . ويستصح من المال الحلال الطيب ما يكتفيه لذهابه وإيابه من غير

عونا على السير . ومهما أصرَف على المنزل فليقل : اللهم رب السموات السبع وما أظللن ورب الأرضين السبع وما أظللن ورب الشياطين وما أظللن ورب الرياح وما ذرين ورب البحار وما جرين أسألك غير هذا المنزل وغير أهله وأعوذ بك من شره وشر ما فيه أصرَف حتى شر شرارهم . فإذا نزل المنزل صلى ركعتين فيه ثم قال : أعوذ بكتابات الله التامات التي لا يمحوا من بر ولا فاجر من شر ما خلق . فإذا جنَّ عليه الليل يقول : يا أرض ربى وربك الله أعوذ بالله من شرك وشر ما يفك وشر ما دب عليك أعوذ بالله من شر كل أسد وأسد وحية وعقرب ومن شر ساكن البلد ورواده وما ولد (وله ما سكن في الليل والنهار وهو السميع العليم) (السابعة) في الحراسة : ينبغي أن يحتاط بالنيار فلا يمشي منفردا خارج القافلة لأنه ربما يقتال أو ينقطع ، ويكون بالليل متحفظا عند النوم فإن نام في ابتداء الليل افترش ذراعه ، وإن نام في آخر الليل نصب ذراعه نصبا وجعل رأسه في كفه ، هكذا كان بنام رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفره ^(١) لأنه ربما استقل الثوم فطلع الشمس وهو لا يدري فيكون ما يفوته من الصلاة أفضل مما يناله من الحج والأصحب في الليل أن يتقارب الرفيقان في الحراسة فإذا نام أحدهما حرس الآخر ^(٢) فهو السنة فإن قصده عدو أو سبع في ليل أو نهار فليقرأ آية الكرسي وشهد الله بالإخلاص والمؤذنين وليقل بسم الله ماشاء الله لاقوه إلا بالله حسبي الله توكلت على الله ماشاء الله لا يأتي بالحير إلا الله ما شاء الله لا يصرف السوء إلا الله حسبي الله وكفى بسبع الله لمن دعا ليس وراء الله منتهى ولا دون الله ملجأ (كتب الله لأغلبن أنا ورسلي إن الله قوي عزيز) تحصفت بالله العظيم واستغثت بالحق الذي لا يموت اللهم أحرسنا بعينك التي لا تنام واكفنا بركتك الذي لا يرام . اللهم أوحنا بقدرتك علينا فلا تهلك وأنت تفتنا ورجاؤنا . اللهم أعطف علينا قلوب عبادك وإمائك برفقة ورحمة إنك أنت أرحم الراحمين (الثامنة) مهما علا نفرا من الأرض في الطريق فيستحب أن يكره ثلاثا ثم يقول : اللهم لك الشرف على كل شرف ولك الحمد على كل حال . ومهما هبط نسيح ومهما خاف الوحشة في سفره قال : سبحان الله الملك القدوس رب الملكة والروح جلال السموات بالعمة والجبروت .

الجملة الثانية : في آداب الإحرام من الميقات إلى دخول مكة وهي خمسة

(الاول) أن يقتل وينوى به غسل الإحرام أحيى إذا انتهى إلى الميقات المشهور الذي يحرم الناس منه . ويتم غسله بالتنظيف ويرسح لحيته ورأسه ويقلم أظفاره ويقص شاربه ويستكمل النظافة التي ذكرناها في الطهارة (الثاني) أن يفارق الثياب المخيطة ويلبس ثوبي الإحرام فيرتدى ويتزر بثوبين أبيضين فالأبيض هو أحب الثياب إلى الله عز وجل ، ويتطيب في ثيابه وبدنه ولا بأس بطيب يبق جرمه بعد الإحرام ؛ فقد روى بعض المسلك على مفرق رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد الإحرام عما كان استعمله قبل الإحرام ^(٣) (الثالث) أن يصبر بعد لبس الثياب حتى تلبثت به راحلته إن كان راكبا أو يبدأ بالسير إن كان راجلا فمن ذلك ينوي الإحرام بالحج أو بالعمرة

(١) حديث « كان إذا نام في أول الليل افترش ذراعه وإذا نام في آخر الليل نصب ذراعه نصبا وجعل ذراعه في كفه » أخرجه أحمد والترمذي في الميقات من حديث أبي قيادة بإسناد صحيح وعزاه أبو مسعود المصنف والمحدث إلى مسلم ولم أره فيه .

(٢) حديث في تناوب الرفيقين في الحراسة فإذا نام أحدهما حرس الآخر « أخرجه البيهقي من طريق ابن أسحق من حديث جابر في حديث فيه « فقال الأصمري أي الليل أحب إليك أن أكفيسك أوله أو آخره ؟ فقال : بل أكفيس أوله فاشطبع المهاجري .. الحديث » والحديث عند أبي داود ولكن ليس فيه قول الأصمري للمهاجرين (٣) حديث رؤية ويس المسك على مفرق رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد الإحرام « متفق عليه من حديث عائشة قالت « كنا أتانا أنظر إلى ويس المسك » الحديث .

قرانا أو أفرادا كما أراد . ويمكن مجرد التبة لالتقاء الإحرام ولكن السنة أن يقرن بالتبة لفظ التلبية فيقول : ليك اللهم ليك ليك لا شريك لك ليك إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك ، وإنزاد قال : ليك وسعد بك والخير كله بيدك والرهاب إليك ليك بحجة حقا تعبدا ورقا اللهم صل على محمد وعلى آل محمد ، (الرابع) إذا انعقد إحرامه بالتلبية المذكورة فيستحب أن يقول : اللهم إني أريد الحج فيسره لي وأعني على أداء فريضة وتقبله مني . اللهم إني نويت أداء فريضتك في الحج فأجعلني من الذين استجابوا لك وآمنوا بوعدك واتبعوا أمرك واجعلني من وفدك الذين رضى عنهم وأرضيت وقبلت منهم . اللهم فيسروا أداء ما نويت من الحج ، اللهم قد أحرم لك طي وشعري ودمي وعصبي وغنى وعظاى وحزمت على نفسى النساء والطيب وليس الخيط ابتغاء وجهك والدار الآخرة . ومن وقت الإحرام حرم عليه المحظورات الستة التي ذكرناها من قبل فليجتنبها (الخامس) يستحب تجديد التلبية في دوام الإحرام خصوصا عند اصطدام الرقاق وعند اجتماع الناس وعند كل صعود وهبوط وعند كل ركوب ونزول وأما بها صوته بحيث لا يسمع حلقه ولا ينهر ، فإنه لا ينادى أحرم ولا غابا ^(١) كما ورد في الخبر . ولا بأس برفع الصوت بالتلبية في المساجد الثلاثة فإنها مظنة الحاشية - أعني المسجد الحرام ومسجد الخيف ومسجد الميقات - وأما سائر المساجد فلا بأس فيها بالتلبية من غير رفع صوت : وكان صلى الله عليه وسلم إذا أجهه شيء قال : ليك إن العيش عيش الآخرة ^(٢) .

الجملة الثالثة في آداب دخول مكة إلى الطواف وهي ستة

(الاول) أن يغتسل بذي طوى لدخول مكة . والاعتسالات المستحبة المسنونة في الحج تسعة . الاول : للإحرام من الميقات ثم لدخول مكة ثم لطواف القدوم ثم للوقوف بعرفة ثم للوقوف بمزدلفة ثم لثلاثة أضلاع لرى الجمار الثلاث ؛ ولا غسل لرى جرة العقبة ، ثم لطواف الوداع . ولم ير الشافعي رضي الله عنه في الجديد : الغسل لطواف الزيارة ولطواف الوداع فتعود إلى سامة ، الثاني : أن يقول عند الدخول في أول الحرم وهو خارج مكة ، اللهم هذا حرمك وأملك لحرم لحي ودي وشعري وبشرى على النار وأمن من ظالمك يوم تمت عبادك واجعلني من أوليائك وأهل طاعتك . الثالث أن يدخل مكة من جانب الأبلح وهو ثنية كذا - بفتح الكاف - عند رسول الله صلى الله عليه وسلم من جادة الطريق إليها ^(٣) فالتأسي به أول ، وإذا خرج خرج من ثنية كدى - بضم الكاف - وهي الثنية السفلى والاولى هي العليا . الرابع : إذا دخل مكة وانتهى إلى رأس الردم فنهذه يقع بصره على البيت ليلقل : لا إله إلا الله والله أكبر اللهم أنت السلام ومنك السلام ودارك دار السلام تباركت يا ذا الجلال والإكرام اللهم إن هذا بيتك عظمت وكرمت وشرفته اللهم فرده تعظيما وزده تشريفا وتكريما وزده مهابة وزد من حجة برا وكرامة اللهم افتح لي أبواب رحمتك وأدخلني جنتك وأخذني من الشيطان الرجيم . الخامس : إذا دخل المسجد الحرام فليدخل من باب بني شيبه وليقل : بسم الله وبالله ومن الله وإلى ربي سبيل الله وعلى ملة رسول الله صلى الله عليه وسلم فلذا قرب من البيت قال الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى . اللهم

(١) حديث « السك لاصادون أسم ولا غابا » متفق عليه من حديث أبي موسى (٢) حديث « كان إذا أجهه شيء قال : ليك إن العيش عيش الآخرة » أخرجه الترمذي في السنن من حديث حماد مرسل بنحوه وإمام وصحه من حديث ابن عباس « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقف بهرات فلما قال ليك اللهم ليك » قال « إنما الخير غير الآخرة » (٣) حديث « دخول رسول الله صلى الله عليه وسلم من ثنية كداء - بفتح الكاف - » متفق عليه من حديث ابن عمر قال « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا دخل مكة دخل من الثنية العليا التي بالأبطاء .. الحديث »

صل على محمد عبدك ورسولك وعلى إبراهيم خليلك وعلى جميع أنبيائك ورسلك ، ويرفع يديه وليقل : اللهم إني أسألك في مقاي هذا في أول مناسكي أن تقبل توبتي وأن تتجاوز عن خطيئتي وتضع عن وزري الحمد لله الذي باقني بينه الحرم الذي جعله مثابة للناس وأماناً وجعله مباركاً ومدى المالمين . اللهم إني عبدك والباد بذك والحرم حرمك والبيت بيتك جنتك أطلب رحمتك وأسألك مسئلة المضطر الخائف من عقوبتك الراجي لرحمتك الطالب مرضاتك . السادس : أن تقصد الحجر الأسود بعد ذلك وتمسه بيدك اليمنى وتقبله وتقول : اللهم أمانتي أدبتها وميثاقي وزيته اشهد لي بالوفاء فإن لم يستطع التقبيل وقف في مقابلته ويقول ذلك . ثم لا يسترح على شيء دون الطواف وهو طواف القدوم إلا أن يجد الناس في المكتوبة فيصلى معهم ثم يطوف .

الجملة الرابعة : في الطواف

فلذا أراد افتتاح الطواف إما للقدوم وإما لغيره فينبغي أن يراعى أموراً ستة (الأول) أن يراعى شروط الصلاة من طهارة الحدث والخبث في الثوب والبدن والمكان وسر العورة . فالطواف بالبيت صلاة ولكن الله سبحانه أباح فيه الكلام . وليستطيع قبل ابتداء الطواف وهو أن يجعل وسط ردائه تحت إبطه اليمنى ويجمع طرفيه على منكبيه الأيسر فيخري طرفاً وراء ظهره وطرفاً على صدره . ويقطع التلبية عند ابتداء الطواف ويستغل بالأدعية التي سندها كرها (الثاني) إذا فرغ من الاضطباع فليجعل البيت على يساره وليقف عند الحجر الأسود وليتبع عنه قليلاً ليكون الحجر قدماه فيمر بجميع الحجر بجميع بدنه في ابتداء طوافه . وليجعل بينه وبين البيت قدر ثلاث خطوات ليكون قريباً من البيت فإنه أفضل ولكيلا يكون طائفاً على الشاذروان فإنه من البيت ، وعند الحجر الأسود قد يتبع الشاذروان بالأرض ويتبس به ، والطائف عليه لا يصح طوافه ؛ لأنه طائف في البيت . والشاذروان هو الذي فضل من عرض جدار البيت بعد أن ضيق أعلى الجدار ثم من هذا الموقف يتبدئ الطواف (الثالث) أن يقول قبل مجاوزة الحجر بل في ابتداء الطواف ، بسم الله والله أكبر اللهم إيماناً بك وتصديقاً بكتابتك ووفاء بهدك وإيماناً بلسنة نبيك محمد صلى الله عليه وسلم . ويطوف . فأقول مايمارز الحجر ينتهي إلى باب البيت فيقول : اللهم هذا البيت بيتك وهذا الحرم حرمك وهذا الأمن أمنك وهذا مقام المائد بك من النار ، وعند ذكر المقام يشير بعينه إلى مقام إبراهيم عليه السلام ، اللهم إن بيتك عظيم ووجهك كريم وأنت أرحم الراحمين فأعذني من النار ومن الشيطان الرجيم ومن حلي ودمي على النار وآخني من أهوال يوم القيامة واكفني مؤنة الدنيا والآخرة ، ثم يسبح الله تعالى ويمجده حتى يبلغ الركن العراقي فعنده يقول : اللهم إني أعوذ بك من الشرك والشك والكفر والنفاق والعناق وسوء الأخلاق وسوء النظر في الأهل والمسال والولد ، فإذا بلغ الميزاب قال : اللهم أغظنا تحت حرسك يوم لا لائل إلا ظلك اللهم أسقني بكأس محمد صلى الله عليه وسلم شربة لا أظمأ بعدها أبداً ، فإذا بلغ الركن الشامى قال : اللهم اجعله حجاً مبروراً قسماً مشكوراً وذنباً مغفوراً ونجاة لمن يغفرو رب اغفر وارحم وتجاوز عما تعلم إنك أنت الأعز الأكرم ، فإذا بلغ الركن اليماني قال : اللهم إني أعوذ بك من الكفر وأعوذ بك من الفقر ومن عذاب القبر ومن فتنة الحيا والممات وأعوذ بك من الخزي في الدنيا والآخرة ، ويقول بين الركن اليماني والحجر الأسود : اللهم ربنا آمنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا برحمتك فتنة القبر وعذاب النار ، فإذا بلغ الحجر الأسود قال اللهم اغفر لي رحمتك أعوذ برب هذا الحجر من الدين والفقر وضيق الصدر وعذاب القبر ، وعند ذلك قد تم شروط واحد فيطوف كذلك سبعة أشواط فيدعوهم الأدعية في كل شوط (الرابع) أن يرمل في ثلاثة أشواط ويمشي في الأربعة الأخر

على الهيئة المعتادة . ومعنى الرمل الإسراع في المشي مع تقارب الخطأ ، وهو دون العدو و فوق المشي المعتاد . والمقصود منه ومن الانعطاب إظهار الشطارة والجلادة والقوة ، هكذا كان التقصد أولاً قطعاً لطعم الكفار ونقيبت تلك السنة^(١) والأفضل الرمل مع الدق من البيت فإن لم يمكنه للرحمة فالرمل مع البعد أفضل فيخرج إلى حاشية المطاف وليرمل ثلاثاً ثم يقرب إلى البيت في المزدحم وليمش أرباً . وإن أمكنه استلام الحجر في كل شوط فهو الأحب ، وإن منته الرحمة أشار باليد وقيل يده ، وكذلك استلام الركن الثاني يستحب من سائر الأركان . وروى ، أنه صلى الله عليه وسلم كان يستلم الركن الثاني^(٢) ويقبله^(٣) ويضع خده عليه^(٤) ، ومن أراد تخصيص الحجر بالتفصيل وانتصر في الركن الثاني على الاستلام أغنى عن اللبس باليد فهو أولى (الخامس) إذا تم الطواف سبعاً فليات الملتزم وهو بين الحجر والباب وهو موضع استجابة الدعوة ، وليلتزم بالبيت وليتعلق بالاستار وليصلح بطنه بالبيت وليضع عليه خده الأيمن وليسقط عليه ذراعيه وكفيه ، وليقل : اللهم يارب البيت المتيق اعتق رقبتي من النار وأعذني من الشيطان الرجيم وأعذني من كل سوء وقمني بما رزقني وبارك لي فيما آتيتني اللهم إن هذا البيت بينك والبعيد عبدك وهذا مقام العائذ بك من النار اللهم اجعلني من أكرم وفدك عليك ، ثم ليحمد الله كثيراً في هذا الموضع وليصل على رسوله صلى الله عليه وسلم وعلى جميع الرسل كثيراً وليدع بمحاربه الخاصة وليستغفر من ذنوبه . كان بعض السلف في هذا الموضع يقول لمواليه : تمحروا عني حتى أقول لربي بثلثي (السادس) إذا فرغ من ذلك بقضى أن يصل خلف المقام ركعتين يقرأ في الأولى قل يا أيها الكافرون وفي الثانية الإخلاص وهما ركعتا الطواف . قال الزهري : مضت السنة أن يصل لكل سبع ركعتين^(٥) . وإن قرن بين أسبوع وصل ركعتين جاز^(٦) . فمل ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم وكل أسبوع طواف . وليدع بعد ركعتي الطواف وليقل : اللهم يسر لي اليسرى وجنبي اليسرى وأغفر لي في الآخرة والأولى وأعصمني بأطرافك حتى لا أعصيك وأعني على طاعتك بتوفيقك وجنبي معاصيك واجعلني ممن يحبك ويجب ملائكتك ورسلك ويجب عبادك الصالحين . اللهم جنبي إلى ملائكتك ورسلك وإلى عبادك الصالحين اللهم فكا هديتي إلى الإسلام فثبتي علي بأطرافك وولايتك واستعملني لطاعتك وطاعة رسولك وأجرني من مضلات

(١) حديث « مروة الرمل والاضطباع قطعاً لقطع الكفار ونقيبت تلك السنة » أما الرمل فلفق عليه من حديث ابن عباس قال « قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه فقال الممركون إنه يقدم عليكم قوم قد وهنتهم حتى يترب فأمرهم النبي صلى الله عليه وسلم أن يرملوا الأضواء الثلاثة ... الحديث » وأما اضطباع فروى أبو داود وابن ماجه والحاكم ومصحه من حديث عمر قال « نيم الرملات الآن والكسوف من الناك وقد أظهر الله الإسلام ونقي الكفر وأهل يوم ذلك لا ندع شيئاً كسنا ناله على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم » (٢) حديث « استلامه صلى الله عليه وسلم الركن الثاني » متفق عليه من حديث ابن عباس قال « رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل الركن الثاني ... الحديث » (٣) حديث « بقبلة صلى الله عليه وسلم » (٤) حديث « وضع الخد عليه » أخرجه المذاهب من حديث ابن عباس « أن صلى الله عليه وسلم إذا استلم الركن الثاني قبله » (٥) حديث « مضت السنة أن يصل لكل أسبوع ركعتين » ذكره البخاري تعليقاً أفضل من خلف النبي صلى الله عليه وسلم أسبوعاً إلا ما صلى ركعتين وفي الصحيحين من حديث ابن عمر « فمل رسول الله صلى الله عليه وسلم وطاف بالبيت سبعاً وصل خلف المقام ركعتين » (٦) حديث « قرأه صلى الله عليه وسلم بين أسبوع » ورواه ابن أبي حاتم من حديث ابن عمر « أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ ثلاثاً أموات ليس فيها صلاة » ورواه الباقين في الشفاء وابن هاشم في أماليه من حديث أبي هريرة وزاد « ثم لم لكل أسبوع ركعتين » وفي إسنادهما عبد السلام بن أبي الجواب شمس الحديث

الفن . ثم ليعد إلى الحجر وليستله وليختم به الطواف قال صلى الله عليه وسلم من طاف بالبيت أسبوعا وصل ركعتين فله من الأجر كمثقت رقية ^(١) ، وهذه كيفية الطواف . والواجب من جلته بعد شروط الصلاة أن يستكمل عدد الطواف سبعا بجميع البيت ، وأن يبتدئ بالحجر الأسود ويجعل البيت على يساره وأن يطوف داخل المسجد وخارج البيت لأجل الشاذروان ولا في الحجر ، وأن يوالى بين الأشواط ولا يفترقها تفريقا عارجا عن المعتاد وما عدا هذا فهو سنن وهيات .

الجملة الخامسة : في السعي

فلذا فرغ من الطواف فليخرج من باب الصفا وهو في محاذة الضلع الذي بين الركن الباقى والحجر . فلذا خرج من ذلك الباب واتى إلى الصفا وهو جبل فيرق فيه درجات في حضيض الجبل بقدر قامة الرجل . رقى رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بدت له الكعبة ^(٢) . وابتداء السعى من أصل الجبل كلف وهذه الزيادة مستحبة ، ولكن بعض تلك الدوج مستحذة فيلبي أن لا يخطفها وراء ظهره فلا يكون متما للسعى ، وإذا ابتدأ من ههنا سعى بينه وبين المروة سبع مرات . وعند رقية في الصفا يلبى أن يستقبل البيت ويقول : الله أكبر الله أكبر الحمد لله على ما هدانا إلى هذا فله بمجاهدته كلها على جميع لعمه كلها لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد يحيى ويميت بيده الخير وهو على كل شيء قدير لا إله إلا الله وحده صدق وعده ونصر عبده وأعز جنده وهزم الأحزاب وحده لا إله إلا الله غلصين له الدين ولو كره الكافرون لا إله إلا الله غلصين له الدين الحمد لله رب العالمين ﴿ فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون وله الحمد في السموات والأرض وهشيا حين تظهرون ويخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ويمشى الأرض بعد موتها وكذلك تخرجون ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنشقرون ﴾ اللهم إني أسألك إيمانا دائما وقيتنا صادقا وعلنا نافعا وقلبا عاشقا ولسانا ذاكرا وأسألك العفو والمغفرة والمعافاة الدائمة في الدنيا والآخرة ويصل على محمد صلى الله عليه وسلم ، ويدعو الله عز وجل بما شاء من حاجته عقيب هذا الصلاه . ثم ينزل ويبتدئ السعى وهو يقول : رب اغفر وارحم وتجاوز عما تعلم إنك أنت الآخر الأكرم اللهم آمنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار ، ويمشى على هيئة حتى ينتهى إلى الميل الأخضر وهو أول ما يلقاه إذا نزل من الصفا . وهو على زاوية المسجد الحرام . فلذا بقى بينه وبين محاذة الميل ستة أذرع أخذ في السير السريع وهو الرمل حتى ينتهى إلى الميادين الأخضرين . ثم يعود إلى الهيئة فلذا انتهى إلى المروة صعدا كما صعد الصفا وأقبل بوجهه على الصفا ودعا بمثل ذلك السماء وقد حصل السعى مرة واحدة ؛ فلذا عاد إلى الصفا حصلت مرتان . يفعل ذلك سبعا ويرمل في موضع الرمل في كل مرة ويسكن في موضع السكون كما سبق . وفى كل نوبة يصعد الصفا والمروة فلذا فعل ذلك فقد فرغ من طواف التندوم والسعى وهما سلتان . والطهارة مستحبة للسعى وليست بواجبة بخلاف الطواف ولذا سعى فيلبي أن لا يبعد السعى بعد الوقوف ويكتفى بهذا ركنا ؛ فإنه ليس من شروط السعى أن يتأخر عن الوقوف وإنما ذلك شرط في طواف الركن . ثم شرط كل سعى أن يقع بعد طواف أى طواف كان .

(١) حديث « من طاف بالبيت أسبوعا وصل ركعتين فله من الأجر كمثقت رقية » أخرجه الترمذى وحسنه والنسائى وابن ماجه من حديث ابن عمر « من طاف بالبيت وصل ركعتين كان كسحق رقية » لفظ ابن ماجه وقال « الآخر من طاف بهذا البيت أسبوعا فأحماه كان كسحق رقية » واليهي في العقب « من طاف أسبوعا وركع ركعتين كانت كسحق رقية »

(٢) حديث « أنه رقى على ما هنا حتى بدت له الكعبة » أخرجه مسلم من حديث جابر « فبدأ بالصفا فركل عليه حتى رأى البيت » وله من حديث ابن عمر « رأى الصفا فركل عليه حتى نزل إلى البيت » .

الجملة السادسة : في الوقوف وما قبله

الحاج إذا انتهى يوم عرفة إلى عرفات يتفزع لطواف القدوم ودخول مكة قبل الوقوف . وإذا وصل قبل ذاك بأيام فطاف طواف القدوم فيمكث محرماً إلى اليوم السابع من ذي الحجة . فيخطب الإمام بمكة خطبة بعد الظهر عند الكعبة ويأمر الناس بالاستعداد للخروج إلى منى يوم التروية والليث بها ، وبالتفقد منها إلى عرفة لإقامة فرض الوقوف بعد الزوال ؛ إذ وقت الوقوف من الزوال إلى طلوع الفجر الصادق من يوم النحر ، فينبغي أن يخرج إلى منى ملياً : ويستحب له المشي من مكة في المناسك إلى انقضاء حجته إن قدر عليه . والمشي من مسجد إبراهيم عليه السلام إلى الموقف أفضل وأكثر . فإذا انتهى إلى منى قال : اللهم هذه منى فامنن علي بما مننت به على آل أبيك وأهل طاعتك ولحمكت هذه الليلة بمنى - وهو ميت منزل لا يتسلق به نسلك - فإذا أصبح يوم عرفة صلى الصبح فإذا طلعت الشمس على منى سار إلى عرفات ويقول : اللهم أجعلها خير غداة غدوتها قط وأقربها من رضوانك وأبعد ما من مضطك اللهم إليك غدوت وإليك رجوت وعليك اعتمدت ووجهك أردت فاجعلني ممن تباهي به اليوم من هو خير مني وأفضل . فإذا أتى عرفات فليضرب خياه بعمره قريباً من المسجد فثم ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم فنته ^(١) وبجرة هي بطن عرنة دون الموقف ودون عرفة . وليقتل للوقوف فإذا زالت الشمس خطب الإمام خطبة وجيزة وقصدة ، وأخذ المؤذن في الأذان والإمام في الخطبة الثانية ووصل الإقامة بالأذان ، وفرغ الإمام مع تمام إقامة المؤذن . ثم جمع بين الظهر والعصر بأذان وإقامتين ، وقصر الصلاة ، وراح إلى الموقف . فليقف بعرفة ولا يقف في وادي عرنة . وأمام مسجد إبراهيم عليه السلام فصدرة في الوادي وأخرياته من عرفة فمن وقف في صدر المسجد لم يحصل له الوقوف بعرفة . ويشتمن مكان عرفة من المسجد بصخرات كبار فرشت ثم . والأفضل أن يقف عند الصخرات بقرب الإمام مستقبلاً للقبلة راكباً . وليكثر من أنواع التحميد والتسبيح والتلليل والتناه على الله عز وجل والدعاء والتوبة . ولا يصوم في هذا اليوم ليقوى على المواظبة على الدعاء . ولا يقطع التلبية يوم عرفة بل الأحب أن يلبى تارة ويكسب على الدعاء أخرى . وينبغي أن لا ينفصل من طرف عرفة إلا بعد الغروب ليجمع في عرفة بين الليل والنهار : وإن أسكنه الوقوف يوم الثامن ساعة عند إمكان النطق في الحلال فهو الحزم وبه الأمن من الفوات . ومن فاته الوقوف حتى طلع الفجر يوم النحر فقد فاته الحج ، فعليه أن يتحلل عن إحرامه بأعمال العمرة ثم يريق دماً لأجل الفوات ، ثم يقضى العام الآتي ، وليكن أم اشتغاله في هذا اليوم الدعاء . ففي مثل تلك البقعة ومثل ذلك الجمع ترجى إجابة الدعوات . وأثناء المسأور عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(٢) وعن السلف

(١) حديث « ضرب؛ صلى الله عليه وسلم ليلة بكرة » أخرجه مسلم من حديث جابر الطويل « أمر ببيعة من شهر فشرى له بكرة .. الحديث » (٢) حديث « الدعاء المسأور في يوم عرفة لا لله إلا الله وحده لا شريك له .. الحديث » أخرجه الترمذي من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده « أن النبي صلى الله عليه وسلم قال خير الدعاء دعاء يوم عرفة وخير ما قلت أنا والنبيون من قبلي لا اله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير » وقال حسن غريب وله من حديث علي قال « أكثر ما دعا به رسول الله صلى الله عليه وسلم عرفة في الموقف اللهم لك الحمد كما قيل من خير ما دعا به رسولك صلى الله عليه وسلم ويحيى ويحيى وإليك مأني وفيه رب ترائي اللهم أني أعوذ بك من شر ما يجيء به الريح » وقال ليس بالقوي إسناده وروى المستغنى في الدعوات من حديثه « قال إن أكثر دعاء من قبل يوم عرفه أن أقول لا اله إلا الله وحده لا شريك له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير اللهم اجعل في صغري نوراً وفي سمى نوراً وفي قلبي نوراً اللهم اشرح لي صدري ويسر لي أمري اللهم أني أعوذ بك من وسوس الفلر وفتنات الأسمى وفتنة الثير وشر ما يلج في الليل وشر ما يلج في النهار وشر ما يهب من الريح ومن شر بوائق الدهر » وأسناده ضعيف وروى الطبراني في المعجم الصغير من حديث ابن عباس قال « كان ما دعا به رسول الله صلى الله عليه وسلم عرفة : اللهم لك ترمي مكاني وتسخ كلني وتعلم سرى وعلايتي ولا يغني عني شيء من أممي إلا التلبي »

في يوم عرفة أول ما يدعوه لآله لا إله إلا الله وحده لا شريك له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو حي لا يموت
بيده الخبير وهو على كل شيء قدير . اللهم اجعل في قلبي نوراً وفي سمعي نوراً وفي بصري نوراً وفي لساني نوراً .
اللهم اشرح لي صدري ويري لي أمري وليقل : اللهم رب الحمد لك الحمد كما تقول وخيراً مما تقول لك صلاتي ونسكي
وعجائي وعتائي وإليك مآتي وإليك ثوابي . اللهم إني أعوذ بك من وسوس الصدر وشتات الأمر وعذاب
القبر . اللهم إني أعوذ بك من شر ما يلج في الليل ومن شر ما يلج في النهار ومن شر ما يهب من الرياح . ومن شر
بواقي الدهر . اللهم إني أعوذ بك من تحوّل عاقبتك ولجأة نعمتك وجميع سمطك . اللهم اهدني بالهدى
واغفر لي في الآخرة والأولى يا خير مقصود وأسنى منزل به وأكرم مسئول مألديه أعطني المشية أفضل
ما أعطيت أحداً من خلقك وحجاج بيتك يا أرحم الراحمين . اللهم بارفع الدرجات ومنزل البركات وبارقاطر الأرضين
والسموات ضمنت إليك الأصوات بصنوف اللغات بسألوئك الحاجات وحاجتي إليك أن لا تنساني في دار البلاء .
إذا سئني أهل الدنيا . اللهم إنك تسمع كل شيء وترى مكاني وقلم سري وعلايتي ولا يخفي عليك شيء من أمري أنا
البائس الفقير المستغيث المستجير الرجل المشفق المعترف بذنبه أسألك مسئلة المسكين وأبتهل إليك أبتهل المذنب
الذليل وأدعوك دعاء الخائف الضعيف الدعاء من خضعت لك رقبته وقاضيت لك حبرته وذل لك جسده ورغم لك
أنفه . اللهم لا تجعلني بدعا لك رب شقياً وكن في رءوفاً رحباً يا خير المسؤولين وأكرم المطعين إلهي من مدح
لك نفسه فإن لا من ينسى . إلهي أغرست الماعى لساني لسالى وسيلة عن عمل ولا شفيع سوى الأمل . إلهي
إني أعلم أن ذنوبي لم يبق لي عندك جاه ولا الاعتذار وجهاً ولكلك أكرم الأكرمين . إلهي إن لم أكن أهلاً أن أبلغ
رحمتك فإن رحمتك أهلاً أن تبلغني ورحمتك وسعت كل شيء وأنا شيء إلهي إن ذنوبي وإن كانت عظيماً ولكنها صفار
في جنب عفوك فأغفرها لي يا كريم إلهي أنت أنت وأنا أنا ، أنا العواد إلى العنوب وأنت العواد إلى المغفرة . إلهي
إن كنت لا ترحم إلا أهل طاعتك فإني من يفرغ المذنبون . إلهي تمنيت عن طاعتك عداً وتوجهت إلى معصيتك
قصداً فسبحانك ما أعظم حجتك علي وأكرم عفوك عني فبورجوب حجتك علي وانقطاع حجتى عنك وفقرى إليك
وغداً عني إلا غفرت لي يا خير من دعاء داع وأفضل من رجاء راج بحمة الإسلام وبذمة محمد عليه السلام أتوسل
إليك فأغفر لي جميع ذنوبي وأصرفني من موقف هذا مقضى الحاجات وهب لي ما سألت وحقق رجائي فيما تمنيت .
إلهي دعوتك بالدعاء الذي علمتني فلا تهرمني الرجاء الذي عرفتني إلهي ما أنت صانع المشية ببدي مقول لك
بذنبه عاشع لك بذنبه مستكين بحمة متضرع إليك من عمله تائب إليك من اقترافه مستغفر منك من ظلمته مبتل إليك
في العفر عنه طالب إليك نجاح حوائجه راج إليك في موقفه مع كثرة ذنوبه فياملجأ كل حي وول كل مؤمن
من أحسن فبرحمتك يغوز ومن أعطاً فيخطيئته بذلك . اللهم إليك خرجنا وبفنائك أغنا وإياك أملنا وما عندك
طلبنا وإحسانك نعرضنا ورحمتك رجونا ومن عذابك أشفقنا وإليك بأفعال الذنوب مربنا وليبتلك الحرام حجبتنا
يا من يملك حوائج السائلين ويعلم خائراً الصامتين يا من ليس معه رب يدعى ويا من ليس فوقه خالق يخشى ويا من
ليس له وزير يؤتى ولا حاجب يرشى يا من لا يزداد على كثرة السؤال إلا جوداً وكرماً وعلى كثرة الحاجات إلا انفضلاً
وإحساناً . اللهم إنك جعلت لكل ضيف قرى ونحن أضيافك فأجمل قراناً منك الجنة . اللهم إن لكل وفد
جائزة ولكل زائر كرامة ولكل سائل عطية ولكل راج ثواباً ولكل ملتبس لما عندك جواراً ولكل

= الفقير ، فذكر المذنب لك قوله : يا خير المسؤولين ويا خير المطيعين ، واستأذنه خفيئ وإل الدعاء من دعاء بعض السلف في
بضه ما هو مرفوع ولكن ليس مقيداً بموقف عرفة .

مسترحم عندك رحمة ولكل راغب إليك زلي ولكل متوسل إليك غفراً وقد وفدنا إلى بيتك الحرام ووقفنا بهذه المسامر العظام وشهدنا هذه المشاهد الكرام وجاء لما عندك فلا تحجب رجاءنا . إلهنا ثابت الهم حتى أطاعت الأنفس بتتابع نعمك وأظهرت العبر حتى نطقت الصوامت بمحبتك وظهرت المنى حتى اعترفت أولياذك بالتقصير عن حقلك وأظهرت الآيات حتى أفصحتم السموات والأرضون بأدلتك وقهرت بقدرتك حتى خضع كل شيء لمرتك وعنت الوجوه لظلمتك إذا أسأت عبادك حلت وأمهلت وإن أحسنوا تفضلت وقبلت وإن عصوا سرت وإن أذنبوا عفوت وغفرت وإذا دهونا أجبنا وإذا نادينا سمعت وإذا أقبنا إليك قربت وإذا ولينا ضلكت دعوت . إلهنا إنك قلت في كتابك المين محمد عاتم التبيين ﴿ قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف ﴾ فأرضناك عنهم الإقرار بكلمة التوحيد بعد الجحود وإنا نقصد لك بالتوحيد محبتين ولحمد بالرسالة محاضين فأغفر لنا بهذه الشهادة سوائف الإجمار ولا تجعل حظنا فيه أنقص من حظ من دخل في الإسلام . إلهنا إنك أحببت التقرب إليك بعق ماملكت أيماننا ونحن عبيدك وأنت أول بالتفضل فأعنتنا . وإنك أمرتنا أن نتصدق على فقراهم ونحن فقراؤك وأنت أحق بالتناول فصدق علينا . ووصيتنا بالمغفر عن ظلمنا وقد ظلمنا أنفسنا وأنت أحق بالكرم فأضف لنا . ربنا اغفر لنا وارحنا أنت مولانا ربنا آتيا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا برحمتك عذاب النار . وليكثر من دعاء المحضر عليه السلام وهو أن يقول « يامن لا يشغل شأن عن شأن ولاسمع عن سمع ولا تشبه عليه الأصوات ، يامن لا تلتقطه المسائل ولا تتخلف عليه اللغات ، يامن لا يبرمه إلحاح المالحين ولا تضجره مسئة السائلين أذننا برد صفوك وحلاوة مناجاتك ، ولیدع بما بدا له وليستغفر له ولو الدية وجميع المؤمنين والمؤمنات وليلح في الدعاء وليعظم المسألة فإن الله لا يتماطله شيء ، وقال مطرف بن عبدالله وهو يعرفه : اللهم لآرد الجميع من أجلى . وقال بكر المزني : قال رجل لما نظرت إلى أهل عرفات ظننت أنهم قد غفر لهم لولا أني كنت فيهم .

الجملة السابعة : في بقية أعمال الحج بعد الوقوف من المبيت والرمى والنحر والحلق والطواف

فإذا أفاض من عرفة بعد غروب الشمس فيلبي أن يكون على السكينة والوقار وليجنب وجيف الخيل وإيضاع الإبل كما يتأده بعض الناس . فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم « نهى عن وجيف الخيل وإيضاع الإبل وقال : اتقوا الله وسيروا سيراً جميلاً لا تظاؤوا ضعيفاً ولا تؤذوا مسلماً ^(١) » فإذا بلغ المزدلفة اغتسل لها لأن المزدلفة من الحرم فليدخله بمنى ، وإن قدر على دخوله ماشياً فهو أفضل وأقرب إلى توفير الحرم . ويكون في الطريق رافعاً صوته بالتلبية فإذا بلغ المزدلفة قال « اللهم إن هذه مزدلفة جمعت فيها السنة مختلفة تسألك حوائج مؤتمنه فاجلني عن دعاك فاستجبت له وتوكل عليك فكفيت » ثم يجمع بين المغرب والعشاء بمزدلفة في وقت العشاء قاصراً له بأذان وإقامتين ليس بينهما نافلة ، ولكن يجمع نافلة المغرب والعشاء والوتر بمدا الفريضتين ، ويبدأ بأفلة المغرب ثم نافلة العشاء كافي الفريضتين . فإن ترك التوافل في السفر خسران ظاهر . وتكليف إيقاعها في الأوقات إحرام وقطع التبعية بينهما وبين الفرائض فإذا جاز أن يؤد التوافل مع الفرائض يتيم واحد بجمعة التبعية فيأبى يجوز أدائهما على حكم الجمع بالتبعية أولى . ولا يمنع من هذا مفارقة النفل للفرض في جواز أدائه على الراحلة لما أو مانا إليه من التبعية والحاجة . ثم يحكم تلك الليلة .

(١) حديث « نهى النبي عن وجيف الخيل وإيضاع الإبل » أخرجه النسائي والحاكم وصححه من حديث أسامة بن زيد « عليه السلام » والوقار قال ابن أبي اليسر في إيضاح الإبل . وقال الإمام « ليس البر بإيجاف الخيل والإبل » ، والبخاري من حديث ابن عباس « فإن البر ليس بالإيضاع » .

مزدلفة وهو بيت نسله ، ومن خرج منها في النصف الأول من الليل ولم يبت فعلية دم ، وإحياء هذه الليلة الشريفة من محاسن القربات لمن يقدر عليه ثم إذا انتصف الليل يأخذ في التأهب للرحيل ويتزود الحصى منها - ففيها أحجار رخوة - فلأخذ سبعين حصاة فلنأخذ قدر الحاجة ، ولأبأس بأن يستظهر بزيادة فربما يسقط منه بعضها . ولتكن الحصى خفافاً بحيث يحتمل عليه أطراف البراجم . ثم يغسل بصلاة الصبح وليأخذ في المسير حتى إذا انتهى إلى المشعر الحرام وهو آخر المزدلفة فيقف ويدعو إلى الإسفار ويقول : اللهم بحق المشعر الحرام والبيت الحرام والشجر الحرام والركن والمقام أبلغ روح محمد منا التحية والسلام وأدخلنا دار السلام إذا الجلال والإكرام ، ثم يدفع منها قبل طوع الشمس حتى ينتهي إلى موضع يقال له وادي محسر فيستحب له أن يحرك دابته حتى يقطع عرض الوادي وإن كان واجلاً أسرع في المشي . ثم إذا أصبح يوم النحر غطى التلبية بالتكبير فيلبي تارة وبكبر أخرى . فيلتوي إلى منى ومواضع الجرات وهي ثلاثة فيتجاوز الأول والثانية فلا شغل له معهما يوم النحر ، حتى يفتي إلى جرة العقبة وهي على عين مستقبل القبلة في الجادة - والمرى مرتفع قليلاً في سفح الجبل وهو ظاهر بمواقع الجرات - ويرى جرة العقبة بعد طلوع الشمس بقدر رمح . وكيفية أن يقف - تقبل القبلة وإن استقبل الجرة فلا بأس ويرى سبع حصيات رافعاً يده ، ويدل التلبية بالتكبير ويقول مع كل حصاة : الله أكبر على طاعة الرحمن ، ورغم الشيطان اللهم تصديقاً بكتابتك واتباعاً لسنة نبيك ، فإذا رمى قطع التلبية والتكبير إلا التكبير عقيب فرائض الصلوات من ظهر يوم النحر إلى عقيب الصبح من آخر أيام التشريق . ولا يقف في هذا اليوم للدعاء بل يدعو في منزله . وصفة التكبير أن يقول : الله أكبر الله أكبر الله أكبر كثيراً وسبحان الله بكثرة وأصيلاً لا إله إلا الله وحده لا شريك له غلصين له الدين ولو كره الكافرون لا إله إلا الله وحده صدق وعده ولصر عبده وهزم الأحزاب وحده لا إله إلا الله والله أكبر ، ثم ليذبح الحمدي إن كان معه والأول أن يذبح بنفسه وليقل : بسم الله والله أكبر اللهم منك ولك وإليك قبل منى كما قبلت من خليلك إبراهيم . والتضحية بالبدن أفضل ثم بالقرن بالشاة . والشاة أفضل من مشاركة ستة في البقرة أو البقرة . والضأن أفضل من الموز قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : خير الأصحية الكبش الأقرن والبيضاء أفضل من الغبراء والسوداء ^(١) ، وقال أبو هريرة : البيضاء أفضل في الأصحية من دم سوداوين ولأكل منه إن كانت من هدى التطوع ولا يضحى بالمرجاء والجنداء والمضباء والجرباء والشرقاء والخرقاء والمقابلة والمدايرة والمجفاء . والجندع في الأنثى والأذن للقطع منهما ، والمعضب في القرن وفي نقصان القوائم والشرقاء المشقوفة الأذن من فوق ، والخرقاء من أسفل ، والمقابلة المخروقة الأذن من قدام ، والمدايرة من خلف . والمجفاء الممزولة التي لا تقي أي لاصح فيها من المزال . ثم ليحلق بعد ذلك والسنة أن يستقبل القبلة ويبتدئ بمقدم رأسه فيحلق الشق الأيمن إلى العظمين المشرفين على التقاء ثم ليحلق الباقي ويقول : اللهم أثبت لي بكل شجرة حسنة وأمعن عني بها سيرة وأرفع لي بها عندك درجة ، والمرأة تقصر الشعر . والأصلح يستحب له إمرار المرسى على رأسه ومهما حلق يمد روى الجرة فقد حصل له التحال الأول وحل له كل المحذورات إلا النساء والعيد . ثم يفيض إلى مكة ويطوف كما وصفناه . وهذا الطواف طواف ركن في الحج ويسمى طواف الزيارة وأول وقته بعد نصف الليل من ليلة النحر ، وأفضل وقته يوم النحر ولا آخر لوقته بل له أن يؤخر إلى أي وقت شاء ، ولكن يبق مقيداً بعلقة الإحرام فلا تميل له النساء إلى أن يطوف . فإذا طاف تم التحال وحل الجماع وارتفع الإحرام بالكلية ولم يبق

(١) حديث « خير الأصحية الكبش » أخرجه أبو داود من حديث عباد بن الصامت والترمذي من حديث أبي أمامة قال الترمذي شرب وعطير يصفى في الحديث .

لا رى أيام التشريق والمبيت بنى وهى واجبات بعد زوال الإحرام على سبيل الاتباع للحق وكيفية هذا الطواف مع الركعتين كما سبق في طواف التمتع . فإذا فرغ من الركعتين فليسمع كما وصفنا إن لم يكن سمى بعد طواف القدوم وإن كان قد سمى فقد وقع ذلك ركناً فلا ينبغي أن يعيد السعى . وأسباب التحلل ثلاثة : الرى والحلق والطواف الذى هو ركن . ومهما أتى بأثنين من هذه الثلاثة فقد تحلل أحد التحللين ، ولا حرج عليه في التمتع والتأخير بهذه الثلاث مع الذبح ، ولكن الأحسن أن يرمى ثم يذبح ثم يحلق ثم يطوف . والسنة للإمام في هذا اليوم أن يغتسل بعد الزوال وهى خطبة وداع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الحج أربع خطب : خطبة يوم السابع وخطبة يوم عرفة وخطبة يوم النحر ^(١) وخطبة يوم النفر الأول ، وكلها غيب الزوال وكلها أفراد إلا خطبة يوم عرفة فانها خطبتان بينهما جلسة . ثم إذا فرغ من الطواف عاد إلى منى للمبيت والرى فبيت تلك الليلة بنى وتسمى ليلة القز لأن الناس في غد يقزون بنى ولا ينفرون . فإذا أصبح اليوم الثانى من العيد وزالت الشمس اغتسل الرى وقصد الجرة الأولى التى تلى عرفة وهى حل بين الجادة ويرى إليها بسبع حصيات ، فإذا تمداها انحرف قليلا بين الجادة ووقف مستقبل القبلة وحده الله تعالى وهلل وكبر ودعا مع حضور القلب ونشوع الجوارح ووقف مستقبل القبلة قدر قراءة سورة البقرة مقبلا على البناء ، ثم يتقدم إلى الجرة الوسطى ويرى كما رى الأولى ويقف كما وقف للأول ثم يتقدم إلى جرة العقبة ويرى سبعا ، ولا يخرج حل شغل بل يرجع إلى منزله وبيت تلك الليلة بنى وتسمى هذه الليلة ليلة النفر الأول ، ويصبح فإذا صلى الظهر في اليوم الثانى من أيام التشريق رى في هذا اليوم إحدى وعشرين حصاة كالיום الذى قبله . ثم هو مخير بين المقام بنى وبين العودة إلى مكة . فإن خرج من منى قبل غروب الشمس فلا شيء عليه وإن صبر إلى الليل فلا يجوز له الخروج بل لزمه المبيت حتى يرمى في يوم النفر الثانى أحداً وعشرين حجراً كما سبق . وفي ترك المبيت والرمى إراقة دم وليتصدق باللحم . وله أن يزور البيت في ليلتي منى بشرط أن لا يبيت إلا بنى كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يفعل ذلك ^(٢) ولا يترك حضور الفرائض مع الإمام في مسجد الحيف فإن فضله عظيم فإذا أقام من منى فالأول أن يتم بالمحصب من منى ويصل العصر والمغرب والعشاء ويرقد رقة ^(٣) فهو السنة . رواء جماعة من الصحابة رضى الله عنهم . فإن لم يفعل ذلك فلا شيء عليه .

الجملة الثامنة : في صفة العمرة وما بعدها إلى طواف الوداع

من أراد أن يعتزم قبل حجه أو بعده كيفاً أراد فليغتسل ويلبس ثياب الإحرام كما سبق في الحج ويحرم بالعمرة من ميقاتها ، وأفضل مواقيتها الجمرات ثم التمتع ثم الحديبية . وينوى العمرة ويأبى ويقصد مسجد عائشة رضى الله

(١) حديث « الخطبة يوم النحر وهى خطبة وداع رسول الله صلى الله عليه وسلم » أخرجه البخارى من حديث أبى بكره « خلبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم النحر » وله من حديث ابن عباس « خطب الناس يوم النحر » وفي حديث عنه البخارى ورواه ابن ماجه من حديث ابن عمر « وقف النبي صلى الله عليه وسلم يوم النحر بين الجمرات في الحجة إلى حج فيها قال : أى يوم هذا ؟ الحديث » وفيه « ثم ودع الناس فقالوا هذه حجة الوداع »

(٢) حديث « زيارة البيت في ليلتي منى والمبيت بنى » أخرجه أبو داود في المراسيل من حديث طاوس « قال أشهد أن ابن عباس قال « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يزور البيت أيام منى » وفيه مروى بن رباح ضيف والمرسل صحيح الإسناد ولأن داود من حديث عائشة « أن النبي صلى الله عليه وسلم مكى في ليلتي أيام التشريق »

(٣) حديث « نزول المحصب وصلاة العصر والمغرب والعشاء به والوقوف به رقة » أخرجه البخارى من حديث أسد وأن النبي صلى الله عليه وسلم صلى الظهر والعصر والمغرب والعشاء بالمحصب . ثم هجم حجة . الحديث «

عنها ويصل ركعتين ويدعو بما شاء . ثم يعود إلى مكة وهو يلي حتى يدخل المسجد الحرام . فإذا دخل المسجد ترك التلبية وطاف سبعا وسعى سبعا كما وصفنا . فإذا فرغ حلق رأسه وقد تمت عمرته . والمقيم بمكة ينبغي أن يكثر الاعتبار والطواف . وليكثر النظر إلى البيت . فإذا دخله فليصل ركعتين بين العمودين فهو الأفضل وليدخله حافيا موقرا . قيل لبعضهم : هل دخلت بيت ربك اليوم ؟ فقال : والله ما أرى هاتين التمدتين أهلا للطواف حول بيت ربى فكيف أراها أهلا لأن أطأ بهما بيت ربى ! وقد علمت حيث مشيتا وإلى أين مشيتا . وليكثر شرب ماء زمزم وليستق بيده من غير استنابة إن أمكنه وليرتو منه حتى يتضلع ويلقى : اللهم اجعله شفاء من كل داء وسقم وارزقني الإخلاص واليقين والمعانة في الدنيا والآخرة قال صلى الله عليه وسلم : ماء زمزم لما شرب له ^(١) ، أى يشفى ما قصد به .

الجملة التاسعة : في طواف الوداع

دعاهن له الرجوع إلى الوطن بعد الفراغ من إتمام الحج والعمرة فليتجر أولا أشغاله وليشده رحاله وليجعل آخر أشغاله وداع البيت . ووداعه بأن يطوف به سبعا كما سبق ولكن من غير رمل واضطباع . فإذا فرغ منه صلى ركعتين خلف المقام وشرب من ماء زمزم . ثم يأتي الملتزم ويدعو ويتضرع ويقول : اللهم إن البيت بينتك والعبد عبدك وابن عبدك وابن أمك حلتني على ما سخرت لي من خلقك حتى سيرتني في بلادك وبلغتني بنعمتك حتى أحتقني على قضاء مناسكك ، فإن كنت رضىت حتى فازد حتى رضا وإلا فإن الآن قبل تباعدى عن بينتك هذا أوان انصرافى إن أدت لي غير مستقبل بك ولا بينتك ولا راغب هناك ولا عن بينتك . اللهم أصحني العافية في بدنى والنصمة في دينى وأحسن مغابى وارزقني طاعتك أبدا ما أبقيتى واجمع لي خير الدنيا والآخرة إنك على كل شئ قدير . اللهم لا تجعل هذا آخر عهدى بينتك الحرام وإن جعلته آخر عهدى فعرضنى عنه الجنة ، والأحب أن لا يصرف بصره عن البيت حتى يغيب عنه .

الجملة العاشرة : في زيارة المدينة وآدابها

قال صلى الله عليه وسلم : من زارني بعد وفاتي فكأنما زارني في حياتي ^(٢) ، وقال صلى الله عليه وسلم : من وجد سعة ولم يغد لي فقد جفائي ^(٣) ، وقال صلى الله عليه وسلم : من جاءني زائرا لأجمه إلا زيارتي كان حقا على الله سبحانه أن أكون له شفيعا ^(٤) ، فن قصد زيارة المدينة فليصل على رسول الله صلى الله عليه وسلم في طريقه كثيرا . فإذا وقع بصره على حيطان المدينة وأشجارها قال : اللهم هذا حرم رسولك فأجمله لي وقاية من النار وأمانا من العذاب وسوء الحساب . وليغسل قبل الدخول من بئر الحرة وليطيب وليلبس أنظف ثيابه . فإذا دخلها فليدخلها

(١) حديث « ماء زمزم لما شرب له » أخرجه ابن ماجه من حديث جابر بسند ضعيف ورواه الهارثي والحاكم في المستدرک من حديث ابن عباس قال لما تم صحيح الإسناد ان سلم من محمد بن حبيب الجارودي قال ابن الصلطان سلم منه فان الحليط قال فيه كان صدوقا ، قال ابن الصلطان لكن الراوى عنه مجهول وهو محمد بن همام المروزي (٢) حديث « من زارني بعد وفاتي فكأنما زارني في حياتي » أخرجه الطبراني والدارقطني من حديث ابن عمر (٣) حديث « من وجد سعة ولم يغد لي فقد جفائي » أخرجه ابن عدى والدارقطني في غرائب مالك وابن حبان في الضعفاء والحليط في الرواة عن مالك في حديث ابن عمر « من حج ولم يزرنى فقد جفائي » وذكره ابن الجوزي في الموضوعات . وروى ابن النجار في تاريخ المدينة من حديث أنس « ما من أحد من أمي له سعة ثم لم يزرنى فليس له عذر » (٤) حديث « من جاءني زائرا لأجمه إلا زيارتي كان حقا على الله أن أكون له شفيعا » أخرجه الطبراني من حديث ابن عمر وصححه ابن السكن .

متواضعاً معظماً وليقل: بسم الله وعلى ملة رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ رب أدخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق واجعل لي من ليلتك سلطاناً قصيراً ﴾ ثم يقصد المسجد ويدخله ويصل بجانب المنبر ركعتين . ويجعل عمود المنبر حذاء منكبه الأيمن ويستقبل السارية التي إلى جانبها الصندوق وتكون المئذنة التي في قبلة المسجد بين عينيه فذلك موقف رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن يغير المسجد . وليجتهد أن يصل في المسجد الأول قبل أن يراد فيه . ثم يأتي قبر النبي صلى الله عليه وسلم فيقف عند وجهه وذلك بأن يستدير القبلة ويستقبل جدار القبر على نحو من أربعة أذرع من السارية التي في زاوية جدار القبر ، ويجعل القنديل على رأسه وليس من السنة أن يمس الجدار ولا أن يقبله بل الوقوف من بعد أقرب للاحترام ، فيقف ويقول : السلام عليك يا رسول الله السلام عليك يا نبي الله السلام عليك يا أمين الله السلام عليك يا حبيب الله السلام عليك يا صفوة الله السلام عليك يا خيرة الله السلام عليك يا أحد السلام عليك يا محمد السلام عليك يا أبا القاسم السلام عليك يا ماحي السلام عليك يا غائب السلام عليك يا حاضر السلام عليك يا بشير السلام عليك يا نذير السلام عليك يا طهر السلام عليك يا طاهر السلام عليك يا أكرم ولد آدم السلام عليك يا سيد المرسلين السلام عليك يا حاتم النبيين السلام عليك يا رسول رب العالمين السلام عليك يا قائد الخير السلام عليك يا فاتح البر السلام عليك يا نبي الرحمة السلام عليك يا هادي الأمة السلام عليك يا قائد الفزع المحجلين السلام عليك وعلى أهل بيتك الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً السلام عليك وعلى أصحابك الطيبين وعلى أزواجك الطاهرات أمهات المؤمنين جزاك الله عنا أفضل ما جرى نيئاً عن قومه ورسولاً عن أمته وصل عليك كلما ذكرك الذاكرون وكلما غفل عنه الغافلون وصل عليك في الأزلين والآخرين أفضل وأكل وأعلى وأجل وأطيب وأطهر ما صلى على أحد من خلقه كما استقننا بك من الصلاة وبصرنا بك من العاية ومدنا بك من المجهالة أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أنك عبده ورسوله وأمينه وصفيه وخيرهم من خلقه وأشهد أنك قد بلغت الرسالة وأديت الأمانة ونصحت الأمة وجاهدت عدوك وهديت أمتك وعبدت ربك حتى أتاك اليقين فصلى الله عليك وعلى أهل بيتك الطيبين وسلم وشرف وكرم وعظم وإن كان قد أوصى ببلقيش سلام فيقول : السلام عليك من - فلان - السلام عليك من - فلان - ثم يتأخر قدر ذراع ويسلم على أبي بكر الصديق رضي الله عنه لأن رأسه عند منكب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورأس عمر رضي الله عنه عند منكب أبي بكر رضي الله عنه . ثم يتأخر قدر ذراع ويسلم على الفاروق عمر رضي الله عنه ويقول : السلام عليك يا زبيري رسول الله صلى الله عليه وسلم والمعاونين له على القيام بالدين مادام حياً والقاتلين في أمته بعده بأمر الدين تقيماً في ذلك آثاره وتعدلاً بسنته فجراً كما الله خير ماجري وزيرني عن دينه . ثم يرجع فيقف عند رأس رسول الله صلى الله عليه وسلم - بين القبر والاسطوانة اليوم - ويستقبل القبلة وليحمد الله عز وجل وليسجد وليكثر من الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم يقول : اللهم إنك قد قلت وقولك الحق ﴿ ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله تواباً رحيماً ﴾ اللهم إنا قد سمعنا قولك وأعلمنا أمرك وقصدنا نبيك متشفعين به إليك في ذنوبنا وما أقفل ظهورنا من أوزارنا تائبين من زلاتنا معترفين بخطايانا وتقصيرنا فكتب اللهم علينا وشفع نبيك هذا فينا وارفاقنا بمنزلة عندك وحقه عليك . اللهم اغفر للهاجرين والأنصار واغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان . اللهم لجمعهم آخر العهد من قبر نبيك ومن حرمك يا أرحم الراحمين . ثم يأتي الروضة فيصلي فيها ركعتين ويكثر من الدعاء ما استطاع لقوله صلى الله

عليه وسلم « ما بين قبري ومنبري روضة من رياض الجنة ومنبري على حوضي »^(١) ، ويدعو عند المنبر ويستحب أن يضع يده على الزمامة السفلى التي كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يضع يده عليها عند الخطبة^(٢) ، ويستحب له أن يأتي أحدا يوم الخيبر ويروى قبور الشهداء فيصلي الغداة في مسجد النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم يخرج ويعود إلى المسجد لصلاة الظهر فلا يموت فريضة في الجماعة في المسجد . ويستحب أن يخرج كل يوم إلى البقيع بعد السلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم ويروى قبر عثمان رضي الله عنه وقبر الحسن بن علي رضي الله عنهما ، وفيه أيضا قبر علي ابن الحسين ومحمد بن علي وجعفر بن محمد رضي الله عنهم ، ويصلي في مسجد قاطمة رضي الله عنها ويروى قبر إبراهيم ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقبر صفية حمة رسول الله صلى الله عليه وسلم فذلك كله بالبقيع . ويستحب له أن يأتي مسجد قباء ويصلي فيه لما روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من خرج من بيته حتى يأتي مسجد قباء ويصلي فيه كان له عدل عمرة^(٣) ، ويأتي برأيس يقال إن النبي صلى الله عليه وسلم تغل فيها وهي عند المسجد فيتوضأ منها ويشرب من مائها^(٤) . ويأتي مسجد الفتح وهو على الخندق . وكذا يأتي سائر المساجد والمشاهد ويقال إن جميع المشاهد والمساجد بالمدينة ثلاثون موضعاً يعرفها أهل البلد فيقصد ما نذر عليه وكذلك يقصد الأبار التي كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتوضأ منها ويغتسل ويشرب منها^(٥) وهي سبع أبار طلبها للشفاء

(١) حديث « ما بين قبري ومنبري روضة من رياض الجنة ومنبري على حوضي » متفق عليه من حديث أبي هريرة وعبد الله ابن زيد . (٢) حديث « وضع صلى الله عليه وسلم يده عند الخطبة على زمامة المنبر » لم أقف له على أصل وذكر محمد بن الحسن ابن زبالة في تاريخ المدينة أن طول زمان المنبر اللتين كان يمسكهما صلى الله عليه وسلم يديه السكرتين إذا جلس يشير وأصابع . (٣) حديث « من خرج من بيته حتى يأتي مسجداً لم يزل يمسكها في كل علة عمرة » أخرجه النسائي وابن ماجه من حديث سهل بن حنيف بإسناد صحيح . (٤) حديث « أن النبي صلى الله عليه وسلم تغل في برأيس » لم أقف له على أصل ولما ورد أنه تغل في برأيس وبئر خرس كما سيأتي عند ذكرها . . . الحديث « الأبار التي كان النبي صلى الله عليه وسلم يتوضأ ويغتسل ويشرب منها » وهي سبع أبار . قلت : وهي برأيس وبئر خرس وبئر بضاعة وبئر البصة وبئر السحيا أو العين أو برأيس . الحديث « برأيس » رواه مسلم من حديث أبي موسى الأشعري في حديث فيه « حتى تغل في برأيس قال جلست عند بابها وبها من حديث حتى نفس رسول الله صلى الله عليه وسلم حاجته وتوضأ . . . الحديث » وحديث « بشرنا » متفق عليه من حديث أسد قال « كان أبو طلحة أكثر أنصارى بالمدينة غللاً وكان أحب أمواله إليه بئر خا وكانت مستقبلة المسجد وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدخلها ويعصر بها ماء فيها طيب . . . الحديث » وحديث « بئر رومة » رواه الترمذي والنسائي من حديث عثمان « أنه قال أنشدكم الله والإسلام هل تعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قدم المدينة وليس بها ماء يستعذب غير بئر رومة فقال من يشرب من بئر رومة ويحمل دلوه مع دلاء المسلمين . . . الحديث » قال الترمذي حديث حسن . وفي رواية لها « هل تعلمون أن رومة لم يكن يعصر منها أحد إلا بالثمن فاجتمعت لجلتها لثني والفقير وإن السبيل . . . الحديث » وقال حسن صحيح وروى البيهقي والطبراني من حديث بدير الأسدي قال « لما قدم المهاجرون المدينة استكروا الماء وكانت لرجل من بني غفار عين يقال لها رومة وكان يبيع منها القرية بحد ، الحديث » وحديث « بئر خرس » رواه ابن حبان في الثقات من حديث أسد « أنه قال التوفي بقاء من بئر خرس فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم يعصر منها ويتوضأ » ولا بن ضيف بإسناد جيد مرصفاً « لذا أتت هاهنا سبع قرب من بئر بئر خرس » وروينا في تاريخ المدينة لابن النجار بإسناد صحيح مرصفاً « أن النبي صلى الله عليه وسلم توضأ منها ويزق فيها وغل منها حين توفي » وحديث « بئر بضاعة » رواه أصحاب السنن من حديث أبي سعيد الخدري « أنه قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم أتوضأ من بئر بضاعة » وفي رواية « أنه يقتلك من بئر بضاعة . . . الحديث » قال يحيى بن محمد بن إسحاق جيد وقال الترمذي حسن والطبراني من حديث أبي أسيد « يصلي النبي صلى الله عليه وسلم في بئر بضاعة » وروناه أيضا في تاريخ ابن النجار من حديث سهل بن سعد . وحديث « بئر البصة » رواه ابن عدي من حديث أبي سعيد الخدري « أن النبي صلى الله عليه وسلم جاءه يوما فقال هل عندكم من ماء فأخذ من رأسي قال اليوم الجمعة ؟ قال نعم فأخرج له سدرا وخرج معه إلى البصة فغسل رسول الله صلى الله عليه وسلم رأسه ومب غسالة رأسه ومرات شعرة في البصة » وفيه محمد بن الحسن بن زبالة ضيف وحديث « بئر السحيا » رواه أبو داود من حديث عائشة « أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يستحب له من بيوت السحيا » زاد البزار في مسنده « أو من بئر السحيا » ولأحمد من حديث علي « خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى إذا كنا بالسحيا التي كانت لسعد بن أبي وقاص قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اتقوا بيوتهم فقاموا » =

وتبركا به صلى الله عليه وسلم وإن أمكنه الإقامة بالمدينة مع مراعاة الحرمة فلها فضل عظيم قال صلى الله عليه وسلم « لا يصبر على لأوائها وشدتها أحد إلا أكت له شقيما يوم القيامة ^(١) » وقال صلى الله عليه وسلم « من استطاع أن يموت بالمدينة فليمت فإنه لن يموت بها أحد إلا أكت له شقيما أو شهيدا يوم القيامة ^(٢) » ثم إذا فرغ من أشغاله وعزم على الخروج من المدينة فليستحب أن يأتى القبر الشريف ويعيد دعاء الزيارة - كما سبق - ويورد رسول الله صلى الله عليه وسلم ويسأل الله عز وجل أن يرزقه العودة إليه ويسأل السلامة في سفره . ثم يصل ركعتين في الروضة الصغيرة وهي موضع مقام رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن زيدت المقصورة في المسجد . فإذا خرج فليخرج رجله اليسرى أولا ثم اليمنى وليقل « اللهم صل على محمد وعلى آل محمد ولا تجعله آخر العهد بنبيك وحط أوزارى بزيارته وأحببني في سفرى السلامة ويسر رجوعى إلى أهلى ووطنى سالما يا أرحم الراحمين » وليتصدق على جيران رسول الله صلى الله عليه وسلم بما قدر عليه . وليتبع المساجد التى بين المدينة ومكة فيصلى فيها وهي عشرون موضعا .

فصل : في سنن الرجوع من السفر

« كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قفل من غزو أو حج أو عمرة يكبر على رأس كل شرف من الأرض ثلاث تكبيرات ويقول : لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير أيون تأييدون عابدون ساجدون لرئيسنا حامدون صدق الله وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده ^(٣) » وفى بعض الروايات « وكل شيء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون » فينبغى أن يستعمل هذه السنة في رجوعه . وإذا أشرف على مدبنته يحرك الدابة ويقول « اللهم اجعل لنا بها قرارا ورزقا حسنا » ثم ليرسل إلى أهله من يخبرهم بقدمه كي لا يقدم عليهم بغتة فذلك هو السنة ^(٤) ولا ينبغى أن يعطى أهله ليلا فإذا دخل البلد فليقصد المسجد أولا وليصل ركعتين فهو السنة ^(٥) كذلك كان يفعل رسول الله صلى الله عليه وسلم . فإذا دخل بيته قال « توبأ توبأ لرئيسنا أوبأ لابننا دينا حوبا » فإذا استقر في منزله فلا ينبغى أن ينسى ما أتم الله به عليه من زيارة بيته وحرمة وقبر نبيه صلى الله عليه وسلم فيكفر تلك النعمة بأن يعود إلى الغفلة والهوى والحرص فى المعاصى ، فما ذلك علامة الحج المبرور بل علامته أن يعود زاهدا فى الدنيا راغبا فى الآخرة متأبعا لقام رب البيت بعد لقاء البيت .

الباب الثالث : فى الآداب الدقيقة والأعمال الباطنة

بيان دقائق الآداب وهى عشرة

(الأول) أن تكون النفقة حلالا وتكون اليد غالية من تجارة تشغل القلب وتفرق المم حتى يكون المم مجردا

== « .. الحديث » وأما بشرى فى الصحيحين من حديث أبى الجهم « أبل رسول الله صلى الله عليه وسلم نحو بشرى .. الحديث » وصلة البخارى وعلمه مسلم والمشهور أن الآثار بالمدينة سبعة . وقد روى النازى من حديث عائمة « أن النبى صلى الله عليه وسلم قال فى صفة : سبوا على سبع قرب من آثار شتى .. الحديث » وهو عند البخارى دون قوله « من آثار شتى »

(١) حديث « لا يصبر على لأوائها وشدتها أحد إلا أكت له شقيما يوم القيامة » تقدم فى الباب قبله (٢) حديث « من استطاع أن يموت بالمدينة فليمت بها .. الحديث » تقدم فى الباب قبله (٣) حديث « كان النبى صلى الله عليه وسلم إذا قفل من غزو أو حج أو عمرة يكبر على كل شرف من الأرض .. الحديث » تنقضى عليه من حديث ابن عمر وما زاده فى آخره فى بعض الروايات من قوله « وكل شيء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون » ورواه المحاملى فى اللهاء بإسناد جيد .

(٤) حديث « إرسال المسافر إلى أهل بيته من يخبرهم بقدمه كيلا يقدم عليهم بيته » لم أجد فيه ذكر الإرسال وفى الصحيحين من حديث جابر « كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزاة فلما قلنا المدينة ذهبتا ندخل فقال أهملوا حتى ندخل ليسلا أى صاه كى تحفظ الشقة وتستجد النية » (٥) حديث « صلاة ركعتين فى المسجد عند القدوم من السفر » تقدم فى الصلاة

له تعالى والقلب مطمئناً منصوراً إلى ذكراه تعالى وتمظيم شعائره . وقد روى في خبر من طريق أهل البيت ، إذا كان آخر الزمان خرج الناس إلى الحج أربعة أصناف سلاطينهم للزعة وأغنيائهم للتجارة وفقراؤهم للسألة وتواضعهم للسعة ^(١) ، وفي الخبر إشارة إلى جملة أغراض الدنيا التي يتصور أن تتصل بالحج ، فكل ذلك ما يمنع فضيلة الحج ويخرج عن حين حج الخصوص ؛ لا سيما إذا كان متجزئاً بنفس الحج بأن يحج لغيره بأجرة فيطلب الدنيا بعمل الآخرة . وقد كره الورعون وأرباب القلوب ذلك إلا أن يكون قصده المقام بمكة . ولم يكن له ما يبلغه فلا بأس أن يأخذ ذلك على هذا القصد ، لا ليتوصل بالدين إلى الدنيا بل بالدنيا إلى الدين . فعند ذلك ينبغي أن يكون قصده زيارة بيت الله عز وجل ومعاونة أخيه المسلم بإسقاط الفرض عنه . وفي مثله ينزل قول رسول الله صلى الله عليه وسلم « يدخل الله سبحانه بالحجة الواحدة ثلاثة الجنة : الموصي بها والمفد لها ومن حج بها عن أخيه ^(٢) » ، ولست أقول لا تحمل الأجرة أو يحرم ذلك بعد أن أسقط فرض الإسلام عن نفسه ، ولكن الأول أن لا يفعل ولا يتخذ ذلك مكسبه ومتجره فإن الله عز وجل يعطي الدنيا بالدين ولا يعطي الدين بالدنيا . وفي الخبر « مثل الذي يغزو في سبيل الله عز وجل ويأخذ أجراً مثل أم موسى عليه السلام ترضع ولدها وتأخذ أجراً ^(٣) » ، فمن كان مثاله في أخذ الأجرة على الحج مثال أم موسى فلا بأس بأخذه فإنه يأخذ ليتمكن من الحج والزيارة فيه ، وليس يحج ليأخذ الأجرة بل يأخذ الأجرة ليحج كما كانت تأخذ أم موسى ليتيسر لها الإرضاع بتليبس حالها عليهم ^(الثاني) أن لا يعاون أعداء الله سبحانه بتسليم المكس وهم الصادقون عن المسجد الحرام من أمراء مكة والأعراب المرتصدين في الطريق . فإن تسلم المال إليهم إمانة على الظن ويمسر لأسباب عليهم فهو كالإمانة بالنفس ؛ فليتلطف في حيلة الخلاص فإن لم يقدر فقد قال بعض العلماء - ولا بأس بما قاله - إن ترك التنفل بالحج والرجوع عن الطريق أفضل من إمانة الظلمة فإن هذه بدعة أحدثت وفي الانقياد لها ما يجعلها سنة مطردة وفيه ذل وصغار على المسلمين يبذل جزية . ولا معنى لقول القائل إن ذلك يؤخذ مني وأنا مضطر فإنه لو قيد في البيت أو رجع عن الطريق لم يؤخذ منه شيء بل ربما يظهر أسباب الترفه فتكثر مطالبته فلو كان في زى الفقراء لم يطالب فهو الذي ساق نفسه إلى حالة الاضطراب ^(الثالث) التوسع في الزاد وطيب النفس بالذل والإنفاق من غير تفتير ولا إسراف بل على اقتصاد ، وأخى بالإسراف التمتع بالطيب الأطعمة والترفه بشرب أنواعها على عادة المترفين . فأما كسرة البذل فلا سرف فيه ؛ إذ لاخير في السرف ولا سرف في الخير ، كما قيل . وبذل الزاد في طريق الحج نفقته في سبيل الله عز وجل والدرهم بسبعة درهم . قال ابن عمر رضي الله عنهما : من كرم الرجل طيب زاده في سفره . وكان يقول أفضل الحاج أخلصهم نية وأزكاهم نفقة وأحسنهم يقيناً . وقال صلى الله عليه وسلم « الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة فقيل له يا رسول الله ما بر الحج ؟ فقال : طيب الكلام وإطعام الطعام ^(٤) » ، ^(الرابع) ترك الرفث والفسوق

الباب الثالث : في الآداب الدقيقة والأعمال الباطنة

- (١) حديث « إذا كان في آخر الزمان خرج الناس لحج أربعة أصناف سلاطينهم للزعة وأغنيائهم للتجارة وفقراؤهم للسؤال وقرأؤهم قسمة » أخرجه الخطيب من حديث أنس بإسناد مجهول وليس فيه ذكر السلاطين ، ورواه أبو عثمان الصابوني في كتاب المستائين فقال « حج أغنياء أمن للزعة وأوساطهم للتجارة وفقراؤهم للسألة وقرأؤهم قسمة والسعة » (٢) حديث « يدخل بالحجة الواحدة ثلاثة الجنة الموصي بها والمفد لها ومن حج بها عن أخيه » أخرجه البيهقي من حديث جابر بسند ضعيف (٣) حديث « مثل الذي يغزو ويأخذ أجراً مثل أم موسى ترضع ولدها وتأخذ أجراً » أخرجه ابن عثيمين من حديث معاذ وقال مستأن الإِسْنَادُ مُتَكَرِّرٌ (٤) حديث « الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة » فقيل له ما بر الحج ؟ قال طيب الكلام وإطعام الطعام » أخرجه أحمد من حديث جابر بإسناد لين ورواه الحاكم مختصراً وقال صحيح الإسناد

والجدال كما نطق به القرآن . والرفق اسم جامع لكل لغو وخنى ولحن من الكلام ويدخل فيه مفارقة النساء ومداعبتن والتحدث بشأن الجماع ومقدماته ، فإن ذلك جميع داعية الجماع المحظور والداعى إلى المحظور محظور . والنفس اسم جامع لكل خروج عن طاعة الله عز وجل . والجدال هو البائلة في الخصومة والمماراة بما يورث الضنائن ويفرق في الحال المهمة وينافض حسن الخلق . وقد قال سفيان : من رفق فقد حجه . وقد جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم طيب الكلام مع أطعام الطعام من بر الحج . والمماراة تناقض طيب الكلام فلا ينبغي أن يكون كثير الاعتراض على رفيقه وجماله وعلى غيره من أصحابه بل يلين جانبه ويخفض جناحه للسائرين إلى بيت الله عز وجل ويلزم حسن الخلق وليس حسن الخلق كف الأذى بل احتيال الأذى وقيل سعى السفر سفرا لأنه يسفر عن أخلاق الرجال . ولذلك قال عمر رضي الله عنه لمن زعم أنه يعرف رجلا : هل سمعت في السفر الذي يستدل به على مكارم الأخلاق ؟ قال : لا ، فقال : ما أراك تعرفه (الحامس) أن يبيح ماشيا إن قدر عليه فذلك الأفضل . أوصى عبادة ابن عباس رضي الله عنهما بغير عته موته فقال . يا بني حجرا مشاة فإن الحاج الماشي بكل خطوة يخطوها سبعائة حسنة من حسنات الحرم ، قيل وما حسنات الحرم ؟ قال : الحسنة بمائة ألف والاستجاب في المشي في المناسل والتردد من مكة إلى الموقف وإلى منى أكد منه في الطريق . وإن أضاف إلى المشي الإحرام من ديرة أهله فقد قيل إن ذلك من إتمام الحج قاله عمر وعلى وابن مسعود رضي الله عنهم في معنى قوله عز وجل (واتموا الحج والعمرة لله) وقال بعض العلماء : الركوب أفضل لما فيه من الإنفاق والمؤنة ولأنه أبعد عن ضجر النفس وأقل لأثاء وأقرب إلى سلامته وتحمم حجه . وهذا عند التحقيق ليس مخالفا للأول بل ينبغي أن يفصل . ويقال من سؤل عليه المشي فهو أفضل فإن كان يصف ويؤذي به ذلك إلى سوء الخلق وقصور عن عمل فالركوب له أفضل ، كأ أن الصوم للسافر أفضل وللربض مالم يفض إلى ضعف وسوء خلق . وسئل بعض العلماء عن العمرة : أيضي فيها أو يكثرى حراما بدم ؟ فقال : إن كان وزن الدرهم أشد عليه فالكراه أفضل من المشي ، وإن كان المشي أشد عليه كالأغنياء فالمشي له أفضل ؛ فكأنه ذهب فيه إلى طريق مجاهدة النفس وله وجه . ولكن الأفضل له أن يمشى وبصرف ذلك الدرهم إلى خير فهو أولى من صرفه إلى المكاري عرضا عن ابتذال الدابة . فإذا كانت لاتنقع نفسه الجمع بين مشقة النفس ونقصان المال فما ذكره غير بعيد فيه (السادس) أن لا يركب إلا زاملة أما الحمل فليجتنبه إلا إذا كان يخاف على الزاملة أن لا يستمسك عليها لعذر وفيه معنيان أحدهما : التخفيف على البعير فإن الحمل يؤذي . والثاني : اجتناب زى المترفين المتكبرين . حج رسول الله صلى الله عليه وسلم على راحلة وكان تحته رجل رث وقطيفة خلقة فيثما أربعة دراهم (١) وطاف على الراحلة لينظر الناس إلى هديه وشماله (٢) ، وقال صلى الله عليه وسلم وحل آله وسلم وخدا عن مناسككم (٣) ، وقيل إن هذه المحامل أحدثها الحجاج وكان العلماء في وقته يشكرونها . فروى سفيان الثوري عن أبيه أنه قال : برزت من الكوفة إلى القادسية للحج ووافيت الرقاق من البلدان فرأيت الحاج كلهم على زوامل وجوقات ورواحل ومارأيت في جميعهم إلا عمالين . وكان ابن عمر إذا نظر إلى ما أحدث الحجاج من زارى والمحامل يقول الحاج قليل والركب كثير ثم نظر إلى رجل مسكين رث الحية تحته جوات فقال : هذا نعم من الحجاج .

(١) حديث . حج رسول الله صلى الله عليه وسلم على راحته وكان تحته رجل رث وقطيفة خلقة فيثما أربعة دراهم ، أخرجه الترمذي في المعالي وابن ماجه من حديث أبي سبند ضعيف (٢) حديث . طوافه صلى الله عليه وسلم على راحته ، تقدم . (٣) حديث . خذوا عن مناسككم ، أخرجه مسلم والنسائي والنظر له من حديث جابر

(السابع) أن يكون رث الهيئة أسمع أغبر غير مستكثر من الزينة ولا مائل إلى أسباب التفاخر والتكاثُر فيكتب في ديوان المتكبرين المترفين ويخرج من حزب الضعفاء والمساكين وخصوص الصالحين ، فقد أمر صلى الله عليه وسلم بالشمع والاختفاء^(١) ونهى عن التتمم والرقاية^(٢) في حديث فضالة بن عبيد وفي الحديث «لما الحجاج التفت الفئ^(٣) ويقول الله تعالى : انظروا إلى زوارى بيتي قد جاءوا شعثا غبرا من كل فج عيق^(٤)» وقال تعالى (ثم ليقتضوا نفهم^(٥)) والتفت الشعث والاغبر ، وقضاؤه بالخلق وقص الشارب والأظفار ، وكتب عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلى أمراء الأجناد : اخلقوا واخشعوا ، أى اليسوا الخلقان واستعملوا الخشوعة في الأشياء . وقد قيل : زين الحبيح أهل اليمن لأنهم على هيئة التواضع والضعف وسيرة السلف . فينبغى أن يحتجب الحرمة في زي على الخصوص والشهرة كيفما كانت على العموم . فقد روى « أنه صلى الله عليه وسلم كان في سفر فزول أصحابه منزلا فسرحت الإبل فنظر إلى أكسية حر على الأتائب فقال صلى الله عليه وسلم أرى هذه الحرمة قد غلبت عليكم^(٦) » قالوا فقمنا إليها ونزعناها عن ظهورها حتى شرد بعض الإبل ، (الثامن) أن يرقى بالماء فلا يعملها مالا تطيق والمحمل خارج عن حد طاعتها والتوم عليها يؤذيها ويثقل عليها كان أهل الورع لا ينامون على الدواب إلا غفوة عن قعود وكانوا لا يغفون عليها الوقوف الطويل قال صلى الله عليه وسلم « لاتنخدوا ظهور دوابكم كراسي^(٧) » ويستحب أن ينزل من دابته غدوة وغشية يرثوها بذلك فهو سنة^(٨) وفيه آثار عن السلف . وكان بعض السلف يكتري بشرط أن لا ينزل ويوفى الأجرة ثم كان ينزل عنها ليكون بذلك محسنا إلى الدابة ، فيكون في حسنة ووضع في ميزانه لا في ميزان المكاري . وكل من أذى بهيمة وحملها مالا تطيق طوبى به يوم القيامة . قال أبو الدرداء لعير له عند الموت : يا أيها البعير لا تصاحنى إلى ربك فإني لم أكن أحملك فوق طائفتك . وعلى الجملة في كل كبد حزاء أجر فليراع حق الدابة وحق المكاري جميعا وفي زوله ساعة ترويح الدابة وسرور قلب المكاري . قال رجل لابن المبارك : احمل لي هذا الكتاب معك لتوصله فقال : حتى استأمر الجاهل فإني قد اكترت . فانظر كيف تروع من استصحاب كتاب لا وزن له ؟ وهو طريق الحرم في الورع فإنه إذا فتح باب القليل انجر إلى الكثير يسيرا (التاسع) أن يتقرب بإراقة دم وإن لم يكن واجبا عليه ويحتج أن يكون من سمين النعم ونفيسه ، وليأكل منه إن كان تقوفا ولا يأكل منه إن كان واجبا . قيل في تفسير قوله تعالى ﴿ ذَلِكُمْ وَمَنْ يُعْظِمْ شَعَائِرَ اللَّهِ ﴾ إنه تحسنيه وتسمينه . وسوق الهدى من المبيقات أفضل إن كان لا يجهده ولا يكده . ولترك المكاس في شرائه فقد كانوا يغالون في ثلاث ويكرهون

(١) حديث « الأمر بالشم والاختفاء » أخرجه البزوى والطبراني من حديث عبد الله بن أبي حمزة قال « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قد رددوا واخفوا شعثا وانتضروا وأمدوا حفاة » وفيه اختلاف ورواه ابن عدى من حديث أبي هريرة وكلاما ضيف (٢) حديث فضالة بن عبيد « في النهي عن التتمم والرقاية وأن الهى صلى الله عليه وآله وسلم كان ينفى عن كثير من الإرقاء » وأبعد من حديث معاذ لما ذكره . الحديث « (٣) حديث « أما الحجاج التفت الفئ^(٤) » أخرجه الترمذى وابن ماجه من حديث ابن عمر وقال غريب (٤) حديث « يقول الله تعالى انظروا إلى زوارى بيتي قد جاءوا شعثا غبرا من كل فج عيق » أخرجه الحاكم وصححه من حديث أبي هريرة دون قوله « من كل فج عيق » وكذا رواه أحمد من حديث عبد الله بن عمر (٥) حديث « أنه صلى الله عليه وسلم كان في سفر فزول أصحابه منزلا فسرحت الإبل فنظر إلى أكسية حمراء على الأتائب فقال أرى هذه الحرمة قد غلبت عليكم . الحديث » أخرجه أبو داود من حديث رافع بن خديج وفيه رجل لم يسم . (٦) حديث « لاتنخدوا ظهور دوابكم كراسي » أخرجه أحمد من حديث سهل بن معاذ عند ضيف ورواه الحاكم وصححه من رواية معاذ بن أس عن أبيه . (٧) حديث « التروى عن الهابة هذوة وعقبة يرميها بذلك » أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث أسب باد جيد « أن الهى صلى الله عليه وسلم كان إذا صلى القجر في السفر مضى » ورواه البيهقي في الأدب وقال « على الليل والليل فاد »

المسكاس فيمن : الهدى والأضحية والرقية ، فإن أنضل ذلك أغلاء ثمنا وأنفسه عند أهله ، وروى ابن عمر ، أن عمر رضى الله عنها أهدى بختية فطلبت منه بثلاثة دنانير فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يبيعها ويشتري بثمنها بدنانفهاه عن ذلك وقال بل أهدها ^(١) ، وذلك لأن القليل الجيد خير من الكثير الدون ، وفي الثلاثة دنانير قيمة ثلاثين بدنة وفيها تكثير العلم ولكن ليس المقصود اللحم إنما المقصود تركية النفس وتطهيرها من صفة البخل وتزيتها بجمال التعظيم ثم عز وجل ف (أن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منك) ، وذلك يحصل بمراعاة النفاسة في القيمة كثر العدد أو قل ، وسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم ما بين الحج فقال الحج والثج ^(٢) ، والمج هو رفع الصوت بالتلبية ، والثج هو نحر البدن ، وروت عائشة رضى الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ما عمل آدمى يوم النحر أحب إلى الله عز وجل من إهرافه دما وإنها لتأتى يوم القيامة بقرونها وأغلافها وإن اللحم يقع من الله عز وجل بمكان قبل أن يقع بالأرض فطويوا بها نفسا ^(٣) ، وفي الخبر : لكم بكل صوفة من جلدنا حسنة وكل قطرة من دما حسنة وإنها لتوضع في الميزان فأبشروا ^(٤) ، وقال صلى الله عليه وسلم : استجدوا هداياكم فإنها مطاياكم يوم القيامة ، (العاشر) أن يكون طيب النفس بما أنفقه من نفقة وهدى وبما أصابه من خسران ومعصية في مال أو بدن إن أصابه ذلك فإن ذلك من دلائل قبول حجه ، فإن المعصية في طريق الحج تعدل الثقة في سبيل الله عز وجل الدرهم بسبعمائة درهم بمثابة الشدائد في طريق الجهاد بكل أذى احتمله وخسران أصابه ثواب فلا يصنع منه شيء عند الله عز وجل ، ويقال إن من علامة قبول الحج أيضا ترك ما كان عليه من المعاصي وأن يلبس بإخوته الباطلين إخوانا صالحين ، ويجالس اللهو والغفلة مجالس ^(٥) ، كر واليقظة .

بيان الأعمال الباطنة ووجه الإخلاص في النية وطريق اعتبار المشاهد الشريفة

وكيفية الاقتسار فيها والتذكر لأسرارها ومعانيها من ول الحج إلى آخره

اعلم أن أول الحج الفهم - أحن فهم موقع الحج في الدين - ثم الشوق إليه ثم العزم عليه ثم قطع العلاقات الممانعة منه ثم شراء ثوب الإحرام ثم شراء الزاد ثم اكتناء الرحلة ثم الخروج ثم المسير في البداية ثم الإحرام من الميقات بالتلبية ثم دخول مكة ثم استتمام الأضفار كما سبق . وفي كل واحد من هذه الأمور تذكرة للتذكر وعبرة للمعتبر وتلبية للمريد الصادق وتعمير وإشارة للقطن . فتمرر إلى ما فاتنا حتى إذا انفتح بابها وعرفت أسبابها انكشفت لكل حاج من أسرارها ما يقتضيه صفاء قلبه وطهارة باطنه وغرارة فهمه .

أما الفهم : اعلم أنه لا وصول إلى الله سبحانه وتعالى إلا بالتزهد عن الشهوات والكف عن اللذات والاعتصاف على الضرورات فيها والتجرد لله سبحانه في جميع الحركات والسكنات . ولأجل هذا انفرد الرهبانيون في المال السالفة

(١) حديث ابن عمر : أن عمر أهدى بختية فطلبت منه بدنانير . (٢) حديث : مثل رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يبيعها ويشتري بثمنها بدنانفهاه عن ذلك وقال بل أهدها . أخرجه أبو داود وقال « انحرها » (٣) حديث : مثل رسول الله صلى الله عليه وسلم ما بين الحج فقال الحج والثج . أخرجه الترمذي واستغربه وابن ماجه والحاكم وصححه والبيهقي في الباقين . (٤) حديث : ما عمل آدمى يوم النحر أحب إلى الله عز وجل من إهرافه دما . (٥) حديث : لكم بكل صوفة من جلدنا حسنة وكل قطرة من دما حسنة وإنها لتوضع في الميزان فأبشروا . أخرجه ابن ماجه وصححه البيهقي من حديث زيد بن أرقم في حديث أبيه . بكل شجرة حسنة قالوا فالصوف قال بكل شجرة من الصوف حسنة . وفي رواية البيهقي : بكل قطرة حسنة . قال البيهقي لأصح وروى أبو الفتح في كتاب الضعفاء من حديث علي : أما إنني لم أجده يوم القيامة بقرونها ودماها حتى توضع في ميزانك . قوله فاطمة .

عن الخلق وانحازوا إلى قتل الجبال وآثروا التوحش عن الخلق لطلب الأئس بالله عز وجل فتركوا الله عز وجل
الذات الحاضرة والأروا أنفسهم لمجاهدات الشاقة طمعا في الآخرة وأثنى الله عز وجل عليهم في كتابه فقال (ذلك
بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون) فلا أندرس ذلك وأقبل الخلق على اتباع الشهوات وهجروا التجرد
لعبادة الله عز وجل وقرتوا عنه بمس الله عز وجل نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم لإحياء طريق الآخرة وتجديد سنة
المرسلين في سلوكها . فساه أهل الملل عن الرهبانية والسياسة في دينه فقال صلى الله عليه وسلم : أبدلنا الله بها الجهاد
والتكبير على كل شرف ^(١) يعني الحجج . وسئل صلى الله عليه وسلم عن الصائمين فقال : هم الصائمون ^(٢) . فأذنم الله
عز وجل على هذه الأمة بأن جعل الحجج رهبانية لهم فشرّف البيت العتيق بالإضافة إلى نفسه تعالى . ونصبه مقصدا
لعباده وجعل مآخوله حرما لئله تغنيا لأمره . وجعل عرفات كاليزاب على فناء حوضه : وأكد حرمة الموضع
بتحريم صيده وعمره . ووضعه على مثال حضرة الملوك بقصده الزوار من كل فج عريق ومن كل أوب يحق شعنا
غيرا متراضين لرب البيت ومستكينين له خضوعا لجلاله واستكانة لعزته . مع الاعتراف بتزجيه عن أن يحويه بيت
أو يكتنفه بلد ليكون ذلك أبلغ في رفهم وعبوديتهم وأثم في إذعانهم وانقيادهم . ولذلك وظف عليهم فيها أعمالا
لتأنس بها النفوس ولا تهتدى إلى معانيها العقول كرمى الجمار بالأحجار ، والتردد بين الصفا والمروة على سبيل
التكرار . وبمثل هذه الأعمال يظهر كمال الرق والمبودية . فإن الزكاة إرفاق وجهه مفهوم للعقل إليه ميل . والصوم
كسر الشهوة التي هي آلة حدّ الله وتفريغ العبادة بالكف عن الشواغل . والركوع والسجود في الصلاة تواضع لله
عز وجل بأفعال هي هيئة التواضع والنفوس أنس بتمظيم الله عز وجل . فأما ترددات السعي ورمى الجمار وأمثال
هذه الأعمال فلا حظ للنفوس ولا أنس فيها ولا اعتناء للعقل إلى معانيها فلا يكون في الإقدام عليها باعث
إلا الأمر المجرد وقصد الامتثال للأمر من حيث إنه أمر واجب الاتباع فقط . وفيه عزل للعقل عن تصرفه وصرف
النفس والطبع عن عمل أنه فإن كل ما أدرك العقل معناه ؛ مال الطبع إليه ميلا ما . فيكون ذلك الميل معينا للأمر
وباعضا معه هل الفعل فلا يكاد يظهر به كمال الرق والانقياد . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم في الحجج إلى الخصوص
« ليكن بحجة حقا تعبدا ورقا ^(٣) » ولم يقل ذلك في صلاة ولا غيرها . وإذا اقتضت حكمة الله سبحانه وتعالى ربط
نحاة الخلق بأن تكون أعمالهم على خلاف هوى طباعهم وأن يكون زمامها بيد الشرع فيترددون في أعمالهم على سنن
الانقياد وعلى مقتضى الاستبعاد . كان ما لا يهتدى إلى معانيه أبلغ أنواع التعبدات في تركية النفوس وصرفها عن
مقتضى الطباع والأخلاق . مقتضى الاسترقاق . وإذا تطلعت لهذا فهمت أن تعجب النفوس من هذه الأفعال العجيبة
مصدره الذهول عن أسرار التعبدات . وهذا القدر كاف في تفهم أصل الحجج إن شاء الله تعالى .

وأما الشوق : فإنما يليق بعد الفهم والتحقق بأن البيت بيت الله عز وجل وأنه وضع على مثال حضرة الملوك

(١) حديث « سئل عن الرهبانية والسياسة فقال : أبدلنا الله بها الجهاد والتكبير على كل شرف » أخرجه أبو داود من
حديث أبي أمامة « أن رجلا قال لرسول الله أشد لي في السياحة فقال لن سياحة أمن الجهاد في سبيل الله » رواه الطبراني بقص
« أن لكل أمة سياحة وسياحة أمن الجهاد في سبيل الله ولكل أمة رهبانية ورهبانية أمن الرباط في نحر العدو » وفيه في
الشعب من حديث أبي أنس « رهبانية أمن الجهاد في سبيل الله » وكلاهما ضعيف والترمذي وحسنه والذاهلي في اليوم والهيعة وابن ماجه
من حديث أبي هريرة « أن رجلا قال لرسول الله أني أريد أن أسافر فأوصني قال عليك بقوى الله والتكبير على كل شرف » .

(٢) حديث « سئل عن الصائمين فقال هم الصائمون » أخرجه البيهقي في الشعب من حديث أبي هريرة وقال المحفوظ عن
جهد بن حمير عن حمير صلا

(٣) حديث « ليكن بحجة حقا تعبدا ورقا » يندم في الزكاة .

فقا صده قاصد إلى الله عز وجل وذاثر له وأن من قصد البيت في الدنيا جدير بأن لا يضيع زيارته فيزنى مقصود الزيارة في مياده المضروب له وهو النظر إلى وجه الله الكريم في دار القرار ، من حيث إن العين القاصرة الغائبة في دار الدنيا لا تنبأ لقبول النظر إلى وجه الله عز وجل ولا تطبيق احتياله ولا تستدل للاكتحال به لتصورها ، وأنها إن أمدت في الدار الآخرة بالبقاء ونزهت عن أسباب التنفير والفناء استمدت للنظر والإبصار ولكنها بقصد البيت والنظر إليه تستحق لقاء رب البيت بحكم الوعد الكريم . فالشوق إلى لقاء الله عز وجل يشوقه إلى أسباب اللقاء لا محالة ، هذا مع أن الحب مشتاق إلى كل ماله إلى عبوره إضافة والبيت مضاف إلى الله عز وجل فبالحرى أن يشاق إليه مجرد هذه الإضافة فضلا عن الطلب لنيل ما وعد عليه من الثواب الجزيل .

وأما العزم : فليعلم أنه يزمه قاصدا إلى مفارقة الأهل والوطن ومهاجرة الشهوات واللذات متوجها إلى زيارة بيت الله عز وجل . وليعلم في نفسه قدر البيت وقد رب البيت وليعلم أنه عزم على أمر رفيع شأنه خطير أمره وأن من طلب عظيما غاطر بعظيم . وليجعل عزمه خالصا لوجه الله سبحانه بعيدا عن شوائب الرياء والسمة . وليستحق أنه لا يقبل من قصده وعمله إلا الخالص وإن من ألحش الفواحش أن يقصد بيت الله وحرمة والمقصود غيره . فليصح مع نفسه العزم وتسميته بإخلاصه وإخلاصه باجتنب كل ما فيه رياء وسمة فليحذر أن يستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير .

وأما قطع العلائق : فبأنه رد المظالم والتوبة الخالصة لله تعالى عن جملة المعاصي فكل مظنة علاقة وكل علاقة مثل غريم حاضر متعلق بتبليبه يتأذى عليه ويقول : إلى أين تتوجه أتقصد بيت ملك الملوك وأنت مضيع أمره في منزلك هذا ومستعين به ومعلم له ؟ ألا تستحي أن تقدم عليه قدوم المبدع المعاصي فيردك ولا يقبلك ؟ فإن كنت رافيا في قبول زيارته فغدا أوامره ورد المظالم وتب إليه أولا من جميع المعاصي واقطع علاقة قلبك عن الالتفات إلى ما وراءك لتكون متوجها إليه بوجه قلبك كما أنك متوجه إلى بيته بوجه ظاهرك . فإن لم تفعل ذلك لم يكن لك من سفرك أولا إلا التصب والشقاء وآخره إلا الطرد والرد . وليقطع العلائق عن وطنه انقطع من قطع عنه وفقد أن لا يعود إليه وليكتب وصيته لأولاد وأهله فإن المسافر وماله لعل خطر إلا من وفق الله سبحانه . وليتذكر عند قطعه العلائق لسفر الحج قطع العلائق لسفر الآخرة فإن ذلك بين يديه على التقرب وما يقدمه من هذا السفر طمع في تيسير ذلك السفر فهو المستقر وإليه المصير . فلا يلبي أن يفعل عن ذلك السفر عند الاستعداد لهذا السفر .

وأما الواد : فليطلبه من موضع حلال وإذا أحس من نفسه الحرص على استكثاره وطلب ما يبق منه هل طول السفر ولا يتغير ولا يفسد قبل بلوغ المقصد فليترك أن سفر الآخرة أطول من هذا السفر ، وأن زاده التقوى وأن ما عاده مما يظن أنه زاده يتخلف عنه عند الموت ويغفونه فلا يبق معه ، كالطعام الرطب الذي يفسد في أول منازل السفر فيبقى وقت الحاجة متعبر محتاجا لاحتياجه له . فليحذر أن تكون أعماله التي هي زاده إلى الآخرة لا تصعبه بعد الموت بل يفسدها شوائب الرياء وكدورات التقصير .

وأما الراحة : إذا أحضرها فليفسر الله بقلبه على تسخيرها لله عز وجل له الدواب لتحمل عنه الأذى وتخفف عنه المشقة . وليتذكر عنده المركب الذي يركبه إلى دار الآخرة وهي الجنة التي يعمل عليها . فإن أمر الحج من وجه يراعى أمر السفر إلى الآخرة لينظر أيسر سفره على هذا المركب لأن يكون زاده له لذلك السفر على ذلك المركب ؟ أم أقرب ذلك منه . وما يدرى لعل الموت قريب ويكون وكوه للجنة قبل ركوبه العمل . وركوب

الجزاة مقطوع به وتيسر أسباب السفر مشكوك فيه فكيف يحتاط في أسباب السفر المشكوك فيه ويستظهر في زاده وراحته ويهمل أمر السفر المستيقن ؟

وأما شراء ثوب الإحرام : فليذكر هذه الكفن ولفه فيه فإنه سيرتدى ويتزور بشوي الإحرام عند القرب من بيت الله عز وجل وربما لا يتم سفره إليه . وأنه سيلقى الله عز وجل ملفوفاً في ثياب الكفن لا عالة . فكما لا يلقى بيت الله عز وجل إلا عافاً عادته في الزى والهيئة فلا يلقى الله عز وجل بعد الموت إلا في زى عفاف لزي الدنيا . وهذا الثوب قريب من ذلك الثوب إذ ليس فيه غيط كما في الكفن .

وأما الخروج من البلد : فليعلم عنده أنه تارك الأهل والوطن متوجهاً إلى الله عز وجل في سفر لا يضيأ أسفار الدنيا . فليحضر في قلبه أنه ما ذابريد وأين توجه وزيارة من يقصد ؟ وأنه متوجه إلى ملك الملوك في زمرة الزائرين له الذين نودوا فأجابوا وشوقوا فاستبقوا واستهضوا فنهضوا وقطعوا الملاقى وفارقوا الخلائق وأقبلوا على بيت الله عز وجل الذي علم أمره وعظم شأنه ورفع قدره تسلياً بقاء البيت عن لقاء رب البيت إلى أن يرزقوا منتهى نعيم ويسعدوا بالنظر إلى مولاهم . وليحضر في قلبه رجاء الوصول والقبول لا إدلالاً بأعماله في الاحتمال ومفارقة الأهل والمال ولكن ثقة بفضل الله عز وجل ورجاء لتحقيقه وعده لمن زار بيته . وليرجع أنه إن لم يصل إليه وأدركته المنية في الطريق لقي الله عز وجل وانفاداً إليه إذ قال جل جلاله ﴿ ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله ﴾ .

وأما دخول البادية إلى الميقات ومشاهدة تلك المقبات : فليذكر فيها ما بين الخروج من الدنيا بالموت إلى ميقات يوم القيامة وما بينهما من الأحوال والمطالبات . وليتذكر من هول قطاع الطريق هول سؤال منكر وتكبير ومن سباح البوادي عقارب القبر وديبانه وما فيه من الأفاعى والحيات ومن انفراد من أهله وأقاربه وحشة القبر وكرهته ووحشته . وليسكن في هذه المخاوف في أعماله وأقواله متزوداً لمخاوف القبر .

وأما الإحرام والتلبية من الميقات . فليعلم أن معناه إجابة نداء الله عز وجل فارج أن تكون مقبولاً واخش أن يقال لك لا ليالك ولا سعديك فكأن بين الرجاء والخوف متردداً وعن حوذك وقوتك متبرئاً وعلى فضل الله عز وجل وكرمه متكللاً . فإن وقت التلبية هو بداية الأمر وهي محل الخطر . قال سفيان بن عيينة : حج على ابن الحسين رضى الله عنهما فلما أحرم واستوت به راحلته اصفر لونه وانتفض ووقعت عليه الرعدة ولم يستطع أن يلبي فقيل له : لم لا يلبى ؟ فقال : أخشى أن يقال لي لا ليالك ولا سعديك . فلما لبى غشى عليه ووقع عن راحلته فلم يزل يعتريه ذلك حتى قضى حجه وقال أحمد بن أبي الخوارى : كنت مع أبي سليمان الداراني رضى الله عنه حين أراد الإحرام فلم يلب حتى سرنا ميلاً فأخذته النشبة ثم أفاق وقال : يا أحمد إن الله سبحانه أوحى إلى موسى عليه السلام مرشلة بني إسرائيل أن يقتلوا من ذكرى فإني أذكر من ذكرى منهم باللعنة . ويحك يا أحمد بلغني أن من حج من غير حله ثم لبى قال الله عز وجل لا ليالك ولا سعديك حتى ترد ما في يدك فما تأمن أن يقال لنا ذلك . وليتذكر الملبى عند رفع الصوت بالتلبية في الميقات إجابته لنداء الله عز وجل إذ قال ﴿ وأذن في الناس بالحج ﴾ ونداء الخلق بنفخ الصور وحشرهم من القبور وازدحامهم في حراسات القيامة بمجيئ لنداء الله سبحانه ؛ ومنقسمين إلى مقربين ومقوتين . ومقبولين ومردودين . ومترددين في أول الأمر بين الخوف والرجاء تردد الحاج في الميقات حيث لا يدرون أين يسير لهم لإتمام الحج وقبوله أم لا ؟

وأما دخول مكة : فليذكر عندها أنه قد انتهى إلى حرم الله تعالى آمناً وليرجع عنده أن يأمن بدخوله من عقاب الله عز وجل وليخش أن لا يكون أهلاً للقرب فيكون بدخوله الحرم عاباً ومستحقاً للقتل . وليكن رجاءه في جميع الأوقات غالباً فالكرم عظيم . والرب رحيم وشرف البيت عظيم وحق الزائر مرعى وذمام السجير اللامد غير مضيق .

وأما وقوع البصر على البيت : فينبغي أن يحضر عنده عظمة البيت في القلب ويقدّر كأنه مشاهد لرب البيت لشدة تعظيمه إياه . وأرج أن يرزقك الله تعالى النظر إلى وجهه الكريم كما رزقك الله النظر إلى بيته العظيم . واشكر الله تعالى على تمييزه إياك هذه الرتبة وإلحائه إياك بمرسة الرافدين عليه . واذكر عند ذلك الصواب الناس في القيامة إلى جهة الجنة آمليين لدخولها كافة ثم انقسامهم إلى ماذنيتين في الدخول ومصرفين انقسام الحاج إلى مقبولين ومردودين . ولا تغفل عن تذكر أمور الآخرة في شيء مما تراه فإن كل أحوال الحاج دليل على أحوال الآخرة .

وأما الطواف بالبيت : فاعلم أنه صلاة فأحضر في قلبك فيه من التنظيم والخوف والرجاء والهمة ما يفتقره في كتاب الصلاة . واعلم أنك بالطواف متشبه بالملائكة المقربين الحافين حول العرش العائنين حوله . ولاتغفل أن المقصود طواف جسمك بالبيت بل المقصود طواف قلبك بذكر رب البيت حتى لا يتبدئ الذكر إلا بالله ولا تختم إلا به كما يتبدئ الطواف من البيت وتختم بالبيت . واعلم أن الطواف الشريف هو طواف القلب بخضرة الربوبية . وأن البيت مثال ظاهر في عالم الملك لتلك الحضرة التي لا تشاهد بالبصر وهي عالم الملكوت ، كما أن البدن مثال ظاهر في عالم الشهادة للقلب الذي لا يشاهد بالبصر وهو في عالم الغيب . وأن عالم الملك والشهادة مدركة إلى عالم الغيب والملكوت لمن فتح الله له الباب ولعل هذه الموازنة وقعت الإشارة بأن البيت المعمور في السموات يلزمه الكعبة . فإن طواف الملائكة به كطواف الأنس بهذا البيت . ولما قصرت رتبة أكثر الخلق عن مثل ذلك الطواف أمروا بالتشبه بهم بحسب الإمكان ووعدوا بأن من تشبه بهم فهو منهم ^(١) والذي يقدر على مثل ذلك الطواف هو الذي يقال إن الكعبة تزوره وتطوف به على ما رآه بعض المكاشفين لبعض أولياء الله سبحانه وتعالى .

وأما الاستلام : فاعتقد عنده أنك مبايع لله عز وجل على طاعته فقسم عزيمتك على الوفاء بهيئتك فمن غدر في المبايعة استحق الموت . وقد روى ابن عباس رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : الحجر الأسود بين الله عز وجل في الأرض يصافح بها خلقه كما يصافح الرجل أخاه ^(٢) .

وأما التعلق بأستار الكعبة والاتصاف بالمقام : فلتكن نيتك في الالتزام بطلب القرب حبا وشوقا لبيت ولرب البيت وتهربا بالماسة ورجاء للتحصن عن النار في كل جزء من بدنك لآل البيت . ولتكن نيتك في التعلق بالستر الإلحاح في طلب المغفرة وسؤال الأمان كاللذنب المتعلق ثياب من أذنب إليه المتضرع إليه في عفوه عنه المظهر له أنه لا ملجأ له منه إلا إليه ولا مغفر له إلا كرمه وعفوه وأنه لا يفارق ذيله إلا بالعمى وبذل الأمن في المستقبل .

وأما السعي بين الصفا والمروة في فناء البيت : فإنه يضاهي تردد المعبدين فناء الملك جائيا وذاهبا مرة بعد أخرى

(١) حديث « من تشبه بهم فهو منهم » أخرجه أبو دواد من حديث ابن عمر بسند صحيح . (٢) حديث ابن عباس « الحجر بين الله في الأرض يصافح بها خلقه » الحديث . هدم في العلم من حديث عبد الله بن عمرو .

إظهار الخلو في الخدمة ورجاء الملاحظة بعين الرحمة ، كالذي دخل على الملك وخرج ، وهو لا يدري ما الذي يقضى به الملك في حقه من قبول أو رد ؟ فلا يزال يتردد على فناء النار مرة بعد أخرى يرجو أن يرسم في الثانية إن لم يرسم في الأولى . وليتذكر عند ترده بين الصفا والمروة ترده بين كفتي الميزان في عرصات القيامة وليمثل الصفا بكفة الحسنات والمروة بكفة السيئات . ولين . دده بين الكفتين ناظرا إلى الرجحان والقفصان مترددا بين العذاب والغفران .

وأما الوقوف بعرفة : فاذكر - بما ترى من ازدحام الخلق وارتفاع الأصوات واختلاف اللغات واتباع الفرق أمتهم في الترددات على المشاعر اقتفاء لهم وسيرا يسيرهم - عرصات القيامة واجتماع الأمم مع الأنبياء والأئمة واتقاء كل أمة نبيها وعلماهم في شفاعتهم وتخبرهم في ذلك الصعيد الواحد بين الرد والقبول . وإذا تذكرت ذلك فالزم قلبك الصراخة والابتهال إلى الله عز وجل فتعشر في زمرة الفائزين المحرورين وحقق رجاءك بالإجابة فالوقوف شريف والرحمة إنما تصل من حضرة الجلال إلى كافة الخلق بواسطة القلوب العزيرة من أولاد الأرض . ولا ينفك الموقف عن طبقة من الأبدال والأولاد وطبقة من الصالحين وأرباب القلوب . فإذا اجتمعت مهمهم وتجردت الصراخة والابتهال قلوبهم وارتفعت إلى الله سبحانه أيديهم وامتدت إلى أعناقهم ونحست نحو السماء أبصارهم مجتمعين بهمة واحدة على طلب الرحمة فلا تظن أنه يخيب أملهم ويضيع سعيهم ويدخر عنهم رحمة تفرمهم . ولذلك قيل : إن من أعظم الذنوب أن يحضر عرفات ويظن أن الله تعالى لم يغفر له . وكان اجتماع الهمم والاستظهار بمجاورة الأبدال والأولاد المجتمعين من أقطار البلاد هو سر الحج وغاية مقصوده فلا طريق إلى استدبار رحمة الله سبحانه مثل اجتماع الهمم وتعاون القلوب في وقت واحد .

وأما رعى الجار : فاقصد به الانقياد للأمر إظهارا للرق والعبودية وانهاضا لجرد الامتثال من غير حظ للعقل والنفس فيه . ثم اقصد به التذلل بأبراهيم عليه السلام حيث عرض له إبليس لعنه الله تعالى في ذلك الموضع ليندخل على حبه شبة أبا يقشته بمعية فأمره الله عز وجل أن يرميه بالحجارة طردا له وقطعا لأمله . فإن خطر لك : أن الشيطان عرض له وشاهده فلذلك رماه وأما أنا فليس يعرض لي الشيطان ؟ فاعلم أن هذا الخاطر من الشيطان وأنه الذي ألقاه في قلبك ليفتر حزمك في الرى ويحيل إليك أنه فعل لا فائدة فيه وأنه يضاهي اللعب لم تستغل به ؟ فاطرده عن نفسك بالجد والتشمير في الرى فيه برغم أنف الشيطان . واعلم أنك في الظاهر ترى المحصول إلى العقبة وفي الحقيقة ترى به وجه الشيطان وتقصم به ظهره إذ لا يحصل إرغام أنه إلا بامتالك أمر الله سبحانه وتعالى تمطيه لمجرد الأمر من غير حظ للنفس والعقل فيه .

وأما ذبح الهدى : فاعلم أنه تقرب إلى الله تعالى بحكم الامتثال فأكل الهدى وارج أن يعتق الله بكل جزء منه جرما منك من النار ^(١) فهكذا ورد الوعد . فنكلا كان الهدى أكبر وأجزاء أوفر كان فداوك من النار أهم

وأما زيارة المدينة : فلذا وقع بصرك على حيطانها فتذكر أنها البلدة التي اختارها الله عز وجل لنبيه صلى الله عليه وسلم وجعل إليها جبرته وأنها قاره التي شرع فيها فرائض ربه عز وجل وسقته وجاهد عدوه وأظهر بها دينه إلى أن

(١) حديث « أنه يعتق بكل جزء من الأضحية جزءا من النفس من النار » لم أنه لم حل أسل ولست كتابه الضحايا لأن الشيخ من حديث أبي سعيد « فان لك أول تمرلة تنظر من دمها أن ينزل لك ما تقدم من ذنوبك » بقوله لفاطمة رضي الله عنها واستاده ضعیف .

توفاه الله عز وجل . ثم جعل تربته فيها وتربة وزيره القائمين بالحق بعده رضى الله عنهما . ثم مثل في نفسك مواقع أقدام رسول الله صلى الله عليه وسلم عند تردده فيها وأنه ما من موضع قدم تطؤه إلا وهو موضع أقدامه العزيزة فلا تضع قدمك عليه إلا عن سكينته وجل . وتذكر مشيه وتخطيه في سكنتها وتصور خضوعه وسكينته في المشي وما استودع الله سبحانه قلبه من عظيم معرفته ورفعة ذكره مع ذكره تعالى حتى قرنه بذكر نفسه ورجاعه عمل من هتك حرمة ولورفع صوته فوق صوته . ثم تذكر ما من الله تعالى به على الذين أدركوا محبته وسعدوا بمشاهدته واستماع كلامه وأعظم تأملك على ما فاتك من محبته ومحبة أصحابه رضى الله عنهم . ثم اذكر أنك قد فانتك رؤيته في الدنيا وأنك من رؤيته في الآخرة على خطر . وأنك ربما لآتراه إلا بحسرة وقد حيل بينك وبين قوله إياك بسوء عمك كما قال صلى الله عليه وسلم : « يرفع الله إلى أقوام فأيقولون يا محمد فأقول يارب أصحابي فيقول إني أنكرت لاندري ما أحدثوا بعدك فأقول بهذا وصفاً ^(١) » فإن تركت حرمة شريعتهم ولو في دقيقة من النفاق فلا بأن أن يحال بينك وبينه بمدلولك عن محبته . وليعظم مع ذلك رجائك أن لا يحول الله تعالى بينك وبينه بعد أن رزقك الإيمان وأخلصك من وطنك لأجل زيارته من غير تجارة ولا حظ في دنيا بل لحض حيله له وشوقك إلى أن تنظر إلى آثاره وإلى حافظ قبره ؛ إذ سمحت نفسك بالسفر بمجرد ذلك لما فاتك وتربته لما أجدرك بأن ينظر الله تعالى إليك بين الرحمة . فإذا بلغت المسجد فاذكر أنها العرصة التي اختارها الله سبحانه لتليه صلى الله عليه وسلم ولأول المسلمين وأفضلهم عصاة . وإن فرائض الله سبحانه أول ما أقيمت في تلك العرصة . وأنها جمعت أفضل خلق الله حياً وميتاً فليعظم أمالك في الله سبحانه أن يرحلك بدخولك إياه فادخله خاشعاً معظماً . وما أجدر هذا المكان بأن يستدعى الخشوع من قلب كل مؤمن كما حكى عن أبي سليمان أنه قال : حج أوبس القرى رضى الله عنه ودخل المدينة فلما وقف على باب المسجد قيل له : هذا قبر النبي صلى الله عليه وسلم ففشى عليه . فلما أفاق قال : أخرجوني فليس يلد لي باد فيه محمد صلى الله عليه وسلم مدفون .

وأما زيارة رسول الله صلى الله عليه وسلم : فينبغي أن تقف بين يديه كما وصفنا وتزوره ميتاً كما تزوره حياً ولا تقرب من قبره إلا كما كنت تقرب من شخصه الكريم لو كان حياً . وكما كنت ترى الحرمه في أن لا تمس شخصه ولا تقبله بل تقف من بعد ما لا بين يديه فكذلك فافعل فإن المس والتقبيل للمشاهد عادة النصارى واليهود . واعلم أنه عالم بحضورك وقيامك وزيارتك وأنه يلمنه سلامك وصلاتك : فقل صورته الكريمة في خيالك موضوعاً في الحد يازماتك وأحضر عظيم رتبته في قلبك فقد روى عنه صلى الله عليه وسلم « أن الله تعالى وكل بقبره ملكاً يلمنه سلام من سلم عليه من أمته ^(٢) » هذا في حق من لم يحضر قبره فكيف بمن فارق الوطن وقطع البوادي شوقاً إلى لقاءه واكتفى بمشاهدة مشهده الكريم إذ فاته مشاهدة عزته الكريمة ؟ وقد قال صلى الله عليه وسلم « من سلم على مرة واحدة صلى الله عليه عشراً ^(٣) » فهذا جزاءه في الصلاة عليه بلسانه فكيف بالحضور لزيارته بيده ؟ ثم أنت منبر الرسول صلى الله عليه وسلم وتروم صعود النبي صلى الله عليه وسلم المنبر ومثل في قلبك طلعت الهيئة كأنها على المنبر

(١) حديث « يرفع إلى أقوام فيقولون يا محمد فأقول يارب أصحابي فيقول إنك لاندري ما أحدثوا بعدك فأقول بهذا وصفاً » منقلى عليه من حديث ابن مسعود وأبى وغيرهما دون قوله « يا محمد يا محمد » (٢) حديث « أن الله وكل بقبره صلى الله عليه وسلم ملكاً يلمنه سلام من سلم عليه من أمته » أخرجه الترمذي وابن حبان والحاكم من حديث ابن مسعود بنقله « أن الله ملائكة يسبحون في الأرض يملئونني عن أمي السلام »

(٣) حديث « من أصل على واحدة صلى الله عليه عشراً » أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة وعبد الله بن عمرو

وقد أحقق به المهاجرون والأنصار رضى الله عنهم وهو صلى الله عليه وسلم يحثهم على طاعة الله عز وجل بخطبته
وسل الله عز وجل أن لا يفترق في القيامة بينك وبينه فهذه وظيفة القلب في أعمال الحج . فإذا فرغ منها كلها فينبغي
أن يلزم قلبه الحزن والحلم والخوف وأنه ليس يدرى أقل منه حجة وأثبت في زمرة المحبوبين أم رد حجه وألحق
بالمطرودين ؟ وليتصرف ذلك من قلبه وأعماله فإن صادف قلبه قد ازداد تهافيا عن دار الغرور وانصرانا إلى
دار الأانس بالله تعالى ووجد أعماله قد اتزنت ؛ بزأن الشرع فليثق بالقبول فإن الله تعالى لا يقبل إلا من
أحبه ؛ ومن أحبه تولاه وأظهر عليه آثار محبته وكف عنه سطوة عدوه وإليس لعنة الله . فإذا ظهر ذلك عليه
دل على القبول ، وإن كان الأمر بخلافه فيوشك أن يكون حظه من سفره : العناء والتعب نعوذ بالله سبحانه
وتعالى من ذلك .

ثم كتاب : أسرار الحج . يتلوه إن شاء الله تعالى كتاب . آداب تلاوة القرآن .

كتاب آداب تلاوة القرآن

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى أمّن على عباده بنبيه المرسل صلى الله عليه وسلم وكتابه المنزل (الذى لا يأتيه الباطل من بين
يده ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد) حتى اتسع على أهل الأفكار طريق الاعتبار بما فيه من القصص
والإنذار . واتضح به سلوك المنهج القويم والصراط المستقيم بما فصل فيه من الأحكام . وفتح بين الحلال والحرام
فهو الضياء والنور وبه التوجه من الغرور وفيه شفاء لما فى الصدور . ومن عافاه من الجبارة قصص الله ومن ابتغى
العلم فى غيره أضله الله . هو حبل الله المتين ونوره المبين والعروة الوثقى والمعتصم الأوفى وهو المحيط بالقليل
والكثير والصغير والكبير . لا تمتنعى مجانبته ولا تقامى غرابه لا يحيط بفوائده عند أهل العلم بتحديد ولا يخلقه
عند أهل التلاوة كثرة التردد هو الذى أرشد الأولين والآخرين ولما سمع الجن أن يلبثوا أن ولوا إلى قومهم
منذرين (فقالوا إنا سمعنا قرآنا عجبا يهdy إلى الرشd فأمتنا به وإن لشرك يربنا أحدا) فكل من آمن به فقد وفق
ومن قال به فقد صدق ومن تمسك به فقد هدى ومن حمل به فقد فاز وقال تعالى (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له
لحافظون) ومن أسباب حفظه فى القلوب والمصاحف استدامة تلاوته والمواظبة على دراسته مع القيام بأدابه
وشروطه والمحافظة على ما فيه من الأعمال الباطنة والآداب الظاهرة . وذلك لابد من بيانه وتفصيله وتمتصفت
مقاصده فى أربعة أبواب : (الباب الأول) فى فضل القرآن وأمله . (الباب الثانى) فى آداب التلاوة
فى الظاهر . (الباب الثالث) فى الأعمال الباطنة ضد التلاوة . (الباب الرابع) فى فهم القرآن
وتفسيره بالرأى وغيره .

الباب الأول : فى فضل القرآن وأمله وذم للمقصرين فى تلاوته

فضيله القرآن

قال صلى الله عليه وسلم : من قرأ القرآن ثم رأى أن أحدا أوفى أفضل مما أوفى فقد استصغر ما عظمه الله

تعالى (١) « وقال صلى الله عليه وسلم ، ما من شئ أحب إلى الله عند الله تعالى من القرآن لا نبي ولا ملك ولا غيره » (٢) ، وقال صلى الله عليه وسلم « لو كان القرآن في إهاب ما مسته النار » (٣) ، وقال صلى الله عليه وسلم « أفضل عبادة أمتي تلاوة القرآن » (٤) ، وقال صلى الله عليه وسلم أيضاً « إن الله عز وجل قرأ طه و يس قبل أن يخلق الخلق بألف عام فلما سمعت الملائكة القرآن قالت : طوبى لأمة ينزل عليهم هذا وطوبى لهذا وطوبى لخلق يحمل هذا وطوبى لآلئته تنطق بهذا » (٥) ، وقال صلى الله عليه وسلم « خيركم من تعلم القرآن وعلمه » (٦) ، وقال صلى الله عليه وسلم « يقول الله تبارك وتعالى من شغله قراءة القرآن عن دعاي وصااتي أعطيته أفضل ثواب الشاكرين » (٧) ، وقال صلى الله عليه وسلم « ثلاثة يوم القيامة على كتيب من مسك أسود لا يهولهم فزع ولا يأنهم حساب حتى يفرغ ما بين الناس : رجل قرأ القرآن ابتغاء وجه الله عز وجل والآخر أم به قوما وهم به رضوان » (٨) ، وقال صلى الله عليه وسلم « أهل القرآن أهل الله وبخاصته » (٩) ، وقال صلى الله عليه وسلم « إن القلوب تصدأ كما يصدأ الحديد فويل لأهل القرآن وما جلاؤهم » فقال : تلاوة القرآن وذكر الموت » (١٠) ، وقال صلى الله عليه وسلم « لله أشد أذاً إلى قارئ القرآن من صاحب القينة إلى قينته » (١١) ، الآثار : قال أبو أمامة الباهلي : اقرءوا القرآن ولا تفترقوا هذه المصاحف المعلقة فإن الله لا يعذب قلباً هو وعاء للقرآن . وقال ابن مسعود : إذا أردتم العلم فانثروا القرآن فإن فيه علم الأولين والآخرين . وقال أيضاً : اقرءوا القرآن فإنكم تخرجون عليه بكل حرف منه عشر حسنة أما إنى لا أقول : الحرف ألم ولكن الآلف حرف واللام حرف والميم حرف . وقال أيضاً : لا يسأل أحدكم عن نفسه إلا القرآن فإن كان يحب القرآن ويعبده فهو يحب الله سبحانه ورسوله صلى الله عليه وسلم وإن كان يبغض القرآن فهو يبغض الله سبحانه ورسوله صلى الله عليه وسلم . وقال عمرو بن العاص : كل آية في القرآن درجة في الجنة ومصباح في بيوتكم وقال أيضاً : من قرأ القرآن فقد أدركت النبوة بين جنبيه لإلانه لا يوحى إليه . وقال أبو هريرة :

كتاب آداب تلاوة القرآن

الباب الأول في فضل القرآن وأهله

- (١) حديث « من قرأ القرآن ثم رأى أن أحدًا أوق أفضل مما أوق فقد استغنى ما عظم الله » أخرجه الطبراني من حديث عبد الله بن عمرو بن هند ضعيف
- (٢) حديث « ما من شئ أحب إلى الله عند الله من القرآن لا نبي ولا ملك ولا غيره » رواه عبد الملك بن حبيب من رواية سعيد بن سالم مرسلًا والطبراني من حديث ابن مسعود « القرآن شافع مفتح » ولمسلم من حديث أبي أمامة « اقرءوا القرآن فإنه يهيء يوم القيامة شافعاً لصاحبه »
- (٣) حديث « لو كان القرآن في إهاب ما مسته النار » أخرجه الطبراني وابن حبان في الضعفاء من حديث سهل بن سعد وأحمد والدارقطني والطبراني من حديث عتبة بن حاصم وفيه ابن لهيعة ورواه ابن عدى والطبراني والبيهقي في الشعب من حديث عتبة بن مالك بإسناد ضعيف
- (٤) حديث « أفضل عبادة أمتي تلاوة القرآن » أخرجه أبو نعيم في مسائل القرآن من حديث الثمان بن بدير وأبو أسود وأبو داود
- (٥) حديث « إن الله عز وجل قرأ طه و يس قبل أن يخلق الخلق بألف عام . الحديث » أخرجه الدارقطني من حديث أبي هريرة بن مسعود
- (٦) حديث « خيركم من تعلم القرآن وعلمه » أخرجه البخاري من حديث عثمان بن عفان
- (٧) حديث « يقول الله من شغله قراءة القرآن عن دعاي وصااتي أعطيته أفضل ثواب الشاكرين » أخرجه الترمذي من حديث أبي سعيد « من شغله القرآن عن ذكرى أو شئ أعطيته أفضل ما أعطى السائلين » وقال حسن قريب ورواه ابن شاهين بإسناد المصنف
- (٨) حديث « ثلاثة يوم القيامة على كتيب من مسك . الحديث » تقدم في الصلاة
- (٩) حديث « أهل القرآن أهل الله وبخاصته » أخرجه النسائي في الكبرى وابن ماجه والحاكم من حديث أسباط بن محمد
- (١٠) حديث « إن هذه القلوب تصدأ كما يصدأ الحديد قبل ما جلاؤهم قال تلاوة القرآن وذكر الموت » أخرجه البيهقي في الشعب من حديث ابن عمر بن هند ضعيف
- (١١) حديث « لله أشد أذاً إلى قارئ القرآن من صاحب القينة إلى قينته » أخرجه ابن ماجه وابن حبان والحاكم وصححه من حديث فضالة بن عبيد

إن البيت الذي يتلى فيه القرآن اتسع بأهله وكثر خيريه وحضرته الملائكة وخرجت منه الشياطين ، وإن البيت الذي لا يتلى فيه كتاب الله عز وجل : ضاق بأهله وقُلْ خَيْرِهِ وخرجت منه الملائكة وحضرته الشياطين . وقال أحد ابن حنبل : وأبى الله عز وجل في المنام فقلت : يا رب ما أفضل ما تقرب به المتقربون إليك ؟ قال : بكل شيء يا أحد ، قال قلت : يا رب بفهم أو بغير فهم ؟ قال : بفهم وبغير فهم . وقال محمد بن كعب القرظي : إذا سمع الناس القرآن من الله عز وجل يوم القيامة فكأنهم لم يسموه قط . وقال الفضيل بن عياض : ينبغي لحامل القرآن أن لا يكون له إلى أحد حاجة ولا إلى الخلفاء فمن دونهم فينبغي أن تكون حوائج الخلق إليه . وقال أيضا حامل القرآن حامل راية الإسلام فلا ينبغي أن يلهو مع من يلهو ولا يسهو مع من يسهو ولا يلقو مع من يلقو تعظيما لحق القرآن . وقال سفيان الثوري : إذا قرأ الرجل القرآن قبل الملك بين عينيه . وقال عمرو بن ميمون : من نشر مصحفا حين يصل الصبح فقرأ منه مائة آية دفع الله عز وجل له مثل عمل جميع أهل الدنيا . ويروي « أن عابد بن عتبة جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال اقرأ على القرآن فقرأ عليه (إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى) الآية : فقال له أحد فأعاد فقال : والله إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة وإن أسفله لمورق وإن أعلاه لمثمر وما يقول هكذا بشر ^(١) » وقال الحسن والله مادون القرآن من غنى ولا بعمد من فاقة . وقال الفضيل : من قرأ غائمة سورة الحشر حين يصبح ثم مات من يومه غتم له بطابع الشهداء ومن قرأها حين يمسي ثم مات من ليلته غتم له بطابع الشهداء وقال القاسم بن عبد الرحمن : قلت لبعض النساك ما هنا أحد نستأنس به فد يده إلى المصحف ووضعه على حجره وقال : هذا . وقال علي بن أبي طالب رضى الله عنه : ثلاث يردن في الحفظ ويذهبن الباطم : السواك والصيام وقراءة القرآن .

في ذم تلاوة النافلين

قال أنس بن مالك : رب تال القرآن والقرآن يلمنه . وقال ميسرة : الغريب هو القرآن في جوف الفاجر وقال أبو سليمان النيراني : الزبانية أسرع إلى حلة القرآن الذين يعصون الله عز وجل منهم إلى عبدة الأوثان حين عصوا : الله سبحانه بعد القرآن . وقال بعض العلماء : إذا قرأ ابن آدم القرآن ثم خلط ثم عاد فقرأ قيل له : مالك ولستكلى .. وقال ابن الرواح : ندمت على استظهارى القرآن لأنه يلفني أن أصحاب القرآن يسألون عما يسأل عنه الأنبياء يوم القيامة . وقال ابن مسعود ، ينبغي لحامل القرآن أن يعرف بليته إذا الناس يتأمون وبهارة إذا الناس يفرطون وبجرته إذا الناس يفرحون وبكائه إذا الناس يضحكون وبصمته إذا الناس يخوضون وبخشوعه إذا الناس يخشون . وينبغي لحامل القرآن أن يكون مستكينا لينا ولا ينبغي له أن يكون جافيا ولا عاريا ولا صيحيا ولا صغابا ولا حديدا . وقال صلى الله عليه وسلم « أكثر منافع هذه الأمة قراؤها ^(٢) » وقال صلى الله عليه وسلم « اقرأ القرآن ما ناك فإن لم ينك فلست تقرؤه ^(٣) » وقال صلى الله عليه وسلم « ما آمن بالقرآن من استحلب محارمه ^(٤) » وقال بعض السلف :

(١) حديث « أن عابد بن عتبة جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال اقرأ على القرآن فقرأ عليه (إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى) فقال : أعد فأعاد فقال : لن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة وإن أسفله لمورق وإن أعلاه لمثمر وما يقول هذا بغير » ذكره ابن عبد البر في الاستيعاب بغير إسناد ورواه البيهقي في الشعب من حديث ابن عباس بسند جيد إلا أنه قال « الوليد بن النخعي » بدل « خالد بن عتبة » وكذا ذكره ابن إسحق في السيرة بنحوه .
(٢) حديث « أكثر منافع أمي قراؤها » أخرجه أحمد من حديث عتبة بن حاص وعبد الله بن عمرو وفيها ابن لهيعة .
(٣) حديث « اقرأ القرآن ما ناك فإن لم ينك فلست تقرؤه » أخرجه الطبراني من حديث عبد الله بن عمرو بسند ضعيف .
(٤) حديث « ما آمن بالقرآن من استحلب محارمه » أخرجه الترمذي من حديث صهيب وقال ليس لإسناده بالقوى .

إن البديع ليفتتح سورة فتصلى عليه الملائكة حتى يفرغ منها ، وإن العبد ليفتتح سورة فتلقه حتى يفرغ منها ، فقيل له : وكيف ذلك ؟ فقال : إذا أحل حلالا وحرم حراما صلت عليه وإلا لعنته . وقال بعض العلماء : إن العبد ليتلو القرآن فيلتمن نفسه وهو لا يعلم يقول ﴿ إلا الله على الظالمين ﴾ وهو ظلم نفسه ﴿ إلا الله الله على الكاذبين ﴾ وهو منهم . وقال الحسن : إنكم اتخذتم قراءة القرآن مراحل وجعلتم الليل جملا فأتم تركبوه فقطفون به مراحل ، وإن من كان قلبك راؤه رسائل من ربهم فكأنوا يتدبرونها بالليل وينفدونها بالنهار . وقال ابن مسعود أنزل القرآن عليهم ليعملوا به فانغذوا دراسته عملا إن أحدم ليعرأ القرآن من فاتحته إلى خاتمته ما يسقط منه حرفا وقد أسقط العمل به . وفي حديث ابن عمر وحديث جندب رضى الله عنهما : لقد عشنا دهرا طويلا وأحدنا يؤتى الإيمان قبل القرآن فتتزل السورة على عهد صلى الله عليه وسلم فيتعلم حلالها وحرامها وآمرها وزاجرها وما ينهى أن يفعله عندها . ثم لقد رأيت رجلا يؤتى أحدم القرآن قبل الإيمان فيقرأ ما بين فائحه الكتاب إلى خاتمته لا يدري ما أمره ولا زاجره ولا ما ينهى أن يفعله عنده منه ينزهه نور العقل ^(١) وقد ورد في التوراة : يا عبيدي أمانا تستحي مني بأبيك كتاب من بعض إخوانك وأنت في الطريق تمشي فتعدل عن الطريق وتقدم لأجله وتفرقه وتبدله حرفا حرفا حتى لا يفوتك شيء منه ، وهذا كتابي أنزلته إليك انظر كم فصلت لك فيه من القول وكمررت عليك فيه لتأمل طوله وعرضه ثم أنت معرض عنه أفكنت أهون عليك من بعض إخوانك ؟ يا عبيدي يقعد إليك بعض إخوانك فيقبل عليه بكل وجهك وتصنى إلى حديثه بكل قلبك فإن تكلم متكلم أو شغلك شاغل عن حديثه أومات إليه أن كفوها أنا ذا مقبل عليك ومحدث لك وأنت معرض بقلبك عنى أجمعلتني أهون عندك من بعض إخوانك ؟

الباب الثاني : في ظاهر آداب التلاوة وهي عشرة

(الأول) في حال القارئ : وهو أن يكون على وضوء واقفا على هيئة الآداب والسكون إما قائما وإما جالسا مستقبل القبلة مقلدا رأسه غير مرتبع ولا متكى ولا جالس على هيئة التكبر . ويكون جلوسه وحده جكوسه بين يدي أستاذه . وأفضل الأحوال أن يقرأ في الصلاة قائما وأن يكون في المسجد فذلك من أفضل الأعمال . فإن قرأ على غير وضوء وكان مضطجعا في الفراش فله أيضا فضل ولكنه دون ذلك . قال الله تعالى ﴿ الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض ﴾ فأننى على الكل ولكن قدم القيام في الذكر ثم القعود ثم الذكر مضطجعا . قال على رضى الله عنه من قرأ القرآن وهو قائم في الصلاة كان له بكل حرف مائة حسنة ومن قرأه وهو جالس في الصلاة فله بكل حرف خمسون حسنة . ومن قرأه في غير صلاة وهو على وضوء نفس وعشرون حسنة . ومن قرأه على غير وضوء فمئزر حسنات . وما كان من القيام بالليل فهو أفضل لأنه أفرغ للقلب ، قال أبو ذر الغفاري رضى الله عنه : إن كثرة السجود بالنهار وإن طول القيام بالليل أفضل (الثاني) في مقدار القراءة : وللقراء عادات مختلفة في الاستسكار والاختصار فهم من يختم القرآن في اليوم واليلة مرة وبعضهم مرتين وإنتهى بعضهم إلى ثلاث ومنهم من يختم في الشهر مرة وأولى ما يرجع إليه في التقديرات قول رسول الله صلى الله عليه وسلم « من قرأ القرآن في أقل من ثلاث لم ينفقه » ^(٢) وذلك لأن الزيادة عليه تمنحه الترتيل . وقد قالت عائشة

(١) حديث ابن عمر وحديث جندب « لقد عشنا دهرا طويلا وأحدنا يؤتى الإيمان قبل القرآن .. الحديث » قدما في العلم

الباب الثاني في ظاهر آداب التلاوة

(٢) حديث « من قرأ القرآن في أقل من ثلاث لم ينفقه » أخرجه أصحاب السنن من حديث عبد الله بن عمرو وصححه الترمذى

رضى الله تعالى عنها - لما سمعت رجلا يهذر القرآن هذرا - « إن هذا ماقرأ القرآن ولا سكت ، وأمر النبي صلى الله عليه وسلم عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن يحتم القرآن في كل سبع ^(١) وكذلك كان جماعة من الصحابة رضي الله عنهم يحتمون القرآن في كل جمعة كعثمان وزيد بن ثابت وابن مسعود وأبي بن كعب رضي الله عنهم . ففي الحتم أربع درجات : الحتم في يوم وليلة وقد كرمه جماعة والحتم في كل شهر كل يوم جزء من ثلاثين جزءا - وكأنه مبالغة في الاتصاف كما أن الأول مبالغة في الاستكثار - وبينهما درجتان ممتدلتان إحداهما في الأسبوع مرة والثانية في الأسبوع مرتين تقريبا من الثلاث . والأحب أن يحتم ختمه بالليل وختمه بالنهار ، ويجعل ختمه بالنهار يوم الاثنين في ركعتي الفجر أو بعدهما ، ويجعل ختمه بالليل ليلة الجمعة في ركعتي المغرب أو بعدهما ، ليستقبل أول النهار وأول الليل بحتمته . فإن للملكة عليهم السلام نصلي عليه إن كانت ختمته ليلا حتى يصبح وإن كان نهارا حتى يمسي فتشمل بركتها جميع الليل والنهار . والتفصيل في مقدار القراءة أنه إن كان من السالكين طريق العمل فلا ينبغي أن ينقص عن ختمتين في الأسبوع . وإن كان من السالكين بأعمال القلب وضروب الفكر أو من المشتغلين بنشر العلم فلا بأس أن يقتصر في الأسبوع على مرة . وإن كان نافذ الفكر في معاني القرآن فقد يكتفي في الشهر بمرة كثيرة حاجته إلى كثرة التريد والتأمل (الثالث) في وجه القسمة : أما من ختم في الأسبوع مرة فيقسم القرآن سبعة أحزاب فقد حارب الصحابة رضي الله عنهم القرآن أحزابا ^(٢) فروى أن عثمان رضي الله عنه كان يفتح ليلة الجمعة بالبقرة إلى المسائفة ، وليلة السبت بالأعلام إلى هود ، وليلة الأحد بيوسف إلى مريم ، وليلة الاثنين بطل إلى طهم ، موسى وفرعون ، وليلة الثلاثاء بالعنكبوت إلى ص ، وليلة الأربعاء بتزويل إلى الرحمن ، ويحتم ليلة الخميس . وابن مسعود كان يقسمه أقساما لأعلى هذا الترتيب وقيل أحزاب القرآن سبعة فالحزب الأول ثلاث سور والحزب الثاني خمس سور والحزب الثالث سبع سور والرابع تسع سور والخامس إحدى عشرة سورة والسادس ثلاث عشرة سورة والسابع الفصل من ق إلى آخره . فهكذا حازه الصحابة رضي الله عنهم وكانوا يقرءونه كذلك . وفيه خبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهذا قبل أن تعمل الأحكام والأعشار والأجزاء فأسوى هذا يحدث (الرابع) في الكتابة : يستحب تحسين كتابة القرآن وتبينه ولا يأس بالنقط والعلامات بالخرة وغيرها فإنها تزيين وتبين وصد عن الخطأ واللعن لمن يقرؤه . وقد كان الحسن وابن سيرين يسكرون الأحكام والمواشر والأجزاء . وروى عن الشعبي وإبراهيم كراهية النقط بالخرة وأخذ الأجرة على ذلك ، وكانوا يقولون جزؤوا القرآن . والنظن بهؤلاء أنهم كرهوا فتح هذا الباب خوفا من أن يؤدي إلى إحداث زيادات وحسب الباب وتقوفا إلى حراسة القرآن عما يعلق إليه تغييرا . وإذا لم يؤد إلى محذور واستقر أمر الأمة فيه على ما يحصل به مزيد معرفة فلا بأس به . ولا يمنع من ذلك كونه محدثا فك من محدث حسن كما قيل في إقامة الجلائع في التراويح إنها من محدثات عمر رضي الله عنه وأنها بدعة حسنة . إنما البدعة المذمومة ما يصادم السنة القديمة أو يكاد يفضي إلى تغييرها . وبعضهم كان يقول : أقرأ من المصحف في المنقوط ولا أقطعه بنفسى وقال الأوزاعي عن يحيى بن أبي كثير : كان القرآن جزؤا في المصاحف فأول ما أحذوا فيه النقط على الباء والتاء وقالوا

(١) حديث « أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله بن عمرو أن يحتم القرآن في كل أسبوع » متفق عليه من حديثه .

(٢) حديث « غريب القرآن على سبعة أجزاء » أخرجه ابن ماجه من حديث أوس بن حذيفة في حديث فيه « طرا على حزبي من القرآن » قال أوس سألت أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف تحزبون القرآن ؟ قالوا : ثلاث وخمسين وسبع ونسج وإحدى عشرة وثلاث عشرة وحزب الفصل . وفي رواية لمطهرنا فأنا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحزب القرآن ؟ فقالوا : كان يحزبه ثلاثا : فذكره موهوبا وإسناده حسن

لابأس به فإنه نور له . ثم أخذوا بعده نقطاً كبيراً عند منتهى الآي فقالوا : لا بأس به يعرف به رأس الآية . ثم أخذوا بعد ذلك الخواصم والفواخ . قال أبو بكر الهذلي سألت الحسن عن تنقيط المصاحف بالأحمر فقال : وما تنقيطها ؟ قلت : يعرفون الكلمة بالبرقية قال : أما إعراب القرآن فلا بأس به وقال خالد الحذاء : دخلت على ابن سيرين فقرأت به يقرأ في مصحف منقوط وقد كان يكره النقط . وقيل : إن الحجاج هو الذي أحدث ذلك وأحضر القراءة حتى عددا كلمات القرآن وحروفه وسوا أجزائه وقسموه إلى ثلاثين جزءاً وإلى أقسام أخرى . (الخامس) الترتيل : هو المستحب في هيئة القرآن لأننا سنبين أن المقصود من القراءة التذكر والترتيل معين عليه . ولذلك نعتت أم سلمة رضي الله عنها قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم فإذا هي تمت قراءة مفسرة حرفاً حرفاً ^(١) . وقال ابن عباس رضي الله عنه : لأن أقرأ البقرة وآل عمران أرطلها وأتدبرهما أحب إلى من أن أقرأ القرآن هذمة . وقال أيضاً : لأن أقرأ إذا زلزلت والقارة أتدبرهما أحب إلى من أن أقرأ البقرة وآل عمران تهديراً . وسئل مجاهد عن رجلين دخلتا في الصلاة فكان قيامهما واحداً إلا أن أحدهما قرأ البقرة فقط والآخر القرآن كله فقال : هما في الأجر سواء . واعلم أن الترتيل مستحب لا يجزئ التدبر فإن الجمعي الذي لا يفهم معنى القرآن يستحب له في القراءة أيضاً الترتيل والتؤدة لأن ذلك أقرب إلى التوقير والاحترام وأشد تأثيراً في القلب من الهذمة والاستعجال (السادس) البكاء : البكاء مستحب مع القراءة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اتلوا القرآن وابكوا فإن لم تبكوا فأنتم تبكون » ^(٢) . وقال صلى الله عليه وسلم « ليس منا من لم يتغن بالقرآن » ^(٣) . وقال صالح المزني : قرأت القرآن على رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنام فقال يا صالح هذه القراءة فأين البكاء ؟ وقال ابن عباس رضي الله عنهما : إذا قرأتم بحمد سبحان فلا تعطوا بالسجود حتى تبكوا فإن لم تبك عين أحدكم فليبك قلبه وإلماً طريق تكلف البكاء أن يحضر قلبه الحزن فن الحزن ينشأ البكاء قال صلى الله عليه وسلم « إن القرآن نزل بحزن فإذا قرأتموه فتحازنوا » ^(٤) . ووجه إسحاض الحزن أن يتأمل ما فيه من التهديد والوعيد والمواقف والمعهود . ثم يتأمل قصصه في أوامره ونواهيه فيحزن لآلهة التوبيخ . فإن لم يحضره حزن وبكاء كما يحضر أرباب القلوب الصافية فليبك على فقد الحزن والبكاء فإن ذلك أعظم المصاب . (السابع) أن يراعى حق الآيات : فإذا مر بآية بحمد يحمده . وكذلك إذا سمع من غيره بحمد إذا سمع التال . ولا يسجد إلا إذا كان على طهارة . وفي القرآن أربع عشرة بحمد . وفي الحج بحمدتان وليس في ص بحمد وأقله أن يسجد بوضع جبهته على الأرض وأكمله أن يكبر فيسجد ويدعو في سجوده بما يليق بالآية التي قرأها مثل أن يقرأ قوله تعالى ﴿ خروا سجداً وسبحوا بحمد ربهم وهم لا يستكبرون ﴾ فيقول « اللهم اجعلني من الساجدين لوجهك المسبح بحمدك وأعوذ بك أن أكون من المستكبرين عن أمرك أو على أوليائك » وإذا قرأ قوله تعالى ﴿ ويحزنون للألفاظ بيكون يزيدهم خشعاً ﴾ فيقول « اللهم اجعلني من الباكين إليك الخاشعين لك » وكذلك كل بحمد . ويشترط في هذه السجدة شروط الصلاة من ستر العودة واستقبال القبلة وطهارة الثوب والبدن من الحدث والخبث . ومن لم يكن على طهارة ضد السجود فإذا نظهر يسجد . وقد قيل في كمالها أنه يكبر أفعاليده لتحريمه ثم يكبر الهوى للسجود ثم يكبر الارتفاع ثم يسلم . وزاد أئذون

(١) حديث « تمت أم سلمة قراءة النبي صلى الله عليه وسلم فإذا هي تمت قراءة مفسرة حرفاً حرفاً » أخرجه أبو داود والنسائي والترمذي وقال حسن صحيح (٢) حديث « اتلوا القرآن وابكوا فإن لم تبكوا فأنتم تبكون » أخرجه ابن ماجه . من حديث سعد ابن أبي وقاص بإسناد جيد (٣) حديث « ليس منا من لم يتغن بالقرآن » أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة (٤) حديث « إن القرآن نزل بحزن فإذا قرأتموه فتحازنوا » أخرجه أبو يعلى وأبو تيم في الحلية . من حديث ابن عمر بسند ضعيف .

التقدم ولا أمل لهذا إلا القياس على سجود الصلاة وهو بعيد فإنه ورد الأمر في السجود فليقتنع فيه الأمر وتكبرية الحوى أقرب للبداءة ومعاد ذلك ففيه بعد . ثم المأموم ينبغي أن يسجد عند سجود الإمام ولا يسجد لتلاوة نفسه إذا كان مأموماً (الثامن) أن يقول في مبتدأ قراءته : أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم (رب أعوذ بك من هزات الشياطين وأعوذ بك رب أن يحضرون) . ولقروا : قل أعوذ برب الناس وسورة الحمد لله وليل عند فراغه من القراءة : صدق الله تعالى وبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم اللهم انفعنا به وبارك لنا فيه الحمد لله رب العالمين وأستغفر الله الحى القيوم . وفى أثناء القراءة إذا مر بآية تيسر سيجع وكبر ، وإذا مر بآية دعاء واستغفار دعا واستغفر ، وإن مر بمرجئ سأل وإن مر بخوف استعاذ . يفعل ذلك بلسانه أو قلبه فيقول : سبحان الله نعوذ بالله اللهم ارزقنا اللهم ارحمنا . قال حذيفة : صليت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم عليه وعلى آله وسلم فابتدأ سورة البقرة فكان لا يمر بآية رحمة إلا سأل ولا بآية عذاب إلا استعاذ ولا بآية تنزيه إلا سبح ^(١) ، فإذا فرغ قال ما كان يقول صلوات الله وسلامه عند ختم القرآن ، اللهم ارحمى بالقرآن واجعله لى إماماً ونوراً وهدى ورحمة اللهم ذكرنى منه ما نسيت وعلمنى منه ما جهلت وارزقنى تلاوته آناء الليل وأطراف النهار واجعله لى حجة يارب العالمين ^(٢) ، (التاسع) فى الجهر بالقراءة : ولا شك فى أنه لابد أن يجهر به لى حد يسمع نفسه إذ القراءة عبارة عن تقطيع الصوت بالحروف ولا بد من صوت فأقله ما يسمع نفسه فإن لم يسمع نفسه لم تصح صلاته . فأما الجهر بحيث يسمع غيره فهو محبوب على وجه ومكروه على وجه آخر . ويدل على استحباب الإمرار ما روى أنه صلى الله عليه وسلم قال : فضل قراءة السر على قراءة العلانية كفضل صدقة السر على صدقة العلانية ، وفى لفظ آخر : الجاهر بالقرآن كالجاهر بالصدقة والمسر به كالمر به بالصدقة ^(٣) . وفى الخبر المامد يفضل عمل السر على عمل العلانية سبعين ضعفاً ^(٤) ، وكذلك قوله صلى الله عليه وسلم : خير الرزق ما يكتنى وخير الذكر الحفى ^(٥) ، وفى الخبر : لا يجهر بعضهم على بعض فى القراءة بين المغرب والعشاء ^(٦) ، وسمع سعيد بن المسيب ذات ليلة فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم عمر بن عبد العزيز يجهز بالقراءة فى صلاته وكان حسن الصوت فقال لفلانة : اذهب لى هذا المصل فرفه أن يتفضل صوته ، فقال الغلام : لى المسجد ليس لنا وللرحل فيه نصيب ، فرفع سعيد صوته وقال : يا أبا المصلى إن كنت تريد الله عز وجل يصلاتك فأخفض صوتك وإن كنت تريد الناس فإنهم لن ينفوا عنك من الله شيئاً ، فسكت عمر بن عبد العزيز وخفف ركبته فلما سلم أخذ نعليه وانصرف وهو يومئذ أمير المدينة . ويدل على استحباب الجهر ما روى أن النبي صلى الله عليه وسلم سمع جماعة من أصحابه يجهرون فى صلاة الليل فصوب ذلك ^(٧) وقد قال صلى الله

(١) حديث حذيفة : كانت لا يمر بآية عذاب إلا نعوذ ولا بآية رحمة إلا سأل ولا بآية تنزيه إلا سبح ، أخرجه مسلم مع اختلاف لفظ (٢) حديث : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول عند ختم القرآن اللهم ارحمى بالقرآن واجعله لى إماماً وهدى ورحمة اللهم ذكرنى منه ما نسيت وعلمنى منه ما جهلت وارزقنى تلاوته آناء الليل وأطراف النهار واجعله لى حجة يارب العالمين ، رواه أبو منصور المفضل بن الحسين الأرجاني فى فضائل القرآن وأبو بكر بن الشجاع فى الضعائى كلامه من طريق أبى ذر الحارثى من رواية داود بن ليس مضعلاً (٣) حديث : فضل قراءة السر على قراءة العلانية كفضل صدقة السر على صدقة العلانية ، قال وفى لفظ آخر : الجاهر بالقرآن كالجاهر بالصدقة والمسر به كالمر به بالصدقة ، أخرجه أبو داود والنسائى والترمذى وحسنه من حديث عفيف بن عامر بإلفاظه الثانية (٤) حديث : يفضل عمل السر على عمل العلانية سبعين ضعفاً ، أخرجه البيهقى فى الشعب من حديث عائشة (٥) حديث : خير الرزق ما يكتنى وخير الذكر الحفى ، أخرجه أحمد وابن حبان من حديث سعد بن أبى وقاص (٦) حديث : لا يجهز بعضهم على بعض فى القراءة بين المغرب والعشاء ، رواه أبو داود من حديث أبيه عن دون قوله : بين المغرب والعشاء ، والبيهقى فى الشعب من حديث علي بن قيس والعشاء وبهدها ، وفى المارث الأعور وهو ضعيف (٧) حديث : أنه سمع جماعة من الصحابة يجهرون فى صلاة الليل فصوب ذلك ، نقل الصعيصيين من حديث عائشة : أن رجلاً قام من الليل فقرأ فرفع صوته بالقرآن فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : سمع الله ثلاثاً ... الحديث ، ومن حديث أبى موسى قال : =

عليه وسلم : إذا قام أحدكم من الليل يصلي فليجهر بالقراءة فإن الملائكة وعمار الدار يستمعون قراءته ويصلون بصلاته ^(١) ، ومر صلى الله عليه وسلم بثلاثة من أصحابه رضى الله عنهم يخطون الأحوال فرعل أبى بكر رضى الله عنه وهو يخافت نسأله عن ذلك فقال : إن الذى أناجيته هو يسمعى ، ومر على عمر رضى الله عنه وهو يجهر فسأله عن ذلك فقال : أوقظا الوستان وأزجر الشيطان . ومر على بلال وهو يقرأ آيآمن هذه السورة وآيآمن هذه السورة فسأله عن ذلك فقال أخطأ الطيب الطيب . فقال صلى الله عليه وسلم : كلكم قد أحسن وأصاب ^(٢) . فالوجه فى الجمع بين هذه الأحاديث أن الإسراء أبعد عن الرباء والتصنع فهو أفضل فى حق من يخاف ذلك على نفسه فإن لم يخف ولم يكن فى الجهر ما يشوش الوقت على مصل آخر فالجهر أفضل لأن العمل فيه أكثر ، ولأن فائدة أيضاً تتعلق بغيره فالخير للمتعدي أفضل من اللازم ، ولأنه يوقظ قلب القارئ ويجمع همه إلى الفكر فيه ويصرف إليه همه ، ولأنه يطرد النوم ويرفع الصوت ولأنه يزيد فى نشاطه للقراءة ويقال من كسبه ، ولأنه يرجو بجهره تيقظ قائم فيكون هو سبب إحيائه ، ولأنه قد يراه بطال غافل فينشط بسبب نشاطه ويشتاق إلى الخدمة ، فتى حضره شيء من هذه النيات فالجهر أفضل ، وإن اجتمعت هذه النيات تضاعف الأجر وبكرت النيات تركو أعمال الأبرار وتتضاعف أجورهم فإن كان فى العمل الواحد عشر نيات كان فيه عشر أجور . ولهذا نقول قراءة القرآن فى المصاحف أفضل إذ يزيد فى العمل النظر وتأمل المصنف وحله فيزيد الأجر بسببه . وقد قيل الحتمية فى المصنف يسبغ لأن النظر فى المصنف أيضاً عبادة . وخرج عثمان رضى الله عنه مصحفين لكثرة قراءته منهما فكان كثير من الصحابة يقرءون فى المصاحف ويكرهون أن يخرج يرم ولم ينظروا فى المصنف . ودخل بعض فقهاء مصر على الشافعى رضى الله عنه فى السحر وبين يديه مصحف فقال له الشافعى : شغلكم الفكر عن القرآن إلى لاصلى العتمة وأضع المصنف بين يدي فما أطبعت حتى أصبح (العاشر) تحسين القراءة وترتيبها بترديد الصوت من غير تحطيط مغرط بغير النظم فذلك سنة قال صلى الله عليه وسلم : زينوا القرآن بأصواتكم ^(٣) . وقال عليه السلام : ما أذن الله لشئ إلا شئته لذته لحسن الصوت بالقرآن ^(٤) . وقال صلى الله عليه وسلم : ليس ثمان لم يتغن بالقرآن ، فقيل أراد به الاستغناء وقيل أراد به التزيم وترديد الألحان به وهو أقرب عند أهل اللغة . وروى : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان ليلة ينظر عائشة رضى الله عنها فأبطلت عليه فقال صلى الله عليه وسلم : ما حببلك قالت : يا رسول الله كنت أستمع قراءة رجل ما سمعت أحسن صوتاً منه ، فقام صلى الله عليه وسلم حتى أستمع إليه طويلاً ثم رجع فقال صلى الله عليه وسلم : هذا سالم مولى أبى حذيفة الحمد لله الذى جعل فى أمي مثله ^(٥) ، وأستمع صلى الله عليه وسلم أيضاً ذات ليلة إلى عبد الله بن مسعود ومعه أبى بكر وعمر رضى الله عنهم فوقعوا طويلاً ثم قال

« قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لو رأيتموها أسمع قراءة تلك البارحة ... الحديث » ومن حديث أيضاً أنها أعراف أصوات رقة الآخرين بالقرآن حين يدخلون بالليل وأعراف منازلهم من أصواتهم بالقرآن ... الحديث ^(١) . حديث « إذا قام أحدكم من الليل يصلي فليجهر بقراءته فإن الملائكة وعمار الدار يستمعون للقراءة ويصلون بصلاته » . رواه بشوه زيادة فيه أبو بكر البزار ومعه القندى فى المواظف وأبو شجاع من حديث معاذ بن جبل وهو حديث منكر منقطع .

(٢) حديث « مروه صلى الله عليه وسلم بأبى بكر وهو يخافت ويهر وهو يبلال وهو يقرأ من هذه السورة ومن هذه السورة .. الحديث » . حديث « همم فى الصلاة » (٢) حديث « زينوا القرآن بأصواتكم » أخرجه أبو داود والنسائي وابن ماجه وابن حبان والحاكم وصححه عن حديث الرباء بن عازب (٤) حديث « ما أذن الله لشئ إلا شئته لذته لحسن الصوت بالقرآن » . منلق عليه من حديث أبى هريرة يقيظ « ما أذن الله لشئ إلا شئته لذته لحسن الصوت » . زاد مسلم « نبي حسن الصوت » . وفى رواية له « كاذبه لبي يتنقى بالقرآن » .

(٥) حديث « كان ينظر عائشة فأبطلت عليه فقال ما حببلك قالت يا رسول الله كنت أسمع قراءة رجل ما سمعت أحسن صوتاً منه فقام من الله عليه وسلم حتى أستمع إلى طويلاً ثم رجع فقال هذا سالم مولى أبى حذيفة الحمد لله الذى جعل فى أمي مثله » . أخرجه أبو داود من حديث عائشة ورجال لسناده هات .

صلى الله عليه وسلم من أراد أن يقرأ القرآن غضا طربا كما أنزل فليقرأه على قراءة ابن أم عبد^(١) ، وقال صلى الله عليه وسلم لابن مسعود : اقرأ على فقال يا رسول الله اقرأ عليك وعليك أنزل فقال صلى الله عليه وسلم : إني أحب أن أسمع من غيري فكان يقرأ وعينا رسول الله صلى الله عليه وسلم تفيضان^(٢) ، واستمع صلى الله عليه وسلم إلى قراءة أبي موسى فقال : لقد أوتي هذا من مزامير آل داود ، فبلغ ذلك أبا موسى فقال : يا رسول الله ولعلك أنك تسمع خبره لك تحبيرا^(٣) ، ورأى هيثم القارئ رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنام قال : فقال لي أنت الهيثم الذي تزين القرآن بصوتك قلت نعم قال جزاك الله خيرا ، وفي الخبر : كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا اجتمعوا أمروا أحدهم أن يقرأ سورة من القرآن . وقد كان عمر يقول لأبي موسى رضي الله عنهما : ذكرنا ربنا فيقرأ عنده حتى يكاد وقت الصلاة أن يتوسط فيقال يا أمير المؤمنين الصلاة الصلاة فيقول : أولسنا في صلاة ؟ إشارة إلى قوله عز وجل (ولذكر الله أكبر) وقال صلى الله عليه وسلم : من استمع إلى آية من كتاب الله عز وجل كانت له نورا يوم القيامة^(٤) ، وفي الخبر : كتب له عشر حسنات . ومهما عظم أجر الاستماع وكان التالي هو السبب فيه كان شريكا في الأجر إلا أن يكون قصده الرءاء والتضع .

الباب الثالث : في أعمال الباطن في التلاوة وهي عشرة

فهم أصل الكلام . ثم التعظيم . ثم حضور القلب . ثم التدبر . ثم التفهم . ثم التخل عن موانع الفهم . ثم التخصيص . ثم التأثر . ثم الترتي . ثم التبري . (فالأول) فهم عظمة الكلام وعلوه وفضل اقتسبانه وتعالى وألفه بجلته في نزوله عن عرش جلاله إلى درجة إلهام خلقه . فليتظر كيف لطف بجلته في إيصال معاني كلامه الذي هو صفة قديمة قائمة بذاته إلى أفهام خلقه ؟ وكيف تجلت لهم تلك الضعة في طي حروف وأصوات هي صفات البشر إذ يعجز البشر عن الوصول إلى فهم صفات الله عز وجل إلا بوسيلة صفات نفسه . ولولا استتار كنهه جلالة كلامه بكسوة الحروف لما ثبت لسماح الكلام عرش ولا ثرى ولتلاشى ما بينهما من عظمة سلطانه وسبحات نوره . ولولا نبيات الله عز وجل لموسى عليه السلام لما أطاق لسماح كلامه كالم يطق الجبل مبادئ تجليه حيث صار ذكا . ولا يمكن تفهم عظمة الكلام إلا بأمانة على حد فهم الخلق . ولهذا عبر بعض المارفين عن فقال : إن كل حرف من كلام الله عز وجل في اللوح المحفوظ أعظم من جبل قاف وإن الملائكة عليهم السلام أواجتمعت على الحرف الواحد أن يقلوه ما أطافوه حتى يأتي إسرائيل عليه السلام وهو ملك اللوح فيرفعه فيقله ياذن الله عز وجل ورحمته لا يقره وطاقته ولكن الله عز وجل طوق ذلك واستعمله به ، ولقد تألق بعض الحكماء في التعبير عن وجه اللطف في إيصال معاني الكلام مع علو درجته إلى فهم الإنسان وتثبيت مع قصور ركبته وضرب له مثلا بمقصريه ؛ وذلك أنه دعا

(١) حديث « استمع ذات ليلة إلى عبد الله بن مسعود ومعه أبو بكر وعمر فوقفوا طويلا ثم قال من أراد أن يقرأ القرآن غضا كما أنزل فليقرأه على قراءة ابن أم عبد » أخرجه أحمد والنسائي في الكبرى من حديث عمر والترمذي وابن ماجه من حديث ابن مسعود « أن أبا بكر وعمر يصرا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من أحب أن يقرأ القرآن... الحديث » قال الترمذي حسن صحيح (٢) حديث « أنه قال لابن مسعود : اقرأ فقال يا رسول الله اقرأ عليك أنزل فقال إني أحب أن أسمع من غيري... الحديث » متفق عليه من حديث ابن مسعود . (٣) حديث « استمع إلى قراءة أبي موسى فقال لقد أوتي هذا من مزامير آل داود » متفق عليه من حديث أبي موسى . (٤) حديث « من استمع إلى آية من كتاب الله كانت له نورا يوم القيامة » وفي الخبر : كتب له عشر حسنات . أخرجه أحمد من حديث أبي هريرة « من استمع إلى آية من كتاب الله كتب له حنة مضاعفة ومن تلاها كانت له نورا يوم القيامة » وفيه حذف وإعطاء .

بعض الملوك حكيم إلى شريعة الأنبياء عليهم السلام فسأله الملك عن أمور فأجاب بما لا يحتمله فهمه ؛ فقال الملك : أرايت ما تأتي به الأنبياء إذا ادعت أنه ليس بكلام الناس وأنه كلام الله عز وجل فكيف يطق الناس حمله ؟ فقال الحكيم : إننا أينا الناس لما أرادوا أن يفهموا بعض الدواب والطير ما يردون من تقديمها وتأخيرها وإقبالها وإدبارها ورأوا الدواب يقصر تمييزها عن فهم كلامهم الصادر عن أنوار عقولهم مع حسنة وتريته وديع نطقه ، فزاولوا إلى درجة تمييز البهائم وأوصلوا مقاصدهم إلى بوطن البهائم أصوات يضمنونها لآفته بهم من النقر والصفر والأصوات القريبة من أصواتها لكي يطقوا حملها . وكذلك الناس يميزون عن حمل كلام الله عز وجل بكنهه وكالصفاته ، فصاروا بمثابة راجعوا بينهم من الأصوات التي سمعوا بها الحكمة كصوت النقر والصفر الذي سمعت به الدواب من الناس . ولم يمنع ذلك معاني الحكمة المغبوءة في تلك الصفات من أن شرف الكلام أي الأصوات لشرفها وعظم تنظيمها ، فكان الصوت للحكمة جسدا ومسكنا والحكمة للصوت نفسا وروحا . فكذا أن أجساد البشر تكرم وتزكو لمكان الروح فكذلك أصوات الكلام تشرّف للحكمة التي فيها . والكلام على المنزلة رفيع الدرجة قاهر السلطان نافذ الحكم في الحق والباطل . وهو القاطن المدلل والناهد المرتضى بأمر وينهى . ولا طاقة للباطل أن يقوم قدام كلام الحكمة كما لا يستطيع الظل أن يقول قدام شعاع الشمس ولا طاقة للبشر أن ينفذوا غور الحكمة كما لا طاقة لهم أن ينفذوا بأبصارهم ضوء عين الشمس ، ولكنهم ينالون من ضوء عين الشمس ما تحجب به أبصارهم ويستدلون به على حوائجهم فقط . فالكلام كالمالك المحجوب الغائب وجهه النافذ أمره وكالشمس الغزيرة الظاهرة تكون ضهرها وكالنجوم الزهرة التي قد يبتدى بها من لا يقف على سيرها فهو مفتاح الخزانة النفيسة وشراب الحياة الذي من شرب منه لم يمت ودواء الأسقام الذي من سقى منه لم يسقم . فهذا الذي ذكره الحكيم نبذة من تفهيم معنى الكلام والزيادة عليه لتأليف بعم المعاملة فينبغي أن يقتصر عليه . (الثاني) التعظيم للتكلم : فالقارئ عند البداية بتلاوة القرآن ينبغي أن يحضر في قلبه عظمة التكلم ويعلم أن ما يقرؤه ليس من كلام البشر وإن في تلاوة كلام الله عز وجل غاية الخطر فإنه تعالى قال (لا يمس إلا الماهررون) وكأن ظاهر جلد المصحف وورقه محروس عن ظاهر بشرة اللامس إلا إذا كان متطهرا ، فباطن معناه أيضا يحكم عزه وجلاله محجوب عن باطن القلب إلا إذا كان متطهرا عن كل رجس ومستنيرا بنور التعظيم والتوقير . وكذا لا يصلح لمس جلد المصحف كل يد فلا يصلح تلاوة حروفه كل لسان ولا لتيل معانيه كل قلب . ولمثل هذا التعظيم كان عكرمة بن أبي جهل إذا نشر المصحف غشي عليه ويقول : هو كلام ربّي هو كلام ربّي ؟ فتعظيم الكلام تعظيم التكلم ولن تحضر عظمة التكلم ما لم يتفكر في صفاته وجلاله وأفعاله . فإذا حضر بياله العرش والكرسي والسماوات والأرض وما بينهما من الجن والإنس والدواب والانبهار ، وعلم أن الخالق جلّ جلاله عليها والرازق لها واحد ، وأن الشكل في قبضة قدرته مترددون بين فضله ورحمته وبين نعمته وسلطوته إن أنعم بفضله وإن عاقب بعبده ، وأنه الذي يقول هؤلاء إلى الجنة ولا أبالي وهؤلاء إلى النار ولا أبالي وهذا غاية العظمة والتعالي . فبالفكر في أمثال هذا يحضر تعظيم التكلم ثم تعظيم الكلام (الثالث) حضور القلب وترك حديث النفس : قيل في تفسير (يا أيها الذين آمنوا خذوا الكتاب بقوة) أي جدد واجتهاد وأخذوا بالجد أن يكون متجردا له عند قراءته منصرف الهمة إليه عن غيره ، وقيل لبعضهم : إذا قرأت القرآن تحدثت نفسك بشيء ؟ فقال أو شيء أحب إلي من القرآن حتى أحدث به نفسي ؟ وكان بعض السلف إذا قرأ آية لم يكن قلبه فيها أعادها ثانية وهذه الصفة تولد عما قبلها من التعظيم فإن للمعظم الكلام الذي يتلو ويستبشر به ويستأنس ولا ينفل عنه . ففي القرآن ما يستأنس به القلب إن كان التالّي أهلا لفكيف يطالب الانس بالفكر في غير موهو في منزله ومتفرج

والذي يفرج من المتنازع لا يتفكر في غيرها ؟ فقد قيل إن في القرآن ميادين وبساتين ومقاصير وهرالس ودبابيح ورياضا وعانات فالحجيات ميادين القرآن والرامات بساتين القرآن والحامات مقاصيريه والمسبحات هرالس القرآن والحاميات دبابيح القرآن والفصل رياضه والحانات مساوي ذلك فإذا دخل القارئ الميادين وقطف من البساتين ودخل المقاصير وشهد العرائس وليس الدبابيح وتغذى في الرياض وسكن غرف الحانات استغرقه ذلك وشغله حماسه فلم يربز قلبه ولم يتفرق فكره .

(الرابع) التدبر : وهو وراء حضور القلب فإنه لا يتفكر في غير القرآن ولكنه يقتصر على سماع القرآن من نفسه وهو لا يتدبره . والمقصود من القراءة التدبر . ولذلك سن لأن الترتيل فيه الترتيل في الظاهر ليتمكن من التدبر بالباطن . قال علي رضي الله عنه : لا خير في عبادة لا فقه فيها ولا في قراءة لا تدبر فيها . وإذا لم يتمكن من التدبر إلا بتدريج فليردد إلا أن يكون خلف إمام . فإنه لو بقي في تدبر آية وقد اشتغل الإمام بآية أخرى كان هسيئا مثل من يشتغل بالتعجب من كلمة واحدة عن يناجيه عن فهم بقية كلامه . وكذلك إن كان في تسييح الركوع وهو متفكر في آية قرأها إمامه فهذا وسواس . فقد روى عن عاصم بن عبد قيس أنه قال : الوسواس يمتري في الصلاة ، ف قيل : في أمر الدنيا ؟ فقال : لأن تختلف في الاستسحب أحب إلى من ذلك ، ولكن يشتغل قلبي بموقفي بين يدي ربي عز وجل . زأني كيف انصرف ، فقد ذلك وسواسا وهو كذلك فإنه يشغله عن فهم ما هو فيه والشيطان لا يقدر على مثله إلا بأن يشغله بهم دني ولكن يمنعه به عن الأفضل . ولما ذكر ذلك الحسن قال إن كنتم صادقين عنه فما اصطنع الله ذلك عندنا . ويروى : أنه صلى الله عليه وسلم قرأ بسم الله الرحمن الرحيم فرددها عشرين مرة ^(١) ، وإنما ردددها صلى الله عليه وسلم لتدبره في معانيها . وعن أبي ذر قال : قام رسول الله صلى الله عليه وسلم بنا ليلة فقام بآية يردددها وهي (إن تعذبهم فلأنهم عبادك وإن تغفر لهم ^(٢)) الآية ، وقام يمجج الباري ليلة بهذه الآية (أم حسب الذين اجترحوا السيئات) الآية . وقام سميد بن جبيل ليلة يردد هذه الآية (وامتازوا اليوم أيها المجرمون) وقال بعضهم : إنى لأفتتح السورة فيوقفني بعض ما أشهد فيها عن الفراغ منها حتى يطلع الفجر . وكان بعضهم يقول : آية لا أنفهمها ولا يكون قلبي فيها لا أعد لها ثوبا ، وحكي عن أبي سليمان الباري أنه قال : إنى لأتلو الآية فأقيم فيها أربع ليال أو خمس ليال ولولا أني أقطع الفكر فيها ما جاوزتها إلى غيرها . وعن بعض السلف أنه بقى في سورة هود ستة أشهر يكررها ولا يفرغ من التدبر فيها . وقال بعض العارفين : لى في كل جمعة ختمة وفى كل شهر ختمة وفى كل سنة ختمة ولى ختمة منذ ثلاثين سنة ما فرغت منها بمد . وذلك بحسب درجات تدبره وتفتيشه . وكان هذا أيضا يقول : ألقت نفسى مقام الاجراء فأنما أعمل مياومة وجماعة ومشاهدة ومسانة .

(الخامس) التفهم : وهو أن يستوضح من كل آية ما يليق بها إذ القرآن يشتمل على ذكر صفات الله عز وجل . وذكر أفعاله . وذكر أحوال الأنبياء عليهم السلام . وذكر أحوال المكذبين لهم وأنهم كيف أهلكوا ، وذكر أوامره وزواجره ، وذكر الجنة والنار .

أما صفات الله عز وجل فكقوله تعالى (ليس كمثل شيء وهو السميع البصير) وكقوله تعالى (الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر) فليتأمل معاني هذه الأسماء والصفات ليكتشف لها أسرارها فتحتها معان

الباب الثالث : في أعمال الباطن في التلاوة

(١) حديث « أنه قرأ بسم الله الرحمن الرحيم فرددها عشرين مرة » رواه أبو ذر الحارثي في مصنفه من حديث أبي هريرة بسند ضيف .
(٢) حديث أبي ذر « قام رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلا بآية يردددها وهي (إن تعذبهم فلأنهم عبادك) » أخرجه النسائي وابن ماجه بسند صحيح

مدفونة لا تنكشف إلا للورقين : وإليه أشار على رضى الله عنه بقوله ما أسر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئاً كسّمه عن الناس إلا أن يؤتى الله عز وجل عبداً بهما في كتابه فليكن حريصاً على طلب ذلك الفهم ^(١) وقال ابن مسعود رضى الله عنه : من أراد علم الأولين والآخرين فليثور القرآن . وأعظم علوم القرآن تحت أسماء الله عز وجل وصفاته إذ لم يدرك أكثر الخلق منها إلا أمورا لائقة بأفهامهم ولم يعمروا على أغوارها .

وأما أفعاله تعالى فكذلك خلق السموات والأرض وغيرها . فليفهم التالى منها صفات الله عز وجل وجلاله . إذ الفعل يدل على الفاعل فتدل عظمته على عظمته . فينبغى أن يشهد في الفعل الفاعل دون الفعل ، فمن عرف الحق وآه في كل شيء إذ كل شيء فهو منه وإليه وبه وله فهو الكل على التحقيق . ومن لا يراه في كل ما يراه فكأنه ما عرفه . ومن عرفه عرف أن كل شيء ما خلا الله باطل وأن كل شيء هالك إلا وجهه ؛ لأنه سيطر في ثاني الحال ؛ بل هو الآن باطل إن اعتبر ذاته من حيث هو إلا أن يعتبر وجوده من حيث إنه موجود بالله عز وجل وقدرته فيكون له بطريق التبعية ثبات وبطريق الاستقلال بطلان محض . وهذا مبدأ من مبادئ علم المكاشفة ؛ ولهذا ينبغي إذا قرأ التالى قوله عز وجل ﴿ أفرأيت ما تمحرون - أفرأيت ما تمنون - أفرأيت الماء الذى تشربون - أفرأيت النار التى تودون ﴾ فلا يقصر نظره على الماء والنار والحرق والمشي بل يتأمل فى الخلق وهو نقطة متشابهة الأجزاء ثم ينظر فى كيفية انقسامها إلى اللحم والعظام والعروق والعصب وكيفية تشكل أعضائها بالأشكال المختلفة من الرأس واليد والرجل والكبد والقلب وغيرها ثم إلى ما ظهر فيها من الصفات الشريفة من السمع والبصر والعقل وغيرها ثم إلى ما ظهر فيها من الصفات المذمومة من الغضب والشهوة والكبر والجهل والتكذيب والمجادلة كما قال تعالى ﴿ أولم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصم مبين ﴾ فيتأمل هذه المجامب ليرتقى منها إلى حب المجامب وهو الصفة التى منها صدرت هذه الأعايب فلا يزال ينظر إلى العظمة فىرى الصانع .

وأما أحوال الأنبياء عليهم السلام : فإذا سمع منها كيف كذبوا وضربوا وقتل بعضهم . فليفهم منه صفة الاستغناء لله عز وجل عن الرسل والمرسل إليهم وأنه لو أهلك جميعهم لم يؤثر فى ملكه شيئاً . وإذا سمع لصرتهم فى آخر الأمر فليفهم قدرة الله عز وجل وإرادته ثمرة الحق .

وأما أحوال المكذبين ؛ كعاد وعمود وما جرى عليهم فليكن فهمه منه استحضار الخوف من مطامره ونقمة وليكن حذله منه الاعتبار فى نفسه وأنه إن غفل وأسأء الأدب واعتز بما أهل فربما تذكره النقمة وتنفذ فيه العقوبة ؛ وكذلك إذا سمع وصف الجنة والنار وسائر ما فى القرآن فلا يمكن استقصاء ما يفهم منه لأن ذلك لا نهاية له وإنما لكل عيب بقدر رزقه ، فلا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين ﴿ قل لو كان البحر مدداً لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفذ كلمات ربى ولو جشأ مثله لمدا ﴾ ولذلك قال على رضى الله عنه : لو شئت لأوفرت سبعين بعيراً من تفسير فاتحة الكتاب . فالغرض بما ذكرناه التنبه على طريق التفهيم لينفتح بابه فأما الاستقصاء فلا مطمع فيه . ومن لم يكن له فهم ما فى القرآن ولو فى أدنى الدرجات دخل فى قوله تعالى ﴿ ومنهم من يستمع إليك حتى إذا

(١) حديث على ما أسر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئاً كسّمه عن الناس إلا أن يؤتى الله عبداً بهما فى كتابه . أخرجه النسائي من رواية أبي جعفر قال : سألت أبا علياً فقال هل عندكم من رسول الله صلى الله عليه وسلم شيء سوى القرآن ؟ فقال : لا والذى تلقى الحبة وبرأ الفسمة إلا أن يعطى الله عبداً بهما فى كتابه . الحديث . وهو عند البخارى بقطر . هل عندكم من رسول الله صلى الله عليه وسلم ما ليس فى القرآن ؟ وفى رواية : وقتل مرة ما ليس عند الناس . ولأبى داود والنسائي : فقلنا هل عندك رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئاً لم يهوده إلى الناس ؟ قال : لا إلا ما فى كتابنا هذا ... الحديث . ولم يذكر « اللهم فى القرآن »

خروجاً من عندك قالوا للذين أدنوا العلم ماذا قال آنفاً أولئك الذين طبع الله على قلوبهم ^(١) والطابع هي الموانع التي سدد كرمها في موانع الفهم . وقد قيل : لا يكون المرید مربداً حتى يجد في القرآن كل ما يريد ويعرف منه نقصان من المرید ويستغنى بالمولى عن العبد (السادس) التخلل عن موانع الفهم فإن أكثر الناس منعوا عن فهم معاني القرآن لأسباب وحجب أسدله الشيطان على قلوبهم فعميت عليهم عجائب أسرار القرآن قال صلى الله عليه وسلم « لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بني آدم لنظروا إلى الملكوت ^(٢) » ومعاني القرآن من جملة الملكوت وكل ما غاب عن الحراس ولم يدرك إلا بنور البصيرة فهو من الملكوت . وحجب الفهم أربعة ؛ أولها : أن يكون الهم منصرفاً إلى تحقيق الحروف بإخراجها من مخارجها ، وهذا يتولى حفظه شيطان وكل بالقراء ليصرفهم عن فهم معاني كلام الله عن وجل فلا يزال يحملهم على ترديد الحرف بخيل إليهم أنه لم يخرج من مخرجه . فهذا يكون تأمله مقصوراً على مخارج الحروف فأنى يتكشف له المعاني ؟ وأعظم حكمة للشيطان من كان معطياً لمثل هذا التلبس . ثانياً ؛ أن يكون مقلداً للمذهب يحميه بالتقليد وجد عليه وثبت في نفسه التعصب له بمجرد الاتباع للسومع من غير وصول إليه ببصيرة ومشاهدة . فهذا شخص قيده معتقده عن أن يجاوز فلا يمكنه أن يخطر بباله غير معتقده فصار نظره موقوفاً على مسموعه ، فإن بلغ برق على بعد وبدا له معنى من المعاني التي تبين مسموعه حل عليه شيطان التنفيذ حمله وقال كيف يخطر هذا ببالك وهو خلاف معتقد آبائكم ، فيرى أن ذلك غرور من الشيطان فيتقاعد منه ويحترز عن مثله . ولمثل هذا قالت الصوفية : إن العلم حجاب وأرادوا بالعلم العقائد التي استمر عليها أكثر الناس بمجرد التقليد أو بمجرد كلمات جدلية حررها المتصبون للذئاب والقواها إليهم . فأما العلم الحقيقي الذي هو الكشف والمشاهدة بنور البصيرة فكيف يكون حجاباً وهو منتهى المطلب ؟ وهذا التقليد قد يكون باطلاً فيكون مانعاً ما يمكن اعتقده في الاستواء على العرش التمكن والاستقرار فإن خطر له مثلاً في القدوس أنه المقدس عن كل ما يجوز على خلقه لم يمكنه تقليده من أن يستقر ذلك في نفسه . . . ولو استقر في نفسه لانهج إلى كشف ثاب وثالث وتواصل . ولكن يتسارع إلى دفع ذلك عن خاطره لتنافسته تقليده الباطل . وقد يكون حقا ويكون أيضاً مانعاً من الفهم والكشف لأن الحق الذي كلف الحق اعتقاده له مراتب ودرجات وله مبدأ ظاهر وغور باطن وجود الطبع على الظاهر يمنع من الوصول إلى الغور الباطن كما ذكرناه في الفرق بين العلم الظاهر والباطن في كتاب قواعد العقائد . ثالثاً : أن يكون مصراً على ذنب أو متصفاً بكبر أو مبتلى في الجلبة بهوى في الدنيا مطاع فإن ذلك سبب ظلمة القلب وصدفه ، وهو كالخشب على المرأة فيمنع جليلة الحق من أن يتجلى فيه وهو أعظم حجاب للقلب وبه حجب الأكثرون . وكلما كانت الشهوات أشد تراكمات معاني السلام أشد احتجاباً وكلما خف عن القلب أفعال الدنيا قرب تجل المعنى فيه . فالقلب مثل المرأة والشهوات مثل الصدأ ومعاني القرآن مثل الصور التي تترامى في المرأة . والرياضة للقلب لإمالة الشهوات مثل تصفيل الجلاء للمرأة ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « إذا عظمت أمتي الدينار والدرم نزع منها هبة الإسلام وإذا تركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حرّموا بركة الوحي ^(٣) » ، قال الفضيل : يمسى حرماً فهم القرآن . وقد شرط الله عن وجل الإنابة في الفهم والتذكير فقال تعالى (تبصرة وذكرى لكل عبد منيب) وقال عن وجل (وما يتذكر إلا من يلبس) وقال تعالى (إنما يتذكر أولو الألباب) فالذي أثر غرور الدنيا على نعيم الآخرة

(١) حديث « لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بني آدم لنظروا إلى الملكوت » تقدم في الصلاة

(٢) حديث « إذا عظمت أمتي الدينار والدرم نزع منها هبة الإسلام وإذا تركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حرّموا بركة الوحي »
وهو ابن أبي الدنيا في كتاب الأسماء بالمعروف ومثلاً من حديث الفضل بن عياض قال : ذكر عن أبيه أن الله تعالى عليه وسلم

فليس من ذوى الآليات ولذلك لا تتكشف له أسرار الكتاب . وإيهما: أن يكون قد قرأ تفسيراً ظاهراً واعتقد أنه
 لا معنى لكتابات القرآن إلا ما تناوله النقل عن ابن عباس وبجماد وغيرهما . وأن ما وراء ذلك تفسير بالرى وأن من
 فسر القرآن برأيه فقد نبأ مقدّمه من النار فهذا أيضاً من الحبب العظيمة . وسليمن معنى التفسير بالرى في الباب
 الرابع وأن ذلك لا ينافى قول على رضى الله عنه إلا أن يؤق الله عبداً فهما في القرآن . وأنه لو كان المعنى هو الظاهر
 المنقول لما اختلف الناس فيه (السابغ) التخصيص وهو أن يقتدر أنه المقصود بكل خطاب في القرآن فإن سمع
 أمراً أو نهياً فقدر أنه المنهى والمأمور وإن سمع وعداً أو وعيداً فكنى ذلك ، وإن سمع قصص الأولين والأنبياء
 علم أن السمر غير مقصود وإنما المقصود ليعتبر به وليأخذ من تضايعه ما يحتاج إليه فما من قصة في القرآن إلا
 وسياقها لفائدة في حق النبي صلى الله عليه وسلم وأمة . ولذلك قال تعالى ﴿ ما نبئت به فؤادك ﴾ فليقتدر العبد أن
 الله ثبت فؤاده بما يقصه عليه من أحوال الأنبياء وصبرهم على الإيذاء وثباتهم في الدين لا ينتظار نصر الله تعالى .
 وكيف لا يقتدر هذا والقرآن ما أنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم لرسول الله خاصة بل هو شفاه وهدى
 ورحمة ونور للعالمين ؟ ولذلك أمر الله تعالى الكافة بشكر نعمة الكتاب فقال تعالى ﴿ واذكروا نعمة الله عليكم
 وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكم به ﴾ وقال عز وجل ﴿ لقد أنزلنا إليكم كتاباً فيه ذكركم أفلا تستقون
 وأنزلنا إليكم الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم . كذلك يضرب الله للناس أمثالهم . وأنبأوا أحسن ما أنزل إليكم من
 ربكم . هذا بصائر للناس وهدى ورحمة لقوم يوقنون . هذا بيان للناس وهدى وموعظة للتدبّر وإذا قصد بالخطاب
 جميع الناس فقد قصد الأحاد فهذا القارئ الواحد مقصود فإله وليسأت الناس فليقتدر أنه المقصود قال الله تعالى (وأوحى
 إلى هذا القرآن لأذكركم به ومن بلغ) قال محمد بن كعب القرظى : من بلغه القرآن فكأنما كله الله . وإذا قدر
 ذلك لم يتخذ دراسة القرآن عمله بل يقرؤه كما يقرأ العبد كتاب مولاه الذى كتبه إليه ليأمله ويعمل بمقتضاه . ولذلك
 قال بعض العلماء : هذا القرآن رسائل أتتنا من قبل ربنا عز وجل بهجوده تدبرها في الصلوات وتقف عليها
 في الخلوات وتنفذها في الطاعات والسنن المتبنيات . وكان مالك بن دينار يقول : مازرع القرآن في قلوبكم يا أهل
 القرآن إن القرآن ربيع المؤمن كما أن الغيث ربيع الأرض . وقال قتادة : لم يجالس أحد هذا القرآن إلا قام
 بزيادة أو نقصان قال تعالى ﴿ هو شفاه ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خساراً ﴾ (الثامن) التأثر وهو أن
 يتأثر قلبه بآثار مختلفة بحسب اختلاف الآيات فيكون له بحسب كل فهم حال ووجد يتصف به قلبه من
 الحزن والخوف والرجاء وغيره . ومهما تمت معرفته كانت الحسية أغلب الأحوال على قلبه فإن التضييق
 غالب على آيات القرآن فلا يرى ذكر المنفرة والرحمة إلا مقروناً بشروط يقصر المعارف عن نيلها كقوله
 عز وجل (ولأن لغفار) ثم أتبع ذلك بأربعة شروط (لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى) وقوله تعالى
 (والعصر إن الإنسان لفي خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر) ذكر أربعة
 شروط وحيث اقتصر ذكر شروطاً جامعاً فقال تعالى (إن رحمة الله قريب من المحسنين) فالإحسان يجمع الكل ويمكننا
 من يتصفح القرآن من أوله إلى آخره . ومن فهم ذلك لجدير بأن يكون حاله الحسية والحزن . ولذلك قال الحسن:
 والله ما أصبح اليوم عبد يتلو القرآن يؤمن به إلا أكثر حزنه وقل فرحه وكثر بكائه وقل ضحكته وكثر نصبه وشغله
 وقلت راحته وبطالته . وقال وهيب بن الورد فظننا في هذه الأحاديث والمواظع فلم نجد شيئاً أرق للقلب ولا أشد
 استجلاباً للحزن من قراءة القرآن وتفهمه وتدبره . فتأثر العبد بالتلاوة أن يصير بصفة الآية المتلوة فندد الوعيد
 وتقيد المغفرة بالشروط يتشامل من خيفته كأنه يكاد يموت . وعند التوسع ووعد المغفرة يستهش كأنه يظهر من

الفرح . وعند ذكر الله وصفاته وأسمائه بتعاطفاً خضوعاً لجلاله واستشعاراً لعظمته . وعند ذكر الكفار ما يستحيل على الله عز وجل كذا كرم الله عز وجل ولما وصاحبه بفض صوته ويكسر في باطنه حياء قبيح مقاتلتهم . وعند وصف الجنة ينبعث بباطنه شوقاً إليها . وعند وصف النار ترد فرائضه خوفاً منها ، ولما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لابن مسعود « اقرأ على »^(١) قال : فافتتحت سورة النساء فلما بلغت (فكيف إذا جثا من كل أمة بشهيد وجثا بك على هؤلاء شهيد) رأيت عليه تنرفان بالدمع فقال لى : حبك الآن ، وهذا لأن مشاهدة تلك الحالة استغرقت قلبه بالكلية . ولقد كان في الخائفين من خزع مشيئاً عليه عند آيات الوعيد . ومنهم من مات في سماع الآيات . فمثل هذه الأحوال يخرجها عن أن يكون حاكياً في كلامه . فإذا قال (إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم) ولم يكن عاصفاً كان حاكياً . وإذا قال (عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير) ولم يكن حاله التوكل والإجابة كان حاكياً . وإذا قال (ولنصبرن على ما أؤتمونا) فليكن حاله الصبر أو العزيمة عليه حتى يجمد حلوة التلاوة . فإن لم يكن بهذه الصفات ولم يردد قلبه بين هذه الحالات كان حظه من التلاوة حركة اللسان مع صريح اللحن على نفسه في قوله تعالى (ألا لعنة الله على الظالمين) وفي قوله تعالى (كبر مقتاً عند الله أن تقولوا مالا تفعلون) وفي قوله عز وجل (وهم في غفلة معرضون) وفي قوله (فأعرض عن نولي عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا) وفي قوله تعالى (ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون) إلى غير ذلك من الآيات وكان داخلها في معنى قوله عز وجل (ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أماني) يعني التلاوة المجردة وقوله عز وجل (وكأين من آية في السموات والأرض يزبون عليها وهم عنها معرضون) لأن التفسير هو المبين لتلك الآيات في السموات والأرض ، وهما تجاوزهما ولم يتأثر بها كان معرضاً عنها . ولذلك قيل : إن من لم يكن متصفاً بأخلاق القرآن فإذا قرأ القرآن ناداه الله تعالى : مالك ولكلامى وأنت معرض عنى دع عنك كلامى إن لم تتب إلى . ومثال العاصي إذا قرأ القرآن وكرره مثال من يكرر كتاب الملك في كل يوم مرات وقد كتب إليه في عماره ملكه وهو مشغول بتخريباً ومقتصر على دراسة كتابه ؛ فلم له لترك الدراسة عند المخالفة لكان أبعد عن الاستزاء واستحقاق المقت .

ولذلك قال يوسف بن أسباط : إني لأهم بقراءة القرآن فإذا ذكرت ما فيه خشيت المقت فاعدل إلى التيسيع والاستغفار . والمعرض عن العمل به أريد بقوله عز وجل (فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمناً قليلاً فبئس ما يشترون) ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اقرءوا القرآن ما اختلفت عليه قلوبكم ولأن له جلودكم فإذا اختلفتم فليست قلوبكم تقرأوه » وفي بعضها « فإذا اختلفتم فقوموا عنه »^(٢) ، قال الله تعالى (الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون) وقال صلى الله عليه وسلم « إن أحسن الناس صوتاً بالقرآن الذى إذا سمعته يقرأ رأيت أنه يخشى الله تعالى »^(٣) ، وقال صلى الله عليه وسلم « لا يسمع القرآن من أحد شئ من شئ من يقرأه »^(٤) ، يراد لاستجلاب هذه الأحوال إلى القلب والعمل به ؛ وإلا فالقوة في تحريك اللسان بحروفه خفيفة . ولذلك قال بعض القراء : قرأت القرآن على شيخ لى ثم رجعت لأقرأ ثانياً فأنهتني وقال جعلت القرآن على عملا أذهب فأقرأ على الله عز وجل . فانظر بماذا يأمرك وبماذا ينهك . وبهذا كان شغل

(١) حديث « أنه قال لابن مسعود اقرأ على . الحديث « تقدم في الباب قبله (٢) حديث « اقرءوا القرآن ما اختلفت عليه قلوبكم ولأن له جلودكم فإذا اختلفتم فليست قلوبكم تقرأوه » وفي بعضها « فإذا اختلفتم فقوموا عنه » متفق عليه من حديث جندب ابن عبد الله البجلي في اللفظ الثاني دون قوله « ولأن جلودكم » (٣) حديث « أن أحسن الناس صوتاً بالقرآن الذى إذا سمعته يقرأ رأيت أنه يخشى الله تعالى » أخرجه ابن ماجه بسند ضعيف (٤) حديث « لا يسمع القرآن من أحد أشهى ممن يخشى الله تعالى » رواه أبو عبد الله الحاكم فيما ذكره أبو القاسم الطائفي في كتاب فضائل القرآن

الصحابة رضی الله عنهم في الأحوال والأعمال . فأت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن عشرين ألفاً من الصحابة لم يحفظ القرآن منهم إلا ستة اختلف في اثنين منهم . وكان أكثرهم يحفظ السورة والسورين . وكان الذي يحفظ البقرة والأناعام من علمائهم ^(١) ولما جاء واحد ليتعلم القرآن فأتته إلى قوله عز وجل (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره) ^(٢) قال : يكنى هذا وانصرف . فقال صلى الله عليه وسلم : انصرف الرجل وهو فقيه . وإنما العزير مثل تلك الحالة التي من الله عز وجل بها على قلب المؤمن عقيب فهم الآية . فاما مجرد حركة اللسان فقليل الجدوى . بل التالى باللسان المعرض عن العمل جدير بأن يكون هو المراد بقوله تعالى (ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكاً ونحشره يوم القيامة أعمى) ويقول عز وجل (كذلك أتتك آياتنا فلست بها ولعلك تتفكر) أى تركتها ولم تنظر إليها ولم تعب بها فإن المصفر في الأمر يقال إنه لى الأمر وتلاوة القرآن حق تلاوته هو أن يشترك فيه اللسان والعقل والقلب ، لحظ اللسان تصحيح الحروف والترتيل وحظ العقل تفسير المعاني وحظ القلب الانعاط والتأثر بالانجاء والالتفات . فاللسان يرتل والعقل يترجم والقلب يستط . (التاسع) الترقى : وأضئ به أن يترقى إلى أن يسمع الكلام من الله عز وجل لا من نفسه ، فدرجات القراءة ثلاث ، أدهاها : أن يقدر العبد كأنه يقرؤه على الله عز وجل وافقاً بين يديه وهو ناظر إليه ومستمع منه ، فيكون حاله عند هذا التقدير السؤال والتعلق والتضرع والابتهاال . الثانية : أن يهدى بقلبه كأن الله عز وجل يراه ويحاطبه بألفاظه ويناجيه بإنعامه وإحسانه فقامه الحياء والتعظيم والإحشاء والفهم . الثالثة : أن يرى في الكلام المتكلم وفي الكلمات الصفات فلا ينظر إلى نفسه ولإلى قراءته ولا إلى تعلق الإنعام به من حيث إنه منعم عليه بل يكون مقصوداً لهم على المتكلم موقوف الفكر عليه كأنه مستغرق بمشاهدة المتكلم عن غيره . وهذه درجة المتقربين وما إليه درجة أصحاب الجنتين وما خرج عن هذا فهو درجات الغافلين . وعن الدرجة العليا أخبر جعفر بن محمد الصادق رضي الله عنه قال : والله لقد تجلى الله عز وجل لحلقه في كلامه ولكنهم لا يبصرون . وقال أيضاً وقد سأله عن حالة لحقته في الصلاة حتى خر متفصياً عليه فلما سرى عنه قيل له في ذلك فقال : ما زلت أردد الآية على قلبي حتى يمتدحني المتكلم

(١) حديث « مات رسول الله صلى الله عليه وسلم عن عشرين ألفاً من الصحابة لم يحفظ القرآن منهم إلا ستة - اختلف في اثنين منهم - وكان أكثرهم يحفظ السورة والسورين وكان الذي يحفظ البقرة والأناعام من علمائهم » قلت : قوله « مات عن عشرين ألفاً » له أحد أراد باليمين : والآخر رويها عن أبي زرعة الرازي أنه قال : بلغني عن مائة ألف وأربعة عشر ألفاً من الصحابة ممن روى عنه وسبع مائة انتهى . وأما من حفظ القرآن في مهده فلي الصحبة من حديث أبيه قال « سمع البراء بن عبد رسول الله صلى الله عليه وسلم أربعة - كلهم من الأنصار - أبي بن كعب وساذ بن جبل وزيد وأبو زيد » قلت : ومن أبو زيد ؟ قال : أحد حمويين « وزاد بن أبي خبيصة كالمستف من رواية الشيخ مسنداً وأبو الفداء وسعيد بن عبيد بن الصبيحين . من حديث عبد الله بن عمرو » استقرئوا القرآن من أربعة من عبد الله بن مسعود وسالم بن عبد الله بن حذيفة وساذ بن جبل وأبي بن كعب » وروى ابن الأثير بسنده إلى عمر قال « كان الفضل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في سنن هذه الأمة من يحفظ من القرآن السورة ونحوها ... الحديث » وسنده ضيف وقدمت من حديث أبي هريرة قال « سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ بمائة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في سنن هذه الأمة من يحفظ من القرآن السورة ونحوها ... الحديث » قلت : أذهب فأت أميرهم ... الحديث » (٢) حديث « الرجل الذي جاء ليتعلم فأتته إلى قوله تعالى (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره) فقال يكفى هذا وانصرف » فقال النبي صلى الله عليه وسلم : انصرف الرجل وهو فقيه « أخرجه أبو داود والنسائي في الكبرى وابن جبان والحاكم وصححه من حديث عبد الله بن عمرو قال « أتني رجل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لفرني بإرسول الله ... الحديث » وفيه « فأقرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم لهما زلزلت حتى فرغ منهما فقال الرجل : والذي بئشك بالحق لأزيد عليهما أيها ... ثم أدبر الرجل فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ألق الرجل ألق الرجل ولاحد والنسائي في الكبرى من حديث صمصمة بن الرزوق أنه صاحب النصة قال « حسي لأبأن أن لأسمع فيها » .

بها فلم يثبت جسمي لمأينة قدرته ، ففي مثل هذه الدرجة تعظم الخلاوة ولذته النجاة . ولذلك قال بعض الحكماء :
 كنت أقرأ القرآن فلا أجد له حلالة حتى يلوهم كآني أسمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم يتلوهم على أصحابه ، ثم رفعت
 إلى مقام فوقه كنت ألوهم كآني أسمعه من جبريل عليه السلام يلقيه على رسول الله عليه وسلم ، ثم جاء الله بمنزلة
 أخرى فأنا الآن أسمعه من المتكلم له لذة ونعما لا أصبر عنه . وقال عثمان وحذيفة رضى الله عنهما :
 لو طهرت القلوب لم تنسج من قراءة القرآن ، وإنما قالوا ذلك لأنها بالطهارة تترقى إلى مشاهدة المتكلم في الكلام .
 ولذلك قال ثابت البناني : كابدت القرآن عشرين سنة وتعمت به عشرين سنة . وبمشاهدة المتكلم دون ماسواه يكون
 العبد ممثلا لقوله عز وجل ﴿ فغفروا إلى الله ﴾ ولقوله ﴿ ولا تجعلوا مع الله إلها آخر ﴾ فمن لم يره في كل شيء
 فقد رأى غيره وكل ما انتفت إليه العبد سوى الله تعالى تضمن انتفائه شيئا من الشرك الخفي ، بل التوحيد الخالص أن
 لا يرى في كل شيء إلا الله عز وجل . (العاشر) التبرى : وأعني به أن يتبرا من حوله وقوته والالتفات إلى نفسه
 بين الرضا والتزكية . فإذا تلا آيات الوعد والمدح للصالحين فلا يشهد نفسه عند ذلك بل يشهد المؤمنين
 والصديقين فيها ويشوف إلى أن يلحقه الله عز وجل بهم ، وإذا تلا آيات المقت وذم المعصاة والمقصرين
 شهد على نفسه هناك وقدراته المخاطب خوفا وإشفاقا . ولذلك كان ابن عمر رضى الله عنهما يقول : اللهم إني أستغفرك
 لظلي وكفري ، فقيل له : هذا الظلم فأبال الكفر ؟ فتلا قوله عز وجل (إن الإنسان لظالم كفران) وقيل ليوسف
 ابن أسباط : إذا قرأت القرآن بما ذاعدهو ، فقال : بماذا أذعر أستغفر الله عز وجل من تقصيري سبعين مرة . فإذا
 رأى نفسه بصورة التقصير في القراءة كان ورقته سبب قربه . فإن من شهد البعد في القرب لطف به في الخوف حتى
 يسوقه الخوف إلى درجة أخرى في القرب وراءها . ومن شهد القرب في البعد عكبه بالأمن الذي يفضيه إلى درجة
 أخرى في البعد أسفل مما هو فيه . ومهما كان مشاهدا نفسه بين الرضا صار محجوبا بنفسه ، فإذا جاوز حداً الالتفات
 إلى نفسه ولم يشاهد إلا الله تعالى في قراءته كشف له سر الملكوت . قال أبو سليمان البارداني رضى الله عنه : وعد ابن
 ثوبان أخاله أن يفتح عنده فأبطأ عليه حتى طلع الفجر فلقبه أخوه من الند فقال له : وعدتني أنك تفتح عندي فأخلفت
 فقال لولا ميمادى مملك ما أخبرتلك الذي جئني عنك ! إني لما صليت العتمة قلت : أوتر قبل أن أجئتك لآتي
 لا آمن ما يحدث من الموت فلما كنت في المنام من الوتر رفعت إلى روضة خضراء فيها أنواع الزهر من الجنة فمازلت
 أنظر إليها حتى أصبحت . وهذه المكاشفات لا تكون إلا بعد التبرى عن النفس وعدم الالتفات إليها وإلى هواها
 ثم تخصص هذه المكاشفات بحسب أحوال المكاشف لحيث يتلو آيات الرجاء وينقلب على حاله الاستبصار تتكشف له
 صورة الجنة فيشاهدها كأنه يراها عيانا وإن غلب عليه الخوف كوشف بالتراسخ يرى أنواع عذابها . وذلك لأن
 كلام الله عز وجل يشتمل على السهل اللطيف والشديد المسوف والمرجو والخوف وذلك بحسب أوصافه ، إذ منها
 الرحمة والطف والانتقام والبش . فبحسب مشاهدة الكلمات والصفات يتقلب في اختلاف الحالات وبحسب
 كل حالة منها يستعد للمكاشفة بأمر يناسب تلك الحالة ويقاربا ، إذ يستحيل أن يكون حالة المستمع واحدا والمسموع
 عتقا إذ فيه كلام راض وكلام غضبان وكلام منتم وكلام منتقم وكلام جبار متكبر لا يبال وكلام خائف
 متعطف لا يجهل .

الباب الرابع : في فهم القرآن وتفسيره بالرأى من غير نقل

لملك قول : علمت الأمر فيما سبق في فهم أسرار القرآن وما ينكشف لأرباب القلوب الوكية من معانيه

فكيف يستحب ذلك وقد قال صلى الله عليه وسلم : من فسر القرآن برأيه فليتبوأ عقده من النار ^(١) ، وعن هذا شنع أهل العلم بظاهر التفسير على أهل التصوف من المفسرين المنسوبين إلى التصوف في تأويل كلمات القرآن على خلاف ما نقل عن ابن عباس وسائر المفسرين وذهبوا إلى أنه كفر ظنّ صح ما قاله أهل التفسير فامنع فهم القرآن سوى حفظ تفسيره ؟ وإن لم يصح ذلك فما معنى قوله صلى الله عليه وسلم : من فسر القرآن برأيه فليتبوأ عقده من النار ؟ فاعلم أن من زعم أن لاصنى للقرآن إلا ما ترجمه ظاهر التفسير فهو مخبر عن حدّ نفسه وهو مصيب في الإخبار عن نفسه ، ولكنه عظمى في الحكم برد الخلق كافة إلى درجته التي هي حده ومحله بل الأخبار والآثار تدل على أن في معاني القرآن متسما لأرباب الفهم ^(٢) قال على رضى الله عنه : إلا أن يؤتى الله جدهما في القرآن ، فإن لم يكن سوى الترجمة النحولة فما ذلك الفهم ؟ وقال صلى الله عليه وسلم : إن للقرآن ظهرا وبطنا وحذا ومطلعا ^(٣) ، وروى أيضا عن ابن مسعود موقوفا عليه وهو من علماء التفسير ، فامنع الظهر والباطن والحد والمطلع ؟ وقال على كرم الله وجهه : لو شئت لأفترقت سبعين نبيا من تفسير فاتحة الكتاب ، فامناه وتفسير ظاهرها في غاية الاتصاف ؟ وقال أبو البرداء : لا يفقه الرجل حتى يحمد القرآن وجوها . وقد قال بعض العلماء : لكل آية ستون ألف فهم وما بقي من فهمها أكثر . وقال آخرون : القرآن يحوى سبعة وسبعين ألف علم ومائتي علم إذ كل كلمة علم . ثم يتضاعف ذلك أربعة أضعاف إذ لكل كلمة ظاهر وباطن وحذو ومطلع . وتردّد رسول الله صلى الله عليه وسلم بسم الله الرحمن الرحيم عشرين مرة ^(٤) ، لا يكون إلا لتبره باطن معانيها وللاقترب منها وتفسيرها ظاهر لا يحتاج منه إلى تكرير . وقال ابن مسعود رضى الله عنه : من أراد علم الأولين والآخرين فليتدبر القرآن . وذلك لا يحصل بمجرد تفسير الظاهر . وبالجملة فالعلوم كلها خادمة في أمثال الله عز وجل وصفاته ، وفي القرآن شرح ذاته وأفعاله وصفاته ، وهذه العلوم لا نهاية لها ، وفي القرآن إشارة إلى مجامعها . والمقامات في التعمق في تفصيلها راجع إلى فهم القرآن . وبجهد ظاهره التفسير لا يدير إلى ذلك ، بل كل ما أشكل فيه على النظار واختلف فيه الخلائق في التفسيرات والمفردات في القرآن إليه رموز ودلالات ، عليه ينصم أهل الفهم بدركها . فكيف يبنى بذلك ترجمة ظاهره وتفسيره ؟ ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : اقروا القرآن واتقوا غرائبه ^(٥) ، وقال صلى الله عليه وسلم في حديث على كرم الله وجهه : والذي يبنى بالحق نبيا ليفترق أمي عن أصل دينها وجماعتها على الفتنين وسبعين فرقة كلها ضالة مضلة يدهون إلى النار فلنأكل ذلك فليكن بكتاب الله عز وجل فإن فيه نأ من كان قبلكم ونأ ما يأتي بعدكم وحكم ما بينكم ، من خالفه من الجبارة فصمه الله عز وجل ومن ابتغى العلم في غيره أضله الله عز وجل وهو حل الله التين ونوره المين وشفاؤه النافع ، عصمة لمن تملكه من ربحه لمن اتبعه لا يوجع فيقزم ولا يزيغ فيستقيم ولا ينقض مجاميعه ولا يتغلب كثرة التردد ^(٦) ،

الباب الرابع : في فهم القرآن وتفسيره بالرأى من غير نقل

- (١) حديث : من فسر القرآن برأيه فليتبوأ عقده من النار . يهدم في الباب الثالث من العلم والآثار الدالة على أن في معاني القرآن متسما لأرباب الفهم . يهدم قول على في الباب . إلا أن يؤتى الله معناه فما في كتابه .
(٢) حديث : إن للقرآن ظهرا وبطنا وحذا ومطلعا . يهدم في قواعد الفائد (٤) حديث : تكرير النبي صلى الله عليه وسلم البسطة عشرين مرة . يهدم في الباب قبله .
(٣) حديث : اقروا القرآن واتقوا غرائبه . أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف وأبو يعلى الموصلي والبيهقي في الشعب من حديث أبي هريرة بنقط « أمروا » وسنده ضعيف (٦) حديث على : والذي يبنى بالحق لثلاثين أمي عن أصل دينها وجماعتها على اثنين وسبعين فرقة كلها ضالة مضلة يدهون إلى النار فلنأكل ذلك فليكن بكتاب الله فإن فيه نأ من كان قبلكم ... الحديث .
بطوله هو عند الترمذي دون ذكر الفرق الأربعة بنقط . ألا أنها مستكون فتنة مضلة فلت ما المخرج منها يرسلوه الله قال كتاب الله فيه نأ من كان قبلكم . ففكره مع اختلاف وقال غريب وإسناده مجهول

الحديث وفى حديث حذيفة • لما أخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم بالاختلاف والفرقة بعده قال : فقلت يا رسول الله فإذا تأمرى أن أدركت ذلك ؟ فقال : تعلم كتاب الله واعمل بما فيه فهو المخرج من ذلك ، قال : فأعدت عليه ذلك ثلاثاً ، فقال صلى الله عليه وسلم ثلاثاً ، تعلم كتاب الله عز وجل واعمل بما فيه ففيه النجاة ^(١) . وقال على كرم الله وجهه : من فهم القرآن فسر به جل العلم ، أشار به إلى أن القرآن يشير إلى جميع العلوم كلها ، وقال ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله تعالى (ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً) يعنى الفهم فى القرآن . وقال عز وجل (ففهمناها سليمان وكلا آتينا حكماً وعلماً) سى ما أتاهما علماً وحكماً وخصص ما انفرد به سليمان بالتفطن له باسم الفهم وجعله مقدماً على الحكيم والعلم . فهذه الأمور تدل على أن فى فهم معانى القرآن مجالاً رحباً ومتسعاً بالغا وأن المنقول من ظاهر التفسير ليس منتهى الإدراك فيه . فأما قوله صلى الله عليه وسلم : • من فسر القرآن برأيه • ونبيه عنه ^(٢) صلى الله عليه وسلم وقول أبى بكر رضى الله عنه أى أرض تفتلى وأى سماء تظلى إذا قلت فى القرآن برأى ؟ إلى غير ذلك مما وزد فى الأخبار والآثار فى النهى عن تفسير القرآن بالرأى ، فلا يخلو إما أن يكون المراد به الاقتصاد على الثقل والمصرع وترك الاستنباط والاستقلال بالفهم . أو المراد به أسراً آخر . وباطل قطعاً أن يكون المراد به أن لا يتكلم أحد فى القرآن إلا بما يسمعه لوجوه (أحدها) أنه يشترط أن يكون ذلك مسموعاً من رسول الله صلى الله عليه وسلم ومسنداً إليه وذلك مما لا يصادف إلا فى بعض القرآن . فأما ما يقوله ابن عباس وابن مسعود من أنفسهم فيفيض أن لا يقبل ويقال هو تفسير بالرأى لأنهم لم يسمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم وكذا غيرهم من الصحابة رضى الله عنهم . (والثانى) أن الصحابة والمفسرين اختلفوا فى تفسير بعض الآيات فقالوا فيها أقاويل مختلفة لا يمكن الجمع بينها ، وسمع جميعها من رسول الله صلى الله عليه وسلم بحال ، ولو كان الواحد مسموعاً لرد الباقى • فثبت على القطع أن كل مفسر قال فى المعنى بما ظهر له باستنباطه ، حتى قالوا فى الحروف التى فى أوائل السور سبعة أقاويل مختلفة لا يمكن الجمع بينها فقول : إن • الر • هى حروف من الرحمن ، وقيل إن الألف الله واللام لطيف والراء رحيم وقيل غير ذلك ، والجمع بين الكل غير ممكن فكيف يكون الكل مسموعاً ؟ (والثالث) أنه صلى الله عليه وسلم • دعا لابن عباس رضى الله عنه وقال : اللهم فقه فى الدين وعلم التأويل ^(٣) • فإن كان التأويل مسموعاً كالتأويل وحفظاً مثله فامعنى تخصيصه بذلك ؟ (والرابع) أنه قال عز وجل (لعلمه الذى يستنبطونه منهم) فأثبت لأهل العلم استنباطاً ، ومعلوم أنه وراء السماع . وجمله ما نقلناه من الآثار فى فهم القرآن يناقض هذا الخيال فيطال أن يشترط السماع فى التأويل ، وجاز لكل واحد أن يستنبط من القرآن بقدر فهمه وحد عقله . وأما النهى فأنه ينزل على أحد وجهين ، أحدهما : أن يكون له فى الشيء رأى وإليه ميل من طبعه وهواه فيتأول القرآن على وفق رأيه وهواه ليحتج على تصحيح غرضه ، ولولم يكن له ذلك للرأى والهوى لكان لا يلوح له من القرآن ذلك المعنى . وهذا تارة يكون مع العلم كالذى يحتاج ببعض آيات القرآن على تصحيح بدعته وهو يعلم أنه ليس المراد بالآية ذلك ولكن يلبس به على خصمه . وتارة يكون مع الجهل ولكن إذا كانت الآية محتملة فيميل فهمه إلى الوجه الذى

(١) حديث حذيفة فى الاختلاف والفرقة بعده • فقلت تأمرنى أن أدركت ذلك ؟ قال : تعلم كتاب الله واعمل بما فيه ... الحديث • أخرجه أبو داود والنسائى فى الكبرى ونبيه • تعلم كتاب الله واتبع ما فيه • ثلاث مرات •
 (٢) حديث • النهى عن تفسير القرآن بالرأى • غريب . (٣) حديث • دعا لابن عباس • اللهم فقه فى الدين وعلم التأويل •
 نظم فى الباب الثانى من العلم •

وافق غرضه ويرجع ذلك الجانب برأيه وهواه ، فيكون قد فسر برأيه أى رآيه هو الذى حمله على ذلك التفسير ، ولولا رآيه لما كان يرجع عنده ذلك الوجه . وتارة قد يكون له غرض صحيح فيطلب له دليلا من القرآن ويستدل عليه مما يعلم أنه ما يريد به كمن يدعى إلى الاستغفار بالأحجار فيستدل بقوله صلى الله عليه وسلم تسحر وإن في السحور بركة^(١) ، ويزعم أن المراد به التسحر بالذكر وهو يعلم أن المراد به الأكل ، وكالتى يدعى إلى مجاهدة القلب القاسى فيقول قال الله عز وجل (اذهب إلى فرعون إنه طغى) ويشير إلى قلبه ويرى إلى أنه المراد بفرعون وهذا الجنس قد يستعمله بعض الرعاظ في المقاصد الصحيحة لتحسين الكلام وترغيب المستمع وهو ممنوع . وقد تستعمله الباطنية في المقاصد الفاسدة لتفريب الناس ودعوتهم إلى مذهبهم الباطل فيزولون القرآن على وفق رأيهم ومذهبهم على أمور يعلمون قطعاً أنها غير مرادة به . فهذه الفنون أحد وجهي المنع من التفسير بالرأى .. ويكون المراد بالرأى الرأى الفاسد الموافق للهوى دون الاجتهاد الصحيح والرأى يتناول الصحيح والفاسد والموافق للهوى قد يخصص باسم الرأى . والوجه الثانى أن يتسارع إلى تفسير القرآن بظاهر العربية من غير استظهار بالسماع والمقل فيما يتعلق بمراتب القرآن وما فيه من الألفاظ المهمة والمبدلة وما فيه من الاختصار والحذف والإختار والتقديم والتأخير . فن لم يحكم بظاهر التفسير وبأد إلى استنباط المعانى بمجرد فهم العربية كترغاطه ودخل في زمرة من يفسر بالرأى . فالتقل والسماع لا بد منه في ظاهر التفسير أولاً ليتيق به مواسع الفاظ ثم بعد ذلك يتسع التفهم والاستنباط . والغرائب التى لا تفهم إلا بالسماع كثيرة ، ونحن نرمز إلى جمل منها ليستدل بها على أمثالها ويعلم أنه لا يجوز التهاون بحفظ التفسير الظاهر أولاً . ولا مطلع على الوصول إلى الباطن قبل إحكام الظاهر . ومن ادعى فهم أسرار القرآن ولم يحكم التفسير الظاهر فهو كمن يدعى البلوغ إلى صدر البيت قبل مجاوزة الباب . أو يدعى فهم مقاصد الآثار ككلامهم وهو لا يفهم لغة الترك . فان ظاهر التفسير يجرى مجرى تعليم اللغة التى لا بد منها لفهم . وما لا بد فيه من السماع فنون كثيرة : منها الإيجاز بالحذف والإختار كقوله تعالى (وأتينا نوحاً فأنشأه مبصرة فظنوا بها) معناه آية مبصرة فظنوا أنفسهم يقتلها ، فانظر إلى ظاهر العربية يظن أن المراد به أن الناقة كانت مبصرة ولم تكن عمية ، ولم يدرك أنهم بماذا ظنوا غيرهم أو أنفسهم . وقوله تعالى (وأسرخوا في قلوبهم العجل بكفرهم) أى حب العجل ، لحذف الحب وقوله عز وجل (إذا أذناك ضعف الحياء وضعف المات) أى ضعف عذاب الأحياء وضعف عذاب الموتى لحذف العذاب ، وأبدل الأحياء والموتى بذكر الحياء والموت وكل ذلك جائز في فصيح اللغة . وقوله تعالى (وأسل القرية التى كنا فيها والميراث التى أبقينا فيها) أى أهل الميراث فالأهل فيها محذوف مضمحل . وقوله عز وجل (فقلت في السموات والأرض) معناه خفيت على أهل السموات والأرض والشيء إذا خفى ثقل فأبدل اللفظ به وأقيم (فى) مقام (على) وأختر الأهل وحذف . وقوله تعالى (وتجمعون رزقكم أنكم تكذبون) أى شكر رزقكم وقوله عز وجل (أتأما وعدتنا على رسلك) أى على السنة رسلك فحذف السنة وقوله تعالى (إنا أنزلناه فى ليلة القدر) أراد القرآن وما سبق له ذكر . وقال عز وجل (حتى توارت بالحجاب) أراد الشمس وما سبق لها ذكر . وقوله تعالى (والذين اغتدوا من دونه أولياء ما نذهبهم إلا لتقرّبوا إلى الله زلنى) أى يقولون ما نذهبهم . وقوله عز وجل (قال هؤلاء للقوم لا يكادون يفقهون حديثاً ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك) معناه لا يفقهون حديثاً يقولون ما أصابك من حسنة فمن الله قال من هذا كان منافقاً لقوله (قل كل من عند الله) وسبق إلى التفهم منه مذهب القدريّة . ومنها المنقول الخلف كقوله تعالى (وطور سينين) أى طور

سيناء (سلام على آل ياسين) أى على الياس وقيل لإدريس، لأن فى حرف ابن مسعود (سلام على إدريس) ومنها السكر القاطع لوصول الكلام فى الظاهر كقوله عز وجل (وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء إن يتبعون إلا الظن) وقوله عز وجل (قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن آمن منهم) معناه: الذين استكبروا لمن آمن من الذين استضعفوا ومنها المقدم والمؤخر وهو مظنة الغلط كقوله عز وجل (ولولا كلمة سبقت من ربك لكان لزاما وأجل مسمى) معناه لولا الكلمة وأجل مسمى لكان لزاما ولولا لكان لصبا كاللزام وقوله تعالى (يسألونك كأنك حنى عنها) أى يسألونك عنها كأنك حنى بها وقوله عز وجل (لمم مغفرة ورزق كريم) كما أخرجك ربك من بيتك بالحق فهذا الكلام غير متصل وإنما هو عائد إلى قوله السابق (قل الانفال لله والرسول) كما أخرجك ربك من بيتك بالحق أى فصارت أنفال الغنائم لك إذ أنت راض بمخرجك وهم كارهون فاعترض بين الكلام الأمر بالتقوى وغيره ومن هذا النوع قوله عز وجل (حتى تؤمنوا بالله وحده) لإفلال إبراهيم لأبيه (الآية) ومنها المهم وهو اللفظ المشترك بين معان من كلمة أو حرف. أما الكلمة فكالتشبيه والتقرين والأمة والروح ونظارها قال الله تعالى (حرب الله مثلًا عبداً مملوكاً لا يقدر على شيء) أراد به النفقة مما رزق وقوله عز وجل (وحرب الله مثلًا رجلين أحدهما أبكم لا يقدر على شيء) أى الأمر بالعدل والاستقامة وقوله عز وجل (فان أمتعتي فلا تسألني عن شيء) أراد به من صفات الربوبية، وهو العلوم التي لا يحل السؤال عنها حتى يبتدئ بها المعارف في أرواها لاستحقاق. وقوله عز وجل (أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون) أى من غير خالق فربما يتوهم به أنه يدل على أنه لا يخلق شيء إلا من شيء. وأما القرين فسكوه له عز وجل (وقال قرينه هذا ما لدى عبثاً لنفياً في جهنم كل كفار) أراد به الملك الموكل به وقوله تعالى (قال قرينه ربنا ما أطغيته ولكن كان) أراد به الشيطان. وأما الأمة فتطلق على ثمانية أوجه، الأمة : الجماعة كقوله تعالى (وجد عليه أمة من الناس يسقون) وأتباع الأنبياء كقوله عن أمة محمد صلى الله عليه وسلم ورجل جامع الخير يقتدى به كقوله تعالى (إن إبراهيم كان أمة فانتا لله) والأمة : الدين كقوله عز وجل (إنا وجدنا آباءنا على أمة) والأمة : الحين والزمان كقوله عز وجل (إلى أمة معدودة) وقوله عز وجل (وادكر بعد أمة) والأمة : القامة يقال فلان حسن الأمة أى القامة، وأمة : رجل منفرد بدن لا يشرك فيه أحد قال صلى الله عليه وسلم «يمت زيد بن عمرو بن نفيل أمة وحده» (١) ، والأمة يقال هذه أمة زيد أى أم زيد. والروح أيضاً ورد في القرآن على معان كثيرة فلا تطول يلزادها. وكذلك قد يقع الإبهام في الحروف مثل قوله عز وجل (فأثرون به نقما فوسطن به جمعا) فالأمة الأول : كتابة عن الحوافر وهى المسوريات أى أثرون بالحوافر نقما والثانية : كتابة عن الإغارة وهى المنيرات صبحا فوسطن به جمعا جميع المشركون فأغاروا بهم جميعهم وقوله تعالى (فأثرتنا به الماء) يعنى السحاب (فأخرجنا به من كل الثمرات) يعنى الماء. وأمثال هذا في القرآن لا ينحصر. ومنها التدرج في البيان كقوله عز وجل (شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن) إذ لم يظهر به أنه ليل أو نهار، وبأن بقوله عز وجل (إنا أنزلناه في ليلة مباركة) ولم يظهر به أى ليلة فظهر بقوله تعالى (إنا أنزلناه في ليلة القدر) وربما يظن في الظاهر الاختلاف بين هذه الآيات، فهذا وأمثاله مما لا يفتى فيه إلا النقل والسماع فالقرآن من أوله إلى آخره غير خال عن هذا الجنس لأنه أنزل بلغة العرب فكان مشتملا على أصناف كلامهم من إيجاز وتطويل وإخبار وحذف وإبدال وتقديم وتأخير، ليكون ذلك منفعلا لهم ومعجرا في حقهم. فكل من اكتفى بفهم ظاهر العربية وبادر إلى تفسير القرآن ولم يستظهر بالسماع والنقل في هذه الأمور فهو داخل فيمن فسر القرآن برأيه. مثل أن يفهم من الأمة المنى الأشهر منه فيميل طبعه ورأيه إليه فاذا سمعه في موضع آخر مال برأيه إلى ما سمعه من مشهور

(١) حديث «يمتزيد بن عمرو بن نفيل أمة وحده» أخرجه النسائي في الكبرى من حديث يزيد بن طر بن تواسم، بدعوى بكر بن ساد بن جيه بن

معناه وترك تليق الثقل في كثير معانيه فهذا ما يمكن أن يكون منها عنه دون التفهم لأمرار المعاني - كما سبق - فإذا حصل السماع بأشكال هذه الأمور علم ظاهر التفسير وهو ترجمة الألفاظ . ولا يمكن ذلك في فهم حقائق المعاني . ويدرك الفرق بين حقائق المعاني وظاهر التفسير مثال : وهو أن الله عز وجل قال ﴿ وما ربيت إذ ربيت ولكن الله ربي ﴾ فظاهره تفسير واضح وحقيقة معناه غامض . فإنه إلبات للربى ونفى له . وهما متضادان في الظاهر مالم يفهم أنه ربي من وجه ولم يرم من وجه ومن الوجه الذي لم يرم وماه الله عز وجل . وكذلك قال تعالى ﴿ فاعلمهم يعلمهم الله بأيديكم ﴾ فإذا كانوا المقاملين كيف يكون الله سبحانه هو المعبود ؟ وإن كان الله تعالى هو المعبود بتوحيده أيديهم فما معنى أمرهم بالقتال ؟ حقيقة هذا يستمد من بحر عظيم من علوم المكاشفات لا ينفى عنه ظاهر التفسير وهو أن يعلم وجه ارتباط الأفعال بالقدرة الحادثة . ويفهم وجه ارتباط القدرة بقدرة الله عز وجل حتى ينكشف - بعد إيضاح أمور كثيرة غامضة - صديق قوله عز وجل ﴿ وما ربيت إذ ربيت ولكن الله ربي ﴾ ولعل العمر لو اتفق في استكشاف أسرار هذا المعنى وما يرتبط بمقدماته ولواحقه لانتفى العسر قبل استيفاء جميع لواحقه وما من كلمة من القرآن إلا وتحقيقها عروج إلى مثل ذلك . وإنما ينكشف للراغبين في العلم من أسرارها بقدر غزارة علومهم وصفاء قلوبهم وتوفر دواعيهم على التدبر وتجردهم للطلب . ويكون لكل واحد حد في الترقى إلى درجة أعلى منه . فاما الاستيفاء فلا مطمع فيه ولو كان البحر مداداً والأشجار أقلاماً فألأسرار كلمات الله لانهاية لما فتتفد الأبحر قبل أن تنفذ كلمات الله عز وجل . فمن هذا الوجه تتفاوت الخلق في التفهم بعد الاشتراك في معرفة ظاهر التفسير وظاهر التفسير لا ينفى عنه . ومثاله فهم بعض أرباب القلوب من قوله صلى الله عليه وسلم في عبوده أعوذ برحائك من سخطك وأعوذ بموافائك من عقوبتك وأعوذ بك منك لأحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك (١) ، أنه قبل له إهمد واقترب فوجد القرب في السجود فنظر إلى الصفات فاستماز ببعضها من بعض ؟ فإن الرضا والسخط وصفان ثم زاد قربه فاندرج القرب الأول فيه فرق إلى الذات فقال : أعوذ بك منك ، ثم زاد قربه بما استجاب به من الاستمادة على بساط القرب فالتجأ إلى التثاء فأنشأ بقوله : لأحصى ثناء عليك ، ثم علم أن ذلك قصور فقال : أنت كما أثنيت على نفسك ، فهذه خواطر تفتح لأرباب القلوب . ثم لها أغوار ورام هذا وهو فهم معنى القرب واختصاصه بالسجود ومعنى الاستمادة من صفة بصفة ومنه به . وأسرار ذلك كثيرة : ولا يدل تفسير ظاهر عليه وليس اللفظ هو مناقضا لظاهر التفسير بل هو استكمال له ووصول إلى لبابه عن ظاهره فهذا ما نوردته لفهم المعاني الباطنة لئلا يناقض الظاهر والله أعلم . ثم كتاب : آداب التلاوة . والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على محمد خاتم النبيين وعلى كل عبد مصطنع من كل العالمين وعلى آل محمد وصحبه وسلم . يتلوه إن شاء الله تعالى كتاب : الأذكار والدعوات . والله المستعان لأرباب سواء .

كتاب الأذكار والدعوات

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الشاملة رآفته العامة رحمة الذي جازى عباده عن ذكرهم بذكرهم فقال تعالى ﴿ فاذكروني أذكركم ﴾

(١) حديث : قوله صلى الله عليه وسلم في سجوده أعوذ برحائك من سخطك وأعوذ بموافائك من عقوبتك ... الحديث أخرجه مسلم من حديث طائفة .

ورغبهم في السؤال والدعاء بأمره فقال (ادعوني أستجب لكم) فأطمع المطيع والعاصي والمذاني والقاصي في الانبساط إلى حضرة جلاله برفع الحاجات والأمان بقوله (فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان) والصلاة على محمد وآل بيته وعلى آله وأصحابه خير أصفياه وسلم تسليما كثيرا .

أما بعد : فليس بعد تلاوة كتاب الله عز وجل عبادة تؤدي باللسان أفضل من ذكر الله تعالى ورفع الحاجات بالأدعية الخالصة إلى الله تعالى . فلا بد من شرح فضيلة الذكر على الجملة ثم على التفصيل في أعيان الأذكار . وشرح فضيلة النداء وشروطه وآدابه ونقل المسائير من الدعوات الجامعة لمقاصد الدين والدنيا والدعوات الخاصة لسؤال المغفرة والاستعاذة وغيرها . ويتصور المقصود من ذلك بذكر أبواب خمسة (الباب الأول) في فضيلة الذكر وفائدته جملة وتفصيلا (الباب الثاني) في فضيلة الدعاء وآدابه وفضيلة الاستغفار والصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم . الباب الثالث) في أدعية مأثورة ومعزية إلى أصحابها وأسبابها (الباب الرابع) في أدعية منتخبة عن روضة الإسماعيليين (الباب الخامس) في الأدعية المأثورة عند حدوث الحوادث .

الباب الأول : في فضيلة الذكر وفائدته على الجملة والتفصيل من الآيات

والأخبار والآثار

ويدل على فضيلة الذكر على الجملة من الآيات : قوله سبحانه وتعالى (فاذكروني أذكركم) قال ثابت البناني رحمه الله : إني أعلم من يذكرني ربي عز وجل ، فجزعوا منه وقالوا . كيف تعلم ذلك ؟ فقال : إذا ذكرته ذكرني . وقال تعالى (اذكروا الله ذكرا كثيرا) وقال تعالى (فإذا أفغمت من عرفات فاذكروا الله عند المنعرج الحرام واذكروه كما هداكم) وقال عز وجل (فإذا قضيتُم مناسككم فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشد ذكرا) وقال تعالى (الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم) وقال تعالى (فإذا قضيتُم الصلاة فاذكروا الله قياما وقعودا وعلى جنوبكم) قال ابن عباس رضي الله عنهما : أي بالليل والنهار في البر والبحر والسفر والحضر والغي والفقر والمرض والصحة والسر والعلائية . وقال تعالى في ذم المنافقين (ولا يذكرون الله إلا قليلا) وقال عز وجل (واذكروا ربك في نفسك تضرعا وخيفة ودون الجهر من القول بالقنود والأصا ولا تكن من الغافلين) وقال تعالى (ولذكر الله أكبر) قال ابن عباس رضي الله عنهما : له وجهان أحدهما أن ذكر الله تعالى لكم أعظم من ذكركم إياه ، والآخر : أن ذكر الله أعظم من كل عبادة سواء . إلى غير ذلك من الآيات . وأما الأخبار فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ذاكر الله في الغافلين كالشجرة في وسط الحشيم ^(١) ، وقال صلى الله عليه وسلم ، ذاكر الله في الغافلين كالقاتل بين الفارين ، وقال صلى الله عليه وسلم ، يقول الله عز وجل أنا مع عبدي ما ذكرني وتحركت شفاته ^(٢) ، وقال صلى الله عليه وسلم ، ما عمل ابن آدم من عمل أحب إلى الله من ذكر الله عز وجل ، قالوا يا رسول الله ولا الجهاد في سبيل الله ؟ قال : ولا الجهاد في سبيل الله إلا أن تضرب بيسفلك حتى ينقطع ثم

كتاب الأذكار والدعوات

الباب الأول : في فضيلة الذكر

(١) حديث « ذاكر الله في الغافلين كالشجرة المحضرة في وسط الحشيم » أخرجه أبو يعقوب في الحلية والبيهقي في الشعب من حديث ابن عمر بسند ضعيف وقال « في وسط الفجر » الحديث . (٢) حديث « يقول الله تعالى أنا مع عبدي ما ذكرني وتحركت شفاته » أخرجه البيهقي وابن حبان من حديث أبي هريرة والحاكم من حديث أبي هريرة وقال صحيح الإسناد

تضرب به حتى ينقطع ، ثم تضرب به حتى ينقطع ^(١) فقال صلى الله عليه وسلم : من أحب أن يرتع في رياض الجنة فليكثر ذكر الله عز وجل ^(٢) ، وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أي الأعمال أفضل ؟ فقال : أن تموت ولسانك رطب بذكر الله عز وجل ^(٣) ، وقال صلى الله عليه وسلم : أصبح وأمس ولسانك رطب بذكر الله تصيح وتمسى وليس عليك خطيئة ^(٤) ، وقال صلى الله عليه وسلم ، لذكر الله عز وجل بالثناء والمعنى أفضل من حلم السيوف في سبيل الله ومن إعطاء المال سماً ^(٥) ، وقال صلى الله عليه وسلم : يقول الله تبارك وتعالى إذا ذكرني عبدي في نفسه ذكرته في نفسي وإذا ذكرني في ملا ذكرته في ملا خير من ملته وإذا تقرب مني شهراً تقربت منه ذراعاً وإذا تقرب مني ذراعاً تقربت منه باعاً وإذا مشى إلى هرولت إليه ^(٦) ، يعني بالهرولة سرعة الإجابة . وقال صلى الله عليه وسلم : سبعة يظلهم الله عز وجل في ظله يوم لا ظل إلا ظله - من جهلهم - رجل ذكر الله غالباً ففاضت عيناه من خشية الله ^(٧) وقال أبو البرداء قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم وأرفعها في درجاتكم وخير لكم من إعطاء الرق والذهب وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربون أعناقهم ويضربون أعناقكم قالوا وما ذلك يا رسول الله ؟ قال ذكر الله عز وجل دائماً ^(٨) ، وقال صلى الله عليه وسلم : قال الله عز وجل من شغلته أفضل ما أعطى السالين ^(٩) ، وأما الآثار : فقال الفضيل : بلغنا أن الله عز وجل قال عبدي إذا ذكرني بعد الصبح ساعة وبعد العصر ساعة أكفك ما بينهما . وقال بعض العلماء : إن الله عز وجل يقول أيضاً عبد اطلمت على قلبه فرأيت الغالب عليه التمسك بذكرى تولى سياسة وكنت جليسه ومجاهده وأنيسه . وقال الحسن الذكري أن ذكر الله عز وجل بين نفسك وبين الله عز وجل ما أحسنه وأعظم أجره وأفضل من ذلك ذكر الله سبحانه عند ما حرم الله عز وجل . ويروي : إن كل نفس تخرج من الدنيا عطشى إلا إذا ذكر الله عز وجل ، وقال معاذ بن جبل رضى الله عنه : ليس يتحسر أهل الجنة على شيء إلا على ساعة مرت بهم لم يذكروا الله سبحانه فيها ، والله تعالى أعلم .

- (١) حديث : ما عمل ابن آدم من عمل أغنى له من عذاب الله من ذكر الله قالوا يا رسول الله ولا الجهاد في سبيل الله ؟ قال ولا الجهاد في سبيل الله إلا أن تضرب به سيفك حتى ينقطع ... ثلاث مرات : أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف والطبراني من حديث معاذ بن يساند حسن .
- (٢) حديث : من أحب أن يرتع في رياض الجنة فليكثر ذكر الله تعالى : أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف والطبراني من حديث معاذ بن يساند ضعيف ورواه الطبراني في المعجم من حديث أسد وهو عند الترمذي بلفظ : إذا مهرم رياض الجنة فارموا ، وقد تقدم في الباب الثالث من العلم .
- (٣) حديث : سئل أي الأعمال أفضل ؟ قال أن تموت ولسانك رطب من ذكر الله تعالى . أخرجه ابن حبان والطبراني في المعجم والبيهقي في الشعب من حديث معاذ .
- (٤) حديث : أمس وأصبح ولسانك رطب بذكر الله تصيح وتمسى وليس عليك خطيئة : أخرجه أبو التمام الأصبهاني في التزييف والتهذيب من حديث أسد . من أصبح وأمس ولسانك رطب من ذكر الله يصيح وليس عليه خطيئة : وفيه من لا يعرف .
- (٥) حديث : لذكر الله بالثناء والمعنى أفضل من حلم السيوف في سبيل الله ومن إعطاء المال سماً : رواه من حديث أسد بسند ضعيف في الأصل وهو مسرف من قول ابن عمر كما رواه ابن عبد البر في التمهيد .
- (٦) حديث : قال الله عز وجل إذا ذكرني عبدي في نفسه ذكرته في نفسي ... الحديث : متفق عليه من حديث أبي هريرة .
- (٧) حديث : سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله - من جهلهم - رجل ذكر الله غالباً ففاضت عيناه : متفق عليه من حديث أبي هريرة أيضاً .
- (٨) حديث : ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم وأرفعها في درجاتكم ... الحديث : أخرجه الترمذي والحاكم وابن ماجه وصححه لمساندة من حديث أبي البرداء .
- (٩) حديث : قال الله تعالى من شغلته ذكرى من سألني أعطيت أفضل ما أعطى السالين : أخرجه البخاري في التاريخ والبرز في المسند والبيهقي في الشعب من حديث عمر بن الخطاب وفيه صفوان بن أبي السفا ذكره ابن حبان في الضعفاء وفي الثقات أيضاً .

فضيلة مجالس الذكر

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما جلس قوم مجلساً يذكرون الله عز وجل إلا حفت بهم الملائكة وغشيهم الرحمة وذكرهم الله تعالى فيمن عنده ^(١) » . وقال صلى الله عليه وسلم : « ما من قوم اجتمعوا يذكرون الله تعالى لا يريدون بذلك إلا وجهه إلا ناداهم مناد من السماء قوموا مغفوراً لكم قد بدلت لكم سيئاتكم حسنات ^(٢) » . وقال أيضاً صلى الله عليه وسلم : « ما عند قوم مقدراً لم يذكروا الله سبحانه وتعالى فيه ولم يصلوا على النبي صلى الله عليه وسلم إلا كان عليهم حسرة يوم القيامة ^(٣) » . وقال داود صلى الله عليه وسلم : « إلهي إذا رأيتني أجاوز مجالس الانذارين إلى مجالس الغافلين فأكسر رجلي دونهم فإني أمة تغم بها علي » . وقال صلى الله عليه وسلم : « المجلس الصالح يكفر عن المؤمن ألفي ألف مجلس من مجالس السوء ^(٤) » . وقال أبو هريرة رضي الله عنه إن أهل السماء ليرآون بيوت أهل الأرض التي يذكر فيها اسم الله تعالى كما تراهي النجوم . وقال سفيان بن عيينة رحمه الله إذا اجتمع قوم يذكرون الله تعالى احتل الشيطان والدنيا فيقول الشيطان للدنيا : « ألا ترين ما يصنعون ؟ فتقول الدنيا : دعهم فإنهم إذا تفرقوا أخذت بأعتاقهم إليك » . وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه دخل السوق وقال : أراكم ههنا وميراث رسول الله صلى الله عليه وسلم يقسم في المسجد ؟ فذهب الناس إلى المسجد وتركوا السوق فلم يروا ميراثاً ، فقالوا : يا أبا هريرة ما رأينا ميراثاً يقسم في المسجد ؟ قال : فإذا رأيتم ؟ قالوا : رأينا قوماً يذكرون الله عز وجل ويقرون القرآن ، قال : « فذلك ميراث رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(٥) » . وروى الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة وأبي سعيد الخدري عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إن الله عز وجل ملائكة سياحين في الأرض فضلا عن كتاب الناس فإذا وجدوا قوماً يذكرون الله عز وجل تبادروا هلوا ببيتكم فيجثون فيحشون بهم إلى السماء فيقول الله تبارك وتعالى : أي شيء تركتم عبادي يصنعونه فيقولون تركناهم يحدونك ويمجدونك ويسبحونك فيقول الله تبارك وتعالى وهل رأوني فيقولون لا فيقول جل جلاله كيف لو رأوني فيقولون لو رأوك لكانوا أشد تسبيحاً وتحميداً وتجييداً . فيقول لهم من أي شيء يتعبدون فيقولون من آثار فيقول تعالى وهل رأوها فيقولون لا فيقول الله عز وجل فكيف لو رأوها فيقولون لو رأوها لكانوا أشد هرباً منها وأشد نفوراً . فيقول الله عز وجل وأي شيء يطلبون فيقولون الجنة فيقول تعالى وهل رأوها فيقولون لا فيقول تعالى فكيف لو رأوها فيقولون لو رأوها لكانوا أشد عليها حرصاً . فيقول جل جلاله إني أشهدكم أني قد غفرت لهم فيقولون كان فيهم فلان لم يردهم إنما جاء حاجة فيقول الله عز وجل هم القوم لا يفتق جليهم ^(٦) » .

(١) حديث « ما جلس قوم مجلساً يذكرون الله تعالى إلا حفت بهم الملائكة وغشيهم الرحمة وذكرهم الله فيمن عنده » أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة . (٢) حديث « ما من قوم اجتمعوا يذكرون الله تعالى لا يريدون بذلك إلا وجهه إلا ناداهم مناد من السماء قوموا مغفوراً لكم قد بدلت لكم سيئاتكم حسنات » أخرجه أحمد وأبو يعل والطبراني بسند ضيف من حديث أبي هريرة . (٣) حديث « ما عند قوم مقدراً لم يذكروا الله تعالى فيه ولم يصلوا على النبي صلى الله عليه وسلم إلا كان عليهم حسرة يوم القيامة » أخرجه الترمذي وحسنه من حديث أبي هريرة . (٤) حديث « المجلس الصالح يكفر عن المؤمن ألفي ألف مجلس من مجالس السوء » ذكره صاحب الفردوس من حديث ابن وهب وهو مرسل ولم يخرج له غيره وكذلك لم أجده إسناده . (٥) حديث أبي هريرة « أنه دخل السوق وقال أراكم ههنا وميراث رسول الله صلى الله عليه وسلم يقسم في المسجد فذهب الناس إلى المسجد وتركوا السوق ... الحديث » أخرجه الطبراني في المعجم الصغير بإسناد فيه جهالة أو انقطاع . (٦) حديث الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة وأبي سعيد الخدري عنه صلى الله عليه وسلم « أنه قال إن الله عز وجل ملائكة سياحين في الأرض فضلا عن كتاب الناس ... الحديث » رواه الترمذي من هذا الوجه والحديث في الصحيحين من حديث أبي هريرة وحده وقد هم في الباب الثالث من المطم .

فضيلة التهايل

قال صلى الله عليه وسلم : أفضل ما قلته أنا والنبون من قبل لا إله إلا الله وحده لا شريك له ^(١) ، وقال صلى الله عليه وسلم : من قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير كل يوم مائة مرة كانت له عدل عشر رقاب وكتبت له مائة حسنة ومحبت عنه مائة سيئة وكانت له حرزا من الشيطان يومه ذلك حتى يمسي ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به إلا أحد عمل أكثر من ذلك ^(٢) ، وقال صلى الله عليه وسلم : ما من عبد توحأ فأحسن الوضوء ثم رفع طرفه إلى السماء فقال أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله إلا فتحت له أبواب الجنة يدخل من أيها شاء ^(٣) ، وقال صلى الله عليه وسلم : ليس على أهل لا إله إلا الله وحشة في قبورهم ولا في نشورهم كآني أنظر إليهم عند الصيحة ينفضون رموسهم من التراب ويقولون الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور ^(٤) ، وقال صلى الله عليه وسلم أيضا لأبي هريرة : يا أبا هريرة إن كل حسنة تعلمها توزن يوم القيامة إلا شهادة أن لا إله إلا الله فلا تواضع في ميزان ، لأنها لو وضعت في ميزان من قالها صادقا ووضعت السموات السبع والأرضون السبع وما بينهما كان لا إله إلا الله أرجح من ذلك ^(٥) ، وقال صلى الله عليه وسلم (لو جاء قائل لا إله إلا الله صادقا بقراب الأرض دنوبا لغفر الله له ذلك ^(٦)) وقال صلى الله عليه وسلم (يا أبا هريرة لعن الموتى شهادة أن لا إله إلا الله فإنها تهدم الذنوب هدمًا ، قلت يا رسول الله هذا للزنى فكيف للأحياء قال صلى الله عليه وسلم : هي أهدم وأهدم ^(٧)) وقال صلى الله عليه وسلم (من قال لا إله إلا الله غلبه دخل الجنة ^(٨)) وقال صلى الله عليه وسلم (لتدخلن الجنة كلكم إلا من أبى وشرد عن الله عز وجل شراد البعير عن أهله فقيل يا رسول الله من الذي أبى وشرد عن الله قال من لم يقل لا إله إلا الله ^(٩)) فأكثروا من قول لا إله إلا الله قبل أن

- (١) حديث : أفضل ما قلته أنا والنبون من قبل لا إله إلا الله ... الحديث « تقدم في الباب الثاني من المجلد
(٢) حديث : من قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير مائة مرة ... الحديث «
متفق عليه من حديث أبي هريرة (٣) حديث : ما من عبد توحأ فأحسن الوضوء ثم رفع طرفه إلى السماء فقال أشهد أن لا إله إلا الله ... الحديث « أخرجه من حديث علي بن عامر وقد تقدم في الطائفة .
(٤) حديث : ليس على أهل لا إله إلا الله وحشة في قبورهم ولا في النشور ... الحديث « أخرجه أبو يعلى والطبراني والبيهقي في الشعب من حديث ابن عمر بسند ضعيف (٥) حديث : يا أبا هريرة إن كل حسنة تعلمها توزن يوم القيامة أن الشهادة أن لا إله إلا الله فإنها لا تواضع في ميزان ؟ لأنها لو وضعت في ميزان من قالها صادقا ووضعت السموات السبع والأرضون السبع وما بينهما كان لا إله إلا الله أرجح من ذلك « قلت وسية أبي هريرة هذه موضوعة . وأكثر الحديث رواه المستفترى في الدعوات « ولو جنت لا إله إلا الله « وهو معروف من حديث أبي سعيد مرسلها « لو أن السموات السبع والأرضين السبع في كفة مالت بهن لا إله إلا الله « رواه النسائي في اليوم والليالي وابن حبان والمالك وصححه .
(٦) حديث : لو جاء قائل لا إله إلا الله صادقا بقراب الأرض دنوبا لغفر الله له « هرب بهذا القبط . واقتصر في حديثه لأن الله يقول لا إله إلا الله وحده لا شريك له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير « ولأن الشيخ في التواب من حديث أنس « يارب ماجزاء من هال غلبا من قلبه قال جزاءه أن يكون كرم ولذته آمن القلوب « وفي انقطاع .
(٧) حديث : يا أبا هريرة لعن الموتى شهادة أن لا إله إلا الله فإنها تهدم الذنوب هدمًا ... الحديث « أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من طريق ابن القري من حديث أبي هريرة وفيه موسى ابن وردان يختلف فيه ورواه أبو يعلى من حديث أنس بسند ضعيف ورواه ابن أبي الدنيا في المختصرين من حديث الحسن مرسلًا (٨) حديث : من قال لا إله إلا الله غلبه دخل الجنة « أخرجه الطبراني من حديث زيد بن أرقم بسند ضعيف (٩) حديث : لتدخلن الجنة كلكم إلا من أبى وشرد عن الله عز وجل البعير عن أهله « أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة « كل أبق يتخلون الجنة إلا من أبى « زاد المالك وصحها « وشرد عن الله شرود البعير عن أهله « قال البخاري « قالوا يا رسول الله ومن يأبى قال من أطاعني دخل الجنة ومن عصاني فقد أبى « ولأن عدى وأبى يعلى والطبراني في الدعاء من حديث « استكثروا من قول لا إله إلا الله قبل أن يحال ينسك وينها « وفيه ابن وردان أيضا ، ولأن الشيخ في التواب من حديث الحسن بن عبد النبال مرسلًا « إذا قل لا إله إلا الله وهي كلمة =
(٣٨) — لحياه علوم الدين — (١)

يحال بينكم وبينها فإنها كلمة التوحيد وهي كلمة الإخلاص وهي كلمة التقوى وهي كلمة طيبة وهي دعوة الحق وهي العروة الوثقى وهي ثمن الجنة ، وقال الله عز وجل (هل جزاء الإحسان إلا الإحسان) فقيل الإحسان في الدنيا قول لا إله إلا الله وفي الآخرة الجنة . وكذا قوله تعالى (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة) وروى البراء بن عازب أنه صلى الله عليه وسلم قال ، من قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير - عشر مرات - كانت له عند ربه أو قال نسمة ^(١) ، وروى عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، من قال في يوم مائتي مرة لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير لم يسبقه أحد كان قبله ولا يدره أحد بعده إلا من عمل بأفضل من عمله ^(٢) ، وقال صلى الله عليه وسلم ، من قال في سوق من الأسواق لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير كتب الله له ألف ألف حسنة وعما ألف ألف سيئة وبني له بيتا في الجنة ، وروى ، إن العبد إذا قال لا إله إلا الله أثبت إلى صحيفته فلا تمر على خطيئة إلى محتاج حتى تجد حسنة مثلها فتجلس إلى جنبها ^(٣) ، وفي الصحيح عن أيوب عن أبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ، من قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير عشر مرات كان كمن أعتق أربعة أنفس من ولد إسماعيل صلى الله عليه وسلم ^(٤) ، وفي الصحيح أيضا عن جادة بن الصامت عن أبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ، من تمار من الليل فقال لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ثم قال اللهم اغفر لي غفر له أو دعا استجيب له فإن توبنا وصلى قبلت صلاته ^(٥) .

فضيلة التسليم والتحميد وبقية الأذكار

قال صلى الله عليه وسلم ، من سبح دبر كل صلاة ثلاثا وثلاثين وحده ثلاثا وثلاثين وكبر ثلاثا وثلاثين وختم المائة بلا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير غفرت ذنوبه ولو كانت مثل زبد البحر ^(٦) ، وقافى صلى الله عليه وسلم ، من قال سبحان الله وبحمده في اليوم مائة مرة حطت خطاياها وإن كانت مثل زبد البحر ^(٧) ، وروى ، أن رجلا جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : تولى عن الدنيا وقلت ذات

== التوحيد ... الحديث ، والحسك خفيفا ، ولأبي بكر بن الصديق في المعامل من حديث ابن مسعود في إجابة المؤذن « اللهم رب هذه الدعوة الطيبة المستجاب لها دعوة الحق وكلم الإخلاص ، ولابن عدى من حديث ابن عمر في إجابة المؤذن « دعوة الحق » ، ولطبراني في الدعاء عن عباد بن عمرو « كلمة الإخلاص لا إله إلا الله ... الحديث » ، ولطبراني من حديث سلمة بن الأكوع ، « وأزعمهم كلمة التقوى قال : لا إله إلا الله » ، ولطبراني في الدعاء عن ابن عباس « كلمة طيبة قال شهادة أن لا إله إلا الله » ، وله عنه في قوله « دعوة الحق » قال : شهادة أن لا إله إلا الله » ، وله عنه « فقد استسك بالعمود الوثيق » قال « لا إله إلا الله » ، ولابن عدى والمستفرد من حديث أنس « ثمن الجنة لا إله إلا الله » ولا يصح شيء منها ^(١) حديث البراء « من قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له ... الحديث » أخرجه الحاكم وقال صحيح على شرط الشيخين وهو في مسند أحمد دون قوله « عشر مرات » .
^(٢) حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده « أنه صلى الله عليه وسلم قال من قال في كل يوم مائة مرة لا إله إلا الله وحده لا شريك له ... الحديث » أخرجه أحمد بلفظ « مائة » ، وكذا رواه الحاكم في المستدرک واستاده جيهو هكذا هو في بعض نسخ الإحياء .
^(٣) حديث « إن العبد إذا قال لا إله إلا الله أثبت إلى صحيفته فلا تمر على خطيئة إلا محتاج حتى تجد حسنة مثلها فتجلس إليها » أخرجه أبو بلى من حديث أنس بسند ضعيف ^(٤) حديث أبي أيوب « من قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير عشر مرات كان كمن أعتق أربعة أنفس من ولد إسماعيل » ، معلق عليه ^(٥) حديث جادة بن الصامت « من تمار من الليل فقال لا إله إلا الله ... الحديث » رواه البيهقي ^(٦) حديث « من سبح دبر كل صلاة ثلاثا وثلاثين ... الحديث » أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة ^(٧) حديث « من قال سبحان الله وبحمده مائة مرة حطت خطاياها وإن كانت مثل زبد البحر » معلق عليه من حديث أبي هريرة

يدى فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فإن أمت من صلاة الملائكة وتسبيح الملائق وبها يرزقون ؟ قال : قلت وماذا يارَسُولُ الله ؟ قال : قل سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم أستغفر الله مائة مرة ما بين طلوع الفجر إلى أن تصلى الصبح تأتلك الدنيا راحة صاغرة ويغفر الله عز وجل من كل كفة ملكا يسبح الله تعالى إلى يوم القيامة لك ثوابه ^(١) وقال صلى الله عليه وسلم : إذا قال العبد الحمد ملأت ما بين السماء والأرض فإذا قال الحمد الثانية ملأت ما بين السماء السابعة إلى الأرض السفلى فإذا قال الحمد الثالثة قال الله عز وجل سل تعط ^(٢) وقال رافة الزرقى : كنا يوما نصلى وراء رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما رفع رأسه من الركوع وقال سمع الله لمن حمده قال رجل وراء رسول الله صلى الله عليه وسلم : ربنا لك الحمد جدا كثيرا طيبا مباركا فيه ، فلما انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم عن صلاته قال : من التكم أمنا ؟ قال : أنا يارَسُولُ الله ، فقال صلى الله عليه وسلم : لقد رأيت بضمة وثلاثين ملكا يبتدرونها أيهم يكتبها أولا ^(٣) ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الباقيات الصالحات هن لإله إلا الله وسبحان الله والحمد لله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله ^(٤) ، وقال صلى الله عليه وسلم : ما على الأرض رجل يقول لا إله إلا الله والله أكبر وسبحان الله والحمد لله ولا حول ولا قوة إلا بالله إلا غفرت ذنوبه ولو كانت مثل زبد البحر ^(٥) ، رواه ابن عمر وروى الثمان بن بشير عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : الذين يذكرون من جلال الله وتسبيحه وتكبيره وتحميده ينطفئ حول العرش لمن دوى كدوى النحل يذكرون بصاحبهم أو لا يجب أحدهم أن لا يزال عند الله ما يذكر به ^(٦) ، وروى أبو هريرة أنه صلى الله عليه وسلم قال : لأن أقول سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر أحب إلى مما طلعت عليه الشمس ^(٧) ، وفي رواية أخرى زاد : ولا حول ولا قوة إلا بالله وقال هي خير من الدنيا وما فيها ، وقال صلى الله عليه وسلم : أحب الكلام إلى الله تعالى أربع : سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر لا يضررك بأيهن بدأت ^(٨) ، رواه سمرة بن جندب .

(١) حديث « أن رجلا جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال تولت عن الدنيا وقلت ذات يدى فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فإن أمت عن صلاة الملائكة وتسبيح الملائق وبها يرزقون ... الحديث » أخرجه المستغنى في الدعوات من حديث ابن عمر وال شريك من حديث مالك ولا يعرف له أصلا في حديث مالك ولأحمد من حديث عبادة بن عمرو ، أن نوحا قال لابنه أشرك بالله إلا الله ... الحديث » ثم قال « وسبحان الله وبحمده فأنها صلاة كل شيء وبها يرزق المخلوق وأسأله صحيح » (٢) حديث « إذا قال العبد الحمد ملأت ما بين السماء والأرض وإذا قال الحمد الثانية ملأت ما بين السماء السابعة إلى الأرض وإذا قال الحمد الثالثة قال الله تعالى سل تعطه » غريب بهذا اللفظ لم أجده .

(٣) حديث رافة الزرقى : « كنا يوما نصلى وراء النبي صلى الله عليه وسلم فلما رفع رأسه من الركوع وقال سمع الله لمن حمده قال رجل وراءه ربنا لك الحمد جدا كثيرا طيبا مباركا فيه .. الحديث » رواه البخاري (٤) حديث « الباقيات الصالحات هن لإله إلا الله وسبحان الله والله أكبر والحمد لله ولا حول ولا قوة إلا بالله » أخرجه السنن في اليوم القلبي وابن حبان والحاكم وصححه من حديث أبي سعيد والنسائي والحاكم من حديث أبي هريرة دون قوله « ولا حول ولا قوة إلا بالله » .

(٥) حديث « ما على الأرض رجل يقول لا إله إلا الله والله أكبر وسبحان الله والحمد لله ولا حول ولا قوة إلا بالله إلا غفرت ذنوبه ولو كانت مثل زبد البحر » أخرجه الحاكم من حديث عبد الله بن عمرو وقال صحيح على شرط مسلم وهو عند الترمذي وسنه والنسائي في اليوم والليالي مختصرا دون قوله « سبحان الله والحمد لله » (٦) حديث الثمان بن بشير « الذين يذكرون من جلال الله وتسبيحه وتكبيره وتحميده ينطفئ حول العرش له دوى كدوى النحل يذكرون بصاحبهم .. الحديث » أخرجه ابن ماجه والحاكم وصححه على شرط مسلم (٧) حديث أبي هريرة « لأن أقول سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر أحب إلى مما طلعت عليه الشمس » وزاد في رواية « ولا حول ولا قوة إلا بالله وقال خير من الدنيا وما فيها » أخرجه مسلم بإلفاظ الأول والمستغنى في الدعوات من رواية مالك بن دينار « أن أبا أمامة قال صلى الله عليه وسلم قلت سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر خير من الدنيا وما فيها قال أنت أهم بهم » وهو مرسل جيد الإسناد .

(٨) حديث سمرة بن جندب « أحب الكلام لله الله أربع .. الحديث » رواه مسلم .

وروى أبو مالك الأشعري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول : الطهور شطر الإيمان والحمد لله تملأ الميزان وسبحان الله والله أكبر يملأ ما بين السماء والأرض والصلاة نور والصدقة برهان والصبر ضياء والقرآن حجة لك أو عليك كل الناس يغدو فبإحدى نفسه لو قبها أو مشتر نفسه فتمتها ^(١) ، وقال أبو هريرة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : كلتان خفيتان على اللسان فحيتان في الميزان حيتان إلى الرحمن سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم ^(٢) ، وقال أبو ذر رضي الله عنه : قلت لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أى السلام أحب إلى الله عز وجل قال صلى الله عليه وسلم ما أصطفى الله سبحانه لملائكته : سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم ^(٣) ، وقال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الله تعالى أصطفى من السلام : سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ^(٤) ، فإذا قال العبد : سبحان الله ، كتبت له عشرين حسنة ومحط عنه عشرين سيئة وإذا قال : الله أكبر ، فمثل ذلك وذكر إلى آخر السكيات . وقال جابر : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من قال سبحان الله وبحمده غرست له نخلة في الجنة ^(٥) ، وعن أبي ذر رضي الله عنه أنه قال : قال الفقراء لرسول الله صلى الله عليه وسلم : ذهب أهل الدثور بالأجور يصلون كما نصل ويصومون كما نصوم ويتصدقون بفضول أموالهم فقال : أو ليس قد جعل لكم ما تصدقون به ؟ إن بكل تسبيحة صدقة وتحميدة صدقة وتهليل صدقة وتكبير صدقة وأمرهم بصدقة ونهى عن منكر صدقة ويضع أحدهم القمعة في في أهله فهي له صدقة . وفي يضع أحدهم صدقة . قالوا يا رسول الله يأتي أحدنا شهوة ويكون له فيها أجر ؟ قال صلى الله عليه وسلم : أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه فيها وزر ؟ قالوا : نعم . قال : كذلك إن وضعها في الحلال كان له فيها أجر ^(٦) ، وقال أبو ذر رضي الله عنه : قلت لرسول الله صلى الله عليه وسلم : سبق أهل الأموال بالأجر يقولون كما تقول وينفقون ولا تنفق فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أفلا أدلك على عمل إذا أنت عملته أدركت من قبله وفقت من بعده إلا من قال مثل قولك ؟ تسبح الله بعد كل صلاة ثلاثا وثلاثين وتحمده ثلاثا وثلاثين وتكبر أربعاً وثلاثين ^(٧) . وروى بسرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : عليكن بالتسبيح والتهليل والتتدريس فلا تغفلن وأصدقن بالأعمال فلأنها مستغفقات ^(٨) ، يعني بالشهادة في القيامة . وقال ابن عمر : رأيته صلى الله عليه وسلم يقعد التسبيح ^(٩) . وقد قال صلى الله عليه وسلم فيما شهد عليه أبو هريرة وأبو سعيد الخدري : إذا قال العبد لا إله إلا الله والله أكبر قال الله عز وجل صدق عبدي لا إله إلا أنا وأنا أكبر وإذا قال العبد : لا إله إلا الله وحده لا شريك له قال تعالى صدق عبدي لا إله إلا أنا وحدي لا شريك لي ، وإذا قال لا إله إلا الله ولا حول ولا قوة

(١) حديث أبي مالك الأشعري : الطهور شطر الإيمان والحمد لله تملأ الميزان .. الحديث . رواه مسلم وقد تقدم في الشهادة
(٢) حديث أبي هريرة : كلتان خفيتان على اللسان ... الحديث ، ينفق عليه (٣) حديث أبي ذر : أى السلام أحب إلى الله قال ما أصطفى الله لملائكته سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم . رواه مسلم وأبو داود والنسائي . قوله سبحان الله العظيم .
(٤) حديث : أن الله أصطفى من السلام سبحان الله والحمد لله .. الحديث . أخرجه النسائي في اليوم واليلة والحاكم وقال صحيح على شرط مسلم وصححه من حديث أبي هريرة وأبي سعيد الأنصاري قال في ثواب الحمد لله : كتبت له ثلاثون حسنة . وطلعت عنه ثلاثون سيئة . (٥) حديث جابر : من قال سبحان الله وبحمده غرست له نخلة في الجنة . أخرجه الترمذي وقال حسن والسائي في اليوم واليلة وابن حبان والحاكم وقال صحيح على شرط مسلم وصححه (٦) حديث أبي ذر : قال الفقراء لرسول الله صلى الله عليه وسلم ذهب أهل الدثور بالأجور يصلون كما نصل ويصومون كما نصوم ويتصدقون بفضول أموالهم فقال : أو ليس قد جعل لكم ما تصدقون به ؟ إن بكل تسبيحة صدقة وتحميدة صدقة وتهليل صدقة وتكبير صدقة وأمرهم بصدقة ونهى عن منكر صدقة ويضع أحدهم القمعة في في أهله فهي له صدقة . وفي يضع أحدهم صدقة . قالوا يا رسول الله يأتي أحدنا شهوة ويكون له فيها أجر ؟ قال صلى الله عليه وسلم : أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه فيها وزر ؟ قالوا : نعم . قال : كذلك إن وضعها في الحلال كان له فيها أجر . (٧) حديث بسرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : عليكن بالتسبيح والتهليل والتتدريس فلا تغفلن وأصدقن بالأعمال فلأنها مستغفقات . (٨) حديث بسرة : عليكن بالتسبيح والتهليل والتتدريس فلا تغفلن وأصدقن بالأعمال فلأنها مستغفقات . أخرجه أبو داود والترمذي والحاكم بإسناد جيد . (٩) حديث ابن عمر : رأيته صلى الله عليه وسلم يقعد التسبيح . قلت : أنا هو عبد الله بن عمر بن الخطاب قالوا : رواه أبو داود والنسائي والترمذي وصححه والحاكم .

إلا بالله يقول الله سبحانه صدق عبدي لاحول ولا قوة إلا بالله ومن قالهن عند الموت لم تمسه النار^(١)، وروى مصعب ابن سمد عن أبيه عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال « أيعجز أحدكم أن يكسب كل يوم ألف حسنة فقيل : كيف ذلك يا رسول الله ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : يسبح الله مائة تسبيحة فيكتب له ألف حسنة ويصط عنه ألف سيئة^(٢) » . وقال صلى الله عليه وسلم « يا عبد الله بن قيس - أو يا أبا موسى - ألا أدلك على كثر من كنوز الجنة ؟ قال : بلى ، قال : قل لاحول ولا قوة إلا بالله^(٣) » وفي رواية أخرى « ألا أعلمك كلمة من كنز تحت العرش : لاحول ولا قوة إلا بالله » وقال أبو هريرة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ألا أدلك على عمل من كنوز الجنة من تحت العرش قول لاحول ولا قوة إلا بالله يقول الله تعالى أسلم عبدي واستسلم^(٤) » وقال صلى الله عليه وسلم « من قال حين يصبح وحسب الله ربا وبالإسلام ديناً وبالقرآن إماماً وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبياً رسلاً كان حقاً على الله أن يرضيه يوم القيامة^(٥) » وفي رواية « من قال ذلك رضى الله عنه » وقال مجاهد إذا خرج الرجل من بيته فقال : بسم الله ، قال الملك : هديت ؛ فإذا قال : توكلت على الله ، قال الملك : كفييت . وإذا قال : لاحول ولا قوة إلا بالله ، قال الملك : وقيت فتفرق عنه الشياطين فيقولون ماتريدون من رجل قد هدى وكفى ووفى ؟ لاسبيل لكم إليه . » فإن قلت : فما بال ذكر الله سبحانه مع خفته على اللسان وقلة التمسب فيه صار أفضل وأنفع من جملة العبادات مع كثرة المشقات فيها ؟ فاعلم أن تحقيق هذا لا يليق إلا بعلم المكاشفة . والتقدير الذي يسبح بذكره في علم المعلمة : أن المؤثر النافع هو الذكر على الدوام مع حضور القلب فأما الذكر باللسان والقلب فله فخر قليل الجدوى . وفي الأخبار ما يدل عليه أيضاً^(٦) وحضور القلب في لحظة بالذكر والدخول عن الله عز وجل من الاعتشال بالدين أيضاً قليل الجدوى . بل حضور القلب مع الله تعالى على الدوام أوفى أكثر الأوقات هو المقدم على العبادات بل به تعرف سائر العبادات وهو غاية ثمرة العبادات العملية . والذكر أول وآخر ؛ فأوله يوجب الأنس والحب لله وآخره يوجب الألس والحب ويصدر عنه ، والمطلوب ذلك الألس والحب . فإن المرید في بداية أمره قد يكون متكلفاً بصرف قلبه ولسانه عن الوسواس إلى ذكر الله عز وجل . فإن وفق الدوامه ألس به وانفرد في قلبه حب المذكور . ولا ينبغي أن يتعجب من هذا فإن من المشاهد في العبادات أن تذكر غالباً غير مشاهد بين يدي شخص وتكرر ذكر خصاله هذه فيحبه وقد يمشق بالوصف وكثرة الذكر . ثم إذا عشق بكثرة الذكر المتكلف أولاً صار مضطراً إلى كثرة الذكر آخرًا بحيث لا يصبر عنه . فإن من أحب شيئاً أكثر من ذكره . ومن أكثر ذكر شيء - وإن كان تكلفاً - أحبه . فكذلك أول الذكر متكلف إلى أن يشعر الألس بالمذكور والحب له ثم يتمتع بالصبر عنه آخرًا فيصير الموجب موجباً

(١) حديث أبي هريرة وأبي سعيد « إذا قال العبد لا اله الا الله والله أكبر قال الله صدق عبدي .. الحديث » أخرجه الترمذي وقال حسن والسنائي في اليوم واليلة وإن ما به والحاكم وصححه (٢) حديث مصعب بن سمد عن أبيه « أيعجز أحدكم أن يكسب كل يوم ألف حسنة ... الحديث » أخرجه مسلم إلا أنه قال « أو لم يصح » كما ذكره المنذ وقال حسن صحيح . (٣) حديث « يا عبد الله بن قيس - أو يا أبا موسى - ألا أدلك على كثر من كنوز الجنة قال بلى قل لاحول ولا قوة إلا بالله » متفق عليه (٤) حديث أبي هريرة « عمل من كثر الجنة ومن تحت العرش قول لاحول ولا قوة الا بالله يقول الله أسلم عبدي واستسلم » أخرجه السنائي في اليوم واليلة والحاكم « من قال سبحانه الله والحمد لله ولا اله الا الله والله أكبر ولاحول ولا قوة الا بالله قال أسلم عبدي واستسلم » وقال صحيح الإسناد . (٥) حديث « من قال حين يصبح رضى الله ربا .. الحديث » أخرجه أبو داود والسنائي في اليوم واليلة والحاكم وقال صحيح الإسناد من حديث غلام النبي صلى الله عليه وسلم ورواه الترمذي من حديث ثوبان وحسنه وفيه نظر وفيه سمد بن الرزيان ضعيف جداً (٦) حديث « اقال على أن الذكر والتكلم لا يلبس الجدوى » أخرجه الترمذي وقال حسن والحاكم وقال حديث مستقيم الإسناد من حديث أبي هريرة « واعلموا أن الله لا يلبس الله من قلب لاه » .

والثمر مشرا . وهذا معنى قول بعضهم . كابدت القرآن عشرين سنة ثم تمت به عشرين سنة . ولا يصدر التتم إلا من الإنسان والحب . ولا يصدر الألس إلا من المداومة على المكابدة والتكلف مدة طويلة حتى يصير التكلف طبعاً . فكيف يستبعد هذا وقد يتكلف الإنسان تناول طعام يستشبهه أولاً ويكابد أكله ويواظب عليه فيصير موافقاً لطبعه حتى لا يصير عنه فأنفس معتادة متحملة لما تتكلف . هي النفس معزذتها تتعذر . أى ما كلفتها أولاً يصير لها طبعاً آخراً . ثم إذا حصل الألس بذكر الله سبحانه انقطع عن غير ذكر الله وما سوى الله عز وجل هو الذى يفارقه عند الموت فلا يبقى معه فى القبر أهل ولا مال ولا ولد ولا ولاية ولا يبق إلا ذكر الله عز وجل . فإن كان قد أنس به تمتع به وتلذذ بانقطاع المواقف الصارفة عنه لضرورة الحاجات فى الحياة الدنيا تصد عن ذكر الله عز وجل ، ولا يبقى بعد الموت عائق ؛ فكانه على بينه وبين محبوه فغطته غبطته وتخلص من السجن الذى كان ممنوعاً فيه عما به أنسه . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : إن روح أقدس نفث فى روعى أحب من أحببت فأناك مغارة ^(١) . أراد به كل ما يتعلق بالدنيا فإن ذلك يبقى فى حقه بالموت فـ (كل من علمها فإن ربي وجه ربك ذوالجلال والإكرام) ولما تمضى الدنيا بالموت فى حقه إلى أن تنفى فى نفسها عند بلوغ الكتاب أجله . وهذا الألس يتلذذ بالعبد بعد موته إلى أن يزل فى جوار الله عز وجل ويرقى من الذكر إلى اللقاء . وذلك بعد أن يبرئ مائى التبور ويحصل مائى الصدور ولا ينكر بقاء ذكر الله عز وجل معه الموت فيقول إنه أعدم فكيف يبقى معه ذكر الله عز وجل ؟ فإنه لم يعدم عد ما يمنع الذكر بل عدما من الدنيا وعالم الملك والشهادة لأن عالم الملكوت . وإلى ما ذكرناه الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم : القبر إما حفرة من حفر النار أو روضة من رياض الجنة ^(٢) . ويقول صلى الله عليه وسلم : أرواح الشهداء فى حواصل طيور خضر ^(٣) . وبقره صلى الله عليه وسلم لقتلى بدر من المشركين : يا فلان يا فلان وقد سحاهم الهى صلى الله عليه وسلم هل وجدتم ما وعد ربكم حقاً ؟ فأتى وجدتم ما وعدنى ربى حقاً ^(٤) فسمع عمر رضى الله عنه قوله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله كيف يسمون وأنى يجيبون وقد جيفوا ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : الذى نفسى بيده ما أنتم بأسمع لكلأى منهم ولكنهم لا يقدر أن يجيبوا . والحديث فى الصحيح . هذا قوله عليه السلام فى المشركين فأما المؤمنون والشهداء فقد قال صلى الله عليه وسلم : أرواحهم فى حواصل طيور خضر مغلقة تحت العرش ^(٥) . وهذه الحالة وما أشير بهذه الالفاظ إليه لا يأتى ذكر الله عز وجل وقال تعالى (ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم) الآية ولأجل شرف ذكر الله عز وجل عظمت رتبة الشهادة لأن المطلوب الخاتمة ونفى بالخاتمة وداع الدنيا والتقدم على الله والقلب مستغرق بالله عز وجل منقطع للعلائق

- (١) حديث « إن روح القدس نفث فى روعى أحب من أحببت فأناك مغارة » تقدم فى الكتاب السابع من العلم .
 (٢) حديث « القبر إما حفرة من حفر النار أو روضة من رياض الجنة » أخرجه الترمذى من حديث أبى سعيد خدرى وأبو هريرة وأبو ذر غريب . قلت فيه عيبه عبد الله بن الوليد الواسطى ضعيف . (٣) حديث « أرواح الشهداء فى حواصل طيور خضر » أخرجه مسلم من حديث أبى سعيد . « أنه من هذه الآية (ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتاً) الآية قال : أما أنا فإندسنا من ذلك فقال أرواحهم فى جوف طير خضر فلم يسم له الهى صلى الله عليه وسلم . وفى رواية الترمذى « أما أنا سأنا عن ذلك فأخبرنا » وذكر صاحب مسند القردوس أن ابن منيع صرح بره فى مسنده . (٤) حديث « لنداهم لقتلى بدر من المشركين يا فلان يا فلان وقد سحاهم الهى أنى قد وجدتم ما وعدنى ربى حقاً فعل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً ؟ » أخرجه مسلم من حديث أس . (٥) حديث « أرواح المؤمنين فى حواصل طيور خضر مغلقة تحت العرش » أخرجه ابن ماجه من حديث كعب بن مالك . إن أرواح المؤمنين فى طير خضر تعلق بهير الجنة . وروى النسائى بلفظ « إنما لسة المؤمن طائر » ورواه التبرذى بلفظ « أرواح الشهداء » وقال حسن صحيح .

عن غيره . فإن قدر عبد على أن يجعل همه مستغرقاً بالله عز وجل فلا يقدر على أن يموت على تلك الحالة إلا في صف القتال . فإنه قطع الطمع عن مهجته وأهله وماله . وولده بل من الدنيا كلها فإنه يريد بها حياته . وقد هون على قلبه حياته في حب الله عز وجل وطلب مرضاته فلا تجرد لله أعظم من ذلك ، ولذلك عظم أمر الشهادة وورد فيه من الفضائل ما لا يحصى . فمن ذلك أنه لما استشهد عبد الله بن عمرو الأنصاري يوم أحد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لجابر (ألا أبشرك يا جابر ! على بשרك الله بالخير قال: إن الله عز وجل أحيا أباك فأقعدته بين يديه وليس بينه وبينه ستر فقال تعالى : نحن على يا عبدي ماشئت أعطيك فقال يارب أن تردني إلى الدنيا حتى أقتل فيك وفي نبيلك مرة أخرى . فقال عز وجل . سبق القضاء من بأنهم إليها لا يرجعون^(١)) ثم أقتل سبب الحاتمة على مثل هذه الحالة فإنه لو لم يقتل وبقي مدة ربما عادت شهوات الدنيا إليه وغلبت على ما استولى على قلبه من ذكر الله عز وجل . ولهذا عظم خوف أهل المعرفة من الحاتمة . فإن القلب وإن أزم ذكر الله عز وجل فهو متقلب لا يتخلو عن الالتفات إلى شهوات الدنيا ولا ينفك عن فترة تمتريه . فإذا تميل في آخر الحال في قلبه أمر من الدنيا واستولى عليه وارتحل عن الدنيا والحالة هذه فيوشك أن يبق استيلاؤه عليه فيحن بعد الموت إليه ويتمنى الرجوع إلى الدنيا . وذلك لقلة حظه في الآخرة إذ يموت المرة على ما عاش عليه ويمحسر على مآمات عليه . فأسلم الأحوال عن هذا الخطر حاتمة الشهادة إذ لم يكن قصد الشهيد نيل مال أو أن يقال شجاع أو غير ذلك^(٢) كما ورد به الخبر بل حب الله عز وجل وإعلاء كلمته فهذه الحالة هي التي عبر عنها (إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة) ومثل هذا الشخص هو البائع بالدنيا بالآخرة . وحالة الشهيد توافق معنى قولك (لا إله إلا الله) فإنه لا مقصود له سوى الله عز وجل وكل مقصود معبود وكل معبود إلا فهذا الشهيد قائل بلسان حاله (لا إله إلا الله) إذ لا مقصود له سواه . ومن يقول ذلك بلسانه ولم يساعده حاله فأمره في مشيئة الله عز وجل ولا يؤمن في حقه بالخطر . ولذلك فضل رسول الله صلى الله عليه وسلم قول لا إله إلا الله على سائر الأذكار^(٣) وذكر ذلك مطلقاً في مواضع الترغيب . ثم ذكر في بعض المواضع الترغيب . ثم ذكر في بعض المواضع الصدق والإخلاص فقال مرة (من قال لا إله إلا الله مخلصاً) ودمنى الإخلاص مساعدة الحال للقال . ففسأل الله تعالى أن يجعلنا في الحاتمة من أهل لا إله إلا الله حالاً ومقالاً ظاهراً وباطناً حتى نودع الدنيا غير متلفتين إليها بل بمتبرعين بها وعيين لقاء الله فإن من أحب لقاء الله تعالى أحب الله لقاءه ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه . فهذه مرامن إلى معاني الذكر التي لا يمكن الزيادة عليها في علم المعاملة .

الباب الثاني : في آداب الدعاء وفضله وفصل بعض الأدعية المشهورة

وفضيلة الاستغفار والصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم

فضيلة الدعاء

قال الله تعالى (وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان فليستجيبوا لي) وقال تعالى

(١) حديث . « ألا أبشرك يا جابر قال بل بשרك الله بالخير قال لن الله أحيا أباك فأقعدته بين يديه وليس بينه وبينه ستر فقال تعالى نحن على ... الحديث » أخرجه الترمذي وقال حسن وابن ماجه والماكم وصحيح أسناده عن حديث جابر . (٢) حديث « الرجل يقال ليل مال أو أن يقال شجاع أو غير ذلك » متفق عليه من حديث أبي موسى . قال جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال الرجل يغافل للذكر والرجل يغافل للعلم والرجل يغافل ليري مكانه فمن في سبيل الله ؟ قال من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله . (٣) حديث « فضيل لا إله إلا الله على سائر الأذكار » أخرجه الترمذي وقال حسن والسنن في اليوم والليله وابن ماجه من حديث جابر .

صلى الله عليه وسلم « أقرب ما يكون العبد من ربه عز وجل وهو ساجد فأكثرُوا فيه من الدعاء »^(١) وروى ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « إني نهيْتُ أن أقرأ القرآن راکباً أو ساجداً فأما الركوع فعقلوا فيه الرب تعالى وأما السجود فاجتهدوا فيه بالدعاء فإنه قرن أن يستجاب لكم »^(٢) ، (الثالث) أن يدعو مستقبل القبلة ويرفع يديه بحيث يرى يياض إبطيه . وروى جابر بن عبد الله أن رسول الله صلى الله عليه وسلم « أتى الموقف بعرفة واستقبل القبلة ولم يزل يدعو حتى غربت الشمس »^(٣) ، وقال سلمان : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن ربكم حيي كريم يستحي من عبده إذا رفعوا أيديهم إليه أن يردعهم صفراً »^(٤) ، وروى أنس أنه صلى الله عليه وسلم « كان يرفع يديه حتى يرى يياض إبطيه في الدعاء ولا يشير بأصبعيه »^(٥) وروى أبو هريرة رضي الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم « مر على إنسان يدعو ويشير بأصبعيه السبابتين فقال صلى الله عليه وسلم أحد أحد »^(٦) ، أي اقتصر على الواحدة . وقال أبو الدرداء رضي الله عنه . ارفعوا هذه الأيدي قبل أن تفل بالأغلال . ثم يفيض أن يسبح بها وجهه في آخر الدعاء : قال عمر رضي الله عنه « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا مد يديه في الدعاء لم يردعها حتى يسبح بها وجهه »^(٧) ، وقال ابن عباس « كان صلى الله عليه وسلم إذا دعا ضم كفيه وجعل بطونهما معاً على وجهه »^(٨) ، فعذه هيئات اليد ولا يرفع بصره إلى السماء قال صلى الله عليه وسلم « ليتنبهن أقوام عن رفع أبصارهم إلى السماء عند الدعاء أو لتخطفن أبصارهم »^(٩) ، (الرابع) خفض الصوت بين المخافة والجهر لما روى أن أبا موسى الأشعري قال : قدما مع رسول الله فلما دنونا من المدينة كبر وكبر الناس وورفوا أصواتهم فقال النبي صلى الله عليه وسلم « يا أيها الناس إن الذي تدعون ليس بأصم ولا غائب إن الذي تدعون بنكم وبين أعناق ركابكم »^(١٠) ، وقالت عائشة رضي الله عنها في قوله عز وجل ﴿ ولا تجهر بصلواتك ولا تخافت بها ﴾^(١١) « أي دعاك ولقد أتى الله عز وجل على نبيه نكراً عليه السلام حيث قال ﴿ إذ نادى ربه نداه خفياً ﴾ وقال عز وجل ﴿ ادعوا ربكم تضرعاً وخفية ﴾ (الخامس) أن لا يتكلف السجع في الدعاء فإن حال الداعي يفيض أن يكون حال متضرع والتكلف لا يناسبه قال صلى الله عليه وسلم « سيكون قوم يمتدون في الدعاء »^(١٢) ، وقد قال عز وجل : ﴿ ادعوا ربكم تضرعاً وخفية إنه

(١) حديث أبي هريرة « أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد فأكثرُوا من الدعاء » رواه مسلم (٢) حديث ابن عباس « إني نهيْتُ أن أقرأ القرآن راکباً أو ساجداً ... الحديث » أخرجه مسلم أيضاً (٣) حديث جابر « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتى الموقف بعرفة واستقبل القبلة ولم يزل يدعو حتى غربت الشمس ... الحديث » أخرجه مسلم دون قوله « يدعو » فقال مكانها « واهاه » والسنائي من حديث أسامة بن زيد « كنت رده برفات فرفع يديه يدعو » ورواه تاج .

(٤) حديث سلمان « إن ربكم حيي كريم يستحي من عبده إذا رفع يديه أن يردعهم صفراً » أخرجه أبو داود والترمذي وحسنه وابن ماجه والحاكم وقال اسناده صحيح على شرطهما (٥) حديث أنس « كان يرفع يديه حتى يرى يياض إبطيه في الدعاء ولا يشير بأصبعيه » أخرجه مسلم دون قوله ولا يشير بأصبعيه . والحديث متفق عليه لكن مفيد الاستسقاء (٦) حديث أبي هريرة « مر على إنسان يدعو بأصبع السبابتين فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أحد أحد » أخرجه السنائي والحاكم وابن ماجه والحاكم وقال صحيح الإسناد (٧) حديث عمر « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا مد يديه في الدعاء لم يردعها حتى يسبح بها وجهه » أخرجه الترمذي والحاكم في المستدرک وسكت عليه وهو ضيف (٨) حديث ابن عباس « كان صلى الله عليه وسلم إذا دعا ضم كفيه وجعل بطونهما معاً على وجهه » أخرجه الطبراني في الكبير بسند ضيف .

(٩) حديث « ليتنبهن أقوام عن رفع أبصارهم إلى السماء عند الدعاء أو لتخطفن أبصارهم » أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة وقال عند الدعاء في الصلاة (١٠) حديث أبي موسى الأشعري « يا أيها الناس إن الذي تدعون ليس بأصم ولا غائب » متفق عليه مع اختلاف ، واقتض الذي ذكره المصنف لأبي داود (١١) حديث عائشة في قوله تعالى ﴿ ولا تجهر بصلواتك ولا تخافت بها ﴾ أي دعاك متفق عليه . (١٢) حديث « سيكون قوم يمتدون في الدعاء » وفي رواية « والظهور » أخرجه أبو داود وابن ماجه وابن حبان والحاكم من حديث عبد الله بن مغفل

لا يجب للمتعدين) قيل معناه التكلف للأصحاء والأولئ أن لا يجاوز الدعوات المأثورة فإنه قد يمتد في دعائه فيسأل مالا تقتضيه مصلحته فأكمل أحد يحسن الدعاء ولذلك روى عن معاذ رضى الله عنه : إن العلماء يحتاج إليهم في الجنة إذ يقال لأهل الجنة تنموا فلا يدرون كيف ينامون حتى يتعلموا من العلماء ؟ وقد قال صلى الله عليه وسلم : إياكم والسمع في الدعاء حسب أحدكم أن يقول اللهم إني أسألك الجنة وما قرب إليها من قول وعمل وأعوذ بك من النار وما قرب إليها من قول وعمل^(١) ، وفي الخبر : سيأتى قوم يمتدون في الدعاء والطهور . ومن بعض السلف بقاى يدعو بسجع فقال له : أعلئ الله بآلغ ؟ أشهد لقد رأيت حبيبا السجى يدعو وما يزيد على قوله : اللهم اجعلنا جيدينا اللهم لا تنفضنا يوم القيامة اللهم وفقنا للخير ، والتاس يدعو من كل ناحية وراءه وكان يعرف بركة دعائه . وقال بعضهم : ادع بلسان الذلة والافتقار لا بلسان الفصاحة والانطلاق . ويقال إن العلماء والأبدال لا يريدون في الدعاء على سجع كلمات فادونها ويشهده أخر سورة البقرة فإن الله تعالى لم يخبر في موضع من أدعية عبادنا أكثر من ذلك . واعلم أن المراد بالسمع هو التكلف من الكلام فإن ذلك لا يلائم الضراعة والذلة ولا فى الأدعية المأثورة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم كلمات متوازنة لكنها غير متكلفة كقوله صلى الله عليه وسلم : أسألك الأمان يوم الوعيد والجنة يوم الخلود مع المقرين بالشهود والركع السجود الموفين بالعهود ذلك رحيم ودود وذلك تفعل ما تريد^(٢) ، وأمثال ذلك فليقتصر على المأثور من الدعوات أو يلتبس بلسان التضرع والخشوع من غير جمع وتكلف فالتضرع هو المحبوب ضد الله عز وجل (السادس) التضرع والخشوع والرغبة والرهبة قال الله تعالى (إنهم كانوا يسارعون فى الخيرات ويدعوننا رغبا ورهبا) وقال عز وجل (ادعوا ربكم تضرعا وخفية) وقال صلى الله عليه وسلم : إذا أحب الله عبدا ابتلاه حتى يسمع تضرعه^(٣) . (السابع) أن يحزم الدعاء ويوفى بالإجابة ويصدق رجاءه فيه . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا يقل أحدكم إذا دعا اللهم اغفر لى إن شئت اللهم ارحمنى إن شئت ليعزم المسألة فإنه لا مكره له^(٤) ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إذا دعا أحدكم فليعظم الرغبة فإن الله لا يتعاظمه شيء^(٥) ، وقال صلى الله عليه وسلم : ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة واعلموا أن الله عز وجل لا يستجيب دعاء من قلب غافل^(٦) ، وقال سفيان بن عيينة : لا يمنن أحدكم من الدعاء ما يعل من نفسه فإن الله عز وجل أجاب دعاء شر الخلق (إليس لعنة الله) إذ قال رب فانظرنى إلى يوم يبعثون قال إنك من المخظرين (الثامن) أن يلج فى الدعاء ويكره ثلاثا قال ابن مسعود :

(١) حديث « إياكم والسمع فى الدعاء حسب أحدكم أن يقول اللهم إني أسألك الجنة وما قرب إليها من قول وعمل وأعوذ بك من النار وما قرب إليها من قول وعمل » غريب بهذا السياق والبطونى عن ابن عباس « وانظر السجع من الدعاء » فاجتبه فأتى بهديث أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يفتنون إلا ذلك « وابن ماجه والحاكم والمفتى له وقال صحيح الإسناد من حديث عاتفة « عليك بالسكواى » وفيه « وأسألك الجنة ... للآخره » (٢) حديث « أسألك الأمان يوم الوعيد والجنة يوم الخلود مع المقرين بالشهود والركع السجود الموفين بالعهود ذلك رحيم ودود وذلك تفعل ما تريد » أخرجه الترمذى من حديث ابن عباس « سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لى حين فرغ من صلاته ... فذكر حديثا طويلا من جهته هذا » وقال حديث غريب انتهى . وفيه محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى سئى المفظ (٣) حديث « إذا أحب الله عبدا ابتلاه حتى يسمع تضرعه » أخرجه أبو منصور الديلى فى مسند القردوس من حديث أنس « إذا أحب الله عبدا صب عليه البلاد صبا ... الحديث » وفيه « دعه فإن أحب أن أسمع صوته » والبطونى من حديث أبى أمامة أن الله يقول لللائكة اطلقوا لى صيى نصبرا عليه البلاد ... الحديث » وفيه « فإى أحب أن أسمع صوته » وستدعا ضيف (٤) حديث « لا يقل أحدكم اللهم اغفر لى إن شئت اللهم ارحمنى إن شئت ليعزم المسألة فإنه لا مكره له » متفق عليه من حديث أبى هريرة (٥) حديث « إذا دعا أحدكم فليعظم الرغبة فإن الله لا يتعاظمه شيء » أخرجه ابن حبان من حديث أبى هريرة .

(٦) حديث « ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة واعلموا أن الله لا يستجيب دعاء من قلب غافل » أخرجه الترمذى من حديث أبى هريرة وقال غريب والحاكم وقال صحيح الإسناد تقرر به صالح المرى وهو أحد زهاد البصرة فلت لكه ضيف فى الحديث .

كان عليه السلام إذا دعا دعا ثلاثاً وإذا سأل سأل ثلاثاً (١) ، وينبغي أن لا يستعجل الإجابة لقوله صلى الله عليه وسلم يستجاب لأحدكم ما لم يجعل يقول قد دعوت فلم يستجب لي فإذا دعوت فاسأل الله كثيراً فإنه يدعوكم (٢) ، وقال بعضهم : إن أسأل الله عز وجل عند عشرين سنة حاجته وما أجاوبني وأنا أرجو الإجابة سألت الله تعالى أن يوفقي لترك ما لا يعنيني . وقال صلى الله عليه وسلم : إذا سأل أحدكم به مسألة فتعرف الإجابة فليقل الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات ومن أبطل عنه من ذلك فليقل الحمد لله على كل حال (٣) . (التاسع) أن يفتتح الدعاء بذكر الله عز وجل فلا يبدأ بالسؤال . قال سلمة بن الأكوع : ما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يستفتح الدعاء إلا استفتحته بقول : سبحان ربّي العلي الأعلى الوهاب (٤) قال أبو سليمان الداراني رحمه الله : من أراد أن يسأل الله حاجة فليبدأ بالصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ثم يسأله حاجته ثم يتم بالصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم فإن الله عز وجل يقبل الصلواتين وهو أكرم من أن يبدع ما بينهما ، وروى في الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : إذا سألتكم الله عز وجل حاجة فابتدئوا بالصلاة على فإن الله تعالى أكرم من أن يسأل حاجتين فيقتضي إحداهما ويرد الأخرى (٥) ، ورواه أبو طالب المكي (العاشر) وهو الأدب الباطن وهو الأصل في الإجابة : التوبة ورد المظالم والإقبال على الله عز وجل بسكينة فذلك هو السبب القريب في الإجابة . فيروى عن كعب الأحبار أنه قال : أصاب الناس قحط شديد على عهد موسى رسول الله صلى الله عليه وسلم فخرج موسى بنى إسرائيل يستسقي بهم فلم يسقوا حتى خرج ثلاث مرات ولم يسقوا ، فأوحى الله عز وجل إلى موسى عليه السلام : إني لأستجيب لك ولأولئك ملكه وفيكم ندام ، فقال موسى : يارب ومن هو حتى يخرجني من بيتنا فأوحى الله عز وجل إليه : يا موسى إنهم عن النعمة وأكون نداماً ! فقال موسى : لبي لإسرائيل : توبوا إلى ربكم أجمعكم عن النعمة فتأبوا فأرسل الله تعالى عليهم الطيث . وقال سعيد بن جبير قحط الناس في زمن ملك من ملوك بني إسرائيل فاستسقوا فقال الملك لبي إسرائيل : ليرسل الله تعالى علينا السماء أو لنؤذبه قيل له وكيف تتعد أن تؤذيه وهو في السماء ؟ فقال أقتل أوليائه وأهل طاعته فيكون ذلك أذى له فأرسل الله تعالى عليهم السماء . وقال سفيان الثوري : بلغني أن بني إسرائيل قحطوا سبع سنين حتى أكلوا الميتة من الزايل وأكلوا الأطفال وكانوا كذلك يخرجون إلى الجبال فيكون ويتضرعون ، فأوحى الله عز وجل إلى أنبيائهم عليهم السلام لومشيتهم إلى بأفهامكم حتى تنق ربكم وتبلغ أيديكم عنان السماء وتكمل السننكم من الدعاء فإني لأجيب لكم دعايا ولا أرحم لكم باكميا حتى تردوا المظالم إلى أهلها ففعلوا فطروا من يومهم . وقال مالك بن دينار : أصاب الناس في بني إسرائيل قحط فخرجوا مرارا فأوحى الله عز وجل إلى نبيهم أن أخبرهم أنكم تخرجون إلى بأبدان نجسة وترفعون إلى أكفأ قد سفنكم بها الدماء وملأتم بطونكم من الحرام الآن قد اشتد غضبي عليكم ولن تردادوا مني إلا بعدا ، وقال أبو الصديق التاجي : خرج سليمان عليه السلام يستسقي فز نملة ملقاة على ظهرها رافعة قوائمها

(١) حديث ابن مسعود : كان صلى الله عليه وسلم إذا دعا دعا ثلاثاً وإذا سأل سأل ثلاثاً ، ورواه مسلم وأبوه متفق عليه .

(٢) حديث : يستجاب لأحدكم ما لم يجعل يقول دعوت فلم يستجب لي ، متفق عليه من حديث أبي هريرة .

(٣) حديث : إذا سأل أحدكم مسألة فتعرف الإجابة فليقل الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات ومن أبطل عنه من ذلك شيء فليقل الحمد لله على كل حال ، أخرجه البيهقي في الدعوات من حديث أبي هريرة وإمام تقيهم من حديث عائشة رضي الله عنها .

(٤) حديث سلمة بن الأكوع : ما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يستفتح الدعاء إلا استفتحته وقال سبحان ربّي العلي الأعلى الوهاب ، أخرجه أحمد والحاكم وقال صحيح الإسناد قلت فيه عمر بن راشد المجاني ضغفه الجمهور . (٥) حديث : إذا سألت الله حاجة فابتدئوا بالصلاة على فإن الله تعالى أكرم من أن يسأل حاجتين فيقتضي إحداهما ويرد الأخرى ، لم أجده مرثوعاً وإنما هو موقوف على أبي هريرة .

إلى السماء وهي تقول : اللهم إنا خلق من خلقك ولا نغني بنا عن رزقك فلا تهلكتنا بذنوب غيرنا ، فقال سليمان عليه السلام : ارجعوا فقد سقيم بدعوة غيركم . وقال الأوزاعي : خرج الناس يستسقون فقام بهم بلال بن سعد الحمد لله وأثنى عليه ثم قال يا معشر من حضر أستمع مني بالإسماء ؟ فقالوا : اللهم نعم ، فقال : اللهم إنا قد سمعناك تقول (ما على المحسنين من سبيل) وقد أفرأنا بالإسماء فهل تكون مغفرتك إلا لئلا ؛ اللهم فاغفر لنا وارحنا واسقنا ؛ فرغ يديه ورفعوا أيديهم فسقوا ، وقيل لمالك بن دينار : ادع لنا ربك فقال إنكم تستيطئون المطر وأنا أستطيل الحجارة . وروى أن عيسى صلوات الله عليه وسلامه خرج يستسقي فلما مضى قال لم عيسى عليه السلام : من أصاب منكم ذنبا فليرجع فرجعوا كلهم ولم يبق معه في المغارة إلا واحد ، فقال له عيسى عليهم السلام : أما لك من ذنب ؟ فقال : والله ما علمت من شيء غير أني كنت ذات يوم أصلي فمرت في امرأة فنظرت إليا بعيني هذه فلما جاوزتني أدخلت أصبعي في عيني فأنزعتها وتبعت المرأة بها . فقال له عيسى عليه السلام : فادع الله حتى تؤمن على دهالك ، قال : فدعنا فجلت السماء ممهايا ثم صبت فسقوا ، وقال يحيى النعماني : أصاب الناس قحط على عهد داود عليه السلام فاخترأوا ثلاثة من عبائهم فخرجوا حتى يستسقوا بهم فقال أحدهم : اللهم إنك أنزلت في توراةك أن نفر عن ظلماتنا اللهم إننا قد طلبنا أنفسنا فاعف عنا ؛ وقال الثاني : اللهم إنك أنزلت في توراةك أن تمتق أرقاءنا اللهم إنا أرقاؤك فاهتسنا . وقال الثالث : اللهم إنك أنزلت في توراةك أن لا ترد المساكين إذا وقفوا بأبوابنا اللهم إنا مساكينك وفقنا بآبائك فلا ترد دعائنا فسقوا ، وقال عطاء السلي : مذننا النبيث فخرجنا نستسقي فلذا نحن بسعدون المجهون في المقابر فنظر إلى فقال يا عطاء أهذا يوم النشور أوبئنا ماني القيور ؟ فقلت : لا ولكننا مذننا النبيث فخرجنا نستسقي فقال يا عطاء : بقلوب أرضية أم بقلوب سماوية ؟ فقلت : بل بقلوب سماوية فقال : هيأت يا عطاء قل المشركين لا تتبرجوا فإن الناقد بصير . ثم رقى السيد بطرife وقال إلى وسيدى ومولاى إلهك بآذنبك بذنوب عبادك ولكن بأسر المكنون من أسمائك وما وارت الحجب من آلائك إلا ماسقينا ماء غدقا فرأنا نحيي به العباد وتروى به البلاد يا من هو على كل شيء قدير ، قال عطاء : لما استقم الكلام حتى أرعدت السماء وأبرقت وجادت بمطر كأفواء القرب فولى وهو يقول :

أفلح الزاهدون والمابدون إذ لمولاهم أجابوا البطونا
أسهروا الأعين المليئة حيا فاقضى ليهم وهم ساهرونا
شغلتم عبادة الله حتى حسب الناس أن فيهم جنونا

وقال ابن المبارك : قدمت المدينة في عام شديد القحط فخرج الناس يستسقون فخرجت معهم إذا أقبل غلام أسود عليه قطعتا خيش قد انزرد بإحداهما وأثنى الأخرى على عاتقه فجلس إلى جنبي فسمعت يقول إلى أى أخلقت الوجوه عندك كثرة الذنوب ومسأوى الأعمال وقد حبست عنا غيث السماء لتؤدب عبادك بذلك فأسألك يا حيا ذا أناته يا من لا يعرف عباديه منه إلا أنجيل أن تسقيهم الساعة الساعة فليرزق يقول الساعة الساعة حتى أكنست السماء بالغيام وأقبل المطر من كل جانب ، قال ابن المبارك : لجئت إلى الفضيل فقال ما لي أراك كئيبا ؟ فقلت أمرسبنا إليه غيرنا فتولاه دوتنا وقصصت عليه القصة فصاح الفضيل وخز منشيا عليه . وروى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه استسقى بالعباس رضى الله عنه فلما فرغ عمر من دعائه قال العباس : اللهم إله لم ينزل بلاء من السماء إلا بآذنب ولم يكشف إلا بتوبة وقد توجه في القوم إليك المسكن من نبيك صلى الله عليه وسلم وهذه أيدينا إليك بالذنوب ونواصينا بالتوبة وأنت

الراعى لامتثل الضالة ولاتدع الكبير بدار مضنية فقد ضرع الصغير ورق الكبير وارتفعت الأصوات بالشكوى وأنت تعلم السر وأخفى اللهم فأغثهم بنبألك قبل أن يضلوا فهلكوا فإنه لا يأس من روح الله إلا القوم الكافرون قال فاتم كلامه حتى ارتفعت السماء مثل الجبال .

فضيلة الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم وفضله صلى الله عليه وسلم

قال الله تعالى ﴿ إن الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليماً ﴾ وروى أنه صلى الله عليه وسلم « جاء ذات يوم والبشرى ترى في وجهه فقال صلى الله عليه وسلم إنه جادى جبريل عليه السلام فقال أما ترى يا محمد أن لا يصل عليك أحد من أمته صلاة واحدة إلا صليت عليه عسرا ولا يسلم عليك أحد من أمته إلا سلمت عليه عسرا ^(١) » وقال صلى الله عليه وسلم « من صلى على صلت عليه الملائكة ماضى على فليقال عند ذلك أو ليكثر ^(٢) » وقال صلى الله عليه وسلم « إن أولى الناس في أكرمهم على صلاة ^(٣) » وقال صلى الله عليه وسلم « بحسب المؤمن من البخل أن أذكر عنده فلا يصل على ^(٤) » وقال صلى الله عليه وسلم « أكثروا من الصلاة على يوم الجمعة ^(٥) » وقال صلى الله عليه وسلم « من صلى على من أمي كتبت له عشر حسنات وعيبت عنه عشر سيئات ^(٦) » وقال صلى الله عليه وسلم « من قال حين يسمع الأذان والإقامة اللهم رب هذا الدعوة التامة والصلاة القائمة صل على محمد عبدك ورسولك وأصله الوسيلة والفضيلة والدرجة الرفيعة والشفاعة يوم القيامة حلت له شفاعتي ^(٧) » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من صلى على كتاب لم تزل الملائكة يستغفرون له مادام اسمي في ذلك الكتاب ^(٨) » وقال صلى الله عليه وسلم « إن في الأرض ملائكة سياحين يبلغوني عن أمي السلام ^(٩) » وقال صلى الله عليه وسلم

- (١) حديث « أنه صلى الله عليه وسلم جاء ذات يوم والبشرى ترى في وجهه فقال أنه جادى جبريل عليه الصلاة والسلام فقال أما ترى يا محمد أن لا يصل عليك أحد من أمته إلا صليت عليه عسرا ولا يسلم عليك أحد من أمته إلا سلمت عليه عسرا » أخرجه النسائي وابن حبان من حديث أبي طلحة بإسناد جيد (٢) حديث « من صلى على صلت عليه الملائكة ماضى فليقال عند ذلك أو ليكثر » أخرجه ابن ماجة من حديث عامر بن ربيعة بإسناد ضعيف والطبراني في الأوسط بإسناد حسن .
- (٣) حديث « إن أولى الناس في أكرمهم على صلاة » أخرجه الترمذي من حديث ابن مسعود وقال حسن غريب وابن حبان (٤) حديث « بحسب امرئ من البخل أن أذكر عنده فلا يصل على » أخرجه تميم بن أبي من حديث الحسن بن علي حكاه والنسائي وابن حبان من حديث أخيه الحسين « البخل من ذكرت عنده فلم يصل على » ورواه الترمذي من رواية الحسن بن علي عن أبيه وقال صحيح .
- (٥) حديث « أكثروا على من الصلاة يوم الجمعة » أخرجه أبو داود والنسائي وابن ماجه وابن حبان والماورق وقال صحيح على شرط البخارى من حديث أوس و ذكره ابن أبي حاتم في اللؤلؤ ومكن عن أبيه أنه حديث منكر .
- (٦) حديث « من صلى على من أمي كتبت له عشر حسنات وعيبت عنه عشر سيئات » أخرجه النسائي في اليوم والليل من حديث عمرو بن دينار وزاد فيه « غلما من قلبه صلى الله عليه بها عشر صلوات ورواه بها عشر درجات » وله في السير وابن حبان من حديث أنس نحوه دون قوله « غلما من قلبه » ودون ذكر : هو البهتان . ولم يذكر ابن حبان أيضا : رفع الدرجات .
- (٧) حديث « من قال حين يسمع الأذان والإقامة اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة صل على محمد عبدك ورسولك وأصله الوسيلة والفضيلة والدرجة الرفيعة والشفاعة يوم القيامة حلت له شفاعتي » أخرجه البخارى من حديث جابر دون ذكر الإقامة والشفاعة والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم وقال النماز والمستغفرى في الدعوات . حين يسمع الدعاء الصلاة » وزاد ابن وهب ذكر الصلاة والشفاعة في يستند ضعيف وزاد الحسن بن علي الميمنى في اليوم والليل من حديث أبي الفرداء ذكر الصلاة فيه وله والمستغفرى في الدعوات سند ضعيف من حديث أبي رافع « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سمع الأذان » فذكر حديثا فيه « وإذا قال لا دعاء الصلاة قال اللهم رب هذه الدعوة التامة ... الحديث » وزاد « ويحسن شفاعتي في أمته » وسلم من حديث عبد الله بن عمرو « إذا سمعت المؤذن تقولوا مثل ما يقول من صلوا على من سلوا الله في الوسيلة » وفيه « فمن سأل الوسيلة حلت عليه الشفاعة » .
- (٨) حديث « من صلى على كتاب لم تزل الملائكة تستغفر له مادام اسمي في ذلك الكتاب » أخرجه الطبراني في الأوسط وأبو الشيخ في التواب والمستغفرى في الدعوات من حديث أبي هريرة .
- (٩) حديث « إن في الأرض ملائكة سياحين يبلغوني عن أمي السلام » تقدم في آخر الحج .

« ليس أحد يعلم على إلا رد الله على روعي حتى أُرِدَ عليه السلام ^(١) ، و قد قيل له يا رسول الله كيف نصلي عليك ؟ فقال قولوا اللهم صل على محمد عبدك وعلى آل وأزواجه وذريته كما صليت على إبراهيم وآل إبراهيم وبارك على محمد وأزواجه وذريته كما باركت على إبراهيم وآل إبراهيم إنك حميد مجيد ^(٢) ، وروى أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه سمع بعد موت رسول الله صلى الله عليه وسلم يبكي ويقول : بأبي أنت وأمي يا رسول الله لقد كان جلدع تحطبط الناس عليه فلما كثر الناس اتخذت منبراً لتسمعون لحن الجذع لفراقك حتى جعلت يدك عليه فسكن فأمثلك كانت أولى بالحنين إليك لما فارقتهم ، بأبي أنت وأمي يا رسول الله لقد بلغ من فضيلتك عنده أن جعل طاعتك طاعته فقال عز وجل (من يطع الرسول فقد أطاع الله) بأبي أنت وأمي يا رسول الله لقد بلغ من فضيلتك عنده أن أخبرك بالمغو عنك قبل أن يهتك بالذنب فقال تعالى (عفا الله عنك لم أذنت لهم) بأبي أنت وأمي يا رسول الله لقد بلغ من فضيلتك عنده أن يهلك آخر الأنبياء وذكرك في أولهم فقال عز وجل (وإذا أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم) الآية بأبي أنت وأمي يا رسول الله لقد بلغ من فضيلتك عنده أن أهل النار يودون أن يكونوا قد أطاعوك وهم بين أطباقها يعذبون يقولون يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسول ، بأبي أنت وأمي يا رسول الله لئن كان موسى بن عمران أعطاه الله جبراً تضرع منه الأنهار فإذا بأعجب من أصابعك حين نبع منها الماء صلى الله عليك ، بأبي أنت وأمي يا رسول الله لئن كان سليمان بن داود أعطاه الله الريح غدوها شهر ورواحها شهر فإذا بأعجب من البراق حين سريت عليه إلى السماء السابعة ثم صليت الصبح من ليلتك بالإطباع صلى الله عليك ، بأبي أنت وأمي يا رسول الله لئن كان عيسى بن مريم أعطاه الله إحياء الموتى فإذا بأعجب من الشاة المسومة حين كلتلك وهي مسمومة فقالت لك المزارع : لا تأكلني فإني مسمومة ، بأبي أنت وأمي يا رسول الله لقد دعا نوح على قومه فقال رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً ولو دعوت علينا بثلثها لهلكنا فلقد وطئ ظهرك وأدى وجهك وكسرت رباعتك فأبيت أن تقول إلا خيراً فقلت اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون ، بأبي أنت وأمي يا رسول الله لقد ابتغيت في قلبي منك وحضر حركه ما لم يتبع نوحاً في كثرة سنة وطول عمره ولقد آمن بك الكثير وما آمن معه إلا القليل ، بأبي أنت وأمي يا رسول الله لو لم تجالس إلا كفؤاً لك ما جالسنا ولو لم تتكلم إلا كفؤاً لك ما تكلمت إلينا ولو لم تواكل إلا كفؤاً لك ما أكلنا فلقد والله جالسنا وتكلمت إلينا وواكلنا ولبست الصوف وركبت الخمار وأردفت خلفك ووضعت طعامك على الأرض ولعقت أصابعك تواضعا منك صلى الله عليك وسلم ^(٣) . وقال بعضهم : كنت أكتب

(١) حديث « ليس أحد يعلم على إلا رد الله على روعي حتى أُرِدَ عليه السلام » أخرجه أبو داود من حديث أبي هريرة بسند جيد
(٢) حديث « قل يا رسول الله كيف نصلي عليك قال قولوا اللهم صل على محمد وعلى آل وأزواجه وذريته . » الحديث متفق عليه من حديث أبي جند الساعدي . (٣) حديث عمر « في حنين الجذع ونبي النساء من بين أصابعه والإسراء به على البراق إلى السماء السابعة ثم صلاة الصبح من ليلته بالإطباع وكلام الغاة المسومة قوائمه وجهه وكسرت رباعته فقال اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون وأنه لبس الصوف وركب الخمار وأردف خلفه ووضع طعامه بالأرض ولبس أصابعه » وهو غريب بطوله من حديث عمر وهو معروف من أوجه أخرى . فحدث حنين الجذع متفق عليه من حديث جابر وابن عمر ، وحدث نبع الماء من بين أصابعه متفق عليه من حديث أبي هريرة وحدث الإسراء متفق عليه من حديث أسد بن زرارة « صبح بالإطباع » وحدث كلام الغاة المسومة رواه أبو داود من حديث جابر وفيه انقطاع ، وحدث أنه أدى وجهه وكسرت رباعته متفق عليه من حديث سهل بن سعد في غزوة أحد ، وحدث اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون رواه البيهقي في دلائل النبوة والحديث في الصحيحين من حديث ابن مسعود أنه صلى الله عليه وسلم سجد عن يمين من الأنبياء فخر به قومه ، وحدث لبس الصوف رواه الطيالسي من حديث سهل بن سعد ، وحدث ركوبه الخمار وإردافه خلفه متفق عليه من حديث أسامة بن زيد ، وحدث وضع طعامه بالأرض رواه أحمد في الزهد من حديث الحسن بن مسروق والجباري من حديث أسد بن زرارة « رسول الله صلى الله عليه وسلم على خوان قط » وحدث لقع أصابعه رواه مسلم من حديث كعب بن مالك وأبي بن مالك

الحديث وأصل على النبي صلى الله عليه وسلم فيه ولا أسلم فرأيت النبي صلى الله عليه وسلم في المنام فقال لي : اتمام الصلاة على في كتابك ؟ فما كتبت بعد ذلك إلا علمت وسلمت عليه . وروى عن أبي الحسن قال : رأيت النبي صلى الله عليه وسلم في المنام فقلت : يا رسول الله بم جوزي الشافعي عنك حيث يقول في كتابه الرسالة ، وصلى الله على محمدك كما ذكره الذكرون وغفل عن ذكره الغافلون ؟ فقال صلى الله عليه وسلم جوزي عنى أنه لا يوقف للحساب .

فضيلة الاستغفار

قال الله عز وجل ﴿ والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ﴾ وقال علقمة والأسود قال عبد الله بن مسعود رضى الله عنهم : في كتاب الله عز وجل آيتان ما أذنبت بعد ذنبا ففرأها واستغفرت الله عز وجل إلا غفر الله تعالى له ﴿ والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ﴾ الآية وقوله عز وجل ﴿ ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يمد الله غفورا رحيما ﴾ وقال عز وجل ﴿ فسبح بحمد ربك واستغفر له إنه كان توابا ﴾ وقال تعالى ﴿ والمستغفرين بالأسحار ﴾ وكان صلى الله عليه وسلم يكثر أن يقول « سبحانك اللهم وبحمدك اللهم اغفر لي إنك أنت التواب الرحيم »^(١) ، وقال صلى الله عليه وسلم « من أكثر من الاستغفار جعل الله عز وجل له من كل هم فرجا ومن كل ضيق مخرجا وورقه من حيث لا يحتسب »^(٢) ، وقال صلى الله عليه وسلم « إنى لاستغفر الله تعالى وأتوب إليه في اليوم سبعين مرة »^(٣) ، هذا مع أنه صلى الله عليه وسلم غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر وقال صلى الله عليه وسلم « إنه ليغان على قلبي حتى إنى لاستغفر الله تعالى في كل يوم مائة مرة »^(٤) ، وقال صلى الله عليه وسلم « من قال حين يأبى إلى فراشه استغفر الله العظيم الذى لا إله إلا هو الحى القيوم وأتوب إليه ثلاث غرات غفر الله له ذنوبه وإن كانت مثل زبد البحر » أو عدد رمل طالج أو عدد ورق الشجر أو عدد أيام الدنيا .^(٥) وقال صلى الله عليه وسلم في حديث آخر « من قال ذلك غفرت ذنوبه وإن كان قاروا من الزحف »^(٦) ، وقال حذيفة « كنت ذوب اللسان على أهل قلعتي ، يا رسول الله لقد خشيت أن يدخلني لسان النار ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : فأين أنت من الاستغفار ؟ فإني لاستغفر الله في اليوم مائة مرة »^(٧) ، وقالت عائشة رضى الله عنها : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن كنت ألممت بذنب فاستغفر الله وتوب إلى الله فإن التوبة من الذنب التيم والاستغفار »^(٨) ، وكان صلى الله

- (١) حديث « كان النبي صلى الله عليه وسلم على الله تعالى عليه وعلى آله وسلم يكثر أن يقول سبحانك اللهم وبحمدك اللهم اغفر لي إنك أنت التواب الرحيم » أخرجه الحاكم من حديث ابن مسعود وقال صحيح إن كان أبو عبيدة سمع من أبيه والحديث متفق عليه من حديث عائشة « أنه كان يكثر أن يقول ذلك في ركوعه وسجوده » دون قوله « إنك أنت التواب الرحيم » .
- (٢) حديث « من أكثر من الاستغفار جعل الله له من كل هم فرجا ومن كل غم مخرجا وورقه من حيث لا يحتسب » أخرجه أبو داود والسنائي في اليوم والليالي وابن ماجه والحاكم وقال صحيح الإسناد من حديث ابن عباس وشهه ابن حبان .
- (٣) حديث « أنى لاستغفر الله وأتوب إليه في اليوم سبعين مرة » أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة إلا أنه قال « أكثر من سبعين » وهو في الدعاء للطبراني كما ذكره المصنف .
- (٤) حديث « أنه ليغان على قلبي حتى إنى لاستغفر الله في كل يوم مائة مرة » أخرجه مسلم من حديث الأعمش .
- (٥) حديث « من قال حين يأبى إلى فراشه استغفر الله العظيم الذى لا إله إلا هو الحى القيوم وأتوب إليه ثلاث مرات غفر الله له ذنوبه وإن كانت مثل زبد البحر ... الحديث » أخرجه الترمذى من حديث أبي سعيد وقال غريب لا يرويه إلا من حديث عبد الله بن الوليد الوصافي . قلت الوصافي وإن كان ضعيفا فقد تابعه عليه عصام بن قدامة وهو ثقة ورواه البخاري في التاريخ دون قوله « حين يأبى إلى فراشه » وقوله « ثلاث مرات » (٦) حديث « من قال ذلك غفرت ذنوبه وإن كان قاروا من الزحف » أخرجه أبو داود والترمذى من حديث زيد بن مولى النبي صلى الله عليه وسلم وقال غريب « قلت ورجاله مؤثنون ورواه ابن مسعود والحاكم من حديث ابن مسعود وقال صحيح على شرط الشيخين » (٧) حديث حذيفة « كنت ذوب اللسان على أهل ... الحديث » وفيه « أين أنت من الاستغفار » أخرجه السنائي في اليوم والليالي وابن ماجه والحاكم وقال صحيح على شرط الشيخين .
- (٨) حديث عائشة « إن كنت ألممت بذنب فاستغفر الله فإن التوبة من الذنب التيم والاستغفار »

عليه وسلم يقول في الاستغفار : اللهم اغفر لي خطيئتي وجهلي وإسرافي في أمري وما أنت أعلم به مني اللهم اغفر لي
هزلي وجدي وخفيي وعدي وكل ذلك عندي اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت وما أنت
أعلم به مني أنت المقدم وأنت المؤخر وأنت على كل شيء قدير ^(١) ، وقال علي رضي الله عنه : كنت رجلاً إذا سمعت
من رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثاً نفعني الله عز وجل بما شاء أن ينفعني منه وإذا حدثني أحد من أصحابه
استحللتني فإذا حلف صدقته ، قال : وحدثني أبو بكر وصدق أبو بكر رضي الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه
وسلم يقول : ما من عبد يذنب ذنباً فيحسن الطهور ثم يقوم فيصلي ركعتين ثم يستغفر الله عز وجل إلا غفر له ثم
تلا قوله عز وجل : (والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم) ^(٢) الآية ، وروى أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه
وسلم أنه قال : إن المؤمن إذا أذنب ذنباً كانت نكتة سوداء في قلبه فإن تاب ونزع واستغفر صقل قلبه منها فإن زاد
زادت حتى تغلف قلبه ^(٣) ، فذلك الزان الذي ذكره الله عز وجل في كتابه (كلابان ران على قلوبهم ما كانوا
يكسبون) وروى أبو هريرة رضي الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم قال : **« إن الله سبحانه يرفع الدرجة للبدن في
الجنة فيقول يارب أني في هذه فيقول عز وجل باستغفار ولدك لك »** ^(٤) ، وروى عائشة رضي الله عنها : أنه صلى الله
عليه وسلم قال : اللهم اجعلني من الذين إذا احتسوا استبشروا وإذا أساءوا استغفروا ^(٥) ، وقال صلى الله عليه وسلم
: **« إذا أذنب العبد ذنباً فقال اللهم اغفر لي فيقول الله عز وجل أذنب عبيدي ذنباً فعمل أن له ربا يأخذ بالذنوب ويفر
الذناب عبيدي اعمل ما شئت فقد غفرت لك »** ^(٦) ، وقال صلى الله عليه وسلم : **« ما أصر من استغفر وإن عاد في اليوم
سبعين مرة »** ^(٧) ، وقال صلى الله عليه وسلم : **« إن رجلاً لم يعمل خيراً قط نازل إلى السماء فقال إن لي رباباً يغفر لي
فقال الله عز وجل قد غفرت لك »** ^(٨) ، وقال صلى الله عليه وسلم : **« من أذنب ذنباً فعمل أن الله قد أطلع عليه غفر له
وإن لم يستغفر »** ^(٩) ، وقال صلى الله عليه وسلم : **« يقول الله تعالى يا عبادي كل منكم مذنب إلا من عافيت فاستغفروني
أغفر لكم ومن علم أني ذو قدرة على أن أغفر له غفرت له ولا أبالي »** ^(١٠) ، وقال صلى الله عليه وسلم : **« من قال سبحانك
ظلمت نفسي وعلمت سوما فأغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت غفرت له ذنوبه ولو كانت كدب الخلق »** ^(١١) ، وروى

عن متفق عليه دون قوله : **« فإن التوبة .. إلخ »** ، وزاد : **« أو توب إلي فإنه البذل إذا اعترف بذنبه ثم تاب تاب الله عليه »** ، ولطيف
ل العامة : **« فإن العبد إذا أذنب ثم استغفر الله غفر له »** ^(١٢) ، حديث : **« كان يقول اللهم اغفر لي خطيئتي وجهلي وإسرافي في
أمرتي وما أنت أعلم به مني اللهم اغفر لي جدي وهزلي وخطيئتي وجهلي وإسرافي في أمري وما أنت أعلم به مني أنت المقدم وأنت المؤخر وأنت على كل شيء قدير »** ^(١٣) ، حديث علي بن أبي بكر
: **« ما من عبد يذنب ذنباً فيحسن الطهور ثم يقوم فيصلي ركعتين ثم يستغفر الله ألا غفر الله له »** ، أخرجه أصحاب السنن وصححه الترمذي
^(١٤) ، حديث أبي هريرة : **« إن المؤمن إذا أذنب ذنباً كانت نكتة سوداء في قلبه فإن تاب ونزع واستغفر صقل قلبه .. الحديث »**
أخرجه الترمذي وصححه ، والنسائي في اليوم والليالي وابن ماجه وابن حبان والحاكم
المرجعي في إسناده فيقول يارب أني في هذه فيقول الله عز وجل باستغفار ولدك لك ، رواه أحمد بإسناد حسن ، ^(١٥) ، حديث عائشة : **« اللهم
اجعلني من الذين إذا احتسوا استبشروا وإذا أساءوا استغفروا »** ، أخرجه ابن ماجه ورواه علي بن زيد بن جهمان مختلف فيه .
^(١٦) ، حديث : **« إذا أذنب العبد فقال اللهم اغفر لي فيقول الله أذنب عبيدي ذنباً فعمل أن له ربا يأخذ بالذنوب ويفر الذنوب ... الحديث »**
متفق عليه من حديث أبي هريرة . ^(١٧) ، حديث : **« ما أصر من استغفر وإن عاد في اليوم سبعين مرة »** ، أخرجه أبو داود
والترمذي من حديث أبي بكر ورواه طبراني في المعجم الكبير ، ^(١٨) ، حديث : **« إن رجلاً لم يعمل خيراً قط نظر إلى السماء
فقال إن لي رباباً يغفر لي فقال الله تعالى قد غفرت لك »** ، لم ألق له على أصل . ^(١٩) ، حديث : **« من أذنب ذنباً فعمل أن الله قد
أطلع عليه غفر له وإن لم يستغفر »** ، أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث ابن مسعود بنده ضعيف . ^(٢٠) ، حديث : **« يقول الله
يا عبادي كل منكم مذنب إلا من عافيت فاستغفروني أغفر لكم ومن علم أني ذو قدرة على أن أغفر له غفرت له ولا أبالي »** ، أخرجه الترمذي
وابن ماجه من حديث أبي ذر وهو قال الترمذي حسن وإسناده صحيح ، ^(٢١) ، حديث : **« من قال سبحانك ظلمت نفسي وعلمت
سوما فأغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت غفرت له ذنوبه ولو كانت كدب الخلق »** ، أخرجه البيهقي في البصائر من حديث علي : **« أن »**

« إن أفضل الاستغفار اللهم أنت ربى وأنا عبدك خلقتى وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت أعوذ بك من شر ما صنعت أبوء لك بنعمتك على وأبوء على نفسى بذنبي فقد ظلمت نفسى واعترفت بذنبي فاغفر لى ذنوبى ما قدمت بها وما أخرت فإنه لا يغفر الذنوب جميعا إلا أنت ^(١) » ، والآثار : قال خالد بن معدان يقول الله عز وجل إن أحب عبادى إلى المتحابون بحبى والمتعلقة قلوبهم بالمساجد والمستغفرون بالأمصار أولئك الذين إذا أردت أهل الأرض بمقربة ذكرتهم فتركهم وعصفت العقوبة عنهم . وقال قتادة رحمه الله : القرآن يدلكن عن دائركم ودوائكم أما دأوكم فالذنوب وأما دواؤكم فالاستغفار . وقال على كرم الله وجهه : العجب من يهلك ومعه النجاة فيل وما هى ؟ قال الاستغفار . وكان يقول : ما ألهم الله سبحانه عبدا استغفار وهو يريد أن يذهب . وقال الفضيل : قول العبد « أستغفر الله » تفسيرها : أغلى . وقال بعض العلماء : البعد بين ذنب ولعمة لإصلاحهما إلا الحمد والاستغفار . وقال الربيع بن نعيم رحمه الله : لا يقول أحدكم أستغفر الله وأبوء إليه فيكون ذنبا وكذبا إن لم يفعل ؟ ولكن ليقول : اللهم اغفر لى وب على . وقال الفضيل رحمه الله : الاستغفار بلا إقلاع توبة السكدة بين : وقالت رابعة المدوية رحمه الله : استغفارتنا يحتاج إلى استغفار كثير . وقال بعض الحكماء : من قدم الاستغفار على الله كان مستهزئا باق عرجل وهو لا يعلم . وسمع أعرابي وهو متعلق بأستار الكعبة يقول : اللهم إن استغفارى مع إصرارى للظوم وإن تركى استغفارك مع على بسمة عفوك لعجز ، فمك تحجب لى بالنعم مع غناك عنى وكى أتفيض إليك بالمعاصى مع فقرى إليك ! يامن إذا وعد وفى وإذا أوعد عفا أدخل عظيم جبرى فى عظيم عفوك يا أرحم الراحمين . وقال أبو عبيد الله الزرقا : لو كان عليك مثل عدد القطر وزيد البحر ذنوبا لمحت عنك إذا دعوت ربك بهذا الدعاء خلاصا إن شاء الله تعالى .

« اللهم إنى أستغفرك من كل ذنب ثبت إليك منه ثم صدت فيه وأستغفرك من كل ما وعدتك به من نفسى ولم أوف لك به وأستغفرك من كل عمل أردت به وجهك فخالطه غيرك وأستغفرك من كل نعمة ألعمت بها على فاستغف بها على ممسيتك وأستغفرك يا عالم النيب والفسادة من كل ذنب أتيت فى ضياء النهار وسواد الليل فى ملأ أوخلاء وسر وعلانية يا حلیم . ويقال إنه استغفار آدم عليه والسلام وقيل الحضر عليه الصلاة والسلام .

الباب الثالث : فى أدعية مأثورة ومعزية إلى أسبابها وأربابها مما يستحب

أن يدعو بها المرء صباحا ومساء ويقلب كل صلاة

فنها : دعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ركعتى الفجر قال ابن عباس رضى الله عنهما : بعثنى العباس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأثبته مسيا وهو فى بيت خالتي ميمونة فقام يصلى من الليل فلما صلى ركعتى الفجر قبل صلاة الصبح قال « اللهم إنى أسألك رحمة من عندك تهدي بها قلبى وتجمع بها شئلى وتلم بها شعثى وترد بها الفتن عنى وتصلح بها دينى وتحفظ بها ظامى وترفع بها شاهدى وترزق بها على وتبيض بها وجهى وتلهين بها رشدى وتعيننى بها من كل سوء . اللهم أعطنى إيمانا صادقا وبقينا ليس بعده كفر ورحمة أنال بها شرف كرامتك فى الدنيا والآخرة . اللهم إنى أسألك الفوز عند القضاء ومنال الشهادة وعيش السعادة والنصر على الأعداء ومرافقة الأنبياء . اللهم إنى

= رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ألا أعلمك كلمات يؤمنن لوكان عليك كبد النمل - أو كبد النور - ذنوبهما اللهك « فذكره بزيادة « لا اله إلا أنت » فى أوله وثبته ابن هبة . (١) حديث « أفضل الاستغفار اللهم أنت ربى وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت ... الحديث » أخرجه البخارى من حديث شداد بن أوس دون قوله « وقد ظلمت نفسى واعترفت بذنبي » ودون قوله « ذنوبى ما قدمت بها وما أخرت » ودون قوله « جميعا » .

أنزل بك حاجتي وإن ضعف رأيي وقلت حياتي وقصر عملي واقتربت إلى رحمتك فأسألك يا كافي الأمور وباشاقي الصدور كما تجير بين البحور أن تجيرني من عذاب السعير ومن دعوة الثبور ومن فتنة القبور . اللهم ما قصر عنه رأيي وضعف عنه عملي ولم تبلغه نيتي وأمنيتي من خير وعدته أحدا من عبادك أو خير أنت ممعليه أحدا من خلقك فإني أُرغب إليك فيه وأسألك يا رب العالمين . اللهم اجعلنا هادين مهتدين غير ضالين ولا مضلين حربا لأعدائنا وسلاما لأوليائنا نجيب بحبك من أطاعك من خلقك ولما دى بمداوتك خالفك من خلقك . اللهم هذا النداء عليك الإجابة وهذا الجهد عليك التكفل وإن الله وإنا إليه راجعون ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ذى الحجل الشديدا والأمر الرشيد أسألك إلا من يرم الوعيد والجنة يوم الخلود مع القزوين الشهود والركوع السجود الموفين بالعهد إنك رحيم ودود وأنت تفعل ما تريد . سبحان الذي ليس العز سبحان الذي تخطف بالنجيد وتكرم به سبحان الذي لا ينبش التسليح إلا له سبحان ذى الفضل والتأم سبحان ذى العزة والكرم سبحان الذي أحصى كل شيء بعلمه . اللهم اجعل لي نوراني قلبي ونورا في قبري ونورا في سمعي ونورا في بصري ونورا في شعري ونورا في بشري ونورا في فلي ونورا في فدي ونورا في عظامي ونورا من بين يدي ونورا من خلفي ونورا عن يميني ونورا عن شمالي ونورا من فوقي ونورا من تحتي . اللهم زدني نورا وأعطني نورا واجعل لي نورا ^(١) .

دعاء عائشة رضي الله عنها

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعائشة رضي الله عنها : عليك بالجوامع الكراميل قول اللهم إني أسألك من الخير كله عاجله وآجله ما علمت منه وما لم أعلم وأعوذ بك من الشر كله عاجله وآجله ما علمت منه وما لم أعلم وأسألك الجنة وما قرب إليها من قول وعمل وإلها من قول وعمل وأسألك من الخير ما سألك عبدك ورسولك محمد صلى الله عليه وسلم وأسألك ما نصيحت لي من أمر أن تجعل عاقبته رشدا برحمتك يا أرحم الراحمين ^(٢) .

دعاء فاطمة رضي الله عنها

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا فاطمة ما يملك أن تسمعي ما أوصيك به ؟ أن تقول : يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث لا تسكني إلى نفسي طرفة عين وأصلح لي شأني كله

دعاء أبي بكر الصديق رضي الله عنه

علم رسول الله صلى الله عليه وسلم أبي بكر الصديق رضي الله عنه أن يقول : اللهم إني أسألك بمحمد نبيك وإبراهيم خليلك وهدي نبيك وعيسى كليمك وبرحمتك وبشهادة موسى وإبراهيم عيسى ويزور داود وفرقان محمد صلى الله عليه وسلم

الباب الثالث : في أدعية مأثورة

(١) حديث ابن عباس : اللهم إني أسألك رحمة من عندك تهدي بها قلبي وتجمع بها شمل وتعلم بها حق ... الحديث . أخرجه الترمذي وقال غريب ولم يذكر في أوله : بسم الله لا اله إلا الله ولا نعمة في بيت ميمونة . وهو بهذه الزيادة في الدعاء للطبراني .
(٢) حديث أوله لعائشة : عليك بالجوامع الكراميل قول : اللهم إني أسألك من الخير كله عاجله وآجله ما علمت منه وما لم أعلم ... الحديث . أخرجه ابن ماجه والحاكم وصححه من حديثها (٣) حديث : يا فاطمة ما يملك أن تسمعي ما أوصيك به أن تقول يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث لا تسكني إلى نفسي طرفة عين وأصلح لي شأني كله . أخرجه النسائي في اليوم والليل والحاكم من حديث أبي إسحق . وقال صحيح على شرط الشيخين .

وعليهم أجمعين وبكل وحى أوحيت به أو قضاء قضيت أو سؤال أسألت به أو غنى أغفرت به أو فقير أغفنته أو ضال هديته وأسألك باسمك الذى أنزلته على موسى صلى الله عليه وسلم وأسألك باسمك الذى بثت به أرزاق العباد وأسألك باسمك الذى وضعت على الأرض فاستقرت وأسألك باسمك الذى وضعت على السموات فاستقلت وأسألك باسمك الذى وضعت على الجبال فرست وأسألك باسمك الذى استقل به عرشك وأسألك باسمك الطهر الطاهر الأحد الصمد الذى لا يزل فى كتابك من لدنك من النور المبين وأسألك باسمك الذى وضعت على الثمار فاستثار وعلى الليل فأظم وبطنتك وكبريائك وبنور وجهك الكريم أن ترزقنى القرآن والعلم به وتغفل به لى ودى وسمى وبصرى وتسمع لى به جسدى بحولك وقوتك فإنه لا حول ولا قوة إلا بك يا أرحم الراحمين (١) .

دعاء بريدة الأسلى رضى الله عنه .

وروى أنه قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا بريدة ألا أهلكك كتاب من أراد الله به خيرا علهن إياه ثم لم يذهبوا إياه أبدا قال : فقلت بلى يا رسول الله قال قل : اللهم إني ضعيف فقو وزك ضعيف فزك وخذ لى الخير يا نصيب واجعل الإسلام منتهى رضى ، اللهم إني ضعيف فقو وإني ذليل فأعز ولى فقير فأغنى يا أرحم الراحمين (٢) .

دعاء قبصة بن المخارق

إذ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : علنى كتاب يغمى الله عز وجل بها فقد كبر سنى ومجرت عن أشياء كثيرة كنت أعلمها فقال عليه السلام : أما لى كتاب فإذا صليت الغداة فقل ثلاث مرات سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم فإنه إذا قلتهن أمنت من النجم والجذام والبرص والفالج . وأما الآخر فقل : اللهم أهدنى من عندك وأفض على من فضلك وأنصر على من مضى على من رحمتك وأنزل على من يركنك . ثم قال صلى الله عليه وسلم : أما لى إذا وفى بين عبد يوم القيامة لم يدعوا فتح له أربعة أبواب من الجنة يدخل من أيها شاء (٣)

دعاء أبي الرداء رضى الله عنه

قيل لأبي الرداء رضى الله عنه : قد احترقت دارك - وكانت النار قد وقعت فى عقلت - فقال ما كان الله ليفعل ذلك ، فقيل له ذلك لئلا وهو يقول : ما كان الله ليفعل ذلك . ثم أتاه آت فقال : يا أبا الرداء إن النار حين دنت من دارك لحقت ، قال . قد علمت ذلك ، فقيل له : ما ندرى أى قوليك أعجب ؟ قال : إنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : من يقول هؤلاء الكلمات فى ليل أو نهار لم يضره شيء وقد قلتهن وهى : اللهم أنت رى لا إله إلا أنت عليك توكلت وأنت رب العرش العظيم لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن أعلم أن الله على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علما وأحصى كل شىء عددا . اللهم إنى أعوذ بك من شر نفسى

(١) حديث : علم رسول الله صلى الله عليه وسلم أبى بكر الصديق رضى الله عنه أن يقول اللهم إنى أسألك بمحمد نبيك وإبراهيم خليلك وموسى نبيك وميسى كنك... الحديث . فى الدعاء لحفظ القرآن رواه أبو الشيخ ابن حبان فى كتاب الثواب من رواية عبد الملك بن هارون بن عتبة عن أبيه . أن أبى بكر أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال لى أعلم القرآن وتغفل منى . فذكره بعد ذلك وأبو ذؤيبان وهو متعطل عن هارون وأبى بكر . (٢) حديث : يا بريدة ألا أهلكك كتاب من أراد الله خيرا علهن إياه . أخرجه الحاكم من حديث بريدة وقال صحيح الإسناد . (٣) حديث : إن قبصة بن المخارق قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم علنى كتاب يغمى الله به ، وقد كبرت سنى ومجرت ... الحديث . أخرجه ابن السنى فى اليوم والليلى من حديث ابن عباس وهو عند أحمد فى المستدرج من حديث قبصة نفسه وله رجل لم يسم

ومن شركك دابة أنت آخذ بناصيتها إن ربي على صراط مستقيم (١) .

دعاء الخليل إبراهيم عليه الصلاة والسلام

كان يقول إذا أصبح : اللهم إن هذا خلق جديد فافتحه على بضاعتك واختمه لي بمغفرتك ووضوئك وارزقني فيه حسنة تقبلها مني وزكها وضمنها لي وما عملت فيه من سيئة فآغفرها لي إنك غفور رحيم ودود كريم . قال : ومن دعا بهذا الدعاء إذا أصبح فقد أدى شكر يومه .

دعاء عيسى عليه الصلاة والسلام

كان يقول . اللهم إني أصبحت لا أستطيع دفع ما أكره ولا أملك نفع ما أرجو وأصبح الأمر بيد غيري وأصبحت مرتبنا بعمل فلا فقير أفقر مني . اللهم لا تشمت بي عدوى ولا تسبني صديق ولا تجعل معييتي في ديني ولا تجعل الدنيا أكبر همي ولا تسلط علي من لا يحقني يا حي يا قيوم .

دعاء الحضر عليه السلام

يقال : إن الحضر وإلياس عليهما السلام إذا التقيا في كل موسم لم يفترقا إلا عن هذه الكلمات : بسم الله ماشاء الله لا قوة إلا بالله ما شاء الله كل نعمة من الله ماشاء الله الخير كله بيد الله ماشاء الله لا يصرف السوء إلا الله . لمن قالها ثلاث مرات إذا أصبح أمن من الحرق والفرق والسرقة إن شاء الله تعالى .

دعاء معروف الكرخي رضى الله عنه

قال محمد بن حسان : قال لي معروف الكرخي رحمه الله ألا أعلمك عشر كلمات تحبس الدنيا ونفس الآخرة من دعا الله عز وجل بين وجد الله تعالى عندهن : قلت . اكتسبها لي قال لا . ولكن أرددها عليك كما رددتها على بكرين خنيس رحمه الله حسبي الله لديني حسبي الله لئن يئى حسبي الله الكريم لما أمني حسبي الله الحليم القوي لمن بنى على حسبي الله الشديد لمن كادني بسوء نفسي الله الرحيم عند الموت حسبي الله الرؤوف عند المسألة في القبر حسبي الله الكريم عند الحساب حسبي الله اللطيف عند الميزان حسبي الله القدير عند الصراط حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم . وقد روى عن أبي الدرداء أنه قال : من قال في كل يوم سبع مرات (فإن تولوا فقل حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم) كفاه الله عز وجل ما أهمه من أمر آخرته صادقا كان أو كاذبا .

دعاء عتبة الغلام

وقد روى في الثمام بعد موته فقال : دخلت الجنة بهذه الكلمات . اللهم يا هادي المضلين ويا وارحم المذنبين ويا مقبل ضرات العائرين أرحم عبدك ذا الخطر العظيم والمسلمين كلهم أجمعين واجعلنا مع الأسيار المرزوقين الذين أنعمت عليهم من التبيين والصديقين والشهداء والصالحين آمين يارب العالمين .

دعاء آدم عليه الصلاة والسلام

قالت عائشة رضى الله عنها : لما أراد الله عز وجل أن يتوب على آدم صلى الله عليه وسلم طاف بالبيت سبعا

(١) حديث « قيل لأبي الدرداء : أحرمت ذنوبك فقال ما كان الله يمسلك ذلك ... الحديث » أخرجه الطبراني في الدعاء من حديث أبي الدرداء ضعيف .

وهو يومئذ ليس بمبنى ربوة حراء ثم قام فصلى ركعتين ثم قال : اللهم إنك تعلم سرى وعلايى فاقبل معذرتى وتعلم حاجتى فأعطني سؤل وتعلم ماى نفسى فأغفر لى ذنوبى . اللهم إنى أسألك إيماناً يباشر قلبى ويتيقن صدقاً حتى أعلم أنه لن يعصينى إلا ما كتبهته على والرضا بما قسمته لى فإذا الجلال والإكرام ، فأوحى الله عز وجل لى إني قد غفرت لك ولم يأتى أحد من ذريتك فيدعونى بمثل الذى دعوتنى به إلا غفرت له وكشفت غمره وهومعه ونزعت الفقر من بين عينيه وانجمرت له من وراء كل تاجر وجهاته الدنيا وهى راغمة وإن كان لا يريد بها .

دعاء على بن أبى طالب رضى الله عنه

رواه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : إن الله تعالى يعبد نفسه كل يوم ويقول : إنى أنا الله رب العالمين . إنى أنا الله لا إله إلا أنا الحق القيوم . إنى أنا الله لا إله إلا أنا العلى العظيم . إنى أنا الله لا إله إلا أنا لم ألد ولم أولد إنى أنا الله لا إله إلا أنا العفو الغفور . إنى أنا الله لا إله إلا أنا مبدئ كل شىء وللى يعود العزيز الحكيم الرحمن الرحيم مالك يوم الدين خالق الخير والشر خالق الجنة والنار الواحد الأحد الفرد الصمد الذى لم يتخذ صاحبة ولا ولداً الفرد الأوتر عالم الغيب والشهادة الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر الخالق البارئ المصور الكبير المتعال المتقدر القهار الحليم الكريم أهل التاء والجد أعلم السر وأخفى القادر الرزاق فوق الخلق والخلق (١) ، وذكر قبل كل كلمة : إنى أنا الله لا إله إلا أنا ، كما أوردناه فى الأول فمن دعا بهذه الأسماء قليلاً ، وإنه أنت الله لا إله إلا أنت كذا وكذا ، فمن دعا بهن كتب من الساجدين المختبين الذين يجاورون محمداً وإبراهيم وموسى وعيسى والتبيين صلوات الله عليهم فى دار الجلال . وله ثواب العابدين فى السموات والأرضين وصلى الله على محمد وعلى كل عبد مصطفى .

دعاء ابن المعتز وهو سليمان التيمي وتسميته الله عنه

روى أن يونس بن عبيد رأى رجلاً فى المنام بمن قتل شهيداً ببلاد الروم فقال : ما أفضل ما رأيت ثم من الأعمال ؟ قال : رأيت تسميات ابن المعتز من الله عز وجل بمكان وهى هذه : سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم عدد ما خلق وعدد ما هو خالق وزنة ما خلق وزنة ما هو خالق وملء ما خلق وملء ما هو خالق وملء سمواته وملء أرضه ومثل ذلك وأضعاف ذلك وعدد خلقه وزنة عرشه ومشيى رحمة ومداد كلماته ومبلغ رضاه حتى يرضى وإذا رضى وعدد ما ذكره به خلقه فى جميع ما مضى وعدد ما ماضى فإني فى كل سنة وشهر وجمعة ويوم وليلة وساعة من الساعات وشم ونفس من الأنفاس أبداً من الأباد من أبداً إلى أبداً أبداً الدنيا وأبداً الآخرة وأكثر من ذلك لا ينقطع أوله ولا ينفذ آخره .

دعاء إبراهيم بن آدم رضى الله عنه

روى إبراهيم بن بشار عاصمه : أنه كان يقول هذا الدعاء فى كل يوم جمعة إذا أصبح وإذا أمسى : مرحباً يوم المزيد والصباح الجديد والكتب والشهد يومنا هذا يوم عيد أكتب لنا فيه ما نقول بسم الله الحميد المجيد الرفيع الودود الفعال فى خلقه ما يريد أصبحت بالله مؤمناً وبقائه مصدقاً وبصحة معرفته ومن ذنبى مستغفراً ولربوبية الله خاضعاً

(١) حديث عن : إن الله تعالى يعبد نفسه كل يوم يقول لى أنا الله رب العالمين لى أنا الله لا إله إلا أنا الحق القيوم .. الحديث بطوله لم أجده أسلاً .

ولسوى الله في الآلة جاحداً وإلى الله فقيراً وعلى الله متكللاً وإلى الله متنياً أشهد الله وأشهد ملائكته وأنبياءه ورسله وحملته وعرشه ومن خلقه ومن هو غافقه بأنه هو الله الذي لا إله إلا هو وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم تسليماً وأن الجنة حق وأن النار حق والحوض حق والشفاعة حق ومنكراً ونكيراً حق ووعداً حق ووعيداً حق ولقاءك حق والساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور على ذلك أحيا وعليه أموت وعليه أبعث إن شاء الله . اللهم أنت ربى لا إله إلا أنت خلقتنى وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت أعوذ بك اللهم من شر ما صنعت ومن شر كل ذي شر . اللهم إني ظلمت نفسي فأغفر لى ذنوبى فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت واهدنى لأحسن الأخلاق فإنه لا يهدى لأحسنها إلا أنت واصرف عني سيئها فإنه لا يصرف سيئها إلا أنت ليك وسديك والخير كله بيدك أنا لك وإليك أستغفرك وأتوب إليك . آمين اللهم بما أرسلت من رسول وآمنت اللهم بما أنزلت من كتاب وصلى الله على محمد النبي الأمى وعلى آله وسلم تسليماً كثيراً غاثم كل شئ ومفتاحه وعلى أنبيائه ورسله أجمعين آمين يا رب العالمين . اللهم أوردنا حوض محمد واسقنا بكأسه مشرباً برويا سائفاً هنياً لا نغماً بعده أبداً واحشونا في زمرة خير خرايا ولا ناكثين للمهد ولا مرتابين ولا مفتوتين ولا مضطرب علبنا ولا ضالين . اللهم أعصمنى من فتن الدنيا ووفقنى لما تحب وترضى وأصلح لى شأنى كله وبقبى بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ولا تغفلنى وإن كنت ظالماً سبحانه ، سبحانهك يا على يا عظيم يا بارئ يا رحيم يا عزيز يا جبار سبحانه من سبحته له السموات باكتافها وسبحان من سبحته له البحار بأمرأجها وسبحان من سبحته له الجبال بأصدائها وسبحان من سبحته له الحيتان بلغاتها وسبحان من سبحته له النجوم فى السماء بأمرأجها وسبحان من سبحته له الأنهار بأصولها وتمازها وسبحان من سبحته له السموات السبع والأرضون السبع ومن فىهن ومن عليهن سبحانه من سبح له كل شئ . من غلظته تباركت وتعالى سبحانهك ، سبحانهك يا حى يا قيوم يا عليم يا حليم سبحانهك لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك تحيى وتميت وأنت حى لا تموت بيدك الخير وأنت على كل شئ قدير .

الباب الرابع

فى أدعية مأثورة عن النبي صلى الله عليه وسلم وعن أصحابه رضى الله عنهم

معدودة الأسانيد متخذه من جملة ما جمعه أبو طالب المكي وابن خزيمة وابن منذر رحمهم الله يستحب للريد إذا أصبح أن يكون أحب أوراده الدعاء - كما سيأتى ذكره فى كتاب الأوراد - فإن كنت من المريدن لحرق الآخرة المقتدين برسول الله صلى الله عليه وسلم فيها دعا به فقل فى مفتتح دعواتك ^(١) أعقاب صلواتك ^(٢) سبحان ربى الأعلى الوهاب لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شئ قدير . وقل : رضيت بالله ربا وبالإسلام ديناً وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبياً ^(٣) . ثلاث مرات - وقل اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة رب كل شئ ومليك أشهد أن لا إله إلا أنت أعوذ بك من شر نفسى وشر الشيطان وشره ^(٤) وقل : اللهم إنى أسألك العفو والعافية فى دينى ودنياى وأهلى ومالى اللهم استر عوراتى وآمن روعاتى وأقل

الباب الرابع فى أدعية مأثورة عن النبي صلى الله عليه وسلم

(١) حديث « افتتح الدعاء سبحان ربى الأعلى الوهاب » تقدم فى الباب الثانى فى الدعاء . (٢) حديث « قل أعقاب الصلوات لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شئ قدير » متفق عليه من حديث المنيرة بن شعبة . (٣) حديث « رضيت بالله ربا .. الحديث » تقدم فى الباب الأول من الأذكار . (٤) حديث « اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة رب كل شئ ومليك أشهد أن لا إله إلا أنت أعوذ بك من شر نفسى وشر الشيطان وشره » =

عشراتي واحفظني من بين يدي ومن خلفي وعن يميني وعن شمالي ومن فوق وأعوذ بك أن أختال من تحتي ^(١) اللهم لا تؤمنني مكره ولا تولني غيرك ولا تنزع عني سرك ولا تنسني ذكرك ولا تجعلني من الغافلين ^(٢) . **وقل :** اللهم أنت رب لا إله إلا أنت خلقتني وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت أعوذ بك من شر ما صنعت أبوء لك بنعمتك على وأبوء بذنبي فأغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت ^(٣) . **ثلاث مرات -** **وقل :** اللهم عافني في بدني وعافني في سمعي وعافني في بصري لا إله إلا أنت ^(٤) . **ثلاث مرات -** **وقل :** اللهم إني أسألك الرضا بعد القضاء وبرد البش بعد الموت ولذة النظر إلى وجهك الكريم وشوقاً إلى لقاءك من غير ضراء معضرة ولا فتنة معنة وأعوذ بك أن أظلم أو أظلم أو اعتدى أو يمتدعي أو أركب خطيئة أو ذنبا لا تغفره ^(٥) . اللهم إني أسألك الثبات في الأمر والعزيمة في الرشد وأسألك شكر نعمتك وحسن عبادتك وأسألك قلبا شامخا سليما وخلقا سقيما لسانا صادقا وعَمَلا مقبلا وأسألك من خير ما تعلم وأعوذ بك من شر ما تعلم وأستغفر لك لما تعلم فإنه تعلم ولا أعلم وأنت علام الغيوب ^(٦) . اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت وما أنت أعلم به مني فإنه أنت المتقن وأنت الموفق وأنت على كل شيء قدير وعلى كل غيب شهيد ^(٧) . اللهم إني أسألك إيمانا لا يرتد ونفعا لا ينفذ وفرة عين الأبد ومرافقة نبيك محمد صلى الله عليه وسلم في أعلى جنة الخلد ^(٨) . اللهم إني أسألك الطيبات وفعل الخيرات وترك المنكرات وحب المساكين أسألك حبك وحب من أحبك وحب كل عمل يقرب إلى حبك وإن توبت على وتغفرت وتزحزحت وإذا أردت بقرم فتنة فأقضي لي ولك غير مفتون ^(٩) . اللهم بملكك الغيب وقدرتك على الخلق أحيني ما كانت الحياة خيرا لي وتوفني ما كانت الوفاة خيرا لي أسألك خشيتك في الغيب والشهادة وكلمة العدل في الرضا والنضب والتصد في الغنى والفقر ولذة النظر إلى وجهك والشوق إلى لقاءك وأعوذ بك من ضراء معضرة وفتنة مضلة . واللهم زنا

= أخرجه أبو داود والترمذي وصححه وابن حبان والماياك وصححه من حديث أبي هريرة : أن أبا بكر الصديق قال : يا رسول الله صرت بكلمات أولهن إذا أصبحت وإذا أصبحت قال قل اللهم . فذكره (١) . **حديث :** اللهم إني أسألك العافية في ديني ودنياي وأعملي ومالي اللهم استر عورتى وآمن روعتي وأفل سرتي واحفظني من بين يدي ومن خلفي وعن يميني وعن شمالي ومن فوق وأعوذ بك بظلمتك أن أختال من تحتي . أخرجه أبو داود والنسائي وابن ماجه والحاكم من حديث ابن عمر . قال لم يكن النبي صلى الله عليه وسلم يدع هؤلاء الكلمات حين يصلي ويصحب . **حديث :** اللهم لا تؤمنني مكره ولا تولني غيرك ولا تنزع عني سرك ولا تنسني ذكرك ولا تجعلني من الغافلين . **رواه أبو بصير** . **حديث :** اللهم إني أسألك الرضا بعد القضاء وبرد البش بعد الموت ولذة النظر إلى وجهك الكريم وشوقاً إلى لقاءك من غير ضراء معضرة ولا فتنة معنة وأعوذ بك أن أظلم أو أظلم أو اعتدى أو يمتدعي أو أركب خطيئة أو ذنبا لا تغفره ^(٥) . اللهم إني أسألك الثبات في الأمر والعزيمة في الرشد وأسألك شكر نعمتك وحسن عبادتك وأسألك قلبا شامخا سليما وخلقا سقيما لسانا صادقا وعَمَلا مقبلا وأسألك من خير ما تعلم وأعوذ بك من شر ما تعلم وأستغفر لك لما تعلم فإنه تعلم ولا أعلم وأنت علام الغيوب ^(٦) . اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت وما أنت أعلم به مني فإنه أنت المتقن وأنت الموفق وأنت على كل شيء قدير وعلى كل غيب شهيد ^(٧) . اللهم إني أسألك إيمانا لا يرتد ونفعا لا ينفذ وفرة عين الأبد ومرافقة نبيك محمد صلى الله عليه وسلم في أعلى جنة الخلد ^(٨) . اللهم إني أسألك الطيبات وفعل الخيرات وترك المنكرات وحب المساكين أسألك حبك وحب من أحبك وحب كل عمل يقرب إلى حبك وإن توبت على وتغفرت وتزحزحت وإذا أردت بقرم فتنة فأقضي لي ولك غير مفتون ^(٩) . اللهم بملكك الغيب وقدرتك على الخلق أحيني ما كانت الحياة خيرا لي وتوفني ما كانت الوفاة خيرا لي أسألك خشيتك في الغيب والشهادة وكلمة العدل في الرضا والنضب والتصد في الغنى والفقر ولذة النظر إلى وجهك والشوق إلى لقاءك وأعوذ بك من ضراء معضرة وفتنة مضلة . واللهم زنا

برينة الإيمان واجعلنا عداوة مهتدين^(١) اللهم اقم لنا من خشيتك ما تحول به بيننا وبين مصابيك ومن طاعتك ما تبطلنا به جنتك ، ومن اليقين ما تهون به علينا مصائب الدنيا والآخرة^(٢) اللهم املا وجوهنا منك حياء وقلوبنا منك قرقا واسكن في نفوسنا من عظمتك ما تذلل به جوارحنا لخديتك واجعلك اللهم أحب إلينا من سواك واجعلنا أخشى لك من سواك^(٣) اللهم اجعل أول يومنا هذا صلاحا وأوسطه فلاحا وآخره نجاحا اللهم اجعل أوله رحمة وأوسطه نعمة وآخره تكملة ومغفرة^(٤) الحمد لله الذي تواضع كل شيء لهظته وذلل كل شيء لمرته وخضع كل شيء للملك واستسلم كل شيء لقدرته والحمد لله الذي سكن كل شيء لهيبته وأطهر كل شيء بمحنته وتصاغر كل شيء لكبريائه^(٥) اللهم صل على محمد وعلى آل محمد وأزواج محمد وذريته وبارك على محمد وعلى آل وأزواجه وذريته كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم في العالمين إنك حميد مجيد^(٦) اللهم صل على محمد عبدك ونبيك ورسولك النبي الأمي رسولك الأمين وأعطه المقام المحمود الذي وعدته يوم الدين^(٧) اللهم اجعلنا من أوليائك المتقين وحزبك المفلحين وعبادك الصالحين واستعملنا لمراضائك عنا ووفقنا لمجايلك منا وصرفنا بحسن اختيارك لنا^(٨) نسألك جوامع الخير وفوائده وخواتمه ونودو بك من جوامع الشر وفوائده وخواتمه^(٩) اللهم بقدرتك على تب على إنك أنت التواب الرحيم وبجملتك على اغت عنك أنت الغفار الحليم وبملكك في أرفق في إنك أنت أرحم الراحمين وبملكك أنت ملكتي نفسي ولا تسلمها على إنك أنت الملك الجبار^(١٠) سبحانه اللهم وبمحمدك لإله إلا أنت عملت سودا وظلمت نفسي فأغفر لي ذنبي إنك أنت ربى ولا ينفر الذنوب إلا أنت^(١١) اللهم املئني رشدي وفقني شر نفسي^(١٢) اللهم اوزقني حلالا لا تعافيني عليه وفقني بما رزقني

- (١) حديث « اللهم إني أسألك بذلك النبي وقدرتك على الخلق أجبل ما كانت الحياة خيرا لي ... الحديث » إلى قوله « واجعلنا هداة مهتدين » أخرجه النسائي والحاكم وقال صحيح الإسناد من حديث عمار بن ياسر^(١) . قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو به « (٢) حديث « اللهم اقم لنا من خشيتك ما تحول به بيننا وبين مصابيك » الحديث « أخرجه الترمذي وقال حسن والسنن في اليوم والنية والحاكم وقال صحيح على شرط البخاري من حديث ابن عمر^(٢) . أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقرأ بمجلسه بذلك » (٣) حديث « اللهم املا وجوهنا منك حياء وقلوبنا بك قرقا ... الحديث » إلى قوله « واجعلنا أخشى لك من سواك » لم أقف له على أصل (٤) حديث « اللهم اجعل أول يومنا هذا صلاحا وأوسطه فلاحا وآخره نجاحا اللهم اجعل أوله رحمة وأوسطه نعمة وآخره تكملة » أخرجه عبد بن حميد في المنتخب والطبراني من حديث ابن أوفى باللفظ الأول لفظ إلى قوله « نجاحا » واستاده ضعيف .
- (٥) حديث « الحمد لله الذي تواضع كل شيء لهظته وذلل كل شيء لمرته ... الحديث » إلى قوله « وتصاغر كل شيء لكبريائه » أخرجه الطبراني من حديث ابن عمر بنند ضعيف دون قوله « والحمد لله الذي سكن كل شيء لهيبته » إلى آخره وكذلك رواه في الفصاح من حديث أم سلمة وسنده ضعيف أيضا (٦) حديث « اللهم صل على محمد وأزواجه وذريته ... الحديث » إلى قوله « حميد مجيد » يهدم في الباب الثاني (٧) حديث « اللهم صل على محمد عبدك ونبيك ورسولك النبي الأمي رسول الأمين وأعطه المقام المحمود يوم الدين » لم أجده بهذا اللفظ فهوما والبخاري من حديث أبي سعيد « اللهم صل على محمد عبدك ورسولك » وابن حبان والدارقطني والحاكم والبيهقي من حديث ابن مسعود « اللهم صل على محمد النبي الأمي » والنسائي من حديث حابر « وارتد المقام المحمود الذي وعدته » وهو عند البخاري بلفظ « وأبنت مفا محمدا » قال الدارقطني لاستاده حسن وقال الحاكم صحيح وقال البيهقي في المعرفة استاده صحيح (٨) حديث « اللهم اجعلنا من أوليائك المتقين وحزبك المفلحين ... الحديث » إلى قوله « صرفنا بحسن اختيارك لنا » لم أقف له على أصل (٩) حديث « نسألك جوامع الخير وفوائده وخواتمه ونودو بك من جوامع الشر وفوائده وخواتمه » أخرجه الطبراني من حديث أم سلمة « أنه كان يدعو بهذا الكلمات » فنذكر منها « اللهم إني أسألك فوائده الخير وخواتمه وأوله وآخره ونافعه وباطنه والفرجات العلل من الجنة آتية » فيه عام من عبادة لأعلم روى عنه إلا موسى بن عقبه (١٠) حديث « اللهم بقدرتك على تب على إنك أنت التواب الرحيم وبجملتك على اغت عنك ... الحديث » إلى قوله « إنك الملك الجبار » لم أقف له على أصل (١١) حديث « سبحانهك اللهم وبمحمدك لإله إلا أنت عملت سودا وظلمت نفسي فأغفر لي ذنبي أنت ربى لا ينفر الذنوب إلا أنت » أخرجه البيهقي في السموات من حديث علي دون قوله « ذنبي إنك أنت ربى » وقد يهدم في الباب الثاني (١٢) حديث « اللهم املئني رشدي وفقني شر نفسي » أخرجه الترمذي من حديث عمران بن حصين =

واستعملني به صالحا تقبله مني ^(١) اللهم إني أسألك العفو والعافية وحسن اليقين والمعافة في الدنيا والآخرة ^(٢) يامن لا تضره الذنوب ولا تنقصه المغفرة هب لي مالا يضرك وأعطني مالا ينقصك ربنا أفرغ علينا صبرا وتوفنا مسلمين . أنت ولي في الدنيا والآخرة توفني مسلما والحقني بالصالحين . أنت ولينا فأغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين . واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة وفي الآخرة إنا هدنا إليك . ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير . ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين . ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا وأغفر لنا ربنا إنك أنت العزيز الحكيم . ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين . ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم . ربنا آتانا من لئلك رحمة وهي لنا من أمرنا رشدا . ربنا آتانا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار . ربنا إنا سمعنا ناديا ينادي للإيمان - إلى قوله عز وجل - إنك لا تغفل للميعاد . ربنا لا تتواخذا إن لنا لسيئا أو أخطأنا ربنا - إلى آخر السورة ^(٣) - .

رب اغفر لي ولوالدي وارحمهما كما ربياني صغيرا . واغفر للؤمنين والمؤمنات والمسلمين والمسلمات الأحياء منهم والأموات ^(٤) رب اغفر وارحم وتجاوز عما تعلم وأنت الأكرم وأنت خير الراحمين وأنت خير الغافرين ولنا لله ولنا إليه راجعون ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم وحسبنا الله ونعم الوكيل وصلّى الله على محمد خاتم النبيين وآله وصحبه وسلم تسليما كثيرا ^(٥) .

أنواع الاستعاذة المأثورة عن النبي صلى الله عليه وسلم

اللهم إني أعوذ بك من البخل وأعوذ بك من الجبن وأعوذ بك من أن أرد إلى أرذل العمر وأعوذ بك من فتنة الدنيا وأعوذ بك من عذاب القبر ^(٦) اللهم إني أعوذ بك من طمع يهدي إلى طمع ومن طمع في غير 'مطمع ومن

» أن النبي صلى الله عليه وسلم عليه الحسين » وقال حسن غريب ورواه النسائي في اليوم والليلة والمحاكم من حديث حميد والدمحمران وقال صحيح على شرط الشيخين (١) حديث » اللهم ارزقني خلاصا لا دافئ له . وفيه بما رزقني واستعملني به صالحا تقبله مني » أخرجه الحاكم من حديث ابن عباس » قال النبي صلى الله عليه وسلم يدعو اللهم فتني بما رزقني وبارك لي فيه وأخلص علي كل فائبة لي بغيره » وقال صحيح الإسناد ولم يخرجاه (٢) حديث » اللهم إني أسألك الطو والعافية والمعافة وحسن اليقين في الدنيا والآخرة » أخرجه النسائي من حديث أبي بكر الصديق بلفظ » سلوا الله العافية فإنه لم يؤت أحد بعد النبي خيرا من المعافة » وفي رواية للبيهقي » سلوا الله الطو والعافية واليقين في الأول والآخرة فإنه خلّو البعد بعد النبي خيرا من العافية » وفي رواية لأحد » أسأل الله الطو والعافية » (٣) حديث » يامن لا تضره الذنوب ولا تنقصه المغفرة هب لي مالا يضرك وأعطني مالا ينقصك » أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث علي بن عبد الله ضعيف (٤) حديث » رب اغفر لي ولوالدي وارحمهما كما ربياني صغيرا واغفر للؤمنين والمؤمنات والمسلمين والمسلمات الأحياء منهم والأموات » أخرجه أبو داود وابن ماجه بإسناد حسن من حديث أبي أسيد السامعي » قال رجل من بني سلفة هل ين علي من ربي شيء ؟ قال نعم الصلاة عليها والاستغفار لها ... الحديث » ولأبي الشيخ ابن حبان في التزيب والمستدرق » في الدعوات من » حديث أبي » من استغفر للؤمنين والمؤمنات ود الله عليه عن كل مؤمن مضى من أول الدهر أو هو كائن إلى يوم القيامة » وسنده ضعيف وفي صحيح ابن حبان من حديث أبي سعيد » أما رجل مسلم لم يكن عنده صدقة ليل في دمه » اللهم هل علي محمد عبدك ورسولك وصل على المؤمنين والمؤمنات والمسلمين والمسلمات فإنها زكاة » (٥) حديث » رب اغفر وارحم وتجاوز عما تعلم وأنت الأكرم الأكرم وأنت خير الراحمين وخير الغافرين » أخرجه أحمد من حديث أم سلمة » أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول رب اغفر وارحم وأهدني السبيل الأقوم » وفيه على بن زيد بن جهمان يختلف فيه » ولفظي في الدعاء من حديث ابن مسعود أنه صلى الله عليه وسلم كان يقول إذا سمع في بطن المسيل اللهم اغفر وارحم وأنت الأكرم » وفيه لث بن أبي سليم يختلف فيه ورواه موقوف عليه بسند صحيح (٦) حديث » اللهم إني أعوذ بك من البخل وأعوذ بك من الجبن وأعوذ بك أن أرد إلى أرذل العمر وأعوذ بك من فتنة الدنيا وأعوذ بك من عذاب القبر » أخرجه البخاري من حديث سعيد بن أبي وقاص .

طمع حيث لا مطمع ^(١) اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع وقلب لا يخشع ودعاء لا يسمع ونفس لا تتبع . وأعوذ بك من الجوع فإنه بئس الضجيع ومن الخيانة فإنه بئس البطانة ومن الكسل والبخل والجبن والمهرم ومن أن أرد إلى أرذل العمر ومن فتنه الديال وعذاب القبر ومن فتنه الحيا والميت . اللهم إنا لسالك قلوباً أزاهمة مخبئة منية في سبيك . اللهم إني أسألك عزائم مغفرتك وموجبات رحمتك والسلامة من كل إثم والغنيمة من كل بر والفوز بالجنة والنجاة من النار ^(٢) . اللهم إني أعوذ بك من السردى وأعوذ بك من الغم والفرق والمدم وأعوذ بك من أن أموت في سبيك مدبراً وأعوذ بك من أن أموت في تطلب الدنيا ^(٣) اللهم إني أعوذ بك شر ما صلت ومن شر ما لم أعلم ^(٤) . اللهم جنني منكرات الأخلاق والأعمال والأدواء والآهواء ^(٥) . اللهم إني أعوذ بك من جهد البلاء ودرك الشقاء وسوء القضاء وشماتة الأعداء ^(٦) اللهم إني أعوذ بك من الكفر والدين والفقر وأعوذ بك من عذاب جهنم وأعوذ بك من فتنه الديال ^(٧) اللهم إني أعوذ بك من شر سمى وبصرى وشر لسانى وقلبي وشر مني ^(٨) . اللهم إني أعوذ بك من جار السوء في دار المقامة فإن جار البادية يتحول ^(٩) . اللهم إني أعوذ بك من النسوة والنفقة والبيعة والذلة والمسكنة وأعوذ بك من الكفر والفقر والفسوق والشقاق والتفارق وسوء الأخلاق وضيق الأرزاق والسمة والرياء وأعوذ بك من الصمم والبكم والعمى والجنون والجذام والبرص وسى الاستقام ^(١٠) اللهم إني أعوذ بك من زوال نعمتك ومن تحول عافيتك ومن لجأة قمتك ومن جمع سخطك ^(١١) اللهم إني أعوذ بك من عذاب النار وفتنة النار وعذاب القبر وفتنة القبر وشر فتنة الغنى وشر فتنة الفقر وشر فتنة

(١) حديث « اللهم إني أعوذ بك من طبع يهدى الى طبع وطبع في غير طبع ومن طبع حيث لا مطبع » أخرجه أحمد والحاكم من حديث مطا وقال مستقيم الإسناد .

(٢) حديث « اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع وقلب لا يخشع ودعاء لا يسمع ... الحديث » الى قوله « والنجاة من النار » أخرجه الحاكم من حديث ابن مسعود وقال صحيح الإسناد وليس كما قال إلا أنه ورد مفرداً في أحاديث جيدة الأسناد .

(٣) حديث « اللهم إني أعوذ بك من الردى وأعوذ بك من الغم ... الحديث » الى قوله « وأعوذ بك أن أموت في طلب الدنيا » أخرجه أبو داود والنسائي والحاكم وصححه استاده من حديث أبي اليسر واسم كعب بن عمر بزيادة فيه دون قوله « وأعوذ بك أن أموت في طلب دنيا » وتقدم من عند البخاري الاستعاذة من فتنه الدنيا . (٤) حديث « اللهم إني أعوذ بك من شر ما صلت ومن شر ما لم أعلم » قلت : هكذا في غير نسخة « صلت » وإنما هو « عملت » وأما « كذا رواه مسلم من حديث عائشة ولأبي بكر بن الصديق في البخاري في حديث مرسل في الاستعاذة وفيه « وشر ما لم أعلم وشر ما لم أعلم » .

(٥) حديث « اللهم جنني منكرات الأخلاق والأعمال والأدواء والآهواء » أخرجه الترمذي وحسنه والحاكم وصححه واللفظ له من حديث طلبة بن مالك . (٦) حديث « اللهم إني أعوذ بك من جهد البلاء ودرك الشقاء وسوء القضاء وشماتة الأعداء » مطلق عليه من حديث أبي هريرة . (٧) حديث « اللهم إني أعوذ بك من الكفر والدين والفقر وأعوذ بك من عذاب جهنم وأعوذ بك من فتنه الديال » أخرجه النسائي والحاكم وقال صحيح الإسناد من حديث أبي سعيد الخدري من رسول الله صلى الله عليه وسلم « أنه كان يقول من الكفر والدين » وفي رواية للذائي « من الكفر والفقر » ولمسلم من حديث أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم « أنه كان يصوم من عذاب القبر وعذاب جهنم وفتنة الديال » وللشيخين من حديث عائشة في حديث قال فيه « ومن شر فتنة المسيح الديال » .

(٨) حديث « اللهم إني أعوذ بك من شر سمى وبصرى وشر لسانى وقلبي وشر مني » أخرجه أبو داود والنسائي والترمذي وحسنه الحاكم وصححه استاده من حديث سهل بن حديد . (٩) حديث « اللهم إني أعوذ بك من جار السوء في دار المقامة فإن جار البادية يتحول » أخرجه النسائي والحاكم من حديث أبي هريرة وقال صحيح على شرط مسلم . (١٠) حديث « اللهم إني أعوذ بك من النسوة والنفقة والبيعة والذلة والمسكنة وأعوذ بك من الكفر والفقر والفسوق والشقاق والتفارق وسوء الأخلاق وضيق الأرزاق والسمة والرياء وأعوذ بك من الصمم والبكم والجنون والجذام والبرص وسى الاستقام » أخرجه أبو داود والذائي مقتصرين على الأربعة الأخيرة والحاكم بإجماع من حديث أنس وقال صحيح على شرط الشيخين .

(١١) حديث « اللهم إني أعوذ بك من زوال نعمتك وتحول عافيتك وبأ؛ هذتك ومن جمع سخطك » أخرجه مسلم من حديث ابن عمر .

المسيح الدجال وأعوذ بك من المغم والمأثم^(١) اللهم إني أعوذ بك من نفس لا تسبغ وقلب لا ينشع وصلاة لا تنفع ودعوة لا تستجاب وأعوذ بك من شر القم وفتنة الصدر^(٢) . اللهم إني أعوذ بك من غلبة الدين وغلبة العدو وشبهة الأعداء^(٣) وصلى الله على محمد وعلى كل عبد مصطفى من كل العالمين آمين .

الباب الخامس : في الادعية المأثورة عند حدوث كل حادث من المحوادث

إذا أصبحت وسمعت الأذان فيستحب لك جواب المؤذن وقد ذكرناه وذكرنا أدعية دخول الخلاع والخروج منه وأدعية الوضوء في كتاب الطهارة ، فإذا خرجت إلى المسجد فقل : اللهم اجعل في قلبي نوراً وفي لساني نوراً واجعل في سمعي نوراً واجعل في بصري نوراً واجعل خلقي نوراً وأماي نوراً واجعل من فوقني نوراً اللهم أعطني^(١) نوراً ، وقل أيضاً : اللهم إني أسألك بحق السائلين عليك وبحق ممشأى هذا إليك^(٢) ، فإن لم أخرج أشراً ولا بطراً ولا رياء ولا سمعة خرجت افتقاراً وظلمة فأسألك فأسألك أن تغفر لي ذنوبي ولا تغفر الذنوب إلا أنت ، فإن خرجت من المنزل لحاجة فقل : بسم الله رب أعوذ بك أن أظلم أو أظلم أو أجمل أو يجهل علي^(٣) بسم الله الرحمن الرحيم لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم بسم الله التكلان على الله^(٤) ، فإذا انتهيت إلى المسجد تريد دخوله فقل : اللهم صل على محمد وعلى آل محمد وسلم اللهم اغفر لي جميع ذنوبي وافتح لي أبواب رحمتك^(٥) ، وقدم رجلك اليمنى في الدخول فإذا رأيت في المسجد من يبيع أو يبتاع فقل : لا أبيع الله تجارتك^(٦) ، وإذا رأيت من يشتري فقل : لا ردها الله عليك ، أمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم^(٧) ، فإذا صليت ركعتي الصبح فقل : بسم الله اللهم إني أسألك رحمة من عندك تهدي بها قلبي . . . السلام إلى آخره^(٨)

(١) حديث « اللهم إني أعوذ بك من عذاب النار وفتنة النار وعذاب القبر وفتنة القبر وشر قسمة النبي وشر قسمة القرآن وشر قسمة المسيح الدجال وأعوذ بك من المأثم والمغرم » ، يتفق عليه من حديث عائشة . (٢) حديث « اللهم إني أعوذ بك من نفس لا تسبغ وقلب لا ينشع وصلاة لا تنفع ودعوة لا تستجاب وأعوذ بك من سوء القم وفتنة الصدر » أخرجه مسلم من حديث زيد بن أرقم في أثناء حديث « اللهم إني أعوذ بك من قلب لا ينشع وقس لا تنفع وعمل لا يرفع ودعوة لا تستجاب لها وصلاة لا تنفع وشك أو المحترم في سماعة من أسس ولساني بإسناد جيد من حديث عمر بن الخطاب حديث « وأعوذ بك » وأبو داود من حديث أسس « اللهم إني أعوذ بك من سوء القم وأعوذ بك من فتنة الصدر » . (٣) حديث « اللهم إني أعوذ بك من غلبة الدين وغلبة العدو وشبهة الأعداء » أخرجه النسائي والحاكم من حديث عبد الله بن عمرو وقال صحيح على شرط مسلم .

الباب الخامس : في الادعية المأثورة عند كل حادث من المحوادث

(٤) حديث « أقول عند الخروج إلى المسجد اللهم اجعل في قلبي نوراً وفي لساني نوراً ... الحديث » ، يتفق عليه من حديث ابن عباس . (٥) حديث « اللهم إني أسألك بحق السائلين عليك وبحق ممشأى هذا إليك ... الحديث » من حديث أبي سعيد الخدري بإسناد حسن . (٦) حديث « أقول عند الخروج من المنزل لحاجة بسم الله رب أعوذ بك أن أظلم أو أظلم أو أجمل أو يجهل علي » أخرجه أصحاب السنن من حديث أم سلمة قال الترمذي حسن صحيح . (٧) حديث « بسم الله الرحمن الرحيم ولا حول ولا قوة إلا بالله التكلان على الله » أخرجه ابن ماجه من حديث أبي هريرة « أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا خرج من منزله قال بسم الله » ، فذكره إلا أنه لم يقل « الرحمن الرحيم » وفيه ضعف . (٨) حديث « أقول عند دخول المسجد اللهم صل على محمد اللهم امر لي ذنوبي وافتح لي أبواب رحمتك » أخرجه الترمذي وابن ماجه من حديث فاطمة ابنة رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الترمذي حسن وإسناد جيد .

(٩) حديث « أقول عند ركعتي الصبح فقل : بسم الله الرحمن الرحيم لا حول ولا قوة إلا بالله التكلان على الله » ، أخرجه الترمذي وقال حسن هريب والنسائي في اليوم والليلة من حديث أبي هريرة . (١٠) حديث « أقول إذا رأيت من يشتري فقل : لا ردها الله عليك » أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة . (١١) حديث ابن عباس في القول بعد ركعتي الصبح « اللهم إني أسألك رحمة من عندك تهدي بها قلبي » ، بلغ قد تقدم في الفها .

كما أوردناه عن ابن عباس رضى الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم فإذا ركعت فقل في ركوعك : اللهم لك ركعت
ولك خشعت ولك أمنت ولك أسلمت وعليك توكلت أنت ربى خشع سمعى وبصرى وعنى وعظمى وعصبي
وما استقلت به قدمى لله رب العالمين ^(١) ، وإن أحببت فقل : سبحان ربى العظيم - ثلاث مرات - ^(٢) أو سبح
قدوس رب الملائكة والروح ^(٣) ، فإذا رفعت رأسك من الركوع فقل : سمع الله لمن حمده ربنا لك الحمد ملء
السموات وملء الأرض وملء ما شئت من شيء بعد أهل الثناء والمجد أحق ما قال العبد وكلنا لك عبد لا مانع
لما أعطيت ولا معطل لما منعت ولا ينفع ذا الجد منك الجد ^(٤) ، وإذا سجدت فقل اللهم لك سجدت ولك أمنت ولك
أسلمت سجد وجهى للذى خلقه وصوره وشق سمعه وبصره فتبارك الله أحسن الخالقين اللهم بھدك سوادى وخيالى وآمن
بك فؤادى أبوء بنعمتك على وأبوء بذنبي وهذا ما جئت على نفسي فاغفرل فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت ^(٥) أو تقول
: سبحان ربى الأعلى - ثلاث مرات - ^(٦) ، فإذا فرغت من الصلاة فقل : اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت
يا ذا الجلال والإكرام ^(٧) وتدعو بسائر الأدعية التى ذكرناها . فإذا قمت من المجلس وأردت دعاء يكفر لغو المجلس
فقل : سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك حملت سودا وظلمت نفسى فاغفرل
فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت ^(٨) ، فإذا دخلت السوق فقل : لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد
يحيى ويميت وهو حي لا يموت بيده الخير وهو على كل شيء قدير ^(٩) بسم الله اللهم إلى أسألك خير هذه السوق وخير
ما فيها اللهم إلى أعوذ بك من شرها وشر ما فيها اللهم إلى أعوذ بك أن أصيب فيها بما فاجرة أو صفة خاسرة ^(١٠) ، فإن كان
عليك دين فقل : اللهم اكشفني بھلاك عن حرامك واغنى بفضلك عن سواك ^(١١) ، فإذا لبست ثوبا جديدا فقل
اللهم كسوتنى هذا الثوب فلك الحمد أسألك من خيره وخير ما صنع له وأعوذ بك من شره وشر ما صنع له ^(١٢) ، وإذا

- (١) حديث ابن عباس في القول في الركوع : اللهم لك ركعت ولك أسلمت ... الحديث » أخرجه مسلم من حديثه على
- (٢) حديث القول فيه : سبحان ربى العظيم » ثلاثا أخرجه أبو داود والترمذى والبيهقى من حديث ابن مسعود وفيه انقطاع
- (٣) حديث القول فيه : سبح قدوس رب الملائكة والروح » أخرجه مسلم من حديث عائشة
- (٤) حديث القول عند الرفع من الركوع : سمع الله لمن حمده ربنا لك الحمد ... الحديث » أخرجه مسلم من حديث
أبي سعيد الخدرى وإن ابن عباس دون قوله : سمع الله لمن حمده » فى فى اليوم واليلة لحسن بن على السمرى وهو عند مسلم من
حديث ابن أبى أول وعنه البخارى من حديث أبي هريرة (٥) حديث القول في السجود : اللهم لك سجدت ... الحديث »
أخرجه مسلم من حديث على : اللهم سجد لك سوادى وخيالى وآمن بك فؤادى أبوء بنعمتك على وأبوء بذنبي وهذا ما جئت
على نفسي فاغفرل فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت » أخرجه الحاكم من حديث ابن مسعود وقال صحيح الإسناد وليس قال بل هو
ضعيف (٦) حديث : سبحان ربى الأعلى » ثلاثا أخرجه أبو داود والترمذى والبيهقى من حديث ابن مسعود وهو منقطع .
- (٧) حديث القول إذا فرغ من الصلاة : اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت إذا الجلال والإكرام » أخرجه مسلم
من حديث ثوبان (٨) حديث : كسافة المجلس سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت » أخرجه النسائى فى اليوم
واليلة من حديث أنس بن خديج بإسناد حسن (٩) حديث القول عند دخول السوق : لا إله إلا الله وحده لا شريك له
له الملك وله الحمد يحيى ويميت وهو على كل شيء قدير » من حديث عمر بن الخطاب ورواه حريز بن الحارث وأبو جهم
صحيح على شرط الشيخين . (١٠) حديث : بسم الله اللهم إلى أسألك خير هذه السوق وخير ما فيها اللهم إلى أعوذ بك
من شرها وشر ما فيها اللهم إلى أعوذ بك أن أصيب فيها بما فاجرة أو صفة خاسرة » أخرجه الحاكم من حديث بريدة وقال
أثرها لم يرد هذا الكتاب حديث بريدة . قلت فيه أبو هريرة لم يرد فى حرب ولم يرد فى سليمان الأسدى مختلف فيه
- (١١) حديث دعاء الدين : اللهم اكشفني بھلاك عن حرامك وبفضلك عن سواك » أخرجه الترمذى وقال حسن شريف
والحاكم وقال صحيح الإسناد من حديث على بن أبى طالب (١٢) حديث الدعاء إذا لبس ثوبا جديدا اللهم كسوتنى هذا الثوب
فلك الحمد أسألك من خيره وخير ما صنع له وأعوذ بك من شره وشر ما صنع له » أخرجه أبو داود والترمذى وقال حسن
والنسائى فى اليوم واليلة من حديث أبي سعيد الخدرى ورواه ابن السكيت بلفظ المصنف .

رأيت شيئا من الطيرة تكرهه فقل : اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت ولا يذهب بالسيئات إلا أنت لاجل ولا قوة إلا بالله ^(١) ، وإذا رأيت الحلال فقل : اللهم أهله علينا بالآمن والإيمان والأبر والسلامة والإسلام والتوفيق لما تحب وترضى والحفظ عن منسخط ، ربي وربك الله ^(٢) ، ويقول : هلال رشد وخير أمنت بحالكم ^(٣) اللهم إني أسألك خير هذا الشهر وخير القدر وأعوذ بك من شر يوم الحشر ^(٤) ، وتكبر قبله أولا ثلاثا . وإذا هبت الريح فقل : اللهم إني أسألك خير هذه الريح وخير ما فيها وخير ما أرسلت به ولمؤذ بك من شرها وشر ما فيها ومن شر ما أرسلت به ^(٥) ، وإذا بلغك وفاة أحد فقل : إنا لله وإنا إليه راجعون وإنا إلى ربنا لعقولون اللهم اكشفه يا محسن واجعل كتابه في عليين واخلفه على عقبه في النابرين اللهم لا تحرمنا أجره ولا تفتنا بعده واغفر لنا وله ^(٦) وتقول عند التصديق (ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم) وتقول عند الحصران (عسى ربنا أن يبدلنا خيرا منها إنا إلى ربنا راغبين) وتقول عند ابتداء الأمور (ربنا آتانا من لذك رحمة وهي لنا من أمرنا رشدا - رب اشرح لي صدري ويسر لي أمري) وتقول عند النظر إلى السماء (ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانه ففنا عذاب النار - تبارك الذي جعل في السماء بروجا وجعل فيها سراجا وقرا منيرا) وإذا سمعت صوت الرعد فقل (سبحان من يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته ^(٧)) فإن رأيت الصواعق فقل : اللهم لا تقبلنا بنضيك ولا تهلكنا بمذابك وعافنا قبل ذلك ^(٨) ، قاله كعب . فإذا أمطرت السماء فقل : اللهم سقيا شيئا وحسنا نافعنا ^(٩) اللهم اجعله صيب رحمة ولا تجعله صيب عذاب ^(١٠) ، فإذا غضبت فقل : اللهم اغفر لي ذنبي وأذهب غيظ قلبي

(١) حديث القول إذا رأى شيئا من الطيرة يكرهه : اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت ولا يذهب بالسيئات إلا أنت لاجل ولا قوة إلا بالله : أخرجه ابن أبي شيبة وأبو نعيم في اليوم والليالي والبيوت من حديث عروة بن مامر مسلم ورواه تميم بن الوليد والبيهقي في الدعوات من حديث عروة بن مامر مسلم . (٢) حديث : التكبير عند رؤية الهلال - ثلاثا - ما يقول : اللهم أهله علينا بالآمن والإيمان والسلامة والإسلام وربي وربك الله : أخرجه الفارسي من حديث ابن عمر إلا أنه أطلق التكبير ولم يقل ثلاثا . ورواه الترمذي وحسنه من حديث طلحة بن عبيد الله دون ذكر التكبير والبيهقي في الدعوات من حديث قتادة مرسلا . كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا رأى الهلال كبر ثلاثا . (٣) حديث : هلال خير ورشد أمنت بحالكم : أخرجه أبو داود مرسلا من حديث قتادة : أنه بلغه أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا رأى الهلال قال هلال خير ورشد هلال خير ورشد أمنت بالله خلقك - ثلاث مرات - . وأسنده الفارسي في الأفراد والطبراني في الأوسط من حديث أنس وقال أبو داود وليس لي هذا عن النبي صلى الله عليه وسلم حديث مستد صحيح . (٤) حديث : اللهم إني أسألك خير هذا الشهر وخير القدر وأعوذ بك من شر يوم الحشر : أخرجه ابن أبي شيبة وأحمد في مستدبرها من حديث جابر بن الصامت وفيه من لم يسم به قال الراوي عنه حدثني من لأتسم . (٥) حديث : القول إذا هبت الريح : اللهم إني أسألك خير هذه الريح وخير ما فيها وخير ما أرسلت به ولمؤذ بك من شرها وشر ما فيها وشر ما أرسلت به : أخرجه الترمذي وإمام حسن صحيح والنسائي في اليوم والليالي من حديث أبي بن كعب . (٦) حديث : القول إذا بلغك وفاة أحد لانا : وإنا إليه راجعون وإنا إلى ربنا لعقولون اللهم اكشفه يا محسن واجعل كتابه في عليين واخلفه على عقبه في النابرين اللهم لا تحرمنا أجره ولا تفتنا بعده واغفر لنا وله : أخرجه ابن أبي شيبة في اليوم والليالي وابن حبان من حديث أم سلمة . (٧) حديث : إذا أصاب أحكم معينة فليل لانا : وإنا إليه راجعون . وسلم من حديثها : اللهم اغفر لأبي سلمة ولزعم درجته في المهديين واخلفه في عقبه في النابرين واغفر لنا وله يارب العالمين والمسح له في قبره ونور له فيه .

(٧) حديث : القول إذا سمع صوت الرعد : سبحان من يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته : أخرجه مالك في الموطأ عن عبيد الله بن الزبير مرفوعا ولم أجده مرفوعا . (٨) حديث : القول عند الصواعق : اللهم لا تقبلنا بنضيك ولا تهلكنا بمذابك وعافنا قبل ذلك : أخرجه الترمذي وقال غريب والنسائي في اليوم والليالي من حديث ابن عمر والنسائي بإسناد حسن .

(٩) حديث : القول عند المطر : اللهم سقيا شيئا وحسنا نافعنا : أخرجه البخاري من حديث طائفة : كان إذا رأى المطر قال : اللهم اجعله صيبا نافعنا : وابن ماجه : صيبا : بالنسائي في اليوم والليالي : اللهم اجعله صيبا نافعنا : وإسنادا صحيح . (١٠) حديث : اللهم اجعله صيب رحمة ولا تجعله صيب عذاب : أخرجه النسائي في اليوم والليالي من حديث سعيد بن المسيب مرسلا .

وأجرني من الشيطان الرجيم^(١) ، فإذا خفت قوماً فقل : اللهم إنا نجعلك في نحورهم ونعوذ بك من شرورهم^(٢) ، فإذا غرقت فقل : اللهم أنت عضدي ونصيري وبك أقاتل^(٣) ، وإذا طئت أذنك فقل : اللهم إنا نجعلك في نحورهم ونعوذ بك من شرورهم^(٤) ، وإذا غرقت فقل : اللهم أنت عضدي ونصيري وبك أقاتل^(٥) ، وإذا رأيت استجابة دعائك فقل الحمد لله الذي بعثه وجعله تيم الصالحات ، وإذا أبطأت فقل : الحمد لله على كل حال^(٦) ، وإذا سمعت أذان المغرب فقل : اللهم هذا إقبال ليلاك وإدبار نهارك وأصوات دعائك وحضور صلواتك أسألك أن تغفر لي^(٧) ، وإذا أصابك هم فقل : اللهم إني عبدك وابن عبدك وابن أمتك ناصيتك بيدك ماض في حكمك عدل في قضاؤك أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته في كتابك أو علمته أحداً من خلقك أو استأثرت به في علم الغيب عندك أن تجعل القرآن ربيع قلبي ونور صدري وجلاء غمي وذهاب حزني وهمي^(٨) ، قال صلى الله عليه وسلم : ما أصاب أحداً حزن فقال ذلك إلا أذهب الله همه وأبدله مكانه فرحاً فقيل له : يا رسول الله أفلا نتعلمها ؟ فقال صلى الله عليه وسلم بل ينبغي لمن سمعها أن يتعلمها ، وإذا وجدت وجعاً في جسدك أو جسد غيرك فارقه بريقة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان إذا اشتكى الإنسان قرحة أو جرحاً وضع سبائته على الأرض ثم رفعها وقال بسم الله تربة أرضنا بريقة بعضنا يشفى سقيمنا يؤذن ربنا^(٩) ، وإذا وجدت وجعاً في جسدك فضع يدك على الذي يتألم من جسدك وقل : بسم الله - ثلاثاً - وقل سبع مرات : أعوذ بكرة الله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر^(١٠) ، فإذا أصابك كرب فقل : لا إله إلا الله العلي العظيم لا إله إلا الله رب العرش العظيم لا إله إلا الله رب السموات السبع ورب العرش الكريم^(١١) ، فإن أردت التوهم فترضاً أولاً ثم توسد على عينك مستقبل القبلة ثم كبر الله تعالى أربعاً وثلاثين وسبجه ثلاثاً وثلاثين واحده ثلاثاً وثلاثين^(١٢) ، ثم قل : اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك وبمعافتك من عقربتك وأعوذ بك منك اللهم إني لا أستطيع أن أبلغ ثناء عليك ولو حرصت ولكن أنت كما أئتمت على نفسك^(١٣) اللهم باسمك أسأيا وأموت^(١٤) اللهم رب السموات ورب الأرض ورب كل شيء ومليكها فائق الحب والتوى ومنزل التوراة والإنجيل

- (١) حديث « القول إذا غضب : اللهم اغفر ذنبي وأذهب غيظ قلبي وأجرني من الشيطان الرجيم » أخرجه ابن السني في اليوم والليالي من حديث عائشة بسند ضعيف . (٢) حديث « القول إذا خاف قوماً : اللهم إني أجعلك في نحورهم وأعوذ بك من شرورهم » أخرجه أبو داود والنسائي في اليوم والليالي من حديث أبي موسى بسند صحيح . (٣) حديث « القول إذا خزا : اللهم أنت عضدي ونصيري وبك أقاتل » أخرجه أبو داود والترمذي والنسائي من حديث أنس قال الترمذي حسن فريب . (٤) حديث « القول عند طين الأذن : اللهم صل على محمد ذكر الله خير من ذكرني » أخرجه الطبراني وابن عدي وابن السني في اليوم والليالي من حديث أبي رافع بسند ضعيف . (٥) حديث « القول إذا رأى استجابة دعائه : الحمد لله الذي بعثته تيم الصالحات » تقدم في الدعاء . (٦) حديث « القول إذا سمع أذان المغرب : اللهم هذا إقبال ليلاك وإدبار نهارك وأصوات دعائك وحضور صلواتك أسألك أن تغفر لي » أخرجه الترمذي وأبو داود وقال غريب والحاكم من حديث أم سلمة دون قوله « وحضور صلواتك » لأنها عند الخاطئي في تكريم الأخلاق والمسن بن علي العمري في اليوم والليالي . (٧) حديث « القول إذا أصابه هم : اللهم إني عبدك وابن عبدك وابن أمتك ناصيتك بيدك ... الحديث » أخرجه أحمد وابن حبان والحاكم من حديث ابن مسعود وقال صحيح على شرط مسلم أن سلم من أوامير عبد الرحمن عن أبيه فإنه يختلف في سماعه من أبيه . (٨) حديث « رقية رسول الله صلى الله عليه وسلم : بسم الله تربة أرضنا بريقة بعضنا يشفى سقيمنا يؤذن ربنا » متفق عليه من حديث عائشة . (٩) حديث « وضع يده على الذي يتألم من جسدك ويقول : بسم الله - ثلاثاً - ويقول : أعوذ بكرة الله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر سبع مرات » أخرجه مسلم بن حديث عثمان بن أبي العاص . (١٠) حديث « دعاء السكر لاله الا الله العلي العظيم ... الحديث » متفق عليه من حديث ابن عباس . (١١) حديث « التوسعة عند اليوم أربعاً وثلاثين والتسبيح ثلاثاً وثلاثين والتحميد ثلاثاً وثلاثين » متفق عليه من حديث ابن عباس . (١٢) حديث « القول عند أرواء التوهم : اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك وبمعافتك من عقربتك وأعوذ بك منك اللهم لا أستطيع أن أبلغ ثناء عليك ولو حرصت واسكن أنت كما أئتمت على نفسك » أخرجه النسائي في اليوم والليالي من حديث علي بن فضال . (١٣) حديث « اللهم باسمك أسأيا وأموت » أخرجه البخاري من حديث حذيفة وسلم من حديث البراء .

والقرآن أعوذ بك من شر كل ذي شر ومن شر كل دابة أنت آخذ بناصيتها أنت الأول فليس قبلك شيء وأنت الآخر فليس بعدك شيء وأنت الظاهر فليس فوقك شيء وأنت الباطن فليس دونك شيء اقض عني الدين واغنني من الفقر ^(١) اللهم إنك خلقت نفسي وأنت تتوفأها لك ماتنا وبعميانا اللهم إن أمنا فاغفر لنا وإن أحسينا فاحفظنا اللهم إني أسألك العافية في الدنيا والآخرة ^(٢) باسمك ربى وضعت جنبي فاغفر لي ذنبي ^(٣) اللهم قنى عذابك يوم تجمع عبادك ^(٤) اللهم أسألت نفسي إليك ووجهي وجهي إليك وفوضت أمري إليك وألجأت ظهري إليك رغبة ورهبة إليك لا ملجأ ولا منجا منك إلا إليك آمنت بكتابتك التي أنزلت ونبيك الذي أرسلت ^(٥) . ويكون هذا آخر دعائك فقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك وبقيل قبل ذلك اللهم إيقظني في أحب الساعات إليك واستمعني بأحب الأعمال إليك تقربني إليك زلي وتبديني من خطيئة بعد أسألك فتعطيني واستغفرك فتغفرني وأدعوك فتستجيب لي ^(٦) . فإذا استيقظت من نومك عند الصباح قتل الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور ^(٧) أمسينا وأصبح الملك لله والظلمة والسلطان لله والبركة والقدرة لله ^(٨) أصبحت على فطرة الإسلام وكلمة الإخلاص وعل دين نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وملة أبينا إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين ^(٩) اللهم بك أصبحنا وبك أمسينا وبك نحيا وبك نموت وإليك المصير ^(١٠) اللهم إني أسألك أن تبثني في هذا اليوم إلى كل خير ونمؤذ بك أن تجترح فيه سودا أو نجمره إلى مسلم فاركك قلت ﴿ وهو الذي يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار ثم يبعثكم فيه ليقيض أجل منسى ﴾ ^(١١) اللهم فائق الإصباح وجاعل الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا أسألك خير هذا اليوم وخير ما فيه وأعوذ بك من شره وشر ما فيه ^(١٢) بسم الله ماشاء الله لاقوه إلا الله ماشاء الله

(١) حديث « اللهم رب السموات والأرض رب كل شيء وملكه فائق الحب والنوى ... الحديث » إلى قوله هو اختتام الفقرة أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة . (٢) حديث « اللهم أنت خلقت نفسي وأنت تتوفأها ... الحديث » إلى قوله اللهم إني أسألك العافية » أخرجه مسلم من حديث ابن عمر . (٣) حديث « باسمك ربى وضعت جنبي فاغفر لي ذنبي » أخرجه النسائي في اليوم والليله من حديث عبد الله بن عمرو بن عبد جده وللشيخين من حديث أبي هريرة « باسمك ربى وضعت جنبي وبك أرفعه إن أمسكت نفسي فاغفر لها » وقال البخاري « فارجعها وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادة المالحين » .

(٤) حديث « اللهم في عذابك يوم تجمع عبادك » أخرجه الترمذي في الدعائال من حديث ابن مسعود وهو عند أبي داود من حديث حفصة بلفظ « ثبت » وكذا رواه الترمذي من حديث حفصة وصححه من حديث البراء وحسنه .

(٥) حديث « اللهم إني أسألت نفسي إليك ولوشت أخرى إليك .. الحديث » متفق عليه من حديث البراء . (٦) حديث « اللهم إيقظني في أحب الساعات إليك واستمعني في أحب الأعمال إليك تقربني إليك زاني وتبديني من خطيئة بعد أسألك فتعطيني واستغفرك فتغفرني وأدعوك فتستجيب لي » أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث ابن عباس « اللهم ابتئني أحب الساعات إليك حتى تذكرك فتذكرني » وأسألك تعطيني وتدعوك فتستجيب لنا ولست نترك تغفر لنا » وإسناده ضيف وهو معروف من قول حبيب الطائي كما رواه ابن أبي الدنيا في الدعاء . (٧) حديث « القول : إذا استيقظت من نامة الحمد لله ألقى أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور » أخرجه البخاري من حديث حفصة وصلى من حديث البراء . (٨) حديث « أصبحت وأصبح الملك لله والظلمة والسلطان لله والبركة والقدرة لله » أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث عائشة أصبحت وأصبح الملك لله والحمد والجلل واللاوة والقدرة والسلطان والسموات والأرض وكل شيء لله رب المالحين . وله في الدعاء من حديث ابن أبي أوى « أصبحت وأصبح الملك والسيكراء والظلمة والمظلي والليل والنهار وما سكن فيها لله » وإسناده ضيف ولمسلم من حديث ابن مسعود « أصبحت وأصبح الملك لله » . (٩) حديث « أصبحت على فطرة الإسلام وكلمة الإخلاص ودين نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وملة أبينا إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين » أخرجه النسائي في اليوم والعافية من حديث عبد الرحمن بن أبيزى بن عبد صبيح ورواه أحمد من حديث ابن

السبن وابن حبان وحسنه الطبراني في المعجم . (١٠) حديث « اللهم بك أصبحنا وبك أمسينا وبك نحيا وبك نموت وإليك المصير » أخرجه أصحاب أبيزى عن أبي بن كعب مرفوعا . (١١) حديث « اللهم بك أصبحنا وبك أمسينا وبك نحيا وبك نموت وإليك المصير » أخرجه أصحاب السنن وابن حبان وحسنه الطبراني في المعجم . (١٢) حديث « اللهم فائق الإصباح وجاعل الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا » أخرجه

رواه أبو داود من حديث أبي مالك الأشعري بإسناد جيد . (١٣) حديث « اللهم فائق الإصباح وجاعل الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا » أخرجه

كل لعمة من الله ما شاء الله الخير كله بيد الله ما شاء الله لا يصرف السوء إلا الله^(١) رضيت بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبياً - ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير^(٢) - وإذا أمسى قال ذلك إلا أنه يقول « أمسينا » ويقول مع ذلك أعوذ بكلمات الله التامات وأسمائه كلها من شر ما ذرأ وبرأ ومن شر كل ذي شر ومن شر كل دابة أنت آخذ بناصيتها إني ربي على صراط مستقيم^(٣) وإذا نظرت المرأة قال الحمد لله الذى سوى خلقى ففعله وكرم صورة وجهي وحسنها وجدني من المسلمين^(٤) وإذا اشتريت خادماً أو غلاماً أو دابة فخذ بناصيته وقل اللهم إني أسألك خيره وخير ما جبل عليه وأعوذ بك من شره وشر ما جبل عليه^(٥) وإذا هنأت بالنكاح فقل بارك الله فيك وبارك عليك وجمع بينكما في خير^(٦) وإذا قضيت الدين فقل للقضى له بارك الله لك في أهلك ومالك إذ قال صلى الله عليه وسلم « وإنما جراء السلف الحمد والأداء »^(٧) .

فهذه أدعية لأبستينى المريد عن حفظها وماسوى ذلك من أدعية السفر والصلاة والوضوء ذكرناها في كتاب الحج والصلاة والطهارة « فإن قلت : لما فائدة الدعاء والقضاء لا مريد ؟ فأعلم أن القضاء رد البلاء بالدعاء فالدعاء سبب

والله سبحانه أسألك خير هذا اليوم وخير ما به وأعوذ بك من شره وشر ما به » قلت هو مركب من حديثين فروى أبو منصور الديلمى في مسند الفردوس من حديث أبي سعيد قال « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو اللهم فاني الإصباح وأجعل الليل سكناً والشمس والنفس حساباً إلى عنى الدين وأغنى من الفقر وقوتى على الجهاد في سبيلك » وللمارضى من الأفراد من حديث البراء « سألك خير هذا اليوم وخير ما به ولود بك من شر هذا اليوم وشر ما به » وأبو داود من حديث أبي مالك الأشجري « اللهم إني أسألك خير هذا اليوم فتبه وصره ونوره وهذاه وبركته وأعوذ بك من شر ما به وشر ما به » وسنده جيد والصحى بن على الميمى في اليوم والليلة من حديث ابن مسعود « اللهم إني أسألك خير ما لي هذا اليوم وخير ما به وأعوذ بك من شر هذا اليوم وشر ما به » والمحدث عند مسلم في السماء « خير ما لي هذه الليلة ... الحديث » ثم قال : وإذا أصبح قال ذلك أيضاً .

(١) حديث « بسم الله ما شاء الله لا قوة إلا بالله ما شاء الله كل لعمة من الله ما شاء الله الخير كله بيد الله ما شاء الله لا يصرف السوء إلا الله » عند في الكامل من حديث ابن عباس ولا أعلمه إلا مروى عالى إلى صلى الله عليه وسلم قال يلقى الحضر وإياهم عليها الصلاة والسلام كل عام بالموسم يبنى فيخلق كل واحد منها رأس صاحب فيقتربان عن هذه الكلمات « فذكره ولم يقل « الخير كله بيد الله » قال موضحاً « لا يوفق الخير إلا الله » قال ابن عباس : من قال حين يصبح حين يمسي آمنه الله من الفقر والحرق وأحسبه قال : ومن الضيق والظلمة والموت والمغرب . أوردته في ترجمة الحسين بن زرارة قال ليس بالمعروف وهو بها الإنسان متشكك .

(٢) حديث « رضيت بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد نبياً » تقدم في الباب الأول . (٣) حديث « القول عند المساء مثل الصباح إلا أنك تقول : أمسينا ويقول مع ذلك أعوذ بكلمات الله التامات وأسمائه كلها من شر ما ذرأ وبرأ ومن شر كل ذي شر ومن شر كل دابة أنت آخذ بناصيتها إني ربي على صراط مستقيم » أخرجه أبو الشيخ في كتاب الثواب من حديث عبد الرحمن بن عوف « من قال حين يصبح أعوذ بكلمات الله التامات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر من شر ما خلق وبرأ وفراً اعصم من شر التلحين ... الحديث » ولله « وإن قال حين يمسي كن له كذلك حتى يصبح » وفيه إن شجرة وأحد من حديث عبد الرحمن بن حسن في حديث « إن جبريل قال يا محمد قل أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق وفراً وبرأ ومن شر ما ينزل من السماء ... الحديث » وسنده جيد ولسلم بن حديث أبي هريرة في الدعاء عند النوم « أعوذ بك من شر كل دابة أنت آخذ بناصيتها » وللطبراني في الدعاء . من حديث أبي الدرداء « اللهم إني أعوذ بك من شر نفسي ومن شر كل دابة ... الخ الحديث » وقد تقدم في الباب الثاني .

(٤) حديث « تقول إذا نظرت المرأة : الحمد لله الذى سوى خلقى ففعله وكرم صورة وجهي وحسنها وجمعني من المسلمين » أخرجه الطبراني في الأوسط وابن السني في اليوم والليلة من حديث أنس بسند ضيف . (٥) حديث « القول إذا اشترى خادماً أو دابة : اللهم إني أسألك خيرته وخير ما جبل عليه وأعوذ بك من شره وشر ما جبل عليه » أخرجه أبو داود وعليك وجمع بينكما في خير » أخرجه أبو داود والترمذي وابن ماجه من حديث أبي هريرة قال الترمذي حسن صحيح . (٦) حديث « التهنئة بالنكاح : بارك الله لك وبارك

أخرجه السنائي من حديث عبد الله بن أبي ربيعة قال « استغفر من الله صلى الله عليه وسلم أربعين ألفاً لجاءه مال فدفعه إلى » قال لذكره واستاده حسن .

لرد البلاء واستجلاب الرحمة كما أن الترس سبب لرد السهم والماء سبب لخروج الثبات من الأرض فكما أن الترس يدفع السهم فيقتادفان فكذلك الدعاء والبلاء يتعالمجان . وليس من شرط الاعتراف بقضاء الله تعالى أن لا يحمل السلاح وقد قال تعالى ﴿ خذوا حذركم ﴾ وأن لا يسيق الأرض بعد بث البذر فيقال إن سبق القضاء بالثبات نبت البذر وإن لم يسيق لم ينبت . بل ربط الأسباب بالمسببات هو القضاء الأول الذي هو كلح البصر أو هو أقرب وترتيب تفصيل المسببات على تفاصيل الأسباب على التدرج والتقدير هو القدر والذي قدر الخير قدره بسبب ، والذي قدر الشر قدره سبباً فلا تناقض بين هذه الأمور عند من انفتحت بصيرته . ثم في الدعاء من الفائدة ما ذكرناه في الذكر فإنه يستدعى حضور القلب مع الله وهو منتهى العبادات ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : الدعاء مع العبادة ^(١) ، والغالب على الخلق أنه لا تنصرف قلوبهم إلى ذكر الله عز وجل إلا عند المسامحاة وإرهاق ملة فإن الإنسان إذا مسه الشر فذو دعاء عريض . فالحاجة تنهوج إلى الدعاء والدعاء يرد القلب إلى الله عز وجل بالتضرع والاستكانة فيحصل به الذكر الذي هو أشراف العبادات . ولذلك صار البلاء موكلاً بالإنبياء عليهم السلام ثم الأولياء ثم الأئمة فالأئمة لأنهم يرد القلب بالانقصار والتضرع إلى الله عز وجل ويمنع من نسيانه وأما النبي فسيب البطر في غالب الأمور فإن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى . فهنا ما أردنا أن نورد من جملة الأذكار والدعوات والله الموفق للخير . وأما بقية الدعوات في الأكل والسفر وعبادة المريض وغيرها فستأتي في مواضعها إن شاء الله تعالى وعلى الله التكلان . نجز كتاب الأذكار والدعوات ، بكماله . يتلوه إن شاء الله تعالى كتاب : الأوراد . والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

كتاب ترتيب الأوراد وتفصيل إحياء الليل

وهو الكتاب العاشر من إحياء علوم الدين

وبه اختتم ربيع العبادات نفع الله به المسلمين

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمد الله على آلائه حمداً كثيراً ونذكره ذكراً لا ينادر في القلب استكباراً ولا نفورا ونفسره إذ جعل الليل والنهار خلقاً لمن أراد أن يذكر أو أراد شكوراً ونصلى على نبيه الذي بعثه بالحق بصيراً ونذيراً وعلى آله الطاهرين وصحبه الأكرمين الذين اجتهدوا في عبادة الله غداة وبكرة وأصيلاً حتى أصبح كل واحد منهم نجماً في الدين هادياً وسراجاً منيراً .

أما بعد : فإن الله تعالى جعل الأرض ذللاً لعباده لا يستقروا في مناكيبها بل ليتجهنوها منزلاً فينزلوا منها رزقاً ويمسكهم في سفرهم إلى أوطانهم ويكتفون منها تحفاً لنفوسهم عملاً وفضلاً محترمين من مصايدها ومعاطبها ويستحقون أن العمر يسير بهم سير السفينة براً كنيا . فالتانس في هذا العالم سفر وأول منازلهم المهد وآخرها القعد والوطن هو الجنة أو النار . والعمر مسابقة السفر : فسنة مراحله ، وشهوه فرائضه ، وأيامه أمياله وأنفاسه خطواته . وطاعته بضاعته وأوقاته رهوس أحواله ، وشهوته وأغراضه قطاع طريقته ، وربه القرب بقاء الله تعالى في دار السلام مع الملك

(١) حديث « الدعاء مع العبادة » تقدم في الباب الأول

الكبير والنعيم القيم ، وخسرانه البعد من الله تعالى مع الانكسار والأغلال والذئاب الآليم في دركاتنا لجمع . فالغافل في نفس من أنفاسه حتى ينقضى في غير طاعة تقربه إلى الله تعالى متعرض في يوم التنافس لعينة وحسرة ما لها منتهى ولغدا الخطر العظيم والمخاطب الهائل شر الموفقون عن ساق الجذ ودعوا بالكليّة ملاذ النفس واغتسموا بقايا العمر . ورتبوا بحسب تكرار الأوقات وظائف الأوراد حرصا على إحياء الليل والنهار في طلب القرب من الملك الجبار والسعي إلى دار القرار فصار من مهمات علم طريق الآخرة تفصيل القول في كيفية قسمة الأوراد وتوزيع العبادات التي سبق شرحها على مقادير الأوقات وينضج هذا المهم بذكر باين . (الباب الأول) في فضيلة الأوراد وترتيبها في الليل والنهار . (الباب الثاني) في كيفية إحياء الليل وفضيلته وما يتعلق به .

الباب الأول : في فضيلة الأوراد وترتيبها وأحكامها

فضيلة الأوراد وبيان أن المواظبة عليها هي الطريق إلى الله تعالى

اعلم أن التاخرين بنور البصيرة علموا أنه لا نجاة إلا في لقاء الله تعالى وأنه لا سبيل إلى اللقاء إلا بأن يموت العبد بحب الله تعالى وعارفا بالله سبحانه . وأن المحبة والانس لا تحصل إلا من دوام ذكر المحبوب والمواظبة عليه . وأن المعرفة به لا تحصل إلا بدوام الفكر فيه وفي صفاته وأفعاله . وليس في الوجود سوى الله تعالى وأفعاله . ولن يتيسر دوام الذكر والفكر إلا برداع الدنيا وشهواتها والاجتزاء منها بقدر البيلة والضرورة وكل ذلك لا يتم إلا باستغراق أوقات الليل والنهار في وظائف الأذكار والأفكار . والنفس لما جبلت عليه من السآمة والملال لا تصبر على فن واحد من الأسباب المهيئة على الذكر والفكر بل إذا ردت إلى نمط واحد أظهرت الملال والاستئثار وأن الله تعالى لا يمل حتى تملا . فن ضرورة اللطف بها أن تروح بالتقل من فن إلى فن ومن نوع إلى نوع بحسب كل وقت لتفرغ بالانتقال لذتها وتطم بالذرة وغيتها وتدمم بدوام الرغبة ومواظبتها . فلذلك تقسم الأوراد قسمة مختلفة فالذكر والفكر ينبغي أن يستغرقا جميع الأوقات أو أكثرهما فإن النفس بطبيعتها مائلة إلى ملاذ الدنيا . فلنحصر العبد شطر أوقاته في تديرات الدنيا وشهواتها المباحة مثلا والشطر الآخر في العبادات رجع جانب الميل إلى الدنيا لموافقتها الطبع إذ يكون الوقت متساويا ؛ فأني يتفاوتان والطبع لاحدهما مرجح إذ الظاهر والباطن يتساعدان على أمور الدنيا ويصرف في طلبها القلب ويتجرد . وأما الرد إلى العبادات فتكلف ولا يسلم لإخلاص القلب فيه وحضوره إلا في بعض الأوقات فمن أراد أن يدخل الجنة بغير حساب فليستغرق أوقاته في الطاعة . ومن أراد أن يترجع كافة حسناته وتقتل موازين خيراته فليستغرب في الطاعة أكثر أوقاته فلنخلط عملا صالحا وآخر سيئا فأمره غطر ولكن الرجاء غير منقطع والعفو من كرم الله منتظر فمسي الله تعالى أن يغفر له مجرده وكرمه ؛ فهذا ما انكشف للتاخرين بنور البصيرة ؛ فإن لم تكن من أهله فأنظر إلى خطاب الله تعالى لرسوله واقتبسه بنور الإيمان فقد قال الله تعالى لأقرب عباده إليه وأرفعهم درجة لديه ﴿ إن لك في النهار سبعا طويلا واذكر اسم ربك وتبتل إليه تبتيلا ﴾ وقال تعالى ﴿ واذكر اسم ربك بكرة وأصيلا ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلا طويلا ﴾ وقال تعالى ﴿ وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب ومن الليل فسجد وأدبار السجود ﴾ وقال سبحانه ﴿ وسبح بحمد ربك حين تقوم ومن الليل فسبحه وإدبار النجوم ﴾ وقال تعالى ﴿ إن ناشئة الليل هي أشد وطأ وأقوم قيلا ﴾ وقال تعالى ﴿ ومن آتاه الليل فسبح وأطراف النهار لملك ترضى ﴾ وقال عز وجل ﴿ وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفا من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات ﴾ ثم انظر كيف وصف الغائرين من عبادته وبماذا وصفهم فقال تعالى ﴿ أمن هو قانت

آناه الليل ساجدا وقائما بحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون (وقال تعالى (تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفا وطعما) وقال عز وجل (والذين يبيتون لربهم سجدا وقياما) وقال عز وجل (كانوا قليلا من الليل ما يهجعون وبالأصبح هم يستنفلون) وقال عز وجل (فسيحان الله حين تمسون وحين تصبحون) وقال تعالى (ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه) فهذا كله بين لك أن الطريق إلى تعالى مراقبة الأوقات وعمارها بالأوراد على سبيل الدوام . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « أحب عباد الله إلى الله الذين يراعون الشمس والقمر والأظلة لذكر الله تعالى »^(١) ، وقد قال تعالى (الشمس والقمر بحسبان) وقال تعالى (ألم تر إلى ربك كيف مد الظل ولو شاء لجعله ساكنا ثم جعلنا الشمس عليه دليلا ثم قبضناه ليلينا قبضا يسيرا) وقال تعالى (والقمر قدرناه منازل) وقال تعالى (وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر) فلا تظن أن المقصود من سير الشمس والقمر بحسبان منظوم مرثب ومن خلق الظل والنور والنجوم أن يستمان بها على أمور الدنيا بل لتعرف بها مقادير الأوقات تقتثل فيها بالطاعات والتجارة للدار الآخرة بذلك عليه قوله تعالى (وهو الذي جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا) أى يختلف أحدهما الآخر ليتدارك في أحدهما ما فات في الآخر وبين أن ذلك للذكر والشكر لا غير . وقال تعالى (وجعلنا الليل والنهار آيتين فحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتهتدوا فضلا من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب) وإنما الفضل المبني هو الثواب والمغفرة ونسأل الله حسن التوفيق لما يرضيه .

بيان أعداد الأوراد وترتيبها

اعلم أن أوراد النهار سبعة : فإ بين طلوع الصبح إلى طلوع قرص الشمس ورد ، وما بين طلوع الشمس إلى الزوال وردان ، وما بين الزوال إلى وقت العصر وردان ، وما بين العصر إلى المغرب وردان . والليل ينقسم إلى أربعة أوراد : وردان من المغرب إلى وقت نوم الناس ، ووردان من النصف الأخير من الليل إلى طلوع الفجر . فلذلك فضيلة كل ورد وظليته وما يتعلق به .

فالورد الأول : ما بين طلوع الصبح إلى طلوع الشمس وهو وقت شريف وبدل عل شرفه وفضله إقسام الله تعالى به إذ قال (والصبح إذا تنفس) وتمدحه به إذ قال (فاق الإصباح) وقال تعالى (قل أعوذ برب الفلق) وإظهاره القدرة بقبض الظل فيه إذ قال تعالى (ثم قبضناه ليلنا قبضا يسيرا) وهو وقت قبض ظل الليل ببسط نور الشمس وإرشاده الناس إلى التيسيح فيه بقوله تعالى (فسيحان الله حين تمسون وحين تصبحون) وقوله تعالى (فسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها) وقوله عز وجل (ومن آناه الليل فسبح وأطراف النهار للعلل ترضى) وقوله تعالى (واذكر اسم ربك بكرة وأصيلا) .

فأما ترتيبه : فليأخذ من وقت انتباهه من النوم فإذا انتبه فلينبئ أن يبتدئ بذكر الله تعالى فيقول الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النسور إلى آخر الأدعية والآيات التي ذكرناها في دعاء الاستيقاظ من كتاب الدعوات

كتاب الأوراد وفضل إحياء الليل

الباب الأول في فضيلة الأوراد

(١) حديث « أحب عباد الله إلى الله الذين يراعون الشمس والقمر والأظلة لذكر الله » أخرجه الطبراني وتمامه « وقال صلى الله عليه وسلم » الإسناد من حديث ابن أبي شيبة « بخيل عباد الله » .

وليلس ثوبه وهو في الفناء وينبى به سترعوره امتثالاً لأمر الله تعالى واستماتة به على عبادته من غير قصد رياء ولا روعة ثم يتوجه إلى بيت الماء إن كان به حاجة إلى بيت الماء ويدخل أولاً رجله اليسرى ويدعو بالأدعية التي ذكرناها فيه في كتاب الطهارة عند الدخول والخروج . ثم يستاك على السنة - كما سبق - ويتوضأ مراعيًا جميع السنن والأدعية التي ذكرناها في الطهارة فإنما قدّمنا أحاديث العبادات لكي نذكر في هذا الكتاب وجه التركيب والترتيب فقط . فإذا فرغ من الوضوء صلى ركعتي الفجر أعتى السنة في منزله ^(١) كذلك كان يفعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ويقرأ بعد الركعتين سواء أدامها في البيت أو المسجد النعامة الذي رواه ابن عباس رضي الله عنهما ويقول : اللهم إني أسألك رحمة من عندك تهدي بها قلبي إلا آخر الدعاء ... ^(٢) ، ثم يخرج من البيت متوجهًا إلى المسجد ولا ينسى دعاء الخروج إلى المسجد ولا ينسى إلى الصلاة سعيًا بل يمشي وعليه السكينة والوقار ^(٣) كما ورد به الخبر ولا يشبك بين أصابعه . ويدخل المسجد ويقدم رجله اليمنى ويدعو بالنعامة المأثور لدخول المسجد ^(٤) ثم يطلب من المسجد الصف الأول إن وجد مقسمًا ولا يتخطى رقاب الناس ولا يراهم - كما سبق ذكره في كتاب الجمعة - ثم يصلي ركعتي الفجر إن لم يكن صلاهما في البيت ويشغل بالنعامة المذكور بهما . وإن كان قد صلى ركعتي الفجر صلى ركعتي التحية وجلس منتظرًا للجماعة . والأحب التفلّيس بالجماعة فقد كان صلى الله عليه وسلم يفلّس بالصبح ^(٥) ولا ينبغي أن يدع الجماعة في الصلاة عامة وفي الصبح والمشاء خاصة فلهما زيادة فضل . فقد روى أنس بن مالك رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال في صلاة الصبح : من توجه إلى المسجد ليصلي فيه الصلاة كان له بكل خطوة حسنة وعفى عنه سيئة والحسنة بمشراحتها ، فإذا صلى ثم انصرف عند طلوع الشمس كتب له بكل شرة في جسده حسنة وانقلب بحجة مبرورة فإن جلس حتى يركع الضحى كتب له بكل ركعة ألفا ألف حسنة ، ومن صلى التمتع فله مثل ذلك وانقلب بممرة مبرورة ^(٦) . وكان من عادة السلف دخول المسجد قبل طلوع الفجر . قال رجل من التابعين : دخلت المسجد قبل طلوع الفجر فقلت : أبا هريرة قد سبقني فقال لي : يا ابن أخي لا شيء خرجت من منزلك في هذه الساعة ؟ فقلت : لصلاة الغداة فقال : أبشر فإننا كنا نعد خروجنا وقعودنا في المسجد في هذه الساعة بمنزلة غزوة في سبيل الله تعالى ^(٧) . أو قال - مع رسول الله صلى الله عليه وسلم . وعن علي رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم طرقة وفاطمة رضي الله عنهما وما نأتمان فقال : ألا تصليان قال علي : فقلت يا رسول الله إنما أنفستما يدي الله تعالى فإذا شاء أن يمشيأ بديها فانصرف صلى الله عليه وسلم فسمعتة وهو منصرف يضرب نغمة ويقول : وكان الإنسان أكثر شيء جدلاً ^(٨) . ثم ينبغي أن يشتغل بعد ركعتي الفجر ودعائه بالاستغفار والتسبيح إلى أن تمام الصلاة فيقول : استغفر الله الذي لا إله إلا هو الحى القيوم وأتوب إليه سبعين مرة

(١) حديث « صلاة ركعتي الصبح في المنزل » متفق عليه من حديث حفصة . (٢) حديث « الدعاء بعد ركعتي الصبح : اللهم إني أسألك رحمة من عندك . الحديث » تقدم . (٣) حديث « الصلّى إلى الصلاة وعليه السكينة » متفق عليه من حديث أبي هريرة . (٤) حديث « الدعاء المأثور لدخول المسجد » تقدم في الباب الخامس من الأذكار . (٥) حديث « التفلّيس في الصبح » متفق عليه من حديث عاتقة . (٦) حديث « أنس في صلاة الصبح » من توشأتم توجه إلى المسجد يصل فيه الصلاة كان له بكل خطوة حسنة وعفى عنه سيئة والحسنة بمشراحتها وإذا صلى ثم انصرف عند طلوع الشمس كتب له بكل شرة في جسده حسنة وانقلب بحجة مبرورة فإن جلس حتى يركع الضحى كتب له بكل ركعة ألفا ألف حسنة ومن صلى التمتع فله مثل ذلك جماعة كل كسبة مبرورة وممرة متينة » (٧) حديث أبي هريرة « كنا نعد خروجنا وقعودنا في المسجد في هذه الساعة بمنزلة غزوة في سبيل الله » لم أجد له على أصل . (٨) حديث علي « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم طرقة وفاطمة وما نأتمان فقال ألا تصليان قال علي : فقلت يا رسول الله إنما أنفستما يدي الله ... الحديث » متفق عليه .

وسبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر مائة مرة ، ثم يصلي الفريضة مراعيًا جميع ما ذكرناه من الآداب الباطنة والظاهرة في الصلاة والقدوة . فإذا فرغ منها قعد في المسجد إلى طلوع الشمس في ذكر الله تعالى كما سنزبه فقد قال صلى الله عليه وسلم : « لأن أقعد في مجلس أذكر الله تعالى فيه من صلاة النداء إلى طلوع الشمس أحب إلى من أن أعتق أربع رقاب »^(١) ، وروى : أنه صلى الله عليه وسلم كان إذا صلى النداء قعد في مصلا حتى تطلع الشمس . وفي بعضها - ويصلي ركعتين^(٢) ، أي بعد الطلوع وقد ورد في فضل ذلك ما لا يحصى . وروى الحسن : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان فيما يذكره من رحمة ربه يقول إنه قال : يا ابن آدم اذكرني بعد صلاة الفجر ساعة وبعد صلاة العصر ساعة أكفك ما بينهما^(٣) ، وإذا ظهر فضل ذلك فليقدم ولا يتكلم إلى طلوع الشمس بل ينبغي أن تكون وظيفة إلى الطلوع أربعة أنواع أدعية وأذكار ويكرها في سبحة وقراءة قرآن وتفكير . أما الأدعية : فسكان يفرغ من صلاته فليبدأ وليقل : اللهم صل على محمد وعلى آل محمد وسلم اللهم أنت السلام ومنك السلام وإليك يعود السلام حيناً ربنا بالسلام وأدخلنا دار السلام تباركت يا ذا الجلال والإكرام ، ثم يقتنع للثناء بما كان يفتتح به رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو قوله : سبحان ربّي العلى الأعلى الوهاب لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد يحيى ويميت وهو حي لا يموت بيده الخير وهو على كل شيء قدير لا إله إلا الله أهل النعمة والفضل والثناء الحسن لا إله إلا الله ولا نعبد إلا إياه غلطين له الذين ولّوه الكافرون^(٤) ، ثم يبدأ بالأدعية التي أوردناها في الباب الثالث والرابع من كتاب الأدعية فيدعو جميعها إن قدر عليه أو يحفظ من مجلتها ما يراه أوفق بحاله وأرق لقلبه وأخف على لسانه .

وأما الأذكار المكررة فهي كلمات يرد في تكرارها فضائل لم نطول بإيرادها وأقل ما ينبغي أن يتكرر كل واحد منها ثلاثاً أو سبعاً وأكثره مائة أو سبعون وأوسطه عشر . فليكرها بقدر فراغه وسعة وقته وفضل الأكثر أكثر . والأوسط الأقصد أن يتكررها عشر مرات فهو أجدر بأن يدمم عليه وخير الأمور أودمها وإن قل . وكل وظيفة لا يمكن المواظبة على كثيرها فقليلها مع المداومة أفضل وأشد تأثيراً في القلب مع كثيرها مع الفقرة . ومثال القليل الدائم كقطرات ماء تتناثر على الأرض على التوالي فتحدث فيها حفرة ولو وقع ذلك على الحجر . ومثال الكثير المتفرق ماء يصب دفعة أو دفعات متفرقة متباعدة الأوقات فلا يبين لها أثر ظاهر وهذه الكلمات عشرة (الأولى) قوله : لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد يحيى ويميت وهو حي لا يموت بيده الخير وهو على كل شيء قدير^(٥) (الثانية) قوله : سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله

(١) حديث « لأن أقعد في مجلس أذكر الله فيه من صلاة النداء إلى طلوع الشمس أحب إلى من أن أعتق أربع رقاب » أخرجه أبو داود من حديث أبي أسود وهدم في الباب الثالث من العلم . (٢) حديث « كان إذا صلى النداء قعد في مصلا حتى تطلع الشمس وفي بعضها ويصلي ركعتين أي بعد الطلوع » أخرجه مسلم من حديث جابر بن سمرة وذكر الزكيتين والترمذي من حديث أبي وحسنه . من صلى الفجر في جماعة ثم قعد يذكر الله تعالى حتى تطلع الشمس ثم صلى ركعتين كانت له كأجر حجة وممرة فامة تامة نامة . (٣) حديث الحسن : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان فيما يذكر من رحمة ربه أنه قال يا ابن آدم اذكرني من بعد صلاة الفجر ساعة وبعد صلاة العصر ساعة أكفك ما بينهما . أخرجه ابن المبارك في الزهد هكذا مرسلًا . (٤) حديث « كان يفتتح الدعاء سبحان ربّي العلى الأعلى الوهاب » تقدم . (٥) حديث « الفضل في تكرار لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد يحيى ويميت وهو حي لا يموت بيده الخير وهو على كل شيء قدير » هدم من حديث أبي أيوب تكرارها عشرين دون قوله « يحيى ويميت وهو حي لا يموت بيده الخير » فإنها في اليوم والليالي لذلك . أي من حديث أبي ذر دون قوله « وهو حي لا يموت » وهي كالماء عند الزرار من حديث عبد الرحمن بن عوف فيما يثقل عند الصباح والهدم وتكرارها مائة ومائتين والظن أن الدعاء من حديث عبد الله بن عمر وتكرارها ألف مرة ولستاهه ضيف .

العل العظيم ^(١) (الثالثة) قوله : سبح قدوس رب الملائكة والروح ^(٢) . (الرابعة) قوله : سبحان الله العظيم وبمحمده ^(٣) (الخامسة) قوله : أستغفر الله العظيم الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأسأله التوبة ^(٤) (السادسة) قوله : اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت ولا ينفع ذا الجند منك الجنة ^(٥) (السابعة) قوله : لا إله إلا الله الملك الحق المبين ^(٦) (الثامنة) قوله : بسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم ^(٧) (التاسعة) اللهم صل على محمد عبدك ونبيك ورسولك التي الأى وعلى آله وصحبه وسلم ^(٨) (العاشر) قوله : أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم رب أعوذ بك من هزات الشياطين وأعوذ بك وب أن يحضرون ^(٩) فهذه العشر كلمات إذا كرر كل واحدة عشر مرات حصل له مائة مرة « فهو أفضل من أن يكرر ذكرًا واحدًا مائة مرة » لأن لكل واحدة من هؤلاء الكلمات فضلًا على حياته ولقلب بكل واحد نوع ثلثه وتلذذ لنفسه في الانتقال من كلمة إلى كلمة نوع استراحة وأمن من الملل . فأما القراءة فيستحب له قراءة جملة من الآيات

(١) حديث « الفضل في تكرر : سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولاحول ولا قوة إلا بالله » أخرجه السائل في اليوم والليالي وابن حبان والحاكم وصححه من حديث أبي سعيد الخدري « استسكروا من البابات الصالحات » فذكرها (٢) . حديث « تكرر : سبح قدوس رب الملائكة والروح » لم أجده ذكرها مكررة ولكن عند مسلم من حديث عائشة « أنه صلى الله عليه وسلم كان يقولها في ركوعه وسجوده » ولقد هدم ولأن الشيخ في التواب من حديث البراء « أكثر من أن يتلو سبحان الملك القدوس رب الملائكة والروح » . (٣) حديث « تكرر : سبحان الله وبمحمده » متفق عليه من حديث أبي هريرة « من قال ذلك في يوم مائة مرة حط خطايا يومئذ كانت مثل زبد البحر » . (٤) حديث « تكرر أستغفر الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأسأله التوبة » أخرجه المستفري في الدعوات من حديث « ما » أن من قالها بعد الظهر وبعد العصر ثلاث مرات كسرت ذنوبه وإن كانت مثل زبد البحر » ولفظه « وأتوب إليه » وفيه حذف وهكذا رواه الترمذي من حديث أبي سعيد في لوطا « ثلاثا » وللبخاري من حديث أبي هريرة « أني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة » ولم يقل الطبراني « أكثر » ولمسلم من حديث الأعرابي « لأستغفر الله في كل يوم مائة مرة » فقدمت هذه الأحاديث في الباب الثاني من الأذكار . (٥) حديث « تكرر . اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت ولا ينفع ذا الجند منك الجنة » لم أجده تكرر في حديث وإنما وردت مطلقة عقب الصلوات وفي الرغف من الركوع . (٦) حديث « تكرر : لا إله إلا الله الملك الحق المبين » أخرجه المستفري في الدعوات والمخطيب في الرواة من مالك من حديث علي « من قالها في يوم مائة مرة كان له أمان من الفقر وأمان من وحشة القبر واستجاب له الذي واستنصر باب الجنة » وفيه الفضل بن غانم ضعيف ولأبي نعيم في الحلية « من قال ذلك في كل يوم ولاية مائة مرة لم يسأل الله لهما حاجة إلا أضاءها » وفيه سالم الخواص ضعيف وقال فيه : أخرجه عن علي . (٧) حديث « تكرر : بسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم » أخرجه أصحاب السنن وابن حبان والحاكم وصححه من حديث عثمان « من قال ذلك ثلاث مرات حين يمسي لم يصبه بلاء حتى يصبح ومن قالها حين يصبح ثلاث مرات لم يصبه بلاء حتى يمسي » قال « قد روي حسن صحيح قريب .

(٨) حديث « تكرر : اللهم صل على محمد عبدك ونبيك ورسولك الذي الأى وعلى آله محمد » ذكره أبو القاسم محمد بن عبد الواحد النافقي في فضائل القرآن من حديث ابن أبي أوفى « من أراد أن يموت في السماء الرابعة قليل كل يوم ثلاث مرات » فذكره وهو متكرر . قلت : ورد التكرار عند الصباح والمساء من غير تحبير لهذه الصيغة رواه الطبراني من حديث أبي الدرداء « بلط » من صل على حين يصبح عشرين ويحيى عشرين أدركته شفاعة يوم القيامة » وفيه اضطراح .

(٩) حديث « تكرر : أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم أعوذ بالله من هزات الشياطين وأعوذ بك رب أن يحضرون » أخرجه الترمذي من حديث معقل بن يسار « من قال حين يصبح ثلاث مرات أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم وقرأ ثلاث آيات من آخر سورة الحشر وكل الله به سبعين ألف ملك .. الحديث » ومن قالها حين يمسي كان بذلك المسترزة وقال حسن شرب ولأن أبي الدنيا من حديث أسد مثل حديث مطعون قبله « من قالها حين يصبح سبعين مرة عمره مائة سنة من الشيطان إلى الصبح ... الحديث » ولأبي الشيخ في التواب من حديث عائشة « ألا أعلمك يا خالد كلمات يقولها ثلاث مرات قل : أعوذ بكلمات الله التامة من غضبه وعقابه وشر عباده ومن هزات الشياطين وأن يحضرون » والحديث عند أبي داود والترمذي وصححه والحاكم وصححه أبي نعيم قال عند الفزع دون تكررهما ثلاثا من حديث عبد الله بن عمرو .

(١) حديث «فضل سورة قالمحمد» أخرجه البخاري من حديث أبي سعيد بن المديني أنها أعظم السور في القرآن وسلم من حديث ابن عباس «الملك الذي نزل إلى الأرض وقال للهي من الله عليه وسلم أمر بدين وأوتيتها لم يؤتيا من قبله : فأعجه الكتاب وخواتم سورة البقرة» لم تقرأ بحرف منها إلا أصليته . (٢) حديث «فضل آية الكرسي» أخرجه مسلم من حديث أبي بركه «باب النذر الذي أدى آية من كتاب الله ذلك أعظم» قلت : إذا لا لا هو المثل القويم ... الحديث «والبخاري من حديث أبي هريرة في توكيده بحفظ خير الصفة وبجهد الشيطان إليه وقوله «وإذا قرأ آية الكرسي فليأمن فليأمن بذلك من علك من غير أن يعلم أنه يأم» الحديث «وفيه «فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إذا قرأه صدك وكفوب» (٣) حديث «فضل غايعة البقرة» متفق عليه من حديث أبي مسعود «من قرأ بالأيتين من آخر سورة البقرة في ليلة كفتاه» واتفق حديث ابن عباس بذكر حديث (٤) حديث «فضل» شهد الله أخرجه أبو الشيخ وابن حبان في كتاب التوابين من حديث أبي مسعود «في إتيانك الله في ليلة الإسلام ثم قال وأما أشهد بمجاهدة الله به واستودع الله هذه العجدة وهي في عنده ودية جبه» به يوم القيامة فليل في عيني هذه عهد لي عهد وأما حق من قول بالله أمدوا به الجنة» وفيه عشرين مختاراً وهو المثل الأعلى «في عديسي» في حديث علي بن هذيل (٥) حديث «فضل : قال لهم مالك الله الأيتين» أخرجه المستطرف في الفتاوى من حديث علي بن هذيل «أن فاعله الكتاب وآية الكرسي والأيتين من آل عمران شهد الله إلى قوله الإسلام وقال اللهم مالك الملك إلى قوله خير حساب محاسبين وبين الله حساب .. الحديث «وفيه «فقال لا لأمر أن أحد من عبادي وبرك صلاة لا جئت الجنة مثله ... الحديث «وفي الحارث بن عمر بن حريته ترجمته ذكره ابن حبان في الفضلاء وقال موضوع لأصل له والحارث بروى عن الآيات الموضوعات : قلت : وفيه حاد بن زيد وابن معين وأبو زهرة وأبو حاتم والذائي وروى له البخاري ليطيا . (٦) حديث «فضل : قال جابر بن عبد الله أنفسكم إلى آخرها ختمه الطبراني في المعجم من حديث أبي سعيد بن مسعود «علي رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أخرج من كل شيطان رجيم ومن كل جبار منيد» فذكر حديثاً وفي آخره «فحسب الله إلى آخر السورة» وذكر أبو القاسم الطائفي في فضائل القرآن في رغب القرآن لعبد الملك بن حبيب من رواية محمد بن بكر «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : من قرأ آية فقد جابم رسولاً من أنفسكم ... إلى آخر السورة» لم يمت هذا ولا غيرها ولا حراً ولا ضرباً بمجدة» وهو ضيف . (٧) حديث «فضل : قال صدق الله رسوله الرؤيا بالحق» لم أجده حديثاً غيباً ، لكن في فضل سورة التفتح مارواه أبو الشيخ في كتاب من حديث أبي بركه «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد تصدع معكم مع أبيه من الله عليه وسلم» وهو حديث موضوع . (٨) حديث «فضل : الحمد لله الذي لم يهتد ولها ... الآية» أخرجه أحمد والطبراني من حديث معاذ بن أنس «آية النور : الحمد لله الذي لم يهتد ولها ... الآية كلها» وأسناده ضيف . (٩) حديث «فضل : غلبت آيات من أول الحديد» ذكر أبو القاسم الطائفي فضائل القرآن من حديث علي «إذا أردت أن تكلم الله سبحانه فأقرأ آيات من أول سورة الحديد إلى قوله «علم ذات الصدور» ومن آخر سورة الحديد من قوله «لو أنزلنا هذا القرآن على جبل - على آيات من أول السورة» تقول يمين هو كذا المثل في كذا» واتفقوا بترجمته . (١٠) حديث «فضل ثلاث آيات من سورة الحديد» أخرجه الترمذي من حديث مفضل بن يسار وقد تقدم قبل هذا وفيه عن النعمان بن عبد الله بن أبي أمامة بن عبد الله بن مسعود «من قرأ خواتم سورة الحديد في ليلة أو نهار فقام من يومه أو ليله فقد أوجب الله له الجنة» .

قبل طلوع الشمس وقبل انبساطها على الأرض وقبل الغروب سورة الحمد وقل أعوذ برب الناس وقل أعوذ برب الفلق وقل هو الله أحد وقل يا أيها الكافرون وآية الكرسي كل واحدة سبع مرات وتقول : سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر سبعا وتصل على النبي صلى الله عليه وسلم سبعا وتستغفر لنفسك ولوالدك ولوالدك وللمؤمنين والمؤمنات سبعا وتقول : اللهم افعل فيهم حاجلا وأجلا في الدين والدنيا والآخرة ما أنت له أهل ولا تفعل بنا ما مولانا ما نحن له أهل إنك غفور حلیم جواد كريم دوف رحيم سبع مرات وانظر أن لا تدع ذلك غدوة وعشية فقلت : أحب أن تغفر لي من أعطاك هذه العطية العظيمة ؟ فقال : أعطانيها محمد صلى الله عليه وسلم ^(١) فقلت : أخبرني بشواب ذلك ؟ فقال : إذا قلت محمدا صلى الله عليه وسلم فأسأله عن ثوابه فإنه يجزيك بذلك ، فذكر إبراهيم التيمي : أنه رأى ذات يوم في منامه كأن الملائكة جاءته فاحتملته حتى أدخلوه الجنة فرأى ما فيها ووصف أمورا عظيمة مما رآه في الجنة قال : فسألت الملائكة فقلت : لمن هذا ؟ فقالوا : للذي يعمل مثل عملك وذكر أنه أكل من ثمرها وسقوه من شرابها قال : فأثنى النبي صلى الله عليه وسلم ومعه سبعون نبيا وسبعون صفا من الملائكة كل صف مثل ما بين المشرق والمغرب فسلم على وأخذ يمدى فقلت : يا رسول الله الخضر أخبرني أنه سمع منك هذا الحديث فقال : صدق الخضر صدق الخضر وكل ما يحكيه فهو حق وهو عالم أهل الأرض وهو رئيس الأبدال وهو من جنود الله تعالى في الأرض فقلت يا رسول الله فن فعل هذا أو عمله ولم ير مثل الذي رأيت في منامي هل يعطى شيئا مما أعطيت ؟ فقال والذي بعثني بالحق نبيا إنه ليعطى العامل بهذا وإن لم يرى ولم ير الجنة إنه ليغفر له جميع الكبائر التي عملها ويرفع الله تعالى عنه غضبه ومقته ويأمر صاحب القبائل أن لا يكتب عليه خطيئة من السيئات إلى سنة والذي بعثني بالحق نبيا ما يعمل بهذا إلا من خلقه الله سعيدا ولا يتركه إلا من خلقه الله شقيا ، وكان إبراهيم التيمي يحسب أربعة أشهر لم يطعم ولم يشرب فله كان بعد هذه الرؤيا . فهذه وظيفة القراءة ! فإن أضاف إليها شيئا مما انتهى إليه ورده من القرآن أو اقتصر عليه فهو حسن فإن القرآن جامع لفضل الذكر والفكر والدعاء مهما كان بتدبر كما ذكرنا فضله وآدابه في باب التلاوة . وأما الأفكار : فليكن ذلك إحدى وظائفه - وسيأتي تفصيل ما يتفكر فيه وكيفيته في كتاب التفكير من ربيع المنجيات - ولكن مجامعه ترجع إلى اثنين ؛ أحدهما : أن يتفكر فيها ينفعه من المعاملة بأن يحاسب نفسه فيها سبق من قصيره ويرتب وظائفه في يومه الذي بين يديه ويدير في دفع الصوارف والعوائق الشاغلة له عن الخير ويتذكر قصيره وما يتطرق إليه الخلل من أعماله ليصلحه ويحضر في قلبه النيات الصالحة من أعماله في نفسه وفي معاملته للسلين . والثاني : فيما ينفعه في علم المكاشفة وذلك بأن يتفكر مرة في نعم الله تعالى وتواتر آياته الظاهرة والباطنة لتزيد معرفته بها ويكثر شكره عليها أو في عقوباته ونقائصه لتزيد معرفته بقدرة الإله واستغاثته ويزيد خوفه منها . ولكل واحد من هذه الأمور شجب كثيرة ينفع التفكير فيها على بعض الحقائق دون البعض وإن استقصى ذلك في كتاب التفكير . ومهما تيسر الفكر فهو أشرف العبادات إذ فيه معنى الذكر لله تعالى وزيادة أمرين ، أحدهما : زيادة المعرفة إذ الفكر مفتاح المعرفة والكشف . والثاني : زيادة المحبة إذ لا يجب القلب إلا من اعتقد تعظيمه ولا تكشف عظمة الله سبحانه وجلاله إلا بمعرفة صفاته ومعرفة قدرته وبجانب أنفاله . فيحصل من الفكر المعرفة ومن المعرفة التعظيم ومن التعظيم المحبة . والذكر أيضا يورث الأنس وهو نوع من المحبة ولكن المحبة التي سببها المعرفة

(١) حديث كرز بن وردة من أهل الشام عن إبراهيم التيمي : أن الخضر عليه المسببات المعجزة . وقال في آخرها : أعطانيها محمد صلى الله عليه وسلم . ليس له أصل ولم يصح في حديث لط اجتماع الخضر بالنبي صلى الله عليه وسلم ولا عدم اجتماعه ولا مجامعته ولا موته .

أقوى وأتمت وأعظم . ونسبة عبة المعارف إلى أنس الذكر من غير تمام الاستيعار كنسبة عشق من شاهد جمال شخص بالعين واطلع على حسن أخلاقه وأفعاله وفضائله وخصاله الخيدة بالتجربة إلى أنس من كرو على محبه وصف شخص غائب عن عينه بالحسن في الخلق والخلق مطلقا من غير تفصيل وجوه الحسن فيها فليس عيبه له كجة المشاهد وليس الخبر كالعلمانية . فالعابد المواقبون على ذكر الله بالقلب واللسان الذين يعتقدون بما جاءت به الرسل بالإيمان التقليدي ليس منهم من يحسن صفات الله تعالى إلا أمور جميلة اعتقدها بتصدق عن وصفها لهم . والمعارفون هم الذين شاهدوا ذلك الجلال والجمال بعين البصيرة الباطنة التي هي أقوى من البصر الظاهر لأن أحدا لم يحيط بكنه جلالة وجماله فإن ذلك غير مقدور لأحد من الخلق ولكن كل واحد شاهد بقدر ما رفع له من الحجاب ولا نهاية لجمال حضرة الربوبية ولا لحجبها . وإنما حدد حجبها التي استجفت أن تسمى نورا وكاد يظن الراسل إليها أنه قد تم وصوله إلى الأصل سبعون حجابا . قال صلى الله عليه وسلم : « إن لله سبعين حجابا من نور لو كشفها لأحرقت سبحات وجهه كل ما أدرك بصره » (١) ، وذلك الحجب أيضا مترتبة وتلك الأنوار متفاوتة في الرب تعالى تفاوت الشمس والقمر والكواكب ويبدو في الأول أصغر حاتم ما يليه وعليه أول بعض الصوفية درجات ما كان يظهر لإبراهيم الخليل صلى الله عليه وسلم في تزيه وقال (فلما جن عليه الليل) أي أظلم عليه الأمر (رأى كوكبا) أي وصل إلى حجاب من حجب الثور فمهرضه بالكوكب وما أريد به هذه الأجسام المضيئة فإن أحاد العوام لا ينبغي عليهم أن الربوبية لا تليق بالأجسام بل يدركون ذلك بأوائل نظرهم لما لا يضل العوام لا يضل الخليل عليه السلام . والحجب المسماة أنوارا ما أريد بها الضوء المحسوس بالبصر بل أريد بها ما أريد بقوله تعالى (الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح) الآية ولتتجاوز هذه المعاني فإنها خارجة عن علم المعاملة ولا يوصل إلى حقائقها إلا الكشف التابع للفكر الصافي وقل من يفتح له بابه والتمتير على جمهر الخلق الفكرية يفيد في علم المعاملة وذلك أيضا مما تنزه قائمته ويعظم نفعه . فهذه الوظائف الأربع أعتنى : النقاء والذكر والقراءة والفكر ، ينبغي أن تكون وظيفة المريد بعد صلاة الصبح بل في كل ورد بعد الفراغ من وظيفة الصلاة فليس بعد الصلاة وظيفة سوى هذه الأربع . ويقوى على ذلك بأن يأخذ سلاحه وجمته والصوم هو الجنة التي تضيق بجاري الشيطان المعادي الصارف له عن سبيل الرشاد . وليس بعد طلوع الصبح صلاة سوى ركعتي الفجر وفرض الصبح إلى طلوع الشمس كان رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضى الله عنهم يشتغلون في هذا الوقت بالآذكار (٢) وهو الأول إلى أن يظله النوم قبل الفرض ولم يندفع إلا بالصلاة فهو صلى لذلك فلا بأس به .

الورد الثاني : ما بين طلوع الشمس إلى ضمرة النهار وأعتنى بالضعوة منتصف ما بين طلوع الشمس إلى الزوال وذلك بمضى ثلاث ساعات من النهار إذا فرض النهار الفتي عشرة ساعة وهو الريح . وفي هذا الريح من النهار وظيفتان زائدتان : إحداها : صلاة الضحى . وقد ذكرناها في كتاب الصلاة - وأن الأول أن يصلي ركعتين عند الإشراق وذلك إذا انبسطت الشمس وارتفعت قدر نصف ربح ويصل أربعاً أو ستاً أو ثمانياً إذا وضعت الفصال وخصيت الأقدام بحمى الشمس . فوقت الركعتين هو الذي أراد الله تعالى بقوله (يبحن بالمشى والإشراق) فإنه وقت إشراق الشمس وهو ظهور تمام نورها بازديادها عن موازات البخارات والنبارات التي على وجه الأرض

(١) حديث « إن لله سبعين حجابا من نور ... الحديث » تقدم في قواعد العقائد .

(٢) حديث « اشتغاله بالآذكار من الصبح إلى طلوع الشمس » تقدم حديث جابر بن سمره عند مسلم في جلوسه على الله عليه وسلم إذا صلى الفجر في مجلسه حتى مطلع الشمس وليس فيه ذكر اشتغاله بالذكر وإنما هو من قوله ما تقدم من حديث أس : (٣) - - - لهما : علوم الدين - (١)

فلما تمتع إشرافها التام ، ووقت الركعات الأربع هو الضحى الأعلى الذى أقسم الله تعالى به فقال ﴿ والضحى والليل إذا جى ﴾ وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم على أصحابه وهم يصلون عند الإشراف فنادى بأعلى صوته : ألا إن صلاة الأوابين إذا مضت الفصال ^(١) ، فذلك تقول إذا كان يقتصر على مرة واحدة في الصلاة بهذا الوقت أفضل لصلاة الضحى وإن كان أصل الفضل يحصل بالصلاة بين طرفي وقتي الكراهة وهو ما بين ارتفاع الشمس بطول نصف ربح بالتقريب إلى ما قبل الزوال في ساعة الاستواء . واسم الضحى ينطلق على الكل وكان ركعتي الإشراف تقع في مبتدأ وقت الإذن في الصلاة وانقضاء الكراهة إذ قال صلى الله عليه وسلم : إن الشمس تطلع ومعهما قرن الشيطان فإذا ارتفعت فأرقها ^(٢) . فأقل ارتفاعها أن ترتفع عن بخارات الأرض وغبارها وهذا يراعى بالتقريب .

الوظيفة الثانية في هذا الوقت : الحريات المتعلقة بالناس التي جرت بها العادات بكرة من عبادة مريض وتشجيع جنازة ومماونة على بر وتقوى وحضور مجلس علم وما يجرى مجراه من قضاء حاجة لمسلم وغيرها . فإن لم يكن شيء من ذلك عاد إلى الوظائف الأربع - التي قدمناها من الأدعية والذكر والقراءة والفكر والصلوات - المتعارف بها إن شاء فلنباها مكروهة بعد صلاة الصبح وليست مكروهة الآن . فتصير الصلاة فيها حامسا من جملة وظائف هذا الوقت لمن أراد أن يأمده بفرضه الصبح فتكره كل صلاة لاسبب لها . وبعد الصبح الإحباب أن يقتصر على ركعتي الفجر وتعمية المسجد ولا يشتغل بالصلاة بل بالأذكار والقراءة والدعاء والفكر .

الورد الثالث : من ضحوة النهار إلى الزوال ولنفي بالضحوة المنتصف وما قبله بقليل ، وإن كان بعد كل ثلاث ساعات أمر بصلاة فإذا انقضى ثلاث ساعات بعد الطلوع فمتدها وقبل معضا صلاة الضحى . فإذا مضت ثلاث ساعات أخرى فالظهر . فإذا مضت ثلاث ساعات أخرى فالعصر . فإذا مضت ثلاث أخرى فالغروب . ومنزلة الضحى بين الزوال والطلوع كنزلة العصر بين الزوال والغروب ، إلا أن الضحى لم يفرض لأنه وقت انكباب الناس على أشغالهم تخلف عنهم . الوظيفة الرابعة : في هذا الوقت الأقسام الأربعة ، وزيدان : أحدهما ؟ الاشتغال بالكسب وتدير المعيشة وحضور السوق . فإن كان تاجراً فينبغي أن يتجر بصدق وأمانة وإن كان صاحب صناعة فبصنع وشغفه ولا ينسى ذكر الله تعالى في جميع أشغاله ويقتصر من الكسب على قدر حاجته ليومه مهما قدر على أن يكتسب في كل يوم لقره . فإذا حصل كفاية يومه فليرجع إلى بيت ربه وليتزوّد لآخرته فإن الحاجة إلى زاد الآخرة أشد والفتنة به أدم فاشتغاله بكسبه أم من طلب الزيادة على حاجة الوقت . فقد قيل : لا يوجد المؤمن إلا في ثلاث مواطن مسجد يمره أو بيت يستره أو ساحة لابد له منها . وكل من يمرر القدر فيما لابد منه بل أكثر الناس يقدرون فيما منه بد أنه لابد لهم منه وذلك لأن الشيطان يعدم الفقر ويأمرهم بالفحشاء فيصنون إليه ويصنعون مالا يأكلون خيفة الفقر والله يعدم مغفرة منه وفضلا فيعرضون عنه ولا يرغبون فيه . الأمر الثاني : القبول وهو سنة يستعان بها على قيام الليل كما أن التمسك سنة يستعان به على صيام النهار . فإن كان لا يقوم بالليل لكن لو لم يتم لم يشتغل بخير وربما غايل أهل الغفلة وتحدث معهم فالتزم أحب له إذا كان لا يبيعن لشاغله للرجوع إلى الأذكار والوظائف المذكورة إذ في التزم الصمت والسلامة ، وقد قال بعضهم : يأتي على الناس زمان الصمت والتوهم فيه أفضل أعمالهم . وكل من عابد أحسن أحواله التوهم وذلك إذا كان يراى بعبادته ولا يخلص فيها فكيف بالغافل

(١) حديث « خرج على أصحابه وهم يصلون عند الإشراف فنادى بأعلى صوته : إلا أن صلاة الأوابين إذا مضت الفصال » أخرجه الطبراني من حديث زيد بن أرقم دون قوله « فنادى بأعلى صوته » وهو عند مسلم دون ذكر الإشراف . (٢) حديث « إن الشمس تطلع ومعهما قرن الشيطان فإذا ارتفعت فأرقها » تقدم في الصلاة .

الفاسق ؟ قال سليمان الثوري رحمه الله : كان يسجد إذا تفرغوا أن يناموا طلباً للسلامة فإذا كان نومه على قصد طلب السلامة ونية قيام الليل كان نومه قربة . ولكن ينبغي أن يتلبه قبل الزوال بقدر الاستعداد للصلاة بالوضوء وحضور المسجد قبل دخول وقت الصلاة فإن ذلك من فضائل الأعمال وإن لم يتم ولم يشتغل بالكسب واشتغل بالصلاة والذكر فهو أفضل أحوال النهار لأنه وقت غفلة الناس عن الله عز وجل واشتغالهم بهموم الدنيا فالقلب المتفرغ لخدمة ربه عند إعراض العبيد عن بابه جدير بأن يركبه الله تعالى ويصطفيه لقربه ومعرفته . وفضل ذلك كفضل إحياء الليل فإن الليل وقت الغفلة بالنوم وهذا وقت الغفلة باتباع الهوى والاشتغال بهموم الدنيا وأحد معنى قوله تعالى : ﴿ وهو الذي جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر ﴾ أي يخلف أحدهما الآخر في الفضل والثاني : أنه يخلفه فيتدارك فيه ما فات في أحدهما .

الورد الرابع : ما بين الزوال إلى الفراغ من صلاة الظهر ورايته وهذا أقصر أوراد النهار وأفضلها : فإذا كان قد تروأ قبل الزوال وحضر المسجد فهما زالت الشمس وابتدأ المؤذن الأذان فيصير إلى الفراغ من جواب أذانه ثم ليقيم إلى إحياء ما بين الأذان والإقامة فهو وقت الإظهار الذي أراده الله تعالى بقوله ﴿ حين تظهرون ﴾ وليصل في هذا الوقت أربع ركعات لا يفصل بينهما بتسليمية واحدة ^(١) وهذه الصلاة وحدها من بين سائر صلوات النهار نقل بعض العلماء أنه يصلها بتسليمية واحدة ولكن طعن في تلك الرواية ، ومذهب الشافعي رضي الله عنه أنه يصل متى متى كسائر التوافل ويفصل بتسليمية ^(٢) وهو الذي صحته به الأخيار وليطول هذه الركعات إذ فيها تفتح أبواب السماء كما أوردنا الخيرة فيه في باب صلاة التطوع وليقرأ فيها سورة البقرة أو سورة من المثني أو أربعاً من المثاني فهذه ساعات يستجاب فيها الدعاء . وأحب رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يرتفع فيها عمل ، ثم يصل الظهر بمجامعة بعد أربع ركعات طويلة - كما سبق - أو قصيرة لا ينبغي أن يدها . ثم يصل بعد الظهر ركعتين ثم أربعاً فقد كره ابن مسعود أن تتبع الفريضة بمثلها من غير فاصل . ويستحب أن يقرأ في هذه النافلة آية الكرسي وآخر سورة البقرة والآيات التي أوردناها في الورد الأول ليكون ذلك جامعاً له بين الدعاء والذكر والقراءة والصلاة . والتحميد والتسبيح مع شرف الوقت .

الورد الخامس : ما بعد ذلك إلى العصر ويستحب فيه العكوف في المسجد مشغلاً بالذكر والصلاة أو فنون الخير ويكون في انتظار الصلاة معتكفاً . فمن فضائل الأعمال انتظار الصلاة بعد الصلاة وكان ذلك سنة السلف . كان الداخل يدخل المسجد بين الظهر والعصر فيسمع للصليين دويًا كدوي النحل من التلاوة . فإن كان بيته أسلم لديته وأجمع لهمه فليأمن في حقه فإحياء هذا الورد وهو أيضاً وقت غفلة الناس كإحياء الورد الثالث في الفضل . وفي هذا الوقت يكره النوم ثم نام قبل الزوال إذ يكره نومتان . بالنهار . قال بعض العلماء : ثلاث يمقت الله عليها ، الضحك بغير عجب والأكل من غير جوع والنوم بالنهار من غير سهر بالليل . والحد في النوم أن الليل والنهار أربع وعشرون ساعة فالاعتدال في نومه ثمان ساعات في الليل والنهار جميعاً فإن نام هذا القدر بالليل فلامعنى للنوم بالنهار ، وإن نقص منه مقداراً استوفاه بالنهار لحسب ابن آدم إن عاش ستين سنة أن ينقص من عمره عشرون سنة . ومهما نام نيمان ساعات وهو الثلث فقد نقص من عمره الثلث ولكن لما كان النوم غذاء الروح كما أن الطعام غذاء الأبدان

(١) حديث « صلاة أربع بعد الزوال بتسليمية واحدة » وفيه « أنها فيها تفتح أبواب السماء . وأنها ساعة يستجاب فيها الدعاء وأحب أن يرغب فيها عمل صالح » أخرجه أبو داود وابن ماجه من حديث أبي أيوب وقد تقدم في الصلاة في الباب السادس .

(٢) حديث « صلاة الليل والنهار متى متى » أخرجه أبو داود وابن حبان من حديث ابن عمر .

وكان العلم والذكر غذاء القلب لم يمكن قطعه عنه وتقدر الاعتدال هذا والتقصان منه ربما يفضي إلى اضطراب البدن إلا من يتعود السهر تدريجاً فقد يزن نفسه عليه من غير اضطراب . وهذا الورد من أطول الأوراد وأمنعها للعباد وهو أحد الأصال التي ذكرها الله تعالى إذ قال (وفيه يسجدن في السموات والأرض طوعاً وكرها وظلالهم بالغدق والآصال) وإذا سجدت عز وجل المجدات فكيف يجوز أن ينفل العبد المائل عن أنواع العبادات ؟

الورد السادس : إذا دخل وقت العصر دخل وقت الورد السادس وهو الذي أقسم الله تعالى به فقال تعالى (والمصر) هذا أحد معني الآية وهو المراد بالآصال في أحد التفسيرين وهو المعنى المذكور في قوله (وعشيا) وفي قوله (بالمعنى والإشراق) وليس في هذا الورد صلاة إلا أربع ركعات بين الأذان والإقامة - كما سبق في الظاهر - ثم يصل القرض ويشتمل بالأنعام المذكورة في الورد الأول إلى أن ترتفع الشمس إلى رموس المحيطان وتغمر . والأفضل فيه إذن من الصلاة تلاوة القرآن بتدبر وتفهم إذ يجمع ذلك بين الذكر والدعاء والتفكير فيندرج في هذا القسم أكثر مقاصد الأقسام الثلاثة .

الورد السابع : إذا اصغرت الشمس بأن تقرب من الأرض بحيث ينفط نورها العبارات والبخارات التي على وجه الأرض ويرى صفرة في ضوئها دخل وقت هذا الورد وهو مثل الورد الأول من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس لأنه قبل الغروب كما أن ذلك قبل الطلوع وهو المراد بقوله تعالى (فسبحان الله حين تمشون وحين تقيمون) وهذا هو الطرف الثاني المراد بقوله تعالى (فسبح وأطراف النهار) قال الحسن . كانوا أشد تعظيماً للعشي منهم لأول النهار . وقال بعض السلف : كانوا يعملون أول النهار للدنيا وآخره للآخرة : فيستحب في هذا الوقت التسبيح والاستغفار خاصة وسائر ما ذكرناه في الورد الأول مثل أن يقول : استغفر الله الذي لا إله إلا هو الخ التأييم وأسأله التوبة وسبحان الله العظيم وبحمده ، مأخوذ من قوله تعالى (واستغفر لذنبك وسبح بحمد ربك بالعشي والإبكار) والاستغفار على الأسماء التي في القرآن أحب كقوله (استغفر الله إنه كان غفاراً - استغفر الله إنه كان تواباً - رب اغفر وارحم وأنت خير الراحمين - فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير العافرين) ويستحب أن يقرأ قبل غروب الشمس : والشمس وضحاها والليل إذا يغشى والمؤمنون . ولتغرب الشمس عليه وهو في الاستغفار فإذا سمع الأذان قال ، اللهم هذا إقبال ليلك وإدبار نهارك وأصوات دعائك - كما سبق - ثم يجيب المؤذن ويشتمل بصلاة المغرب . وبالمغرب قد انتهت أوراد النهار فينبغي أن يلاحظ العبد أحواله ويحاسب نفسه فقد انقضى من طريقه مرحلة ، فإن ساء يومه أمسه فيكون مغبوناً وإن كان شراً منه فيكون مغلوباً فقد قال صل الله عليه وسلم ، لا يورثك لي يوم لا أزداد فيه خيراً ^(١) ، فإن رأى نفسه متوفراً على الخير جميع نهاره مترفعاً عن التجسيم كانت بشارته فليشكر الله تعالى على توفيقه وتأييده إياه لطريقه وإن تكن الأخرى قائل خلة النهار فليعزم على ثلاثي ماسبق من تفريطه فإن الحسنات يذهبن السيئات . وليشكر الله تعالى على صحة جسمه وبقاء بقية من عمره طول ليله ليشتغل بتدارك تقصيره وليسحضر في قلبه أن نهار العمر له آخر تغرب فيه شمس الحياة فلا يكون لها بعدها طلوع . وعند ذلك يفتق باب التدارك والاعتذار فليس العمر إلا أياماً معدودة تنقضي لا محالة جعلتها بانتضاء آحادها .

(١) حديث لا يورثك لي يوم لا أزداد فيه خيراً - يندرج في العلم في الباب الأول إلا أنه قال « طلع » بدلاً « خيراً » ،

بيان أورداد الليل وهي خمسة

الأول : إذا غربت الشمس صلى المغرب واشتغل بإحياء ما بين العشاءين فآخِر هذا الورد عند غيبوبة الشفق أَعْنَى الحرة التي يغيبوها يدخل وقت العتمة وقد أقسم الله تعالى به فقال ﴿ فلا أقسم بالشفق ﴾ والصلاة فيه هي ناشئة الليل لأنه أول نشوء ساعاته وهو أن من الآناء المذكورة في قوله تعالى ﴿ ومن آباء الليل فسبح ﴾ وهي صلاة الأوابين . وهي المراد بقوله تعالى ﴿ تتجافى جنوبهم عن المضاجع ﴾ روى ذلك عن الحسن وأسنده ابن أبي زياد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أنه سئل عن هذه الآية فقال صلى الله عليه وسلم : الصلاة بين العشاءين ، ثم قال صلى الله عليه وسلم : عليكم بالصلاة بين العشاءين فإنها تذهب بملذات النهار وتذهب آخره ^(١) ، والملاذات جمع ملذاة من اللغو . وسئل أنس بن مالك عن قيام بين العشاءين فقال : لا تفعل فإنها الساعة المعنية بقوله تعالى ﴿ تتجافى جنوبهم عن المضاجع ﴾ وسيأتي فضل إحياء ما بين العشاءين في الباب الثاني . وترتيب هذا الورد أن يصل بعد المغرب ركعتين أولاً يقرأ فيها قل يا أيها الكافرون وقل هو الله أحد ويصليهما عقيب المغرب من غير تخلل كلام ولا شغل ثم يصل أربعا يطيلها ثم يصل إلى غيبوبة الشفق ما تيسر له . وإن كان المسجد قريباً من المنزل فلا بأس أن يصلها في بيته إن لم يكن عزمه العكوف في المسجد وإن عزم على العكوف في انتظار العتمة فهو الأفضل إذا كان أمناً من التشنع والرياء .

والورد الثاني : يدخل بدخول وقت العشاء الآخرة إلى حد نومة الناس وهو أول استحكام الظلام وقد أقسم الله تعالى به إذ قال ﴿ والليل وما وسق ﴾ أي وما جمع من ظلمته وقال ﴿ إلى عشق الليل ﴾ فهناك ينسحق الليل وتستوسق ظلمته . وترتيب هذا الورد بمراعاة ثلاثة أمور (الأول) أن يصل سوى فرض العشاء عشر ركعات : أربعا قبل الفرض إحياء لما بين الأذانين وستا بعد الفرض ركعتين ثم أربعا يقرأ فيها من القرآن الآيات المخصوصة كآخر البقرة وآية الكرسي وأول الحديد وآخر الحشر وغيرها . (والثاني) أن يصل ثلاث عشرة ركعة آخرهن من الوتر فإنه أكثر ما روى أن النبي صلى الله عليه وسلم صلى بها من الليل ^(٢) والأكياس يأخذون أوقاتهم من أول الليل والأقوياء من آخره . والحزم التقديم فإنه ربما لا يستيقظ أو يشغل عليه القيام إلا إذا صار ذلك عادة له فآخِر الليل أفضل . ثم لبقراً في هذه الصلاة قدر ثلثمائة آية من السور المخصوصة التي كان النبي صلى الله عليه وسلم يكثر قراءتها مثل يس ومحمد لقمان وسورة النحل وتبارك الملك والزمر والواقعة ^(٣) فإن لم يصل فلا بدع قراءة هذه السور أو بعضها

(١) حديث « سئل عن قوله تعالى ﴿ تتجافى جنوبهم عن المضاجع ﴾ فقال الصلاة بين العشاءين ثم قل عليكم بالصلاة بين العشاءين فإنها تذهب بملذات النهار وتذهب آخره » قال المصنف أسنده ابن أبي الزناد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم . قلت : نعمها هو لإسماعيل بن أبي زياد بإياه المتأخذ من تحت رءوسه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من رواية لإسماعيل بن أبي زياد بإياه من الأعمش . حدثنا أبو العلاء البجلي عن سلمان قال « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم عليكم بالصلاة بين العشاءين فإنها تذهب بملذات أول النهار ومعهذه آخره » وإسماعيل هذا متروك يضع الحديث قاله البخاري . واسم أبي زياد سلم وقد اختلف فيه على الأعمش ولأن صدوقه من حديث أسد « أنها نزلت في الصلاة بين المغرب والعشاء » والحديث عند الترمذي وحسنه بإسناد « نزلت في انتظار الصلاة إلى طلوع الصلوة » .

(٢) حديث « الوتر ثلاث عشرة ركعة يعني بإبيل وأنه أكثر ما صلى به النبي صلى الله عليه وسلم من الليل » أخرجه أبو داود من حديث عائشة « لم يكن يوتر بأفصى من سبع ولا بأكثر من ثلاث عشرة ركعة » والبخاري من حديث ابن عباس « وكانت صلاته ثلاث عشرة ركعة يعني بإبيل » وسلم « كان يصل من الليل ثلاث عشرة ركعة » وفي رواية لقيطيين « منها ركعتا الفجر » ولها أيضاً ما كان يزيد في رمضان ولاغيره على إحدى عشرة ركعة . (٣) حديث « أكثرنا صلى الله عليه وسلم من قراءة يس وسجدة لقمان وسورة النحل وتبارك الملك والزمر والواقعة » غريب لم أقف على ذكر الإكثار فيه وابن حبان من حديث

قبل النوم فقد روى في ثلاث أحاديث ما كان يقرؤه رسول الله صلى الله عليه وسلم في كل ليلة أشهرها : السجدة وتبارك الملك ^(١) والزمر الواقعة وفي رواية : الزمر وبني إسرائيل ^(٢) وفي أخرى : أنه كان يقرأ المسبحات في كل ليلة ويقول فيها آية أفضل من ألف آية ^(٣) وكان العلماء يجعلونها ستاً فيريدون سبوح اسم ربك الأعلى إذ في الخبر أنه صلى الله عليه وسلم كان يجب سبوح اسم ربك الأعلى . وكان يقرأ في ثلاث ركعات الوتر ثلاث سور سبوح اسم ربك الأعلى ^(٤) .
وقل يا أيها الكافرون والإخلاص ^(٥) فإذا فرغ قال : سبحان الملك القدوس ثلاث مرات . (الثالث) الوتر : وليوتر قبل النوم إن لم يكن عادته القيام قال أبو هريرة رضي الله عنه : أوصاني رسول الله صلى الله عليه وسلم أن لا أنام إلا على وتر ^(٦) وإن كان معتلدا صلاة الليل فالتأخير أفضل . قال صلى الله عليه وسلم : صلاة الليل مثنى مثنى فإذا خفت الصبح فأوتر بركعة ^(٧) ، وقالت عائشة رضي الله عنها : أوتر رسول الله صلى الله عليه وسلم أول الليل وأوسطه وآخره وانتهى وتره إلى السحر ^(٨) ، وقال علي رضي الله عنه : الوتر على ثلاثة أنحاء إن شئت أوترت أول الليل ثم صليت ركعتين ركعتين يعني أنه يصير وترًا بما معنى وإن شئت أوترت بركعة فإذا استيقظت شفعت إليها أخرى ثم أوترت من آخر الليل وإن شئت أخرت الوتر ليكون آخر صلاتك ، هذا ما روى عنه والطريق الأول والثالث لا بأس به وأما فاضل الوتر فقد صح فيه نهي فلا ينبغي أن ينقص ^(٩) وروى مطلقاً أنه صلى الله عليه وسلم قال : لا وتران في ليلة ^(١٠) ، ولن يتردد في استيقاظه تعلق استحسنه بعض العلماء وهو أن يصل بعد الوتر ركعتين جالساً على فراشه عند النوم كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحض إلى فراشه ويصليهما ويقرأ فيهما إذا زلزلت وأهلاكم ^(١١) لما فيها من التحذير والوعيد وفي رواية قل يا أيها الكافرون لما فيها من التبرئة وإفراد العبادة لله تعالى ، فقيل إن استيقظ قائماً مقام ركعة واحدة وكان له أن يوتر بواحدة في آخر صلاة الليل وكانه صار ماضياً شفعاً بهما . وحسن استئناف الوتر واستحسن هذا أبو طالب المكي وقال فيه ثلاثة أعمال قصر الأمل وتحصيل الوتر والوتر آخر الليل ، وهو كما

= جندب « من قرأ في ليلة ابتداء وجه الله ظهر له » والترمذي من حديث جابر « كان لا ينام حتى يقرأ ألم تزيل السجدة وتبارك الذي بيده الملك » . وفي من حديث عائشة « كان لا ينام حتى يقرأ بي إسرائيل والزمر » ، وقال حسن قريب وله من حديث أبي هريرة « من قرأ حم السجدة في ليلة أصبح يستظفر له سبعون ألف ملك » قال حبيب ولا في الشيخ في التواب من حديث عائشة « من قرأ في ليلة لم تزل يبارك الذي بيده الملك والقرآن كان له نوراً ... الحديث » ولا في منصور المظفر بن الحسين النخعي في فضائل القرآن من حديث علي « يطلع أكثر من قراءة يس ... الحديث » وهو منكر ولما عرفت بن أبي أسامة من حديث ابن مسعود بسند ضعيف « من قرأ سورة الواقعة في كل ليلة لم تصبه فاقة أبداً » والترمذي من حديث ابن عباس « شيعتي هود والواقعة .. الحديث » وقال حسن قريب . (١) حديث « كان يقرأ في كل ليلة السجدة وتبارك الملك » أخرجه الترمذي وقدم في الحديث قبله . (٢) حديث « كان يقرأ في كل ليلة الزمر وبني إسرائيل » أخرجه الترمذي وقدم أيضاً .

(٣) حديث « كان يقرأ المسبحات في كل ليلة ويقول : فيهن آية أفضل من ألف آية » أخرجه أبو داود والترمذي وقال حسن والنسائي في الكبرى من حديث عمار بن سارية .

(٤) حديث « كان يجب سبوح اسم ربك الأعلى » أخرجه أحمد والبخاري من حديث علي بسند ضعيف . (٥) حديث « كان يقرأ في ثلاث ركعات الوتر سبوح اسم ربك الأعلى وقل يا أيها الكافرون والإخلاص » أخرجه أبو داود والنسائي وابن ماجه من حديث أبي بن كعب بإسناد صحيح وقدم في الصلاة من حديث أنس . (٦) حديث أبي هريرة « أوصاني رسول الله صلى الله عليه وسلم أن لا أنام إلا على وتر » متفق عليه يخط « أن أوتر قبل أن أنام » . (٧) حديث « صلاة الليل مثنى مثنى فإذا خفت الصبح فأوتر بركعة » متفق عليه من حديث ابن عمر . (٨) حديث عائشة « أوتر رسول الله صلى الله عليه وسلم أول الليل وأوسطه وآخره وانتهى وتره إلى السحر » متفق عليه . (٩) حديث « النبي من نفس الوتر » قال المصنف صح فيه نهي قلت : ولما صح من قول عابد بن عمرو وله حجة كما رواه البخاري ومن قول ابن عباس كما رواه البيهقي ولم يصح بأنه مرفوع فالتأخر أنه إنما أراد ما ذكرناه من الصلاة . (١٠) حديث « لا وتران في ليلة » أخرجه أبو داود والترمذي وحسنه والنسائي من حديث طلق بن علي . (١١) جمعت « الركعتين بعد الوتر جالساً » تقدم في الصلاة روم سلم من حديث عائشة .

ذكره لكن ربما يخطر أنهما لو شغعتا ماضى لكان كذلك ، وإن لم يستيقظ وأبطل وتره الأول فكونه شافنا إن استيقظ غير مشفع إن نام فيه لظن إلا أن يصح من رسول الله صلى الله عليه وسلم إتيانه قبلهما وإعادة الوتر فيفهم منه أن الركعتين شغف بهورتهما وتر بينهما فيحسب وترًا إن لم يستيقظ وشغفًا إن استيقظ . ثم يستب بعد التسليم من الوتر أن يقول سبحان الملك القدوس وب الملائكة والروح جللت السموات والأرض بالعملة والجبروت ، وتعمزت بالقدرة وفهرت العباد بالموت روى ، أنه صلى الله عليه وسلم ما مات حتى كان أكثر صلاته جالسًا إلا المكتوبة ^(١) . وقد قاله القاعد نصف أجر القائم وللنائم نصف أجر القاعد ^(٢) ، وذلك يدل على صحة النافذة دائمًا .

الورد الثالث : النوم ولا بأس أن يعد ذلك في الأوراد فإنه إذا رويته آذابه احتسب عبادة فقد قيل : إنَّ العبد إذا نام على طهارة وذكر الله تعالى يكتب مصلية حتى يستيقظ ويدخل في شعاره ملك فإن تمزق في نومه فذكر الله تعالى دعا له الملك واستغفره الله ^(٣) ، وفي الخبر ، إذا نام على طهارة رفع روحه إلى العرش ^(٤) ، هذا في العوام فكيف بالخواص والعلماء وأرباب القلوب الصافية ؟ فإنهم يكاشفون بالأسرار في النوم ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : نوم العالم عبادة ونفسه تسبيح ^(٥) ، وقال معاذ لابي موسى : كيف تصنع في قيام الليل ؟ فقال أقوم الليل أجمع لا أنام منه شيئًا وانفوق القرآن فيه تفوقًا قال معاذ : لكني أنا أنام ثم أقوم واحتسب في نومي ما أحسب في قومي . فذكرنا ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : معاذ أفقه منك ^(٦) وآداب النوم عشرة (الأول) الطهارة والدواك : قال صلى الله عليه وسلم : إذا نام العبد على طهارة خرج بروحه إلى العرش فكانت رؤياه صادقة وإن لم يتم على طهارة نصرت روحه عن البلوغ فذلك المنامات أضفأت أحلام لا تصدق ^(٧) ، وهذا أريد به طهارة الظاهر والباطن جميعًا ، وطهارة الباطن هي المؤثرة في انكشاف حجب النيب (الثاني) أن يعدّ عنه رأسه سواكه وطهوره ويؤتي القيام للعبادة عند التيقظ وكلما يتنبه يستاك ؛ كذلك كان يفعل بعض السلف . وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أنه كان يستاك في كل ليلة مرارًا عند كل نومة وعند التنبه منها ^(٨) . وإن لم يتيسر له الطهارة يستحب له مسح الأصابع بالماء فإن لم يجد فليقعد وليستقبل القبلة وليشتغل بالذكر والنجاء والتفكير في آلاء الله تعالى وقدرته فذلك يقوم مقام قيام الليل . وقال صلى الله عليه وسلم : من أتى فراشه وهو يؤتي أن يقوم يصل من الليل فغلبته عيناه حتى يصبح كتب له مائة الف صلاة وكان نومه صدقة عليه من الله تعالى ^(٩) . (الثالث) أن لا يبيت من له وصية إلا ووصيته مكتوبة عند رأسه فإنه لا يأمن

(١) حديث « مات حتى كان أكثر صلاته جالسًا إلا المكتوبة » متفق عليه من حديث عائشة . لما بدن النبي صلى الله عليه وسلم وتعلل كان أكثر صلاته جالسًا . (٢) حديث « القاعد نصف أجر القائم وللنائم نصف أجر القاعد » أخرجه البخاري من حديث عمران بن حصين . (٣) حديث « قيل إنه إذا نام على طهارة ذاكرا لله تعالى يكتب مصلية ويدخل في شعاره ملك .. الحديث » أخرجه ابن حبان من حديث ابن عمر . من بات طاهرًا بات في شعاره ملك فلم يستيقظ إلا لآل الملك الله अगर لم يدرك فلا نومه بات طاهرًا . (٤) حديث « إذا نام على الطهارة رفع روحه إلى العرش » أخرجه ابن المبارك في الزهد موقوفًا على أبي هريرة والبيهقي في الداع موقوفًا على عبد الله بن عمرو بن العاص . وروى الطبراني في الأوسط من حديث علي « مامن عبدا ولا أمة تام فقتل نوما إلا خرج بروحه إلى العرش فالتى لا يسيظ إلا عند العرش فذلك الرؤيا التي تصدق والتى يسيظ دون العرش فهي الرؤيا التي يكتب » هو ضعيف . (٥) حديث « نوم العالم عبادة ونفسه تسبيح » غلت المعروف فيه الصامدون العالم . ولدهند بن الصوم . (٦) حديث « قال معاذ لابي موسى كيف تصنع في قيام الليل ؟ فقال أقوم الليل أجمع لا أنام منه شيئًا وانفوق القرآن كله قال معاذ لكني أنا أنام ثم أقوم وأحسب في نومي ما أحسب في قومي فذكر ذلك النبي صلى الله عليه وسلم فقال : معاذ أفقه منك » متفق عليه بنحوه من حديث أبي سعيد وليس فيه « أنها ذكرا ذلك النبي صلى الله عليه وسلم » ولا قوله « معاذ أفقه منك » وأما زاد أبي الطبراني « فكان معاذ أفضل منه » . (٧) حديث « إذا نام العبد على طهارة خرج بروحه إلى العرش فكانت رؤياه صادقة » الحديث تقدم . (٨) حديث « أنه كان يستاك في كل ليلة مرارًا عند كل نومة وعند التنبه منها » تقدم في الطهارة . (٩) حديث « من أتى فراشه وهو يؤتي أن يقوم يصل من الليل فغلبته عيناه حتى يصبح كتب له مائة الف صلاة وكان نومه صدقة من الله عليه » أخرجه اللسان وابن ماجه من حديث أبي هريرة بسند صحيح .

التبضع في النوم فليمن من مات من غير وصية لم يؤذن له في السلام بالبرزخ إلى يوم القيامة ، يترأوه الأموات ويتحدّثون وهو لا يتكلم فيقول بعضهم لبعض هذا المسكين مات من غير وصية ، وذلك مستحب خوف موت الفجأة وموت الفجأة تخفيف إلا لمن ليس مستمداً للوثة بكونه مثقل الظهور بالمثالم (الرابع) أن ينأى تأمناً من كل ذنب سليم القلب لجميع المسلمين لا يحدث نفسه بظلم أحد ، ولا يمزج على مصيبة إن استيقظ ، قال صلى الله عليه وآله وسلم « من أرى إلى فراشه لا ينوي ظم أحد ولا يحد على أحد غفر له ما اجترم »^(١) ، (الخامس) أن لا يهتم بتمهيد الفراش التابعة بل يترك ذلك أو يقتصد فيه . كان بعض السلف يكره التمهيد للنوم ويرى ذلك تكلفاً ، وكان أهل الصفة لا يحملون بينهم وبين التراب حاجزاً ويقولون منها خلقنا وإليها نرد وكانوا يرون ذلك أرق لقلوبهم وأجدر بتواضع نفوسهم فمن لم تسمع بذلك نفسه فليقتصد (السادس) أن لا ينأى مالم ينبله النوم ولا يتكلف استجلابه إلا إذا قصد به الاستعانة على القيام في آخر الليل فقد كان نومهم غلبة وأكلهم قاعة وكلامهم ضرورة ولذلك وصفوا بأنهم كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون وإن غلبه النوم عن الصلاة والذكر وصار لا ينوي ما يقول فليمن حتى يعقل ما يقول . وكان ابن عباس رضي الله عنه يكره النوم قاعداً وفي الخبر « لا تسكبدوا الليل »^(٢) ، وقيل لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « إن فلاة تملئ بالليل فإذا غلبها النوم تملقت بجمل فنبى عن ذلك وقال : ليصل أحدكم من الليل ما يسير له فإذا غلبه النوم فليردد »^(٣) ، وقال صلى الله عليه وسلم « تكلفوا من العمل ما تطيقون فإن الله إن عمل حتى تملاوا »^(٤) ، وقال صلى الله عليه وسلم « خير هذا الدين أيسره »^(٥) ، وقيل له صلى الله عليه وسلم « إن فلانا يصل فلا ينأى ويصوم فلا ينطرق فقال لكني أصلى وأنا وأصوم وأناظر هذه سنى فمن رغب عنها فليس مني »^(٦) ، وقال صلى الله عليه وسلم « لا تشادوا هذا الدين فإنه متين فمن يشاده ينبله فلا تبضع إلى نفسك عبادة الله »^(٧) ، (السابع) أن ينأى مستقبل القبلة . والاستقبال على ضربين أحدهما : استقبال المحتضر . وهو المستلق على قفاه . فاستقباله أن يكون وجهه وأخصاه إلى القبلة . والثاني : استقبال البعد وهو أن ينأى على جنب بأن يكون وجهه إليها مع قبالة بدنه إذا نام على شقة الأيمن (الثامن) النأى عند النوم فيقول باسمك ربي وضعت جنبي وباسمك أرفعني إلى آخر الدعوات المسأورة التي أوردناها في كتاب الدعوات^(٨) ويستحب أن يقرأ الآيات المخصوصة مثل آية الكرسي وآخر البقرة وغيرها وقوله تعالى ﴿ والحكم له واحد لا إله إلا هو ﴾ إلى قوله ﴿ لقوم يقولون ﴾ يقال إن من قرأها عند النوم حفظ الله عليه القرآن فلم ينسه وقرأ من سورة الأعراف هذه الآية ﴿ إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ﴾ إلى قوله

(١) حديث « من أوى إلى فراشه لا ينوي ظم أحد ولا يحد على أحد غفر له ما اجترم » أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب التي من حديث أنس « من أسبغ ولم يهبط على أحد - غفر له ما اجترم » وسنده ضيف . (٢) حديث « لا تسكبدوا الليل » أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أنس بسند ضعيف في جامع سليمان التوري مؤلفه ابن مسعود « لا تألوا هذا الليل » . (٣) حديث « ليلا إن فلاة تملئ بالليل فإذا غلبها النوم تملقت بجمل فنبى عن ذلك وقال : ليصل أحدكم من الليل ما يسير له » أخرجه أحمد من حديث هبة بن عبد الله بن جابر « تكلفوا من العمل ما تطيقون فإن الله إن عمل حتى تملاوا » متفق عليه من حديث عائشة بنعظ « اكلفوا » . (٥) حديث « خير هذا الدين أيسره » أخرجه أحمد من حديث هبة بن الأدرع وشمس بن العزم . (٦) حديث « قيل له إن فلانا يصلي وأنا وأصوم وأناظر هذه سنى فمن رغب عنها فليس مني » أخرجه الشافعي من حديث عبد الله بن عمرو دون قوله « هذه سنى » إلخ وهذه الزيادة لابن خزيمة « من رغب من سنى فليس مني » وهي متفق عليها من حديث أنس . (٧) حديث « لا تشادوا هذا الدين فإنه متين فمن يشاده ينبله فلا تبضع إلى نفسك عبادة الله » أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة « إن يشاد هذا الدين أحسن لا عليه تسعدوا وفاروا » وقريب من حديث جابر « أن هذا الدين متين فأوغل فيه بروقي ولا تبضع إلى نفسك عبادة الله » ولا يصح لسانه . (٨) حديث « الدعاء المسأورة عند النوم باسمك اللهم ربه وضعت جنبي ... الحديث » إلى آخر الدعوات المسأورة التي أوردناها في الدعوات تقدم هناك وبقي الدعوات .

(قريب من المحسنين) وآخر بنى إسرائيل (قل ادعوا الله) الآيتين فإنه يدخل في شعاره ملك يوكل يحفظه فيستغفر له ويقرأ للمؤمنين وينفث بهن في يديه ويمسح بهما وجهه وسائر جسده ، كذلك روى من فضل رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(١) وليرأ عشا من أول الكهف وعشرا من آخرها وهذه الآية للاحتياط لقيام الليل . وكان على كرم الله وجهه يقول : ما أرى أن رجلا مستكلا عقله ينام قبل أن يقرأ الآيتين من آخر سورة البقرة وليليل خمسا وعشرين مرة : سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر . ليكون مجموع هذه الكلمات الأربع مائة مرة (التاسع) أن يتذكر عند النوم أن النوم نوع وفاة واليقظ نوع بعث قال الله تعالى (الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها) وقال (وهو الذي يتوفاكم بالليل) فسياء توفيا وكأ أن المسيقظ تتكشف له مشاهدات لاتناسب أحواله في النوم فكذلك المبعوث يرى ما لم يخطر قط بباله ولا شاهده حسه ، ومثل النوم بين الحياة والموت مثل البرزخ بين الدنيا والآخرة . وقال لقمان لابنه : يا بني إن كنت تشك في الموت فلا تم فكأ أنك تمام كذلك تموت ، وإن كنت تشك في البعث فلا تنب فكأ أنك تنب بعد نومك فكذلك تموت بعد موتك . وقال كعب الأبحار : إذا نمت فأضطلع على شريك الآمين واستقبل القبلة بوجهك فإنها وفاة . وقالت عائشة رضي الله عنها : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم آخر ما يقول حين ينام وهو واضع خده على يده اليمنى وهو يرى أنه ميت في ليلة تلك اللهم رب السموات السبع ورب العرش العظيم ربنا ورب كل شيء ومليكك ^(٢) ، والنساء إلى آخره كما ذكرناه في كتاب الدعوات . لحق على العبد أن يفك عن ثلاثة عند نومه : أنه على ماذا ينام وما الغالب عليه حب الله تعالى وحب لقائه وأحب الدنيا ؟ وليتحقق أنه يتوفى على ما هو الغالب عليه ويمسح على ما يتوفى عليه فإن المرء مع من أحب ومع ما أحب (المعاشر) الدعاء عند التلبه قليل في تيقظاته وتغلباته مهما تنب ما كان بقوله رسول الله صلى الله عليه وسلم لا إله إلا الله الواحد القهار رب السموات والأرض وما بينهما العزيز الغفار ^(٣) ، وليجتهد أن يكون آخر ما يجرى على قلبه عند النوم ذكر الله تعالى وأول ما يرد على قلبه عند التيقظ ذكر الله تعالى فهو علامة الحب . ولا يلزم القلب في هاتين الحالتين إلا ما هو الغالب عليه فليجرب قلبه به فهو علامة الحب فإنها علامة تتكشف من باطن القلب وإنما استحيت هذه الأذكار لتستجر القلب إلى ذكر الله تعالى ، فإذا استيقظ ليقوم قال : الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور . إلى آخر ما أوردناه من أدعية التيقظ .

الورد الرابع . يدخل بمعنى النصف الأول من الليل إلى أن يبقى من الليل سدسه وعند ذلك يقوم العبد للتهجد . فاسم التهجد يختص بما بعد المجرود والمجروح وهو النوم وهذا وسط الليل ورثبه الورد الذي بعد الزوال وهو وسط النهار وبه أقسم الله تعالى فقال (والليل إذا سجى) أى إذا سكن وسكونه هدوء في هذا الوقت فلا تبقى عين إلا نائمة سوى الحى القيوم الذى لا تأخذه سنة ولا نوم . وقيل إذا سجد إذا امتد وطال وقيل إذا أظلم . وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم : أى الليل أجمع ؟ فقال جوف الليل ^(٤) ، وقال داود صلى الله عليه وسلم : إلهى إلى أحب أن أتعب لك فأى وقت أفضل ؟ فأوحى الله تعالى إليه يا داود لا تقم أول الليل ولا آخره ، فإن من قام

(١) حديث « قراءة المؤمن عند النوم ينث بهن في يديه ويمسح بهما وجهه وسائر جسده » متفق عليه من حديث عائشة .
(٢) حديث عائشة « كان آخر ما يقول حين ينام وهو واضع خده على يده اليمنى اللهم رب السموات السبع ورب العرش العظيم .. الحديث » تقدم في الدعوات دون : وضع اليد وتقدم من حديث حفصة . (٣) حديث « كان يقول عند يلقظ : لا إله إلا الله الواحد القهار رب السموات والأرض وما بينهما العزيز الغفار » أخرجه ابن السقي وأبو نعيم في كتابيهما عمل اليوم والليلة من حديث عائشة . (٤) حديث « مثل أى الليل أجمع ؟ قال : جوف الليل » أخرجه أبو داود والترمذى وصححه عن حديث حمرو بن عيسى .

أوله نام آخره ، ومن قام آخره لم يتم أوله ، ولكن قم وسط الليل حتى تغلظ في وأخلو بك ، وأرفع إلى حوائطك وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم : أى الليل أفضل ؟ فقال : نصف الليل النابز ^(١) . يعنى الباقي وفى آخر الليل وودت الأخبار باهتزاز العرش وانتشار الرياح من جنات عدن ومن نزول الجبار تعالى إلى سماء الدنيا ^(٢) وغير ذلك من الأخبار . وترتيب هذا الورد أنه بعد الفراغ من الأدعية التى للاستيقاظ وتوحيًا وضوءًا - كما سبق - بسنة وآدابه وأدعيته . ثم يتوجه إلى مضلاه ويقوم مستقبلًا القبلة ، ويقول : الله أكبر كبيرًا والحمد لله كثيرًا وسبحان الله بكرة وأصيلًا ، ثم يسبح عشرا ويحمد الله عشرا ويهلل عشرا وليقل : الله أكبر ذو الملكوت والجبروت والكبرياء والعظمة والجلال والقدرة ، وليقل هذه الكلمات فلأنها مأثورة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قيامه للتهجد اللهم لك الحمد أنت نور السموات والأرض ولك الحمد أنت بهاء السموات والأرض ولك الحمد أنت رب السموات والأرض ولك الحمد أنت قيوم السموات والأرض ومن فطن ومن علمين أنت الحق ومنك الحق ولقاؤك حق والجنة حق والثواب حق والنفسور حق والتوبون حق ومحمد صلى الله عليه وسلم حق . اللهم لك أسلمت وبلك آمنت وعليك توكلت وإليك أنبت وبلك عاممت وإليك حاكمت فاغفر لى ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت وأسرفت أنت القديم وأنت المؤخر لا إله إلا أنت ^(٣) اللهم آت نفسى تقواها وزكها أنت خير من زكها أنت وليها ومولاها ^(٤) اللهم اهدنى لأحسن الأعمال لأجنى لأحسنها إلا أنت واصرف عنى سيئها لا يصرف عنى سيئها إلا أنت ^(٥) أسألك مسألة البائس المسكين وأدعوك دعاء المفتقر الدليل فلا تجعلنى بدعا فالك رب شقيًا وكن فى رءوفًا رحيمًا يا خير المشرلين وأكرم المعطين ^(٦) وقالت عائشة رضى الله عنها : كان صلى الله عليه وسلم إذا قام من الليل افتتح صلاته قال . اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون اهدنى لما اختلف فيه من الحق يا ذاك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم ^(٧) . ثم يفتتح الصلاة ويصلى ركعتين خفيفتين . ثم يصلى متى متى ما يسره ويحتم بالتورن لم يكن قد صلى الرتر . ويستبشر بأن يفصل بين الصلاتين عند تسليمه بمائة تسبيحة ليستريح ويريد نشأته للصلاة وقد صبح فى صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم بالليل أنه صلى أولًا ركعتين خفيفتين ثم ركعتين طويلتين ثم ركعتين دون اللتين قبلهما ثم لم يزل يقصر بالتدرج إلى ثلاث عشرة

(١) حديث - سئل أى الليل أفضل ؟ قال : نصف الليل النابز » أخرجه أحمد وابن حبان من حديث أبي ذر دون قوله « النابز » وهو فى بعض طرق حديث عمرو بن حنبل . (٢) الأخبار الواردة فى اهتزاز العرش وانتشار الرياح من جنات عدن فى آخر الليل ونزول الجبار إلى سماء الدنيا ؟ أما حديث الترمذى فقد نهدم وأما الباقى فهو آثار رواها محمد بن نصر فى قيام الليل من رواية سيد الجريسي قال « قال داود : يا جبريل أى الليل أفضل ؟ قال : ما أدرك غير أن العرش يهتز من البحر » وفى رواية له عن الجريسي عن سيد بن أبي الحسن قال « إذا كان من البحر ألا ترى كيف هوج ويخيل شجر » وفى من حديث أبي الفراء صروفا « إن الله تبارك وتعالى ليؤهل فى ثلاث ساعات يقين من الليل يشتج الفكر فى الساعة الأولى » وفيه « ثم يزل فى الساعة الثانية إلى جنة عدن ... الحديث » وهو مثله . (٣) حديث « الدول فى قيامه للتهجد : اللهم لك الحمد أنت نور السموات والأرض ... الحديث » متفق عليه . حديث ابن عباس دون قوله « أنت بهاء السموات والأرض ولك الحمد أنت نور السموات والأرض » ودون قوله « ومن طهين ومنك الحق » . (٤) حديث « اللهم آت نفسى تقواها وزكها أنت خير من زكها أنت وليها ومولاها » أخرجه أحمد بإسناد جيد من حديث عائشة « أنها قلدت التى صلى الله عليه وسلم من منقبه فلبسته بيدها فوهت عليه وهو ساجد وهو يقول رب أعط نفسى تقواها ... الحديث » . (٥) حديث « اللهم اهدنى لأحسن الأعمال لأجنى لأحسنها إلا أنت واصرف عنى سيئها لا يصرف عنى سيئها إلا أنت » أخرجه مسلم من حديث علي بن رسول الله صلى الله عليه وسلم « أنه كان إذا قام إلى الصلاة » فذكره بلفظ « لأحسن الأخلاق » وفيه زيادة فى أوله . (٦) حديث « أسألك مسألة البائس المسكين وأدعوك دعاء . المنظر القليل .. الحديث » أخرجه الطبرانى فى الصغير من حديث ابن عباس « أنه كان من دعاء النبى صلى الله عليه وسلم عبدة عرفه » هدم فى الحج (٧) حديث عائشة « كان إذا قام من الليل افتتح صلاته قال : اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل فاطر السموات والأرض ... الحديث » وواه مسلم .

ركعة ^(١) وسئلت عائشة رضى الله عنها ، أكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجهر في قيام الليل أم يسر ؟ فقالت : ربما جهر وربما أسر ^(٢) وقال صلى الله عليه وسلم : صلاة الليل متى متى فلذا خفت الصبح فأوتر بركعة ^(٣) ، وقال صلاة المغرب أوترت صلاة النهار فأوتروا صلاة الليل ^(٤) ، وأكثر ماصح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في قيام الليل ثلاث عشرة ركعة ^(٥) ويقرأ في هذه الركعات من ورده من القرآن أو من السور المخصوصة ماخف عليه وهو في حكم هذا الورد قريب من السدس الأخير من الليل .

الورد الخامس : السدس الأخير من الليل وهو وقت السحر فإن الله تعالى قال ﴿ وبالأسحار هم يستغفرون ﴾ قيل يصلون لها فيها من الاستغفار وهو مقارب للفجر الذى هو وقت انصراف ملائكة الليل وإقبال ملائكة النهار وقد أسر بهذا الورد سلمان أبا الدرداء رضى الله عنهما ليلة زاره ^(٦) في حديث طويل قال في آخره ، فلما كان الليل ذهب أبو الدرداء ليقوم فقال له سلمان : ثم فنام ثم ذهب ليقوم فقال له : ثم فنام فلما كان عند الصبح قال له سلمان : قم الآن ، فناما فصليا فقال : إن لنفسك عليك حقا وإن لخصيفتك عليك حقا وإن لملكك عليك حقا فأعط كل ذى حق حقه ، وذلك أن امرأة أبي الدرداء أخبرت سلمان أنه لا ينام الليل قال : فأبى التى صلى الله عليه وسلم فذكر ذلك له فقال : صدق سلمان . وهذا هو الورد الخامس وفيه يستحب السجود وذلك عند خوف طلوع الفجر والوظيفة في هذين الوردين الصلاة . فلذا طلع الفجر انقضت أوراد الليل ودخلت أوراد النهار فيقوم ويصل ركعتي الفجر وهو المراد بقوله تعالى ﴿ ومن الليل فسبحه وإذبار النجوم ﴾ ثم قرأ ﴿ شهد الله أنه لا اله إلا هو والملائكة ﴾ إلى آخرها . ثم يقول وأنا أشهد بما شهد الله به لنفسه وشهدت به ملائكته وأوراء العلم من خلقه وأستودع الله هذه الشادة وهي لى عند الله تعالى رديعة وأسأله حفظها حتى يتوفانى عليها . اللهم احفظ عن بها وزيرا واجعلها لى عندك ذخرا واحفظها لى وتوفى عليها حتى ألقاك بها غير مبتدل تبديلا . فهذا ترتيب الأوراد للعباد وقد كانوا يستحبون أن يجمعوا مع ذلك في كل يوم بين أربعة أمور صوم وصدقة وإن قلت وعيادة مريض وشهود جنازة في الخبر . من جمع بين هذه الأربع في يوم غفر له ^(٧) ، وفي رواية : دخل الجنة ، فإن أنفق بعدها وعجز عن الآخر كان له أجر الجميع بحسب نيته وكانوا يكرهون أن ينقضى اليوم ولم يتصدقوا فيه بصدقة ولو بتمر أو بصلة أو كسرة خبز لقوله صلى الله عليه وسلم : الرجل في ظل صدقته حتى يقضى بين الناس ^(٨) ولقوله صلى الله عليه وسلم : اتقوا النار ولو بشق تمرة ^(٩) ، ودفع عائشة رضى الله عنها إلى سائل عتبة فأخذها فنظر من كان عندها بعضهم إلى بعض فقالت : ما لكم إن فيها لمناخيل ذكر كثير ؟ وكانوا لا يستحبون رد السائل إذ كان من أخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك

- (١) حديث « أنه صلى بالليل أولا ركعتين خفيفتين ثم ركعتين طويلتين ثم صلى ركعتين دون التين قبلها ثم لم يزل يصغر بالتدريج إلى ثلاث عشرة ركعة » أخرجه مسلم من حديث زيد بن خالد الجهني . (٢) حديث « سئلت عائشة أكان يجهر رسول الله صلى الله عليه وسلم في قيام الليل أم يسر ؟ فقالت ربما جهر وربما أسر » أخرجه أبو داود والشافعي وابن ماجه بأسناد صحيح . (٣) حديث « صلاة الليل متى متى فلذا خفت الصبح فأوتر بركعة » متفق عليه وقد تقدم . (٤) حديث « صلاة المغرب أوترت صلاة النهار فأوتروا صلاة الليل » أخرجه أحمد من حديث ابن عمر بإسناد صحيح . (٥) حديث « النبأ من الليل ثلاث عشرة ركعة فإنه أكثر ماصح عنه » تقدم . (٦) حديث « زار سلمان أبا الدرداء فلما كان الليل ذهب أبو الدرداء ليقوم فقال له سلمان : ثم فنام ثم فنام ... الحديث » وفي آخره فقال « صدق سلمان » أخرجه البخاري من حديث أبي جعفر . (٧) حديث « من جمع بين صوم وصدقة وعيادة مريض وشهود جنازة في يوم غفر له » وفي رواية « دخل الجنة » أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة « ما لجمع من في أمسى » إلا دخل الجنة . . (٨) حديث « الرجل في ظل صدقته حتى يقضى بين الناس » تقدم في الزكاة . (٩) حديث « اتقوا النار ولو بشق تمرة » تقدم في الزكاة .

ماسأله أحد شيئا فقال : لا ، ولكنه إن لم يقدر عليه سكت ^(١) وفي الخبر : يصبح ابن آدم وعلى كل سلامي من جسده صدقة يعني المفصل وفي جسده ثلثمائة وستون منفصلا فأمرك بالمعروف صدقة ونهيك عن المنكر صدقة وحملك عن الضعيف صدقة وهدائك إلى الطريق صدقة وإماتتك الأذى صدقة حتى ذكر التسبيح والتلليل ، ثم قال وركعتنا الضحي تأتي على ذلك كله أو تجمعن لك ذلك كله ^(٢) .

بيان اختلاف الأوراد باختلاف الأحوال

اعلم أن المرید لحرق الآخرة السالك لطريقها لا يتخلو عن ستة أحوال فله : إما حابد وإما عالم وإما متمعلم وإما وال وإما محترف وإما موحد مستغرق بالواحد الصمد عن غيره (الأول) العابد : وهو المتجرد للعبادة الذي لا شغل له غيرها أصلا ولو ترك العبادة جلس بطالا فترتيب أوراده مذكرناه ، نعم لا يبعد أن تختلف وظائفه بأن يستغرق أكثر أوقاته إما في الصلاة أو القراءة أو في التسبيحات فقد كان في الصحابة رضى الله عنهم من ورده في اليوم اثنا عشر ألف تسبيحة . وكان فيهم من ورده ثلاثون ألفا . وكان فيهم من ورده ثلثمائة ركعة إلى سبائة وإلى ألف ركعة . وأقل ما نقل في أورادهم من الصلاة مائة ركعة في اليوم واليلة . وكان بعضهم أكثر ورده القرآن وكان يحتم الواحد منهم في اليوم مرة وروى مرتين عن بعضهم : وكان بعضهم يقضى اليوم أو الليل في التفكير في آية واحدة يرددها . وكان كرز بن وبرة مقبيا بحكمة فكان يطوف في كل يوم سبعين أسبوعا في كل ليلة سبعين أسبوعا وكان مع ذلك يحتم القرآن في اليوم واليلة مرتين . لحسب ذلك فكان عشرة فراسخ ويكون مع كل أسبوع ركعتان فهو مائتان وثمانون ركعة وخمسمائة وعشرة فراسخ . فإن قلت : فما الأول أن يصرف إليه أكثر الأوقات من هذه الأوراد فاعلم أن قراءة القرآن في الصلاة قائما مع التدبر يجمع الجميع ولكن ربما تعسر المواظبة عليه فالأفضل يختلف باختلاف حال الشخص ومقصود الأوراد تركية القلب وتطهيره وتحليته بذكر الله تعالى وإتيانه به فليتخير المرید إلى قلبه فما يراه أشد تأميرا فيه فليواظب عليه . فإذا أحس بملالة منه فلينتقل إلى غيره ولذلك نرى الأصوب لأكثر الخلق توزيع هذه الخيرات المختلفة على الأوقات - كما سبق - والانتقال فيها من نوع إلى نوع لأن الملل هو الغالب على الطبع وأحوال الشخص الواحد في ذلك أهنأ تختلف . ولكن إذا فهم هذه الأوراد وسرها فليتبغ المعنى فإن سمع تسبيحة مثلا وأحس لها بوقع قلبه فليواظب على تكرارها مادام يجد لها وقعا . وقد روى عن إبراهيم بن آدم عن بعض الأبدال أنه قام ذات ليلة يصلي على شاطئ البحر فسمع صوتا عاليا بالتسبيح ولم ير أحدا فقال من أنت أسمع صوتك ولا أرى شخصك ؟ فقال : أنا ملك من الملائكة موكل بهذا البحر أسبغ الله تعالى بهذا التسبيح منذ خلقت قلت : فما اسمك ؟ قال : مهلهيا تيل قلت : فما أواب من قاله ؟ قال : من قاله مائة مرة لم يمت حتى يرى مقعده من الجنة أو يرى له . والتسبيح هو قوله وسبحان الله الملى الديان سبحان الله الشديد الأركان سبحان من يذهب بالليل ويأتى بالنهار سبحان من لا يشغله شأن عن شأن سبحان الله الخائن اللذان سبحان الله المسبح في كل مكان . فهذا وأمثاله إذا سمعه المرید ووجد له في قلبه وقعا فليلازمه . وأيا ما وجد القلب عنده وقتله فيه خير فليواظب عليه (الثاني) العالم الذي ينفع الناس بعلمه في فتوى أو تدريس أو تصنيف فترتبه الأوراد بخلاف ترتيب العابد ؛ فإنه يحتاج إلى المطالعة للكتب وإلى التصنيف والإفادة ، ويحتاج إلى مدة لها لأعالة فإن أمكنه استغراق الأوقات فيه فهو أفضل ما يشتغل

(١) حديث « ماسأله أحد شيئا فقال لا لأن لم يقدر عليه سكت » أخرجه مسلم من حديث جابر والبراء من حديث أنس « أركبت » . (٢) حديث « يصبح ابن آدم وعلى كل سلامي من جسده صدقة... الحديث » أخرجه مسلم من حديث أبي ذر.

به بعد المكتوبات وروايتها . ويدل على ذلك جميع ما ذكرناه في فضيلة التعليم والتعلم في كتاب العلم . وكيف لا يكون كذلك وفي العلم المواظبة على ذكر الله تعالى ؟ وتأمل ما قال الله تعالى وقال رسوله . وفيه منفعة لخلق وهذا بينهم إلى طريق الآخرة ورب مسألة واحدة يتعلمها المتعلم فيصلح بها عبادة حمراء ولم يتعلمها لكان سعيه ضالعا . وإنما نغنى بالعلم المتقدم على العبادة العلم الذي يرغب الناس في الآخرة ويهدم في الدنيا أو العلم الذي يهيمهم سلوك طريق الآخرة إذا تملوه على قصد الاستمانة به على السلوك ، دون العلوم التي تريد بها الرغبة في المال والجاه وقبول الحق والأول بالعالم أن يقسم أوقاته أيضا فإن استغرق الأوقات في ترتيب العلم لا يحتمله الطبع . فينبغي أن يخصص ما بعد الصبح إلى طلوع الشمس بالأذكار والأوراد كما ذكرناه في الورد الأول . وبعد الطلوع إلى ضحوة النهار في الإفاضة والتعليم إن كان عنده من يستفيد علميا لأجل الآخرة ، وإن لم يكن فيصرفه إلى الفكر وتفكيره فيما يشكل عليه من علوم الدين فإن صفاء القلب بعد الفراغ من الذكر وقبل الاشتغال بهوم الدنيا يمين على التفتن للمشكلات . ومن ضحوة النهار إلى العصر للتصنيف والمطالعة لا يتركها إلا في وقت أكل وطهارة ومكتوب وقيلولة خفيفة لإنحلال النهار . ومن العصر إلى الاصرار يشغل يسبح ما يقرأ بين يديه من تفسير أو حديث أو علم نافع . ومن الاصرار إلى الغروب يشغل بالذكر والاستغفار والتسبيح فيكون ورد الأول قبل طلوع الشمس في عمل اللسان . وورده الثاني في عمل القلب بالتمركز إلى الضحوة . وورده الثالث إلى العصر في عمل العين واليد بالمطالعة والكتابة . وورده الرابع بعد العصر في عمل السمع ليروح فيه العين واليد فإن المطالعة والكتابة بعد العصر ربما أحرا بالعين . وعند الاصرار يعود إلى ذكر اللسان فلا يخلو جزء من النهار عن عمل له بالجزأرح مع حضور القلب في الجميع . وأما الليل فأحسن قسم فيه قسمة الشافعي رضي الله عنه إذ كان يقسم الليل ثلاثة أجزاء . ثلثا للمطالعة وترتيب العلم وهو الأول وثلثا للصلاة وهو الوسط وثلثا للنوم وهو الأخير . وهذا يتيسر في ليالي الشتاء ، والصيف ربما لا يحتمل ذلك إلا إذا كان أكثر النوم بالنهار فهذا ما نستحب من ترتيب أوراد العالم (الثالث) التعلم : والاشتغال بالتعلم أفضل من الاشتغال بالأذكار والتواقل حكاه حكم العالم في ترتيب الأوراد ولكن يشغل بالاستفادة حيث يشغل العالم بالإفاضة وبالتعليق والفسخ حيث يشغل العالم بالتصنيف ويرتب أوقاته كما ذكرنا . وكل ما ذكرناه في فضيلة التعلم والعلم من كتاب العلم يدل على أن ذلك أفضل . بل إن لم يكن متعلما على معنى أنه يعلق ويحصل ليسير عالما . بل كان من العوام لحضوره مجالس الذكر والوعظ والعلم أفضل من اشتغاله بالأوراد التي ذكرناها بعد الصبح وبعد الطلوع وفي سائر الأوقات . ففي حديث أبي ذر رضي الله عنه : أن حضور مجلس ذكر أفضل من صلاة ألف ركعة وشهد ألف جنازة وعبادة ألف مريض ^(١) ، وقال صلى الله عليه وسلم ، إذا رأيتم رياض الجنة فارتضوا فيها فقيل يا رسول الله وما رياض الجنة ؟ قال خلق الجنة ^(٢) ، وقال كعب الأحبار رضي الله عنه : لو أن ثواب مجالس العلماء بدأ الناس لاقتتلوا عليه حتى يترك كل ذي إمارة إمارته وكل ذي سوق سوقه . وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : إن الرجل ليخرج من منزله وعليه من الذنوب مثل جبال تامة ، فإذا سمع العالم غاف واسترجع عن ذنوبه وانصرف إلى منزله وليس عليه ذنب ، فلا تفارقوا مجالس العلماء فإن الله عز وجل لم يخلق على وجه الأرض تربة أكرم من مجالس العلماء . وقال رجل الحسن رحمه الله أشكو إليك قسوة قلبي فقال : أدبه من مجالس الذكر .

(١) حديث أبي ذر : حضور مجلس علم أفضل من صلاة ألف ركعة ... الحديث . هدم في العلم .

(٢) حديث : إذا رأيتم رياض الجنة فارتضوا فيها ... الحديث . هدم في العلم .

ورأى عمار الإلهى مسكنة الطيارة في المنام وكانت من المواقبات على خلق الذكر فقال : مرحبا بامسكنة فقالت : هيات هيات ذهبت المسكنة وجاء الغنى فقال : هيه ! فقالت : ما تأمل عن أبيع لها الجنة بخمسين ألفا ؟ قال : وبم ذلك ؟ قالت : بمجاسة أهل الذكر . وعلى الجملة فأنزل عن القلب من عقد حب الدنيا بقول واعظ حسن الكلام ذكر السيرة أشرف وأنفع من ركعات كثيرة مع اشتغال القلب على حب الدنيا (الرابع) المحترف الذى يحتاج إلى الكسب لعباله فليس له أن يعطى العيال ويستغرق الأوقات في العبادات بل ورده في وقت الصناعة حضور السوق والاشتغال بالكسب ولكن ينبغي أن لا ينسى ذكر الله تعالى في صناعته بل يراغب على التسليحات الأذكار وقراءة القرآن فإن ذلك يمكن أن يجمع إلى العمل . وإنما لا يتيسر مع العمل الصلاة إلا أن يكون ناعظا فإنه لا يسجد عن إقامة أوراد الصلاة معه . ثم مما فرغ من كفايته ينبغي أن يعود إلى ترتيب الأوراد . وإن داوم على الكسب وتصدق بما فضل عن حاجته فهو أفضل من سائر الأوراد التي ذكرناها لأن العبادات المتعدية فائدتها أنفع من الالتزام والصدقة والكسب على هذه الية عبادة له في نفسه تقربه إلى الله تعالى ثم يحصل به فائدة للغير وتتجدد إليه بركات دهرات المسلمين ويتضاعف به الأجر (الخامس) الوالى : مثل الإمام والقاضى والمتولى في أمور المسلمين فقيامه بحاجات المسلمين وأغراضهم على وفق الشرع وقصد الإخلاص أفضل من الأوراد المذكورة لفته أن يشتغل بمحقوق الناس نهارا ويقتصر على المكتوبة ويقوم الأوراد المذكورة بالليل ، كما كان عمر رضى الله عنه يفعله إذ قال : مالى وللنوم فلزمت بالناهار ضيعت المسلمين ولزمت بالليل ضيعت نفسى . وقد فهمت بما ذكرناه أنه يقدم على العبادات البدنية أمران أحدهما : العلم ، والآخر : الرفق بالمسلمين ، لأن كل واحد من العلم وفعل المعروف عمل في نفسه وعبادة تفضل سائر العبادات يتنزه فائده وانتشار جدواه فكانا متقدمين عليه (السادس) الموحد المستغرق بالواحد الصمد الذى أصبح وهو هم واحد فلا يجب إلا الله تعالى ولا يخاف إلا منه ولا يتوقع الرزق من غيره ولا ينظر في شيء إلا ويرى الله تعالى فيه . فمن ارتفعت رغبته إلى هذه الدرجة لم يفتقر إلى تنوع الأوراد واختلافها بل كان ورده بعد المكتوبات واحد وهو حضور القلب مع الله تعالى في كل حال ، فلا يخطر بقلوبهم أمر ولا يقرب منهم قارح ولا يلوح لأبصارهم لأنهم لا يرون إلا الله تعالى لهم فيه عبرة وفكر ومزید ، فلا يحرك لهم ولا مسكن إلا الله تعالى فهو لاه جميع أحوالهم فخلص أن تكون سببا لازيادهم فلا تميز عندهم عبادة عن عبادة وهم الذين فروا إلى الله عز وجل كما قال تعالى (لعلكم تذكرون ففوزوا إلى الله) وتحقق فيهم قوله تعالى (وإذا اعتز بشعوب وما يعبدون إلا الله فأووا إلى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته) وإليه الإشارة بقوله (إنى ذاهب إلى ربى سيدي) وهذه منتهى درجات الصديقين ولا وصول إليها إلا بعد ترتيب الأوراد والمواظبة عليها دهر طويلا فلا ينبغي أن يغتر المرید بما سمعه من ذلك فيدعيه لنفسه ويغتر عن وظائف عبادة فذلك علامته أن لا يهيج في قلبه وسواس ولا يخطر في قلبه معصية ولا زحمة هواجم الأحوال ولا تستغفر عظام الأشتغال . وأنى ترزق هذه الرتبة لكل أحد . فيتين على الكفاية ترتيب الأوراد كما ذكرناه وجميع ما ذكرناه طرق إلى الله تعالى قال تعالى (قل كل يعمل على شاكلته فربكم أعلم بمن هو أمدى سبيلا) فكلهم مهتدون وبعضهم أهدى من بعض . وفي الخبر : الإيمان ثلاث وثلاثون وثلاثمائة طريقة من لقي الله تعالى بالشهادة على طريق منها دخل الجنة ^(١) ، وقال بعض العلماء : الإيمان ثلاثمائة وثلاثة عشر خلقا

(١) حديث « الإيمان ثلاث وثلاثون وثلاثمائة طريقة من لقي الله بالشهادة على طريق منها دخل الجنة » أخرجه ابن شاهين واللاسكاني في السنة والطبراني والبيهقي في الشعب من رواية المنيرة بن عبد الرحمن بن عبيد من أبيه عن جده « الإيمان ثلاثمائة وثلاثون شرعية من وإلى شريعة منهم دخل الجنة » وقال الطبراني والبيهقي « ثلاثمائة وثلاثون » ولول سندها جملة .

بعدد الرسل فكل مؤمن على خلق منها فهو سالك الطريق إلى الله . فإذن الناس وإن اختلفت طرقهم في العبادة فكلمهم على الصواب (أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب) وإستيفاتون في درجات القرب لأن أصله ، وأقربهم إلى الله تعالى أعرفهم به ، وأعرفهم به لأبَد وأن يكون أعبدهم له ؛ فن عرفه لم يعبد غيره . والأصل في الأوراد في حق كل صنف من الناس المداومة فلأن المراد منه تغيير الصفات الباطنة . وآحاد الأعمال يقل آثارها بل لا يحس بالآثارها وإنما يترتب الأثر على المجموع فإذا لم يعقب العمل الواحد أثراً محسوساً ولم يردف شأن ومالك على القرب انمحي الأثر الأول وكان كالفقيه يريد أن يكون فقيه النفس فإنه لا يصير فقيه النفس إلا بتكرار كثير ؛ فلو بالغ ليلة في التكرار وترك غيرها أو أسبوعاً ثم عاد وبالع ليلة لم يؤثر هذا فيه . ولو زرع ذلك القدر على الليالي المتوالة لأثر فيه . ولهذا السرا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل ^(١) . وسئلت عائشة رضي الله عنها عن عمل رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقالت : كان عمله ديمة وكان إذا عمل عملاً أثبته ^(٢) . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : من عوده الله عبادة فتركها ملالة فمته الله ^(٣) . وهذا كان السبب في صلواته بعد العصر تداركاً لما فاتته من ركعتين شغله عنهما الوقت ثم لم يزل بذلك يصلحها بعد العصر ولكن في منزله لا في المسجد كيلاً يقتدي به ^(٤) . روت عائشة وأم سلمة رضي الله عنهما : فإني قلت : فهل لغيره أن يقتدي به في ذلك مع أن الوقت وقت كراهية ؟ فاعلم أن المعاني الثلاثة التي ذكرناها في الكراهية من الاحتراز عن التقبيل بعدة الشمس أو السجود وقت ظهور قرن الشيطان أو الاستراحة عن العبادة حذراً من الملالة لا يتحقق في حقه فلا يقاس عليه في ذلك غيره . ويشهد لذلك فعله في المنزل حتى لا يقتدي به صلى الله عليه وسلم .

الباب الثاني : في الأسباب الميسرة لقيام الليل وفي الليالي التي يستحب إحيائها

وفي فضيلة إحياء الليل وما بين العشاءين وكيفية قسمة الليل

فضيلة إحياء ما بين العشاءين

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما روت عائشة رضي الله عنها : إن أفضل الصلوات عند الله صلاة المغرب لم يحطها من مسافر ولا من مقيم فتح بها صلاة الليل وختم بها صلاة النهار فن صلى المغرب وصلى بعدها ركعتين يني الله له قصر في الجنة ^(١) . قال الراوي : لأدرى من ذهب أو فضة ؟ ومن صلى بعدها أربع ركعات غفر له ذنب عشرين سنة أو قال أربعين سنة ، وروى أم سلمة وأبو هريرة رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : من صلى ست ركعات بعد المغرب عدلت له عبادة سنة كاملة أو كأنه صلى ليلة القدر ^(٢) . وعن سميد بن جبير عن ثوبان

(١) حديث « أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل » متفق عليه من حديث عائشة . (٢) حديث « سئلت عائشة عن عمل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت كان عمله ديمة . وكان إذا عمل عملاً أثبته » رواه مسلم . (٣) حديث « من عوده الله عبادة فتركها ملالة فمته الله » يقيم في الصلاة وهو مولوف على عائشة . (٤) حديث « شك الوفاء من ركعتين فصلها بعد العصر لم يزل يصلحها بعد العصر في منزله » متفق عليه من حديث أم سلمة « أنه صلى بعد العصر ركعتين وقال شغلني ناس من عبد الله من أنركعتين بعد الظهر » ولها من حديث عائشة « ما تركها حتى أتى الله وكان النبي صلى الله عليه وسلم يصلحها ولا يصلحها في المسجد مخافة أن يخلل على أمته » والله الموفق للصواب .

الباب الثاني : في الأسباب الميسرة لقيام الليل

(٥) حديث عائشة « إن أفضل الصلاة عند الله صلاة المغرب لم يحطها من مسافر ولا من مقيم ... الحديث » رواه أبو الوليد يونس بن عبيد الله الصغار في كتاب الصلاة ورواه الطبراني في الأوسط مختصراً وأسناده ضيف . (٦) حديث أم سلمة عن أبي هريرة « من صلى ست ركعات بعد المغرب عدلت له عبادة سنة أو كأنه صلى ليلة القدر » أخرجه الترمذي وابن ماجه بخط

صلاة الأوابين ^(١) . وقال الأسود ما أتيت ابن مسعود رضى الله عنه في هذا الوقت إلا ورأيت يصل فسأته فقال : نعم هي ساعة الغلبة : وكان أنس رضى الله عنه يواطب عليها ويقول : هي ناشئة الليل ، ويقول : فيها نزل قوله تعالى (تتجافى جنوبهم عن المضاجع) وقال أحمد بن أبي الحواري : قلت لأبي سليمان الداراني أصوم النهار وأتقى بين المغرب والشاء أحب إليك أو أفطر بالنهار وأحي ما بينهما ؟ فقال : أجمع بينهما ، قلت : إن لم يتيسر ؟ قال أفطر وصل ما بينهما .

فضيلة قيام الليل

أما من الآيات : فقوله تعالى (إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل) الآية وقوله تعالى (إن ناشئة الليل هي أشد وطأ وأقوم قبلا) وقوله سبحانه وتعالى (تتجافى جنوبهم عن المضاجع) وقوله تعالى (أمن هو فانت آناء الليل) الآية وقوله عز وجل (والذين يبيتون لربهم سجدا وقياما) وقوله تعالى (واستمعينا بالصبر والصلاة) قيل هي قيام الليل يستمان بالصبر عليه على مجاهدة النفس . ومن الأخبار : قوله صلى الله عليه وسلم ، يعتقد الشيطان على قافية رأس أحدكم إذا هو نام ثلاث عقد يضرب مكان كل عقدة عليك ليل طويل فأردف أن يستيقظ وذكر الله تعالى انحلت عقدة فإن تموضأ انحلت عقدة فإن صلى انحلت عقدة فأصبح نشيطا طيب النفس وإلا أصبح خبيث النفس كسلان ^(٢) ، وفي الخبر : أنه ذكر عنه رجل ينام كل الليل حتى يصبح فقال : ذاك رجل بال الشيطان في أدنه ^(٣) ، وفي الخبر : إن الشيطان سعوطا ولعوطا وذوروا فإذا أسعد العبد ساء خلقه وإذا ألقه ذوب لسانه بالشر وإذا ذره نام الليل حتى يصبح ^(٤) ، وقال صلى الله عليه وسلم ، ركعتان يركمهما العبد في جوف الليل خير له من الدنيا وما فيها ولولا أن أشق على أمتي لفرضت عليهما عليم ^(٥) ، وفي الصحيح عن جابر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : إن من الليل ساعة لا يوافقها عبد مسلم يسأل الله تعالى خيرا إلا أعطاه إياه ، وفي رواية : يسأل الله تعالى خيرا من الدنيا والآخرة وذلك في كل ليلة ، وقال المغيرة بن شعبه : قام رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى تفطرت قدماء فقيل له : أما قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ فقال : أفلا أكون عبدا شكورا ^(٦) ويظهر من معناه أن ذلك كناية عن زيادة الرتبة فإن الشكر سبب المزيد قال تعالى (لئن شكرتم لأزيدنكم) وقال صلى الله عليه وسلم يا أبا هريرة أتريد أن تكون رحمة الله عليك حيا وميتا ومقبورا ومبعوثا قم من الليل فصل وأنت تريد رضا ربك . وقال صلى الله عليه وسلم يا أبا هريرة صل في زوايا بيتك يكن نور بيتك في السماء كنور الكواكب والتجمع عند أهل الدنيا ^(٧) ، وقال صلى الله عليه وسلم عليكم بقيام الليل فإنه ذاب الصالحين قبلكم . فإن قيام الليل قربه إلى الله عز وجل وتكفير للذنوب

(١) حديث « من صلى ما بين المغرب والشاء فذلك صلاة الأوابين » يخدم في الصلاة .

(٢) حديث « يعتقد الشيطان على قافية رأس أحدكم إذا هو نام ثلاث عقد .. الحديث » متفق عليه من حديث أبي هريرة .

(٣) حديث « ذكر عنه رجل نام حتى أصبح فقال : ذاك رجل بال الشيطان في أدنه » متفق عليه من حديث ابن مسعود .

(٤) حديث « إن الشيطان سعوطا ولعوطا وذوروا .. الحديث » أخرجه الطبراني من حديث أنس « أن الشيطان لم يزل وكلا

إذا لمق الإنسان من لوعه ذوب لسانه بالشر وإذا كلفه من كلفه تأمت عيناه من الفكر » ورواه الثوري من حديث سمرة بن جندب

وسندها ضعيف . (٥) حديث « ركعتان يركمهما العبد في جوف الليل خير له من الدنيا وما فيها ولولا أن أشق على أمتي لفرضت عليهما عليم » أخرجه آدم بن أبي إياس في الثواب ومحمد بن نصر المروزي في كتاب قيام الليل من رواية حسان بن عطية مراسلا

ووسله أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث ابن عمر ولا يصح . (٦) حديث المغيرة بن شعبه « قام رسول الله

صلى الله عليه وسلم حتى تفطرت قدماء .. الحديث » متفق عليه . (٧) حديث « يا أبا هريرة أتريد أن تكون رحمة الله عليك حيا وميتا ومقبورا قم من الليل فصل وأنت تريد رضا ربك » يا أبا هريرة صل في زوايا بيتك يكن نور بيتك في السماء كنور

الكواكب والتجمع عند أهل الدنيا » باطل لأصله .

ومطردة للبناء عن الجسد ومنهارة عن الإثيم^(١) ، وقال صلى الله عليه وسلم : « ما من امرئ تكون له صلاة بالليل فذبله عليها النوم إلا كتب له أجر صلاته » وكان نومه صدقة عليه^(٢) ، وقال صلى الله عليه وسلم لأبي ذر : « لو أردت سفرا أعددت له عدة ؟ قال : نعم ، قال : فكيف سفر طريق القيامة ألا أنبئك يا أبا ذر بما ينفعك ذلك اليوم ؟ قال : بلى بأبي أنت وأمي ، قال : صم يوما شديد الحر ليوم النشور وصل ركعتين في ظلة الليل لراحة الثوب ورحم حجة لعظامهم الأمور وتصدق بصدقة على مسكين أو كلفة حتى تقولها أو كلفة شر تسكت عنها^(٣) ، وروى : « أنه كان على عهد النبي صلى الله عليه وسلم رجل إذا أخذ الناس مضاجعهم وهدأت العيون قام يصلي ويقرأ القرآن ويقول : يارب النار أجرني منها ، فذكر ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فقال : إذا كان ذلك فأذوني فأنا ، فاستمع فلما أصبح قال : يا فلان هلا سألت الله الجنة ؟ قال : يا رسول الله إني لست هناك ولا يبلغ عملي ذاك فلم يلبث إلا يسيرا حتى نزل جبرائيل عليه السلام وقال : أخبر فلانا أنا الله قد أجاره من النار وأدخله الجنة^(٤) ، وروى ابن جبرائيل عليه السلام قال للنبي صلى الله عليه وسلم : نعم الرجل ابن عمر لو كان يصلي بالليل ، فأخبره النبي صلى الله عليه وسلم بذلك فسكان يدوم بعده على قيام الليل^(٥) ، قال نافع : كان يصلي بالليل ثم يقول : يا نافع أخبرنا ؟ فأقول : لا ، فيقوم لصلاته ثم يقول يا نافع أخبرنا ؟ فأقول : نعم ، فيعبد فيستغفر الله تعالى حتى يطلع الفجر . وقال علي بن أبي طالب شيع يحيى بن زكريا يعلم ما السلام من خير شعير فنام عن وروده حتى أصبح فأوحى الله تعالى إليه : يا يحيى أوجدت دارا خيرا لك من داري ؟ أم وجدت جوارا خيرا لك من جوارى ؟ فوعزني وجلالي يا يحيى لو اطعمت إلى الفردوس اطلاعة لذاب شحمك ولزمت نفسك اشتياقا ولو اطعمت إلى جهنم اطلاعة لذاب شحمك ولبكيت الصديد بعد الدموع ولهدت الجلد بعد السوح . وقيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم : إن فلانا يصلي بالليل فلماذا أصبح سرق فقال : سنباه ما يعمل^(٦) ، وقال صلى الله عليه وسلم ، رحم الله رجلا قام من الليل فصل ثم أيقظ امرأته فصلت فإن أبت نضح في وجهها الماء^(٧) ، وقال صلى الله عليه وسلم ، رحم الله امرأة قامت من الليل فصلت ثم أيقظت زوجها فصلت فإن أبت نضحت في وجهه الماء ، وقال صلى الله عليه وسلم : من استيقظ من الليل وأيقظ امرأته فصلتا ركعتين كتبنا من الناكرين الله كثيرا والذاكرات^(٨) ، وقال صلى الله عليه وسلم : أفضل الصلاة بعد المكتوبة قيام الليل^(٩) ، وقال

(١) حديث : عليكم بقيام الليل فإنه دأب الصالحين قبلك ... الحديث . أخرجه الترمذي من حديث بلال وكان غريب ولا يصح ورواه الطبراني والبيهقي من حديث أبي أمامة بسند حسن وقال الترمذي له أصح .

(٢) حديث : « ما من امرئ يكون له صلاة بالليل يناله عليها نوم إلا كتب له أجر صلاته » وكان نومه صدقة عليه . أخرجه أبو داود والنسائي من حديث طائفة وفيه رجل لم يسم سواه النسائي في رواية الاسود بن يزيد لكن في طريقه ابن جعفر الرزقي قال للنسائي ليس بالقوي ورواه النسائي وابن ماجه من حديث أبي الفراء نحوه بسند صحيح وتقدم في الباب قبله .

(٣) حديث أنه قال لأبي ذر : « لو أردت سفرا أعددت له عدة فكيف سفر طريق القيامة ألا أنبئك يا أبا ذر بما ينفعك ذلك اليوم قال بلى بأبي وأمي قال صم يوما شديد الحر ليوم النشور وصل ركعتين في ظلة الليل لراحة الثوب ... الحديث » أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب التهجيد من رواية السري بن خلف مرسلا ولم يسمه الأوزي .

(٤) حديث : « أنه كان على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم رجل إذا أخذ الناس مضاجعهم وهدأت العيون قام يصلي ويقرأ القرآن ويقول : يارب النار أجرني منها . فذكر ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فقال : إذا كان ذلك فأذوني ... الحديث » لم ألق له على أصل .

(٥) حديث : « أن جبريل قال للنبي صلى الله عليه وسلم : نعم الرجل ابن عمر لو كان يصلي بالليل ... الحديث » متفق عليه من حديث ابن عمر : « أن النبي صلى الله عليه وسلم قال ذلك » وليس فيه ذكر لجبريل . (٦) حديث : « قيل له : لأن فلانا يصلي بالليل فلماذا أصبح سرق قال سنباه ما يعمل » أخرجه ابن حبان من حديث أبي هريرة . (٧) حديث : « رحم الله رجلا قام من الليل فصل ثم أيقظ امرأته فصلت ... الحديث » أخرجه أبو داود وابن ماجه من حديث أبي هريرة . (٨) حديث : « من استيقظ من الليل وأيقظ امرأته فصلتا ركعتين كتبنا من الناكرين الله كثيرا والذاكرات » أخرجه أبو داود والنسائي من حديث أبي هريرة وأبي سعيد بسند صحيح .

(٩) حديث : « أفضل الصلاة بعد المكتوبة قيام الليل » أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة

عمر بن الخطاب رضى الله عنه : قال صلى الله عليه وسلم « من نام عن حربه أو عن شيء به بالليل فقرأه بين صلاة الفجر والظهر كتب له كأنما قرأه من الليل ^(١) » الآثار : روى أن عمر رضى الله عنه كان يقرأ بالآية من ورده بالليل فيسقط حتى يباد منها أياما كثيرة كما يباد المريض . وكان ابن مسعود رضى الله عنه إذا هدأت العيون قام فيسبع له دوى كدوى الدحل حتى يصبح ويقال : إن سفيان الثوري رحمه الله شبع ليلة فقال : إن الحمار إذا زيد في علفه زيد في عمله فقام تلك الليلة حتى أصبح . وكان طاوس رحمه الله إذا اضطجع على فراشه ينقل عليه كما تنقل الحبة على القفلة ثم يثب ويصل إلى الصباح ثم يقول : طير ذكر جهنم نوم العابدين . وقال الحسن رحمه الله : ما نعلم عملا أشد من مكابدة الليل ونفقة هذا المال فقيل له : ما بال المتجهدين من أحسن التباس وجوها ؟ قال : لأنهم خلوا بالرحمن فألبسهم نورا من نوره . وقدم بعض الصالحين من سفره فهد له فراش فنام عليه حتى فاته ورده خلف أن لا ينام بمدما على فراش أبنا . وكان عبد العزيز بن رقاد إذا جن عليه الليل يأق فراشه فيمض يده عليه ويقول : إني لك لئن واهل إن في الجنة لألأين منك ولا يزال يصلى الليل كله . وقال الفضيل : إني لأستقبل الليل من أوله فيهرق طوله فأفتح القرآن فأصبح وما قضيت نهمة . وقال الحسن : إن الرجل ليدنّب الذنب فيحرم به قيام الليل . وقال الفضيل : إذا لم تقدر على قيام الليل وصيام النهار فاعلم أنك محروم وقد كثرت خطيئتك . وكان حلة بن أشيم رحمه الله يصل الليل كله فإذا كان في السحر قال : إلهي ليس مثلي يطلب الجنة ولكن أجرني برحمتك من النار . وقال رجل لبعض الحكماء : إني لأضعف عن قيام الليل ، فقال له : يا أخى لا تعص الله تعالى ولا تنم بالليل . وكان الحسن بن صالح جارية فيباعها من قوم فلا كان في جوف الليل قامت الجارية فقال : يا أهل الدار الصلاة الصلاة فقالوا : أصبنا أطلع الفجر ؟ فقالت : وما نصلون إلا المكتوبة ؟ قالوا : نعم ؛ فرجعت إلى الحسن فقالت : يا مولاي بعثني من قوم لا يصلون إلا المكتوبة ؟ ردني . فردها ، وقال الربيع : بعثني منزل الشافعي رضى الله عنه ليالي كثيرة فلم يكن ينام من الليل إلا يسيرا . وقال أبو الجوزية . لقد صحبت أبا حنيفة رضى الله عنه ستة أشهر فافئها ليلة وضع جنبه على الأرض . وكان أبو حنيفة يمي نصف الليل ثم يقوم فقالوا : إن هذا يمي الليل كله : فقال : إني أستمسك أن أوصف بما لا أفعل فكان بعد ذلك يمي الليل كله . ويروى أنه ما كان له فراش بالليل . ويقال : إن مالك بن دينار رضى الله عنه بات يردد هذه الآية ليلة حتى أصبح (أم حسب الذين اجترحوها السيئات أن يجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات) الآية : وقال المغيرة بن حبيب : رمت مالك بن دينار فتوضأ بعد العشاء ثم قام إلى مصلاه فقبض على لحيته فحتمته العبرة فجعل يقول حرم شيبة مالك على النار إلهي قد علست ساكن الجنة من ساكن النار فأى الرجلين مالك ؟ وأى المنادين دار مالك ؟ فلم يزل ذلك قوله حتى طلع الفجر . وقال مالك بن دينار : سهوت ليلة عن وردى وتمت فإذا أنا في المنام بجارية كأحسن ما يكون وفي يدها رقعة فقالت لي : أحسن تقرأ ؟ فقلت : نعم ، فدفعت لي الرقعة فإذا فيها :

أَلَمْ تَكُنْ مِنَ الْكَافِرِينَ
تَعِيشُ مَخْلُوعًا لِمَوْتٍ فِيهَا
تَنِي مِنْ مَنَامِكَ إِنَّ خَيْرًا
عَنِ الْبَيْضِ الْأَوَانِ فِي الْجَنَانِ

وقيل حج مسروق فبا بات ليلة إلا ساجدا . ويروى عن أزهر بن منيث وكان من التوامين أنه قال : رأيت في

(١) حديث عمر « من نام عن حربه أو عن شيء منه فقرأه بين صلاة الفجر والظهر كتب له كأنما قرأه من الليل » رواه مسلم

الناس امرأة لانتبه فساء أهل الدنيا فقلت لها : من أنت ؟ قالت : حوراء ؛ فقلت : زوجيني نفسك ! فقلت اخطيني إلى سيدي وأمهري ! فقلت : وما مره ؟ قالت : طول التجرد . وقال يوسف بن مهران : بلغني أن تحت العرش ملكاً في صورة ديك برائه من لؤلؤ وصنعه من زبرجد فإذا مضى ثلث الليل الأول ضرب بجناحيه وزقا وقال : ليقيم القائمون فإذا مضى نصف الليل ضرب بجناحيه وزقا وقال : ليقيم المتجددون ؛ فإذا مضى ثلثا الليل ضرب بجناحيه وزقا وقال : ليقيم المصلون ؛ فإذا طلع الفجر ضرب بجناحيه وزقا وقال : ليقيم الناقلون وعليهم أوزارهم . وقبل أن وهب بن منه الضياع ما وضع جنبه إلى الأرض ثلاثين سنة وكان يقول : لأن أرى في بيتي شيطاناً أحب إلى من أن أرى في بيتي وسادة لأنها تدعو إلى النوم ، وكانت له مسودة من آدم إذا غلبه النوم وضع صدره عليها وخفق خفقات ثم يفرح إلى الصلاة . وقال بعضهم : رأيت رب العزة في النوم فسمعت يقول : وعزقي وجلالي لا كرم من شئ سليمان التيمي فإنه صلى في العادة بوضوء المصلاة أربعين سنة . ويقال كان مذهبه أن التوم إذا عامر القلب بطل الوضوء ، وروى في بعض الكتب القديمة عن الله تعالى أنه قال : إن عبدي الذي هو عبدي حقا الذي لا ينتظر بقيامه صباح الديك .

بيان الأسباب التي بها يتيسر قيام الليل

اعلم أن قيام الليل عسير على الخلق لإلا على من وفق للقيام بشروطه المسيرة له ظاهراً وباطناً . فاما الظاهرة فأربعة أمور (الأول) أن لا يكثر الأكل فيكثر الشرب فيغلبه النوم ويثقل عليه القيام . كان بعض الشيوخ يثقف على المائدة كل ليلة ويقول : معاش المريدن لا تأكلوا كثيراً فغشروا كثيراً ففقدوا كثيراً ففقدوا الموت كثيراً . وهذا هو الأصل الكبير وهو تخفيف المدة عن ثقل الطعام (الثاني) أن لا يمتب نفسه بالنهار في الأعمال التي تملأ بها الجوارح وتضعف بها الأعصاب فإن ذلك أيضاً مجلبة للنوم (الثالث) أن لا يترك القيولة بالنهار فإنها سنة للاستعانة على قيام الليل (الرابع) أن لا يمتدح الأوزار بالنهار فإن ذلك مما يثقل القلب ويحول بينه وبين أسباب الرحمة . قال رجل للحسن : يا أبا سعيد إنني أبيت معاني وأحب قيام الليل وأعد طهوري فما بالي لا أقوم ؟ فقال : ذنوبك قيدتك . وكان الحسن رحمه الله إذا دخل السوق فسمع لفظهم ولفظهم يقول : أظن أن ليل هؤلاء ليل سوء فإنهم لا يقيمون . وقال الثوري : حرمت قيام الليل خمسة أشهر بذنب أذنبته ، قيل وما ذاك الذنب ؟ قال : رأيت رجلاً يسكن في نفس هذا مرأى وقال بعضهم : دخلت على كرز بن وبرة وهو يبيك فقلت ألمأك نسي بعض أهلك ؟ فقال : أشد ؛ فقلت : وجع يؤملك ؟ قال : أشد ؛ فقلت : فإذاك ؟ قال : باي مغلق وسرير مسبل ولم أقرأ حرق الباردة وما ذاك إلا بذنب أحدثته . وهذا لأن الخير يدعو إلى الخير والشريد يدعو إلى الشر والقتيل من كل واحد منهما يجر إلى الكثير . ولذلك قال أبو سليمان الناراني : لافقت أحداً صلاة الجماعة إلا بذنب وكان يقول الاحتلام بالليل عقوبة والجنازة بعد . وقال بعض العلماء : إذا صحت يا مسكين فأنظر عند من تظفر وعلى أي شيء تظفر فإن البعد ليأكل أكلة فيثقل قلبه عما كان عليه ولا يعود إلى حالته الأولى . فالذنوب كلها تورث قسوة القلب وتمنع من قيام الليل ، وأخصها بالتأثير تناول الحرام . وتؤثر القسوة الحلال في تصفية القلب وتمحيكه إلى الخير مالا يؤثر غيرهما ويعرف ذلك أهل المراقبة للقلوب بالتجربة بعد شهادة الشرع له . ولذلك قال بعضهم : كم من أكلة منعت قيام ليلة وكمن من نظرة منعت قراءة سورة ؟ وإن البعد ليأكل أكلة أو يفعل فعلة فيحرم بها قيام سنة . وكما أن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر فكذلك الفحشاء تنهى عن الصلاة وسائر الخيرات . وقال بعض السجاني

(١) حديث « الاستعانة بقلوب النهار على قيام الليل » أخرجه ابن ماجه من حديث ابن عباس وقد تقدم .

كنت سجاناً أيضاً وثلاثين سنة أسأل كل مأخوذ بالليل أنه هل صلى العشاء في جماعة فكانوا يقولون : لا ؟ وهذا تبيه على أن بركة الجماعة تنهى عن غمطى الفحشاء والمنكر .

وأما الميسرات الباطنة فأربعة أمور : (الأول) سلامة القلب عن الحقد على المسلمين وعن البدع وعن فضول هموم الدنيا فالمستغرق لهم يتدبير الدنيا لا يتيسر له القيام ، وإن قام فلا يتفكر في صلاته إلا في مهماته ولا يحول إلا في وسأوسه وفي مثل ذلك يقال :

يخبرني البسواب أنك نائم وأنت إذا استيقظت أيضاً فنام

(الثاني) : خوف غالب يلزم القلب مع قصر الأمل فإنه إذا تفكر في أهوال الآخرة ودركات جهنم طار نومه وعظم حذرهم كما قال طائوس : إن ذكر جهنم طير نوم المابدين . وكما حكى أن غلاماً بالبصرة اسمه صوب كان يقوم الليل كله فقال له سيده : إن قيامك بالليل يعز بملكك بالنهار ، قال : إن صوباً إذا ذكر النار لا يأتية النوم وقيل لغلام آخر وهو يقوم كل الليل فقال : إذا ذكرت النار اشتد خوفي وإذا ذكرت الجنة اشتد شوقي فلا أنفد أن أنام وقال ذو النون المصري رحمه الله :

منع القرآن برعده ووعيده مقل العيون بلبها أن تهتما
فهموا من الملك الجليل كلامه فراقبهم ذلك إليه تخفها

وأنشدوا أيضاً :

يا طويل الرقاد والنملات كثرة النوم تورث الحمرات
إن في القبر إن نزلت إليه لرقاداً يطول بمد الممات
ومهاداً مهداً لك فيه بذنوب حملت أو حسنات
أمنت البيات من ملك الموت وكم نال أمنا ببيات

وقال ابن المبارك :

إذا ما الليل أظلم كابدوه فيسفر عنهم وم ركوع
أطار الخوف نومهم فقاموا وأهل الأمن في الدنيا مروع

(الثالث) أن يعرف فضل قيام الليل بسماع الآيات والأخبار والآثار حتى يستحکم به رجاءه وخوفه إلى ثوابه فيهبه الشوق لطلب المزيد والرجعة في درجات الجنان ؛ كما حكى أن بعض الصالحين رجع من غزوة فهدت امرأته فراشها وجلست تنتظره فدخل المسجد ولم يزل يصل حتى أصبح فقالت له زوجته : كنا ننتظرك مدة فلما قدمت صليت إلى الصبح ؟ قال : والله إنى كنت أنفكر في حوراء من حور الجنة طول الليل ففسيحت الزوجة والنزل ففقت طول ليلتي شوقاً إليها .

(الرابع) وهو أشرف البرائع ؛ الحب لله وقوة الإيمان بأنه في قيامه لا يتكلم بحرف إلا وهو مناجى ربه وهو مطلع عليه مع مشاهدة ما يتعطر بقلبه وأن تلك الخطرات من الله تعالى خطاب معه ، فإذا أحبا لله تعالى أحب لأعماله الخيرة به وتلذذ بالمناجاة فتحملة لذة المناجاة بالحبيب على طول القيام . ولا ينبغي أن يستبعد هذه اللذة إذ يشهد لها العقل والنقل . فاما العقل فيعتبر حال المحب لشخص بسبب جماله أو لملك بسبب إنعامه وأموره أنه كيف يتلذذ به في الخلوة ومناجاة حتى لا يأتية النوم طول ليله ؟ فإن قلت : إن الجليل يتلذذ بالنظر إليه وإن الله تعالى لا يرى ؟ فأعلم

أنه لو كان الجليل المحبوب وراء ستر أو كان في بيت مظلم لكان المحب يتلذذ بمجاورته المجردة دون النظر ودون الطمع في أمر آخر سواء . وكان يتقدم بإظهار حبه عليه وذكره بلسانه يسمع منه وإن كان ذلك أيضا معلوما عنده . فإن قلت : إنه يفترج جوابه فليتلذذ بسماع جوابه وليس يسمع كلام الله تعالى ؟ فاعلم أنه إن كان يعلم أنه لا يجيبه ويستكت عنه فقد بقيت له أيضا لذة في عرض أحواله عليه ورفع سريره إليه كيف والموقن يسمع من الله تعالى كل ما يرد على خاطره في أثناء مناجاته فيتلذذ به ؟ وكلنا الذي يخلو بالملك ويمرض عليه حاجاته في جنح الليل يتلذذ به في رجاء إنعامه . والرجاء في حق الله تعالى أصدق وما عند الله خير وأبقى وأنفع مما عند غيره فكيف لا يتلذذ بمرض الحاجات عليه في الخلوات ؟ وأما الثقل فيشهد له أحوال قوام الليل في تلذذهم بقيام الليل واستقصاءهم له كما يستقصر المحب ليلة وصالح الحبيب حتى قيل لبعضهم : كيف أنت والليل ؟ قال : ما رأيته قط يربنى وجهه ثم ينصرف وما تأملته بد . وقال آخر : أنا والليل فرسا رهان مرة يسبقني إلى الفجر ومرة يقطعني عن الفكر . وقيل لبعضهم : كيف الليل عليك ؟ فقال : ساحة أنا فيها بين حائتين أنرح به غائلة إذا جاء وأغتم بفجره إذا طلع ، ماتم فرحى به قط وقال على بن بكار : منذ أربعين سنة ما أحرقت في سوى طلوع الفجر . وقال الفضيل بن عياض : إذا غربت الشمس فرحت بالظلام خلوتى بربي وإذا طلعت حزنت لدخول الناس على . وقال أبو سليمان : أهل الليل في ليهم ألد من أهل النهي في لهم ولولا الليل ما أجببت البقاء في الدنيا . وقال أيضا : لو عرض الله أهل الليل من ثواب أعمالهم ما يجدونه من اللذة لكان ذلك أكثر من ثواب أعمالهم . وقال بعض العلماء : لبس في الدنيا وقت يشبه نعيم أهل الجنة إلا ما يجده أهل الثقل في قلوبهم بالليل من حلاوة المناجاة . وقال بعضهم : لذة المناجاة ليست من الدنيا إنما هي من الجنة أظهرها الله تعالى لأولياته لا يجدها سواهم . وقال ابن المنكدر : ما بقي من لذات الدنيا إلا لملات قيام الليل ولتنام الإخوان والصلاة في الجماعة . وقال بعض العارفين : إن الله تعالى ينظر بالأصهار إلى قلوب المتقين فيملؤها أنواراً فرد الفوائد على قلوبهم فقتتير ثم تنتشر من قلوبهم العوافي إلى قلوب الغافلين . وقال بعض العلماء من القدماء : إن الله تعالى أوحى إلى بعض الصديقين إن لي عبادا من عبادي أحبهم ويمجروني ويشتاقوني وأشتاق إليهم ويذكرونني وأذكروهم وينظرون إلي وأنظر إليهم فلن جذوت طريقهم أحبتك وإن عدلت عنهم مقتلك ، قال يارب وما علا متهم ؟ قال يراعون الظلال بالنهار كما يراعى الراعى غنمه ويحشون إلى غروب الشمس كما تحن الطير إلى أوكارها فإذا جنهم الليل واخطلط الظلام وخلا كل حبيب بحبيبه نصبا إلى أقدامهم وافتقرشوا إلى وجوههم وناجوني بكلامي وتلقوا إلى يأمنى فين صارخ وبأكي وبين متأوه وشاكي بعض ما يتحملون من أجل وبسمي ما يشكون من حبي أول ما أعطيتهم أفدق من نوري في قلوبهم فيخبرون عنى كما أخبر عنهم . والثانية : لو كانت السموات السبع والأرضون السبع وما فيهما في موازينهم لاستقلتبا لهم . والثالثة : أقبل يوجهي عليهم أقرى من أقبلت يوجهي عليه أعلم أحد ما أريد أن أعطيه ؟ وقال مالك بن دينار رحمه الله إذا قام العبد يتهدج من الليل قرب منه الجبار عز وجل . وكانوا يرون ما يجدون من الرقة والحلاوة في قلوبهم والأنوار من قرب الرب تعالى من القلب وهذا له سر وتحقيق ستأني الإشارة إليه في كتاب الهبة . وفي الأخبار عن الله عز وجل : أى عبدي أنا الله الذى أقرت من قلبك وبالغيب رأيت نورى ، وشكا بعض المريدين إلى أستاذه طول سهر الليل وطلب حيلة يجلب بها النوم فقال أستاذه : يا بني إن لله نفحات في الليل والنهار تصيب القلوب المتيقظة وتخطى القلوب النائمة فتروض لتلك النفحات ؛ فقال : يا سيدي تركنت لأبنام بالليل ولا بالنهار

واعلم أن هذه التفحات بالليل أرجى لما في قيام الليل من صفاء القلب واندفاع الفواغل ، وفي الخبر الصحيح عن جابر بن عبد الله عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : إن من الليل ساعة لا يوافيها عبد مسلم يسأل الله تعالى خيرا إلا أعطاه إياه ^(١) ، وفي رواية أخرى : يسأل الله خيرا من أمر الدنيا والآخرة إلا أعطاه وذلك كل ليلة ، ومطلوب القارئ تلك الساعة وهي مهمة في جملة الليل كليلة القدر في شهر رمضان وكساعة يوم الجمعة وهي ساعة الفضحات المذكورة والله أعلم .

بيان طرق القسمة لأجزاء الليل

اعلم أن إحياء الليل من حيث المقدار له سبع مراتب (الأول) إحياء كل الليل وهذا شأن الأتقياء الذين يهجدون لعبادة الليل وتلذذوا بتناجاة وصار ذلك غذاء لهم وحياة لقلوبهم فلم يتعبوا بطول القيام وردوا المنام إلى النهار وفي وقت اشتغال الناس ، وقد كان ذلك طريق جماعة من السلف كانوا يصلون الصبح بوضوء المشاء . حتى أبو طالب المسكي أن ذلك حتى على سبيل التواتر والاشتهار عن أربعين من التابعين وكان فهم من واطب عليه أربعين سنة ، قال : منهم سعيد بن المسيب وصعوان بن سليم - المدنيان - وفضيل بن عياض وهيب بن الورد - المكيان - وطاوس وهيب بن منبه - البجليان - والربيع بن خيثم والحكم - الكوفيان - وأبرسليان الغزازي وعلي بن بكار - الساميان - وأبو عبد الله الخواص وأبو عاصم - العبديان - وحبيب أبو محمد وأبو جابر السلفي - الفارسيان - ومالك بن دينار سليمان التيمي ويزيد الرقاشي وحبيب بن أبي ثابت ويحيى البكاء - البصريون - وكهمس بن المهلب وكان يفتخر في الشهر تسعين ختمته ومائة يفهمه وجمع وقراءه مرة أخرى . وأيضا من أهل المدينة : أبو حازم ومحمد بن المشكدر في جماعة يكثر عددهم (المرتبة الثانية) أن يقوم نصف الليل : وهذا لا ينحصر عدد المواطنين عليه من السلف . وأحسن فيه أن يتم الثلثة الأول من الليل والسادس الأخير منه حتى يقع قيامه في جوف الليل ووسطه فهو الأفضل (المرتبة الثالثة) أن يقوم ثلث الليل : فيلغى أن يتم النصف الأول والسادس الأخير ، وبالجملة نوم آخر الليل محبوب لأنه يذهب الناس بالنداء ، وكانوا يكرهون ذلك ، ويقال صفرة الوجه والشهرة به فلوقام أكثر الليل ونام محرا قلت صفرة وجهه وقل لعماس . وقالت عائشة رضي الله عنها : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أوتر من آخر الليل فإن كانت له حاجة إلى أهله دنا منهم وإلا اضطجع في مصلاه حتى يأتيه بلال فيؤذنه للصلاة ^(٢) ، وقالت أيضا رضي الله عنها : ما ألتفت بعد السحر إلا نائما ^(٣) ، حتى قال بعض السلف : هذه الضجعة قبل الصبح سنة ، منهم أبو هريرة رضي الله عنه . وكان نوم هذا الوقت سببا للكشف والمشاهدة من وراء حجب الغيب وذلك لأرباب القلوب وفيه استراحة

(١) حديث جابر ، وإن من الليل ساعة لا يوافيها عبد مسلم يسأل الله خيرا من أمر الدنيا والآخرة إلا أعطاه إياه وذلك كل ليلة ، رواه مسلم .

(٢) حديث : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أوتر من آخر الليل فإن كانت له حاجة إلى أهله دنا منهم وإلا اضطجع في مصلاه حتى يأتيه بلال فيؤذنه للصلاة ، أخرجه مسلم من حديث عائشة ، كان يتم أول الليل ويصلي آخره ثم إن كان له حاجة إلى أهله قضى حاجته ثم يتم ، وقال النسائي : فإذا كان من السحر أوتر ثم أتى فرائضه فإذا كان له حاجة إلى أهله ، ولابي داود : وكان إذا قضى صلاته من آخر الليل نظر فإن كنت مسليقة حدثني وإن كنت نائما ، أيقظني ولسي الركنين ثم اضطجع حتى يأتيه المؤذن فيؤذنه بصلاة الصبح فيصلي ركعتين خفيفتين ثم يخرج إلى الصلاة ، وهو متيق عليه بلفظ : كان إذا صلى أن كنت مسليقة حدثني وإلا اضطجع حتى يؤذن بالصلاة ، وقال مسلم : إذا صلى ركعتي الفجر ، (٣) حديث عائشة : ما ألتفت بعد السحر إلا نائما ، وقال متفق عليه بلفظ : ما ألتفت رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد السحر إلا نائما ، لم يقل البخاري : الأمل ، وقال ابن ماجه : ما كنت أتق أو أتق النبي صلى الله عليه وسلم من آخر الليل إلا وهو نائم عدي .

تعين على الرود الأول من أورد النهار وقيام تلك الليل من النصف الأخير . ونوم السدس الأخير قيام داود صلى الله عليه وسلم (المرتبة الرابعة) أن يقوم سدس الليل أو نحوه وأفضله أن يكون في النصف الأخير وقبل السدس الأخير منه (المرتبة الخامسة) أن لا يرعى التقدير فلأن ذلك إنما يتيسر لي يوحى إليه أو لمن يعرف منازل القمر ويوكل به من يراقيه ويواظبه ويوقظه ثم ربما يضطرب لي ليل النعم ، ولكنه يقوم من أول الليل إلى أن يغلبه النوم فإذا انتبه قام فإذا غلبه النوم عاد إلى النوم . فيكون له في الليل نومتان وقومتان وهو من مكابدة الليل وأشد الأعمال وأفضلها ، وقد كان هذا من أخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(١) ، وهو طريقة ابن عمرو وأولى العزم من الصحابة وجماعة من التابعين ورضي الله عنهم . وكان بعض السلف يقول : هي أول نومة فإذا انتهيت ثم عدت إلى النوم فلأنام الله لي عينا . فأما قيام رسول الله صلى الله عليه وسلم من حيث المقدار فلم يكن على ترتيب واحد بل ربما كان يقوم نصف الليل أو ثلثه أو سدسه ^(٢) يختلف ذلك في الليالي ودل عليه قوله تعالى في الموضعين من سورة المزمل (إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه) فأدنى من ثلثي الليل كأنه بصفه ونصف سدسه فإن كسر قوله (ونصفه وثلثه) كان نصف الثلثين وثلثه فيقرب من الثلث والزيع . وإن نصب كان نصف الليل وقالت عائشة رضي الله عنها كان صلى الله عليه وسلم يقوم إذا سمع الصارخ ^(٣) ، يعني الديك وهذا يكون السدس لما دونه . وروى غير واحد أنه قال « راعيت صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم في السفر ليلا فنام بعد العشاء زمانا ثم استيقظ فظفر في الألف فقال (ربنا ما خلقت هذا باطلا) حتى بلغ (إنك لا تخلف الميعاد) ثم استلم من فراشه سوا كافاستاك بهوتوا وصلى حتى قلت : صلى مثل الذي نام . ثم اضطجع حتى قلت نام مثل ما صلى . ثم استيقظ فقال فاقال أول مرة وفعل ما فعل أول مرة ^(٤) » (المرتبة السادسة) وهي الأقل : أن يقوم مقدار أربع ركعات أو ركعتين أو تتمتعز عليه الطهارة فيجلس مستقبل القبلة ساعة مشغلا بالذكر والثناء فيكتب في جملة قوام الليل برحة الله وفصله . وقد جاء في الآثار : صل من الليل ولو قدر حلب شاة ^(٥) فبهذه طرق القسمة فليختر المرید لنفسه ما يراه أمير عليه . وحيث يتمتعز عليه القيام في وسط الليل فلا يلبس أن يهدل لأحياء ما بين العشاءين والورد الذي بعد العشاء . ثم يقوم قبل الصبح وقت السحر فلا يدركه الصبح

(١) حديث « قيام أول الليل لي أن يغلبه النوم فإذا انتبه قام فإذا غلبه عاد إلى النوم فيكون له في الليل نومتان » أخرجه أبو داود والترمذي وصححه وابن ماجه من حديث أم سلمة « كان يصلي وينام قدر ما صلى ثم يصلي قدر ما نام ثم ينام قدر ما صلى حتى يصبح » وللبخاري من حديث ابن عباس « صلى العشاء ثم جاء فصل أربع ركعات ثم نام ثم نام » وفيه « فصل خمس ركعات ثم صلى ركعتين ثم نام حتى سمعت قططه ... الحديث » .

(٢) حديث « ربما كان يقوم نصف الليل أو ثلثه أو سدسه » أخرجه البخاري من حديث ابن عباس « نام رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى اتصف الليل أو قبله قليلا أو بعده قليلا استيقظ ... الحديث » ورواية البخاري « لما كان ثلث الليل الآخر فعد فظفر لي الساء ... الحديث » ولأبي داود « قام حتى إذا ذهب ثلث الليل أو نصفه استيقظ ... الحديث » لسم من حديث عائشة « فبسط الله عبا شاة أن يبيت من الليل » . (٣) حديث عائشة « كان يقوم إذا سمع الصارخ » متفق عليه . (٤) حديث « خير واحد قال : راعيت صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم في السفر ليلا فنام بعد العشاء زمانا ثم استيقظ فظفر في الألف فقال ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك - حتى بلغ - إنك لا تخلف الميعاد ثم استلم من فراشه سوا كافاستاك وتوعدا وصل حتى قلت صلى مثل ما نام .. الحديث » أخرجه النسائي من رواية حيد بن عبد الرحمن بن عوف « أن رجلا من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم قال : قلت وأنا في سفر مع رسول الله صلى الله عليه وسلم والله لأرغب رسلا الله صلى الله عليه وسلم » فذكر نحوه وروى أبو الوليد بن ميثم في كتاب الصلاة من رواية اسحق بن عبد الله بن أبي طلحة « أن رجلا قال لأرغب رسلا رسول الله صلى الله عليه وسلم » فذكر الحديث وفيه « أنه أخذ سواكه من مؤخر الرجل » وهذا يدل أنه أيضا كان في سفر .

(٥) حديث « صل من الليل ولو قدر حلب شاة » أخرجه أبو يعلى من حديث ابن عباس في صلاة الليل مرفوعا « لصفه ثلثة ربه نواف حلب شاة نواف حلب شاة » ولأبي الوليد بن ميثم من رواية ابن عباس بن معاوية مرسلا « لابد من صلاة الليل ولو حلبه شاة أو حلب شاة » .

نأشأ ويقوم بطرف الليل (وهذه هي الرتبة السابعة ومهما كان النظر إلى المقدار فترتيب هذه المراتب بحسب طول الوقت وقصره : وأما في الرتبة الخامسة والسابعة لم ينظر فيها إلى التقدر فليس يجري أمرها في التقدم والتأخر على الترتيب المذكور إذ السابعة ليست دون مذكرناه في السادسة ، ولا الخامسة دون الرابعة .

بيان الليالي والأيام الفاضلة

أعلم أن الليالي المخصوصة بمزيد الفضل التي يتأكد فيها استحباب الإحياء في السنة خمس عشرة ليلة لا ينبغي أن يغفل المرید عنها فلأنها مواسم الخيرات ومظان التجارات . ومتى غفل التاجر عن المواسم لم يرجع متى غفل المرید عن فضائل الأوقات لم ينجح . فستة من هذه الليالي في شهر رمضان : خمس في أوتار العشر الأخير إذ فيها يطلب ليلة القدر . وليلة سبع عشرة من رمضان - فهي ليلة صيحتها يوم الفرقان يوم التي الجمعان ، فيه كانت وقعة بدر ، وقال ابن الزبير رحمه الله : هي ليلة القدر . وأما التسع الآخر : فأول ليلة من المحرم . وليلة عاشوراء وأول ليلة من رجب وليلة النصف منه . وليلة سبع وعشرين منه وهي ليلة الميراج وفيها صلاة مأثورة ففقدنا صلواته عليه وسلم ، للعامل في هذه الليلة حسنات مائة سنة ^(١) ، فمن صلى في هذه الليلة المئتي عشرة ركعة يقرأ في كل ركعة فاتحة الكتاب وسورة من القرآن ويتشهد في كل ركعتين ويسلم في آخرهن ثم يقول : سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر مائة مرة ثم يستغفر الله مائة مرة ويصل على النبي صلى الله عليه وسلم مائة مرة ويدعو لنفسه بما شاء من أمر دنياه وآخرته ويصبح صائماً فإن الله يستجيب دعاءه كله إلا أن يدعو في معصية - وليلة النصف من شعبان - فيها مائة ركعة يقرأ في كل ركعة بعد الفاتحة سورة الإخلاص عشر مرات كانوا لا يركونها كأوردناه في صلاة التطوع - وليلة عرفة . وليلتا العيدين : قال صلى الله عليه وسلم : من أحيا ليلي العيدين لم يميت قلبه يوم تموت القلوب ^(٢) .

وأما الأيام الفاضلة فتسعة عشر يستحب مواصلة الأوراد فيها : يوم عرفة . ويوم عاشوراء . ويوم سبعة وعشرين من رجب - له شرف عظيم روى أبو هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : من صام يوم سبعة وعشرين من رجب كتب الله له صيام ستين شهراً ^(٣) ، وهو اليوم الذي أمط الله فيه جبرائيل عليه السلام على محمد صلى الله عليه وسلم بالرسالة - ويوم سبعة عشر من رمضان - وهو يوم وقعة بدر - ويوم النصف من شعبان . ويوم الجمعة . ويوما العيدين والأيام المعلومات وهي عشر من ذي الحجة . والأيام الممعدودات وهي أيام التشريق . وقد روى أنس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : إذا سلم يوم الجمعة سلمت الأيام وإذا سلم شهر رمضان سلمت السنة ^(٤) ، وقال بعض العلماء : من أخذ مهنة في الأيام الخمسة في الدنيا لم ينل مهنة في الآخرة وأراد به العيدين والجمعة وعرفة وعاشوراء ومن فواضل الأيام في الأسبوع يوم الخميس والالتين ترفع فيها الأعمال إلى الله تعالى : زدنا فضائل الأشهر والأيام للصيام في كتاب الصوم فلا حاجة إلى الإعادة والله أعلم ، وصلى الله على كل عبد مصطفى من كل المائين .

(١) حديث « الصلاة المأثورة في ليلة السابع والعشرين من رجب » ذكر أبو موسى المديني في كتاب فضائل الأيام والأيام النبال : أن أبا عبد الحميد الجباري روى عن طريق الحاكم أبي عبد الله من رواية محمد بن الفضل عن أنس من أسمره وأحمد بن الفضل وأبان ضيفان جدا والحديث منكر . (٢) حديث « من أحيا ليلي العيدين لم يميت قلبه يوم تموت القلوب » أخرجه إسماعيل طيف من حديث أبي أمامة ، (٣) حديث أبي هريرة « من صام يوم سبعة وعشرين من رجب كتب الله له صيام ستين شهراً وهو اليوم الذي هبط فيه جبريل على محمد صلى الله عليه وسلم » رواه أبو موسى المديني في كتاب فضائل الأيام والأيام من رواية دبر بن حوشب عنه . (٤) حديث أنس « إذا سلم يوم الجمعة سلمت الأيام وإذا سلم شهر رمضان سلمت السنة » فهم في الباب الخامس من الصلاة فذكر يوم الجمعة فقط وقد رواه محمد بن أبي حنبل في الضعفاء وأبو نعيم في الحلية من حديث حافة وهو ضيف .



فهرس

الجزء الأول

من إحياء علوم الدين

محمدة

- ب ترجمة الإمام الغزالي
د ترجمة الإمام العراقي
١ خطبة الكتاب
٢ كتاب العلم وفيه سبعة أبواب
الباب الأول في فضل العلم والتعليم وشواهد من النقل والعقل
فضيلة العلم
٨ فضيلة العلم
٩ فضيلة التعلم
١٢ في الشواهد العقلية
١٣ الباب الثاني في العلم المحمود والمذموم وأقسامهما وأحكامهما وفيه بيان ما هو فرض عين وما هو فرض كفاية وبيان أن موقع الكلام والفقه من علم الدين إلى أي حد هو رفيع من علم الآخرة
بيان العلم الذي هو فرض عين
١٩ بيان العلم الذي هو فرض كفاية
٢٩ الباب الثالث فيما يمدد العامة من العلوم المسمودة وليس منها وفيه بيان الوجه الذي قد يكون به بعض العلوم مذموماً ، بيان تديل أسامي العلوم وهو الفرق والعلم والفنوسيد والتذكير والحكمة وبيان القدر المحمود من العلوم الشرعية والقدر المذموم منها . بيان علة ذم العلم المذموم
٣١ بيان ما يدل من ألقاظ العلوم
٣٨ بيان القدر المحمود من العلوم المسمودة
٤١ الباب الرابع في سبب إقبال الخلق على علم الخلاف وتفصيل آفات المناظرة والجدل وشروط إباحتها
٤٢ بيان التلبس في تفسيه هذه المناظرات بمماردات الصحابة ومفاوضات السلف رحمهم الله تعالى
٤٥ بيان آفات المناظرة وما يتولد منها من مهلكات الأخلاق
٤٨ الباب الخامس في آداب التعلم والمعلم أما المتعلم

محمدة

- فأدابه ووظائفه الظاهرة وكثيراً ولكن لم ينظم تمثار بقها في عشر جمل
٥٥ بيان وظائف المحدث المعلم
٥٨ الباب السادس في آفات العلم وبيان علامات علماء الآخرة والعلاء السوء
٨٢ الباب السابع في العقل وشرفه وحقيقته وأقسامه . بيان شرف العقل
٨٥ بيان حقيقة العقل وأقسامه
٨٧ بيان تفاوت النفوس في العقل
٨٩ كتاب قواعد العقائد وفيه أربعة فصول
الفصل الأول في ترجمة عقيدة أهل السنة في كل من الشهادتين الخ
٩٤ الفصل الثاني في وجه التدريج إلى الإرشاد وتربيت درجات الاعتقاد
١٠٤ الفصل الثالث من كتاب قواعد العقائد في لوازم الأدلة للعقيدة التي رجحناها بالآثار وفيها أركان أربعة
١٠٥ فأما الركن الأول من أركان الإيمان في معرفة ذات الله سبحانه وتعالى وأن الله تعالى واحد ومداره على عشرة أصول
١٨ الركن الثاني العلم بصفات الله تعالى ومداره على عشرة أصول
١١٠ الركن الثالث العلم بأفعال الله تعالى ومداره على عشرة أصول
١١٤ الركن الرابع في السميات وتصديقه عليه السلام وفيها آخره ومداره على عشرة أصول
١١٦ الفصل الرابع في الإيمان والإسلام وما بينهما من الاتصال والانفصال وما يتطرق إليه من الزيادة والنقصان ووجه احتناء الملف فيه وفيه ثلاث مسائل مسألة اختلقوا في أن الإسلام هو الإيمان أو غيره الخ

صحيفة

صحيفة

- ١٢٠ مسألة فإن كنت فقد اتفق السلف على أن الإيمان يزيد وينقص الخ
- ١٢١ مسألة فإن قلت ما وجه قول السلف أنا مؤمن لأن شاء الله الخ
- ١٢٥ كتاب أسرار الطهارة
- وهو الكتاب الثالث من ربيع العبادات
- ١٢٨ القسم الأول في طهارة الخبث والنظر فيه يتعلق بالمرآة والمرآة به والإزالة الطرف الأول في المرآة
- الطرف الثاني في المرآة به
- ١٣٠ الطرف الثالث في كيفية الإزالة القسم الثاني طهارة الأحداث ومنها الوضوء والفسل والعهم ويتقدمها الاستنجاء باب آداب قضاء الحاجة
- ١٣٢ كيفية الاستنجاء
- كيفية الوضوء
- ١٣٥ فضيلة الوضوء
- ١٣٦ كيفية الفسل
- كيفية التيمم
- ١٣٧ القسم الثالث في النظافة والتنظيف عن الفضلات الطاهرة وهي نوحان أو ساخ وأجزاء
- النوع الأول الأوساخ والرطوبات المترسعة وهي ثمانية
- ١٤٠ النوع الثاني فبا يحدث في البدن من الأجزاء وهي ثمانية
- ١٤٥ كتاب أسرار الصلاة ومهماتها وفيه سبعة أبواب
- ١٤٦ الباب الأول في فضائل الصلاة والسجود واجتماع الأذان وغيرها
- فضيلة الأذان
- فضيلة المكتوبة
- ١٤٧ فضيلة إتمام الأركان
- ١٤٨ فضيلة الجماعة

- ١٤٩ فضيلة السجود
- ١٥٠ فضيلة الخشوع
- ١٥١ فضيلة المسجد وموضع الصلاة
- ١٥٢ الباب الثاني في كيفية الأعمال الظاهرة من الصلاة والبداءة بالتكبير وما قبله
- ١٥٣ القراءة
- ١٥٤ الركوع ولواحقه
- السجود
- ١٥٥ التشهد
- ١٥٦ الختميات
- ١٥٧ تمييز الفرائض والسنن
- ١٥٩ الباب الثالث في الشروط الباطنة من أعمال القلب الخ
- بيان اشراط الخشوع وحضور القلب
- ١٦١ بيان المعاني الباطنة التي تتم بها حياة الصلاة
- ١٦٣ بيان الدواء البافع في حضور القلب
- ١٦٥ بيان تفصيل ما ينبغي أن يصير في القلب عند كل ركن وشروط من أعمال الصلاة
- ١٧١ حكايات وأخبار في صلاة الخاشعين
- ١٧٣ الباب الرابع في الإمامة والقعدة الخ
- ١٧٨ الباب الخامس في فضل الجمعة وآدابها وسننها وشروطها
- فضيلة الجمعة
- ١٧٩ بيان شروط الجمعة
- وأما السنن الخ
- ١٨٠ بيان آداب الجمعة على ترتيب العادة وهي عشر جملة
- ١٨٥ بيان الآداب والسنن الخارجة عن الترتيب السابق الذي يعم جميعها وهي سبعة أمور
- ١٨٨ الباب السادس في مسائل معروفة أهمها البلوى، ويحتاج المرید إلى معرفتها
- ١٩٢ الباب الرابع في التواضع من الصلوات وفيه أربعة أقسام

مضيفة

- ١٩٧ القسم الأول ما يتكرر بشكر الأوامر والقبائل وهي ثمانية
- ١٩٧ القسم الثاني ما يتكرر بشكر الأساييم
- ٢٠٠ القسم الثالث ما يتكرر بشكر السنين
- ٢٠٣ القسم الرابع من التراغل ما يتعلق بأسياب مريحة ولا يتعلق بالمواقيت وهي تسعة
- ٢٠٨ كتاب أسرار الزكاة وفيه أربعة فصول
- ٢٠٩ الفصل الأول في أنواع الزكاة وأسباب وجوبها
- النوع الأول زكاة النعم
- ٢١٠ النوع الثاني زكاة الماشرات
- النوع الثالث زكاة النقدين
- ٢١١ النوع الرابع زكاة التجارة
- النوع الخامس الزكاز والمعدن
- النوع السادس في صدقة الفطر
- ٢١٢ الفصل الثاني في الأداء وشروطه الباطنة والظاهرة
- ٢١٣ بيان دقائق الآداب الباطنة في الزكاة
- الوظيفة الأولى أي من الوظائف التي على مرشد طريق الآخرة فهم وجوب الزكاة الخ
- ٢١٥ الوظيفة الثانية في وقت الأداء
- الوظيفة الثالثة الإسرار
- ٢١٦ الوظيفة الرابعة أن يظهر حيث يعلم أن في إظهاره ترغيباً للناس الخ
- الوظيفة الخامسة أن لا يفسد صدقة بالمخ والأذى
- ٢١٨ الوظيفة السادسة أن يستعمر العطلة
- الوظيفة السابعة أن يلتفت من ماله أجود وأحب إليه وأجله وأطيبه
- ٢١٩ الوظيفة الثامنة أن يطلب لصدقة من تزكو به الصدقة الخ
- ٢٢١ الفصل الثالث في القايض وأسباب استحقاقه ووظائف قبضه
- بيان أسباب الاستحقاق

مضيفة

- ٢٢٧ بيان وظائف القايض
- ٢٢٥ الفصل الرابع في صدقة التطوع ونفعها وآداب أخذها وإعطائها
- بيان فضيلة الصدقة
- ٢٢٧ بيان إخفاء الصدقة وإظهارها
- ٢٣٠ بيان الأفضل من أخذ الصدقة أو الزكاة
- كتاب أسرار الصوم وفيه ثلاثة فصول
- ٢٣٢ الفصل الأول في الواجبات والسنن الظاهرة والقوازم بافساده
- أما الواجبات الظاهرة تسعة
- ٢٣٣ لوازم الإنظار أربعة
- ٢٣٤ الفصل الثاني في أسرار الصوم وشروطه الباطنة
- ٢٣٧ الفصل الثالث في التطوع بالصيام وترتيب الأوراد فيه
- ٢٣٩ كتاب أسرار الحج وفيه ثلاثة أبواب
- الباب الأول وفيه فصلان
- الفصل الأول في فضائل الحج ونفعياته
- البيت ومكة والمدينة حرسهما الله تعالى وشهد الرجال إلى المساجد
- فضيلة الحج
- ٢٤١ فضيلة البيت ومكة المشرفة
- فضيلة المقام بمكة حرمها الله وكرامته
- ٢٤٣ فضيلة المدينة الشريفة على سائر البلاد
- ٢٤٥ الفصل الثاني في شروط وجوب الحج ومحة أركانه واجباته ومخطواته
- ٢٤٦ الباب الثاني في ترتيب الأعمال الظاهرة من أول السفر إلى الرجوع وهي عشرة جل
- الجملة الأولى في السير من أول الخروج إلى الإحرام وهي ثمانية
- ٢٤٨ الجملة الثانية في آداب الإحرام من الميقات إلى دخول مكة وهي خمسة

صحيفة

- ٢٩٤ الباب الأول في فضيلة الذكر وعادته على
الجملة والتفصيل من الآيات والأخبار
والآثار
- ٢٩٦ فضيلة مجالس الذكر
- ٢٩٧ فضيلة التهليل
- ٢٩٨ فضيلة التسليم والتحميد وبقية الأذكار
- ٣٠٣ الباب الثاني في آداب الدعاء وفضله
وفضل بعض الأدعية مأثورة وفضيلة
الاستغفار والصلاة على رسول الله
صلى الله عليه وسلم . فضيلة الدعاء
- ٣٠٤ آداب الدعاء وهي عشرة
- ٣٠٩ فضيلة الصلاة على رسول الله صلى الله
عليه وسلم وفضله
- ٣٠٩ فضيلة الاستغفار
- ٣١٣ الباب الثالث في أدعية مأثورة ومعربة
إلى أسبابها وأربابها ما يستحب أن يدعو
بها المرء صباحاً ومساءً وبفضل كل صلاة
- ٣١٤ دعاء عائشة رضي الله عنها
- دعاء فاطمة رضي الله عنها
- دعاء أبي بكر الصديق رضي الله عنه
- ٣١٥ دعاء بريدة الأسلمي رضي الله عنه
- دعاء قبيصة بن الحارث
- دعاء أبي الهيثم رضي الله عنه
- دعاء الخليل إبراهيم عليه الصلاة والسلام
- دعاء عيسى صلى الله عليه وسلم
- دعاء الحضر عليه السلام
- دعاء معروف الكرخي رضي الله عنه
- دعاء عتبة الغلام
- دعاء آدم عليه الصلاة والسلام
- ٣١٧ دعاء علي بن أبي طالب رضي الله عنه
- دعاء ابن المعتز وهو سليمان التيمي
- وتسبيحاته رضي الله عنه
- دعاء إبراهيم بن آدم رضي الله عنه

صحيفة

- ٢٩٩ الجملة الثالثة في آداب دخول مكة إلى
الطواف وهي ستة
- ٣٥٠ الجملة الرابعة في الطواف الخ
- ٣٥٢ الجملة الخامسة في السعي
- ٣٥٣ الجملة السادسة في الوقوف وما قبله
- ٣٥٥ الجملة السابعة في بقية أعمال الحج بعد
الوقوف من المبيت والرمي والنحر
والحلق والطواف
- ٣٥٧ الجملة الثامنة في صفة العمرة وما بعدها
إلى طواف الوداع
- ٣٥٨ الجملة التاسعة في طواف الوداع
- الجملة العاشرة في زيارة المدينة وآدابها
- ٣٦١ فصل في سنن الرجوع من السفر
- الباب الثالث في الآداب الدقيقة والأعمال
الباطنية
- بيان دقائق الآداب وهي عشرة
- ٣٦٥ بيان الأعمال الباطنة ووجوبها لإخلاص
في التبة وطريق الاعتبار بالمعاقد
الشريفة وكيفية الافتكار فيها والتذكر
لأسرارها ومعانيها من أول الحج إلى آخره
- ٣٧٧ كتاب آداب تلاوة القرآن
وفيه أربعة أبواب
- الباب الأول في فضل القرآن وأهله وذم
المقصرين في تلاوته
- فضيلة القرآن
- ٣٧٤ في ذم تلاوة الغافلين
- ٣٧٥ الباب الثاني في ظاهر آداب التلاوة
وهي عشرة
- ٣٨٠ الباب الثالث في أعمال الباطن في التلاوة
وهي عشرة
- ٣٨٨ الباب الرابع في فهم القرآن وتفسيره
بالرأى من غير نقل
- ٣٩٣ كتاب الأذكار والله عز وجل
وفيه خمسة أبواب

مصحف

٣١٨ الباب الرابع في أدعية مأثورة عن النبي
صلى الله عليه وسلم وعن أصحابه وعن
الله عنهم مدونة الأسانيد منتخبة من
جملة ما جمعه أبو طالب المكي وابن
خزيمة وابن منذر رحمهم الله
٣٢١ أنواع الاستعاذة المأثورة عن النبي
صلى الله عليه وسلم
٣٢٣ الباب الخامس في الأدعية المأثورة
عند حدوث كل حادث من المحوادث
٣٢٩ كتاب ترتيب الأوراد وتفصيل إحياء
الليل وهو الكتاب العاشر من إحياء
علوم الدين وبه اختتام ربع العبادات
وفيه بابان
٣٣٠ الباب الأول في فضيلة الأوراد وترتيبها
وأحكامها

مصحف

٣٣٠ فضيلة الأوراد وبيان أن المواظبة عليها
هي الطريق إلى الله تعالى
٣٣١ بيان أعداد الأوراد وترتيبها
٣٣٢ بيان أوراد الليل والنهار
٣٤٨ بيان اختلاف الأوراد باختلاف
الأحوال
٣٥١ الباب الثاني في الأسباب الميسرة لقيام
الليل وفي الليالي التي يستحب إحيائها
وفي فضيلة إحياء الليل وما بين العاشين
وكيفية قسمة الليل
٣٥١ فضيلة إحياء ما بين العاشين
٣٥٣ فضيلة إحياء الليل
٣٥٦ بيان الأسباب التي بها يتيسر قيام الليل
٣٥٩ بيان طرق القسمة لأجزاء الليل
٣٦١ بيان الليالي والأيام الفاضلة

تم الفهرس



المكتبة الوطنية الإسلامية

